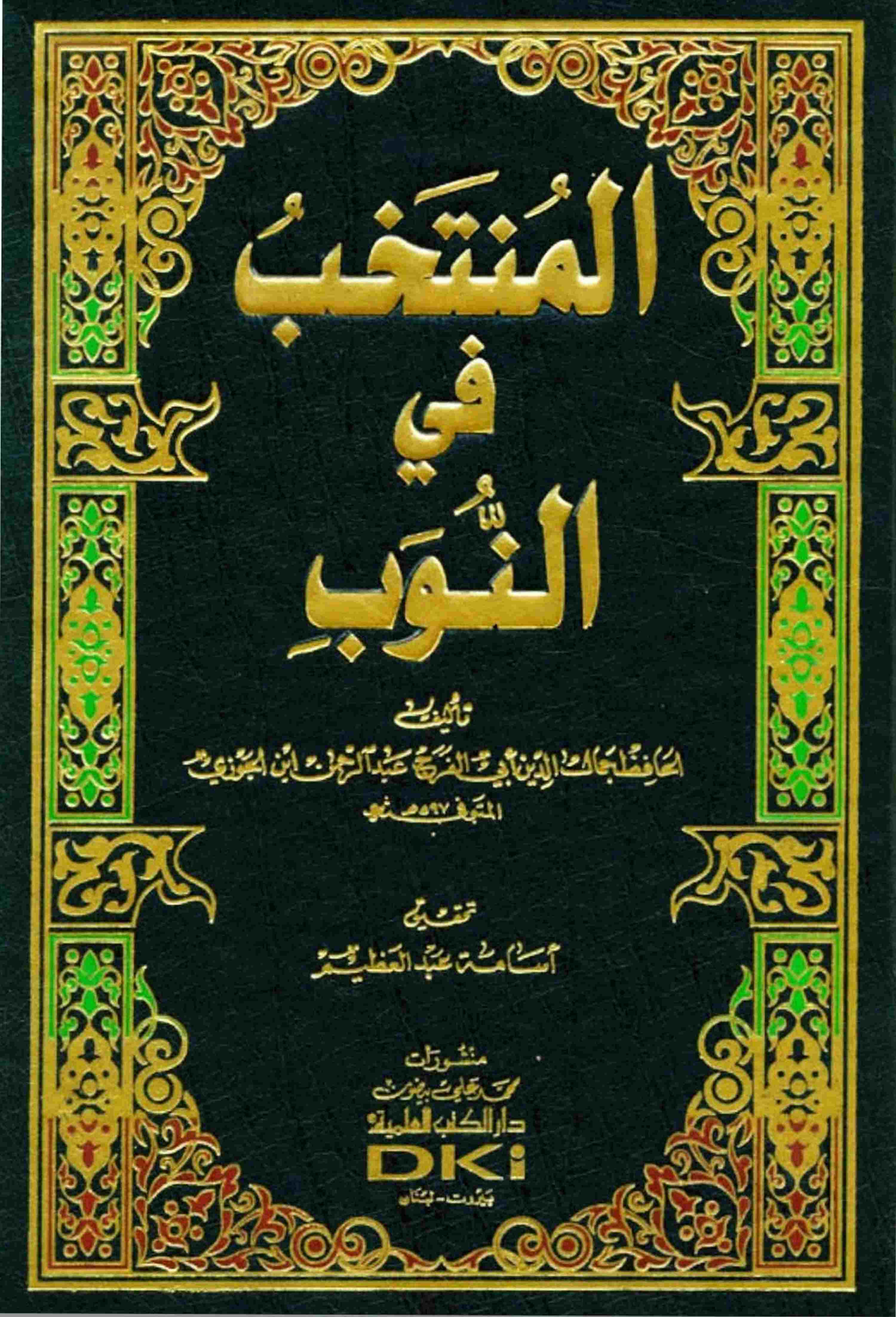

المُنتَخَبُ
في
النُّوَبِ
تأليف
الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي
المتوفى ٥٩٧ هـ
تحقيق
أسامة عبد العظيم
منشورات
محمد علي بيضون
دار الكتب العلمية
DKi
بيروت - لبنان

تنبيه!

الاسم الصحيح للكتاب هو: "منتخب المنتخب"

(وهو مفهومٌ أيضا مِنْ مقدمة ابن الجوزي!)

أمّا **"المنتخب في النوب"** - وهو أصل كتابنا هذا - فما زال مخطوطاً ولمْ يُطبع بَعْدُ.

وقد راسلْتُ الدار الناشرة منذ زمنٍ؛ عساهم يصححون اسمَ الكتاب في الطبعات القادمة..

والكتاب به تحريفات وسقطات، والمحقق - غفر الله له - اعتمد على نسخة خطية واحدة! - **مع أن الكتاب له نُسخ خطية قد تتجاوز العشر نسخ!** -، وقال إنها أزهرية، وهي تُركية!

مع العلم أنَّ هناك نسخة خطية للكتاب بالمكتبة الأزهرية، وبنفس البيانات التي ذكرها المحقق، وبنفس الوصف، ولكنه لم يعتمد عليها! بل أخذ بياناتها فقط، واعتمد على نسخة أخرى.....

أخوكم/ أحمد أبوزيد

aakamel18@gmail.com



تأليف

الحافظ جمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي

المتوفى ٥٩٧ هـ

تحقيق

أسامة عبد العظيم



أسسها محمد علي بيضون سنة 1971 بيروت - لبنان
Est. by Mohammad Ali Baydoun 1971 Beirut - Lebanon
Établie par Mohamad Ali Baydoun 1971 Beyrouth - Liban

الكتاب : المنتخب في النُّوَب

Title : AL-MUNTAHAB FĪ AL-NUWAB

THE EXEGESIS OF
SOME SELECTED VERSES OF
THE HOLY QUOR'AN

التصنيف : تفسير قرآن

Classification: Exegesis of the Holy Quor'an

المؤلف : جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي (ت ٥٩٧ هـ)

Author : Jamaluddine Abou Al-Faraj Ibn Al-Jawzi (D. 597H.)

المحقق : أسامة عبد العظيم

Editor : Oussama Abdul 'Azim

الناشر : دار الكتب العلمية - بيروت

Publisher : Dar Al-Kotob Al-Ilmiyah - Beirut

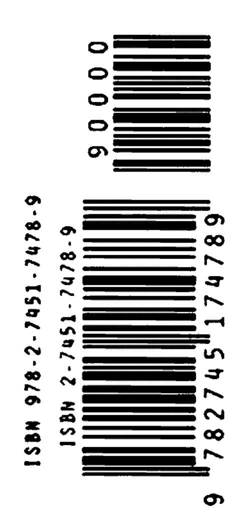
Pages	528	عدد الصفحات
Size	17* 24 cm	قياس الصفحات
Year	2012 A.D. -1433 H.	سنة الطباعة
Printed in : Lebanon		بلد الطباعة : لبنان
Edition : 1st		الطبعة : الأولى

http://www.al-ilmiyah.com info@al-ilmiyah.com sales@al-ilmiyah.com baydoun@al-ilmiyah.com

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Est. by Mohamad Ali Baydoun
1971 Beirut - Lebanon

Aramoun, al-Quebbah, Dar Al-Kotob Al-ilmiyah Bldg.
Tel : +961 5 804 810/11/12
Fax: +961 5 804813
P.o.Box: 11-9424 Beirut-Lebanon, Riyad al-Soloh Beirut 1107 2290

عرمون، القبة، مبنى دار الكتب العلمية
هاتف: ٠/١١/١٢‏‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١
فاكس: ‎+٩٦١ ٥ ٨٠٤٨١٣
ص.ب: ١١-٩٤٢٤ بيروت-لبنان
رياض الصلح-بيروت ١١٠٧٢٢٩٠



بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تحقيق
أسامة عبد العظيم

وبه نستعين

الحمد لله نستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيدا.

أرسله بين يدي الساعة بشيرا ونذيرا، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا، فهدى به من الضلالة، وبصر به من العمى، وأرشد به من الغيّ، وفتح به أعينا عميا، وآذانا صما، وقلوبا غلفا، فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد بالله حق جهاده، وعبد ربه حتى أتاه اليقين من ربه.

أما بعد: فإن الله عز وجل خص أمتنا بحفظ القرآن والعلم، وقد كان مَنْ قبلنا يقرؤون كتبهم من الصحف، ولا يقدرون على الحفظ، فلما جاء عُزَيْرٌ فقرأ التوراة من حفظه، فقالوا: هذا ابن الله، فكيف نقوم بشكر من خَوَّلَنَا أن ابن سبع سنين منا يقرأ القرآن عن ظهر قلب، ثم ليس في الأمم ممن ينقل عن نبيه أقواله وأفعاله على وجه يحصل به الثقة إلا نحن، فإنه يروي الحديث منا خالف

عن سالف، وينظرون في ثقة الراوي إلى أن يصل الأمر إلى رسول الله، وسائر الأمم يروون ما يذكرونه عن صحيفة لا يدرى من كتبها، ولا يعرف من نقلها، وهذه منحة عظيمة منحها الله لهذه الأمة.

فكان كل فرد من مخلصي هذه الأمة وعلمائها يتنافس مع غيره في أخذ نصيبه من الميراث، ويسابق الآخرين للاشتراك في أداء الرسالة، وكان العلامة المحقق والفهامة المدقق فريد عصره ووحيد دهره جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي ابن الجوزي القرشي، رحمه الله رحمة واسعة، واحدا منهم، فقد جاهد في سبيل الله بلسانه وقلمه وألّف في شتى الفنون.

ومن أهم الكتب التي وصلت إلينا هو كتاب "المنتخب في النوب"، وهو كتاب تفرد به العلامة ابن الجوزي، فقال في مقدمته:

(فَإِنِّي لَمَّا رَسَمْتُ كِتَابِي الْمَوْسُومَ بـ " الْمُنْتَخَبِ فِي النُّوَبِ "، فَتَمَّ بَدِيعَ الرَّصْفِ، مَلِيحَ الْوَصْفِ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْتَخِبَ عُيُونَهُ، وَأَتَخَيَّرَ أَبْكَارَهُ لا عِوَنَهُ).

وقال: (هذا الكتاب هو الذي وضعته للكلام على الآيات على الترتيب، كل آية تليق أن تقرأ نوبة، فإن أهملت ذكر بعض الآيات اللائقة، فلنيابة أختها عنها، وقد أكملتها مائة نوبة).

فقد انتقى من بحار التفسير مائة مسألة أبدع فيها وأمتع، وقدم للقارئ كتاب رائع في التفسير والزهد والموعظة يجب ألا تخلو مكتبات العلم منه.

اللهم اجعل القرآن العظيم لقلوبنا ضياء، ولأسقامنا دواء، ولذنوبنا ممحصا، وعن النار مخلصا، واجعلنا من أهل القرآن الذين هم أهلك وخاصتك يا رب العالمين.

مقدمة

حول علم التفسير

التفسير فى اللغة:

التفسير هو الإيضاح والتبيين، ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان آية [٣٣] : ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ .. أى بياناً وتفصيلاً، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف، قال في القاموس: "الفسر: الإبانة وكشف المغطى كالتفسير، والفعل: كضرب ونصر".

وقال فى لسان العرب: "الفسر: البيان فسَّر الشيء يُفسِّره - بالكسر ويَفسُره - بالضم فسراً. وفسَّره أبانه. والتفسير مثله ... ثم قال: الفسر كشف المغطى، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ... ".

وقال أبو حيان فى البحر المحيط: " ... ويُطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق، قال ثعلب: تقول: فسرتُ الفرس: عرَّيته لينطلق فى حصره، وهو راجع لمعنى الكشف، فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجرى".

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يُستعمل لغة فى الكشف الحسِّى، وفى الكشف عن المعانى المعقولة، واستعماله فى الثانى أكثر من استعماله فى الأول.

التفسير فى الاصطلاح:

يرى بعض العلماء: أن التفسير ليس من العلوم التى يُتكلف لها حد، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية، ويُكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله، أو أنه المبيِّن لألفاظ القرآن ومفهوماتها.

ويرى بعض آخر منهم: أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية، أو المَلَكات الناشئة من مزاولة القواعد، فيتكلَّف له التعريف، فيذكر فى

ذلك علوماً أخرى يُحتاج إليها فى فهم القرآن، كاللغة، والصرف، والنحو، والقراءات . . . وغير ذلك.

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلَّفوا الحد للتفسير، وجدناهم قد عرَّفوه بتعاريف كثيرة، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه.

فقد عرَّفه أبو حيان فى البحر المحيط بأنه: "علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن، ومدلولاتها، وأحكامها الإفرادية والتركيبية، ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب، وتتمات لذلك".

ثم خرَّج التعريف فقال: "فقولنا: "علم"، هو جنس يشمل سائر العلوم، وقولنا: "يُبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن"، هذا هو علم القراءات، وقولنا: "ومدلولاتها" أي مدلولات تلك الألفاظ، وهذا هو علم اللغة الذى يُحتاج إليه فى هذا العلم، وقولنا: "وأحكامها الإفرادية والتركيبية"، هذا يشمل علم التصريف، وعلم الإعراب، وعلم البيان، وعلم البديع، وقولنا: "ومعانيها التى تُحمل عليها حالة التركيب"، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة، وما دلالته عليه بالمجاز، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يُحمل على الظاهر وهو المجاز، وقولنا: "وتتمات لذلك"، هو معرفة النَّسْخ وسبب النزول، وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن، ونحو ذلك".

وعرَّفه الزركشى بأنه: "علم يُفهم به كتاب الله المُنَزَّل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج أحكامه وحكمه".

وعرَّفه بعضهم بأنه: "علم يُبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد، من حيث دلالته على مراد الله تعالى، بقدر الطاقة البشرية".

والناظر لأول وهلة فى هذين التعريفين الأخيرين، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان فى علم التفسير، والحق أنهما داخلان فيه، وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات، كقراءة: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ثَمَّ رَأَيْتَ نَعِيمًا وَمُلْكًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾﴾ [الإنسان: ٢٠]- بضم الميم وإسكان اللام، فإن معناها مغاير

لقراءة مَن قرأ: "ومَلِكاً كبيراً" - بفتح الميم وكسر اللام. وكقراءة ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ﴾ [البقرة:٢٢٢] - بالتسكين، فإن معناها مغاير لقراءة مَن قرأ: "يطَّهَّرن" - بالتشديد، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآنى فى المصحف، فمثلاً قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ [الملك: ٢٢]- بوصل "أمَّن"، يغاير فى المعنى: ﴿أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا﴾ [النساء: ١٠٩]- بفصلها، فإن المفصولة تفيد معنى "بل" دون الموصولة.

وعرَّفه بعضهم بأنه: "علم نزول الآيات، وشؤونها، وأقاصيصها، والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيها ومدنيها، ومُحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامها، ومُطلقها ومُقيدها، ومُجملها ومُفسَّرها، وحلالها وحرامها، ووعدها ووعيدها، وأمرها ونهيها، وعِبَرها وأمثالها".

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البَشرية، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى، وبيان المراد.

التأويل فى اللغة:

التأويل: مأخوذ من الأول وهو الرجوع، قال فى القاموس: "آل إليه أولاً ومآلا: رجع، وعنه: ارتد . . . ثم قال: وأوَّل الكلام تأويلاً وتأوَّله: دبَّره وقدَّره وفسَّره، والتأويل: عبارة الرؤيا".

وقال فى لسان العرب: "الأول: الرجوع، آل الشئ يؤول أولاً ومآلاً رجع، وآول الشئ: رجعه، وأُلت عن الشئ: ارتددت، وفى الحديث: "مَن صام الدهر فلا صام ولا آل" أى: ولا رجع إلى خير . . . ثم قال: وأوَّل الكلام وتأوَّله: دبَّره وقدَّره. وأوَّله وتأوَّله: فسَّره . . . الخ".

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية، فكأن المؤوِّل أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعانى.

وقيل: التأويل مأخوذ من الإيالة وهى السياسة، فكأن المؤوِّل يسوس

الكلام ويضمه فى موضعه - قال الزمخشرى فى أساس البلاغة: "آل الرعية يؤولها إيالة حسنة، وهو حسن الإيالة، وائتالها، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم، أى سائس محتكم".

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد فى كثير من آياته على معان مختلفة، فمن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران آية [٧] : ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .. فهو فى هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين. وقوله فى سورة النساء آية [٥٩] : ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ .. فهو فى هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير. وقوله فى سورة الأعراف آية [٥٣] : ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُۥ ۚ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُۥ﴾ .. وقوله فى سورة يونس آية [٣٩] : ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُۥ ۚ﴾ .. فهو فى الآيتين بمعنى وقوع المخبر به. وقوله فى سورة يوسف آية [٦] : ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ﴾ .. وقوله فيها أيضاً آية [٣٧] : ﴿قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ .. وقوله فى آية [٤٤] منها: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ﴾ .. وقوله فى آية [٤٥] منها: ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ﴾ .. وقوله فى آية [١٠٠] منها: ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰىَ مِن قَبْلُ﴾ .. فالمراد به فى كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا. وقوله فى سورة الكهف آية: [٧٨] : ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ ..

وقوله أيضاً فى آية [٨٢] : ﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ .. فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التى أتى بها الخضر من خرق السفينة، وقتل الغلام، وإقامة الجدار، وبيان السبب الحامل عليها، وليس المراد منه تأويل الأقوال.

التأويل فى الاصطلاح:

١- التأويل عند السَّلَف: التأويل عند السلَف له معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء أوافق ظاهره أو خالفه، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله: "إن العلماء يعلمون تأويله" يعنى القرآن، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى

تفسيره: "القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا" وبقوله: "اختلف أهل التأويل فى هذه الآية" . . . ونحو ذلك، فإن مراده التفسير.

ثانيهما: هو نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً، كان تأويله نفس الشئ المخْبَر به، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام، كالتفسير، والشرح، والإيضاح، ويكون وجود التأويل فى القلب، واللسان، وله الوجود الذهنى واللفظى والرسمى، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج، سواء أكانت ماضية أم مستقبلة، فإذا قيل: طلعت الشمس، فتأويل هذا هو نفس طلوعها، وهذا فى نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التى نزل بها، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى.

٢ - التأويل عند المتأخرين من المتفقهة، والمتكلمة، والمحدِّثة والمتصوِّفة: التأويل عند هؤلاء جميعاً: هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف. فإذا قال أحد منهم: هذا الحديث - أو هذا النص - مُؤوَّل أو محمول على كذا. قال الآخر: هذا نوع تأويل والتأويل يحتاج إلى دليل. وعلى هذا فالمتأوِّل مطالَب بأمرين:

الأمر الأول: أن يبيِّن احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادَّعى أنه المراد.

الأمر الثانى: أن يبيِّن الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح، وإلا كان تأويلاً فاسداً، أو تلاعباً بالنصوص.

قال فى جمع الجوامع وشرحه: "التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح، فإن حُمِل عليه لدليل فصحيح، أو لما يُظَن دليلاً فى الواقع ففاسد، أو لا شيء فلعب لا تأويل".

وهذا أيضاً هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات، فمنهم مَن ذم التأويل ومنعه، ومنهم مَن مدحه وأوجبه.

الفرق
بين التفسير والتأويل

اختلف العلماء فى بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافاً نتجت عنه أقوال كثيرة، وكأن التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصى حله على كثير من الناس إلا مَن سعى بين يديه شعاع مِن نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: "نبغ فى زماننا مفسِّرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه". وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ما ذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول: "وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب".

وهذه هى أقوال العلماء أبسطها بين يدى القارئ ليقف على مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمى ويرضيه.

١ - قال أبو عبيدة وطائفة معه: "التفسير والتأويل بمعنى واحد" فهما مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ - قال الراغب الأصفهانى: "التفسير أعم من التأويل، وأكثر ما يُستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا. والتأويل يُستعمل أكثره فى الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها. والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل فى الجمل، فالتفسير إما أن يُستعمل فى غريب الألفاظ كـ "البَحيرة والسائبة والوصيلة" أو فى تبين المراد وشرحه كقوله تعالى فى الآية [٤٣] من سورة البقرة: ﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . . وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو

قوله تعالى فى الآية [٣٧] من سورة التوبة: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِى ٱلْكُفْرِ﴾ .. وقوله تعالى فى الآية [١٨٩] من سورة البقرة: ﴿وَلَيْسَ ٱلْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا۟ ٱلْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ .

وأما التأويل: فإنه يُستعمل مرة عاماً، ومرة خاصاً، نحو "الكفر" المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة. و "الإيمان" المستعمل فى التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة، وإما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ "وجد" المستعمل فى الجد والوجد والوجود".

٣ - قال الماتوردى: "التفسير: القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ - قال أبو طالب الثعلبى: "التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير "الصراط" بالطريق، و "الصَّيِّب" بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى فى الآية [١٤] من سورة الفجر: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾﴾ .. تفسيره أنه من الرصد، يقال: رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله التحذير من التهاون بأمر الله، والغفلة عن الأهبة والاستعداد للعرض عليه. وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة" وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٥ - قال البغوى ووافقه الكواشى: "التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها، غير مخالف للكتاب والسُّنَّة من طريق الاستنباط. والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها" بتصرف. وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٦ - قال بعضهم: "التفسير ما يتعلق بالرواية، والتأويل ما يتعلق بالدراية"، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٧ - التفسير هو بيان المعانى التى تُستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعانى التى تُستفاد بطريق الإشارة. فالنسبة بينهما التباين، وهذا هو المشهور عند المتأخرين، وقد نبَّه إلى هذا الرأى الأخير العلامة الآلوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع: "وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العُرْف فكل الأقوال فيه - ما سمعتها وما لم تسمعها - مخالف للعُرْف اليوم إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية، ومعارف سبحانية، تنكشف من سجف العبارات للسالكين، وتنهل من سُحُبِ الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير ذلك.

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة، فلا أظنك فى مرية من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما، فلا أراد ترضى إلا أن فى كل كشف إرجاعاً، وفى كل إرجاع كشفاً، فافهم".

هذه هى أهم الأقوال فى الفرق بين التفسير والتأويل. وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التطويل.

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال: هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان. والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع، وخالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معاني القرآن الكريم.

وأما التأويل.. فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل.

والترجيح يعتمد على الاجتهاد، ويُتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب، واستعمالها بحسب السياق، ومعرفة الأساليب العربية، واستنباط المعانى من كل ذلك. قال الزركشى: "وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل: التمييز بين المنقول والمستنبط، ليحيل على الاعتماد فى المنقول، وعلى النظر فى المستنبط".

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة، وبما شاهدوه من أسباب النزول، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد.

أشهر المفسِّرين من الصحابة:

وقد عَدَّ السيوطى رحمه الله فى "الإتقان" مَن اشتهر بالتفسير من الصحابة وسمَّاهم، وهم: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأُبَىّ ابن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، رضى الله عنهم أجمعين.

وهناك مَن تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء: كأنس بن مالك، وأبى هريرة، وعبد الله بن عمر، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعائشة، وغير أن ما نُقِل عنهم فى التفسير قليل جداً، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول فى القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولاً، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير، تفاوتوا قِلَّة وكثرة، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يَرد عنهم فى التفسير إلا النزر اليسير، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم وفاتهم، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات، أضف إلى ذلك وجودهم فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله، واقفون على أسراره، عارفون بمعانيه وأحكامه، مكتملة فيهم خصائص العروبة، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم فى التفسير غير كبيرة.

أما علىّ بن أبي طالب رضى الله عنه، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية عنه فى التفسير، والسبب فى ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه، وتأخر وفاته إلى زمن

كثرت فيه حاجة الناس إلى مَن يُفسِّر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام، ودخول كثير من الأعاجم فى دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية.

وكذلك كثرت الرواية فى التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأُبَىّ بن كعب، لحاجة الناس إليهم، ولصفات عامة مكَّنت لهم ولعلىّ ابن أبى طالب أيضاً فى التفسير، هذه الصفات هى: قوتهم فى اللغة العربية، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبى صلى الله عليه وسلم مخالطة مكَّنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن، نستثنى من ذلك ابن عباس، فإنه لم يلازم النبى عليه الصلاة والسلام فى شبابه. لوفاة النبى عليه الصلاة والسلام وهو فى سن الثالثة عشرة أو قريب منها، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروى لهم.

أما باقى العشرة وهم: زيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعرى، وعبد الله ابن الزبير، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلَّت عنهم الرواية ولم يصلوا فى التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون.

لهذا نرى الإمساك عن الكلام فى شأن أبى بكر، وعمر، وعثمان، وزيد ابن ثابت، وأبى موسى الأشعرى، وعبد الله بن الزبير، ونتكلم عن علىّ، وابن عباس، وابن مسعود، وأُبَىّ بن كعب، نظراً لكثرة الرواية عنهم فى التفسير، كثرة غذَّت مدارس الأمصار على اختلافهم وكثرتها.

ولو أنَّا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس، ثم عبد الله بن مسعود، ثم علىّ بن أبي طالب، ثم أُبَىّ بن كعب وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة، بما يتناسب مع مشربه فى التفسير ومنحاه الذى نحاه فيه.

١- عبد الله بن عباس:

هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأمه لُبابة الكبرى بنت

الحارث بن حَزَن الهلالية. ولدَ والنبى عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشِعْب بمكة. فأُتِىَ به النبى عليه الصلاة والسلام فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين، ولازم النبى عليه الصلاة والسلام فى صغره، لقرابته منه، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتُوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة، وقيل: خمس عشرة، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح، وله من العمر سبعون سنة. مات بالطائف ودُفن بها، وتولى وضعه فى قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوَّى عليه التراب: مات واللهِ اليوم حَبْرُ هذه الأُمَّة.

مبلغه من العلم:

كان ابن عباس يُلقَّب بالحَبْر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظيمة من الاجتهاد والمعرفة بمعنى كتاب الله، ولذا انتهت إليه الرياسة فى الفتوى والتفسير، وكان عمر رضى الله عنه يُجلسه فى مجلسه مع كبار الصحابة ويُدنيه منه، وكان يقول له: إنك لأصبح فتياننا وجهاً، وأحسنهم خُلُقاً، وأفقههم فى كتاب الله. وقال فى شأنه: ذاكم فتى الكهول، إنَّ له لساناً سئولاً، وقلباً عقولاً. وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شئ يقول لا أتكلم حتى يتكلموا. وكان عمر رضى الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه، يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتابه "أُسد الغابة" عن عبيد الله بن عتبة قال: "إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال لابن عباس: إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل، فأنت لها ولأمثالها، فكان يأخذ بقوله، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه" قال عبيد الله: وعمر هو عمر فى حذقه واجتهاده لله وللمسلمين، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "كان عمر يُدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وَجَدَ فى نفسه وقال: لِمَ يُدخل هذا معنا وإنَّ لنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من أعلمكم، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال: ما تقولون فى قوله: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ ؟ فقال بعضهم: أُمرنا أن نحمد الله ونستغفره

إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً، فقال لى: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ما تقول؟ قلت: هو أَجَلُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، قال: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ .. فقال عمر: لا أعلم منها إلا ما تقول".

وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره. وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: "نِعْمَ ترجمان القرآن ابن عباس". وقال فيه عطاء: "ما رأيت أكرم من مجلس ابن عباس، أصحاب الفقه عنده، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشِعر عنده، يصدرهم كلهم من واد واسع". وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة: "كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ما سبقه، وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم، ونسب، وتأويل، وما رأيتُ أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه، ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه، ولقد كان يجلس يوماً ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوماً التأويل، ويوماً المغازى، ويوماً الشعر، ويوماً أيام العرب، ولا رأيت عالماً قط جلس إليه إلا خضع له، وما رأيت سائلاً قط سأله إلا وجد عنده علماً". وقيل لطاووس: لزمتَ هذا الغلام - يعنى ابن عباس - وتركتَ الأكابر من أصحاب رسول الله، قال: إنى رأيت سبعين رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارءوا فى أمرٍ صاروا إلى قول ابن عباس". وروى الأعمش عن أبى وائل قال: "استخلف علىّ عبد الله بن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة - وفى رواية: سورة النور - ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا" وكان علىّ بن أبى طالب يُثنى على تفسير ابن عباس ويقول: "كأنما ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق".

وبالجملة.. فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعُلِّم، ولم يشتغل بالإمارة إلا قليلاً لَّما استعمله علىّ على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه. علماً، وفصاحة، وسعة اطلاع فى نواح

علمية مختلفة، ولا سيما فهمه لكتاب الله تعالى. وخير ما يُقال فيه ما قاله ابن عمر رضى الله عنهما: "ابن عباس أعلم أُمَّة محمد بما نزل على محمد".

أسباب نبوغه:

ونستطيع أن نُرجِع هذه الشهرة العلمية، وهذا النبوغ الواسع الفيَّاض، إلى أسباب نجملها فيما يلي:

أولاً: دعاء النبى صلى الله عليه وسلم له بقوله: "اللَّهم علِّمه الكتاب والحكمة"، وفى رواية أخرى: "اللَّهم فقِّهه فى الدين، وعلِّمه التأويل"، والذى يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور، يرى أثر هذه الدعوة النبوية، يتجلى واضحاً فيما صح عن ابن عباس رضى الله عنه.

ثانياً: نشأته فى بيت النبوة، وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد التمييز، فكان يسمع منه الشئ الكثير، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التى نزلت فيها آيات القرآن.

ثالثاً: ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم، يأخذ عنهم ويروى لهم، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن، وتواريخ التشريع، وأسباب النزول، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتحدَّث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال: "وجدتُ عامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار، فإن كنتُ لآتى الرجلَ فأجده نائماً، لو شئتُ أن يُوقَظ لى لأُوقظ، فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ، وأسأله عما أريد، ثم أنصرف".

رابعاً: حفظه للغة العربية، ومعرفته لغريبها، وآدابها، وخصائصها، وأساليبها، وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذى يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربى.

خامساً: بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان ما يعتقد أنه الحق، دون أن يأبه لملامة لائم ونقد ناقد، ما دام يثق بأن الحق فى جانبه، وكثيراً ما انتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن، ولكن لم ترق إليه همة نقده، بل ما لبث أن رجع إلى قوله، واعترف بمبلغ علمه، فقد روى

أن رجلاً أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ [الأنبياء: ٣٠] . . فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرنى، فذهب فسأله فقال: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، ففتق هذه بالمطر، وهذه بالنبات، فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال: قد كنتُ أقول: ما يعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن قد علمتُ أنه أوتِىَ علماً.

هذه هى أهم الأسباب التى ترجع إليها شهرة ابن عباس فى التفسير، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة، منبع الهداية، ومصدر النور، وما وهبه الله من قريحة وقَّادة، وعقل راجح، ورأى صائب، وإيمان راسخ، ودين متين.

قيمة ابن عباس فى تفسير القرآن:

تتبين قيمة ابن عباس فى التفسير، من قول تلميذه مجاهد: "إنه إذا فسَّرَ الشئ رأيتَ عليه النور"، ومن قول علىّ رضى الله عنه يُثنى عليه فى تفسيره: "كأنما ينظر إلى الغيب من سِتر رقيق"، ومن قول ابن عمر: "ابن عباس أعلم أُمَّة محمد بما نزل على محمد"، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه فى فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله، فكثيراً ما توجَّه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم، ويكشف لهم عما عَزَّ عليهم فهمه من كتاب الله تعالى. ففى قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم، أى الأجلين قضى موسى؟ هل كان ثمان سنين؟ أو أنه أتم عشراً؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس، الذى هو بحق ترجمان القرآن، ليسأله عما أشكل عليه، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره، عن سعيد بن جبير قال: "قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلاً تتبع العلم، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى؟ قلت: لا أعلم، وأنا الآن قادم على حَبْر العرب - يعنى ابن عباس - فسائله عن ذلك، فلما قدمتُ مكة سألتُ ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى، فقال ابن عباس: قضى أكثرهما وأطيبهما، إنَّ النبى إذا وعد لم يُخلف، وقال سعيد: فقدمتُ العراق فلقيتُ اليهودى فأخبرته فقال: صدق وما أُنزِلَ على موسى، هذا واللهِ العالِم.

وهذا عمر رضى الله عنه يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله، فلما لم يجد عندهم جواباً مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها، وكان يثق بتفسيره، وفى هذا يروى الطبرى: "أن عمر سأل الناس عن هذه الآية - يعنى: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [البقرة: ٢٦٦] . . . الآية، فما وجد أحداً يشفيه، حتى قال ابن عباس وهو خلفه: يا أمير المؤمنين؛ إنى أجد فى نفسى منها شيئاً، فتلفت إليه فقال: تحوَّل ههنا، لِمَ تُحقِّر نفسك؟ قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله عزَّ وجل فقال: أيودَ أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج ما يكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء، فأفسده كله، فحرقه أحوج ما كان إليه".

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ۝١﴾ وجوابه بالجواب المشهور عنه، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن، ولا يدركها إلا مَن نفحه الله بنفحة مِن روحه، وكثيراً ما ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل المُلْهَم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق، كما وصفه علىّ رضى الله عنه، الأمر الذى جعل الصحابة يُقدِّرون ابن عباس ويثقون بتفسيره، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس. استقرت هذه المدرسة بمكة، ثم غذَّت بعلمها الأمصار المختلفة، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجاباً وتقديراً، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر. وقد صرَّح الزركشي بأن قول ابن عباس مُقدَّمٌ على قول غيره من الصحابة عند تعارض ما جاء عنهم فى التفسير.

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب:

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد، مع الاستعانة فى ذلك بمعرفة

أسباب النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن. وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع التى أُجملت فى القرآن وفُصِّلت فى التوراة أو الإنجيل، ولكن كما قلنا فيما سبق: إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيِّقة، تتفق مع القرآن وتشهد له، أما ما عدا ذلك مما يتنافى مع القرآن، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية، فكان ابن عباس لا يقبله ولا يأخذ به.

اتهام الأستاذ جولدزيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب:

وإنَّا لنجد فى كتاب "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" مبلغ اتهام مؤلفه "جولدزيهر" لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب، مخالفاً ما ورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم" ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس، ثم نرد عليه بعد ذلك.

قال: "وكثيراً ما يُذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى، الذى أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب، وعن ميمونة ابنته أنها قال: كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام، ويختم التوراة فى ستة، يقرؤها نظراً، فإذا كان يوم ختمها، حشد لذلك ناس، وكان يقول: كان يُقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة".

"ومن بين المراجع العلمية المفضَّلة عند ابن عباس، نجد أيضاً كعب الأحبار اليهودى، وعبد الله بن سلام، وأهل الكتاب على العموم، ممن حذر الناس منهم، كما أن ابن عباس نفسه فى أقواله حذَّر من الرجوع إليهم، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب، ورفْعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم.. ولم تكن التعاليم الكثيرة التى أمكَن أن يستقيها ابن عباس، والتى اعتبرها من تلك الأمور التى يُرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية، فقد كان يسأل كعباً عن التفسير

الصحيح لأُم القرآن للمرجان مثلاً، وقد رأى الناس فى هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم - على العموم - فى القرآن وفى كلام الرسول (صلى الله عليه وسلم) وما فيهما من المعانى الدينية، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم" اهـ.

هذه هى عبارة الأستاذ "جولدزيهر" فى كتابه، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص.

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأى، حيث يقول فى "فجر الإسلام": "وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الإسلام، فتسرَّب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار، ودخلت فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم. روُى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: "إذا حدَّثكم أهل الكتاب فلا تُصدِّقوهم ولا تُكذبِّوهم" ولكن العمل كان على غير ذلك، وأنهم كانوا يُصدِّقونهم وينقلون عنهم".

فالأستاذ "جولدزيهر"، والأستاذ أحمد أمين، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يأبهوا لنهى الرسول صلى الله عليه وسلم، فصدَّقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير فى التفسير، وأن اللون اليهودى قد صبغ مدارس التفسير القديمة، وبالأخص مدرسة ابن عباس، بسبب اتصالهم بمن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب.

رد هذا الاتهام:

والحق أن هذا غلو فى الرأى، وبُعْدٌ عن الصواب، فابن عباس - كما قلت آنفاً - وغيره من الصحابة، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام، ولكن لم يكن سؤالهم عن شئ يمس العقيدة. أو يتصل بأُصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية، ولم يكونوا يقبلون كل ما يُروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك، بل كانوا يُحكِّمون دينهم وعقلهم، فما اتفق مع الدين والعقل صدَّقوه، وما خالف ذلك نبذوه، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقَّفوا

فيه. وبهذا المسلك يكون الصحابة - رضوان الله عليهم - قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام: "حدِّثوا عن بنى إسرائيل ولا حرَجَ"، وقوله: "لا تُصدِّقوا أهل الكتاب ولا تُكذِّبوهم" فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار، لما فيها من العظة والاعتبار، بدليل قوله بعد ذلك: "فإن فيهم أعاجيب". والثانى محمول على ما إذا كان المُخْبَر به من قِبَلهم محتملاً، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه، لأنه ربما كان صدقاً فى نفس الأمر فيكون فى التكذيب به حَرَج، وربما كان كذباً فى نفس الأمر فيكون فى التصديق به حَرَج، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه، كما أفاده ابن حجر ونبَّه عليه الشافعى رضى الله عنه - وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات فى التفسير.

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضى الله عنه لنفسه أن يُحدِّث عن بنى إسرائيل بمثل هذا التوسع الذى يجعله مخالفاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيراً على ذلك، فقد روى البخارى فى صحيحه عنه أنه قال: "يا معشر المسلمين؛ تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أُنزِلَ على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله، تقرأونه لم يشب، وقد حدَّثكم الله أن أهل الكتاب بدَّلوا ما كتب الله، وغيَّروا بأيديهم الكتاب فقالوا: ﴿هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] . . أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلَم عنِ مسَاءَلتهم، وَلَا واللهِ مَا رأين رجلاً منهم قط يسألكم عن الذى أُنزِلَ عليكم".

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم:

كان ابن عباس رضى الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم، ليُستعان به على فهم معانى الألفاظ القرآنية الغريبة، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى فى الآية [٤٧] من سورة

النحل: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾ فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له: هذه لغتنا، التخوُّف: التنقص، فيقول له عمر: هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها؟ فيقول له: نعم، ويروى قول الشاعر:

تَخَوَّفَ الرَّحلُ منها تامِكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ

فيقول عمر رضى الله عنه لأصحابه: "عليكم بديوانكم لا تضلُّوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعانى كلامكم".

غير أن ابن عباس، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره، فكثيراً ما كان يُسئل عن القرآن فينشد فيه الشعر، وقد رُوى عنه الشئ الكثير من ذلك، وأوعب ما رُوى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وقد بلغت مائتى مسألة، أخرج بعضها ابن الأنبارى فى كتاب "الوقف والابتداء"، وأخرج الطبرانى بعضها الآخر فى معجمه الكبير، وقد ذكر السيوطى فى "الإتقان" بسنده مبدأ هذا الحوار الذى كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها، فقال: "بيَّنا عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر: بنا إلى هذا الذى يجترئ على تفسير القرآن بما لا علم له به، فقاما إليه فقالا: إنَّا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا، وتأتينا بمصادقة من كلام العرب، فإنَّ الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين، فقال ابن عباس: سلانى عما بدا لكما، فقال نافع: أخبرنى عن قول الله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ۝٣٧﴾ [المعارج: ٣٧]؟ قال: العزون: حلق الرفاق، قال: هل تَعرف العرب ذلك؟. قال: نعم، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول:

فجاءوا يهرعون إليه حتى يكونوا حول منبره عزينا؟

قال: أخبرنى عن قوله: ﴿وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [المائدة: ٣٥]؟ قال: الوسيلة: الحاجة، قال: وهل تعرف العرب ذلك؟ قال: نعم، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليكِ وسيلة إن يأخذوكِ تكحلى وتخضبى

إلى آخر المسائل وأجوبتها، وهى تدل على قوة ابن عباس فى معرفته بلغة

العرب، وإلمامه بغريبها، إلى حد لم يصل إليه غيره، مما جعله - بحق - إمام التفسير فى عهد الصحابة، ومرجع المفسِّرين فى الأعصر التالية للعصر الذى وُجِد فيه، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص، حتى لقد قيل فى شأنه: "إنه هو الذى أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن".

هذا وقد بيَّن لنا ابن عباس رضى الله عنه، مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية فى التفسير، وحضَّ عليها مَن أراد أن يتعرف غريب القرآن، فقد روى أبو بكر الأنبارى عنه أنه قال: "الشعر ديوان العرب، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه".

وروى ابن الأنبارى عنه أيضاً أنه قال: "إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر، فإن الشعر ديوان العرب".

فابن عباس رضى الله عنه كان يرى رأى عمر فى ضرورة الرجوع إلى الشعر الجاهلى، للاستعانة به على فهم غريب القرآن، بل وكان أكثر الصحابة إلماماً بهذه الناحية وتطبيقاً لها.

وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومَن يليهم، إلى أن حدثت خصومة بين متورعى الفقهاء وأهل اللغة، فأنكروا عليهم هذه الطريقة، وقالوا: إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلاً للقرآن، وقالوا: كيف يجوز أن يُحتج بالشعر على القرآن، وهو مذموم فى القرآن والحديث.

والحق أن هذه الخصومة التى جَدَّت فى الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأى، من جعل الشعر أصلاً للقرآن، بل هو فى الواقع، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر، لأن الله تعالى يقول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣]، وقال: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾﴾ [الشعراء: ١٩٥] .. ولهذا لم يتحرج المفسرِّون إلى يومنا هذا من الرجوع إلى الشَعِّر الجاهلى للاستشهاد به على المعنى الذى يذهبون إليه فى فهم كلام الله تعالى.

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة:

روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى التفسير ما لا يُحصَى كثرة،

وتعددت الروايات عنه، واختلفت طرقها، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضى الله عنه فيها قول أو أقوال، الأمر الذى جعل نُقَّاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التى جاوزت الحد وقفة المرتاب، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدَّلوا العُدول، وجرَّحوا الضُعفاء، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفاً. وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس، ثم أُبيِّن مبلغها من الصحة أو الضعف، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضى الله عنه. وهذه هى أشهر الطرق:

أولها: طريق معاوية بن صالح، عن علىّ بن أبى طلحة، عن ابن عباس، وهذه هى أجود الطرق عنه، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه: "إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها علىّ بن أبى طلحة، لو رحل رجل فيها إلى مصر قاصداً ما كان كثيراً". وقال الحافظ ابن حجر: "وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث، رواها عن معاوية بن صالح، عن علىّ ابن أبي طلحة، عن ابن عباس، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمد عليها فى صحيحه فيما يُعلِّقه عن ابن عباس".

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى، وابن أبى حاتم، وابن المنذر بوسائط بينهم وبين أبى صالح. ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعاً يحتجون بعلىّ بن أبى طلحة.

طعن بعض النُّقَّاد على هذه الطريق:

ولقد حاول بعض النُقَّاد أن يُقلل من قدر هذه الطريق فقال: "إن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد ابن جبير" وعلى هذا فهى طريق منقطعة لا يُركَن إليها، ولا يُعوَّل عليها.

وقد استغل هذا القول الأستاذ "جولدزيهر" فى كتابه "المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن" فقال: "صرَّح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل - علىّ بن أبى طلحة - لم يسمع التفسير الذى تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس، وهكذا فإنه حتى فى صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً، يحكم النقدة

المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له" اهـ.

تفنيد هذا الطعن:

ويظهر لنا أن الأستاذ "جولدزيهر"، جهل أو تجاهل ما رَدَّ به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذى لا قيمة له، فقد فنَّد ابن حجر هذا النقد بقوله: "بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك".

وقال صاحب إيثار الحق: "وقال الذهبى فى الميزان: وقد روى - يعنى علىّ بن أبى طلحة عن ابن عباس تفسيراً كثيراً ممتعاً، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يُقبل". وجملة القول: فهذه أصح الطرق فى التفسير عن ابن عباس، وكفى بتوثيق البخارى لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها.

ثانيها: طريق قيس بن مسلم الكوفى، عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير، عن ابن عباس. وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين، وكثيراً ما يُخَرِّج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه.

ثالثها: طريق ابن إسحاق صاحب السير، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد بن ثابت، عن عكرمة، أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، وهى طريق جيدة وإسنادها حسن وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيراً، وأخرج الطبرانى منها فى معجمه الكبير.

رابعها: طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير، تارة عن أبى مالك، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس. وإسماعيل السدى مُختلَف فيه، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة، وهو تابعى شيعى. وقال السيوطى: "روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشعبة، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط بن نصر، وأسباط لم يتفقوا عليه، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى" وابن جرير يُورد فى تفسيره كثيراً من تفسير السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس، ولم يُخَرِّج منه ابن أبى حاتم شيئاً، لأنه التزم أن يُخَرِّج أصح ما ورد.

خامسها: طريق عبد الملك بن جريج، عن ابن عباس، وهى تحتاج إلى دقة فى البحث، ليُعرف الصحيح منها والسقيم، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع، وإنما روى ما ذُكِرَ فى كل آية من الصحيح والسقيم، فلم يتميز فى روايته الصحيح من غيره، وقد روى عن ابن جرير هذا جماعة كثيرة، منهم بكر من سهل الدمياطى، عن عبد الغنى بن سعيد، عن موسى بن محمد، عن ابن جريج عن ابن عباس، ورواية بكر بن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر. ومنهم محمد بن ثور، عن ابن جريج، عن ابن عباس، روى ثلاثة أجزاء كبار. ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج، روى جزءاً وهو صحيح متفق عليه.

سادسها: طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأنه وإن وَثَّقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة، لأنه روى عنه ولم يلقه، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة، عن أبى روق، عن الضحَّاك، فضعيفة لضعف بشر، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبى حاتم. وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفاً، لأن جويبر شديد الضعف متروك، ولم يُخَرِّج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذه الطريق شيئاً، إنما خرَّجها ابن مردويه، وأبو الشيخ بن حبان.

سابعها: طريق عطية العوفى، عن ابن عباس، وهى غير مرضية، لأن عطية ضعيف ليس بواهٍ، وربما حَسَّن له الترمذى. وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير، وابن أبى حاتم كثيراً.

ثامنها: طريق مقاتل بن سليمان الأزدى الخراسانى، وهو المفسِّر الذى يُنسب إلى الشافعى أنه قال فيه: "إن الناس عيال عليه فى التفسير" ومع ذلك فقد ضَعَّفوه، وقالوا: إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما. وقد كذَّبه غير واحد، ولم يُوثِّقه أحد، واشتُهِر عنه التجسيم والتشبيه، وتكلم عنه السيوطى. فقال: "إن الكلبى يُفَضَّل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية" وقد سُئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال: "لا تنظروا فيه، فقال السائل: ما أصنع به؟ قال: ادفنه" - يعنى التفسير - وقال أحمد بن حنبل: لا يعجبنى أن أروى

عن مقاتل بن سليمان شيئاً. وبالجملة فإن مَن استحسن تفسير مقاتل كان يُضَعِّفه ويقول: "ما أحسن تفسيره لو كان ثقة".

تاسعها: طريق محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس، وهذه أو هى الطرق. والكلبى مشهور بالتفسير، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشيع كما قال عدى فى الكامل، ومع ذلك فإن وُجِدَ مَن قال: رضوه فى التفسير، فقد وُجِد مَن قال: أجمعوا على ترك حديثه، وليس بثقة، ولا يُكتب حديثه، واتهمه جماعة بالوضع. وممن يروى عن الكلبى، محمد بن مروان السدى الصغير، وقد قالوا فيه: إنه يضع الحديث، وذاهب الحديث متروك، ولهذا قال السيوطى فى الإتقان: "فإن انضم إلى ذلك - أى طريق الكلبى - رواية محمد بن مروان السدى الصغير، فهى سلسلة الكذب"، وقال السيوطى أيضاً فى كتابه الدر المنثور (جـ ٦ ص ٤٢٣): "الكلبى: اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه: كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب.. ومع ضعف الكلبى فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفاً، وهو محمد بن مروان السدى الصغير" وكثيراً ما يخرج من هذه الطريق الثعلبى والواحدى.

هذه هى أشهر الطرق عن ابن عباس، صحيحها وسقيمها، وقد عرفتَ قيمة كل طريق منها، ومَن اعتمد عليها فيما جُمِع من التفسير عن ابن عباس رضى الله عنه.

التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته:

هذا.. وقد نُسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير فى التفسير، وطُبع فى مصر مراراً باسم "تنوير المقباس من تفسير ابن عباس" جمعه أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادى الشافعى، صاحب القاموس المحيط، وقد اطلعتُ على هذا التفسير، فوجدتُ جامعه يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند: "أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروى، قال: أخبرنا أبى، قال: أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازى، قال: أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروى، قال: أخبرنا على بن إسحاق السمرقندى، عن محمد بن مروان، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس".

وعند تفسير أول سورة البقرة، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله ابن المبارك، قال: حدثنا عليّ بن إسحاق السمرقندى عن محمد بن مروان، عن الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس.

وفى مبدأ كل سورة يقول: وبإسناده عن ابن عباس.

. . . وهكذا يظهر لنا جلياً، أن جميع ما روى عن ابن عباس فى هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدى الصغير، عن محمد بن السائب الكلبى، عن أبى صالح، عن ابن عباس، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدم. وحسبنا فى التعقيب على هذا ما روى من طريق ابن عبد الحكم قال: "سمعت الشافعى يقول: لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث" وهذا الخبر - إن صح عن الشافعى - يدلنا على مقدار ما كان عليه الوضّاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس، وليس أدل على ذلك، من أنك تلمس التناقض ظاهراً بين أقوال فى التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه. وسيأتى - عند الكلام عن الوضع فى التفسير - أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية فى الغالب، وإنما الشئ الذى لا قيمة له فيه، هو نسبته إلى ابن عباس.

أسباب الوضع على ابن عباس:

ويبدو أن السر فى كثرة الوضع على ابن عباس، هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يُكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وُضِع على غيره، أضف إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون، وكان من الناس مَن يتزلف إليهم، ويتقرَّب منهم بما يرويه لهم عن جدهم . . . وسنعرض إلى أسباب الوضع فى التفسير، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه، عند الكلام على منشأ الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى.

٢- عبد الله بن مسعود:

هو عبد الله بن مسعود بن غافل، يصل نسبه إلى مُضَر، ويُكنَّى بأبى عبد الرحمن الهذلى، وأُمه أُم عبد بنت عبد ود، من هذيل، وكان يُنسب إليها أحياناً

فيقال ابن أم عبد. كان رحمه الله خفيف اللحم، قصيراً، شديد الأُدْمة، أسلم قديماً. روى الأعمش، عن القاسم بن عبد الرحمن، عن أبيه قال: قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: "لقد رأيتنى سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا" وهو أول مَن جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأُوذى فى الله من أجل ذلك، ولما أسلم عبد الله ابن مسعود أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه فكان يخدمه فى أكثر شؤونه، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله، يلبسه إياه إذا قام، ويخلعه ويحمله فى ذراعه إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار، ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلج عليه داره بلا حجاب، حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال: "قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حيناً لا نرى ابن مسعود وأُمه إلا من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، لما نرى من كثرة دخوله ودخول أُمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له". وهاجر إلى الحبشة، ثم إلى المدينة، وصلى إلى القِبْلتين، وشهد بدراً، وأُحُداً، والخندق، وبيعة الرضوان، وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهو الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة، يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن علىّ قال: قال رسول صلى الله عليه وسلم: "لو كنتُ مؤمِّراً أحداً دون مشورة المؤمنين لأمَّرْتُ ابن أُم عبد". وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان، وقدم المدينة فى آخر عمره، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين، ودفُن بالبقيع ليلاً، تنفيذاً لوصيته بذلك، وكان عمره يوم وفاته، بضعاً وستين سنة.

مبلغه من العلم:

كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتابة الله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع منه القرآن، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال:

"قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: "اقرأ علىّ سورة النساء"، قال: قلت: أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال: "إنى أحب أن أسمعه من غيرى"، فقرأتُ عليه حتى بلغت: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا ﴿٤١﴾﴾ [النساء: ٤١] فاضت عيناه - صلى الله عليه وسلم". وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "من سَرَّه أن يقرأ القرآن رطباً كما أُنزِل، فليقرأه على قراءة ابن أُم عبد". وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتنى به، حتى إنه كره لزيد بن ثابت نسخ المصاحف فى عهد عثمان، وكان يرى أنه أولى منه بذلك، وقد قال فى هذا: "يا معشر المسلمين، أُعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمتُ وإنه لفى صلب رجل كافر"؟ - يريد زيد بن ثابت -. وعن مسروق أنه قال: "انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ستة: عمر، وعلىّ، وعبد الله بن مسعود، وأُبَىّ بن كعب، وأبى الدرداء، وزيد بن ثابت، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين: علىّ، وعبد الله"، وقيل لحذيفة: أَخْبِرنا برجل قريب السمت والدل والهَدْى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ عنه، فقال: "لا نعلم أحداً أقرب سمتاً ولا هَدْياً برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أُم عبد، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم، أن ابن أُم عبد أقربهم إلى الله وسيلة". ولما سيَّره عمر رضى الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها: "إنى قد بعثتُ عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلِّماً ووزيراً، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى".

وقد أقام رضى الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه، وهو معلمهم وقاضيهم، ومؤسس طريقتهم فى الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص، ولما قدم علىٌّ الكوفة، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا: يا أمير المؤمنين؛ ما رأينا رجلاً أحسن خُلُقاً، ولا أرفق تعليماً، ولا أحسن مجالسة، ولا أشد ورعاً من ابن مسعود، قال علىّ: "أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم"؟ قالوا: نعم، قال: "اللَّهم اشهد أنى أقول مثل ما

قالوا وأفضل". ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة، فالكل يشهد له ويُقدِّمه على غيره، وذلك فضل الله يؤتيه مَن يشاء من عباده.

قيمة ابن مسعود فى التفسير:

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال: "كان الرجل منا إذا تعلَّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن"، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه، وعن مسروق قال: "قال عبد الله - يعنى ابن مسعود -: والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناله المطايا لأتيته"، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله، وأسباب نزول الآيات، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقى عنتاً ومشقة، وقال مسروق: كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدِّثنا فيها ويفسِّرها عامة النهار، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى البحترى قال: قالوا لعلىٍّ: أخبرنا عن ابن مسعود، قال: علم القرآن والسُّنَّة ثم انتهى، وكفى بذلك علماً، وقال عقبة بن عامر: ما أدرى أحداً أعلم منه بما نزل على محمد ابن عبد الله، فقال أبو موسى: إن تقل ذلك، فإنه كان يسمع حين لا نسمع، ويدخل حين لا ندخل. وصح عن ابن مسعود أنه قال: أخذت من فىِّ رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة، وقال أبو وائل: لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال: لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم، ولو أنى أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته، قال أبو وائل: فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون، فما سمعت أحداً من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه . . . وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكروا عليه ذلك، بل وتحدَّثوا بمكانته فى العلم، ومقدار فهمه لكتاب الله، وعلَّل ذلك أبو موسى الأشعرى رضى الله

عنه، بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع، ويدخل حين لا يُؤذن لهم بالدخول، الأمر الذى جعله أوفر حظاً فى الأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وأعظم نصيباً من الاغتراف من منهل النبوة الفيَّاض، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود: ما ترك بعده مثله، لهى شهادة منه على مقدار علمه، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبالجملة فابن مسعود كما قيل: أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، وأعرفهم بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه، وقصصه وأمثاله، وأسباب نزوله، قرأ القرآن فأحلّ حلاله وحرَّم حرامه، فقيه فى الدين، عالِم بالسُّنَّة، بصير بكتاب الله.

الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة:

ابن مسعود أكثر مَن رُوِى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضى الله عنه، قال السيوطى فى الإتقان: وأما ابن مسعود فقد رُوِى عنه أكثر مما رُوِى عن علىّ، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظراً لوجوده بينهم، يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له، فمن رواته مسروق بن الأجدع الهمدانى، وعلقمة بن قيس النخعى، والأسود بن يزيد، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه. وسيأتى الكلام على هؤلاء جميعاً - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير فى عصر التابعين، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهى إلى ابن مسعود، نجدها مبثوثة فى كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به، ومنها ما يعتريه الضعف فى رجاله، أو الانقطاع فى إسناده، وقد تتبع العلماء النُقَّاد هذه الروايات، كما تتَّبعوا غيرها بالنقد تجريحاً وتعديلاً وهذه هى أشهر الطرق عن ابن مسعود:

أولاً: طريق الأعمش، عن أبى الضحى، عن مسروق، عن ابن مسعود. وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه.

ثانياً: طريق مجاهد، عن أبى معمر، عن ابن مسعود، وهذه أيضاً طريق

صحيحة لا يعتريها الضعف. وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه أيضاً.

ثالثاً: طريق الأعمش، عن أبى وائل، عن ابن مسعود. وهذه أيضاً طريق صحيحة يُخَرِّج البخارى منها، وكفى بتخريج البخارى شاهداً على صحته وصحة ما سبق.

رابعاً: طريق السدى الكبير، عن مرة الهمدانى، عن ابن مسعود. وهذه الطريق يُخَرِّج منها الحاكم فى مستدركه، ويصحح ما يُخَرِّجه. وابن جرير يُخَرِّج منها فى تفسيره كثيراً، وقد علمت فيما مضى قيمة السدى الكبير فى باب الرواية.

خامساً: طريق أبى روق، عن الضحاك، عن ابن مسعود، وابن جرير يُخَرِّج منها فى تفسيره أيضاً. وهذه الطريق غير مرضية، لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهى طريق منقطعة.

٣- علىّ بن أبى طالب:

هو أبو الحسن، علىّ بن أبى طالب بن عبد المطلب، القرشى الهاشمى، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصهره على ابنته فاطمة، وذُرِّيته صلى الله عليه وسلم منها. أُمه فاطمة بنت أسد بن هاشم. وهو أول هاشمى وُلِد من هاشميين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بنى هاشم، وهو أول مَن أسلم من الأحداث وصدَّق برسول الله صلى الله عليه وسلم. هاجر إلى المدينة. وموقفه من الهجرة مشهور، قيل: ونزل فيه قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ﴾ [البقرة: ٢٠٧] .. وقد شهد علىّ المشاهد كلها إلا تبوك، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلَفه على أهله، وله فى الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة، وقد أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم اللواء فى مواطن كثيرة، وقال يوم خيبر: "لأعطيَن الراية رجلاً يفتح الله على يديه، يُحب الله ورسوله، ويُحبه الله ورسوله"، ثم أعطاها لعلىّ رضى الله عنه، وآخاه رسول الله صلى الله عليه وسلم لَّما آخى بين أصحابه وقال له: "أنت أخى فى الدنيا والآخرة" وهو أحد العشرة المبشَّرين بالجنة، اجتمع فيه من الفضائل ما لم يحظ به غيره، فمن ورع فى الدين، إلى زهد فى الدنيا،

إلى قرابة وصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى علم جم وفضل غزير، وقد توفى رحمه الله فى رمضان سنة أربعين من الهجرة، مقتولاً بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى، وعمره ثلاث وستون سنة، وقيل غير ذلك.

مبلغه من العلم:

كان رضى الله عنه بحراً فى العلم، وكان قوى الحُجَّة، سليم الاستنباط، أُوتِيَ الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر، وكان ذا عقل قضائى ناضج، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأُمور، وكثيراً ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل، وقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن، ودعا له بقوله: "اللهم ثبِّت لسانه واهد قلبه"، فكان مُوفَّقاً ومُسدَّداً، فيصلاً فى المعضلات، حتى ضُرِب به المثل فقيل: "قضية ولا أبا حسن لها"، ولا عجب، فقد تربى فى بيت النبوة، وتغذَّى بلبان معارفها، وعَمَّته مشكاة أنوارها. روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة علىّ بن أبى طالب. وقيل لعطاء: أكان فى أصحاب محمد أعلم من علىّ؟ قال: لا، والله لا أعلمه، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "إذا ثبت لنا الشيء عن علىّ لم نعدل عنه إلى غيره".

والذى يرجع إلى أقضية علىّ رضى الله عنه وخطبه ووصاياه، يرى أنه قد وُهِبَ عقلاً ناضجاً، وبصيرة نافذة، وحظاً وافراً من العلم وقوة البيان.

مكانته من التفسير:

جمع علىّ رضى الله عنه إلى مهارته فى القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله، وفهمه لأسراره وخفى معانيه، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل، وقد رُوِى عن ابن عباس أنه قال: "ما أخذت من تفسير القرآن فعن علىّ بن أبى طالب".

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن علىّ رضى الله عنه أنه قال: "واللهِ ما نزلت آية إلا وقد علمتُ فيم نزلت، وأين نزلت، وإن ربى وهبَ لى قلباً عقولاً، ولساناً سؤولاً".

وعن أبى الطفيل قال: "شهدتُ علياً يخطب وهو يقول: سلونى، فوالله

لا تسألونى عن شئ إلا أخبرتكم، وسلونى عن كتاب الله، فواللهِ ما من آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار، أم فى سهل، أم فى جبل".

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال: "إن القرآن أُنزل على سبعة أحرف، ما منها حرف، إلا وله ظهر وبطن، وإن علىّ بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن".

وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيَّد فيهم.

الرواية عن علىّ ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية فى التفسير عن علىّ رضى الله عنه، كثرة جاوزت الحد، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النُقَّاد، وجعلهم يتتبعون الرواية عنه بالبحث والتحقيق، ليميزوا ما صح من غيره.

وما صح عن علىّ فى التفسير قليل بالنسبة لما وُضِع عليه، ويرجع ذلك إلى غُلاة الشيعة، الذين أسرفوا فى حبه فاختلقوا عليه ما هو برئ منه، إما ترويجاً لمذهبهم وتدعيماً له، وإما لظنهم الفاسد أن الإغراق فى نسبة الأقوال العلمية إليه يُعلى من قدره، ويرفع من شأنه العلمى. وأظن أن ما نُسب إلى علىّ من قوله: "لو شئتُ أن أُوْقِرَ سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت" لا أصل له، اللَّهم إلا فى أوهام الشيعة، الذين يغالون فى حبه، ويتجاوزون الحد فى مدحه. ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوُضَّاع بالكذب عليه، تلك الناحية هى نسبته إلى بيت النبوة، ولا شك أن هذه الناحية، تُكسب الموضوع قبولاً، وتعطيه رواجاً وذيوعاً على ألسن الناس، والحق أن كثرة الوضع على علىّ رضى الله عنه أفسدت الكثير من علمه، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته، أو من أصحاب ابن مسعود، كعبيدة السلمانى وشُريح، وغيرهما. وهذه أهم الطرق عن علىّ فى التفسير:

أولاً: طريق هشام، عن محمد بن سيرين، عن عبيدة السلمانى، عن علىّ. طريق صحيحة، يُخَرِّج منها البخارى وغيره.

ثانياً: طريق ابن أبى الحسين، عن أبى الطفيل، عن علىّ. وهذه طريق صحيحة، يُخرِّج منها ابن عيينة فى تفسيره.

ثالثاً: طريق الزهرى، عن علىّ زين العابدين، عن أبيه الحسين، عن أبيه علىّ. وهذه طريق صحيحة جداً. حتى عدَّها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقتين السابقتين نظراً لما ألصقه الضعفاء، والكذَّابون بزين العابدين من الروايات الباطلة.

٤- أُبَىّ بن كعب:

هو أبو المنذر، أو أبو الطفيل، أُبَىّ بن كعب بن قيس، الأنصارى الخزرجى، شهد العقبة وبدراً، وهو أول مَن كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة، وقد أثنى عليه عمر رضى الله عنه فقال: "أُبَىّ سيد المسلمين" وقد أُخْتُلِفُ فى وفاته على أقوال كثيرة، والأكثر على أنه مات فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

مبلغه من العلم:

كان أُبَىّ بن كعب سيد القُرَّاء، وأحد كُتَّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد قال فيه صلى الله عليه وسلم: "وأقرؤهم أُبَىّ بن كعب"، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبى صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج الترمذى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال: "إن النبى صلى الله عليه وسلم قال لأُبَىّ بن كعب: إن الله أمرنى أن أقرأ عليك: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ قال: آلله سمانى لك؟ قال: نعم، فجعل أُبَىّ يبكى".

وفى رواية أنه قيل لأُبَىّ: وفرحتَ بذلك؟ قال: وما يمنعنى وهو يقول: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝٥٨﴾ [يونس: ٥٨]. وروى الشعبى عن مسروق قال: "كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: عمر، وعلىّ، وعبد الله، وأُبَىّ، وزيد، وأبو موسى".

مكانته فى التفسير:

كان أُبَىّ بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعانى كتاب الله، هو أنه كان حَبْراً من أحبار اليهود، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما ورد فيها، وكونه من كُتَّاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه، ومُقَدَّم القرآن ومُؤخره، وناسخه ومنسوخه، ثم لا يُعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم، لهاذ كله عُدّ أُبَىّ بن كعب من المكثرين فى التفسير، الذين يُعتدَّ بما صح عنهم، ويُعوَّل على تفسيرهم.

الرواية عنه فى التفسير ومبلغها من الصحة:

كثرت الرواية عن أُبَىّ بن كعب فى التفسير وتعدَّدت طرقها، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد، فعدَّلوا وجرَّحوا، لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه - وهذه هى أشهر الطرق عنه:

أولاً: طريق أبى جعفر الرازى، عن الربيع بن أنس، عن أبى العالية، عن أُبَىّ رضى الله عنه. وهذه طريق صحيحة، وقد ورد عن أُبَىّ، نسخة كبيرة فى التفسير، يرويها أبو جعفر الرازى بهذا الإسناد إلى أُبَىّ، وقد خَرَّج ابن جرير وأبى حاتم منها كثيراً، وأخرج الحاكم منها أيضاً فى مستدركه، والإمام أحمد من مسنده.

ثانياً: طريق وكيع عن سفيان، عن عبد الله بن محمد بن عقيل، عن الطفيل بن أُبَىّ بن كعب، عن أبيه، وهذه يُخَرِّج منها الإمام أحمد فى مسنده، وهى على شرط الحسن، لأن عبد الله بن محمد بن عقيل وإن كان صدوقاً تكلم فيه من جهة حفظه، قال الترمذى فى سننه: "عبد الله بن محمد بن عقيل، هو صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قِبَل حفظه، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول: كان أحمد بن حنبل، وإسحاق بن إبراهيم، والحميدى، يحتجون بحديث عبد الله بن محمد بن عقيل قال محمد - يعنى البخارى -: وهو مقارب الحديث، ونص الحافظ الهيثمى فى مجمع الزوائد على أن حديثه حسن".

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم فى المستدرك: أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى، له حكم المرفوع، فكأنه رواه عن النبى صلى الله عليه وسلم، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول فى المستدرك: "ليعلم طالب الحديث، أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند" ولكن قيَّد ابن الصلاح، والنووى، وغيرهما، هذا الإطلاق، بما يرجع إلى أسباب النزول، وما لا مجال للرأى فيه، قال ابن الصلاح فى مقدمته ص (٢٤) : "ما قيل من أن تفسير الصحابى حديث مسند، فإنما ذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابى، أو نحو ذلك مما لا يمكن أن يؤخذ إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا مدخل للرأى فيه، كقول جابر رضى الله عنه: كانت اليهود تقول: مَن أتى امرأته من دُبُرها فى قُبُلها جاء الولد أحول، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة:٢٢٣] . . . الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على إضافة شئ إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمعدودة فى الموقوفات".

ولكنّا نجد الحاكم نفسه قد صرَّح فى "معرفة علوم الحديث" بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال: ومن الموقوفات ما حدثناه أحمد بن كامل بسنده عن أبى هريرة فى قوله: ﴿لَوَّاحَةٌ لِّلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾﴾ [المدثر: ٢٩] . . قال: تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحماً على عظم، قال: فهذا وأشباهه يُعدَ فى تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند، فإنما نقوله فى غير هذا النوع. . " ثم أورد حديث جابر فى قصة اليهود وقال: "وفهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف، فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند".

فالحاكم قيَّد فى "معرفة علوم الحديث" ما أطلق فى "المستدرك"، فاعتمد الناس ما قيَّد، وتركوا ما أطلق، وعلَّل السيوطى فى "التدريب" إطلاق الحاكم بأنه كان حريصاً على جمع الصحيح فى "المستدرك" حتى أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع، ثم اعترض بعد ذلك على الحاكم، حيث عَدَّ الحديث المذكور عن أبى هريرة من الموقوف، وليس كذلك؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وهذا لا مدخل للرأى فيه، فهو من قبيل المرفوع.

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج:

أولاً: تفسير الصحابى له حكم المرفوع، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول، وكل ما ليس للرأى فيه مجال، أما ما يكون للرأى فيه مجال، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانياً: ما حُكِمَ عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده اتفاقاً، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال.

ثالثاً: ما حُكِمَ عليه بالوقف، تختلف فيه أنظار العلماء:

فذهب فريق: إلى أن الموقوف على الصحابى من التفسير لا يجب الأخذ به لأنه لَمَّا لم يرفعه، عُلِم أنه اجتهد فيه، والمجتهد يُخطئ ويُصيب، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع إليه، لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولأنهم إن فسَّروا برأيهم فرأيهم أصوب، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله، إذ هم أهل اللسان، ولبركة الصحابة والتخلق بأخلاق النبوة، ولِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختُصوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التام والعلم الصحيح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة، وعبد الله بن مسعود، وابن عباس وغيرهم.

قال الزركشى فى "البرهان": "اعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل، وقسم لم يرد. والأول: إما أن يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم، أو الصحابة، أو رؤوس التابعين، فالأول يُبحث فيه عن صحة السند، والثانى يُنظر فى تفسير الصحابى، فإن فسَّره من حيث اللغة فهم أهل

اللسان فلا شك فى اعتماده، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلا شك فيه".

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره: " . . . وحينئذ إذا لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السُّنَّة، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك، لِمَا شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختُصوا بها، ولِمَا لهم من الفهم التامَ، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة، والخلفاء الراشدين، والأئمة المهتدين المهديين، وعبد الله ابن مسعود رضى الله عنهم".

وهذا الرأى الأخير هو الذى تميل إليه النفس، ويطمئن إليه القلب لِمَا ذُكر.

ترجمة المؤلف

١- اسمه ونسبه، وكنيته ولقبه:

هو جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزي القرشي التيمي البكري البغدادي الحنبلي.

كان والده علي صفارًا قد أنجب ثلاثة أبناء، وهم: عبد الله، وعبد الرحمن، وعبد الرازق، وقد توفي والده في أول سنة "٥١٤هـ" وقد أتم ولده عبد الرحمن الثالثة من عمره. ولقب جده جعفر بالجوزي نسبة إلى فرضة يقال لها: فرضة الجوز على شاطئ دجلة بالقرب من بغداد على الأرجح.

٢- مكان ولادته وتاريخها:

ولد عبد الرحمن بن الجوزي في أواخر عام "٥١٠هـ" في درب حبيب من نهر المعلى في الجانب الشرقي من بغداد المسمى الرصافة، كما أن الجانب الغربي يسمى الكوخ، يصل بينهما جسران على نهر دجلة.

٣- عصره وبيئته:

كان العراق تحت سلطان السلاجقة منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وقد شهد القرن السادس صراعًا وانقسامًا في البيت السلجوقي، مما أتاح للخلفاء العباسيين في بغداد استراداد شيء من سلطانهم.

وعاصر ابن الجوزي ستة من الخلفاء العباسيين، وهم على الترتيب: المسترشد "٥١٢-٥٢٩هـ"، والراشد "٥٢٩-٥٣٠هـ"، والمقتفي "٥٣٠-٥٥٥هـ"، والمستنجد "٥٥٥-٥٦٦هـ"، والمستضيء "٥٦٦-٥٧٢هـ"، والناصر "٥٧٢-٦٢٢هـ".

أما بغداد فقد فقدت في عهده شيئًا من محاسنها، وخيم الخراب على بعض أجزائها، بسبب الفتن والحروب والكوارث التي كانت تتعرض لها بين الفينة والأخرى؛ فقد حدث في حياة ابن الجوزي حريق كبير عام ٥١٠هـ، وزلزال عام ٥١١هـ، وحريق في دار السلطة عام ٥١٥هـ، وفتنة وحروب عام ٥١٧هـ، وزلزال عام ٥٣٨هـ، وزلزال آخر عام ٥٤٤هـ، وطوفان عظيم عام ٥٥٤هـ غرقت فيها دار ابن الجوزي وتلفت كتبه، ثم جاء الوباء والمجاعة عام ٥٧٤هـ؛ لكنها بقيت محافظة على مكانتها العلمية والأدبية، يقصدها العلماء من كل ناحية ليزدادوا علمًا. وحسبنا أن نعلم أن شيوخ ابن الجوزي قد بلغو تسعة وثمانين شيخًا، وهو لم يرحل من بغداد إلا مرتين إلى الحج: الأولى سنة ٥٤١هـ، والثانية سنة ٥٥٣هـ.

٤- نشأته وطلبه للعلم:

توفي والده وهو طفل صغير أتم السنة الثالثة من عمره، فكفلته عمته، وقامت بأعباء تربيته، والعناية به، فحملته إلى مسجد الشيخ أبي الفضل ابن ناصر الذي اعتنى به، وعلمه. يقول -رحمه الله- في "لفتة الكبد": "ولقد وفق لي شيخنا أبو الفضل ابن ناصر رحمه الله، وهو الذي تولى تسميعي الحديث من زمن الصغر، وهو الذي جعله الله تعالى سببًا لإرشادي إلى العلم؛ فإنه كان يجتهد معي، وكان يحملني إلى الشيوخ العوالي، وأنا لا أعلم ما يراه مني، ولا أدري ما العلم من الصغر، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، وأثبت لي ما أسمعت بخطه، وأخذ لي إجازات، وعنه فنلت منه معرفة الحديث والنقل، ولم أستفد من أحد كاستفادتي منه".

وهكذا نشأ ابن الجوزي شغوفًا بالعلم على اختلاف فنونه، يقول في صيد الخاطر: "إنني رجل حُبِّبَ إلي العلم من زمن الطفولة، فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد بل فنون، ثم لم تقتصر همتي في فن على بعضه بل أروم استقصاءه".

وقد سخر للعلم كل وقته وماله، قال: "فلما بلغت دفعوا لي عشرين دينارًا ودارين، وقالوا لي: هذه التركة كلها، فأخذت الدنانير، واشتريت بها

كتب العلم، وبعت الدارين، وأنفقت ثمنها في طلب العلم، ولم يبق لي شيء من المال".

لم تكن مسيرة ابن الجوزي العلمية سهلة، بل لاقى فيها الشدائد، لكن حلاوة العلم كانت تذلل له كل صعب، قال رحمه الله: ولقد كنت في حلاوة طلبي للعلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو. كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة، فأخرج إلى طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء؛ فكلما أكلت لقمة شربت عليها، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم، فأثمر ذلك عندي أني عرفت بكثرة سماعي لحديث وسير الرسول صلى الله عليه وسلم وأحواله وآدابه، وأحوال الصحابة وتابعيهم؛ فصرت في معرفة طريقة كابن أجود.

٥- شيوخه وحرصه على العلم:

تردد ابن الجوزي على علماء عصره ينهل من علمهم، حتى بلغ عدد شيوخه تسعة وثمانين شيخًا كسر كتابًا لذكرهم هو "مشيخة ابن الجوزي"؛ إلا أن أبرز شيوخه الذين تركوا أثرًا في شخصيته أربعة هم:

أ- محمد بن ناصر السلامي: أبو الفضل "٤٦٧-٥٥٠هـ"، الإمام المتحدث الحافظ، ربي يتيمًا في كفالة جده لأمه أبي حكيم الخبري، الذي لقنه القرآن، وسمعه الحديث، وقرأ ما لا يوصف كثرة، وحصل الأصول، وجمع وألف، وبعد صيته، وكان فصيحًا، مليح القراءة، قوي العربية، بارعًا في اللغة، جم الفضائل، ثقةً، ثبتًا، حسن الطريقة، متدينًا، فقيرًا متعففًا، نظيفًا نزهًا، وقف كتبه، ولم يعقب.

ب- علي بن عبيد بن نصر بن السري الزاغوني، أبو الحسن "٤٥٥-٥٢٧هـ"، العلامة الإمام شيخ الحنابلة، ذو الفنون، صاحب التصانيف، كان بحرًا من بحور العلم، يرجع إلى دين وتقوى، وزهد وعبادة، قال ابن الجوزي: صحبته زمانًا، وسمعت منه، وعلقت عنه الفقه والوعظ.

جـ- عبد الوهاب بن المبارك الأنماطي أبو البركات "٤٦٢-٥٣٨هـ"، الشيخ الإمام، الحافظ، المفيد، الثقة المسند، بقية السلف، قال السمعاني:

هو حافظ ثقة متقن واسع الرواية، دائم البشر، سريع الدمعة، حسن المعاشرة، خرج التخاريج، وجمع ما لا يوصف، ولعلعه ما بقي جزء إلا قرأه، وحصل نسخته، وقال أبو موسى المديني: هو حافظ عصره ببغداد، وقال ابن الجوزي: كنت أقرأ عليه وهو يبكي، فاستفدت ببكائه أكثر من استفادتي بروايته، وانتفعت به ما لم أنتفع بغيره.

د- موهوب بن أحمد بن محمد بن الخضر الجواليقي، أبو منصور "٤٦٥-٥٤٠هـ"، إمام في النحو واللغة من مفاخر بغداد، قرأ الأدب على أبي زكريا التبريزي، ولازمه وبرع، وهو ثقة، ورع، غزير الفضل، وافر العقل، مليح الخط، كثير الضبط، صنف التصانيف، وشاع ذكره. وقال ابن الجوزي: قرأ الأدب سبع عشرة سنة على التبريزي، وانتهى إليه علم اللغة، ودرس العربية بالنظامية، وكان الخليفة المقتفي يقرأ عليه شيئًا من الكتب، وكان متواضعًا، كثير الصمت، متثبتًا، يقول كثيرًا: لا أدري.

وقال ابن النجار: هو إمام عصره في اللغة، كتب الكثير بخطه المليح المتقن مع متانة الدين، وصلاح الطريقة، وكان ثقةً حجةً نبيلا.

وقال الكمال ابن الأنباري: وكان منتفعًا به لديانته، وحسن سيرته، وقال ابن شافع: كان من المحامين عن السنة.

ولم يكتف ابن الجوزي بما قرأ واستفاد على شيوخة الأماثل؛ بل عكف يقرأ كل ما تطاله يده من كتب قال في صيد الخاطر: "وإني أخبر عن حالي، وما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره فكأني وقعت على كنز، ولقد نظرت في ثبت الكتب الموقوفة في المدرسة النظامية؛ فإذا به يحتوي على ستة آلاف مجلد، وفي ثبت كتب أبي حنيفة، وكتب الحميدي، وكتب شيخنا عبد الوهاب، وابن ناصر، وأبي محمد الشخاب، وكانت أحمالا، وغير ذلك من كل كتاب أقدر عليه، ولو قلت: إني طالعت عشرين ألف مجلد، كان أكثر، وأنا بعد في الطلب، فاستفدت بالنظر فيها من ملاحظة سير القوم، وقدر هممهم، وحفظهم، وعباداتهم، وغرائب علومهم، ما لا يعرفه من لم يطالع، فصرت أستزري ما الناس فيه، وأحتقر همم الطلاب ولله الحمد".

ومن جملة ما قرأ أجزاء كثيرة من "كتاب الفنون" لابن عقيل، وهو كتاب كبير جدًّا، فيه فوائد كثيرة جليلة، في الوعظ، والتفسير، والفقه، والأصلين والنحو واللغة والشعر، والتاريخ والحكايات، وفيه مناظراته ومجالسه التي وقعت له، وخواطره ونتائج فكره قيدها فيه، فاستفاد منه فوائد جمة، ولعله هو الذي نبهه إلى تقييد خواطره، فكان منها كتابه "صيد الخاطر"، وفي الجملة ترك كتاب الفنون آثارًا بارزة في علم ومصنفات ابن الجوزي، قال رحمه الله عن كتاب الفنون: "وهذا الكتاب مئتا مجلد، وقع لي منه نحو مئة وخمسين مجلدًا" وقال سبطه في "مرآة الزمان": "واختصر منه جدي عشر مجلدات فرقها في تصانيفه".

لقد كان حرصه على أوقات عمره شديدًا، فلا يضيع وقته من غير فائدة، حتى السويعات التي يضطر فيها لاستقبال زائريه، كان يشغلها بأمور تتعلق بعلومه، يقول في صيد الخاطر: "ثم أعددت أعمالا لا تمنع من المحادثة لأوقات لقائهم، لئلا يمضي الزمان فارغًا، فجعلت من الاستعداد للقائهم قطع الكاغد وبري الأقلام، وحزم الدفاتر؛ فإن هذه الأشياء لا بد منها، ولا تحتاج إلى فكر، وحضور قلب، فأرصدتها لأوقات زيارتهم، لئلا يضيع شيء من وقتي".

ثم حبب إليه في بداية الطلب طريق الزهاد، فاستمع إليه يصف حاله قائلا: "كنت في بداية الصبوة قد ألهمت سلوك طريق الزهاد بإدامة الصوم والصلاة، وحببت إلي الخلوة فكنت أجد قلبًا طيبًا، وكانت عين بصيرتي قوية الحدة، تتأسف على لحظة تمضي في غير طاعة، وتبادر الوقت في اغتنام الطاعات، ولي نوع أنس وحلاوة مناجاة".

٦- تصدره للوعظ والإرشاد:

إلا أن الفن الذي أحبه ابن الجوزي هو الوعظ والإرشاد، فأعد له العدة من علوم الشريعة واللغة والأدب والتاريخ، فحفظ الكثير من الأحاديث والرقائق والأخبار والحكايات والأشعار، مع إحاطة تامة بأحوال عصره وشؤون مجتمعه، وأحوال الناس خاصتهم وعامتهم، وعندما استوت له أدواته

-وهو بعد في مقتبل العمر- أقبل يعقد مجالس الوعظ، وكان أولها في جامع المنصور سنة "٥٢٧هـ".

وبدأت مجالسه تستقطب الناس، فازدحم عليه أهل بغداد، ينهلون من علمه ووعظه وتذكيره خاصتهم وعامتهم، حتى صار علمًا من أعلام بغداد، ومفخرة تفاخر بها غيرها من المدن، فكان زوار بغداد يحرصون على حضور مجالسه التي لم يكن لها نظير في العالم الإسلامي.

وها هو الرحالة الأندلسي الشهير "محمد بن أحمد بن جبير" يحضر أحد هذه المجالس ويصفها في بيان رائع في رحلته المشهورة، فيقول: "ثم شاهدنا صبيحة يوم السبت بعده مجلس الشيخ الفقيه الإمام الأوحد، جمال الدين أبي الفضائل بن علي الجوزي بإزاء داره على الشط بالجانب الشرقي وفي آخره، على اتصال من قصور الخليفة، وبمقربة من باب البصلية آخر أبواب الجانب الشرقي، وهو يجلس به كل سبت، فشاهدنا مجلس رجل ليس من عمرو ولا زيد، وفي جوف الفرا كل الصيد، آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة، مالك أزمة الكلام في النظم والنثر، والغائص في بحر فكره على نفائس الدر، فأما نظمه فـ "رضي" الطباع "مهياري" الانطباع، وأما نثره فيصدع بسحر البيان، ويعطل المثل بـ "قس" و "سحبان".

ومن أبهر آياته، وأكبر معجزاته: أنه يصعد المنبر، ويبتدئ القراء بالقراءة، وعددهم نيف على العشرين قارئًا، فينتزع الاثنان منهم أو الثلاثة آية من القراءة، يتملونها على نسق بتطريب وتشويق؛ فإذا فرغوا تلت طائفة أخرى على عددهم آية ثانية، ولا يزالون يتناوبون آيات من سور مختلفات إلى أن يتكاملوا قراءة، وقد أتوا بآيات متشابهات، لا يكاد المتقد الخاطر يحلها عدة، أو يسميها نسقًا، فإذا فرغوا أخذ هذا الإمام الغريب الشأن في إيراد خطبته عجلًا مبتدرًا، وأفرغ في أصداف الأسماع من ألفاظه دررًا، وانتظم أوائل الآيات المقروءات في أثناء خطبته فقرًا، وأتى بها على نسق القراءة لها لا

مقدمًا ولا مؤخرًا، ثم أكمل الخطبة على قافية آخر آية منها، فلو أن أبرع من في المجلس تكلف تسمية ما قرأ القراء آية آية على الترتيب لعجز عن ذلك، فكيف بمن ينتظمها مرتجلًا، ويورد الخطبة الغراء بها عجلا: ﴿أَفَسِحْرٌ هَٰذَآ أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮﴾ [الطور: ١٥]، ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النمل: ١٦]، فحدث عن البحر ولا حرج وهيهات، ليس الخبر عنه كالخُبَر.

ثم إنه أتى بعد أن فرغ من خطبته برقائق من الوعظ، وآيات بينات من الذكر، طارت لها القلوب اشتياقًا، وذابت بها الأنفس احتراقًا، إلى أن علا الضجيج، وتردد بشهقاته النشيج، وأعلن التائبون بالصياح، وتساقطوا عليه تساقط الفراش على المصباح، كل يلقي ناصيته بيده فيجزها، ويمسح على رأسه داعيًا له، ومنهم من يغشى عليه، فيرفع في الأذرع إليه، فشاهدنا هولًا يملأ الأنفس إنابة وندامة، ويذكر بأهوال يوم القيامة؛ فلو لم نركب ثبج البحر، ونعتسف مفازة القفر إلا لمشاهدة مجلس من مجالسه لكانت صفقة رابحة، والوجهة المفلحة الناجحة، والحمد لله على أن من بلقاء من تشهد الجمادات بفضله، ويضيق الوجود عن مثله، وفي أثناء مجلسه ذلك تبتدره المسائل، وتطير إليه الرقاع؛ فيجاوب أسرع من طرفة العين وربما كان أكثر مجلسه الرائق من نتائج تلك المسائل، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، لا إله سواه".

٧- تصانيفه:

ثم رأى ابن الجوزي أن التصنيف في فن الوعظ يكمل مجالسه؛ بل يعمم نفعها، فالكتاب يبلغ ما لا يبلغه الخطاب، وهو باق وصاحبه موسد تحت التراب.

ويقول رحمه الله: "رأيت من الرأي القويم أن نفع التصانيف أكثر من نفع التعليم بالمشافهة؛ لأني أشافه في عمري عددًا من المتعلمين، وأشافه بتصنيفي خلقًا لا يحصون ما خلقوا بعد، ودليل هذا أن انتفاع الناس بتصانيف المتقدمين أكثر من انتفاعهم بما يستفيدونه من مشايخهم؛ فينبغي للعالم أن يتوفر على التصانيف إن وفق للتصنيف المفيد . . . ".

لقد ابتدأ ابن الجوزي في التصنيف وله من العمر سبع عشرة سنة؛ فلا

غرابة أن يكون من أكثر المصنفين في الإسلام، وقد تجاوز عدد مؤلفاته أربعمائة كتاب، أفرد لها الأستاذ عبد الحميد العلوجي كتابًا سماه مؤلفات ابن الجوزي كما أن الإمام الذهبي سرد أسماء الكثير منها في سيره "٢١/ ٣٧٠" ومنها: آفة أصحاب الحديث والرد على عبد المغيث. أحكام النساء. أخائر الذخائر. أخبار الأخيار. أخبار أهل الرسوخ في الفقه والتحديث بمقدار المنسوخ. أخبار البرامكة. الأرج في الموعظة. إرشاد المريدين في حكايات الصالحين. الأريب في تفسير الغريب. أسباب النزول. أسباب الهداية لأرباب البداية. إسراف الموالي. الإشارة إلى القراءة المختارة. أعلام الحياء بأغلاط الإحياء للغزالي. أعمار الأعيان في التاريخ والتراجم. إعلام العالم بعد رسوخه بحقايق ناسخ الحديث ومنسوخه. أنس الفريد وبغية المريد. الإنصاف في مسائل الخلاف. إيقاظ الوسنان في الموعظة. البازي الأشهب المنقض على مخالفي المذهب. بستان الصادقين. بستان الواعظين ورياض السامعين. البلغة في الفروع. بيان غفلة القائلة بعدم أفعال العباد. تبصرة المبتدي. تحفة الواعظ ونزهة الملاحظ. التحقيق في أحاديث الخلاف. تذكرة الأديب في تفسير الغريب. تذكرة الخواص. تذكرة المنته في عيون المشتبه. تعازي الملوكية. تقريب الطريق الأبعد في فضل مغفرة أحمد. تقرير القواعد وتحرير الفوائد. تقويم اللسان في سياق درة الغواص. تلبيس إبليس. تلقيح فهوم الأثر في التاريخ والسير. تنبيه النائم الغمر على مواسم العمر. تنوير الغبش في أحوال الأعيان من الحبش تيسير البيان في تفسير القرآن. الثبات عند الممات. جامع المسانيد بالحصى الأسانيد. الجمال في أسماء الرجال. الحليس الصالح والأنيس الناصح. حنة النظر وجنة المنتظر. جواهر المواعظ.الحدائق لأهل الحقائق في المواعظ. حسن السلوك في مواعظ الملوك. الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب. حسن الخطاب في الشيب والشباب. درء اللوم والضيم في صوم يوم الغيم في جزئين. الدر الثمين من خصائص النبي الأمين. الدر الفائق بالمجالس والأحاديث الرقائق. درة الإكليل في التاريخ. درر الأثر. دفع شبه المشتبه. الدلائل في منثور المسائل في مجلدين. درياق الذنوب في الموعظة مجلد كبير. دواء ذوي

الغفلات. ذم الهوى في مجلد. الذهب المسبوك في سير الملوك. الذيل على طبقات الحنابلة. الرد على المتعصب العنيد المانع من ذم يزيد. الرافدات بأحوال الحيوان والنبات. روح الأرواح. روضة المجالس ونزهة المستأنس. روضة المريدين. روضة الناقل. زاد المسير في علم التفسير. زاهر الجواهر. الزند الورى في الوعظ الناصري. الزهر الأنيق. زين القصص. السر المصون. سلوة الأخوان. بما ورد عن ذوي العرفان. السهم المصيب. سيرة العمرين. سيرة المستغنى. شاهد ومشهود واسطات العقود. شذور العقود في تاريخ العهود. شرف المصطفى صلى الله عليه وسلم. شم الرياض. ضبا نجد في الموعظة. صفوة الصفوة مختصر حلية الأولياء. صيد الخاطر. الطب الروحاني. طرائف الظرائف في تاريخ السوالف. عجالة المنتظر في شرح حال الخضر. عجائب النساء. عجب الخطب. عطف الأمراء على العلماء. عقائد المرافق. العلل المتناهية في الأحاديث الواهية. علة الحديث المنقول في أبي بكرام الرسول. عمدة الدلائل في مشهور المسائل. عمدة الراسخ في المنسوخ والمناسخ. عيون الحكايات. غرر الأثر. غريب الحديث. غريب العزيز. غوامض الإلهيات. الفاخر في أيام الإمام الناصر. الفخر النوري. فصول المائة. فضائل المدينة. فنون الأفنان في علوم القرآن. الفوائد عن الشيوخ. فيوح الفتوح. انقطاع لمحال الدجاج القاطع بمحال الحلاج. قصيدة في الاعتقاد. كتاب الأذكياء. كتاب الألقاب. كتاب البر والصلة. كتاب الحث على طلب العلم. كتاب الحمقاء والمغفلين. كتاب الضعفاء والمتروكين. كتاب الفروسية. كاتب اللطيف في المواعظ. كتاب المتعلقين في مجلد. كتاب الملتقط. كتاب النصر على مصر. كتاب النور في فضائل الأيام والشهور. كتاب الوفاء. كشف الظلمة عن الضبا في رد دعوى كميا. كشف مشكل حديث الصحيحين. كماة الزهر وفريدة الدهر. كنز المذكرين في المواعظ. كنز المواعظ. كنز لملوك في كيفية السلوك. كنوز الرموز. اللآلي في خطب المواعظ. لباب في قصص الأنبياء. لفتة الكبد إلى نصيحة الولد. لقط الجمان. لقط في حكايات الصالحين. لقط المنافع في الطب. اللؤلؤة في المواعظ. ما يلحن فيه العامة. مثير الغرام الساكن إلى أشرف

المساكن. مثير الغرام لساكني الشام. المجتبي في أنواع من العلوم. المجد العضدي. المحتسب في النسب. مختار المنافع مختصر المنافع في الطب. المختار من أخبار الأخيار. المدهش في المحاضرات. مذهب في المذهب أي فروع الحنابلة. مسبوك الذهب في المذهب. مسلك العقل. مشكل الصحاح أربع مجلدات. المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيء. المصفي باكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ. المطرب لمذنب. مغاني المعاني. مغنى في تفسير القرآن. المقامات الجوزية في المعاني الوعظية وشرح الكلامات اللغوي. المقترح الشامل. المقتضب في الخطب. ملتقط الحكايات. ملح المواعظ. مناقب الإمام أحمد بن حنبل. مناقب الثوري. مناقب الحسين. مناقب الشافعي. مناقب الصديق. مناقب علي بن أبي طالب. مناقب معروف الكرخي. منتحل المنتخب. منتخب الزير من روس القوارير في الوعظ والتذكير. المنتخب في النوب وهو الكتاب الذي بين أيدينا. المنتظم في تاريخ الأمم. منثور العقود في تجريد الحدود. المنثور في المواعظ. منتقد المعتقد. منظومة في الحديث. المنعش مختصر المدهش. المنفعة في المذاهب الأربعة. منهاج أهل الإصابة في صحبة الصحابة. منهاج القاصدين على أسلوب أحياء علوم الدين. منهاج الوصول إلى علم الأصول. منهاج النظر وجنة الفطر. الفطر. موافق المرافق. في مجلد. المورد العذب في المواعظ والخطب. الموضوعات في الأحاديث المرفوعات. نخب المنتخب. نرجس القلوب والدال على طريق المحبوب. نزهة الأريب. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. نسيم الرياض في الموعظة. نسيم السحر. النطق المفهوم. نظم الجمان. نفح الطيب في مجلد. نفس النقل في الحديث. نكت المجالس البدرية. النور في فضائل الأيام والشهور. الواهيات في ثلاث مجلد. الوجوه والنظائر في اللغة. الوفا في فضائل المصطفى. هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. ياقوتة المواعظ. يواقيت في الخطب.لطب. اللؤلؤة في المواعض. ما يلحن فيه العامة. مثير الغرام الساكن إلى اشرف المساكن. مثير الغرام لساكني الشام. المجتبي في أنواع من العلوم. المجد العضدي. المحتسب في النسب. مختار المنافع مختصر المنافع في

الطب. المختار من أخبار الأخيار. المدهش في المحاضرات. مذهب في المذهب أي فروع الحنابلة. مسبوك الذهب في المذهب. مسلك العقل. مشكل الصحاح أربع مجلدات. المصباح المضيء لدعوة الإمام المستضيئ. المصفي باكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ. المطرب لمذنب. مغاني المعاني. مغنى في تفسير القرآن. المقامات الجوزية في المعاني الوعظية وشرح الكلامات اللغوي. المقترح الشامل. المقتضب في الخطب. ملتقط الحكايات. ملح المواعظ. مناقب الإمام أحمد بن حنبل. مناقب الثوري. مناقب الحسين. مناقب الشافعي. مناقب الصديق. مناقب علي بن أبي طالب. مناقب معروف الكرخي. منتحل المنتخب. منتخب الزير من روس القوارير في الوعظ والتذكير. المنتخب في النوب. المنتظم في تاريخ الأمم. منثور العقود في تجريد الحدود. المنثور في المواعظ. منتقد المعتقد. منظومة في الحديث. المنعش مختصر المدهش. المنفعة في المذاهب الأربعة. منهاج أهل الإصابة في صحبة الصحابة. منهاج القاصدين على أسلوب أحياء علوم الدين. منهاج الوصول إلى علم الأصول. منهاج النظر وجنة الفطر. الفطر. موافق المرافق. في مجلد. المورد العذب في المواعظ والخطب. الموضوعات في الأحاديث المرفوعات. نخب المنتخب. نرجس القلوب والدال على طريق المحبوب. نزهة الأريب. نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر. نسيم الرياض في الموعظة. نسيم السحر. النطق المفهوم. نظم الجمان. نفح الطيب في مجلد. نفس النقل في الحديث. نكت المجالس البدرية. النور في فضائل الأيام والشهور. الواهيات في ثلاث مجلد. الوجوه والنظائر في اللغة. الوفا في فضائل المصطفى. هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح. ياقوتة المواعظ. يواقيت في الخطب.

٨- صفاته وأخبار أسرته:

كان ابن الجوزي أنيقًا في مظهره نزهًا نظيفًا، متنعمًا في معيشته، كما كان -رحمه الله- متحدثًا بارعًا، إن أراد أن يضحك أضحك الثكلى بما يسرد من أخبار البخلاء والحمقى والمغفلين والمتماجنين والظراف. وإذا أراد أن يبكي أبكى الصخر الأصم بما يقص من وصف الآخرة وأهوال يوم القيامة

وسير الصالحين الزاهدين، وخوفهم من الله تعالى، فكان يمزج بين هذا وذاك ليجذب القلوب، ويروح عن النفوس لتستعد لسماع مواعظه، فهو خبير بما يصلح النفوس ويتألفها.

كما تميز ابن الجوزي -رحمه الله تعالى- إضافة إلى فصاحته وغزارة محفوظه بسرعة البديهة والجواب الحاضر، وقد ذكروا عنه قصصًا طريفة، منها: أن رجلا سأله من أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت الأجواء بين الشيعة والسنة مشحونة، فقال على البديهة: أفضل الناس من كانت بنته تحته، فقال أهل السنة: يقصد أبا بكر؛ لأن ابنته عائشة كانت تحت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قالت الشيعة: بل يقصد عليًّا؛ لأن بنته فاطمة رضي الله عنها كانت تحته.

تزوج -رحمه الله- مرتين فأنجب من زوجته الأولى عشرة أولاد، خمسة ذكور وخمس إناث، مات من الذكور أربعة، منهم ابنه عبد العزيز الذي مات مسمومًا بالموصل سنة "٥٥٤هـ"، وبقي علي أبو القاسم، وقد كتب له رسالة لفتة الكبد إلى نصيحة الولد إلا أنه لم ينتفع بنصيحة الوالد، وكان عاقًّا سيئ الطباع، فاستغل محنة أبيه، فأخذ كتبه، وباعها بأبخس الأثمان، توفي علي هذا سنة "٦٣٠هـ".

وأما الإناث فهنّ:

١- رابعة: تزوجت من ابن رشيد الطبري سنة "٥٧١هـ"، فاشتغل هذا بكتب الفلاسفة، فساءت عقيدته، فهجره ابن الجوزي، فلما مات، زوجها من مملوك تركي للوزير ابن هبيرة اسمه قزغلي فأنجبت يوسف المعروف بسبط ابن الجوزي صاحب مرآة الزمان وغيرها من المصنفات.

٢- زينب، و ٣- شرف النساء، و ٤- ست النساء الصغرى، و ٥- جوهرة.

وأنجب من زوجته الثانية ابنه يوسف، وهو أصغر أولاده وأنجبهم، ولد سنة "٥٨٠هـ"، وعظ بعد أبيه، وكتب وأتقن حتى ساد أقرانه، وتولى التدريس بالمدرسة المستنظرية، وبنى المدرسة الجوزية بدمشق، وأوقف عليها، ثم صار

أستاذ دار الخليفة المستعصم سنة "٦٤٠ هـ"، حتى قتل مع الخليفة هو وأولاده تاج الدين، وجمال الدين، وشرف الدين على يد التتار سنة "٦٥٦هـ".

٩- محنته:

تعرض ابن الجوزي في شيخوخته لمحنة قاسية كان سببها الرافضة، وقد لخصها الشيخ علي الطنطاوي في مقدمة طبعته لصيد الخاطر فقال رحمه الله:

كان الوزير ابن يونس الحنبلي قد عقد مجلسًا للركن عبد السلام ابن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه، وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل شيء كثير، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير مدرسة جده وسلمها إلى ابن الجوزي، فلما ولي الوزارة ابن القصاب -وكان رافضيًّا خبيثًا- سعى في القبض على ابن يونس، وتتبع أصحابه؛ فقال له الركن: أين أنت من ابن الجوزي؟ فإنه ناصبي، ومن أولاد أبي بكر الصديق، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبي بمشورته. فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر، وكان الناصر له ميل إلى الشيعة، ولم يكن له ميل آخر أيامه إلى الشيخ أبي الفرج، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء هذا إلى دار الشيخ، وشتمه وأغلظ عليه، وختم على كتبه وداره، وشتت عياله.

فلما كان في أول الليل، حمل في سفينةٍ، وليس معه إلا عدوه الركن، وعلى الشيخ غلالة بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيفة، فأحدر إلى واسط، وكان ناظرها شيعيًّا، فقال له الركن: مَكِّنِّي من عدوي لأرميه في المطمورة، فزبره، فقال: يا زنديق! أرميه بقولك؟ هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي لبذلت روحي ومالي في خدمته.

قال ابن القادسي: لما حضر إلى واسط جمع الناس، وادعى ابن عبد القادر على الشيخ أنه تصرف في وقف المدرسة، وأنه اقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادَّعاه، وأنكر الشيخ وصدق وبر، وأفردت للشيخ دار بدرب الديوان، وعلى بابها بواب، وأفرد له من يخدمه، وكان بعض الناس يدخلون عليه، ويستمعون منه، ويملي عليهم، وكان يرسل أشعارًا كثيرة إلى بغداد.

وأقام بواسط خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه، ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من خروج إلى حمام ولا غيره، وقد قارب الثمانين.

وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين، فأفرج عنه، وقدم إلى بغداد، وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقيه، وفرح به أهل بغداد فرحًا زائدًا، ونودي له بالجلوس يوم السبت، فصلى الناس الجمعة، وعبروا يأخذون مكانات موضع المجلس عند تربة أم الخليفة، فوقع تلك الليلة مطر كثير ملأ الطرقات، فأحضر في الليل فراشون وروزجارية(١)، فنظفوا موضع الجلوس، وفرشوا فيه دقاق الحصى والبواري، ومضى الناس وقت المطر إلى قبر معروفٍ الكرخي تحت الساباط(٢) حتى سكن المطر، ثم جلس الشيخ بكرة السبت، وعبر الخلق، وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الربط، وامتلأت البرية حتى ما كان يصل صوت الشيخ إلى آخرهم.

وأعاد الخليفة الشيخ إلى بغداد وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ، وأنشد:

شقينا بالنوى زمنًا فلما ... تلاقينا كأنا ما شقينا

سخطنا عندما جنت الليالي ... فما زالت بنا حتى رضينا

سعدنا بالوصول وكم شقينا ... بكاسات الصدود وكم فنينا

فمن لم يحي بعد الموت يومًا ... فإنا بعد ما متنا حيينا

ولم يزل الشيخ على عادته الأولى في الوعظ ونشر العلم وكتابته إلى أن مات.

١٠- وفاته:

توفي ابن الجوزي بعد مرض دام خمسة أيام، ليلة الجمعة بين المغرب

(١) قال النووي: الروزجار هو براء مضمومة، ثم واو ساكنة، ثم زاي، ثم جيم، ثم ألف، ثم راء: وهو الذي يعمل الطين بالمجرفة ونحوها.

(٢) الساباط: ممر مسقوف.

والعشاء في الثالث عشر من رمضان المبارك سنة "٥٩٧هـ" في دار له قريبة من قبر معروف الكرخي بمحافظة قطفتا، في الجانب الغربي من مدينة السلام بغداد.

أجمعت المصادر على أن يوم وفاته كان يومًا مشهودًا ببغداد، إذ ارتجت قلوب الناس لنبأ وفاته، وغلقت الأسواق، ونودي للصلاة عليه في جانبي بغداد، وحملت جنازته على رؤوس الناس، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور للصلاة عليه، فصلى عليه ابنه أبو القاسم علي، وضاق الجامع على سعته بالناس، فصلى عليه مرتان، ثم حمل إلى مقبرة باب حرب، فدفن هناك بالقرب من الإمام أحمد -رحمهم الله.

قال سِبْطُه أبو المظفر: أوصى جدّي أن يكتب على قبره:

يا كثير العفو عمَّنْ كثر الذنب لديهِ
جاءك المذنب يرجُو الصفح عن جرم يديْهِ
أنا ضيف وجزاء الضيف إحسان إليْهِ

وصف المخطوط

اعتمدنا في تحقيقنا لهذا الكتاب على نسخة محفوظة في المكتبة الأزهرية برقم (١٤٠٧ عروسي٤٢٧٤٠) في قسم التفسير.

ويقع المخطوط في (١٩٢) لوحة، وفي الصفحة حوالي (١٩) سطرا، وقد كتب المخطوط بخط واضح وكتبت العناوين باللون الأحمر.

والمخطوط كامل فقد بدأ بالطرة وعليها اسم الكتاب والمؤلف: (كِتَابُ الْمُنْتَخَبِ فِي النُّوَبِ. تَصْنِيفُ الشَّيْخِ الإِمَامِ الْعَالِمِ حُجَّةِ الإِسْلامِ نَاصِرِ السُّنَّةِ جَمَالِ الدِّينِ أَبِي الْفَرَجِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيِّ بْنِ الجَوْزِيِّ قدس الله روحه ونور ضريحه).

وجاء في خاتمة المخطوط: (آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ووافق الفراغ منه على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن منصور بن. . . بن أحمد، الواعظ الموصلي، في يوم الأربعاء سادس عشري رجب، ليلة المعراج من سنة أربع وثلاثين وست مائة بالمدرسة البدرية، حامدًا لله، ومصليا على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين).

منهج العمل في الكتاب

١- نسخت المخطوط نسخا دقيقا وقابلته عدة مرات.

٢- ضبطت الآيات القرآنيّة الكريمة، والأحاديث الشّريفة، والشّواهد الشّعريّة والنّثريّة، والكلمات الّتي تحتاج إلى ضبط.

٣- عزوت الآيات القرآنيّة إلى سورها، ذاكرًا رقم الآية.

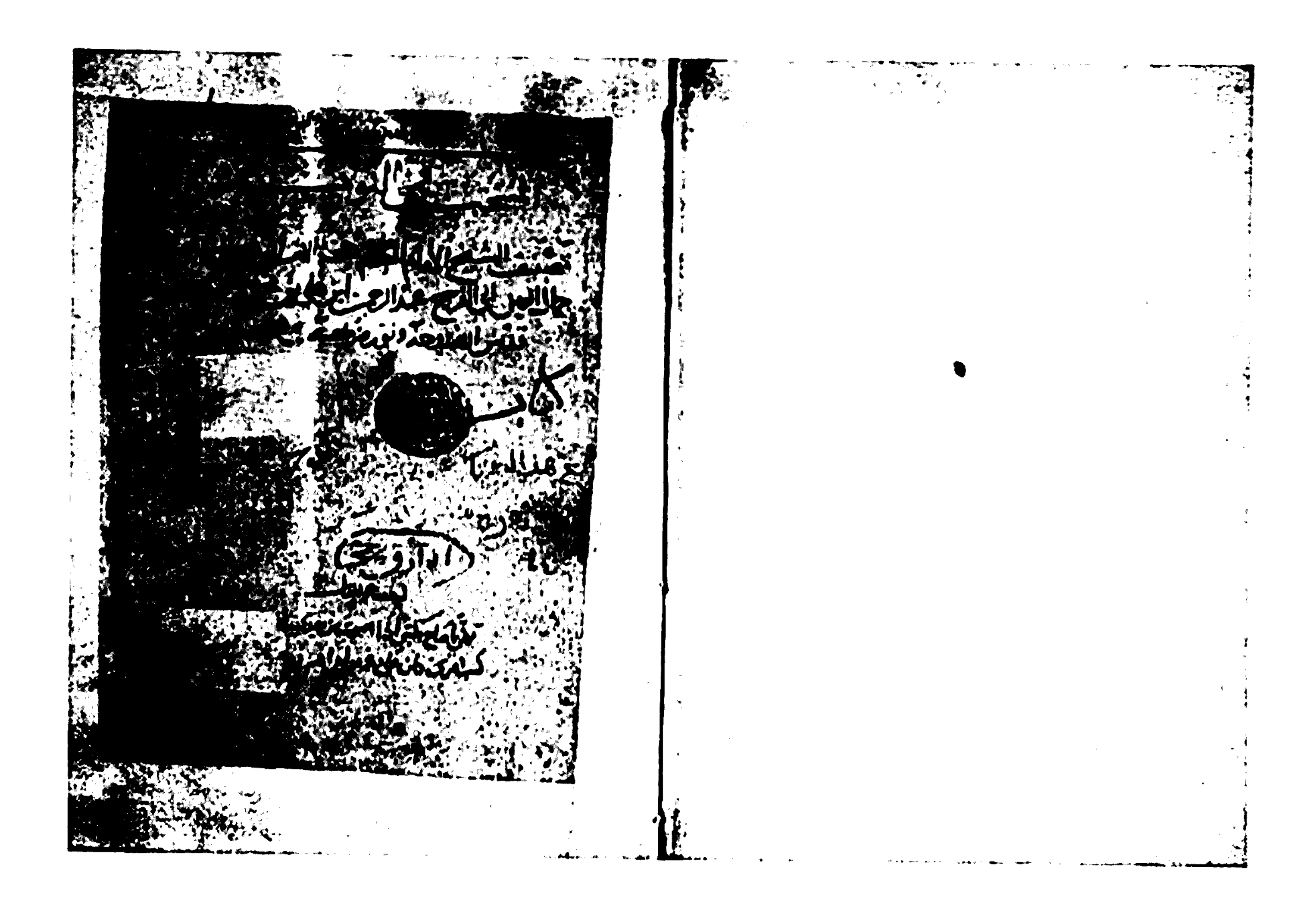
٤- خرّجت الأحاديث الشّريفة والآثار من كتب السّنّة المعتمدة.

٥- عمل مقدمة تتضمن ترجمة وافية للمؤلف.

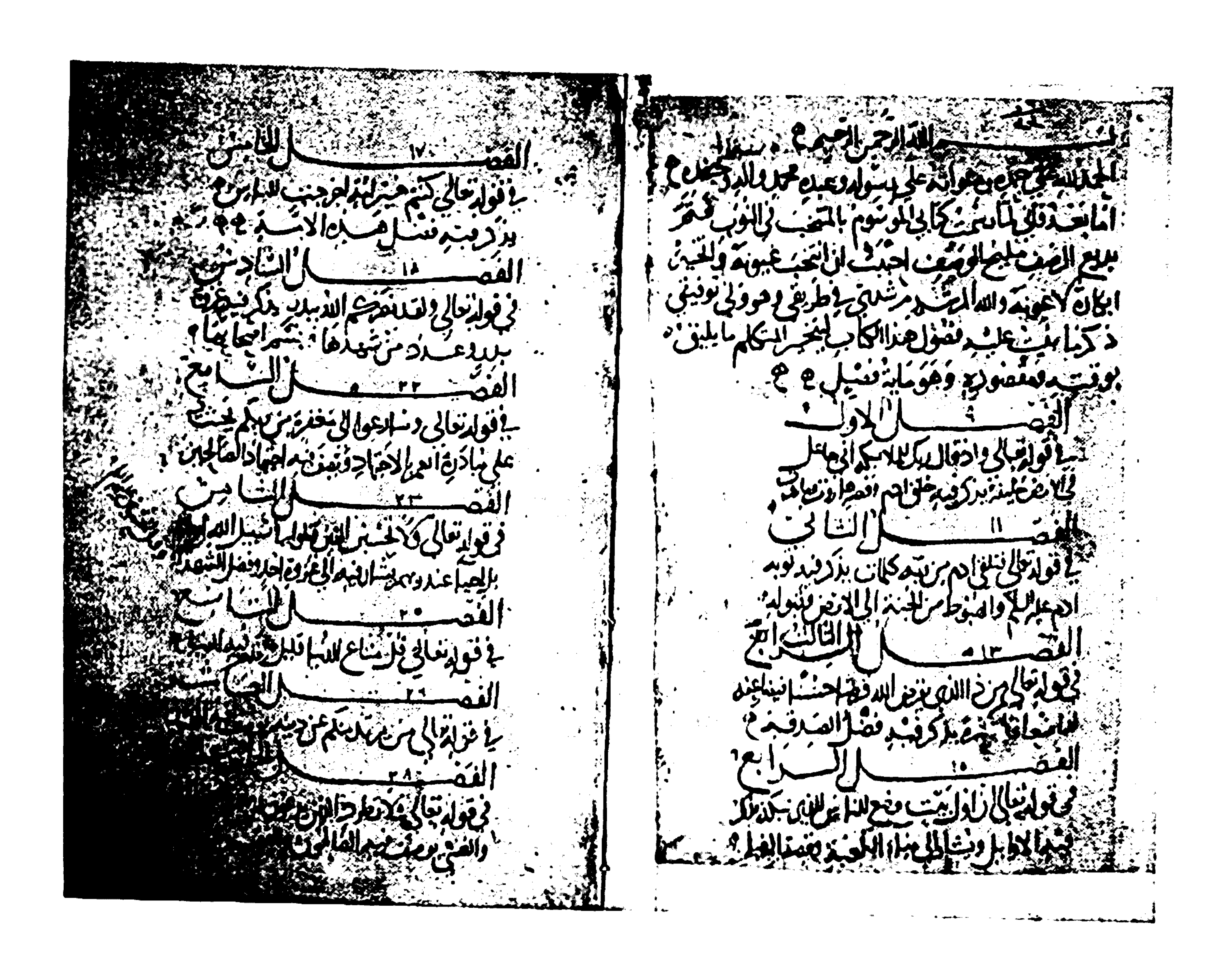
هذا وقد بذلت جهدي وطاقتي الضعيفة القاصرة، ولم آلُ جهداً، وأرجو أن أكون قد وفقت للصواب. ألا وإنّ الله متفرد سبحانه بالكمال، وحكَم على البشر بالعجز والقصور وذلك سارٍ على كل إنسان، فلا يسلم أحد من الخطأ إلا مَن عصمه الرحمن. وحسبي أني اجتهدت في تحري الحق ولم أتعمد الخطأ.

فما كان فيه من صواب فمن الله وله الحمد، وما كان فيه من خطأ فمن نفسي والشيطان واستغفر الله.

نماذج من صور المخطوط



طرة المخطوط



بسم الله الرحمن الرحيم [illegible]
الحمد لله على [illegible] على رسوله وعبده محمد وآله [illegible]
أما بعد فلما [illegible] كتابي الموسوم بالمنتخب في النوب [illegible]
بديع الرصف مليح الوصف أحببت أن أنتخب عيونه [illegible]
ليكون لأعوانه والله المرشد [illegible] في طريقي وهو ولي توفيقي
ذكر ما بنيت عليه فنقول هذا الكتاب ليتخير المتكلم ما يليق
بوقته ومقصوده وهو مائة فصل

الفصل الأول ١
في قوله تعالى وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل
في الأرض خليفة يذكر فيه خلق آدم [illegible]

الفصل الثاني ١١
في قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات يذكر فيه توبة
آدم عليه السلام وهبوطه من الجنة إلى الأرض [illegible]

الفصل الثالث ١٣
في قوله تعالى من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا [illegible]
[illegible] يذكر فيه فضل الصدقة

الفصل الرابع ١٥
في قوله تعالى إن أول بيت وضع للناس للذي ببكة [illegible]
[illegible] الكعبة [illegible]

الفصل الخامس ١٧
[illegible]

الفصل السادس ١٨
[illegible]

الفصل السابع ٢٢
[illegible]

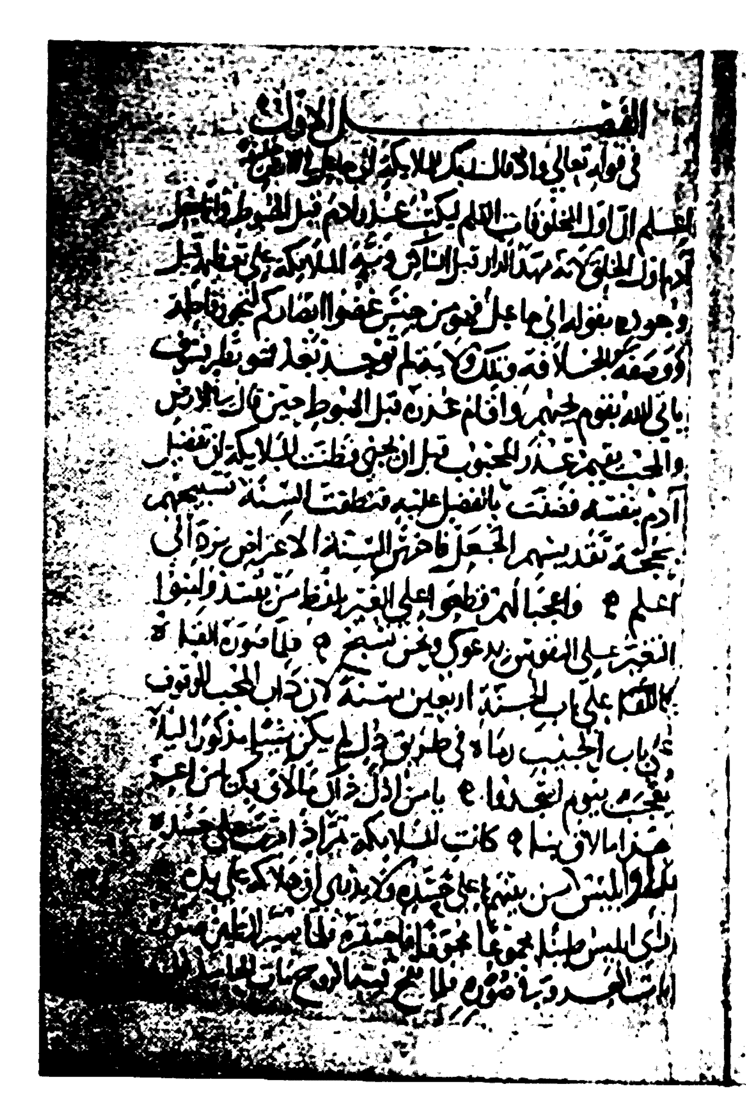
الفصل الثامن ٢٣
[illegible]

الفصل التاسع ٢٥
[illegible]

الفصل العاشر ٢٦
[illegible]

اللوحة الثانية

الفصل الرابع والسبعون
في قوله تعالى يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه
يذكر فيه القيامة وأهوالها
الفصل الخامس والسبعون
في قوله تعالى ويل للمطففين يذكر فيه مساوئ
الأسواق وقصة شعيب
الفصل السادس والسبعون
في قوله تعالى والفجر وليال عشر يذكر فيه فضائلهم
الفصل السابع والسبعون
في قوله تعالى ألم نشرح لك صدرك يذكر فيه شرح
حليمة وشرف نبينا صلى الله عليه وسلم
الفصل الثامن والسبعون
في قوله تعالى إنا أنزلناه في ليلة القدر يذكر فيه
فضل ليلة القدر
الفصل التاسع والسبعون
في قوله تعالى إذا زلزلت الأرض زلزالها يذكر
فيه الرجفة
الفصل الثمانون
في قوله تعالى إذا جاء نصر الله والفتح يذكر فيه فتح مكة
الفصل الاول



اللوحة العاشرة

اللوحة الأخيرة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة المؤلف

الْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى حَمْدِهِ، وَصَلَوَاتُهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَبْدِهِ، مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَجُنْدِهِ، أَمَّا بَعْدُ:

فَإِنِّي لَمَّا رَسَمْتُ كِتَابِي الْمَوْسُومَ بـ " **الْمُنْتَخَبِ فِي النُّوَبِ** " ، فَتَمَّ بَدِيعَ الرَّصْفِ، مَلِيحَ الْوَصْفِ، أَحْبَبْتُ أَنْ أَنْتَخِبَ عُيُونَهُ، وَأَتَخَيَّرَ أَبْكَارَهُ لا عِوَنَهُ(١)، وَاللَّهُ مُرْشِدِي فِي طَرِيقِي، وَهُوَ وَلِيُّ تَوْفِيقِي.

ذِكْرُ مَا بَنَيْتُ عَلَيْهِ فُصُولَ هَذَا الْكِتَابِ؛ لِيَتَخَيَّرَ الْمُتَكَلِّمُ مَا يَلِيقُ بِوَقْتِهِ وَمَقْصُودِهِ، وَهُوَ مائَةُ فَصْلٍ:

الْفَصْلُ الأول: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠] يُذْكَرُ فِيهِ خَلْقُ آدَمَ، وَقِصَّةُ هَارُوتَ وَمَارُوتَ.

الْفَصْلُ الثاني: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧] يُذْكَرُ فِيهِ تَوْبَةُ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ، والْهُبُوطُ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَى الأَرْضِ، وَقَبُولُهُ.

الْفَصْلُ الثالث: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ [البقرة: ٢٤٥] يُذْكَرُ فِيهِ فَضْلُ الصَّدَقَةِ.

الْفَصْلُ الرابع: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦] يُذْكَرُ فِيهِ الأَوَائِلُ، وَيُشَارُ إِلَى بِنَاءِ الْكَعْبَةِ، وَقِصَّةُ الْفِيلِ.

---

(١) العون: جمع عوان وهي التي بين الكبيرة والصغيرة، قال الله تعالى ذكره في صفة بقرة بني إسرائيل ﴿إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ﴾ [البقرة: ٦٨]، ويقال: حرب عوان إذا لم تكن مبتدأة.

الْفَصْلُ الخامس: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠] يُذْكَرُ فِيهِ فَضْلُ هَذِهِ الأُمَّةِ.

الْفَصْلُ السادس: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾ [آل عمران: ١٢٣] يُذْكَرُ فِيهِ غَزْوَةُ بَدْرٍ، وَعَدَدُ مَنْ شَهِدَهَا، وَاسْمُ أَصْحَابِهَا.

الْفَصْلُ السابع: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٣] يُحَثُّ فِيهِ عَلَى مُبَادَرَةِ الْعُمْرِ بِالاجْتِهَادِ، وَيُصَفُ فِيهِ اجْتِهَادُ الصَّالِحِينَ.

الْفَصْلُ الثامن: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٩] يُشَارُ فِيهِ إِلَى غَزْوَةِ أُحُدٍ، وَفَضْلِ الشُّهَدَاءِ.

الْفَصْلُ التاسع: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾ [النساء: ٧٧] يُذَمُّ فِيهِ الدُّنْيَا.

الْفَصْلُ العاشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤] يُوصَفُ فِيهِ الْمُتَحَوِّلُ.

الْفَصْلُ الحادي عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢] يُوصَفُ فِيهِ الصَّالِحُونَ وَالْفُقَرَاءُ.

الْفَصْلُ الثاني عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَٰدَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤] يُشَارُ فِيهِ إِلَى الْحَشْرِ وَالْخَائِفِينَ مِنْهُ.

الْفَصْلُ الثالث عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] يُحَثُّ فِيهِ عَلَى فِعْلِ الْخَيْرِ وَالصَّدَقَةِ.

الْفَصْلُ الرابع عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا﴾ [الأعراف: ١٧٤] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ بلْعَام.

الْفَصْلُ الخامس عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] يُذْكَرُ فِيهِ الْخَائِفُونَ.

الْفَصْلُ السادس عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَٰنٍ﴾ [التوبة: ٢١] يُشَارُ فِيهِ إِلَى بَشَائِرِ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفَصْلُ السابع عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ﴾ [التوبة: ٣٤] الآية، إِلَى قَوْلِهِ: ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٥] يُذَمُّ فِيهِ نَفْعُ الْقُوَّةِ.

الْفَصْلُ الثامن عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾ [التوبة: ٤٠] يُشَارُ فِيهِ إِلَى قِصَّةِ الْغَارِ وَالصِّدِّيقِ.

الْفَصْلُ التاسع عشر: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنۡهُم مَّنۡ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥] يُذْكَرُ فِيهِ تَقَلُّبُهُ، وَيُذَمُّ الْبُخْلُ.

الْفَصْلُ العشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾ [التوبة: ١١١] يُذْكَرُ فِيهِ جِهَادُ النَّفْسِ.

الْفَصْلُ الحادي والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا﴾ [يونس: ٥] يُشَارُ فِيهِ إِلَى عَجَائِبِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَيُحَثُّ عَلَى بِدَارِ الْقَمَرِ.

الْفَصْلُ الثاني والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ﴾ [يونس: ٢٤] يُذَمُّ فِيهِ الدُّنْيَا.

الْفَصْلُ الثالث والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥] يُوصَفُ فِيهِ الْجَنَّةُ وَنَعِيمُهَا.

الْفَصْلُ الرابع والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾ [يونس: ٦٢] يُوصَفُونَ فِيهِ.

الْفَصْلُ الخامس والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا﴾ [يوسف: ٩١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ السادس والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا﴾ [الرعد: ١٢] يُذْكَرُ فِيهِ الرَّعْدُ وَالْبَرْقُ وَالنَّبَاتُ.

الْفَصْلُ السابع والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعۡمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: ٤٢] يُذْكَرُ فِيهِ تَرْكُ الظُّلْمِ.

الْفَصْلُ الثامن والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوۡمَ تُبَدَّلُ ٱلۡأَرۡضُ غَيۡرَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨] يُذْكَرُ فِيهِ أَهْوَالُ الْقِيَامَةِ.

الْفَصْلُ التاسع والعشرون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٤٣] يُذْكَرُ فِيهِ جهَنَّمُ.

الْفَصْلُ الثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّـٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥] يُشَارُ فِيهِ إِلَى صِفَةِ الْجَنَّةِ، وَذِكْرِ مَنْ يُعْرَفُ بِأُمِّهِ مِنَ الصَّحَابَةِ، والَّذِينَ آخَا بَيْنَهُمْ.

الْفَصْلُ الحادي والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَكُلَّ إِنسَـٰنٍ أَلْزَمْنَـٰهُ طَـٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣].

الْفَصْلُ الثاني والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣] يُذْكَرُ فِيهِ بِرُّ الْوَالِدَيْنِ، وَيُنْهَى فِيهِ عَنْ عُقُوقِهِمَا.

الْفَصْلُ الثالث والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [الكهف: ١٧] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ أَهْلِ الْكَهْفِ.

الْفَصْلُ الرابع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [الكهف: ٣٠] يُذْكَرُ فِيهِ تَفْسِيرُ الآيَاتِ وَمَسَائِلُهَا، وَيُوصَفُ فِيهِ ثَوَابُ مَنْ تَعِبَ.

الْفَصْلُ الخامس والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ﴾ [الكهف: ٦٠] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ الْخَضِرِ.

الْفَصْلُ السادس والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ الإِسْكَنْدَرِ.

الْفَصْلُ السابع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾﴾ [مريم: ١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ يَحْيَى وَزَكَرِيَّا.

الْفَصْلُ الثامن والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَـٰبِ مَرْيَمَ﴾ [مريم: ١٦] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّتُهَا، وَقِصَّةُ عِيسَى عَلَيْهِمَا السَّلامُ.

الْفَصْلُ التاسع والثلاثون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩] يُذْكَرُ فِيهِ حِسَابُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَصْلُ الأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ الحادي والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَـٰضِبًا﴾ [الأنبياء: ٨٧] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّتُهُ، وَتَهْلِيلاتِ الْقُرْآنِ.

الْفَصْلُ الثاني والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] يُذْكَرُ فِيهِ ثَمَرَاتُ الْجَسَدِ.

الْفَصْلُ الثالث والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحج: ١] يُذْكَرُ فِيهِ وُجُوهُ الْخِطَابِ، وَبَعْضُ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الْفَصْلُ الرابع والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧] يُذْكَرُ فِيهِ الْحَجُّ وَفَضْلُهُ.

الْفَصْلُ الخامس والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١] يُذْكَرُ فِيهِ آدَابُ الصَّلاةِ، وَمَنْ وَافَقَ اسْمُهُ اسْمَ امْرَأَةٍ.

الْفَصْلُ السادس والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون: ١٢] يُذْكَرُ فِيهِ خَلْقُ آدَمَ عليه السلام.

الْفَصْلُ السابع والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩﴾ [المؤمنون: ٩٩] يُذْكَرُ فِيهِ التَّحْرِيضُ عَلَى الْبِرَارِ.

الْفَصْلُ الثامن والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَـٰتِ ٱلْغَـٰفِلَـٰتِ ٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ [النور: ٢٣] يُذْكَرُ فِيهِ عَدَدُ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ، وَحَدِيثُ الإِفْكِ.

الْفَصْلُ التاسع والأربعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] يُذْكَرُ فِيهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفَصْلُ الخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا۟ عَلَى ٱلْقَرْيَةِ﴾ [الفرقان: ٤٠] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ قَوْمِ لُوطٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ الحادي والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَـٰنَ عِلْمًا﴾ [النمل: ١٥] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ الْهُدْهُدِ وَبِلْقِيسَ.

الْفَصْلُ الثاني والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] يُذْكَرُ فِيهِ بِدَايَةُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ الثالث والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩] يُذْكَرُ فِيهِ سُؤَالُ الرُّؤْيَةِ.

الْفَصْلُ الرابع والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْآخِرَةَ﴾ [القصص: ٧٧] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ قَارُونَ.

الْفَصْلُ الخامس والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨] يُذْكَرُ فِيهِ الْمَطَرُ.

الْفَصْلُ السادس والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْا۟ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَن وَالِدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣].

الْفَصْلُ السابع والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦] يُذْكَرُ فِيهِ فَضْلُ قِيَام الليْلِ.

الْفَصْلُ الثامن والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩] يُذْكَرُ فِيهِ غَزْوَةُ الأَحْزَابِ.

الْفَصْلُ التاسع والخمسون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: ٢٣] يُذْكَرُ فِيهِ أَهْلُ الْعَزَائِم.

الْفَصْلُ الستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِى مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ [سبأ: ١٥] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّتُهُمْ.

الْفَصْلُ الحادي والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم﴾ [سبأ: ٣٧] يُذْكَرُ فِيهِ مَدْحُ الْفُقَرَاءِ، وَمَوَالِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الثاني والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١] يُذْكَرُ فِيهِ النَّدَمُ عَلَى الْفَوْتِ.

الْفَصْلُ الثالث والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧] يُذْكَرُ فِيهِ الشَّيْبُ.

الْفَصْلُ الرابع والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [يس: ٥١] يُذْكَرُ فِيهِ الْبَعْثُ.

الْفَصْلُ الخامس والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ۝٤١﴾ [الصافات: ٤١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ الأَخَوَيْنِ.

الْفَصْلُ السادس والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى﴾ [الصافات: ٩٩] يُذْكَرُ فِيهِ الذَّبِيحُ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ السابع والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُاْ ٱلْخَصْمِ﴾ [ص: ٢١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ الثامن والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُۥدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٠] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ سُلَيْمَانَ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ التاسع والستون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّتُهُ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ السبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ١] يُذْكَرُ فِيهِ الإخْلاصُ.

الْفَصْلُ الحادي والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ﴾ [الزمر: ٩] يُذْكَرُ فِيهِ الْعِلْمُ، وَإِلَى مَنِ انْتَهَى عِلْمُ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَصْلُ الثاني والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الزمر: ٢٧] يُذْكَرُ فِيهِ عُلُومُ الْقُرْآنِ.

الْفَصْلُ الثالث والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [الزمر: ٣٠] يُذْكَرُ فِيهِ وَفَاةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الرابع والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٤] يُذْكَرُ فِيهِ عَذَابُ النَّفْسِ وَالزَّجْرُ.

الْفَصْلُ الخامس والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ [الزمر: ٦٨] يُذْكَرُ فِيهِ الصَّعْقُ، وَالْكَلِمَاتُ الْمَقْلُوبَةُ.

الْفَصْلُ السادس والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨] يُذْكَرُ فِيهِ عَدَدُ الْفَرَاعِنَةِ، وَقِصَّةُ الْمُؤْمِنِينَ.

الْفَصْلُ السابع والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤] يُحَذِّرُ فِيهِ مِنَ الأسَفِ وَقْتَ الْفَوْتِ.

الْفَصْلُ الثامن والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١] يُذْكَرُ فِيهِ التَّوْحِيدُ.

الْفَصْلُ التاسع والسبعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ [الزخرف: ٣١] يُذْكَرُ فِيهِ جُمْلَةُ (لَوْلا) فِي الْقُرْءَانِ، وَالتَّرْجَمَةُ مِنَ التَّطَايُرِ، وَبِدَايَةُ أَمْرِ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [الفتح: ٢٨] يُذْكَرُ فِيهِ الْبَعْثُ، وَمَا كَانَ فِي ثِنَى الْهِجْرَةِ.

الْفَصْلُ الحادي والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩] يُذْكَرُ فِيهِ أَسْمَاؤُهُ، وَفَضَائِلُ أَصْحَابِهِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ.

الْفَصْلُ الثاني والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَانُوا۟ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الذاريات: ١٧] يُذْكَرُ فِيهِ فَضْلُ قِيَامِ اللَّيْلِ.

الْفَصْلُ الثالث والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾﴾ [النجم: ١] يُذْكَرُ فِيهِ حَدِيثُ الْمِعْرَاجِ.

الْفَصْلُ الرابع والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ [القمر: ٢٣] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ صَالِحٍ، وَبَابُ الْمُبْدَلاتِ، وَالْمُقَدَّمُ وَالْمُؤَخَّرُ.

الْفَصْلُ الخامس والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] يُذْكَرُ فِيهِ بَابُ الْحَقِّ، وَالتَّحْرِيضُ عَلَى التَّوْبَةِ.

الْفَصْلُ السادس والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ [الحديد: ٢٠] يُذْكَرُ فِيهِ ذَمُّهَا، وَالْمَعْرُوفُونَ بِالأَلْقَابِ.

الْفَصْلُ السابع والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [التحريم: ٧] يُذْكَرُ فِيهِ طُرُقٌ مِنَ الأَسْمَاءِ الْمُفْرَدَةِ، وَجُمْلَةُ مَا رُوِيَ لأَصْحَابِهِ، وَمَنْ وَافَقَ أَسْمَائِهِمْ.

الْفَصْلُ الثامن والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّتُهُمْ.

الْفَصْلُ التاسع والثمانون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ﴿١﴾ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴿٢﴾﴾ [الحاقة: ١-٢] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ عَادٍ.

الْفَصْلُ التسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٰٔتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةَ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلامُ.

الْفَصْلُ الحادي والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾ [الإنسان: ٧] يُذْكَرُ فِيهِ تَزْوِيجُ فَاطِمَةَ لِعَلِيٍّ عَلَيْهِمَا السَّلامُ.

الْفَصْلُ الثاني والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ

﴿٩﴾ [طه: ٩] يُذْكَرُ فِيهِ بَابُ الزَّوَائِدِ وَالنَّوَاقِصِ وَالْمُتَشَابِهِ، وَيُذْكَرُ فِيهِ إِرْسَالُ مُوسَى، وَقِصَّةُ الْغَرَقِ.

الْفَصْلُ الثالث والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤] يُذْكَرُ فِيهِ مَنْ تَأَخَّرَ مَوْتُهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَغَيْرِهِمْ مِنْ عُلَمَاءِ الْحَدِيثِ، وَمُخَالَفَةُ الْهَوَى.

الْفَصْلُ الرابع والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ ٱلْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾ وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ﴾ [عبس: ٣٤ - ٣٥] يُذْكَرُ فِيهِ الْقِيَامَةُ وَأَهْوَالُهَا.

الْفَصْلُ الخامس والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾﴾ [المطففين: ١] يُذْكَرُ فِيهِ صَنَائِعُ الأَسْوَاقِ، وَقِصَّةُ شُعَيْبٍ.

الْفَصْلُ السادس والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَٱلْفَجْرِ ﴿١﴾ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾ [الفجر: ١ - ٢] يُذْكَرُ فِيهِ قِصَّةُ آدَمَ.

الْفَصْلُ السابع والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ﴿١﴾﴾ [الشرح: ١] يُذْكَرُ فِيهِ رِضَاعُ حَلِيمَةَ، وَشَرَفُ نَبِيِّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الثامن والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾﴾ [القدر: ١] يُذْكَرُ فِيهِ فَضْلُ لَيْلَةِ الْقَدْرِ.

الْفَصْلُ التاسع والتسعون: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ﴿١﴾﴾ [الزلزلة: ١] يُذْكَرُ فِيهِ الزَّجْرُ.

الْفَصْلُ المائة: فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١] يُذْكَرُ فِيهِ فَتْحُ مَكَّةَ.

الْفَصْلُ الأوَّلُ

فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]

اعْلَمْ أَنَّ أَوَّلَ الْمَخْلُوقَاتِ الْقَلَمُ(١)، لِيَكْتُبَ عُذْرَ آدَمَ قَبْلَ الْهُبُوطِ،

---

(١) **اختلف العلماء في أول المخلوقات على أقوال:**

الأول: أن العرش هو أولها، ويدل عليه حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما -: "كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وكان عرشه على الماء"، وهو قول الجمهور فيما نقله عنهم أبو العلاء الهمداني كما في "العقيدة الطحاوية" (٢٩٥)، و"البداية والنهاية" (٩/١) واختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، وانتصر له بالأدلة والحجج في "مجموع الفتاوى" (١٨/ ٢١٣ ـ ٢١٦)، وابن القيم في "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٩٩).

الثاني: أن أول المخلوقات القلم، ودليل هذا القول حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: "إن أول ما خلق الله - تعالى - القلم، فقال له: اكتب، قال: ربِّ وماذا أكتب؟ قال: اكْتُبْ مقاديرَ كُلِّ شيء حتى تقوم الساعة"؛ رواه أبو داود والترمذي، ولفظه: "اكتب القدر، ما كانَ وما هو كائِنٌ إلى الأبد"، ورجح هذا القول الطبري في تاريخه (١/ ٢٨ - ٢٩)، وهو ظاهر كلام ابن الجوزي في "المنتظم" (١/ ١٢١)، ورجحه الألباني في السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٧ - ٢٠٨) في تعليقه على الحديث رقم: (١٣٣).

قال الطبري - رحمه الله تعالى - في تاريخه (١/ ٣٠): "وقول رسول الله -صلى الله عليه وسلم - الذي رويناه عنه أولى قول في ذلك بالصواب؛ لأنه كان أعلم قائل في ذلك قولا بحقيقته وصحته، وقد روينا عنه - عليه السلام - أنه قال: "أول شيء خلقه الله - عزَّ وجلَّ - القلم" من غير استثناء منه شيئًا من الأشياء أنه تقدم خلق الله إياه =

. . . .

= خلق القلم، بل عم بقوله -صلى الله عليه وسلم- "إن أول شيء خلقه الله القلم" كل شيء، وأن القلم مخلوق قبله من غير استثنائه من ذلك عرشًا ولا ماءً ولا شيئًا غير ذلك". اهـ.

وقال الألبانيّ مؤيّدًا لما قرَّره الطبري، ورادًّا على من قال بخلق العرش قبل القلم: "وفيه رد على من يقول بأنَّ العرش هو أول مخلوق، ولا نَصَّ في ذلك عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وإنما يقول به مَنْ قال - كابن تيمية وغيره - استنباطًا واجتهادًا، فالأخذ بهذا الحديث - وفي معناه أحاديث أخرى - أولى؛ لأنه نص في المسألة، ولا اجتهاد في مورد النص كما هو معلوم، وتأويله بأن القلم مخلوق بعد العرش باطل؛ لأنه يصح مثل هذا التأويل لو كان هناك نَصٌّ قاطع على أن العرش أول المخلوقات كلها ومنها القلم، أما ومثل هذا النص مفقود، فلا يجوز هذا التأويل". اهـ من السلسلة الصحيحة (١/ ٢٠٨).

الثالث: أنَّ أوَّل شيء خلقه الله - تعالى - النور والظلمة، وهذا القول منسوب لابن إسحاق كما ذكر ذلك الطبريُّ في تاريخه (١/ ٢٩)، وابن الجوزي في "المنتظم" (١/ ١٢١)، وقدْ ردَّهُ الطَّبريُّ بِقوله: "وأما ابن إسحاق فإنَّهُ لم يسند قوله الذي قاله في ذلك إلى أحدٍ؛ وذلك من الأمور التي لا يُدْرَكُ عِلْمُها إلا بِخَبَرٍ من الله - عزَّ وجلَّ - أو خبر من رسول الله صلى الله عليه وسلم". اهـ.

وقال ابن الجوزي: "ولا يقبل هذا مع الحديث المرفوع".

والذي يَظْهَرُ رُجحانُه بجمع الأدلة، وتأمل ألفاظها القول الأول، القاضي بأن العرش خلق قبل القلم؛ لظاهر حديث عبدالله بن عمرو - رضي الله عنهما - مع ظاهر حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه - ففي حديث عبدالله بن عمرو بيَّن أن التقدير كان قبل خلق السموات والأرض، وذكر فيه "وكان عرشه على الماء"، وفي حديث عبادة ما يدل على أن التقدير كان فور خلق القلم؛ لأنه خلق للكتابة، فكان العرش بهذا الاعتبار سابقًا في الخلق على القلم، ويدل على ذلك أيضًا ظاهر حديث عمران بن حصين: "كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشُه على الماء" فلا ذكر للقلم في ذلك. قال ابن القيم معلقًا عليه: "ولا يناقض هذا الحديث "أول ما خلق الله القلم"؛ لوجهين:

أحدهما: لأن الأولية راجعة إلى كتابته لا إلى خلقه، فإن الحديث: "أول ما خلق الله =

وَإِنَّمَا جُعِلَ آدَمُ أَوَّلَ الْخَلْقِ؛ لأَنَّهُ مَهَّدَ الدَّارَ قَبْلَ السَّاكِنِ، وَنَبَّهَ الْمَلائِكَةَ عَلَى تَعْظِيمِهِ قَبْلَ وُجُودِهِ بِقَوْلِهِ: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ﴾ ، فَهُوَ مِنْ جِنْسِ: (غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ؛ لِتَجُوزَ فَاطِمَةُ)(١)، وَوَصَفَهُ بِالْخِلافَةِ، وَتِلْكَ وَلايَةٌ لَمْ تُوجَدْ بَعْدُ، فَهُوَ نَظِيرُ: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ﴾ [المائدة: ٥٤]، وَأَقَامَ عُذْرَهُ قَبْلَ الْهُبُوطِ حِينَ قَالَ: ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ، وَالْمُحِبُّ يُقِيمُ عُذْرَ الْمَحْبُوبِ قَبْلَ أَنْ يَجْزِيَ، فَظَنَّتِ الْمَلائِكَةُ أَنَّ تَفْضِيلَ آدَمَ بِنَفْسِهِ، فَضَنَّتْ بِالْفَضْلِ عَلَيْهِ، فَنَطَقَتْ أَلْسِنَةُ تَسْبِيحِهِمْ بِحُجَّةِ تَقْدِيسِهِمْ ﴿أَتَجْعَلُ﴾ ، فَأَخْرَسَ أَلْسِنَةَ الاعْتِرَاضِ بِرَدِّ: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ﴾ .

وَاعَجَبًا لَهُمْ ! قَطَعُوا عَلَى الْغَيْرِ بِلَفْظِ ﴿مَن يُفْسِدُ﴾ ، وَأَمِنُوا التَّغَيُّرَ عَلَى النُّفُوسِ بِدَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ ، فَلَمَّا صَوَّرَهُ أَلْقَاهُ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ أَرْبَعِينَ سَنَةً؛ لأَنَّ دَأْبَ الْمُحِبِّ الْوُقُوفُ عَلَى بَابِ الْحَبِيبِ، رَمَاهُ فِي طَرِيقِ ذُلٍّ، لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا؛ لِئَلا يُعْجَبَ بِيَوْمِ ﴿ٱسْجُدُوا۟﴾ [البقرة: ٣٤].

= القلم، قال له: اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة".

والثاني: أن المراد أول ما خلقه الله من هذا العالم بعد خلق العرش، ويدل على سبق خلق العرش قوله في الحديث الثابت: "قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء". وقد أخبر أنه حين خلق القلم قدر به المقادير كما في اللفظ الآخر قال: "اكتب، قال: ما أكتب؟ قال: اكتب القدر". فهذا التقدير المؤقت قبل خلق العالم بخمسين ألف سنة، فثبت أن العرش سابق على القلم، والعرش كان على الماء قبل خلق السموات والأرض".اهـ من "اجتماع الجيوش الإسلامية" (٩٩ .١٠٠).

(١) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣/ ٣٥، رقم ٢٣٨٦)، والحاكم (٣/ ١٧٥، رقم ٤٧٥٧) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: أحمد فى فضائل الصحابة (٢/ ٧٦٣، رقم ١٣٤٤)، والطبرانى (١/ ١٠٨، رقم ١٨٠)، وأبو نعيم فى المعرفة (١/ ٩٣، رقم ٣٥٦)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٢٦٣، رقم ٤٢٢).

وقال الإمام الذهبي هذا الحديث موضوع، كما في تلخيص الذهبي لمستدرك الحاكم (٣/ ١٥٣).

يَـا مَــنْ أَعَــزَّ؛ هَـذَا مَـا لاقَ بِـنَـا   يَـا مَــنْ أَذَلَّ؛ ذَاكَ مَــا لاقَ بِــكَ

كَانَتِ الْمَلائِكَةُ تَمُرُّ إِذَا مَرَّتْ عَلَى جَسَدِهِ، وَإِبْلِيسُ مُزْمِعٌ مِنْ بَيْنِهِمْ عَلَى جَسَدِهِ، وَلا يَدْرِي أَنَّ هَلاكَهُ عَلَى يَدِهِ.

رَأَى إِبْلِيسُ طِينًا مَجْمُوعًا مُجَوَّفًا، فَاحْتَقَرَهُ، فَلَمَّا صُيِّرَ الطِّينُ صُورَةً، بَاتَ الْعَدُوُّ فِي صُورَةٍ[1]، فَلَمَّا نَفَخَ فِيهِ الرُّوحَ، مَاتَ الْحَاسِدُ، فَلَمَّا بَسَطَهُ بِسَاطَ الْعِزِّ، عُرِضَتْ عَلَيْهِ الْمَخْلُوقَاتُ، فَاسْتُحْضِرَ مُدَّعِي ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ إِلَى حَاكِمِ

---

(١) العداء بين الإنسان والشيطان عداء بعيد الجذور، يعود تاريخه إلى اليوم الذي صور الله فيه آدم، قبل أن ينفخ فيه الروح، فأخذ الشيطان يطيف به، ففي صحيح مسلم عن أنس: أنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لَمَّا صَوَّرَ اللَّهُ آدَمَ فِي الْجَنَّةِ تَرَكَهُ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَتْرُكَهُ فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهِ يَنْظُرُ مَا هُوَ فَلَمَّا رَآهُ أَجْوَفَ عَرَفَ أَنَّهُ خُلِقَ خَلْقًا لا يَتَمَالَكُ» [مسلم: ٤/٢٠١٦، رقم: ٢٦١١].

فلما نفخ الله في آدم الروح، وأمر الملائكة بالسجود لآدم، وكان إبليس يتعبد الله مع ملائكة السماء، فشمله الأمر، ولكنه تعاظم في نفسه واستكبر، وأبى السجود لآدم: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

لقد فتح أبونا آدم عينيه، فإذا به يجد أعظم تكريم، يجد الملائكة ساجدين له، ولكنّه يجد عدواً رهيباً يتهدده وذريته بالهلاك والإضلال.

وطرد الله الشيطان من جنة الخلد بسبب استكباره، وحصل على وعد من الله بإبقائه حيّاً إلى يوم القيامة: ﴿قَالَ أَنظِرْنِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤﴾ قَالَ إِنَّكَ مِنَ ٱلْمُنظَرِينَ﴾[الأعراف: ١٤-١٥]، وقد قطع اللعين على نفسه عهداً بإضلال بني آدم: (قال فبما أغويتني لأقعدنَّ لهم صراطك المستقيم - ثُمَّ لآتِيَنَّهُم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شَمَآئِلِهِمْ ولا تجد أكثرهم شاكرين) [الأعراف: ١٦-١٧].

وقوله هذا يصور مدى الجهد الذي يبذله لإضلال بني آدم، فهو يأتيه من كل طريق، عن اليمين وعن الشمال، ومن الأمام ومن الخلف؛ أي من جميع الجهات، قال الزمخشري في تفسير هذه الآية [الكشاف: ٢/٧١]: " ثم لآتينهم من الجهات الأربع التي يأتي منها العدو في الغالب، وهذا مثل لوسوسته إليهم، وتسويله لهم ما أمكنه وقدر عليه كقوله: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

﴿أَنۢبِـُٔونِي﴾ [البقرة: ٣١]، وَقَدْ أَخْفَى الْوَكِيلُ عَنْهُمْ بَيِّنَةً وَعَلِمَ، فَنَكَسُوا رُؤوسَ الدَّعَاوَى عَلَى صُدُورِ الإِقْرَارِ، فَقَامَ مُنَادِي التَّفْضِيلِ فِي نَادِي الأَمْلاكِ يُنَادِي: ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ ، فَتَطَهَّرُوا مِنْ وَسَخِ دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ بِمَاءِ العُذْرِ فِي صِحَافِ ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ﴾ [البقرة: ٣٢]، فَسَجَدُوا عَلَى طَهَارَةِ التَّسْلِيمِ، فَقَامَ إِبْلِيسُ جَانِبًا، لِجَنَابَةِ الاعْتِرَاضِ، وَمَا كَانَتْ نَجَاسَتُهُ نَجَاسَةً تَتَلافَى بِالتَّطْهِيرِ؛ لأَنَّهَا عَيْنِيَّةٌ، فَلَمَّا تَمَّ كَمَالُ آدَمَ، قِيلَ: لا بُدَّ مِنْ خَالِ جَمَالٍ عَلَى خَدِّ ﴿ٱسْجُدُواْ﴾ ، فَجَرَى الْقَدَرُ بِالذَّنْبِ؛ لِيُبَيِّنَ أَثَرَ الْعُبُودِيَّةِ فِي الذُّلِّ.

يَا آدَمُ؛ ضَحِكُكَ فِي الْجَنَّةِ لَكَ، فَانْزِلْ إِلَى دَارِ التَّكْلِيفِ، فَإِنَّكَ لَنَا يَا آدَمُ، مَا ضَرَّ مِنْ كَسْرَةٍ عَزَى إِذْ جَبَرْتُهُ، أَنَا عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ أَجْلِي.

يَا قَلْبُ لا تَطْرَحْ سِلاحَكَ كُلَّهُ ... جَزَعًا وَإِنْ بَانَ الْعَقِيقُ وَبَانَهُ
لا غَرْوَ أَنْ تَجْنِيَ عَلَيْكَ فَضَائِلِي ... سَبَبَ احْتِرَاقِ الْمُنْدَلِي دُخَانَهُ

مَا زَالَتْ زَلَّةُ الأَكَلَةِ تُعَادِكَ حَتَّى اسْتَوْلَى دَاؤُهُ عَلَى أَوْلادِهِ، فَنَمَّتْ هَيْنَمَةُ الْمَلائِكَةِ بِعِبَارَةِ نَظَرِ الْعَاقِبَةِ، فَنَشَرُوا مُطْوَى ﴿أَتَجْعَلُ﴾ ، فَدَعَوْا بِعِصِيِّ الدَّعَاوِي فِي ظُهُورِ العُصَاةِ، فَقِيلَ: لَوْ كُنْتُمْ بَيْنَ أَفَاعِيِّ الْهَوَى، وَعَقَارِبِ اللَّذَّاتِ لأَظْهَر آبَائكم بلباء لكم فَجروا بِيَدِ الْجَزَعِ، وَرَأَى هَوْدَجُ الْعِصْمَةِ الدَّعَاوِي، وَحَدَّثُوا أَنْفُسَهُمْ بِالتُّقَى بِالتَّقَاوِي، فَقِيلَ: نَقِّبُوا عَنْ خِيَارِ نُقَبَائِكُمْ، فَانْتَقَوا مَلِكَ الْمَلَكُوتِ، فَمَا رَأَوْا فِيمَا رَأَوْا لِمِثْلِهَا مِثْلِ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، فَآبَا مِنْ سَفَرِ البَلايَا بِالْبَلِيَّةِ، فَمَا نَزَلا حَتَّى نَزَلا مِنْ حِصْنِ الْعِصْمَةِ، فَنَزَلا مَنْزِلَ الدَّعْوَةِ، فَرَكِبَا مَرْكِبَ الْبَشَرِيَّةِ، فَمَرَّتْ عَلَى الْمَرْأَيْنِ امْرَأَةٌ يُقَالُ لَهَا: الزَّهْرَةُ، بِيَدِهَا مُزْهَرُ زَهْرَةِ الشَّهْوَةِ، فَغَنَّتِ الْغَانِيَةُ بِغُنَّةٍ أَغَنَّ، فَرَنَّتْ قِيَانُ الْهَوَى، فَهَوَى الصَّوْتُ كَالصَّوْبِ إِلَى قُلَيْبِ قَلْبَيْهِمَا عَنْ تَقْوَى التَّقْوِيمِ، فَانْهَارَ بِنَاءُ عَزْمِ هَارُوتَ، وَمَارَهُمْ حَزْمُ مَارُوتَ، فَأَرَادَاهَا عَلَى الرَّدَى فَرَاوَدَاهَا، وَمَا قَتَلَ الْهَوَى نَفْسًا فَوَدَاهَا.

فَبَسَطَتْ نَطعَ التَّنَطُّعِ عَلَى تَخْتِ التَّخْيِيرِ، إِمَّا أن تُشْرِكَا، وَإِمَّا أَنْ تَقْتُلا، وَإِمَّا أَنْ تَشْرَبَا، فَظَنَّا سُهُولَةَ الأَمْرِ فِي الْخَمْرِ، وَمَا فَطِنَا، فَلَمَّا امْتَدَّ سَاعِدُ الْخِلافِ فسقى فسقا، فَدَخَلَ سِكَكُ السُّكْرِ فِي رُؤوسِهِمَا، فَنَزَلا فِي مَنَازِلِ

الزِّنَا، فَرَآهُمَا مَعَ الشَّخْصَةِ شَخْصٌ، فَشَخِصَا إِلَيْهِ، فَفَشَتْ فِتْنَتُهُمَا فِي فِئَةِ الْمَلائِكَةِ، فَاتَّخَذُوا لِتِلْكَ الْوَارِدَةِ وِرْدًا مِنْ تَضَرُّعٍ، وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الأَرْضِ.

سُبْحَانَ مَنْ خَصَّنَا بِكَرَامَاتٍ لا نُحْصِيهَا، رَفَعَ السَّمَاءَ مِنْ أَجْلِنَا بَانِيهَا، وَسَطَحَ الأَرْضَ مِهَادًا لَنَا دَاحِيهَا، وَسَخَّرَ الأَنْهَارَ لِقُوَانَا مُجْرِيهَا، وَجَادَلَ الْمَلائِكَةَ عَنَّا، وَيَكْفِي فِي فَضْلِنَا تَنْبِيهًا، قَالُوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا﴾ [البقرة: ٣٠]، قَالَتْ الْمَلائِكَةُ عَنَّا: لا يَخْلُقُ خَيْرًا مِنَّا، فَأَمِنُوا تَغَيُّرَ الأَحْوَالِ، وَمَا أَمِنَّا، فَمَالُوا عَلَى دَعْوَى ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ ، وَنَحْنُ مِلْنَا عَلَى ذُلِّ ﴿وَلَا تُحَمِّلْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، لَقَدْ أَظْهَرَتِ الْمَلائِكَةُ حَالَةً فِي خَافِيهَا، يَا نَفْسُ خَافِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا، وَلَقَدْ أَظْهَرَ فِينَا سِرَّ عِلْمِهِ، وَأَمْضَى فِي الْمُحْتَرِزِ مِنْهُمْ بِسَهْمِ حُكْمِهِ، والْحَرِيصُ يَتَعَنَّى وَلا يَحْصَى بِغَيْرِ قِسْمِهِ، ظَنُّوا بِنَا ظَنًّا، فَأَخْطَأَ الظَّنُّ فِي رَجْمِهِ، قَالُوا مَقَالَةً، قَالَتِ الأَقْدَارُ مَا يُنَافِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

أَفِي الْمَلائِكَةُ حَبِيبٌ، أَوْ خَلِيلٌ، أَوْ كَلِيمٌ؟ أَمَا أَدْهَشَهُمْ يَوْمَ ﴿كُونِى بَرْدًا﴾ [الأنبياء: ٦٩] صَبْرَ إِبْرَاهِيمَ، أَمَا ضَجُّوا يَوْمَ اضْطَجَعَ الذَّبِيحُ وَقَالُوا: هَذَا أَمْرٌ عَظِيمٌ، مَا لَهُمْ لَوِ ابْتُلُوا كَابْتِلائِنَا، لَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ سَلِيمٌ، أَلَيْسَ كَانَ مِنْهُمْ هَارُوتَ وَمَارُوتَ، وَلَكِنَّ الْحَسَدَ قَدِيمٌ، أَلَهُمْ سَلامٌ قَوْلا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ، أَيَقْطَعُونَ عَلَيْنَا بِالْفَسَادِ فِي الْغَيْبَةِ، وَفِي الْغَيْبَةِ مَا فِيهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

أَلأَفْوَاهِهِمْ كَخُلُوفِ فَم الصَّائِم أَمْ لَنَا؟ أَبِهِمْ يُبَاهَى فِي السُّجُودِ أَمْ بِنَا؟ مَنْ مِنَّا يُفَاخَرُ بِهِ فِي أَرْضٍ مِنَّا؟ أَتُرَى مَنْ بِلَفْظِ ﴿يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤] عَنَى؟ مَنِ الْقَائِلُ: لَوْ دَنَوْتُ أُنْمُلَةً لاحْتَرَقْتُ؟ وَعَنْ مَنْ قِيلَ: ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨]؟ أَتُعِيبُنَا الْمَلائِكَةُ وَلَمْ تَرَنَا بِالْهَاذِلَةِ يَصْعُبُ تَلافِيهَا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

مَنْ مِنَّا يُبَاهَى بِهِ وَقَدْ رَقَدَ مَنِ الرَّابِحُ فِي تِجَارَتِهِ فَيُضَاعِفَهُ إِذَا انْتَقَدَ، لَقَدْ سَبَقْنَاهُمْ بِاخْتِيَارِ الْمَعَالِي لَقَدْ لَقَدْ، مَنْ فَتَّشَ مِنْهُمْ عَنْ مِثْلِ فَضْلِنَا فَقَدْ فَقَدْ، أَلَهُمْ تَقُولُ النَّارُ: جُزْ يَا مُؤْمِنُ فَقَدْ، أَمْ نَحْنُ نُطْفِيهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا.

هُمْ فِي أَرْزَاقِنَا يَعْمَلُونَ، أَمَا يُصَلُّونَ عَنَّا بَعْدَ مَوْتِنَا وَيَعْبُدُونَ؟ أَمَا يَسْتَأْذِنُونَ عَلَيْنَا فِي الْجَنَّةِ وَيُسَلِّمُونَ؟ أَلَهُمْ فَضِيلَةٌ يُؤْثَرُونَ؟ أَلَهُم مَزِيَّةٌ مَا يَحُجُّونَ، أَلَهُمْ مَرْتَبَةٌ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ، أَمَا شافههم. . . . فَلَنَا يَسْتَغْفِرُونَ، وَلَكِنْ إِذَا ثَارَتْ نَارُ الْحَسَدِ مَنْ يُطْفِيهَا، أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

دَعْوَى السَّلامَةُ مِنْ كُلِّ آفَةٍ آفَةٌ، وَالسَّعِيدُ مَنْ إِذَا رَأَى ذَلِكَ الغَيْرَ خَافَهُ، وَلَوْ عَلِمَ آدَمُ كَذِبَ الْمَشْرَبِ عَافَهُ، وَمَا ضَرَّهُ بَعْدُ وَعَصَى، وَقَدْ حَكَمَ بِنَسَبِ ﴿ثُمَّ اجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [طه: ١٢٢]، فَأَفهُ أَتَبْسُطُ الْمَلائِكَةُ مُعْجَبَةً عَلَيْنَا، فَأَيْنَ الرَّأْفَةُ، أَمَا عَلِمُوا أَنَّ طَرِيقَ الْعُبُودِيَّةِ مَسْبَعَةٌ فِي مَخَافَةٍ، كَمْ بَيْنَ خَوْفِ عُمْرِ يَوْمِ مَنْ يَشْتَرِي مِنِّي الْخِلافَةَ بِمَا فِيهَا، وَبَيْنَ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا.

الفصل الثاني

في قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧]

تلقى؛ بمعنى: أخذ، وقيل: كان الله عز وجل أوحى إليه أن يستغفر له بكلامٍ من عنده، فَفَعَلَ، فَتَابَ عليه.

إخواني؛ هذا المقبولُ أخذَ فعملَ فَقُبِلَ، وَذَاكَ المطرودُ عَارَضَ وَأَعْرَضَ وَاعْتَرَضَ فَمَا قُبِلَ.

إخواني؛ تأملوا هذه الإشارة، سَلِمَ أَصْلُ الوَصْلِ فلم يَقْدَحْ فيه الذَّنبُ، فَعَلَّمَ المجني عليه الجاني كيفيةَ العُذْرِ، لَمَّا امتنعَ إبليسُ من السجودِ نَادَاهُ القدرُ ابعد وحس ما خلقت؛ أردت لولا تقدير الذنب هلكَ آدمُ من العجب، فتزينك له الخطأ بالخطايا أيقاد نار في عوده، فيتضوع بقاع يفاع الذُّلِّ، فيبين معنى اسم العبد، أَوَمَا سمعت ما أومأَ إليه دفينُ القدرِ؛ لو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبوا.

ثم قيل: يا آدم؛ خذ أهبة التحرز فلا يخرجنكما، فاحتالَ إبليسُ بحيلةِ حَيَّةٍ، حتى اقتحم بحجة حية، وحمل معه من مخدع خديعته هدية الطبخ في صحفة ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ [طه: ١٢٠]، وغشاها بغشاء الغش في ستر ﴿مَا نَهَىٰكُمَا﴾ [الأعراف: ٢٠]، وأملها على مين اليمين في راحة ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١] حتى ألقاها بين أيديهما على بساط الكذب في دعوى ﴿إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [الأعراف: ٢١]، فسارا معه تحت علم ﴿هَلْ أَدُلُّكَ﴾ [طه: ١٢٠]، فإذا هما في تيهِ ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍۚ﴾ [الأعراف: ٢٢]، فلما تناول من الشجرة قبض جبريل على ناصيته، وأخذ يلومه في معصيته، وهو يقول: (يا جبريل؛ أرفق بي. فقال: إني لا أرفق بمن عصى الله).

إخواني؛ هذه سياطُ أَدَبٍ لا مقامع غَضَبٍ، يا آدم طلبتَ الخلودَ من الشجرةِ، وعقوبةُ مَنِ اشتغلَ بالأسبابِ عن المُسَبِّبِ إِبْعَادَهُ، ولو طلبتَ الخلودَ مِنِّي ما خَرَجْتَ، فَلَمَّا هبطَ جاءه جبريلُ، فَلَمَّا رَآهُ تَذَكَّرَ المَعَاهِدَ فَبَكَى وَبَكَى جبريلُ لِبُكَائِهِ: [الطويل]

أَلا يَا صَبَا نَجْدٍ مَتَى هِجْتِ مِنْ نَجْدِ ... لَقَدْ زَادَنِي مَسْرَاكِ وَجْدًا عَلَى وَجْدِي

فَقَالَ لَهُ جبريلُ: ما هذا البكاءُ؟ قال: يا جبريلُ؛ كيف لا أبكي وقد حَوَّلَنِي رَبِّي من دَارِ النَّعيمِ إلى دَارِ الْبُؤْسِ؟!

[الطويل]

وَلَمْ أَشْكُ ما في الْقَلْبِ مِمَّا أَرَى بِهِ ... مِنَ الشَّوْقِ حَتَّى كَادَ يَخْرُجُ مِنْ صَدْرِي

إِذَا زَفْرَةٌ غَصَّتْ فُؤَادِي بِحَسْرَةٍ ... بَعَثْتُ بِهَا مِنْ مُقْلَتِي عَبْرَةً تَجْرِي

وَهَلْ يَقْدِرُ الْمَحْزُونُ إلا عَلَى الْبُكَا ... وَحَسْبُ اشْتِيَاقِي أَنْ هَتَكْتُ لَهُ سِتْرِي

جَاءَهُ الوحيُ بعدَ هُبُوطِهِ، يا آدمُ؛ ما هذا الذي بِكَ؟ وما هذه البَلِيَّةُ؟ قال: إلهي؛ صرتُ في دَارِ الهَوَانِ بَعْدَ الكَرَامَةِ، والشَّقاءِ بعدَ السَّعَادةِ، والنَّصَبِ بَعْدَ الرَّاحَةِ، كَيْفَ لا أَبْكِي؟!

[الرمل]

ما رَحَلْنَ الْعِيسُ مِنْ بَعْدِكُمْ ... فَرَأَتْ عَيْنَايَ شَيْئًا حَسَنَا

هَلْ لَنَا مِنْ عَوْدَةٍ نَحْوَكُمْ ... وَمِنَ التَّعْلِيلِ قَوْلِي هَلْ لَنَا

قَدْ شَجَانَا الْيَأْسُ مِنْ بَعْدِكُمْ ... فَغَدَوْنَا بِأَحَادِيثِ الْمُنَى

يَا نَدِيمِي عُدْ عَنْ ذِكْرِهِمْ ... فَحَدِيثُ الشَّوْقِ قَدْ أَسْكَرَنَا

وَلَعَمْرِي لَوْ وَجَدْنَا رَاحَةً ... مِنْ هَوَاكُمْ لَطَلَبْنَا شَجَنَا

ما زَالَ مِعْولُ النَّدَمِ يَحْفِرُ رَكْيَةَ الْحُزْنِ حَتَّى أَنْبَطَ مِنْ مَاءِ الأَسَفِ، ولم يزلِ القلبُ يَتَقَلَّبُ على جَمَرَاتِ الفضلِ حتى أُقِيمَ في مَهَبِّ نَسِيمِ الرِّضَا، فلم تعرف عذراء الخطيئة كيفيةَ العُذْرِ، حَتَّى أَمْلَى عليها قَرِينُ الوَصْلِ، فَتَلَقَّتْهُ في فِيِّ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ﴾ [البقرة: ٣٧] فنسخ به وسخ راسخ حكم ﴿وَعَصَىٰٓ﴾ [طه: ١٢١]، فَسَطَرَ في سطرِ نسخةِ القَبُولِ ﴿فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢٢].

يا آدم؛ لا تجزع من كأسِ زَلَلٍ كان سبب كَيْسِكَ، فقد اسْتَخْرَجَ منكَ دَاءَ العُجْبِ، وَأَلْبَسَكَ رِدَاءَ النُّسُكِ، وَحَلَلَ أَزْرَارَ حُلَلِ الْكِبْرِياءِ بِأَنَامِلِ ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ [الأعراف: ٢٣].

[البسيط]

لَعَلَّ عَتْبَكَ مَحْمُودٌ عَوَاقِبُهُ   فَرُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالْعِلَلِ

لا تحزن بقولي لكَ: اهبط، فَلَكَ خَلَقْتُهَا، وَلَكِنِ اخْرُجْ إلى مَزرعةِ المُجَاهدةِ، وَسُقْ مِنْ دَمْعِكَ سَاقِيَةً سَاقِيَةً لِشَجَرَةِ نَدَمِكَ، فإذا عَادَ العُودُ أخضر فَعُدْ.

[الخفيف]

إِنْ جَرَى بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ عَتْبٌ   وَتَنَاءَتْ مِنَّا وَمِنْكَ الدِّيَارُ

فَالْغَلِيلُ الَّذِي عَهِدْتَ مُقِيمٌ   وَالدُّمُوعُ الَّتِي شَهِدْتَ غِزَارُ

امْسَحْ أَيُّهَا الحبيبُ دَمْعَ الأَسَفِ الذي نَسَفَ " لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ وَيَسْتَغْفِرُونَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ "(١).

لا تَظُنَّ أَنَّكَ إِذَا نَزَلْتَ نَزَلْتَ، إنما هَبَطْتَ بمنشورِ الخلافةِ إلى المَزْرَعَةِ لتبذرَ حَبَّ الحُبِّ فتسقيه من عَيْنِ العينِ، فإذا وقع الحصادُ ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ﴾ [آل عمران: ٣٠]، عُدْتَ إلى دارِ الإقامةِ ﴿بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة: ٢٤]، ولو عُفِيَ لَكَ عن تلكَ اللُّقْمَةِ لَقَالَ الحَاسِدُونَ: كيف فُضِّلَ ذُو شَرَهٍ لم يصبر عن شَجَرَةٍ، انْزِلْ إلى شَجَرَاتِ الهوى مُصَابِرًا لطولِ الظمأ في الهَوَاجِرِ، مُهَاجِرًا لَذَّةَ المُشْتَهَى، لتفوحَ روائحُ "وَلَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ. . . "(٢)، وَبَيِّنْ أَنَّ ذلك التَّناولَ لم يكن عن شَهْوَةٍ، إنما كان عن تغريرِ

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٦، رقم ٢٧٤٩). وأخرجه أيضًا: عبد الرزاق عن معمر فى الجامع (١١/ ١٨١، رقم ٢٠٢٧١)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥/ ٤١٠، رقم ٧١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤٤٦، رقم ٤٢٥٦)، والخطيب (٧/ ٢١٣). وأخرجه أيضًا: البزار كما فى كشف الأستار (١/ ٤٥٨ رقم ٩٦٤). قال الهيثمى (٣/ ١٧٩): رواه أحمد، والبزار باختصار، والطبرانى فى الكبير وله أسانيد عند الطبرانى وبعض طرقه رجالها رجال الصحيح، وفى إسناد أحمد عمرو بن مجمع وهو ضعيف.

الغرار ومكر الحاسد، قال ابنُ عَبَّاسٍ رضي الله عنه: (ما عَلِمَ آدَمُ عليه السلام أَنَّ أَحَدًا يَحْلِفُ بِاللهِ وَيَكْذِبُ ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: ٢١]).

يا آدم؛ لولا نزولك ما تَصَاعَدَتْ صُعَدَاءُ الأَنْفَاسِ، ولا نزلت وَسَائِلُ "هَلْ مِنْ سائلٍ..."[١]، لولا افتقارُ الطالبِ ما تَشَاغَلَ بِحَفْرِ مَعْدِنِ "كُنْتُ كَنْزًا..."[٢].

[الكامل]

لَوْلا الضَّنَى خَفِيَتْ عَلامَاتُ الْهَوَى ... بِالشَّمْعِ يُعْرَفُ عَكْسُ نَقْشِ الْخَاتَمِ

أَقْلَقَهُ لَمَّا عَصَى وُقُوعُ النَّائِبَاتِ، فلا تَسْأَلْ عن حَالِهِ كيفَ بعدَ النَّائِبَاتِ، ما زَالَ يبكي لَمَّا جَنَى لِمَا جَنَى مِنْ جَنْيِ الثَّمَرَاتِ، وينادي بلسانِ اعْتِذَارِهِ: ما

(١) أخرجه الطيالسى (ص ٢٩٥، رقم ٢٢٣٢)، وابن أبى شيبة (٦/ ٧٢، رقم ٢٩٥٥٦)، وأحمد (٣/ ٣٤، رقم ١١٣١٣) وعبد بن حميد (ص ٢٧٢، رقم ٨٦١)، ومسلم (١/ ٥٢٣، رقم ٧٥٨)، وأبو يعلى (٢/ ٤٠٠، رقم ١١٨٠)، وابن خزيمة (٢/ ١٨٢، رقم ١١٤٦).

(٢) حديث "كنت كنزا مخفيا فأحببت أن أعرف فخلقت الخلق فبي عرفوني " قال شيخ الإسلام ابن تيمية: موضوع ليس من كلام النبي ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي، والحافظ ابن حجر في اللآلئ والسيوطي وغيرهم وقال الشيخ إسماعيل بن محمد العجلوني "وهو واقع كثيرا في كلام الصوفية وبنوا عليه أصولا لهم " كشف الخفا٢ /١٣٢ قلت: هذا الحديث وحديث "من عرف نفسه عرف ربه "وهو حديث موضوع كذلك ذكره السيوطي في ذيل الموضوعات وقال فيه الإمام النووي ليس بثابت وشيخ الإسلام ابن تيمية قال موضوع، وذكره شيخنا محمد ناصر الدين الألباني في سلسة الأحاديث الضعيفة برقم ٦٦ وقال: لا أصل له، أقول هذان الحديثان هما عمدة المتصوفة من أهل وحدة الوجود القائلين بأنه لا يوجد في الكون إلا الله وما المخلوقات إلا مظاهره، فالإنسان مظهر ومجلى لله على حد تعبيرهم، ومعنى "من عرف نفسه عرف ربه "عندهم أي يعنون من علاف نفسه عرف أنه الله أي صورة من صوره لأنه في عقيدتهم الباطلة يتجلى في هذه الموجودات المتعددة ولذلك قال قائلهم "سبحاني " "وما في الجبة إلا الله ". [سلسلة الأحاديث الواهية ١/ ٢٧٠]

أَعُودُ، وَيُقَالُ: فَاتَ، إِلَى أَنْ قَدِمَ بشيرُ الوصلِ بإشاراتِ البشارات، وَهَبَّتْ بِهِ رِيحُ النَّصْرِ، وَالْحَرْبُ تَارَات، فَعَاشَ قَلْبٌ بِحَرٍّ حَرْقِ الْوَجْدِ مَات، ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

أَجْدَبَتْ أرضُ نَارِ القلبِ لِنَارِ الْحُرقَاتِ، وَهَاجَ زرعُ الطربِ من شِدَّةِ الزَّفَرَاتِ، فخرجت تستسقي غيثًا أقدامُ الحسرات، وَتَضَرَّعَتْ لطلبِ النَّدَى أفواهُ النَّدَامَات، فَسَالَتْ عينُ العينِ فَسَالَتْ في الصَّفَوَات، فَهَبَّتْ رياحُ العفوِ قبلَ الغيثِ مُبَشِّرَات، وتراكم سَحَابُ الرِّضَا عن زَلَّةٍ جرت فَجَرَتْ منه قَطَرَات ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

فانتبه كما انتبه أبوك من الرَّقَدَاتِ، وَانْدُبْ زَمَانًا مضى في الهَفَوَاتِ، واغسل بالدَّمعِ عينًا درنت بالمُحَرَّمَاتِ، لعلَّ عطفَ اللُّطفِ يعودُ فيعودُ العودُ مِنَ المُثمراتِ، فَبَقِيَّةُ عُمْرِ المَرْءِ لا قيمةَ لَهُ يستدرك فيه ما فات، ولا تأيس فإن "لِرَبِّكُمْ في أَيَّامِ دَهْرِكُمْ نَفَحَاتٌ فَتَعَرَّضُوا. . . "(١) كما تَعَرَّضَ أَبُوكُمْ آدمُ بعملِ الخيراتِ ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ [البقرة: ٣٧].

---

(١) قال العجلونى (١/ ٢٦٩): ذكره الغزالى فى الإحياء، وقال العراقى فى تخريج أحاديثه: رواه الترمذى الحكيم فى النوادر.

وللحديث أطراف أخرى منها: "إن لربكم فى أيام دهركم نفحات".

الفصل الثالث

في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

إنما سَمَّى الصدقةَ قرضًا لثلاثة أوجه:

أحدها: أن القرضَ يُبذلُ للجزاءِ فتطمئن نفسُ البخيلِ إلى العِوَضِ .

الثاني: أنه يَتَأَخَّرُ قضاؤه فيُعْلَمُ الصَّبرُ .

الثالث: لبيانِ استحقاقِ العِوَضِ به.

روى البخاري في " صحيحه " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلا يَصْعَدُ إِلَى اللَّهِ إلا الطَّيِّبُ، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهَا كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فُلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ "(١).

وروى مسلم في " صحيحه " من حديث أبي مسعود الأنصاري، قال: " جَاءَ رَجُلٌ بِنَاقَةٍ مَخْطُومَةٍ، فَقَالَ: هَذِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَكَ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ [سَبْعُ](٢) مِائَةَ نَاقَةٍ [كُلُّهَا](٣) مَخْطُومَةٌ "(٤).

---

(١) أخرجه البخارى (٢/ ٥١١، رقم ١٣٤٤)، ومسلم (٢/ ٧٠٢، رقم ١٠١٤). وأخرجه أيضًا: مالك (٢/ ٩٩٥، رقم ١٨٠٦)، والنسائى فى الكبرى (٤/ ٤١٣، رقم ٧٧٣٥)، وابن حبان (٨/ ١١٣، رقم ٣٣١٩)، والبيهقى (٤/ ١٧٦، رقم ٧٥٣٥).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٣) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٤) أخرجه مسلم (٣/ ١٥٠٥، رقم ١٨٩٢)، والنسائى (٦/ ٤٩، رقم ٣١٨٧).

اعلم أن للقرض الحسن سِتُّ صفاتٍ منها أن يكون حلالا، روى مسلم في "صحيحه" من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يَقْبَلُ اللهُ صَدَقَةً مِنْ غُلُولٍ "(١).

وكان الحسن يقول: أَيُّهَا المُتَصَدِّقُ عَلَى الْمِسْكِينِ يَرْحَمُهُ، ارْحَمْ مَنْ ظَلَمْتَ.

الصفة الثانية: أن يكون من محبوب المال، قرأ ابنُ عُمَرَ: (﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران: ٩٢]، فقال: لا أجد شيئًا أحب إليَّ من جاريتي رُمَيْثَةَ، فهي حُرَّةٌ لوجهِ اللهِ تعالى). (ومرض، فاشتهى شيئًا، فلما صُنع له جاء سائلٌ فَنَاوَلَهُ إِيَّاهُ، وقال: إنَّ عبدَ اللهِ يُحِبُّهُ).

الصفة الثالثة: أن يكون في صحة المُتَصَدِّقِ، فقد قال عليه السلام: " مَثَلُ الَّذِي يَعْتِقُ عِنْدَ الْمَوْتِ، كَمَثَلِ الَّذِي يُهْدِي إِذَا شَبِعَ "(٢)، وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة: "أنه سُئِلَ: أَيُّ الصَّدَقَةِ أَفْضَلُ؟ فَقَالَ: أَنْ تَتَصَدَّقَ وَأَنْتَ شَحِيحٌ صَحِيحٌ، تَأْمَلُ الْبَقَاءَ، وَتَخْشَى الْفَقْرَ، ولا تُمْهِلْ حَتَّى إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ قُلْتَ: لِفُلانٍ كَذَا، وَلِفُلانٍ كَذَا، وَقَدْ كَانَ لِفُلانٍ "(٣).

الصفة الرابعة: أن يقصدَ المتصدقُ وجهَ الله عَزَّ وَجَلَّ، وفي "الصحيحين" عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " يُؤْتَى بِرَجُلٍ قَدْ وَسَّعَ اللهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، فَيُقَالُ: ما عَمِلْتَ؟ فَيَقُولُ: ما تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٠٤، رقم ٢٢٤). وأخرجه أيضًا: ابن الجارود (ص ٢٨، رقم ٦٥)، وابن خزيمة (١/ ٨، رقم ٨)، وأبو عوانة (١/ ١٩٨، رقم ٦٣٥)، والبيهقى (٢/ ٢٥٥، رقم ٣١٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٣٠، رقم ٣٩٦٨).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ٤٦٣، رقم ٤٤١٥) قال الهيثمى (٣/ ١٣٣): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبرانى فى الأوسط، ورجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه أيضًا: البزار (٤/ ٣٤٤، رقم ١٥٤٠)، وأبو يعلى (٩/ ٥٦، رقم ٥١٢١)، والطبرانى (١٠/ ٨٤، رقم ١٠٠٢٩)، وفى الأوسط (٨/ ١٧٧، رقم ٨٣٢٢).

فِيهَا إلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، فَيُقَالُ: كَذَبْتَ، وَلَكِنْ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ ذَلِكَ، فَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ، فَيُلْقَى في النَّارِ "[١].

الصفة الخامسة: إخفاء الصدقة، فإنه يقرب المُتصدق من الإخلاص، ويبعد من الرياء والفقراء من الذل، فيا عجبًا إذا كان المعمول من أجله يعلم ويرى، فما للخلق في البين.

الصفة السادسة: أن يكون بغير مَنٍّ ولا أذًى، والمَنُّ بأن يَمُنَّ عليه بما يُعطيه، ويحك لِمَ تَمُنَّ وهو يأخذ مِنْكَ لَكَ في حال غِنَاكَ، فَيُخَبِّىء لَكَ في وقتِ حَاجَتِكَ، ويأخذ منك يسيرًا يَفْنَى، وَيُعْطِيكَ كثيرًا يَبْقَى، فهو أَمَنُّ عليكَ.

والأذى من وجهين:

أحدهما: مواجهة الفقير بما يؤذيه من الكلام .

الثاني: أن يُخبر الناس بما فعل مع الفقير.

ولقد كان حَسَّانُ بنُ أبي سنان يشتري أهلَ البيتِ، فيُعتقهم، ولا يُعلمهم من هو، قال بِشْرٌ: (الصدقة أفضل من الحج والعمرة والجهاد؛ لأن ذلك يركب ويرجع فيراه الناس، وهذا يعطي سرًّا فلا يراه إلا الله تعالى).

وروي عن الحسن بن علي عليهما السلام: (أنه خرج من ماله، وقاسم ربه بماله ثلاث مرات).

(وَبُعِثَ إلى عائشةَ رضي الله عنها بقريب مائتي ألف، فقسمتها، ثم أفطرت على خبزٍ وزيتٍ، فقالت لها جاريتها: لو اشتريت لنا لحمًا بدرهمٍ، فقالت: لو ذَكَّرْتِينِي لَفَعَلْتُ).

أيها البخيلُ عن نَفْسِهِ؛ أنت خازنُ الورثةِ، أُفٍّ لثيابِ الأحرارِ على عبيدِ الأنفسِ، تاللهِ إن نعمةَ الجاهلِ كَرَوْضَةٍ في مُزْبَلَةٍ.

[الطويل]

جَـبَـانٌ عَـنِ الإنْـفَـاقِ وَالْـمَـالُ وَافِـرٌ وَرُبَّ سِـلاحٍ عِـنْـدَ مَـنْ لا يُـقَـاتِـلُ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٢١، رقم ٨٢٦٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥)، والنسائي (٦/ ٢٣، رقم ٣١٣٧).

يا مَنْ لا يؤدي ما يجب عليه، كيف تطمع في مرتبة ﴿وَيُؤْثِرُونَ﴾ [الحشر: ٩]؟

اسْتُشْهِدَ باليرموكِ عِكْرِمَةُ بنُ أبي جَهْلٍ، وَسُهَيْلُ بنُ عمرٍو، والحارثُ بنُ هشامٍ، فَأُتِيَ عكرمةُ بماءٍ وبه رَمَقٌ، فرأى سُهَيلا ينظر إليه، فقال: ابدأوا به، ورأى سهيلُ الحارثَ بنَ هشامٍ ينظر إليه، فقال: ابدءوا به، فماتوا قبلَ أن يشربوا، فَمَرَّ بهم خالدُ بنُ الوليدِ، فقال: بِأَبِي أَنْتُمْ.

كان إبراهيم بن أدهم إذا غزى لا يأخذ من الغنيمة شيئًا، فيقال له: أَتَشُكُّ فيهِ؟ فيقول: إنما الزُّهدُ في الحَلالِ.

[الكامل]

هَلا سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ   إنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لا تَعْلَمِي

يُخْبِرُكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقِيعَةَ أَنَّنِي   أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ

يا جامعَ المالِ من الحُطام، وما يدري ما جَنَى، كُلَّمَا نَقَضَ الوعظُ أصلا من حُصُونِ حِرْصِهِ بَنَى، إلى متى يَبْعُدُ الأملُ والأجلُ قد دَنَا، يحتاج إخراجُ المالِ إلى عَزْمٍ ليس لَنَا، إن كنتَ تُطِيقُ أن تُلْقِي السيفَ والقَنَا، فَألقنا: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يا هذا الفقر يطلب منالنا، فإذن نمنع الخيرَ أنفسنا غير أن البخلَ داءٌ قد قَتَلَنَا، تالله لو عَرَفْنَا المُخَاطِبَ وَمَنْ عَنَى لَمَنَعْنَا مَنْعَنَا ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يا مَنْ ضَيَّعَ في طلبِ الدنيا عُمْرَه، كُلَّمَا حَجَّ في قَصْدِهَا أَرْدَفَهَا عُمْرَة.

يا مَنْ سَقَاهُ الهوى خَمْرَه فلم يَعْقِلْ أَمْرَه، كُلُّ حَبَّةٍ في يَدِكَ لو فَهِمْتَ جَمْرَه، فاتقِ النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَة، إنما تَطْلُبُ شيئًا هَيِّنًا.

أسبابُ حرصكَ في الدنيا قويَّة، والشهوة خسيسة وليست عَلِيَّة، قد ضاع ما مضى فاستدرك البَقِيَّة، قَدِّمْ مَالَكَ فقد استقرضَ منكَ رَبُّ البريَّة، إن لم يكن لك عَمَلٌ فَلْيَكُنْ لَكَ نِيَّة، فَغَدَوْنَا بأحاديثِ المُنى ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

تُعَلِّلُ بصلاحِكَ الشتاءَ والصيفَ، أتأمن ما أتى من قبله الرجاء وكيف،

أَمَا علمتَ أَنَّكَ في الدنيا مثل ضيف، يأتيك الفقير فَتَعِدُهُ: لا تفعل الوقت سيف، المالُ حاضرٌ والوعدُ نقدٌ زيف، وفرانقُ الفوتِ يَصِيحُ بين يَدَي أُسْدِ الموتِ الذي قد دَنَى ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

كَمْ نَدِمَ جامعُ المالِ يومَ الفراق، وقد التَفَّتِ السَّاقُ بالسَّاق، سَبَقَهُ الصَّالحون وما تركه ما يُطيق اللحاقَ، ولقد تمنى عوض ما جمع واقتنى وقتنا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

يا تجار الدنيا؛ هذه الأرباح، ويا طلاب الاكتساب عند الرباح، ويا أرباب الأسفار يلقون الحَرَّ والرياح، ما لنا نطلبُ مَالَنَا فتمنعونا يا وقاح، عاملونا بشرط الضِّعْفِ فما في الربا معنا من جناح، ولكن بشرط أن لا يكون الرياء بيننا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

مَا لَكَ مِنْ مَالِكِ بعدَ الموت نقير، غير أنك بزورِ إزرك عقير، لقد بعتَ أَنْفَسَ الأشياءِ بأحقرِ حقير، كم تعلل بالتوفيق هذا المال وهذا الفقير، هذه الخيف وهاتيك مِنَّا ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [البقرة: ٢٤٥].

الفصل الرابع

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: ٩٦]

قال أبو هريرة: كانتِ الكعبةُ حشفة على الماء، عليها ملكان يُسَبِّحَانِ اللهَ الليلَ والنهارَ قبلَ خلقِ الأرضِ بألفي سنة، وهذه الآية تُنَبِّهُ على فضلِ السابق، وللأوائل أثريَّة تزيد على ما بعدها من الخير والشر؛ قال تعالى: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ﴾ [البقرة: ٤١]، وقال صلى الله عليه وسلم: " لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا إلا كَانَ عَلَى ابْنِ آدَمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ مِنْهَا لأَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ سَنَّ الْقَتْلَ "(١)، وقال صلى الله عليه وسلم: " أول ما يقضي [فيه](٢) الدماء بين الناس "(٣)، فإذن قد بان أثر الأوائل، فانتخبتُ منها طُرَفًا من فنونٍ شَتَّى من المخلوقات، والأفعالُ بعدُ.

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ١٢١٣، رقم ٣١٥٧)، ومسلم (٣/ ١٣٠٣، رقم ١٦٧٧)، والترمذى (٥/ ٤٢، رقم ٢٦٧٣) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٧/ ٨١، رقم ٣٩٨٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣، رقم ٢٦١٦)، وابن أبى عاصم فى الديات (١/ ٥). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٩/ ١١٠، رقم ٥١٧٩)، وابن حبان (١٣/ ٣٢١، رقم ٥٩٨٣)، والبيهقى (٨/ ١٥، رقم ١٥٦٠٢).

(٢) ما بين المعكوفتين في الأصل (في).

(٣) أخرجه ابن أبى شيبة (٥/ ٤٥٧، رقم ٢٧٩٤٨)، وأحمد (١/ ٣٨٨، رقم ٣٦٧٤)، والبخارى (٦/ ٢٥١٧، رقم ٦٤٧١)، والنسائى فى الكبرى (٢/ ٢٨٥، رقم ٣٤٥٥)، وابن ماجه (٢/ ٨٧٣، رقم ٢٦١٥، ٢٦١٧).

أولُ ما خلق اللهُ سبحانه وتعالى القلمُ، أولُ جبلٍ وضع في الأرض أبو قُبَيْسٍ، أولُ مسجدٍ وُضع المسجدُ الحرامُ، أولُ ما وَلِدَ آدمُ قَابيلُ، أولُ من خَطَّ بالقلم وَخَاطَ الثيابَ إدريسُ، أولُ من عمل القراطيسَ يُوسُفُ، أولُ من سرد الدروعَ داود، أولُ مَنْ دَخَلَ الحَمَّامَ وعمل الصابونَ سُلَيْمَانُ.

فصل

أولُ من خَبَزَ الرقاق النمرود، أولُ من خَضَبَ بالسَّوَادِ فرعونُ، أولُ من طَبَخَ الآجُرَ هَامَانُ، أولُ مَنْ سَيَّبَ السَّوَائبَ عمرو بن لُحَيٍّ، أولُ من سَنَّ الدِّيَةَ مائةً من الإبل عبدُ المطلبِ، أولُ من قَطَعَ في السَّرِقَةِ وقضى بالقَسَامَةِ في الجاهلية وَخَلَعَ نَعْلَيْهِ عند دخولِ الكعبةِ الوليدُ بنُ المُغِيرَةِ، أولُ من قَضَى في الخُنْثَى بالمِيرَاثِ عامرُ بنُ الظربِ، أولُ عَرَبِيٍّ قَسَمَ لِلذَّكَرِ مثل حظِّ الأنثيين عامرُ ابنُ جُشَم.

فصل

أولُ ما بُدِئَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في الوحي بالرؤيا، أولُ ما نزل عليه من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ﴾ [العلق: ١]، أولُ آيةٍ نَزَلَتْ في القتالِ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟﴾ [الحج: ٣٩]، أولُ ما علمه جبريل الوضوءُ، أولُ من أسلم من الرجال أبو بكر رضي الله عنه، ومن النساء خديجةُ، ومن الصِّبْيَانِ عليٌّ، ومن الموالي زيدٌ، ومن الأنصارِ جابرُ بنُ عبدِ اللهِ ابنِ رباب، أول من هاجر إلى الحبشة حاطبُ بنُ عمرٍو، وإلى المدينة مصعبُ ابنُ عُمَيْرٍ، ومن النساء أمُّ كلثوم بنت عقبة، أول من أحدثَ المصافحةَ أهلُ اليمن، أولُ من أَذَّنَ بلالٌ، أولُ من بَايَعَ ليلةَ العقبةِ أسعدُ بنُ زرارةَ، أولُ من بايع بيعةَ الرضوانِ أبو سنان الأسديُّ، أولُ من بَنَى مسجدًا في الإسلام عَمَّارٌ، أولُ من سَلَّ سيفًا في الإسلام الزُّبيرُ، أولُ من عَدَى به فَرَسُهُ في سبيل الله المِقْدَادُ، أولُ من رَمَى بسهم في سبيلِ اللهِ سعدُ بنُ أبي وَقَّاصٍ، أولُ شهيدٍ في الإسلام سُمَيَّةُ أُمُّ عَمَّارٍ، أولُ رايةٍ عُقِدَتْ في الإسلامِ رايةُ عبدِ اللهِ بْنِ جَحْشٍ وهو أولُ مَنْ دُعِيَ بأميرِ المؤمنينَ.

فصل

أول ظهار كان في الإسلام ظهار أوس بن الصامت من المجادلة، أول خلع كان في الإسلام خلع حبيبة بنت سهل بن ثابت بن قيس، أول لعان كان في الإسلام لعان هلال بن أمية مع زوجته، أول مرجوم كان في الإسلام ماعزٌ، أول من سَنَّ الصلاةَ عند القتلِ خبيبٌ، أول من ارتد عن الإسلام الأسودُ العَنْسِيُّ، أول من أوصى بثلثِ ماله البراءُ بنُ مَعْرُورٍ، أول من دُفنَ بالبقيع عثمانُ ابنُ مَظْعُونٍ.

فصل

أولُ مَنْ جمعَ القرآنَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أولُ مَنْ قَصَّ تميمُ الدَّارِي، أولُ مَن وضع النحوَ أبو الأسود الدؤلي، أولُ مَن نَقَطَ المصاحفَ يحيى بن يَعْمُر.

فصل

أولُ ما يرفع الخشوع أول ما تفقدون من دينكم الأمانة، أول الآيات طلوع الشمس من مغربها، أول من تنشق الأرض عنه نبينا صلى الله عليه وسلم، وهو أول من يقرع باب الجنة، وهو أول شافع، وأول مشفع، أول من يكسى إبراهيم، أول ما يُحاسب به العبد صلاته، أول أمة تدخل الجنة أمة نبينا صلى الله عليه وسلم.

إخواني؛ لَمَّا علا كعبُ الكعبةِ على سائر البقاع بقاع العلم أبرزتها كف الإيجاد كالكاعب قبل وجود الأرض، وكان آدم أول من ساس الأساس، ثم بت للبيت بتات الطوفان، فحل ما حل بحلية أزرار خلته، فبقى على حال الحال، وقد حال إلى أن وَلَدَ الخليلُ إسماعيلَ مِنْ هاجرَ، فمنها حُرم منهاج الحرم، وهاجر بهما حتى وضعهما قريبًا من زمزم، وتولى راضيًا بالوكيل الذي تولى يوم ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فتبعته هاجر، تقول: آللهُ أَمَرَكَ بهذا؟ فقال: نعم. فرجعت متوكأةً على مِنْسَأَةِ التَّوَكُّلِ على مَنْ لا يَنْسَى، فجعلت تشرب ما معها، وترضع لبنها ابنها، فلما نفد جعل إسماعيلُ يتلوى على رَمَضٍ

رمضانَ الصومِ، فانطلقت لتبذل المجهود في مأمورِ: ﴿فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا﴾ [الملك: ١٥]، فصعدت بأقدام الصَّفَا الصَّفَا، فلما أظله الظلة على الطلل، توكفت ظل طل روح ينقع الضلالة، ثم جذبَ فجبذت الجَرْدَ بالجَدِّ هابطةً، فَلَمَّا طَرَقَ طَرْفُ سَيْرِهَا طرف الوادي رَفَعَتْ طرف ذراعها، ثم وَسَّعَتْ خُطَاهَا، وَسَعَتْ للجهد بجهدها في ذرعها، ثم أتتِ المرأةُ المروةَ، وعادت إلى الصَّفَا كذلك سَبْعًا، فلذلك أُمِرَ المكلفُ أن يسعى سَبْعًا؛ لأنه أثر مقدامٍ لتصيبَ الأقدامُ نصيبًا من مواطئ ﴿فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠]، فَسَمِعَتْ صوتًا من صوب، فنزل الملك ليزيل النازلة، فهيأ نزل النزيل النَّزِيهِ في مكانٍ نَزِيه، فَزَمَّ ماء زمزم، وَنَزَى بَعْدَ أَنْ تَزَمَّلَ نَزْوًا لا نَزْرًا، فَخَضْخَضَ الماء في صَحْصَحَانِ الحَصَى، حتى سمعت حَجْحَجَةً كَالْعَجْعَجَةِ، فامتدت كف حرصها، فألفت له كالحوض، فجاز حاكم الجزاء في مجاز المجازاة، فلامها على الجمعِ، وعاتبها على الشَّرَهِ، ليقتدي بالخليل في إيثار الكرم، يا هاجر؛ ظهور الماء ليس من كيس كسبك، فما هذا الحوض من حوض فعلك، فقد وكلنا الأمر إذًا إلى رأيك، ولو تركتِ زمزم لكانت عينًا معينًا.

إخواني؛ حاكم الجزاء لا يحابي إما حكم في قضية: ﴿اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢] بحكم: ﴿فَلَبِثَ﴾ [يوسف: ٤٢]، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ﴾ [التوبة: ٢٥] بقضية: ﴿فَلَمْ تُغْنِ﴾ [التوبة: ٢٥].

فمرت رفقةٌ من جُرهم، جَرَّهُم بريدُ: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فأقاموا، فاشتاق الخليل إلى إسماعيل، فاشترط لسان غيرة سارة أن لا تنزل، فلم ينزل عن مكانه، لئلا ينزل عن مكانه: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: ٣٧]، فقدمت إليه زوجة إسماعيل المقام فقام فَقَدَّمَ فيه قدمه، وغابت رجل الرجل فحولته إلى يساره، فسرت فيه اليسرى، فهب دليل الإرشاد للطالبين: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: ١٢٥]، فلما أُمر ببناء البيت، جاز من لم يعلم مراد الآمر، فإذا سحابة تسحب ذيل الدليل، فلما تبعت مكان البيت وقفت وقفت، ونادت: يا إبراهيم؛ علم على ظلي، فلما عَلَّمَ كما عُلم هَبّت فذهبت، فَسُرَّ بما فُسِّرَ له من مشكل الشكل، فلذلك

سِرٌّ: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ﴾ [الحج: ٢٦]، فقاما يبذلان القوى في القوى لرفع القواعد، وجعلا مكان استراحة البناء المعنى: ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ﴾ [البقرة: ١٢٧].

فلما فَرَغَا فَرَغَا فَمُ السُّؤَالِ، يُرشقان ضرعَ الضَّرَاعَةِ: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾ [البقرة:١٢٨]، فظهر جبريل من قبلة التقبل، فعَلَّمَ الناسكَ المناسكَ، وأقامه على مَنَارٍ: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ﴾ [الحج: ٢٧]، فَلَمَّا شَرَّفَ البيتَ بإضافة: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج: ٢٦]، قصده فوجُ الفيلِ، فَفُيِّلَ مُرَادُهُمْ لما باتوا على ما بيتوا قبل الطير الذي رمى كالغمام، فكانت قطراته للحصاد لا للبذر، فأصبح لزرع الأجساد كالمنجل الهاشم معجزًا لظهور نبي بني هاشم، فأمسى في بَيْدَرِ الرئاسة ﴿كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ٥].

تاللهِ لو مَارَ في قلوبِ القومِ الحجى ما رُمُوا بالحجارة، ولقد نادت قصتهم قريشًا بعبارة النِّذَارَةِ، أما يكفي أمرهم على إمارة أمارة تدبروا أثر الخلاف في الهلاك، فَإِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَة.

فسبحان من دافع بإهلاكه عن العرب بحفظ عُشٍّ وعيشٍ، فَقد فُسِّرَ ذلك فَسِرُّهُ في سِرٍّ: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ﴿١﴾﴾ [قريش: ١].

وكم اشترى بها من روح قلبٍ غافلٍ ميت، وجعل ثمنها: ﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ﴿٣﴾﴾ [قريش: ٣].

الفصل الخامس

في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

كنتم بمعنى: أنتم؛ قال ابن قتيبة: قد يأتي الفعل على نية الماضي وهو مستقبل، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١١٦]، وقال تعالى: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١]، ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩]، ﴿فَسُقْنَٰهُ﴾ [فاطر: ٩].

واعلم أن (كان) في القرآن على ستة أوجهٍ:

أحدها: بمعنى الماضي؛ كقوله تعالى: ﴿كَانَ حِلًّا﴾ [آل عمران: ٩٣]، ﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ﴾ [الكهف: ٧٩].

الثاني: صلة؛ كقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان: ٧٠].

الثالث: بمعنى ينبغي: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ﴾ [آل عمران: ٧٩]، ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ﴾ [النساء: ٩٢].

الرابع: بمعنى صار: ﴿فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾ [الواقعة: ٦].

الخامس: بمعنى هو: ﴿مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾ [مريم: ٢٩].

السادس: بمعنى وجد؛ كقوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ﴾ [البقرة: ٢٨٠].

وقال صلى الله عليه وسلم: " أَلا إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهُ تَعَالَى "(١).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/٣، رقم ٢٠٠٣٧).

قَصَّ علينا قَصَصَ مَنْ قد سَلَفَ لِنَعْبُرَ في مَعْبَرِ الاعتبارِ، فَنَنْجُوا من طوفانٍ هالكٍ، ونقتدي بنجاة سالمٍ، إذ السعيدُ مَنْ وُعِظَ بِغَيْرِهِ، طالت أعمار الأوائل وقصرت أعمارنا، فاستغاثتْ ألسنة أحوالنا: كيف نُدْرِكُ في حِينٍ قصيرٍ ما نالوه في زمنٍ كثيرٍ؟

فاختصرت لنا طرف السلوك في تضاعف الثواب بأرباح: ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، وجُعلت ليلةٌ من ليالِ سنتنا غرةً في شهر من شهورنا، فزادتْ على شهرةِ ألفِ شهرٍ.

نودي على عُصاةِ قومِ موسى: ﴿ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم﴾ [البقرة: ٥٤]، فلما فتحوا أبصارَ البصَائرِ يَوْمَ ﴿سُقِطَ فِىٓ أَيْدِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٤٩]، قاموا في مقام ذل ﴿لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا﴾ [الأعراف: ١٤٩]، فوصل توقيع التلافي بتلف: ﴿فَاقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤]، فلما بلغت إلينا في الذلل النوبة، قيل لنا: الندم توبة، عرضت لهم غزاة، فكان أخذ صلاحهم ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٤]، وساموا بيع الفضولي: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ﴾ [المائدة: ٢٤]، فقال في بعض مغازينا المقداد: " لَوْ ضَرَبْتَ بُطُونَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ "[(١)].

انْفَرَقَ البحرُ فَجَازُوا، فالعجبُ كيف استجازوا قول: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ [الأعراف:١٣٨].

صاغ السامري عجلا فلولا جوازهم في مجاز التشبيه لما التبس عليهم من لا نعرف منه سوى الاسم بجسم، وأصغر هذه الأمة قدرًا ومقدارًا يردد بيقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١].

اختار منهم سبعين، فلما علوا على ذروة الجبل ثارت أخلاطُ التشبيهِ، فقويت أمراض القلوب، فَصَخَبَتِ الألسنُ، فَضَجَّتْ: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة:٥٥]، وتزلزل الجبلُ لقُبحِ الضمير، وكيلوا بصاع صاعقةٍ، فقام موسى في قائم فوتهم يندب بلفظ: ﴿لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/ ٤٧٠، رقم ٣٧٣١٥).

قَبْلُ﴾ [الأعراف: ١٥٥]، فلما صَعِدَ نَبِيُّنَا صلى الله عليه وسلم على الجبل تزلزل لضعفه عن حمل بعض كواهلها النبوة، وبعضها الصديقية، وبعضها الشهادة، فكان موازيًا بزلزلته لانزواء جهنم يومَ: " جُزْ يَا مُؤْمِنُ. . . "(١)، فَجَازَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم، وقد سمع بقصة القوم وجود الشبه، فبقي الشبه بقوله: " فَمَا عَلَيْكَ إلا نَبِيٌّ. . . "(٢)، كانت نار القرابين تميز الخالصَ من الشبهِ، فرفعت عنا لئلا يفتضح المردود.

---

(١) ذكره الحكيم (١/١٢٨)، وأخرجه الطبرانى (٢٢/٢٥٨، رقم ٦٦٨)، قال الهيثمى (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار وهو ضعيف. وأبو نعيم فى الحلية (٩/ ٣٢٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٣٤٠، رقم ٣٧٤) وقال: تفرد به سليم بن منصور وهو منكر، والخطيب (٩/ ٢٣٢). وأخرجه أيضًا: ابن عدى (٦/ ٣٩٤، ترجمة ١٨٨١ منصور بن عمار أبو السرى) وقال: منكر الحديث.

(٢) أخرجه الترمذى (٥/ ٦٢٥، رقم ٣٦٩٩)، والنسائى (٦/ ٢٣٦، رقم ٣٦٠٩)، وابن خزيمة (٤/ ١٢١، رقم ٢٤٩١)، وابن حبان (١٥/ ٣٤٨، رقم ٦٩١٦)، والدارقطنى (٤/ ١٩٩)، والبيهقى (٦/ ١٦٧، رقم ١١٧١٣)، والحاكم (١/ ٥٨٠، رقم ١٥٢٩)، والضياء (١/ ٤٨٢، رقم ٣٥٨).

الفصل السادس

في قوله عز وجل: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ﴾

[آل عمران: ١٢٣]

لَمَّا خَرَجَ الرسولُ صلى الله عليه وسلم إلى غَزَاةِ بدرٍ رأى في الصحابة قلةَ التَّأَهُّبِ، فارتقى قلة: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فقام المقداد عن قومه قومةً، فنادى حفظًا لمتابعة المبايعة: " لو ضَرَبْتَ بُطُونَهَا إِلَى بَرْكِ الْغِمَادِ. . . "، فَكَرَّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم يكرر ليسمعَ جوابَ الأنصارِ، ففطن لسيادته سعد بن معاذ، فقال: " لو خُضْتَ الْبَحْرَ خُضْنَا مَعَكَ. . . "، فركب القوم بضمائر العزائم وشعارهم يومئذ، قال: قال: " يا منصور أمت "[1]، وغلبه المشركون على الماء، فكان بينه وبين المسلمين رماة، فأوجب الماء، فضم ضعف ظَامٍ إلى صلاةِ مُحدث، فألقى محدث الأسرار بالوساوس استنقاذ النضير في الظُّنون، فأقبلت السماء تبكي في الحال بعين القطر، فنسخَ عطشَ البرِّ بالري، وأمكن الرمل على مزمول الزمل فَبَانَ سِرُّ: ﴿وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الأنفال: ١١]، فرأى المصطفى في الأعداء العدد، والتفت إلى المسلمين فوجد إذًا ما وجد، فاستقبل قبلة الدعاء، ومديد الطلب يطالب غريمًا ما ماطل، وصاح لسان اطلاعه على الغيب عن مضمون، فأورثني بعبارة انبساط أن تهلك، فامتدت حينئذ مدد العيون ولا عون، فأقبلت سحابة تسحب ذيل النصر فَحَمَتْ جَمْعَهُمْ، فسمعوا منها حَمْحَمَةَ الخَيْلِ فَمَجْمَجُوا، وتقبلت قلوبهم في يحمومها تَحَمْحُمًا، فنزلت الملائكةُ مع

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (٦/ ١٣٤، رقم ٦٠١٥).

الألفين؛ جبريل في ألفين، وميكائيل في ألفين، وإسرافيل في ألف مراد مردفين، فعدلوا كالغمائم، قد سدلوا العمائم، فلما نزلت الأملاك لم يؤمن وجوب الإعجاب ممن جَرَّبَ من يوم دعوى: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ﴾ [البقرة: ٣٠]، فجاء بريدُ الوحي يعزل آنية السبب في توقيع ﴿أَنِّي مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ١٢]، فأرسلت قريشًا زائدًا، فعاد بتأثير: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]، فجدد القوم العزم بسهام العزائم، فأثر ما عتبه في عتبة، وكاد يشيب خوفًا شيبة، وأحكم حزام الحزم حكيم بن حزام، ورأى الجهلَ أبو جهل، فلما اشتد ساعد التناوش، أمعن المسلمون في القتال قتلا، وأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم بكفه من الحصى كفًا كَفَّ أَكُفَّهُمْ كَفًّا، واجه به وجوهًا ما جُعل لقلوبهم أحصاه، فَكَأَنَّهُ عَيَّنَ لَكلِّ عينٍ حصاة، وأشرف القبل في الإشراف من مشارفة المشرفية، فَجَزَرَ الموتُ سبعين جَزُورًا في نَحْرِ العدوِّ لا في عيد النحر.

[الوافر]

فَلَزَّهُمُ الْقِتَالُ إِلَى قِتَالٍ أَحَدُّ سِلاحِهِمْ فِيهِ الْفَرَارُ
مَضَوْا مُتَسَابِقِي الأعْضَاءِ فِيهِ لأرْؤُسِهِمْ بِأَرْجُلِهِمْ عِثَارُ

فَلَمَّا قُلِبَ الرؤساءُ إلى القَلِيبِ، قام الرسولُ صلى الله عليه وسلم على رأس الرَّسِّ الذي رسوا فيه، يُنادي بلسان ﴿فَٱنتَقَمْنَا﴾ [الروم: ٤٧] عن ضمير ﴿إِن تَسْتَفْتِحُواْ﴾ [الأنفال: ١٩] لتصديق ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ﴾ [الفتح: ٣] في مضمون: ﴿فَٱلْيَوْمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلْكُفَّارِ يَضْحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: ٣٤]، يا فلان بن فلان؛ يا فلان؛ هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقًّا، فإني وجدت ما وعدني ربي حقًّا.

وَهَذِهِ تَسْمِيَةُ مَنْ شَهِدَ بَدْرًا:

حرف الألف:

أبي بكر الصديق، أُبي بن كعب، أُبي بن ثابت، الأرقم، أسعد بن يزيد، أسيرة، أنس بن قتادة، أنس بن معاذ، أنسة، أوس بن ثابت، أوس بن خولي، أوس بن الصامت، إياس بن البكير.

حرف الباء:

بُحير، بجادة، بُسيس، بشر بن البراء، بشر بن سعد، بلال بن رباح.

حرف التاء:

تميم بن يعار، تميم مولى خراش، تميم مولى بني غنم.

حرف الثاء:

ثابت بن أقوم، ثابت بن ثعلبة، ثابت بن خالد، ثابت بن عمرو، ثابت بن هَزَّال، ثعلبة بن حاطب، ثعلبة بن عمرو، ثعلبة بن غنمة، ثقيف بن عمرو.

حرف الجيم:

جابر بن خالد، جابر بن عبد الله، جابر بن. . .، جابر بن صخر، جبر ابن عتيك، جبر بن إلياس.

حرف الحاء:

الحارث بن أنس، الحارث بن خزيمة، الحارث بن ظالم، الحارث بن النعمان، الحارث بن أمية، الحارث بن قيس، حارثة بن نفيع، حارثة بن سراقة، حاطب بن أبي بلتعة، حاطب بن عمرو، الحباب بن المنذر، حبيب بن الأسود، حزام بن ملحان، حريث بن يزيد، حصين بن الحارث، حمزة بن عبد المطلب، حارثة بن حمزة.

حرف الخاء:

خالد بن البكير، خالد أبو أيوب الأنصاري، خالد بن قيس، خارجة بن زيد، خباب بن الأرت، خباب مولى عتبة بن عتبة، خبيب بن يساف، خراش ابن الصمة، خلاد بن رافع، خلاد بن سويد، خلاد بن عمير، خليد بن قيس بن النعمان، خليفة بن عدي، خنيس بن حذافة، خليف بن. . . .

حرف الذال:

ذكوان بن عبد قيس، ذو الشمالين.

حرف الراء:

رافع بن الحارث، رافع بن عجل، رافع بن المعلى، الربيع بن إياس، ربيعة بن أكثم، ربعي بن رافع، رحيلة بن ثعلبة، رفاعة بن رافع، رفاعة بن عبد المنذر، رفاعة بن رفاعة.

حرف الزاي:

الزبير بن العوام، زيد بن أسلم بن ثعلبة، زيد بن حارثة، زيد بن الخطاب، زيد بن سهيل أبو طلحة، زيد بن وديعة، زياد بن كعب، زياد بن أسد.

حرف السين:

سالم بن عمير، سالم مولى أبي حذيفة، السائب بن عثمان بن مظعون، سبيع بن قيس، سراقة بن عمرو، سراقة بن كعب، سعد بن خيثمة، سعد بن خولة، سعد بن الربيع، سعد بن سهيل، سعد بن عثمان الزرقي، سعد بن عثمان أبو زيد، سعد بن عمير أبو زيد، سعد بن أبي وقاص، سعد بن معاذ، سعد بن قيس، سفيان بن بشير، سلمة بن أسلم، سلمة بن ثابت، سلمة بن سلامة، سلمة بن الحارث، سليمان بن عمرو، سليمان بن قيس، سليمان بن ملحان، سليمان بن أبي كبشة، سليط بن قيس، سماك أبو دجانة، سماك بن سعد، سنان بن صيفي، سنان بن أبي سنان، سواد بن أبي رزين، سواد بن غزية، سويبط، سهل بن حنيف، سهل بن عتيك، سهل بن عدي، سهل بن قيس، سهل بن رافع، سهل بن بيضاء.

حرف الشين:

شجاع بن وهب، شماس بن عثمان.

حرف الصاد:

صالح وهو شقران، صفوان بن بيضاء.

حرف الضاد:

الضحاك بن عبد عمرو، ضرمة بن عمرو.

حرف الطاء:

الطفيل بن الحارث، الطفيل بن النعمان، الطفيل بن مالك.

حرف العين:

عمر بن الخطاب، علي بن أبي طالب، عاصم بن ثابت، عاصم بن البكير، عاصم بن قيس، عاقل بن البكير، عامر بن أمية، عامر بن ربيعة، عامر ابن سلمة، عامر بن عبيدة، عامر بن فهيرة، عامر بن مخلد، عائذ بن ماعض، عباد بن بشر، عباد بن الخشخاش، عباد بن قيس بن عنبسة، عنبسة بن عبس، عبد الله بن أنيس، عبد الله بن ثعلبة، عبد الله بن جبير، عبد الله بن جحش، عبد الله بن الجد، عبد الله بن الربيع، عبد الله بن رواحة، عبد الله بن زيد، عبد الله بن سراقة، عبد الله بن سلمة، عبد الله بن سهل، عبد الله بن سهيل، عبد الله بن عبد الله، عبد الله بن أبي عبد الله أبو سلمة، عبد الله بن عبد مناف، عبد الله بن عبس، عبد الله بن عرفجة، عبد الله بن عمر، عبد الله ابن عمير، عبد الله بن قيس، عبد الله بن مخرمة، عبد الله بن مسعود، عبد الله بن حزام بن مظعون، عبد الله بن النعمان، عبد الرحمن بن جبير، عبد الله ابن عبد الرحمن، عبد ربه الأنصاري، عبيد بن أوس، عبيد بن زيد، عبيد بن أبي عبيد، عبيد بن الحارث، عبس بن عامر، عتبة بن ربيعة، عتبة بن زيد، عتبة ابن غزوان، عتبة بن عبد الله، عتيك بن التيهان، عثمان بن مظعون، عدي بن أبي الزغباء، عصيمة. . . ، عصمة حليف لهم من بني أشجع، عقبة بن عامر، عقبة بن وهب بن كلدة، عقبة بن وهب بن ربيعة، عكاشة بن محصن، عمار بن حزم، عمار بن ياسر، عمر بن أياس، عمرو بن ثعلبة، عمر بن سراقة، عمرو بن طلق، عمرو بن معاذ، عمر بن أبي سرح، ويقال: معمر، عمير بن الحارث، عمير بن الحمام، عمير بن عامر، عمرو بن سراقة، عتبة بن عمرو، عمر بن عوف، ويقال: عمرو، عمير بن أبي وقاص، عمير بن معبد، عوف بن أُثاثة وهو مسطح، عوف بن عفراء، عويم بن ساعدة، عياض بن زهير.

حرف الغين:

غنام بن أوس.

حرف الفاء:

فروة بن عمرو، الفاكه بن بشر.

حرف القاف:

قتادة بن النعمان، قدامة بن مظعون، قطبة بن عامر، قيس بن عمرو، قيس بن صعصعة، قيس بن محصن، قيس بن مخلد.

حرف الكاف:

كعب بن جمار، كعب بن زيد، كعب أبو اليسر، كتان بن الحصين.

حرف الميم:

مالك بن نبهان، مالك بن نميلة، مالك بن الدخشم، مالك بن ربيعة أبو أسيد، مالك أبو ثقيف، مالك أبو حبة، مالك بن أبي خولي، مالك بن قدامة، مالك بن مسعود، مبشر بن عبدٍ، منذر بن المخلد، محمد بن فضيلة، محمد بن مسلمة، مدلاج، مرثد، مسعود بن أوس، مسعود بن خالد، مسعود بن الربيع، مسعود بن سعد، مسعود بن سويد، مصعب بن عمير، معاذ بن جبل، معاذ بن عفراء، معاذ بن عمر، معاذ بن ماعض، معبد بن ماعض، معبد بن عبادة، معبد ابن قيس، معتب بن عبدة، معتب بن حمراء، معتب بن بشر، معقل بن المنذر، معمر بن الحارث، معن بن عدي، مسعود بن عفراء، معوذ بن عمرو، المقداد ابن الأسود، مليل بن وبرة، المنذر بن عمرو، المنذر بن قدامة، المنذر بن محمد، مهجع.

حرف النون:

نصر بن الحارث، النعمان بن ثابت، النعمان بن سنان، النعمان بن عمرو، النعمان بن عصر، النعمان بن مالك، النعمان بن أبي خزمة نوفل بن عبد الله.

حرف الواو:

واقد بن عبد الله، وديعة بن عمرو، ودقة، وهب بن سعد، وهب بن محصن.

حرف الهاء:

هاني بن نيار، هشام بن عتبة، هلال بن المعلى.

حرف الياء:

يزيد بن الحارث، يزيد بن قيس، يزيد بن عامر، يزيد بن المزين، يزيد ابن المنذر.

وممن يعرف بكنيته ممن شهدها:

أبو الحمراء، أبو خزيمة، أبو سبرة، أبو مليك، أبو وائل.

وامتنع ممن شهدها ثمانية لأعذار، فضرب لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سهامهم وأجورهم، فكانوا كمن شهدها:

عثمان، وطلحة، وسعيد، والحارث بن حاطب بن الحارث، والحارث ابن الصمة، خوات، عاصم بن عدي رضي الله عنهم، وأبو لُبَابَةَ حاطب، فهؤلاء البدريون بجملتهم، نفعنا الله بمحبتهم، وحشرنا في صحبتهم، وأنالنا من شفاعتهم، ولا حرمنا من بركة بركتهم، وغفر لنا بمغفرة مغفرتهم.

الفصل السابع

في قوله تعالى: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣]

حقيقٌ بمن عمره قصير أن يُبادر لئلا ينتهب كم يلبث قنديل الحياة على عراف الآفات، يا هذا؛ مشكاة بدنك في مهاب عواصف الهلاك، وزجاجة نفسك في معرض الانكسار، فاغتنم زمان الضوء فأيام الوصل قصار، أنفاس الحي خطاه إلى أجله، درجات الفضائل كثيرة المراقي، وفي الأقدام ضعف، وفي الزمان قصر، فمتى تنال الغاية، البِدَارَ البِدَارَ فَمَا دَارُكُمْ بِدَارٍ، تزوج التواني الكسل فاشتغلتم بالعُرس مهلا قد تولد بينهما الخُسران، لما سمع الصديق: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، أخذ جواد عزمه في جواد الحد حتى خرج عُريانًا عن الرحل؛ لأن يوم السباق لا يحتمل الأثقال، رمى ماله وَتَخَفَّف، وأذاب لَحْمَهُ وَتَجَفَّف، وأطاع وما تَكَلَّف، وبادرَ وما تَأَفَّف، ولاح له الهدى فما تَوَقَّف، وَنَزَعَ قميصه فَتَحَلَّل، حتى ضجَّ مضمار ما سبقكم أبو بكر، أحرم بذات عرق الصدق، ونزع مخيط الهوى، وكذلك علي، لَمَّا خَافَ إغارة الفوق على جُند العزيمة رمى في الصلاة بالخاتم، كان عُمر وعائشة رضي الله عنهما يُسردان الصوم، وسرد أبو طلحة أربعين سنة، وكان ابن عمر لا يفطر في الحضر، وكان الأسود بن يزيد يصوم حتى يصفر ويخضر، وحج ثمانين حجة، وحج مسروق فما نام إلا ساجدًا، وصام منصور ابن المعتمر أربعين سنة وأقام ليلها، وما فاتت سعيد بن المسيب صلاة في جماعة أربعين سنة، سعيد بن المسيب ثلاثة:

أحدهم: هذا؛ وهو أحد الفقهاء السبعة.

والثاني: سعيد بن المسيب البَلَوِيُّ رضي الله عنه، روى عنه يحيي بن عبد الله بن بكير.

الثالث: الشيرازي، روى عنه ابن أبي روق.

ختم أبو بكر بن عياش في زاوية بيته ثمانية عشر ألف ختمة، وكان كرز يختم كل يوم وليلة ثلاث ختمات، وكان لكهمس في الشهر تسعون ختمة، وكان عمير بن هانئ يسبح في كل يوم مائة ألف تسبيحة، قال الثوري: بِتُّ عند الحجاج بن فرافصة اثني عشر ليلة، فما أكل، ولا شرب، ولا نام.

ودخلوا على أبي بكر النهشلي وهو في السِّيَاقِ وهو يومئ إلى الصلاة، فقيل له: على هذه الحال، فقال: أبادر طي صحيفتي.

هؤلاء واللهِ الأبطال، لا أنت يا بَطَّال.

شعر: [الرمل]

صَافَحُوا النَّجْمَ عَلَى بُعْدِ الْمَنَالِ وَاسْتَظَلُّوا الْحَرَّ مِنْ بَرْدِ الزُّلالِ
وَاسْتَذَلُّوا الْوَعْرَ مِنْ أَخْطَارِهَا إِنَّمَا الأَخْطَارُ أَثْمَانُ الْمَعَالِي
رَكَبُوا الصَّبْرَ إِلَيْهَا رُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ يَوْمًا بِالْهُزَالِ
وَجَرَوْا سَبْقًا إِلَى غَايَاتِهَا بِالطِّوَالِ السُّمْرِ وَالْقُبِّ الْعَوَالِي

كانت مُعاذة العدوية إذا جاء النهار قالت: هذا يومي الذي أموت فيه، فما تنام حتى تمسي، وإذا جاء الليل قالت: هذه ليلتي التي أموت فيها، فما تنام حتى تصبح.

لاحت لهم راية الغاية فَجَدُّوا، وعلموا بُعْدَ الطريقِ فاستعدُّوا، فَلامَهُمْ على البِدَارِ مَنْ لا يَعْلَمُ، وعاتبهم على الجهاد من لا يفهم.

قيل للأسود بن يزيد: ارْفِقْ بِنَفْسِكَ، فقال: الرِّفْقَ أَطْلُبُ.

قيل لميسرة القيسي: لو رفقتَ بنفسكَ، فقال: مِنَ الرِّفْقِ أتيتُ. فقالت امرأة مسروق: كان يصلي حتى تنتفخ قدماه، وتقعد خلفه تبكي رحمةً له.

[الرمل]

وَبَكَى الْعَاذِلُ لِي مِنْ رَحْمَةٍ فَبُكَائِي لِبُكَاءِ الْعَاذِلِ

دخلوا على زجلة العابدة، فكلموها في الرفق بنفسها، فقالت: إنما هي أيام مبادرة، فمن فاته اليوم شيء لم يدركه غدًا، والله يا إخواني لأصَلِّيَنَّ للهِ عَزَّ وَجَلَّ ما أَقَلَّتْنِي قَدَمَاي، وَلأَصُومَنَّ له أيام حياتي، ولأَبْكِيَنَّ ما حَمِلَتِ الْمَاءَ عَيْنَاي.

[الكامل]

عَـذْلُ الْـعَـوَاذِلِ حَـوْلَ قَـلْـبِـي الـتَّـائِـهِ وَهُـوَى الأَحِـبَّـةِ مِـنْـهُ فـي سَـوْدَائِـهِ
الـقَـلْـبُ أَعْـلَـمُ يَـا عَـذُولُ بِـدَائِـهِ وَأَحَـقُّ مِـنْـكَ بِـجَـفْـنِـهِ وَبِـمَـائِـهِ
وَأُحِـبُّـهُ وَأُحِـبُّ فِـيـهِ مَـلامَـةً إِنَّ الْـمَـلامَـةَ فِـيـهِ مِـنْ إِغْـرَائِـهِ
لا تَـعْـذِلَ الْـمُـشْـتَـاقَ فـي أَشْـوَاقِـهِ حَـتَّـى تَـكُـونَ حَـشَـاكَ فـي أَحْـشَـائِـهِ
إِنَّ الْـمُـحِـبَّ مُـضَـرَّجٌ بِـدُمُـوعِـهِ مِـثْـلُ الْـقَـتِـيـلِ مُـضَـرَّجًـا بِـدِمَـائِـهِ

يا هذا؛ اعلم أن الراحةَ لا تُنَالُ بالراحةِ، فَمَنْ زَرَعَ حَصَدَ، وَمَنْ جَدَّ وَجَدَ.

[الطويل]

وَكَيْفَ يُنَالُ الْمَجْدُ وَالْجِسْمُ وَادِعٌ وَكَيْفَ يُحَازُ الْحَمْدُ وَالْمَالُ وَافِرُ

أَيُّ مَطْلُوبٍ نِيلَ مِنْ غَيْرِ مَشَقَّةٍ؟! وَأَيُّ مَرْغُوبٍ لَمْ يُبْعَدْ عَلَى مُؤْثِرِهِ الشُّقَّةِ؟!

المالُ لا يُحَصَّلُ إلا بالتعب، والعلمُ لا يُدركُ إلا بالطلبِ والنَّصَبِ، واسمُ الجُودِ لا يَنَالُهُ بخيلٌ، ولقبُ الشُّجَاعِ بعدَ تعبٍ طويل.

[البسيط]

لا يُـدْرِكُ الْـمَـجْـدَ إلا سَـيِّـدٌ فَـطِـنٌ لِـمَـا يَـشُـقُّ عَـلَـى الـسَّـادَاتِ فَـعَّـالُ
أَمْـضَـى الْـفَـرِيـقَـيْـنِ فـي أَقْـرَانِـهِ ظُـبَـةٌ وَالْـبِـيـضُ هَـادِيَـةٌ وَالـسُّـمْـرُ قَـتَّـالُ
يُـرِيـكَ مَـخْـبَـرُهُ أَضْـعَـافَ مَـنْـظَـرِهِ بَـيْـنَ الـرِّجَـالِ وَفِـيـهَـا الْـمَـاءُ وَالآلُ
لَـوْلا الْـمَـشَـقَّـةُ سَـادَ الـنَّـاسُ كُـلُّـهُـمُ الـجُـودُ يُـفْـقِـرُ وَالإِقْـدَامُ قَـتَّـالُ
وَإِنَّـمَـا يَـبْـلُـغُ الإِنْـسَـانُ طَـاقَـتَـهُ مَـا كُـلُّ مَـاشِـيَـةٍ بِـالـرَّحْـلِ شِـمْـلالُ

إِنَّـا لَـفِـي زَمَـنٍ تَـرْكُ الْـقَـبِـيـحِ بِـهِ   مِـنْ أَكْـثَـرِ الـنَّـاسِ إِحْـسَـانٌ وَإِجْـمَـالُ

يا هذا؛ أعز الأشياء قلبك ووقتك، فإذا أهملت قلبك وَضَيَّعْتَ وقتك فقد ذهبت منك الفوائدُ وَفَاتَكَ المقصودُ.

يا هذا؛ حلبة السباقِ لا تصلح إلا لمضمارٍ ما لبطين الخطايا خُطى.

[مجزوء الكامل]

جَـدَّ الـزَّمَـانُ وَأَنْـتَ تَـلْـعَـبْ   وَالْـعُـمْـرُ فـي لا شَـيْءَ يَـذْهَـبْ

كَـمْ كَـمْ تَـقُـولُ غَـدًا أَتُـو   بُ غَـدًا غَـدًا وَالْـمَـوْتُ أَقْـرَبْ

الفصل الثامن

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ﴾ [آل عمران:١٦٩]

هذه الآية نزلت في شهداء أُحُدٍ، وذلك أنه لَمَّا أَفَلَتْ نجومُ الشِّرْكِ وَلاحَ بدرُ التوحيدِ ببدرٍ أَفْلَتَ مِنْهُمْ فَلٌّ وفي كُلِّ سَيْفٍ فَلٌّ، فَثَارَ بمَكَّةَ طُلابُ الثَّأْرِ إلى لبئس ما فعلوا، ولبئس ما صنعوا، ورموا أموال الإنفاق على ناقد: ﴿لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [الأنفال: ٣٦]، فخرجت من قَاصِعَاءِ: ﴿ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً﴾ [الأنفال: ٣٦]، فطعنوا بالضغائن لينقطع علق القلب المتقلب، فلما عبثت في الحربِ يَدُ التَّنَاوُشِ، وامتد بَاعُ النصرِ بسيف الظفر نحو تلك الهَزَاهِزِ، فَهَزَّ فَهَزَمَ، فَتَرَنَّمَ لسانُ الغَلَبَةِ: ﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، فزعزع الطمعُ في الغنائم أقدامَ العزائم، فانهزموا في فضاءِ ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، فناداهم لائمُ: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ﴾ [آل عمران: ١٤٣]، فانقضت صفوف المؤمنين بيد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ [الرعد: ١١]، وتعدى الأمر إلى ما تعدى فأثر في الرَّبَاعِيَةِ والجبينِ، والظَّفَرُ يناديه إنما نَالَكَ ما نَالَكَ كلسعِ نحلةٍ لنخلةٍ، أو كَعَضِّ نملةٍ فنم له.

يا منبسطًا يوم بدر في إدلال أن تهلك، اسمع يوم أُحُدٍ تحكم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ﴾ [آل عمران: ١٢٨].

وجاء النبي صلى الله عليه وسلم بغُمَّةِ غَمِّهِ إلى عَمِّهِ، فلما غابن تلك المثلة وما فقد قط مثله، شهد غضبَ الغضبِ من قُرَابٍ، لأقتلن بقتلتك، فقدم مؤدب الحكم صفحة الصفح إلى ثعبان الانتقام: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟﴾

[النحل: ١٢٦]، وجعل أرواح الشهداء في "أجواف طيرٍ خُضْرٍ تَرِدُ أَنْهَارَ الجَنَّةِ، وتأكل من ثِمَارِهَا، وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلقة في ظل العرش، فلما وجدوا طيب مأكلهم ومشربهم ومقيلهم، قالوا: من يبلغ إخواننا عنا أننا في الجنة نُرزق، لئلا يزهدوا في الجهاد، فقال الله تعالى: أنا أبلغهم عنكم"[1]، فانتدب المُرْسِلُ مُرْسَلا فتلا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

إخواني؛ الشهادةُ منزلةٌ عَلِيَّة، يحتاج طالبُها إلى مجاهدةٍ قويَّة، لَمَّا عَلِمَ عمرُ رضي الله عنه فَضْلَهَا تَمَنَّاهَا، فَسُلِّطَ على تلك اللؤلؤةِ أَبُو لُؤْلُؤَةَ، فسلك خلفه خليفته طريقه من بعده، فنهى نَاصِرِيهِ عَنِ القتالِ حَتَّى قُتِلَ صَائمًا.

[الكامل]

قَتَلُوهُ مَظْلُومًا لَدَى مِحْرَابِهِ مِنْ غَيْرِ مَا ذَنْبٍ سِوَى الأحْقَادِ
ثُمَّ اسْتَحَلُّوا مِنْ عَقِيلَةِ مَالِهِ وَنَسُوا جَمِيلا كَمْ لَهُ وَأَيَادِي

فَلَمَّا طَالَ سفرُ الحياةِ على عليٍّ رضي الله عنه كان يستبطئُ قدومَ القاتلِ، فيقولُ: (مَتَى يُبْعَثُ أَشْقَاهَا؟).

فلما تاقت نفسُ الحسين إلى منازل أبويه، نادى لسان الفهم إنما نالاها بالصبر على الصبر، إنما علا عليٌّ بالكَرِّ ومحمدٌ بالبلاءِ، فالتقط خرزات فضلهما من عقد كربلاء، فهمهمت هِمَّةُ هَامَتِهِ في فضاءِ الفضائلِ، فركب هودجَ المشاهدةِ يحدو به حادي العزمِ، فلما بلغ منزلَ الصبرِ بَاتَ منه في بيتٍ[2]:

" نحن معاشر الأنبياء أشد بلاءً، ثم الأمثل فالأمثل"، لَمَّا جادى على

---

(١) أخرجه الطبراني (١٩/ ٦٤ رقم ١٢٢) قال الهيثمي (٢/ ٣٢٩): فيه ابن إسحاق وهو مدلس وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٢) شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٢٩.

بيت النبوة في مسيره إلى صفين بشط الفرات، فقال: اصبر أبا عبد الله، اصبر أبا عبد الله، فقيل له: ماذا تقول؟ قال: " دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وعيناه تفيضان بالدموع، فقلت: ما شأن عينيك؟ فقال: قام من عندي جبريل، قال: فحدثني أن الحسين يُقتلُ بِشَطِّ الفرات، فقال لي: هل لك أن أشمك من تربته؟ قلت: نعم. فمد بيده، فأعطى لي قبضةً من ترابٍ، فأعطانيها، فلم أملك عيناي أن فاضتا "(١).

[المتقارب]

خَلِيلَيَّ إِنْ جُزْتُمَا ضَارِجًا فَكُرَّا الْمَطِيَّ وَرُدَّا الْمَثَانِي
وَعُوجَا عَلَيَّ أُحَيِّ الدِّيَارَ فَإِنَّ الدِّيَارَ لِمَنْ تَعْلَمَانِ

أخذ الحسينُ طفلا فوضعه في حجره، فكان سهمه سهم، فقيل: نحن نرضعه لك، خَلِّهِ يلحقُ خَالَ أبيه، إن له مرضعًا يُتَمِّمُ إرضاعه في الجنة.

تَقَدَّمَ إلى الماء ليشربَ، فقال القدرُ: مَهْلا شمسَ يوم الصيام في الطفل إياك ومشارع الدنيا، فإنها ملوثة بأفواهِ الكلابِ، ضُرِبَ بِسَهْمٍ فسال الدمُ من شَفَتِهِ، فَتَلَقَّاهُ بيده لا بِمِنْشَفَتِهِ.

[المديد]

غَادَرَتْهُ الْحَرْبُ يَوْمَ تَوَلَّى مَيِّتٌ نَاصِرٌ حَيُّ الْفِعَالِ
صَافَحَ الأَرْضَ بِخَدٍّ أَسِيلٍ طَالَ مَا أَشْرَقَ عِنْدَ السُّؤَالِ
مُسْتَضِيفٌ شَرْعَ الْمَاءِ يُقْرِي قَلْبَهُ ظَنَّهُ السَّيْفُ وَقْعَ النِّبَالِ

وقعَ الشَّبهُ بينه وبين جَدِّهِ لَمَّا جَدَّ بِجَدِّهِ الموتُ، شاهدت أثرَ الكَرْبِ فاطمةُ، فقالت: وَاكَرْبَ أَبَاهُ، فقال: " لا كَرْبَ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ "(٢)،

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٧/٤٧٨)، وأحمد (١/٨٥)، وأبو يعلى (١/٢٩٨)، والضياء (٢/٣٧٥).

(٢) أخرجه أبي يعلى (٦/ ١٦١، رقم ٣٤٤١).

فانتقش فص ليكربك في طابع الولد، فصار كربلاء، فهو في الظاهر مكروب وراحة ﴿تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ﴾ [النحل:٣٢]، تقول: يا ضيف كربلاء، لا كَرْبَ لا، فلما أُلقي صَريعًا، جاء مستحث ألا طَالَ شوقُ الأبرارِ إلى لقائي بنجيب النجاة من جنات القدس، فتلى رسالة: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً﴾ [الفجر: ٢٧ - ٢٨]، عن مَرْكَبِ مُرَكَّبِ الجسمِ إلى مَرْكِبِ القُدسِ: ﴿فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٩ - ٣٠].

الفصل التاسع

في قوله تعالى: ﴿قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾

[النساء: ٧٧]

روى المستوردُ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " مَا مَثَلُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إلا كَمَثَلِ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ فِي الْيَمِّ، فَلْيَنْظُرْ بِمَا تَرْجِعَ "(١)، وَأَشَارَ بِالسَّبَّابَةِ.

ليس في الصحابة من اسمه المستورد غير هذا، وجملة ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم سبعة أحاديث؛ أربعة منها يرويها أهل مصر، وحديثان لأهل الكوفة، وحديث لأهل الشام، ولم يخرج له البخاري شيئًا، وكل ما اخرج له مسلم حديثان، أحدهما ما ذكرناه، وروى سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ اللهِ جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ "(٢).

إخواني؛ إنما الدنيا حَلَبَةٌ لِفَرَسِ الْفُرَصِ، إذا صَفَا صَفَاؤُهَا صَفَاءً غُصَّ بالنَّغصِ، إن أَضْحَكَتْ شَهْرًا أَبْكَتْ دَهْرًا، فهلا بالجصص، كم نصبت شركًا للأذى، فإذا الراتع في القفص.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٢٠/ ٣٠١، رقم ٧١٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٣٧٦، رقم ٤١١٠)، قال البوصيرى (٤/ ٢١٣): إسناده ضعيف. والدارقطنى فى الأفراد كما فى أطراف ابن طاهر (٣/ ٩٥، رقم ٢١٣٤)، والطبرانى (٦/ ١٥٧، رقم ٥٨٤٠)، والحاكم (٤/ ٣٤١، رقم ٧٨٤٧)، وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبى: زكريا بن منظور ضعفوه. وأخرجه أيضًا: البيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٣٢٥ رقم ١٠٤٦٥).

[المتقارب]

فَـذِي الـدَّارُ أَخْـدَعُ مِـنْ مُـومِـسٍ وَأَعْـلَـقُ مِـنْ كِـفَّـةِ الْـحَـابِـلِ
تَـفَـانَـى الـرِّجَـالُ عَـلَـى حُـبِّـهَـا وَمَـا يَـحْـصُـلُـونَ عَـلَـى طَـائِـلِ

تَدَبَّرْ أمرَها بعقلك وَحِسِّك، أيثبت الماءُ في قبضة مُمْسِك، فلا تَخْدَعَنَّكَ عن تمهيدِ رَمْسِكَ، فكم غَرَّتْ أقوامًا من جِنْسِكَ، تَدَبَّرْ عند بسط كَفِّهَا كف خمسك، حَيَاتُكَ كَيَوْمٍ فبادرْ قبلَ غروبِ شَمْسِك، أَتُسَاوِي هذه الدنيا بِإِتْلافِ نَفْسِك.

[الخفيف]

وَمُـرَادُ الـنُّـفُـوسِ أَصْـغَـرُ مِـنْ أَنْ تَـتَـعَـادَى فِـيـهِ وَأَنْ تَـتَـفَـانَـى
وَلَـو أَنَّ الْـحَـيَـاةَ تَـبْـقَـى لِـحَـيٍّ لَـعَـدَدْنَـا أَضَـلَّـنَـا الـشُّـجْـعَـانَـا
وَإِذَا لَـمْ يَـكُـنْ مِـنَ الْـمَـوْتِ بُـدٌّ فَـمِـنَ الْـعَـجْـزِ أَنْ تَـمُـوتَ جَـبَـانَـا

اسمع ذَمَّ الدنيا من خبير خطرها والله كبير، بينا هي في صُحبة العَشيرِ إذا به إلى أهلها يشير، بينا هي تدعو وتشير إذ أظهرت النوحَ وأخفتِ الزئيرَ، بينا حبيبها معها يسير قلتُ وقالت: يُقتلُ الأسيرُ، بينا أملُها يُعطى الخورنق والسدير إذا مؤملها بالإفلاس جدير، بينا دَرُّها لا دَرَّ درها دَريرُ عادت فعادت عجفاء لا تفي ولا زيد عمرها والله عمر قصير، لو رأيت غيرك والعاقل بصير، لا يعجبنك لِينُهَا فجلدُ الحَيَّةِ كالحرير، لا يطمعنك صيدها فستقتل الصائدَ وتطير، لا يُفْرِحَنَّكَ عِزُّهَا فستلقى الملك وتكسر السرير، لا يُدْهِشَنَّكَ غِنَاهَا فَأَغْنَى غَنِيٍّ فيها فقير، لا تُلْهِيَنَّكَ عَوَارِيهَا فالعجبُ في المُعَارِ لا في المعيرِ، إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا اقبل نصحَ المُشير.

أترى ينفعُ هذا العتابُ، أترى يُسْمَعُ لهذا العذلِ جَوَابُ، لا بالشَّيبِ تَنْتَبِهُ ولا في الشَّبَابِ، أفي الحاضرين تُعَدُّ أَمْ فِيمَنْ غَابَ؟

يا مَنْ أعماله للخلق رياء وَسُمْعَة، يا مَنْ قد أعمى الهوى بصره وَأَصَمَّ سمعه، يا مَنْ إذا قام إلى الصلاة لا يُخْلِصُ في ولا ركعة، يا نائمًا في انْتِبَاهِهِ إلى متى هذه الهَجْعَةُ، يا غَافِلا عَنِ الموتِ كم قَلَعَ الموتُ قَلْعَة، كم دخلَ دَارَكَ

فأخذَ غَيْرَكَ وإنَّ له إليك لرَجْعَة، كم اشترى شخصًا بنقدِ مرضٍ وله الباقون بالشفعة، لقد فرَّقَ سَرَايَاهُ وَجُنْدَهُ في كل بُقعة، كم طَرَقَ جَبَّارًا فَأَشَتَّ شَمْلَهُ وَأَخْرَبَ رَبْعَه، أفلا يَتَّعِظُ البَيْذَقُ بِسَلْبِ شَاهِ الرُّقْعَةِ، يا عامر الدنيا إنما هي دار قلعة، إنها لشريك خوان بأخذ درة ويدعُ ودعة، كم مزقت قلبًا صحيحًا فرجع ألفَ قطعة، إن خَصَّت بطيبِ المَذَاقِ أَغَصَّتْ قسط الجرعة، تُخادع لتقتل فما تحفظ إلا الحربُ خَدْعَة، شَغَلَهَا أَنْ تَغُرَّ ثُمَّ تَضُرَّ ثُمَّ تَمُرَّ، فما تعرف إلا هذا صنعة، يَوْمُ تَرَحِهَا سَنَة، وَسَنَةُ فَرَحِهَا جُمُعَة، إنَّها لَمُظْلِمَةٌ ولو أَوْقَدَتْ لمَخْدُوعِهَا ألفَ شَمْعَة، وإنها لخَائِنَةٌ ولو حلفت بألف ربعة، والمطبوعُ على طَبْعِهِ، فَمَنْ يُغَيِّرُ طَبْعَه.

الفصل العاشر

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٤]

(يا): حرف نداء، وحروف النداء خمسة: (يَا، وَأَيَا، وَهَيَا، وَأَيْ، وَأَلِفُ الاسْتِفْهَام)؛ تقول: يا زيد، وأيا زيد، وهيا زيد، وأي زيد، وأزيد، وأنشدوا في أَيَا: [الطويل]

أَيَـا بَـارِحَ الْـجَـوْزَاءِ عَـمْـرٌو أَلا تَـرَى ... عِـيَـالَـكَ قَـدْ أَمْـسَـوْا مَـرَامِـيـلَ جُـوَّعَـا

وأنشدوا في أي: [الطويل]

أَلَمْ تَسْمَعِي أَيْ عَبْدَ في رَوْنَقِ الضُّحَى ... غِـنَـاءَ حَـمَـامَـاتٍ لَـهُـنَّ سَـجِـيـعُ

وقال ذو الرمة في هَيَا: [الطويل]

هَيَا ظَبْيَةَ الْوَعْسَاءِ بَيْنَ جُلاجِلٍ ... وَبَـيْـنَ الـنَّـقَـا أَأَنْـتِ أَمْ أُمُّ سَـالِـمِ

وأنشد سيبويه في ألف الاستفهام: [الطويل]

أَزَيْـدُ أَخَـا وَرْقَـاءَ إِنْ كُـنْـتَ ثَـائِـرًا ... فَـقَـدْ عَـرَضَـتْ أَحْـنَـاءُ حَـقٍّ فَـخَـاصِـمِ

وقال ابن عباس: (ليس في القرآن آية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ إلا في التوراة والإنجيل يا أيها المساكين، ليُعرفَ الفرقُ بين المَنْزِلَتَيْنِ).

قال الحسن: (علم اللهُ أن قومًا يرجعون عن الإسلام بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرهم أنه سيأتي بقوم يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ، وهم أبو بكرٍ وأصحابُه الذين قاتلوا أهلَ الرِّدَّةِ).

قال أبو سليمان الدمشقي: هُمُ المُهَاجِرُونَ وَالأنْصَارُ.

إخواني؛ ليس العجبُ مَنْ يُحِبُّونَهُ، وإنما العجبُ مَنْ يُحِبُّهُمْ، وليس العجبُ مِنْ فقيرٍ يُحِبُّ مُحْسِنًا إليه، إنما العجبُ من مُحْسِنٍ يُحِبُّ الفقيرُ، إن

كان لَكَ انْتِقَادٌ عَرِفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ، لِبَاسُهُمْ ما سَتَرَ، وَأَكلُهُمْ ما حَضَرَ، ذَلُّوا لَهُ لِيَرْضَى، فإذا رَأَيْتَهُمْ قُلْتَ مَرْضَى.

مَرَضٌ بِقَلْبٍ لا يُعَادُ ... وَقَتِيلُ حُبٍّ لا يُقَادُ
يَا آخِرَ الْعُشَّاقِ مَا ... أَبْصَرْتَ أَوَّلَهُمْ يُذَادُ
يَقْضِي الْمُتَيَّمُ مِنْهُمُ ... نَحْبًا وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا
مَلَكُوا النُّفُوسَ فَهَلْ لَنَا ... مِنْ بَعْدِهَا ما يُسْتَفَادُ

لما خلت قلوبُ العارفينَ من سوى الحبيبِ تَمَكَّنَ منها الحبُّ، فالتهبَتْ نَارُ الشَّوْقِ.

كانت رَابِعَةُ تَقُولُ: لقد طَالَتْ عَلَيَّ الأيامُ وَاللَّيَالِي بِالشَّوْقِ إلى لقاءِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

[البسيط]

يا نَاظِرَ الْعَيْنِ قُلْ هَلْ نَاظِر عَيْنِي ... إِلَيْكَ يَوْمًا وَهَلْ تَدْنُو خُطَى الْبَيْنِ
اللهُ يَعْلَمُ أَنِّي بَعْدَ فُرْقَتِكُمْ ... كَطَائِرٍ سَلَخُوهُ مِنْ جَنَاحَيْنِ
وَلَوْ قَدِرْتُ رَكَبْتُ الشُّوْقَ نَحْوَكُمُ ... لَكِنَّ بُعْدِي عَنْكُمُ قَدْ حَنَى حِينِي

دخلوا إلى رَابِعَةَ مَرَّةً أخرى، فقالوا: أَتَشْتَاقِينَ إلى اللهِ، فقالت: هُوَ حَاضِرٌ مَعِي. يا رابعة: أين شكوى لِسَانِ الشَّوْقِ، أَحَالَتِ الْحَالُ؟ فقالت: هَكَذَا يَكُونُ المُحِبُّ.

[الطويل]

وَمِنْ عَجَبِي أَنِّي أَحِنُّ إِلَيْهِمُ ... وَأَسْأَلُ عَنْهُمْ مَنْ أَرَى وَهُمْ مَعِي
وَتَطْلُبُهُمْ عَيْنِي وَهُمْ في سَوَادِهَا ... وَيَشْتَاقُهُمْ قَلْبِي وَهُمْ بَيْنَ أَضْلُعِي

كان أبو يزيد البسطامي يقول: إلى متى تحبس أعضاء مُحِبِّيكَ تحتَ التُّرابِ، احشُرْهُمْ وَاجْعَلْنِي جِسْرًا يعبرون عَلَيَّ إليك.

[الطويل]

هَلِ الطَّرْفُ يُعْطِي نَظْرَةً مِنْ حَبِيبِهِ ... أَمِ الْقَلْبُ يَلْقَى رَوْحَةً مِنْ وَجِيبِهِ

وَهَلْ لِلَّيَالِي عَطْفَةٌ بَعْدَ نَفْرَةٍ تَعُودُ فَتُلْهِي نَاظِرًا عَنْ غُرُوبِهِ
أَحِنُّ إِلَى نُورِ اللَّوَى فِي بِطَاحِهِ وَأَظْمَأُ إلى رِيَّا الْحِمَى في هُبُوبِهِ
وَذَاكَ الْحِمَى يَغْدُو عَلِيلا نَسِيمُهُ وَيُمْسِي صَحِيحًا مَاؤُهُ في قَلِيبِهِ
هُوَ الشَّوْقُ مَدْلُولا عَلَى مَقْتَلِ الْفَتَى إِذَا لَمْ يَعِدْ قَلْبًا بِلُقْيَا حَبِيبِهِ

كان أبو عبيدة الخواص يقول: وَاشَوْقَاهُ إلى مَنْ يَرَانِي ولا أَرَاهُ.

وبقي الفتح بن شخرف ثلاثين سنةً لا يرفعُ رَأْسَهُ إلى السَّمَاء، فَرَفَعَ رأسَه مرةً، فقال: لَقَدْ طَالَ شَوْقِي إليكَ، فَعَجِّلْ قُدُومِي عَلَيْكَ.

كانوا إذا أقلقهم الخوفُ نَاحُوا، وإذا أزعجهم الوَجْدُ صَاحُوا، وإذا أَدْهَشَهُمُ الحُبُّ سَاحُوا، وإذا غَلَبَ عليهم الأمرُ نَاحُوا.

قال الشبليُّ: لقيتُ جاريةً حَبَشِيَّةً، فقلت: من أين أقبلتِ؟ فقالت: من عند الحَبيبِ، فقلت: وإلى أين؟ فقالت: إلى الحَبيبِ، قلت: فما تُرِيدِينَ مِنَ الحَبِيبِ؟ قالت: الحبيب، قلت: كم ذكر الحبيب؟ قالت: ما يسكن لساني عن ذِكْرِهِ حتى أَلْقَاهُ.

[البسيط]

وَحُرْمَةُ الوُدِّ مَا لِي عَنْكُمُ عِوَضُ وَلَيْسَ لِي في سِوَاكُمْ بَعْدَكُمْ غَرَضُ
وَمِنْ حَدِيثِي بِكُمْ قَالُوا بِهِ مَرَضٌ فَقُلْتُ لا زَالَ عَنِّي ذَلِكَ الْمَرَضُ

رُئِيَ معروفٌ في المَنَامِ كأنه تحتَ العرشِ، فقال اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ملائكتي، مَنْ هذا؟ فقالت الملائكةُ: أنتَ أعلمُ، هذا معروفٌ الكَرْخِيُّ، قد سَكِرَ في حُبِّكَ، فلا يَفِيقُ إلا بلِقَائِكَ.

دَاوِي سِقَامًا بِجِسْمٍ أَنْتَ مُتْلِفُهُ وَأَبْرِدْ غَرَامًا بِقَلْبٍ أَنْتَ مُضْرِمُهُ
ولا تَكِلْنِي في بُعْدِ الْمَزَارِ إلى صَبْرِي الضَّعِيفِ فَصَبْرِي أَنْتَ تَعْلَمُهُ
تَلَقَّ قَلْبِي فَقَدْ أَرْسَلْتُهُ فَرَقًا إلى لِقَائِكَ وَالأشْوَاقُ تَقْدُمُهُ

ودخلوا على معروفٍ يومًا وهو يدور حولَ ساريةِ المسجدِ، ويقول: يا حبيبي، يا حبيبي، فقال له رجلٌ: عَلِّمْنِي المَحَبَّةَ، فقال: هذا لا يَجِيءُ بالتَّعليمِ.

[الخفيف]

رُمْتُ كِتْمَانَ مَا بِقَلْبِي فَنَمَّتْ　　زَفَرَاتٌ تَغْشَى حَدِيثَ الْهَوَاءِ

وَدُمُوعٌ تَقُولُ في الْخَدِّ يَا مَنْ　　يَتَبَاكَى كَذَا يَكُونُ الْبُكَاءُ

لَيْسَ لِلنَّاسِ مَوْضِعٌ في فُؤَادِي　　زَادَ فِيهِ هَوَاكَ جَفْنِي امْتِلاءُ

صدق القومُ في الطَّلب فجاءتِ المَعُونةُ، وقهروا أنفسهم فباتت مَسْجُونَة، وغرسوا بذرَ التُّقَى وقاموا يَسْقُونَه، فَلاحَ لهم وَجْهُ الكمالِ فما طلبوا دُونَه، تاللهِ ما أَشْغَلَكَ عن طريقهم إلا الدُّنيا المَلْعُونَة، إِنَّكُمْ لَتَشْتَهُونَ تَتَشَبَّهُونَ بِهِمْ، وَلَكِنْ بَقِيَتْ نُونَهُ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.

الفصل الحادي عشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]

روى مسلم في " صحيحه " من حديث سعد بن أبي وقاص، قال: (نزلت هذه الآية في سِتَّةٍ: فِيَّ، وفي ابنِ مسعودٍ، وَصُهَيْبٍ، وَعَمَّارٍ، وَالْمِقْدَادِ، وَبِلالٍ، قالت قريش لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إِنَّا لا نَرْضَى أَنْ نَكُونَ أَتْبَاعًا لِهَؤُلاءِ، فَاطْرُدْهُمْ عَنْكَ، فَنَزَلَتْ هذهِ الآيةُ).

فَأَمَّا سَعْدُ فهو أولُ مَنْ رَمَى بسهمٍ في سبيل الله، وابنُ مسعودٍ كان صاحبَ سِرِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، وَصُهَيْبٌ كان يُعَذَّبُ في اللهِ، وكذلك عَمَّارٌ كان يُعَذَّبُ بِالنَّارِ، فكان الرسولُ صلى الله عليه وسلم يَمُرُّ به، فيقولُ: " يا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلامًا عَلَى عَمَّارٍ، كَمَا كُنْتِ عَلَى إِبْرَاهِيمَ "[1]، فدفع عن نفسه بعض البلاء بتحريك لسان ما اعتقده قلبه، فنزل لبيان عذره في لفظ: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [النحل:١٠٦]، وَأَمَّا بِلالٌ فإنه عُذِّبَ ولم يُرْضِهِمْ بشيءٍ، فاشتراهُ منهم أبو بكرٍ رضي الله عنه بسبع أَوَاقٍ فَأَعْتَقَهُ، فقالوا له: غَبِنْتَ يا أَبَا بَكْرٍ، فأجابَ لسانُ الحالِ: إِنَّمَا المَغْبُونُ مَنْ أَكَلَ ثَمَنَ بِلالٍ، عَذَّبُوهُ لِيَسْمَعُوا لَفْظَ الشِّرْكِ، فَمَا سَمِعُوا إلا تَرَنُّمَ أَحَدٌ أَحَدٌ، مَنَعُوهُ مِنَ الطَّوَافِ ببيتِ الحبيبِ، فقامت حبة المحبة على قدم الشوق تطوف ببيت ويسعني قلب عبدي.

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٤٣/ ٣٧٢). وأخرجه أيضًا: ابن سعد (٣/ ٢٤٨).

[البسيط]

إنْ يَـمْـنَـعُـونِـي مُـرُورَ بَـابِ دَارِهـم   فَـسَـوْفَ أَنْـظُـرُ مِـنْ بُـعْـدٍ إلـى الـدَّارِ
لا يَقْدِرُونَ عَلَى مَنْعِي وَإِنْ جَهِدُوا   إذَا مَـرَرْتُ وَتَـسْـلِـيـمِـي بِـإِضْـمَـارِي
سِيمَا الْهَوَى شُهِرَتْ حَتَّى عُرِفْتُ بِهَا   إنِّي مُحِبٌّ وَمَا فِي الْحُبِّ مِنْ عَارِ

نظر كبراء قريش إلى هؤلاء الضعفاء بعين المكر، فوقفوا مع الصور وما عبروا إلى المعاني، كما شاهد إبليس صورة آدم من طين فما سجد، فلما وقعت الملائكة على المعنى وقعت، رُبَّ أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبَرَّهُ، كما فاه فوه بكلمة فصمت، وكم عطس فحمدك وما شمت.

[الكامل]

وَاعْـلَـمْ بِـأَنَّ الـتِّـبْـرَ فـي عِـرْقِ الـثَّـرَى   خَـافٍ إِلَـى أَنْ يُـسْـتَـبَـانَ بِـنَـبْـشِـهِ
وَفَـضِـيـلَـةُ الـدِّيـنَـارِ يَـظْـهَـرُ سِـرُّهَـا   مِـنْ حَـكِّـهِ لا مِـنْ حَـلاوَةِ نَـقْـشِـهِ
وَمِـنَ الْـغَـبَـاوَةِ أَنْ تُـعَـظِّـمَ جَـاهِـلا   لِـصِـقَـالِ مَـلْـبَـسِـهِ وَرَوْنَـقِ نَـقْـشِـهِ
أَوْ أَنْ تُـهِـيـنَ مُـهَـذَّبًـا فـي نَـفْـسِـهِ   بِـدُرُوسِ بِـزَّتِـهِ وَرَثَّـةِ فُـرْشِـهِ
مَـا إِنْ يَـضُـرُّ الـسَّـيْـفَ كَـوْنُ قِـرَابِـهِ   خَـلَـقًـا ولا الْـبَـازِي حَـقَـارَةُ عُـشِّـهِ

كان أويس يلتقط الرقاع من المزابل فيغسلها في الفرات، ويضع بعضها على بعض.

[البسيط]

أَطْـمَـارُهُ رَثَّـةٌ فَـقَـدْ ضَـاعَ لا   ضَـاعَ وَضَـاعَ الـثَّـمِـيـنُ فـي بَـلَـدِه
لَـيْـسَ لَـهُ نَـاقِـدٌ فَـيَـعْـرِفُـهُ   وَآفَـةُ الـتِّـبْـرِ ضَـعْـفُ مُـنْـتَـقِـدِه

لولا عري أويس ما لبس حلة يشفع في ربيعه ومضر، لمَّا عَلِمَ القَوْمُ أنه لا ينظر إلى صورهم عاينوا معانيهم، تركوا محبوباتهم لمحبوبنا، ورفضوا شهواتهم مُذْ لاذُوا بنا، سلموا النفوسَ إلى رائض الشرع فعلمها، وفاقنا في مخالفة الطبع، فهم مع الطاعة كيف دارت داروا، وإن وقفت وقفوا، وإن سارت ساروا.

[الطويل]

وَإِنِّي إِذَا اصْطَكَّتْ رِقَابُ مَطِيِّهِمْ وَثَوَّرَ حَادٍ بِالرِّكَابِ عَجُولُ
أُخَالِفُ بَيْنَ الرَّاحَتَيْنِ عَلَى الْحَشَا وَأَنْظُرُ كَيْمَا مِلْتُمُ فَأَمِيلُ

أترى خَلَتِ الأرضُ منهم، أم نراهم فلا نعرفهم، كلا لو صفت أفعالهم عرفناهم، إن لم نراهم بهذه الأبصار، فقد رأينا أثارهم في الآثار.

[الخفيف]

وَاسْتَمْلا حَدِيثَ مَنْ سَكَنَ الْخَيْـ ـفَ وَلا تَكْتُبَاهُ إلا بِدَمْعِي
فَاتَنِي أَنْ أَرَى الدِّيَارَ بِطَرْفِي فَلَعَلِّي أَعِي الدِّيَارَ بِسَمْعِي

مُدِحُوا بالكلام الأزَلِيِّ، وَجُمِّلُوا بالزُّهدِ لا بالزِّيِّ، فاستمع عتابَ النبيِّ القرشيِّ في بلال الحبشي: ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ﴾ [الأنعام: ٥٢]، علموا زوالهم من الدنيا فزالوا، وخلصوا من ضيق سجن الدنيا فاختالوا، وخرجوا إلى حلبات الزهد فجالوا، ولولا التوفيق الإلهي ما نالوا ما نالوا، وأي قدر للبشري، يقطعون نفوسهم عتبًا ولوما بين هلا ولم ولولا ولوما، قطعوا الليل سهرًا وقطعته نومًا، هذا الحديث لغيرك قد أومأ أَوَمَا تفهمُ بالعربي.

الفصل الثاني عشر

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٤]

لَمَّا قويت معارفُ العلماءِ بالآخرةِ اشتدت مخافتهم حتى تَمَنَّوْا عدمَ الوجود، جَازَ أبو بكر الصديق رضي الله عنه على طائرٍ، فقال: (طوبى لك يا طائر، تقع على الشجر، وتأكل من الثمر، ولا حساب عليك، ليتني كنت مثلك).

وقال عمر: (ليتني كنت تبنة، ليت أمي لم تلدني).

وقال ابن مسعود: (وددت أني إذا مِتُّ لا أُبْعَثُ).

وقال عمران بن حصين: (ليتني كنتُ رَمَادًا).

وقال أبو ذَرٍّ: (ليتني كنتُ شجرةً تُعْضَدُ).

وقالت عائشة: (ليتني كنت نسيًا منسيًّا).

وقال يزيد الرقاشي: ليتني كنتُ لم أُخْلَقْ، وإذا خُلقتُ لم أُحَاسَبْ. عاتبه ولده في كثرة بكائه فجعل يصرخ ويبكي حتى غشي عليه، فقالت له أمه: هذا أردت من أبيك، فقال: إنما أردت أن أهون عليه لا أن أزيده.

[الخفيف]

صِحَّةُ الشَّوْقِ أَحْدَثَتْ عِلَّةَ الصَّبْـ ـرِ وَبُعْدُ الْمَزَارِ أَدْنَى السُّهَادَا

كَمْ عَذُولٍ عَلَيْكُمُ رَامَ إِصْلَا حِي فَكَانَ الْمَلَامُ لِي إِفْسَادَا

كُلَّمَا زَادَ عَذْلُهُ زَادَ وَجْدِي فَكِلَانَا فِي أَمْرِهِ يَتَمَادَى

مَنْ لِقَلْبٍ أَصْلَيْتُمُوهُ لَظَى الْجَمْـ ـرِ وَجَنْبٍ أَفْرَشْتُمُوهُ الْقَتَادَا

إخواني؛ أهوالُ القيامةِ عظيمةٌ، ولمثل ما تقدم عليه فليُبكى، كان عمر بن عبد العزيز كأن قد أُلقي عليه حُزْنُ الخَلائِقِ.

قال عبد الصمد بن حسان: كنتُ إذا رأيتُ سفيانَ الثوريَّ يتخيل إليَّ كأنَّ على رأسه سَيَّافًا يريدُ أن يضربَ عنقه، وسمعته يومًا يقول بينه وبين نفسه: يا سفيانُ؛ أين تكون يوم القيامة إذا قيل: أين القراء الفسقة؟ ثم يبكي، ووقف قوم على عابدة وهي تبكي، فقالوا: ما يُبْكِيكِ؟ فقالت: رَوْعَةُ النِّداءِ بالعَرضِ على اللهِ تعالى.

وكان الشبلي يُزعجه الخوفُ، اللَّهُمَّ احْشُرْنِي أَعْمَى مَا لِي عَيْنٌ تَرَاكَ.

الفصل الثالث عشر

في قوله تعالى: ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]

اعلم أن جزاء الحسنة عند الله أمر عظيم، فهو يضاعفه لفاعل الحسنة إلى عشر أمثالها.

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إِذَا حَسَّنَ أَحَدُكُمْ إِسْلامَهُ فَكُلُّ حَسَنَةٍ يَعْمَلُهَا تُكْتَبُ بِعَشَرَةٍ إلى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، وَكُلُّ سَيِّئَةٍ يَعْمَلُهَا بِمِثْلِهَا، إِلَى أَنْ يَلْقَى اللهَ تَعَالَى "(١).

جملة ما روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم خمسةُ آلافٍ وثلاث مائة وأربعة وسبعون حديثًا، أُخْرِجَ له منها في " الصحيحين " ستُّ مائة وتسعة وتسعون، المتفق منها ثلاث مائة وستة وعشرون، وانفرد البخاري بثلاث مائة وسبعون، ومسلم بمائة وتسعين.

قال أبو هريرة: (يُكْتَبُ لِلْمُؤْمِنِ بِالْحَسَنَةِ أَلْفَيْ أَلْفِ حَسَنَةٍ).

وفي " الصحيحين " من حديث ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يروي عن ربه عز وجل:

" مَنْ هَمَّ بِالْحَسَنَةِ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ عَزَّ وَجلَّ حَسَنَةً وَاحِدَةً، فَإِنْ عَمِلَهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ عَشْرَ حَسَنَاتٍ إِلَى سَبْعِ مِائَةِ ضِعْفٍ، إِلَى أَضْعَافٍ كَثِيرَةٍ، وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى عِنْدَهُ حَسَنَةً، فَإِنْ هُوَ هَمَّ بِهَا

---

(١) أخرجه أبو عوانة في مسنده (١/ ٨١، رقم ٢٤).

فَعَمِلَهَا، كَتَبَهَا اللهُ تَعَالَى سَيِّئَةً وَاحِدَةً أَوْ مَحَاهَا، وَلا يَهْلِكُ عَلَى الله تَعَالَى إلا هَالِكٌ "(١).

جملة ما روى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم ألف وست مائة وستون حديثًا، أخرج له منها في " الصحيحين " مائتا حديث وأربعة وثلاثون، المتفق عليها منها خمسة وسبعون، وانفرد البخاري بمائة وعشرة، ومسلم بتسعة وأربعين.

يا عجبًا للمؤمن بالآخرة كيف يغتر، وأعجب منه العالم بقصر العمر وهو يغفل.

قال صلى الله عليه وسلم: " من قال سبحان الله العظيم وبحمده غُرست له بها نخلة في الجنة "(٢).

فلو ذقت بفهم اليقين طعم الدخل لاستكثرت من غرس النخل، أين أصحاب الجد؟ أين أهل العزائم؟ أنبهوا هذا النائم، فقد بقي القليل وتفنى المواسم.

يا هذا؛ لو كانت في كمك بضاعة فطلبتها فلم تجدها انزعجت انزعاجًا لا يُوصف، فقد ذهب سنون من العمر فأي ربح حصلت، وقف قوم على راهبٍ، فقالوا: إنا سائلوك أفمجيبنا أنت؟ فقال: سلوا ولا تكثروا، فإن النهار لن يرجع، والعمر لن يعود، والطالب حثيث في طلبه ذو اجتهادٍ، فقالوا: على ما الخلق غدًا عند مليكهم؟ قال: على نيتهم، قالوا: فإلامَ الموئلُ؟ قال: إلى المقدم، قالوا: فأوصنا، قال: تَزَوَّدُوا على قدر سفركم، فإن خيرَ الزَّادِ ما بلغ البُغْيَةِ.

إخواني؛ لمَّا علم الصالحون بقصر العمر ومُضاعفة الأجر عَبَرُوا الحَدَّ في الجَدِّ.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٢/ ١٠٦، رقم ٣٨٣).

(٢) أخرجه الترمذى (٥/ ٥١١، رقم ٣٤٦٤) وقال: حسن صحيح غريب. وأبو يعلى (٤/ ١٦٥، رقم ٢٢٣٣)، وابن حبان (٣/ ١٠٩، رقم ٨٢٦)، والحاكم (١/ ٦٨٠، رقم ١٨٤٧) وقال: صحيح على شرط مسلم.

قال أبو مسلم الخولاني: لو قيل لي: إن جهنم تُسعر، ما استطعتُ أن أزيدَ في عملي. ولما احتضر ثابت البُناني ذهب ابنه يُلَقِّنُهُ، قال: خَلِّ عَنِّي، فإني في وردي السادس. كان حجير بن الربيع يصلي حتى ما يأتي فراشه إلا زحفًا، وكان عامر بن عبد قيس يُصلي كل يوم ألف ركعة، حَسْبُكَ أن قومًا أمواتًا تحيا بذكرهم القلوب، وأن أقوامًا أحياءً تسخن برؤيتهم العيون.

[الكامل]

قِفْ بِالدِّيَارِ فَهَذِهِ آثَارُهُمْ وَابْكِ الأحِبَّةَ حَسْرَةً وَتَشَوُّقَا
كَمْ قَدْ وَقَفْتُ بِهَا أُسَائِلُ مُخْبِرًا عَنْ أَهْلِهَا أَوْ صَادِقًا أَوْ مُشْفِقَا
فَأَجَابَنِي دَاعِي الْهَوَى فِي رَسْمِهَا فَارَقْتَ مَنْ تَهْوَى فَعَزَّ الْمُلْتَقَى

سَارَ الأحبابُ وَتَوَقَّفْتَ، سَارَعُوا وَسَوَّفْتَ، سَبَقُوا واللهِ وَبَقَيْتَ، وإنْ لم تُدْرِكْ شَقَيْتَ.

يا هذا؛ بَادِرْ قبلَ الموتِ، وَسَابِقْ قبلَ الفَوْتِ، فلو عاينتَ المَلِك وقد قيل: فلانًا هَلَك، لم تقدرْ بعدَ التَّلَفِ تَرُدَّ ما قد سَلَف.

[الوافر]

يَسُوغُ تَطَلُّبُ الْحَاجَاتِ مَا لَمْ تَفُتْكَ فَبَعْدَ فَوْتٍ لا تَسُوغُ
وَمَاذَا يَنْفَعُ الدِّرْيَاقُ يَوْمًا إِذَا وَافَى وَقَدْ مَاتَ اللَّدِيغُ

أَمَا عُمْرُكَ في كُلِّ يومٍ يُنْتَهَب، أَمَا الطعم منه قد ذَهَب، وأنت مهمومٌ في جَمْعِ الذَّهَب.

يا مَنْ إذا خلا تَفَكَّرَ وَحَسَب، وَأَمَّا نُزُول الموتِ فَمَا حَسَب، انتبه لنوبةٍ لا تُشْبِهُ النُّوَب، بينَ يَدَيْكَ كُرْبَةٌ لا كَالْكُرَب.

يا طالبَ الحُطَام؛ بئس ما طلب، كم نصب له شركًا وعلى دينه نَصَب، كم رَبُّ مَالٍ له المالُ قد حَرَب، لقد نَشَبَ بقلبك حُبُّ النَّشَب، تبخلُ بالمال والعمر تهب، تطلبُ النجاةَ ولكن لا مِنْ بابِ الطَّلَب، تقف في الصلاة إنَّ صَلاتَكَ لَعَجَب، القَلْبُ والسِّرُّ في شُعَب، الجَسَدُ في العراق، والقلبُ في حَلَب، القلبُ أعجميٌّ واللفظُ لفظُ العَرَب، أنا أعلم بحالك حُبُّ الهوى قد

غَلَبْ، ومتى أَسَرَ الهوى قلبًا فما يُفلح وكتب، آهِ لنفسٍ مغرورةٍ بِأَشْغَالِهَا، كُلَّمَا استقامت مَالَتْ بِآمَالِهَا، إِنْ أَنْفَقَتْ فَالرِّيَاءُ وَكِيلُ مَالِهَا، إنما يُعجبنا إنفاقُ يمينها بلا عِلْمِ شِمَالِهَا، فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا، جزاءُ الحسنةِ الجنة، لا على قدر وزن مثقالها، وَمَنْ قَدَّمَ حَبَّةً رَآهَا كَأُحُدٍ لا على حَالِهَا، ولكنَّ شرطَ القَبُولِ أن تَكُونَ مِنْ حَلالِهَا.

أين فطنة النفوس للأرباح باحتيالها، كما فطنت نفس الصديق ببذل أموالها، لو لم يكن في صدقته غير بلالها، ولقد نسج ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ﴾ [الإنسان: ٨] على منوالها ﴿فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠].

الفصل الرابع عشر

في قوله تعالى: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف:١٧٥]

واعجبًا مِمَّنْ يأمن، وقد أخذ هذا في المأمن، كَمْ مِنْ مُنْزَوٍ بزوره عن الزُّورِ في زاوية تعبده دَخَلَ دَخَلُ الفتنِ داخلَ مسجده، تالله ليس العجب من جريح في صف الهوى أمسى كليمًا، ولكن سَلْ هَلْ تَرَكَ الهوى أحدًا سليمًا، إنه ليتناول زِمَامَ النفس فيسوقها على سوق السَّوقِ إلى مِنَى نحو سوق المَنَايَا، فمن كان حَبْلُهُ مَفْتُولا بهداية ﴿سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] جذبته يد جذبه من جذبات الحق، ومن أهمله القدر فجعل شقاقه في شِقٍّ ﴿غَلَبَتۡ عَلَيۡنَا شِقۡوَتُنَا﴾ [المؤمنون: ١٠٦]، أرخى حَبْلَهُ ضَعْفُ عَزْمِهِ فَجَذَبَهُ الهَوَى، فَهَوَى فُؤَادُهُ عن فُوَائِدِهِ.

إخواني؛ ما نجا من غُطَامِطِ بَحْرِ الفتنِ الأعظم حافظ الاسم الأعظم بل عام بلعام، رافلا في حُلَلِ النعم كالنعم، غافلا يتعامى عَمَّا نهاه المنعم، كانت بنية تعب تعبده على رمل الهوى والرياء، فجرت تحته أنهارُ التجربة، فلما انهار بنائها انهارت.

كان على دينار دينه ورقة رقه، فأعجب نظره نواظر الناظرين، فلما حَكَّهُ المُنتقد على حجر الحجر افتضح بين أهل الحجى.

كان على صفوان صفاته الرديَّة تراب تعبده، لا يُرى تحتَهُ التوى، فأصابه وابل الابتلاء فتركه صلدًا، كان ظاهر أمره ظاهرًا لنقاء التقى، وباطنه بَاطِيَةُ خَمْرِ الهوى، لقد جنى الخبائث في طَيِّ الطيبات، فَلَمَّا أَرَادَ المقدر تنبيه جاره على جَوْرِهِ تَقَدَّمَ إلى القدر بهتك ستره، فأتاه وهو في عُقْرِ عُقَار الهوى يعاقر

عقر الرياء، وقد رفعت له عقيرتها عاقر الفهم إلى أن عقر العَقرُ قَلْبَهُ فَعَادَ عَقِيرًا، فَدَعَّهُ إلى صَفِّ صفصف الدعوى، فأرسلَ عليه لإضْرَارِهِ صرصرَ العُجْبِ فَمَزَّقَتْ جلبابَ التَّعَبُّدِ، فصير في عصفها كصفًا، فإن كشف عُوَارُ عورته فعري، فإذا به كلبٌ عَقُورٌ، وقصة إقصائه أنَّ القدرَ سَاقَ الكليم إلى مُحَارَبَةِ فُسَّاقِ بلده، فقالوا له: اشحذ موسى الدعاء على موسى، فَمَجَّ فَجَّ فُوهُ بحمحمة تنحت خشبةٍ، فأزعجه خشية الخلق، فخرج حتى أتى على أتان له، فلما قفا وقفت ليقف سير عزمه، فضرى بضربها حتى أَضَرَّ بها، فقامت في المَحَجَّة تنطق بالحجة، فقالت: تضربني، وهذه نار تمنع الماشية المشي، فرجع إلى ملكهم، فأخبره خبره، وما مَقَلَ المقيتُ المقصود ولا خبره، فألجأ الملكَ صُلبُ عَزْمِهِ إلى أمرٍ صلب؛ إما الدعاء عليهم وإما الصلب، ولو جاءته اليقظة من الملك لدعا على الملك، فخرج فأتبعه الشيطان، فما كان إلا أن بلغ المكان ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٥] تاللهِ ما عدا عليه العدو إلا بعد أن تولى عنه الولي، فلا تظن أن الشيطان غلب، لكن العاصم أعرض، فإن شككت فاسمع هاتف القدر مخبرًا عن عزة القادر: ﴿وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٦]، خاصمته الآيات وليته لم يحسنها، وانقطعت أعذاره ومن لم يبنها على الصدق لم يبنها، أطلق نفسه من قيد التقوى إلى رياح الهوى، ولو لم يفتها أمنها، وإن لم تحذرها فذرها لا تأمنها، ويلا له لقد لعب بالجمر، وباع تلاوةَ التوراةِ بالزَّمْرِ، فقدم على خوف أخوف زيد وعمرو، ثم أقبل يفتح خابية الخمرِ ولسانُ النُّصْحِ يصيح له طنها فانسلخ منها، احذر نفسك والذي جرى عليك منها، وحاسبها على الخطرات قبل يوم الحساب وزنها، وخفف شين شأنها، إن شئت عزها فهنها، واحفر لها ركية العُزلة، وإن أبت فادفنها، وأحضرها على الرغم في رُغَام مسكنها وسكنها، دفها بماء الندب ولا تهادنها، والله ما أَكْرَمَهَا مَنْ لم يُهِنْهَا، هذه قصص النَّجَاة قد أمليتها بعيونها، هذه جوار شنات فَاعْجِنْهَا ﴿فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا﴾ [الأعراف: ١٧٥].

الفصل الخامس عشر

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢]

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يسمع الآية فيعود إلى بيته مريضًا، وقال فرقد السبخي: دخل بيت المقدس خمس مائة عذراء لباسهن الصوف والمسوح، فتذاكرن ثواب الله تعالى وعقابه، فَمُتْنَ جميعًا في مقامٍ واحدٍ.

قال ابن حكيم أَمَّ بِنَا زُرَارَةُ ابن أَوْفَى فقرأ: ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِي ٱلنَّاقُورِ ۝٨﴾ [المدثر: ٨]، فَخَرَّ ميتًا.

وقرأ صالح المزي على أبي جهير آيةً فَخَرَّ ميتًا.

وَمَرَّ عَابِدٌ بحدادٍ فرأى النار فَسَقَطَ، فإذا به ميت.

وقال أبو طارق: شهدتُ ثلاثين رَجُلا أتوا مجالس الذكر يمشون بأرجلهم صحاحًا إلى المجلس، فرجعوا وأجوافهم قرحة، كانوا والله إذا سمعوا الذكر تصدعت قلوبهم.

[الكامل]

قُصُّوا عَلَيَّ حَدِيثَ مَنْ قَتَلَ الْهَوَى إِنَّ التَّأَسِّي رَوْحُ كُلِّ حَزِينِ

كان أبو عمر الخولاني إذا سمع الأذان تَغَيَّرَ لَوْنُهُ وَفَاضَتْ عَيْنَاهُ، وَسَمِعَ الفَضْلُ الأذانَ فَبَكَى حتى بَلَّ الحَصَى، وقال: ما أشبهه بالنِّدَاءِ.

وكان عليُّ بن الحسين رضي الله عنهما إذا توضأ اصفَرَّ لَوْنُهُ، فَيُقَالُ: ما لَكَ؟ فيقول: أتدرونَ بين يدي مَنْ أُرِيدُ أنْ أقومَ؟!

يا هذا؛ علامةُ المُحِبِّ الانزعاجُ عند ذكرِ الحبيبِ، فهذا ذكر الحبيب

يُتلى عليك فأين انزعاجك، أما علمت أن مخلوقًا أَحَبَّ مخلوقًا، فلما ذُكِرَ المحبوبُ انزعجَ المُحِبُّ.

[الطويل]

وَدَاعٍ دَعَا إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنَى ... فَهَيَّجَ أَحْزَانَ الْفُؤَادِ وَلَمْ يَدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ في صَدْرِي

جلس أبو يزيد البسطامي في يوم جمعةٍ تحت المنبر، فقرأ الخطيبُ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ [الأنعام: ٩١]، فَطَارَ الدَّمُ مِنْ عَيْنَي أبي يزيد، فَضَرَبَ المنبرَ.

[الرجز]

وَأَنْتَ إِنْ كُنْتَ رَفِيقًا فَأَعِدْ ... ذِكْرَ الْحِمَى أَطْيَبَ ما غُنِّينَا

أَعِدْ فَمِنْ آيَةِ سُكَّانِ الْحِمَى ... وَذِكْرِهِمْ أَنْ تُطْرِبَ الْحَزِينَا

شَجْوًا كَشَجْوِي يا حَمَامُ فَأَسْعِدِي ... إِنَّ الْحَزِينَ يُسْعِدُ الْحَزِينَا

كَمْ مِنْ دُمُوعٍ رَدَّهَا صَوْب دَم ... تَلَجْلَجُ الْبَرْقِ عَلَى يبرينَا

إذا تلى وصف الحبيب للمحب في جلبات الهيبة أَزْعَج، وإذا بَرَزَ في خَلْوَةِ الحُبِّ أَدْهَش، وإذا لاحَ في مَطْلَعِ اللطف أَطْرَب.

[الرجز]

ألا فتًى يَسْأَلُ قَلْبِي مَا لَهُ ... يَنْزُو إِذَا بَرَقَ الْحِمَى بَدَى لَهُ

فَهَبْ يَرْجُو خَبَرًا مِنَ الْغَضَا ... يُسْنِدهُ عَنْهُ فَمَا رَوَى لَهُ

أَرَادَ نَجْدًا مَعَهُ بِبَابِل ... إِرَادَةً هَاجَتْ لَهُ بَلْبَالَهُ

وَانْتَسَمَ الرِّيحُ الصَّبَا وَمَنْ لَهُ ... بِنَفْحَةٍ مِنَ الصَّبَا طُوبَى لَهُ

أتاهم من الله وعيد قدرهم، فَبَاتُوا على خَوْفٍ وأكلوا على تنغيصٍ، فَنَوْمُهُمْ نومُ الغَرْقَى، وَأَكْلُهُمْ أكلُ المَرْضَى.

كان عطاء السليمي يواصل البكاء، فبكى يومًا في غرفةٍ، فسالتِ الدموعُ مِنَ المِيزَابِ فقطرت على بعضِ المَارِّينَ، فقال: يا أهل الدار؛ مَاؤُكُمْ هذا

طَاهِرٌ، فعلموا أنها دموع عطاء، فقالوا: نعم، فصاح عطاء: يا هذا اغسله، فإنها دموع مَنْ عَصَى اللهَ تعالى. ودخلوا عليه يومًا وَحَوْلَهُ بَلَلٌ، فَظَنُّوهُ قد تَوَضَّأَ، فقالت عجوزٌ في دَارِهِ: هذه دُمُوعُهُ.

[السريع]

كُلُّ سَحَابٍ أَمْطَرَتْ أَرْضَكُمْ حَامِلَةً لِلْمَاءِ مِنْ أَدْمُعِي
وَكُلُّ رِيحٍ زَعْزَعَتْ تُرْبَكُمْ فَإِنَّهَا الزَّفْرَةُ مِنْ أَضْلُعِي

ولقد عُوتِبَ عطاءٌ على كثرةِ بُكَائِهِ، فقال: إني إذا ذكرتُ أهلَ النَّارِ مثلتُ نفسي بينهم، فكيفَ بنفسٍ تُغَلُّ يَدُهَا إلى عُنُقِهَا وَتُسْحَبُ لا تَصِيحُ وَتَبْكِي.

[مجزوء الرجز]

كَثَّرَ فِيكِ اللَّوْمُ فَأَيْنَ سَمْعِي وَهُمُ
قَلْبِي وَاللَّوْمُ عَلَيْـ ـكِ مُنْجِدٌ وَمُتَّهَمُ
فَهَلْ سِمَاتُ الْحُبِّ إلـ ـلا سَهَرٌ وَسَقَمُ
وَمَا عَلَيْهِمْ سَهَرِي وَلا رُقَادِي لَهُمُ
قَالُوا سَهِرْتَ وَالْعُيُو نُ السَّاهِرَاتُ نُوَّمُ
خُذْ أَنْتَ فِي شَأْنِكَ يَا قَلْبُ وَخَلِّ عَنْهُمُ

الفصل السادس عشر

في قوله تعالى: ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]

إخواني؛ لما أفلقَ الخوفُ المؤمنَ في حَيَاتِهِ تداركته البِشَارَةُ عند مَمَاتِهِ ليطيبَ لَهُ سَفَرُ الآخرةِ.

قال ابنُ مسعودٍ: (إذا جَاءَ ملكُ المَوْتِ يقبضُ رَوْحَ المؤمنِ، قَالَ لَهُ: رَبُّكَ يُقْرِئُكَ السَّلامَ).

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِنَّ المَيِّتَ يَحْضُرُهُ الْمَلائِكَةُ، فَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ الصَّالِحُ، قَالَ: اخْرُجِي أَيَّتُهَا الرُّوحُ الطَّيِّبَةُ الَّتِي كَانَتْ فِي الْجَسَدِ الطَّيِّبِ، اخْرُجِي حَمِيدَةً، وَاسْتَبْشِرِي بِرَوْحٍ وَرَيْحَانٍ، وَرَبٍّ غَيْرِ غَضْبَانَ، فَلا يَزَالُ يُقَالُ لَهَا ذَلِكَ حَتَّى تَخْرُجَ "(١).

وَقَالَ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِذَا دُفِنَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ، قَالَ لَهُ الْقَبْرُ: مَرْحَبًا وَأَهْلا، أَمَا إِنْ كُنْتُ لأُحِبُّ أَنْ تَمْشِي عَلَى ظَهْرِي، فَإِذْ وُلِّيتُكَ الْيَوْمَ، فَسَتَرَى صَنِيعِي بِكَ، فَيَتَّسِعُ مُدَّ بَصَرِهِ، وَيُفْتَحُ لَهُ بَابٌ إِلَى الْجَنَّةِ "(٢).

وفي " الصحيحين " من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الْمُؤْمِنَ إِذَا مَاتَ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ مِنَ الْجَنَّةِ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ "(٣).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٦/ ٤٤٣، رقم ١١٤٤٢).

(٢) أخرجه الترمذي (٤/ ٦٣٩، رقم ٢٤٦٠).

(٣) أخرجه البخاري (٣/ ١١٨٤، رقم ٣٠٦٨).

وقال مجاهدٌ: إِنَّ الْمُؤْمِنَ لَيُبَشَّرُ بِصَلاحِ وَلَدِهِ مِنْ بَعْدِهِ لِتَقَرَّ عَيْنُهُ.

وقال كعبٌ: (إذا وُضِعَ العَبْدُ الصَّالِحُ احْتَوَتْهُ أَعْمَالُهُ الصَّالِحَةُ، فَتَجِيءُ مَلائِكَةُ العَذَابِ مِنْ قِبَلِ رِجْلَيْهِ، فَتَقُولُ الصَّلاةُ: إِلَيْكُمْ عَنْهُ، فلا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ أَطَالَ في الْقِيَامِ للهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَيَأْتُونَهُ مِنْ قِبَلِ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ الصِّيَامُ: إِلَيْكُم عَنْهُ، لا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَقَدْ طَالَ ظَمَأُهُ للهِ عَزَّ وَجَلَّ في دَارِ الدُّنْيَا، فَيَأْتُونَهُ مِنْ قِبَلِ جَسَدِهِ، فَيَقُولُ الحَجُّ وَالْجِهَادُ: إِلَيْكُمْ عَنْهُ، فَقَدْ طَالَ ما أَنْصَبَ نَفْسَهُ، وَأَتْعَبَ بَدَنَهُ، وَحَجَّ وَجَاهَدَ لا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، فَيَأْتُونَهُ مِنْ قِبَلِ يَدَيْهِ، فَتَقُولُ الصَّدَقَةُ: كُفُّوا عَنْ صَاحِبِي، فَكَمْ صَدَقَةٍ خَرَجَتْ مِنْ هَاتَيْنِ الْيَدَيْنِ حَتَّى وَقَعَتْ في يَدِ اللهِ تَعَالَى ابْتِغَاءَ وَجْهِهِ، فَلا سَبِيلَ لَكُمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَيُقَالُ لَهُ: هَنِيئًا طِبْتَ حَيًّا وَطِبْتَ مَيِّتًا).

إخواني؛ هذه من بشارات المؤمن في الدنيا، فإذا قامت القيامة تلقته الملائكة ببشارة: ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، فإذا وصل إلى الجنة، تَلَقَّتْهُ الولدانُ بالبِشَارَةِ، فإذا اسْتَقَرَّ في مَنْزِلِهِ أتتِ الملائكةُ بِبِشَارَةِ ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ [الرعد: ٢٤]، ثم يبشره اللهُ تعالى بالرِّضَا عنه، وليس في البِشَارَاتِ مثلها.

إخواني؛ كان الصَّالِحُونَ على طريق المخافةِ، فتلقتهم البِشَارَةُ بِرَاحَةِ الرَّاحَةِ.

عُوتِبَ الحَسَنُ عَلَى طُولِ حُزْنِهِ، فقالَ: (وما يؤمني أن يكونَ اطلعَ في بعضِ ذنوبي، فقال: اذهبْ لا غَفَرْتُ لَكَ).

[الطويل]

لَعَلَّكَ غَضْبَانٌ وَقَلْبِيَ غَافِلُ ... سَلامٌ عَلَى الدَّارَيْنِ إِنْ كُنْتَ رَاضِيًا

قال عبد الواحد بن زيد: لو رأيت الحسنَ كأن قد صُبَّ عليه حُزن الخلائق، ولو رأيتَ يزيدَ الرقاشي لقلتَ مُثْكِلٌ.

قال رجل لبشر: أراكَ مهمومًا، فقال: إني مطلوب. وكان لا ينام الليل، فيقول: أخافُ أن يأتي أمرُ اللهِ وأنا نائمٌ.

[المتدارك]

رَقَـدَ السُّمَّـارُ فَـأَرَّقَـهُ أَسَـفٌ لِلْبَيْـنِ يُـرَدِّدُهُ
فَبَكَـاهُ النَّجْـمُ وَرَقَّ لَـهُ مِمَّـا يَـرْعَـاهُ وَيَـرْصُـدُهُ
وَغَـدًا يَقْضِـي أَوْ بَعْـدَ غَـدٍ هَـلْ مِـنْ نَظَـرٍ يَتَـزَوَّدُهُ
يَهْـوَى الْمُشْتَـاقُ لِقَـاءَكُـمُ وَصُـرُوفُ الدَّهْـرِ تُفَنِّـدُهُ
يَـا أَهْـلَ الشَّـرْقِ لَـهُ شَـرَقٌ بِالدَّمْـعِ يَفِيـضُ مَـوْرِدُهُ
مَـا أَحْلَـى الْوَصْـلَ وَأَعْـذَبُـهُ لَـوْلا الْهِجْـرَانُ يُنَكِّـدُهُ
يَـا وَاجِـدَ نَـوْمٍ أَفْقِـدُهُ هُنِّئْـتَ بِلَيْـلٍ تَـرْقُـدُهُ
بِالْبَيْـنِ وَبِالْهِجْـرَانِ فَيَـا لِفُـؤَادِي كَيْـفَ تَجَلُّـدُهُ

لمَّا جَاعَ بِشْرٌ قَدَرَ على قيامِ الليلِ، مر مضمره في حلبة السباق، فلما نزلت بروضة ﴿عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، هَبَّتْ بالنازلِ المنازلُ، كُلْ يا مَنْ لم يَأْكُلْ.

[مخلع البسيط]

أَقْطَـعُ لَيْلَـى وَجِيـشَ وَجْـدِي مِـنْ عَـنْ شِمَـالِـي وَعَـنْ يَمِيـنِـي
تَـاللـهِ لَـوْ عَـادَنِـي رَسُـولٌ لَعَـادَ عَـنْ مُـدْنِـفٍ حَـزِيـنِ
مَـا حِيـلَـتِـي فِيـك غَيْـرُ أَنِّـي أَشْـرَقَ مِـنْ زَفْـرَتِـي أَنِيـنِـي

مالتْ بالقومِ ريحُ السَّحَرِ مَيْلَ الشَّجَرِ بالأغصانِ، هَزَّ الخوفُ أَفْنَانَ القلوبِ، فانتشرتِ الأفنانُ، فاللسانُ يضرعُ، والعينُ تَدْمَعُ، والوقتُ بُستان، خَلوتُهم بالحبيبِ تَشْغَلُهُمْ عن نعم ونعمان، سورهم أساورهم، والخشوعُ تيجان، خُضُوعُهُمْ حُلاهُم فما دُرٌّ ومرجان، أخذوا قدر البلاغة وقالوا: نحن ضيفان، باعوا الحرص بالقناعة فما ملك أنو شروان، رفضوا زمام المبيع، وما باعوا بثنيان، طالت عليهم أيام الحياة والحب ظمآن، فإذا وردوا القيامة تَلَقَّاهُمْ بِشْرٌ لولاه ما طابتِ الجنانُ، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١]، اطلع من خوخة التيقظ بعين التأمل ترى البُرهان، أينَ أنتَ منهم؟ ما نائم

كيقظان، كَمْ بينكَ وبينهم؟ أين الشُّجاعُ منَ الجَبَانِ؟ ما للمواعظِ فيك موضع القلب بالهوى ملآن.

يا هذا؛ قِفْ على بابِ النَّجَاحِ، ولكن وقوف لهفان، واركب سفين النجاة فهذا الموت طوفان، أيكون بعد هذا إيضاح؟ أَوَمِثْلُ هذا تبيان؟ يا لها من موعظة سحبت ذيل الفصاحة فحار منها سحبان بَغْدَادِيَّة أمَامِيَّة مُقْتَفَوِيَّة لا تعرف ضرب خراسان، ﴿يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ﴾ [التوبة: ٢١].

الفصل السابع عشر

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ٣٥]

الإشارةُ إلى الأموالِ، وَإِنَّمَا خَصَّ الجِبَاهَ وَالجُنُوبَ وَالظُّهُورَ لِوَجْهَيْنِ:

أحدهما: أن هذه المواضع مُجَوَّفَةٌ، فيصل الحَرُّ إلى أَجْوَافِهَا، وكان أبو ذَرٍّ يقول: (بَشِّرِ الْكَانِزِينَ بِكَيٍّ في الْجِبَاهِ، وَكَيٍّ في الْجُنُوبِ، وَكَيٍّ في الظُّهُورِ، حَتَّى يَلْتَقِي في أَجْوَافِهِمْ).

الثاني: أنَّ الغني إذا رَأَى الفقيرَ انْقَبَضَ، وإذا ضَمَّهُ وَإِيَّاهُ مَجْلِسٌ واحدٌ ازْوَرَّ عنه وَوَلاهُ ظَهْرَهُ، فَعُوقِبَ بِكَيٍّ تِلْكَ الأعْضَاءِ، قاله أبو بَكْرٍ الوَرَّاقُ.

روى أبو ذَرٍّ، قال: أتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو في ظل الكعبة، فقال: " هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكعبةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ وَرَبِّ الكعبةِ "(١)، قَالَ: فَأَخَذَنِي غَمٌّ، وَجَعَلْتُ أَتَنَفَّسُ، فَقُلْتُ: هَذَا شَرٌّ حَدَثَ فِيَّ، فَقُلْتُ: مَنْ هُمْ فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي؟ قَالَ: " الأَكْثَرُونَ إلا مَنْ قَالَ في عِبَادِ اللهِ: هَكَذَا وَهَكَذَا، وَقَلِيلٌ مَا هُمْ، مَا مِنْ رَجُلٍ يَمُوتُ، وَيَتْرُكُ إِبِلا، أَوْ بَقَرًا، أَوْ غَنَمًا، لَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهَا إلا جَاءَتْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْظَمَ مَا يَكُونُ وَأَسْمَنَ، حَتَّى تَطَأَهُ بِأَظْلافِهَا، وَتَنْطَحُهُ بِقُرُونِهَا حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ، كُلَّمَا نَفِدَتْ عَلَيْهِ أُخْرَاهَا عَادَتْ عَلَيْهِ أُولاهَا "، أَخْرَجَاهُ في " الصحيحين "، وجملة ما روى أبو ذرٍّ عن النبي صلى الله عليه وسلم مائةُ حديثٍ وثمانون حديثًا، أخرجا له ثلاثة وثلاثون، المتفق عليه منها اثنا عشر، وانفرد البخاريُّ بحديثين، ومسلمٌ بتسعة عشر، وروى البخاريُّ في " صحيحه "

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٦، رقم ٩٩٠).

من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَنْ آتَاهُ اللهُ مَالا فَلَمْ يُؤَدِّ زَكَاتَهُ، إلا مُثِّلَ لَهُ مَالُهُ شُجَاعًا أَقْرَعَ لَهُ زَبِيبَتَانِ يُطَوِّقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُ بِلِهْزِمَتَيْهِ؛ يَعْنِي: شِدْقَيْهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا مَالُكَ، أَنَا كَنْزُكَ "(١).

وَرَوَى مسلمٌ في " صحيحه " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْ صَاحِبِ ذَهَبٍ وَلا فِضَّةٍ لا يُؤَدِّي مِنْهَا حَقَّهَا إلا صُفِّحَتْ لَهُ صَفَائِحُ مِنْ نَارٍ، وَأُحْمِيَ عَلَيْهَا في نَارِ جَهَنَّمَ، فَيُكْوَى بِهَا جَنْبُهُ وَجَبْهَتُهُ وَظَهْرُهُ، كُلَّمَا بَرَدَتْ أُعِيدَتْ في يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ، حَتَّى يُقْضَى بَيْنَ الْعِبَادِ، فَيَرَى سَبِيلَهُ إِمَّا إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِمَّا إِلَى النَّارِ "(٢).

وقال ابنُ مسعودٍ: (واللهِ، ما مِنْ رَجُلٍ يُكْوَى بِكَنْزٍ، فَيُوضَعُ دِينَارٌ عَلَى دِينَارٍ، وَلا دِرْهَم عَلَى دِرْهَمٍ، وَلَكِنْ يُوَسَّعُ جِلْدُهُ، فَيُوضَعُ كُلُّ دِينَارٍ وَدِرْهَمٍ عَلَى حِدَةٍ).

وقال ابن عباس: (هي حَيَّةٌ تنطوي على جبينه وجبهته، فتقول: أنا مَالُكَ الذي بَخِلْتَ به).

وقال محمد بن يوسف الفريابي: سمعت أبا سنان، وكان رجلا هائمًا يدور في جبال بيت المقدس، قال: نزلتُ على رَجُلٍ، فقال: امضِ بنا نُعَزِّي جارًا لنا مَاتَ أَخُوهُ، فذهبتُ معه، فإذا رجلٌ جَزِعٌ، لا يَقْبَلُ العَزَاءَ، فقلنا له: يا هذا اتقِ اللهَ تعالى، واعلم أنَّ الموتَ سبيلا لا بُدَّ منه، فقال: قد علمتُ، ولكن أَبْكِي على ما أَصْبَحَ وَأَمْسَى فيه أخي، فقلنا: سبحانَ اللهِ تعالى، هل أَطْلَعَكَ اللهُ تَعَالَى على الغَيْبِ؟! فقال: إنِّي لَمَّا دَفَنْتُهُ ورميتُ عليه التُّرَابَ إذا صَوْتٌ من القبرِ يقول: آوه، فقلتُ: أخي، واللهِ أخي، فكشفتُ الترابَ، فقيل لي: يا عبدَ اللهِ، لا تنبشْ، فَرَدَدْتُ التُّرابَ، فَلَمَّا ذهبتُ أقومُ، قال: آوه، فقلت: أخي، واللهِ أخي، ثم كشفتُ التُّرَابَ، فقيل لي: لا تَفْعَلْ، فرددتُ

---

(١) أخرجه البخارى (٢/ ٥٠٨ رقم ١٣٣٨)، والنسائى فى الكبرى (٢/ ٢٠ رقم ٢٢٦١). وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٣٥٥ رقم ٨٦٤٦)، والبيهقى (٤/ ٨١، رقم ٧٠١٥).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ٦٨٠، رقم ٩٨٧)، وأبو داود (٢/ ١٢٤، رقم ١٦٥٨)، والنسائى (٥/ ١٢، رقم ٢٤٤٢).

الترابَ، فلما ذهبتُ أقوم، إذا هو يقول: آوه، فقلت: واللهِ لا تركتُ نَبْشَهُ، فَنَبَشْتُهُ، فإذا هو مُطَوَّقٌ بطوقٍ من نارٍ، قَدِ الْتَمَعَ عليه القبرُ نارًا، فطمعتُ أقطعُ الطَّوقَ، فَضَرَبْتُهُ بيدي لأَقْطَعَهُ فَذَهَبَتْ أَصَابِعِي، قال: وَأَخْرَجَ إلينا أَصَابِعَهُ الأربعَ قد ذَهَبَتْ، قال: فَأَتَيْنَا الأَوْزَاعِيَّ، فَحَدَّثْتُهُ، فقلتُ: يَمُوتُ اليهوديُّ والنَّصرانيُّ فلا يُرَى هذا، فقال: أولئكَ لا شَكَّ أَنَّهُم في النَّارِ، وَلَكِنْ يُرِيكُمُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَهْلَ التَّوحيدِ لِتَعْتَبِرُوا.

وَصَحِبَ يوسفَ بنَ أسباط رجلٌ من أهل الجزيرة، وكان كثيرَ الجَزَعِ، فقال له يوسف: ما كان عَمَلُكَ، فإنِّي أَرَاكَ لا تَهْدَأُ مِنَ البُكَاءِ، فقال: إنِّي كنتُ نَبَّاشًا، وكنتُ أَرَى أكثرَ الوُجُوهِ قد حُوِّلَتْ عَنِ الْقِبْلَةِ.

وقيل لِنَبَّاشٍ قد تَابَ: ما أعجب ما رأيتَ؟ قال: نَبَشْتُ إنسانًا، فإذا هو مُسَمَّرٌ بالمساميرِ في سائرِ جَسَدِهِ، وَمِسْمَارٌ كبيرٌ في رَأْسِهِ، وآخرُ في رِجْلَيْهِ.

وقيل لآخر: ما أعجب ما رأيتَ؟ قال: رأيتُ جُمْجُمَةَ إنسانٍ قد صُبَّ فيها الرَّصَاصُ.

قل للذين شغلهم في الدنيا غُرُورُهُمْ إنما حزنهم في غَدٍ سُرُورُهُمْ، ما نفعهم ما جمعوا إذا جاء مَحْذُورُهُم، تَحَصَّنُوا بسورِ المالِ، فقيلَ: ما سورهم، فما سورهم، فَتُكْوَى بها جِبَاهُهُم وَجُنُوبُهُم وَظُهُورهُم، ظلموا الفقيرَ بحبسِ الحقوقِ، فعصوا الخالقَ وَأَغْضَبُوا المخلوقَ، فرماهم بسهم مكرٍ لا من فوق فوق، فما انتبهوا حتى زُمَّتْ للرحيلِ النُّوق، فَلَمَّا فَغَرَتْ أفواهها فَرَغَتْ قُصُورُهُمْ، إذا لقيهم الفقيرُ لقي الأذى، فإذا طلب منهم ثأر الغيظ كالجذى، وإن لطفوا به قالوا: أعنت، فالجواب ذا يا عجبا، كم يلقون من هولٍ إذا ضمتهم قبورهم.

أما أعطاهم مولاهم من كل خير، أما أغناهم وأفقر الغير، أفي إيجاب ربع العشر حيف أو ضير، فما لهم إذا أخرجوا حَبَّةً ضاقت صدورهم، دنياهم أثر من دينهم، ودرهمهم أحلى من يقينهم، ومسكنهم معمور بمال مساكينهم، بَدَرَهُم بدُورهم بدورهم.

أخذ المال إلى دار ضرب العقاب، فجعل في بوتقة يحمى ليذوقوا

العذاب، فَصُفح صفائح لكي يَعُمُّ الْكَيُّ الإهَاب، ثم جيء بمن عن الهدى قد غَابَ، يسعى إلى ما كان فيه يسعى، لا مع قوم يسعى نورهم.

لو رأيتهم في طبقاتِ النَّارِ يَتَقَلَّبُونَ على جَمَرَاتِ الدينار، وقد غلبتِ اليمينُ اليَسَار، لَمَّا بَخِلُوا مَعَ اليَسَار، لو سمعتهم وقد صح صبورهم، سيأخذها الوارث من غير تعب، وسيسأل عنها المخلف كيف كسب الشوك لهذا ولهذا الرطب، أين حرص الجامعين لها؟ أين بكورهم؟ كم حُثوا على الزكاة وما فيهم من يسمع، وكم حُرضوا على الزهادة وكلهم يجمع، كأنهم بالمال وقد انقلب شجاع أقرع، ولكن ما هي عصا موسى ولا طورهم ﴿يَوۡمَ يُحۡمَىٰ عَلَيۡهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكۡوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمۡ وَجُنُوبُهُمۡ وَظُهُورُهُمۡۖ﴾ [التوبة: ٣٥]

الفصل الثامن عشر

في قوله تعالى: ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي ٱلْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]

لمَّا بايعَ الرسول أهل العقبة أمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة، فعلمت قريش فأغارت حيل الحيل بأيدي: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، فدارت على دائرة دار ويمكرون دوائر ويمكر الله، فجاء روح القدس بالخبر، وأمره أن يفارق موضعَ المضجع، فَعَلا عَلاءُ عليِّ العُلا، إذ بات مَكَانَهُ، وَتَصَدَّى الصِّدِّيقُ لِصُحْبَتِهِ، وناهيك بها ويكفي مكانه، فدخلا غارًا لو دخله غيرهما لكان غُرورًا، وغريت قريش بالطلب، فنبتت شجرة لم تكن قبلُ قِبَلَ البابِ، فَلَمَّا ظَلَّلَت أَظَلَّتِ المطلوبَ وَأَضَلَّتِ الطالبَ، وجاءت عنكبوت فَحَاكَتْ وَجْهَ الغَارِ، فحاكت ثوبَ نَسْجِهَا على مِنْوَالِ السَّتْرِ، فأحكمت الحكم ببيان، فالحكم الأمر، وأقبلت إلى الحمى حمامات، فما كان إلا أن سكنتا من الغار فَمًا، فما بان المستتر، فاتخذتا عُشًّا، فغشى ما غشى من عشى العشاء على أبصار المفتقدين فصاروا كالأعشى، يا محمد بت ليلة الغار في حمى حمامةٍ، ودفعتُ العدوَّ عنك بعنكبوتٍ، هذا أبلغ في الإعجاز من مقاومة القوم بالجنود، فراغَ الأعداءُ إلى تلك الناحية، فرأوا دليل فراغ الغار، فَعَادُوا عَمَّنْ عَادُوا عَوْدًا، فقالَ الصِّدِّيقُ عَنْ حِدَّةِ الوَجْدِ: لو أَنَّ أحدًا نَظَرَ إلى قَدَمَيْهِ لأَبْصَرَنَا، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ ثَالِثُهُمَا»[(١)]، فَأَقَامَا ثَلاثًا ثم رحلا، فلا هَمَّ لَهُمَا إلا قطعُ الفلا، ومع أُنس

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ١٣٣٧، رقم ٣٤٥٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ٢٣٨١)، والترمذى (٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٦) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/ ٣٤٨، رقم ٣١٩٢٩)، وعبد بن حميد (ص ٣٠، رقم ٢)، وأبو يعلى (١/ ٦٨، رقم ٦٦).

وجودهما فَلا فَلا، فمن ذلك الفلا لا دلهما فلالا، فلحقهما سُرَاقَةُ بنُ جعثم فسرقت الأرض قوائم فرسه، فلما رأى أرضًا صلدًا قد فرست الفرس فسرت إلى بطنها، أسرت نفسه علم اليقين بظنها، فأخذ يعرض المال على مَنْ قد رَدَّ مفاتيح الكنوز، ويقدم الزادَ إلى شبعان أبيت عند ربي، كانت تُحفة ثاني اثنين مُدَّخرةً للصديق دون الكلِّ، فهو الثاني في الإسلام ما ثنى بالرسول سواه في بذل النفس، وفي الزُهد، وفي الصُّحبة، وفي الخلافة، وفي العمر، وفي سببِ الموتِ؛ لأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم مات عن أَثَرِ السُّمِّ في الذراع، وأبا بكر سُمَّ فمات، ولقد سُترت فضائله بنقاب " وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ في صَدْرِهِ "[1]، كما سُترت فضائل الرسول بستر ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ [النجم ١٠]، لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المخلوقات اختار ذواتِ الأرواح، ثم منها بني آدم، ثم منهم العُقَلاء، ثم منهم المؤمنين، ثم منهم العلماء، ثم منهم الأنبياء، ثم منهم المرسلين، ثم منهم أولي العزم، ثم منهم محمدًا صلى الله عليه وسلم، واختار من الأمم أمة محمد صلى الله عليه وسلم، ثم منهم المهاجرين والأنصار، ثم منهم أهل بدرٍ، ثم منهم الأربعين، ثم منهم العشرة، ثم منهم الأربعة، ثم منهم أبا بكر رضي الله عنه، فَرُتْبَةُ أبي بكر في الأمة كَرُتْبَةِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم في الأنبياء ليبين سِرَّ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

كان الصديقُ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ، وَأَسْلَمَ مَنْ أَسْلَمَ، ولم يزل مُدَافعًا عن صاحبه وما صَاحَ بِهِ، ولقد أَسْلَمَ على يده مِنَ العشرةِ خمسةٌ: عثمانُ، وطلحةُ، والزبيرُ، وعبدُ الرحمنِ، وسعدٌ، لِيُبَيِّنَ سِرَّ ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ﴾ [التوبة: ٤٠].

وكان عنده يومَ أَسْلَمَ أربعين ألف درهم، فما زال ينفقها في مَهْرِ الصُّحْبَةِ حتى خَلَّلَهُ الحُبُّ بالعبأ.

[المتقارب]

وَكَـمْ فِـضَّـةٍ فَـضَّـهَـا فـي الْـهَـوَى   وَكَـمْ ذَهَـبٍ عِـنْـدَهُ قَـدْ ذَهَـبْ

---

(١) لا أصل له مرفوعاً (٩٦٢) بل رواه الترمذي الحكيم في (النوادر) من قول بكر بن عبد الله المزني.

وَيَسْخُو بِمَا قَدْ حَوَتْ كَفُّهُ ... وَلا يُتْبِعُ الْمَنَّ مَا قَدْ وَهَبْ
وَأَهْيَبَ مَا كَانَ عِنْدَ الرِّضَا ... وَأَرْحَمَ مَا كَانَ عِنْدَ الْغَضَبْ

عاينَ طائرَ الفَاقَةِ يَحُومُ حولَ حَبِّ الإيثار، ويُنادي في نادي (وَيُؤْثِرُونَ): ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ﴾ [الحديد: ١١]، فألقى إليه إلقاء الكريم الدراهم على رياض الرضى، واستلقى في قَفْرِ الفقرِ، فنقلها إلى حَوْصَلَةِ المُضَاعَفَةِ، ثم غَرَّدَ على أفنان أشجارِ الصدقِ بفنون صَدْحِ المَدْحِ، فلم يفهم تَغْرِيدَهُ إلا سليمان الخَشُوعِ، فَأَغْرَبَ عن غَرَابِيب ذلك اللَّحنِ بِإِفْصَاحِ (أَنَا رَاضٍ عَنْكَ، فَهَلْ أَنْتَ عَنِّي رَاضٍ)، بَيْنَا هو يمشي بمكة رأى بلالا يُعَذَّبُ في الرَّمْضَاءِ ولا يُشقي بلالا فَبَذَلَ في تَخْلِيصِهِ لفظ نَعَمْ بِلالا.

[الوافر]

أَبُو بَكْرٍ حَبَاهُ اللهُ مَالا ... فَأَعْتَقَ خَيْرَ أَعْبُدِهِ بِلالا
وَقَدْ وَاسَى النَّبِيَّ بِكُلِّ خَيْرٍ ... وَأَتْبَعَ فِيهِ لَفْظَ نَعَمْ بِلالا
لَوَ انَّ الْبَحْرَ عَانَدَهُ بِسُوءٍ ... لَمَا أَبْقَى الإلَهُ لَهُ بِلالا

إخواني؛ إذا أرادَ اللهُ تَعَالَى قُبُولَ نَفَقَةِ مُنفقٍ قَدَّرَ لَهَا حاجة محتاج، وأحوجُ ما كان الإسلام في زَمَنِ إنفاقِ أبي بكرٍ الصديق، فلها حِلْيَةُ حُلي " مَا نَفَعَنِي مَالٌ كَمَالِ أَبِي بَكْرٍ "[(١)]، أَنْفَقَتْ خَدِيجَةُ وَفِي نَفَقَتِهَا شَائِبَةُ هَوَاهَا، وَأَنْفَقَ عثمانُ والأمرُ قَدْ تَنَاهَى، وَنَفَقَةُ الصِّدِّيقِ كانت لِقَاعِدَةِ بَنَاهَا.

لقد نَهَضَ وَحْدَهُ على قَدَمِ الوِحْدَةِ إلى جَمْعِ الشِّرْكِ فَرَدَّهُ يَوْمَ الرِّدَّةِ، فهو أفضلُ الإسلامِ في العَوْنِ من مؤمنِ آلِ فِرْعَوْنَ؛ لأنَّ ذلك أخفى إيمانَهُ وَخَافَت، وَنَفْسُ الصِّدِّيقِ ما حَذَرَتْ ولا خَافَت، وهو خيرٌ من صاحبِ ياسين؛ لأنَّ ذلك جَاهَدَ سَاعَةً وهذا سِنِين، نَطَقَتْ بفضائله الآياتُ والأخبارُ، واجتمعَ على بَيْعَتِهِ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢٥٣، رقم ٧٤٣٩)، والنسائى فى الكبرى (٥/ ٣٧، رقم ٨١١٠)، وابن ماجه (١/ ٣٦، رقم ٩٤). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١٥/ ٢٧٣، رقم ٦٨٥٨)، والطحاوى (٤/ ١٥٨)، وابن أبى عاصم (٢/ ٥٧٧، رقم ١٢٢٩)، والرافعى (٣/ ٣٤٩)، والخطيب (١٠/ ٣٦٣).

المهاجرينَ والأنصارُ، فيا مُبْغِضِيهِ في قلوبكم مِنْ ذِكْرِهِ نَارُ، كُلَّمَا تُليت فَضَائِلُهُ عليهم علا عليهم الصُّفَارُ، أَتَرَى مَا سَمِعَ الرَّوَافِضُ الكُفَّارُ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، دُعِيَ إلى الإسلام فَمَا تَلَعْثَمَ ولا أَبَى، وَسَارَ على المَحَجَّةِ فَمَا زَلَّ ولا كَبَا، وصبر في مُدَّتِهِ على مُدَى العِدَى وَعَلَى وَقْعِ الشَّبَا، فأكثر في الإنفاق بما ملك كَفُّه، فما قلل حتى تخلل بالعبا، واللهِ لقد زاد الشبك في كل دينار: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، مَنْ ذا الذي سبقه مِنْ أصحابه، مَنْ كان قرينَ النَّبِيِّ في شَبَابِهِ، مَنْ ذا الذي سبقه بالإيمان من أصحابه، مَنْ ذا الذي أفتى لديه سريعًا في جوابه، مَنْ أَوَّلُ مَنْ صَلَّى به في مِحْرَابِهِ، مَنْ ذا الذي صَاحَبَهُ بعدَ المَوْتِ في تُرَابِهِ، فَاعْرِفُوا حَقَّ الْجَارِ: ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

نَهَضَ يومَ الرِّدَّةِ بِفَهْمٍ وَاسْتِيْقَاظ، وَأَبَانَ من نَصِّ الكتابِ معنى دقيق حديد الألحاظ، فَمُحِبُّهُ يفرحُ بِفَضَائِلِه، ومُبْغِضُهُ يَغْتَاظُ، حَسْرَةُ المُبْغِضِ أَنْ يَقُومَ وَلَكِنْ أَيْنَ الْفَرَارُ.

كَمْ أَفْدَى النبيَّ بالمالِ والنفسِ، ويكفي في فَضْلِهِ صحبته في الرَّمْسِ، فضائله جَلِيَّةٌ عَنِ اللَّبْسِ، وَاعَجَبًا فيمن يُغَطِّي عَيْنَ الشَّمسِ في نِصْفِ النَّهَارِ.

دَخَلا غَارًا لا يسكنه لابث، فَاسْتَوْحَشَ الصِّدِّيقُ مِنْ خَوْفِ الْحَوَادِثِ، فقالَ الرسولُ: " ما ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللهُ لَهُمَا ثَالِثٌ "(١)، فنزلتِ السَّكِينةُ لحادثِ الحادثِ، وارتفعَ الطَّيْشُ وَطَابَ عَيْشُ المَاكِثِ، وَقَامَ مُؤَذِّنُ النَّصْرِ يُنَادِي بَابَ الدَّارِ، حُبُّهُ وَاللهِ رَأْسُ الْحَنَفِيَّةِ، وَبُغْضُهُ يَدُلُّ عَلَى خُبْثِ الطَّوِيَّةِ، وهو خيرُ الصحابةِ والقرابةِ حجى قوية، لولا صحة إمامته ما قيل ابن الحنفية، مَهْلا مَهْلا دَمُ الرَّوَافِضِ قَدْ فَارَ.

واللهِ ما أَحْبَبْنَاهُ لِهَوَانا، ولا نَعْتَقِدُ في غَيْرِهِ هَوَانا، ولكن أخذنا بقولِ عليٍّ

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ١٣٣٧، رقم ٣٤٥٣)، ومسلم (٤/ ١٨٥٤ رقم ٢٣٨١)، والترمذى (٥/ ٢٧٨، رقم ٣٠٩٦) وقال: حسن صحيح غريب. وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/ ٣٤٨، رقم ٣١٩٢٩)، وعبد بن حميد (ص ٣٠، رقم ٢)، وأبو يعلى (١/ ٦٨، رقم ٦٦).

وَكَفَانَا: (رَضِيَكَ النَّبِيُّ رَسُولُ اللهِ لِدِينِنَا، أَفَلا نَرْضَاكَ لِدُنْيَانَا !!)، أَخَذْتُ يَا قَوْمُ مِنَ الْقَوْمِ بِالثَّأْرِ.

لقد أوجبَ الشَّرْعُ حَقَّ الصديقِ علينا، فَنَحْنُ نَقْضِي بِمَدَائِحِهِ دَيْنًا، فَمَنْ كَانَ رَافِضِيًّا فَلا يَعُدْ إِلَيْنَا، وَلْيَقُلْ لِي أَعْذَار.

يا مُبْغِضًا لَهُ مَهْلا مَهْلا، مَنْ مِنْهُمْ سَبَقَهُ كَلا كَلا، أَمَا نَزَلَ فيه: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة: ٣]، فكم قطعت أصلا أصلا، ﴿لَا يَسۡتَوِي مِنكُم﴾ [الحديد: ١٠] فِيمَنْ تُتْلَى؟، ومثلها: ﴿إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [الليل: ٢٠]، فضائله لا تمل ولا تُمَل، ومناقبه ببعضها الصحف تملأ شذرة منها وهي من أن تخفى أجلا، هذا قدر ما يحتمله هذا الوقت على الاختصار، ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠].

الفصل التاسع عشر

في قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾

[التوبة: ٧٥]

الآية نزلت في ثَعْلَبَةَ بْنِ حَاطِبٍ، إذ مال إلى جمع المال ميل خاطب، فيا مَنْ قد عَلَّمَهُ البُخْلُ لَحْنَ الفعلِ فلم ينفعه إعرابُ اللَّفْظِ، لقد جَعَلَ بناءَ كفك بالجمع ضَمًّا، وَصَيَّرَ إعرابَ فَهْمِكَ بالمَنْعِ فَتْحًا، وستسكن هذه الحركات إذا جَازَ بك الموتُ الجازم، أتى ثعلبةُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال: (سَلِ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنِي مَالا، فقيل: قَلِيلٌ خَيْرٍ تَشْكُرُهُ خَيْرٌ مِنْ كَثِيرٍ تَكْفُرُهُ)، فَأَلَحَّ في الطَّلَبِ، وضمن حسن العهد فدعا له، فأعادت الدعوة الدعوى عليه، اتخذ غنمًا فنمى غنم غنمه، فَظَنَّ الغِنَى بالغنيمة غنيمة، فَضَاقَ فضاءُ المدينةِ بها، فَتَنَحَّى بها لوأدها إلى واد فشغله عن قرناء الجمعة والجماعة جمع القرناء والحمى، ونصب نصيبه في أصحاب النصب اختيار النصباء، وأقصاه عن أرباب الهدى اشتغاله بالقصوى، وعصمه عن قبول الحقائق إقباله على العصماء، لإيثاره مكان القعصاء، وشرق الهوى فلم يسمح إلا بالشرقاء، تاللهِ لقد ساء عَمَلُهُ بحبه الشاة اللينة، فأنساه سوءُ فِعْلِهِ أن يذكرَ يومَ اللِّينَةِ، فَلَمَّا لاحَ للمُبْتَلى مرآةَ الاختبار في كَفٍّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً﴾ [التوبة: ١٠٣]، فأمر ساعي الزكاة أن ينوب عن الفقراء في السعي، فَرَدَّ ثعلبةُ بابَ العطاء بيد المطل، فقام زاجرُ الحالِ من وراءِ راية يصيح بفصيح لسان اللَّوم: يا ذا اللُّومِ احذر أن تردَّى بالبر كاد، فما أزعج التخويف منه بالا، ولا بالإبل زاده وَبَالا، فانتدب وجوب الأداء يشكو إلى المُوجب، فوصل توقيعُ الذمِّ مشتملا على عيب سابق الدعوى ومتأخر المنع: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَـٰهَدَ ٱللَّهَ﴾ [التوبة: ٧٥]، فليحذر

شرَّ هذا المال كل مَنْ مَالَ إليه، فإنه في الحياة له وفي الممات عليه، هل المال إذا نظره ذو الحجى بحجر الحجر إلا حجر على البال، فما باله على البال البلبال قد حجر، وصل من كفّ كفت لما كفت بالكِفَاتِ إلى كَفّ خَالِفٍ، ثم ينقل عن الفتى كما أتى متى نوم التالف، فالعجب لعوارٍ ذات عوارٍ عورت من غارَ غورتها، عين الفهم أومضت فأمضت فما مضت حتى أمضت في ذي السهم منها، أمضى سهم، لا ينفع منها نوم القدوم إلا ما قدم على قدم الإخلاص، فإن افتقد فعلى منفقها محل المحل، فلم يخلص فقد فقد الإخلاص.

الفصل العشرون

في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ﴾ [التوبة: ١١١]

إخواني؛ قيمة السلعة تعرف بقدرِ مُشتريها ودلالها وثمنها، فإذا كان المشتري جليلا والدلال نبيلا والثمن جزيلا كانت السلعة نفيسةً، وهذه صفة نفس المؤمن اللهُ مُشْتَرِيهَا ومحمدٌ دلالها والجنةُ ثمنها.

إخواني؛ المجاهدةُ تغطي عيوبَ النفس؛ لأنَّ فيها كِبْرَ إبليس، وحسدَ قابيل، وَعُتُوَّ عَادٍ، وَتَمَرُّدَ ثمود، واستطالةَ فرعونَ، وَبَغْي قارون، وَوَقَاحَةَ هامان، وَهَوَى بلعَام.

فيها من أخلاق البهائم حِرْصُ الغُرَابِ، وَشَرَهُ الكلبِ، وَرُعُونَةُ الطَّاوُسِ، وَدَنَاءَةُ العِجْلِ، وَعُقُوقُ الضَّبِّ، وَحِقْدُ الجَمَلِ، وَوُثُوبُ الفَهْدِ، وَصَوْلَةُ الأسَدِ، وَخُبْثُ الْحَيَّةِ، وَمَكْرُ الفَأْرَةِ، وَعَيْبُ الْقِرْدِ، غَيْرَ أَنَّ الرياضةَ تخمد نيرانها ولا تأمن عَمَلَ النار في الباطن.

إخواني؛ من اشترى سلعةً وقد رأى عيبها لم يكن له الرَّد بالعيب والحق علم العيب من نفسك فاشتراها، فلك الأمان من الرَّدِّ.

يا هذا؛ سلم المبيع فإنه حيوان قبل أن يتلف في يدك، البس درعَ جُرْمِكَ، وانبض سيف عزمك، واذبح حنجرة طَمَعِكَ بسكين بَأْسِكَ. لقد انتهى سفرُ الطالبين إلى الظفر بنفوسهم، فإذا ظفروا بها فقد وصلوا، أَوَّلُ وصل العبد هجره لنفسه.

قال بعض المريدين: رأيتُ حوراءَ في منامي، فقلت: زَوِّجِينِي نَفْسَكِ، فقالت: اخْطُبْنِي مِنْ سَيِّدِي، فقلت: ما مَهْرُكِ؟ قالت: حَبْسُ نَفْسِكَ عَنْ مَأْلُوفَاتِهَا.

[أحذ الكامل]

بِـدَمِ الْـمُـحِـبِّ يُـبَـاعُ وَصْـلُـهُـمُ مَـنْ ذَا الَّـذِي يَـسْـتَـامُ بِـالـسِّـعْـرِ

اعطف نفسك بزمام الإنابة، وردها بلجام اليقظة عن هوى الهوى، سلمها إلى رائض الأمر، وألفها إلى طبيب الشرع، فالطبيب يحبسها في حمى الحمية، ويمزج لمزاجها المُنحرف برودة الرجاء بحرارة الخوف، فإذا خالفت هواها وحالفت دواها ارتفعت صمامة الصمم عن سمع التيقظ، وَخَرَّ رُكَامُ الزكام عن مِنْخَرِ الهدى، فاستنشقت ريح يوسفها من قميص أسفها على مُستلفها، فرمت أعراضَ إعراضها بسهم العزائم على هجرانها، فرأت عيب الدنيا فانطلقت في طلاقها، فكلما دبت مياة العوافي في أغصان سرها، انتشرت أوراق الصدق في بر بدؤها، وانتشرت وُرْقُ طربها بوجدان أربها، تصدح على أفنانها بفنون ألحانها، فكان مضمون فنائها استوى عندي حجرها ومدرها، فحينئذٍ تبني صومعة التعبد على ساحل التزهد، وتضع أساسَ العزائم، وتحكمها بشَدِّ التَّفَكُّرِ، وتغرس حولها أشجارَ التَذَكُّرِ، وتشرع لها مشرعةً من الحزن فيحوم حولها طائر الأنس، فتسمعها نغمات القدس، فتصير في جنةٍ رياضها بالرياضة بَاضَّة، فتظهر ينابيع الحكمة من القلب، وينطق اللسان بالغيب، كما أظهر سِرَّ طَهَارَةِ السِّرِّ[1] (يا سَارِيَةُ الْجَبَلَ).

فيا أيها الأعزل احذر إصابة نبل المتقي، فإنه يرى عورةَ عَمَلِكُ من وراء جلباب سِتْرِكَ، " اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ "[2].

سُئِلَ أبو يزيد البسطامي: بماذا نِلْتَ ما نِلْتَ؟ فقال: انْسَلَخْتُ مِنْ نَفْسِي كَمَا تَنْسَلِخُ الْحَيَّةُ مِنْ جِلْدِهَا، وَمَا زِلْتُ أَسُوقُ نَفْسِي إلى اللهِ تَعَالَى وَهِيَ تَبْكِي حَتَّى سُقْتَهَا وَهِيَ تَضْحَكُ.

---

(١) أخرجه ابن عساكر (٢٠/ ٢٤).

(٢) أخرجه البخارى فى التاريخ الكبير (٧/ ٣٥٤)، والترمذى (٥/ ٢٩٨، رقم ٣١٢٧)، وقال: حديث غريب. وأبو نعيم فى الحلية (١٠/ ٢٨١). وأخرجه أيضًا: الطبرى (١٤/ ٤٦).

[البسيط]

مَا زِلْتُ أُضْحِكُ إِبِلِي كُلَّمَا نَظَرَتْ إِلَى مَنْ اخْتَضَبَتْ أَخْفَافُهَا بِدَمِ
مَنِ اقْتَضَى بِسِوَى الْهِنْدِيِّ حَاجَتَهُ أَجَابَ كُلَّ سُؤَالٍ عَنْ هَلٍ بِلَمِ
سُبْحَانَ خَالِقِ نَفْسِي كَيْفَ لَذَّتُهَا فِيمَا النُّفُوسُ تَرَاهُ غَايَةَ الأَلَمِ

وقال أبو يزيد البسطامي: كنت اثنتي عشرة سنةً حداد نفسي، وخمس سنين مرآة قلبي، ثم بقيت سنةً أنظر ما بينهما، فرأيتُ على ظَاهِرِي زُنَّارًا، فعملت في قطعه اثنتي عشرة سنةً، ثم رأيتُ على بَاطِنِي زُنَّارًا آخَرَ، فعملتُ في قطعه خمسَ سنين، ولقد أبغضتُ الدنيا حتى أحببت طاعته، وأحببتُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حتى أحببتُ نَفْسِي.

[الرجز]

ثَوَّرَهَا نَاشِطَةً عِقَالَهَا قَدْ مَلأَتْ مِنْ بُدْنِهَا جِلالَهَا
فَلَمْ تَزَلْ أَشْوَاقُهُ تَسُوقُهَا حَتَّى رَمَتْ مِنَ الْوَجَى رِحَالَهَا
أَرَادَ أَنْ تَشْرَبَ مَاءَ حَاجِرٍ أَرِيَّهَا يَطْلُبُ أَمْ كَلالَهَا
إِنَّ لَهَا عَلَى الْقُلُوبِ ذِمَّةً لأَنَّهَا قَدْ عَرَفَتْ بَلْبَالَهَا
مَاذَا عَلَى النَّاقَةِ مِنْ غَرَامِهِ لَوْ أَنَّهُ أَنْصَفَ أَوْ رَثَى لَهَا
إِنَّ لَهَا عَلَى الصَّبَا تَحِيَّةً أَعْجَلَهَا السَّائِقُ أَنْ تَنَالَهَا
وَامْتَدَّتِ الْفَلاةُ دُونَ خَطْوِهَا كَأَنَّهَا قَدْ كَرِهَتْ زَوَالَهَا
فَعَلِّلُوهَا بِحَدِيثِ حَاجِرٍ وَلْتَصْنَعِ الْفَلاةُ مَا بَدَا لَهَا

الفصل الحادي والعشرون

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ [يونس: ٥]

معنى الكلام: جَعَلَ الشمسَ ذاتَ ضياءٍ والقمرَ ذا نُورٍ.

قال ابنُ قتيبة: إنما سُمِّيَ القمرُ قمرًا لِبَيَاضِهِ، والأقْمَرُ: الأبيضُ، وليلةٌ قَمْرَاءُ: مُبْيَضَّةٌ.

تبرزُ الشمسُ بالنهارِ في حُلَّة الشعاعِ لانتفاعِ المُبْصِرِ، فإذا ذهبَ النهارُ نَشَرَتْ رِدَاءَهَا المُعَصْفَرَة، وَنَزَلَتْ عَنِ الأشْهَبِ فركبتِ الأصفرَ، فَكَحَّلَ اللَّيلُ عيونَ البيداءِ بِإثْمِدِ الظَّلْمَاءِ، والشمسُ تُسْتَرُ بالليلِ لسكونِ الخلقِ، وتظهرُ بالنهار لِمَعَاشِهِمْ، وتارةً تَبْعُدُ لِيَتَرَطَّبَ الْجَوُّ، وينعقدَ الغَيْمُ، وَيَبْرُدَ الهَوَاءُ فَيَتَرَبَّى النباتُ، وتارةً تقربُ ليجفَ الحَبُّ، وينضجَ الثمرُ، وإنَّما قَلَّ ضَوْءُ القَمَرِ لِقِلَّةِ الاحتياجِ إلى النُّورِ وقتَ النَّوْمِ، وقوله عز وجل: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ﴾ [يونس: ٥]، الهاءُ عائدةٌ إلى القمرِ، والمعنى: قَدَّرَ لَهُ، فحذف اللام الجارة.

قال ابنُ قتيبةَ: منازلُ القمرِ ثمانيةٌ وعشرونَ مَنْزِلا من أول الشهر إلى ثمانية وعشرين ليلةً، ثُمَّ يستقر، وهذه منازل النجوم التي كانت تَنْسِبُ إليها العربُ الأنواءَ، وأسماؤها عندهم:

السَّرَطَانُ، وَالبُطَيْنُ، والثُّرَيَّا، والدَّبرَانِ، وَالْهَقْعَةُ، وَالْهَنْعَةُ، وَالذِّرَاعُ، وَالنَّثْرَةُ، وَالطَّرْفُ، وَالْجَبْهَةُ، وَالزَّبْرَةُ، وَالصَّرْفَةُ، وَالْعَوَّاءُ، وَالسِّمَاكُ، وَالْغَفْرُ، وَالزُّبَانَى، وَالإكْلِيلُ، وَالْقَلْبُ، وَالشَّوْلَةُ، وَالنَّعَائِمُ، وَالْبَلْدَةُ، وَسَعْدُ الذَّابِحِ، وَسَعْدُ بُلَعَ، وَسَعْدُ السّعُودِ، وَسَعْدُ الأخْبِيَةِ، وَفَرْغُ الدَّلْوِ المُقَدَّمُ، وَفَرْغُ الدَّلْوِ المُؤَخَّرُ، وَالرَّشَاءُ وَهُوَ بَطْنُ الْحُوتِ.

قال: والهلالُ: أولُ ليلة والثانية والثالثة، ثم هو قمرٌ بعد ذلك إلى آخر الشهر، وليلةُ البدرِ أربعة عشر، وسُمي بدرًا لمبادرته الشمسَ بالطلوع، كَأَنَّهُ يُعْجِلُهَا المغيبَ، وَيُقَالُ: سُمي بدرًا لِتَمَامِهِ وامتلاءه، وكل شيء تَمَّ فهو بَدْرٌ، ومنه قيل للعشرة آلاف بَدْرَةٌ؛ لأنها تمام العدد ومنتهاه، والعرب تسمي ليالي الشهر لكل ثلاثٍ منها باسم؛ فتقولُ: ثلاث غُرر، وغُرَّةُ كلِّ شيءٍ أَوَّلُهُ، وثلاث نُفَل؛ لأنها زيادة على الغُرَرِ، وثلاث تُسَع؛ لأن آخر أيامها التاسع، وثلاث عُشَر؛ لأن أول أيامها العاشر، وثلاث بيض؛ لأنها تبيضُّ بطلوعِ القمرِ من أولها إلى آخرها، وثلاث دُرَعُ؛ لاسْوِدَادِ أوائلها وابيضاضِ سائرها، وثلاث ظُلَمُ؛ لظلامها جميعها، وثلاث حَنَادِسُ لِسَوَادِهَا، وثلاث دَآدِي؛ لأنها بقايا، وثلاث مُحَاق؛ لامْتِحَاقِ القمرِ آخرَ الشَّهْرِ.

سبحان مَنْ جَلَّتْ قدرته أن تُحَدَّ كَمَا عَزَّتْ نعمتُه أن تُعَدَّ.

دَلَّ البصائر بمصنوعاته عليه، وَأَرْشَدَ الألبابَ بإنعامه إليه، " كُنْتُ كَنْزًا لا أُعْرَفُ "[١]، لَمَّا أَرَادَ خلقَك مَهَّدَ الأرضَ بِسَاطًا لكَ، فلمَّا مَهَّدَهَا على الماء مَادَتْ، فَانْقَضَّتْ عِقْبَانُ الجبال على طير التَّزَلْزُلِ فرست فرست.

وقال قتادة: الأرض عشرون ألف فرسخ، اثنا عشر ألفًا عُمْرَانُ والباقي خَرَابٌ، وقال أبو الجَلْدِ: الأرض أربعةٌ وعشرون ألف فرسخًا: اثنا عشر ألفًا للسودان، وثلاثة لفارس، وثمانية للروم، وألف للعرب.

وبسط الأرضَ لأجلك، وأخرج النبات لقوتك، وأجرى الأنهار لريِّكَ، وقسم المخلوقات في الأرض إلى ما تنتفع به وإلى ما تعتبر برؤيته، وبنى السماء فنثر لآلي الأنوار، فمتى أشكل عليكم تخطيط خطها فالنجوم نقطها، وانظر إلى الأرض؛ فالشجر أقلامها، والأنهار مِدَادُهَا، والرياض رَقْمُ نَقْشِهَا، فإنِ استعجمَ كتابُ التفكير في المخلوقات لضعفِ هِجَائِكَ فاقرأ مَسْطُورَ كَوْنِكَ ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١].

يا هذا؛ تأمل نهاية هذا السفر، وترقب سكون دولاب هذا الفلك،

---

(١) قال ابن تيمية ليس من الحديث ولا يعرف له سند صحيح ولا ضعيف وتبعه الزركشي.

فجريان الشمس والقمر يعملان في فيك وأنت لا تدري ما المراد، وأنت المراد، والكائنات مرآة لعين فهمك، فمتى غَطَّى وجهَ المرآةِ نقابُ غبارِ الهوى أو قُتَارُ ظلامِ الجهلِ لم تَرَ الحقائقَ، فَاجْلِ مرآةَ السِّرِّ عندَ صَيْقَلِ العملِ ليبين لك معنى الصور المشاهَدَة، ومقصود الكائنات المعاينة، فَيُسَبِّح لسانُ الدَّهش ﴿رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا﴾ [آل عمران: ١٩١]، يا هذا؛ أَلْقِ بِذْرَ التفكير في أرض الخلوة، وَأَدِرْ حَوْلَ دارِ العُزلةِ خندقَ الحَذَرِ، وتحصَّن منَ العدوِّ بحصنِ الإخلاصِ، وَسِرْ في فَيَافِي اليقينِ حَامِلا زَادَ التَّوَكُّلِ، وَالْحَقْ برفقةِ القَانِتِينَ في زُمْرَةِ ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

وَأَنِخْ بفِنَاءِ الفَنَاءِ عن شهواتِ النفسِ، وتأملْ هلالَ الهُدَى في صَحْوِ اليقظةِ، وَطِرْ بجَنَاحِ التُّقَى إلى فَضَاءِ الفضائلِ، لَعَلَّكَ تَقَعُ بِقَاعِ يَفَاعِ السَّلامَةِ، أو بحضرة حضيرة القدس والكرامة.

[الطويل]

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ الْعَزْمِ تَأْتِي الْعَزَائِمُ   وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الْكِرَامِ الْمَكَارِمُ

يا مَنْ يَفْنَى بِبَقَائِهِ، ويسقمُ بسلامَتِه، وَيُؤْتَى في مَنَامِهِ تَيَقُّظْ.

قال الحسنُ: المُبَادَرَةَ عِبَادَ اللهِ، فإنَّما هي الأنفاسُ لو قد حُبِسَتْ عنكم انقطعتْ أعمالُكم التي تَتَقَرَّبُونَ بها إلى اللهِ تعالى.

كَمْ فَرِحَ بشهرٍ وإهلاله مُتَهَلِّلٌ لرؤيةِ هِلالِهِ اخْتَطَفَهُ الموتُ في خِلالِهِ، كَمْ مائل إلى جَمْعِ ماله تَرَكَهُ تَرِكَةً وَمَضَى بِأَثْقَالِهِ، هل رحمه الموتُ لضعفِ أَوْصَالِهِ، هل تَرَكَ كَاسِبًا لأجلِ أطفاله، هل أَمْهَلَ ذَا عِيَالٍ مَنْ جَرَّى عِيَالَهُ، كم راع قصرًا وما راع عن إبطاله، كم أشرفَ على شريفٍ فلم ينظر في جلاله، كم خرقَ درعًا نبيلا بِوَقْعِ نِبَالِهِ، كم أَيْتَمَ طِفْلا صغيرًا ولم يُبَالِهِ، كم سَدَّ نفسًا في سعة إخراجه ووصاله، كم بغت عليلا بالبلى بعد التراقي في إبلاله، فَرَقَّى روحه إلى التَّرَاقِي ولم ينظرْ في حاله.

إخواني؛ مُرّ مَرِّ الزمان وَعِظْ أولي الألباب، ويكفي في الإنذار موتُ الأصحاب، وفي الليل والنهار عِبْرَةٌ للطُّلاب، الشمسُ تجري والقمرُ في الطِّلابِ، ﴿لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ﴾ [يونس: ٥]، كم ترى في التراب

من أتراب تلك السيوف في شر قراب تناولتهم يد البلى من كفِّ استلاب، وقد بَانَ أحبابٌ وَعَزَّ إياب.

كيف تلهو وقد فقدتَ الشبابَ، صَاحَ فجرُ الشَّيْبِ بليلِ الشَّبَابِ فَانْجَاب.

[الطويل]

أَذْكُـرُ تَـصَـابٍ وَالْـمَـشِـيـبُ نِـقَـابُ   وَغَـيْـرُ الْـغَـوَانِـي لِـلْـمَـشِـيـبِ صِـحَـابُ

ويحك ضياءُ الدنيا ضباب، وشراب الهوى سرابُ، أَتُزَاحِمُ الليثَ في الغَابِ هذا عقلٌ قد غَابَ، أَبَيْعُ ما يَفْنَى بما يبقى صَوَابُ، إنما الدنيا صُحبةُ الرِّفَاقِ، حُلوها مُرُّ المَذَاقِ، وَوَصْلُهَا مَبْنِيٌّ على الفِرَاقِ، أَمَا تسمع الطَّيرَ تبكي بانتحاب.

إنما الليلُ والنهارُ مراحلْ، ومركبُ العمرِ قد قاربَ السَّاحلْ، فانتبه لنفسك وانزجر يا غافلْ، فللموتِ وعيدٌ ليس فيه كِذَاب.

الليلُ راكب مجدٌّ، والنهار يحث بالجدِّ، وكلاهما يقول لك استعد، غير أن الأملَ للنُّصح ضِد، كأنَّ الذي بعدَ المشيب شباب.

كل يوم بعد الأربعين تنزل، أبقى لك بعد المشيب منزل، أَمَا يكفي من الوعظ ما أنزل، كلما دخلنا معك من باب خرجت من باب.

أَتُرَى ترضى ما مَرَّ من أعمالك، أَتَخْتَارُ تُؤْخَذُ وأنتَ على حَالِك، أَعَزَمْتَ أن يَبْيَضَّ وجهُ النيَّة الحَالِك، أَمَا لهذا عندك جواب.

قد قلتُ لو أَنَّ قولا يكفي، ووعظتُ لو أَنَّ وعظًا يشفي، حتى لقد عجبتِ العقولُ مِنْ وَصْفِي، ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٢١].

الفصل الثاني والعشرون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [يونس: ٢٤]

قال ابن قتيبة: المَثَلُ الشِّبْهُ؛ يُقَالُ: هَذَا مِثْلُ هَذَا وَمَثَلُهُ، يُقَالُ: شَبَهُهُ وَشِبْهُهُ، ومقصودُ المَثَلِ أَنَّ اللهَ تعالى ضَرَبَهُ لِلدُّنْيَا الفَانِيَةِ، فشبهها بمطرٍ نزلَ من السماء فاختلط به نباتُ الأرضِ؛ أي: التَفَّ النباتُ بالمطرِ وَكَثُرَ مما يأكلُ الناسُ منَ الحُبُوبِ وغيرها والأنعامُ منَ المَرْعَى، حتى إذا تَمَّتْ زينةُ الأرضِ أَتَاهَا القضاءُ بالهلاكِ، وصارت محصورةً لا شيءَ فيها كَأَنْ لَمْ تُعَمَّرْ، ومقصودُ المَثَلِ أَنَّ ساكنَ الدُّنيا إذا جَمَعَ مَالَهُ وَتَمَّ مُرَادَهُ سُلِبَ أَحَدُ الرَّفِيقَيْنِ؛ إِمَّا المَالُ عَنِ المَالِكِ، أو المَالِكُ عَنِ الْمَالِ، وفي وجهِ الحكمة في تشبيهِ الدُّنْيَا بالمَاءِ عَشَرَةُ أَقْوَالٍ:

أحدها: أَنَّ الماءَ يجري بالطبعِ، ولا يستقرُ، وكذلك الدنيا لا تستقرُّ.

الثاني: لأنَّ الماءَ قَلِيلُهُ يكفي وكثيره يهلك، وكذلك الدنيا قليلها يكفي وكثيرها يلهي.

الثالث: لأنَّ الماءَ إذا طَالَ حَبْسُهُ تَغَيَّرَ وَفَسَدَ وَاسْتَحَالَ في حَقِّ مُتَنَاوِلِهِ سَقَمًا، فكذلك الدنيا لِمُمْسِكِهَا بَلاءٌ وَأَذَى.

الرابع: أَنَّ الماءَ إذا أَسْقَى الشَّجَرَ أَبَانَ عن جَوَاهِرِهَا بإظهارِ ثَمَرِهَا، وكذلك الدنيا إذا أتت تبرز جواهرَ الرجال من كريمٍ يَسْخُو ومن كريمٍ يَبْخَلُ.

الخامس: أَنَّ الماءَ ستر عيبَ الأرضِ، والمالَ ستر عيبَ الشَّخْصِ.

السادس: أَنَّ المَطَرَ لا يأتي بِحَوْلِ مُحْتَالٍ، كذلك الدنيا لا تُجْتَلَبُ بغيرِ الأَقْدَارِ.

السابع: أنَّ الإنسانَ لا يَقْدِرُ على دَفْعِ المطرِ، وكذلك لا يَقْدِرُ على دَفْعِ ما قُسِمَ له مِنَ الدُّنيا.

الثامن: أنَّ الزَّرْعَ يَفْسَدُ بالماءِ إذا كَثُرَ عليه، وكذلك القلب يَفْسَدُ بالمالِ إذا تَكَاثَرَ عليه.

التاسع: أَنَّ الماءَ يُطَهِّرَ الأَنْجَاسَ، كذلك المال يُزِيلُ الأَوْسَاخَ.

العاشر: أَنَّ الماءَ إذا اجْتَمَعَ سَالَ، وكذلك كَمَالِ الدُّنْيَا إذا تَمَّ زَالَ.

واعلم أَنَّ الدنيا بحرٌ عميقٌ مغرقٌ، والناسُ فيه على طبقات: قومٌ في السُّفن وهم العُلَمَاءُ، وقومٌ يَسْبَحُونَ وَهُمُ العَوَامُّ، فَنَاجٍ وَهَالِكٌ، وقومٌ غَرْقَى وَهُمُ الكُفَّارُ، وقومٌ على الشَّطِّ وَهُمُ الزُّهَّادُ.

إخواني؛ ما هذا السُّكُونُ إلى دَارِ الدوائرِ، وما هذا الانحرافُ إلى حَرْفِ جُرْفٍ هَائِرٍ، أما تلمحت أبصارُ البصائرِ ما إليه المرءُ صَائِرٍ، كيف آثَرْتُمْ الرَّذَائِلَ على المَفَاخِرِ؟! إنَّ عينَ اللَّبِيبِ تنظرُ إلى الآخرِ.

يا حريصًا على الدنيا مضى عمرك في غير شيء، انقشع غيمُ الزمان، وَلَكِنْ لا عن هلالِ الهدى، سُمُّ عُقَابِ العِقَابِ مُنْدَرِجٌ في لُقَمِ الدُّنْيَا، فكيفَ يَطِيبُ؟

الدنيا خَرَابٌ، وأخرب منها قلب من يعمرها، يا هذا؛ أنت مقيم في مناخ الراحلين، ويحك فاغتنم أيامَ القدرة قبل صيحة الانزعاج، فما أقرب ما ينتظر، وأقل المكث فيما يزول ويتغير.

تَشَاجَرَ قومٌ في وَادٍ نَزَلُوهُ، فإذا هاتفٌ يقول: على رَسْلِكُمْ، فَوَاللهِ لقد مَلَكَنِي سَبْعُونَ أَعْوَرُ كُلُّهُمْ اسْمُهُ عَمْرُو.

كم حالفت الدنيا وحلفت، وكم وعدت أن تفي وما وفت، وكم تلافت حتى إذا استمكنت أتلفت.

[مخلع الرجز]

وَاصَلْتُهَا إِذْ وُصِلَتْ ... ثُمَّ تَجَنَّتْ وَجَفَتْ
ذَكَّرْتُهَا أَيَّامَنَا ... فَأَنْكَرَتْ مَا عَرَفَتْ
لَهْفِي عَلَى مَوَدَّةٍ ... تَكَدَّرَتْ حِينَ صَفَتْ

وَاحَسْرَتِي وَاأَسَفِي عَلَى لَيَالٍ سَلَفَتْ

لقد سقت الدنيا أربابها سُمًّا، وأبدلتهم من أفراحها هَمًّا، وأثابتهم من مَدْحِهِمْ ذَمًّا، وقطعت أكبادهم فماتوا عليها غمًّا، فيا مَشْغُولا بها توقع خَطْبًا مُلِمًّا، وإياكَ والأمل، فإن الأملَ إمًّا وإمًّا، بَيْنَا هي للمالك مثل الأمَةِ، طمست بصيرته فَأَذَاهُ الكَمَهُ، فبقي في حَيْرَةٍ قد غَمَّهُ العَمَهُ، فَبَاتَ وأسباب هلاكِهِ مُحْكَمَة، أَعْشَاهُ الهَوَى، فما يقرأ من غير ترجمة، قل لنفسك التي أمست بها مُغْرَمَة، كم نَادَمَتْ نَادِمًا أَلْهَتْهُ بالمُنَادَمَة، حَتَّى سفكت بالمنى دَمَه، وهبها ملأت باللُّمَى عينيه وفمه فمه، إِيَّاكَ وَإِيَّاهَا ملحمة، إنَّ العبدَ الغافلَ عَنْ دَارِ المَكْرِ مَكْرَمَة.

[الوافر]

نُعِدُّ الْمَشْرَفِيَّةَ وَالْعَوَالِي وَتَقْتُلُنَا الْمَنُونُ بِلا قِتَالِ
وَنَعْتَبِطُ السَّوَابِقَ مُقْرَنَاتٍ وَمَا يُنْجِينَ مِنْ خَبَبِ اللَّيَالِي
وَمَنْ لَمْ يَعْشَقِ الدُّنْيَا قَدِيمًا وَلَكِنْ لا سَبِيلَ إِلَى الْوِصَالِ
نَصِيبُكَ مِنْ حَيَاتِكَ مِنْ حَبِيبٍ نَصِيبُكَ فِي مَنَامِكَ مِنْ خَيَالِ
وَكَمْ عَيْنٍ مُقَبَّلَةِ النَّوَاحِي كَحِيلٌ بِالْجَنَادِلِ وَالرِّمَالِ
يَدْفِنُ بَعْضُنَا بَعْضًا وَيَمْشِي أَوَاخِرُنَا عَلَى هَامِ الأوَالِ

يا ثقيلَ النوم، يا بعيدَ اليقظةِ، يا سكران الفَهْم، أَمَا يُنَبِّهُكَ الأذانُ؟ أَمَا تُزْعِجُكَ الحِدَأَةُ؟ أَتُرَى نُخَاطِبُ عَجَمًا؟ أَمْ نُكَلِّمُ صُمًّا؟ كم نُرِيكَ عيبَ الدُّنْيَا؟ وَلَكِنْ عَيْنُ الْعِبْرَةِ حَوْلاءُ، كم نَكْشِفُ لكَ عَنْ قِصَرِ العُمْرِ؟ ولكنْ عينُ الأملِ عَوْرَاءُ.

ليس في سرورِ الدنيا سرور، إنما الدنيا غرورُ، ومأتمٌ إذا فَكَّرْتَ فيها وقبورُ، أَمَا تَهُزُّكَ المَوَاعِظُ أَيُّهَا المَهْزُوزُ؟ أما يوقظك الصَّريحُ ولا المَرْمُوزُ؟ أما كُلُّ وقتٍ عود الهلاك مغمور؟ أما كل ساعةٍ عود الحياة مقطوع ومجزوز؟ أما تراهم بين مدفوع وموكوز؟ أما الزمان نزع حافرًا فقل للمحفوز؟ أما يأنف من دم الدنيا الملموز؟ أفعالك إذا تأملت ما لا يجوز؟ أين أرباب القصور؟ أين

أصحاب الخزوز والكنوز؟ هلك القوم كلهم وضاع المكنوز، وحيز في حفرة البلى مَنْ كان في الدنيا يحوز، بينا تغرهم الأناة وقعت النواة في الكوز، أين قيصر؟ أين كسرى؟ أين فيروز؟ عريوا عن الأكفان وما كانوا يرضون الخزوز، أبرز الموت أوجهًا ما كانت تختار البروز، وساوى بين العرب والعجم والنبط والخوز، ونسخ بخسران يوم الرحيل لذات النيروز، وكشف لهم نقاب الدنيا فإذا المعشوقة عجوز، ما رَضِيَتْ إلا قتلهم فذللت النشوز، بينا قد أذاقتهم برد كانون إذا هم في حر تموز، إنما قصدت غرورهم لتقتلهم في كالوز.

الفصل الثالث والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَدۡعُوٓاْ إِلَىٰ دَارِ ٱلسَّلَٰمِ﴾ [يونس: ٢٥]

رَوَى أسامة بن زيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يومًا وذكر الجنة: " أَلا مُشَمِّرٌ[1] لَهَا، هِي وَرَبِّ الْكَعْبَةِ رَيْحَانَةٌ تَهْتَزُّ، وَنُورٌ يَتَلأْلأُ، وَنَهْرٌ مُطَّرِدٌ، وَزَوْجَةٌ لا تَمُوتُ، في حُبُورٍ وَنَعِيمٍ مُقِيمٍ أَبَدًا. فَقَالُوا: نَحْنُ الْمُشَمِّرُونَ لَهَا يا رَسُولَ اللهِ. فَقَالَ: قُولُوا إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى "[2].

جملة مَنْ في الصحابة اسمه أسامة أربعة: أسامة بن زيد، وأسامة بن أَخْدَرِيٍّ، وأسامة بن شَرِيكٍ، وأسامة بن عُمَيْرٍ.

وجملة ما روى ابنُ زيدٍ مائةٌ وثمانيةٌ وعشرون حديثًا، أُخْرِجَ له منها في "الصحيحين" تِسْعَةَ عَشَرَ، المتفق عليه منها خَمْسَةَ عَشَرَ، وانفردَ البُخَارِيُّ بحديثين ومسلمٌ بحديثين.

وجملة من يأتي في الحديث يقال له أسامة بن زيد ستة:

أحدهم: هذا الصحابي، وكان يقال له: الحِبُّ ابْنُ الْحِبِّ، لِحُبِّ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَهُ ولأبيه .

الثاني: التَّنُوخِيُّ، وروى عنه زيد بن أسلم .

الثالث: اللَّيْثِيُّ، روى عن الزُّهْرِيِّ .

الرابع: الكَلْبِيُّ، روى عن زُهَيْرِ بْنِ مُعَاوِيَةَ .

الخامس: الشِّيرَازِيُّ، روى عن الفضل بن الحُبَابِ .

السادس: أسامة بن زيد بن أَسْلَمَ، روى عن أبيه.

---

(١) مشمر للجنة: ساع لها غاية السعي، طالب لها عن صدق ورغبة.

(٢) أخرجه أبو نعيم في صفة الجنة (١/ ٣١، رقم ٢٥).

رَوَى أبو هريرة، قال: قلت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: يا رسول الله؛ حَدِّثْنَا عَنِ الْجَنَّةِ؛ مَا بِنَاؤُهَا؟ قَالَ: " لَبِنَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٌ مِنْ فِضَّةٍ، مِلاطُهَا الْمِسْكُ الأَذْفَرُ، وَحَصْبَاؤُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالْيَاقُوتُ، وَتُرَابُهَا الزَّعْفَرَانُ، مَنْ يَدْخُلْهَا يَنْعَمْ لا يَبْؤُسُ، وَيَخْلُدْ لا يَمُوتُ، لا تَبْلَى ثِيَابُهُ، وَلا يَفْنَى شَبَابُهُ "[(١)].

رَوَى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أَنَّ في الْجَنَّةِ الْخَيْمَةُ مِنْ دُرَّةٍ مُجَوَّفَةٍ عَرْضُهَا سِتُّونَ مِيلا، في كُلِّ زَاوِيَةٍ مِنْهَا أَهْلٌ لا يَرُوا الآخَرِينَ، يَطُوفُ عَلَيْهِنَّ الْمُؤْمِنُ "[(٢)].

رَوَى أبو موسى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ أَرْبَعٌ، ثِنْتَانِ مِنْ ذَهَبٍ حِلْيَتُهُمَا وَآنِيَتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَثِنْتَانِ مِنْ فِضَّةٍ حِلْيَتُهُمَا وَآنِيتُهُمَا وَمَا فِيهِمَا، وَلَيْسَ بَيْنَ الْقَوْمِ وَبَيْنَ أَنْ يَنْظُرُوا إِلَى رَبِّهِمْ عَزَّ وَجَلَّ إلا رِدَاءُ الْكِبْرِيَاءِ عَلَى وَجْهِهِ عَزَّ وَجَلَّ في جَنَّةِ عَدْنٍ "[(٣)] .

أخرجاه في " الصحيحين " من حديث أبي موسى، جملة ما روى أبو موسى ثلاث مائة وستون حديثًا، أُخْرِجَ له منها في " الصحيحين " ثمانية وستون، المتفق عليه منها تسعة وأربعون، وانفرد البُخَارِيُّ بأربعة، وَمُسْلِمٌ بِخَمْسَةَ عَشَرَ.

وولي أبو موسى لخمسة أئمة: للنبي صلى الله عليه وسلم، ولأبي بكر، ولعمر، ولعثمان، وَحَكَّمَهُ عليٌّ رضي الله عنه، وكذلك رَوْحُ بْنُ حَاتِمٍ عَمِلَ لِلسَّفَّاحِ، والمنصورِ، والهَادِي، وَالمَهْدِي، وَالرَّشِيدِ، ولا نعرفُ مَنْ عَمِلَ لِخَمْسِ أَئِمَّةٍ سِوَاهُمَا.

وَرَوى ابنُ عُمَرَ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ أَدْنَى أَهْلِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٤٤٥، رقم ٩٧٤٢).

(٢) أخرجه ابن عساكر (٦٣/ ٣٠٦).

(٣) أخرجه أحمد (٤/ ٤١٦، رقم ١٩٧٤٦)، قال الهيثمى (١٠/ ٣٩٨): رجاله رجال الصحيح. وأخرجه أيضًا: الدارمى (٢/ ٤٢٩، رقم ٢٨٢٢)، والطيالسى (ص ٧٢، رقم ٥٢٩)، وابن أبى شيبة (٧/ ٤٦، رقم ٣٤١٠٩)، وعبد بن حميد (ص ١٩٢، رقم ٥٤٥)، وأبو عوانة (١/ ١٣٧، رقم ٤١٢).

الْجَنَّةِ مَنْزِلَةً مَنْ يَنْظُرُ في مُلْكِهِ أَلْفَيْ سَنَةٍ، يَرَى أَقْصَاهُ كَمَا يَرَى أَدْنَاهُ »[١].

قال ابنُ عباس رضي الله عنه[٢]: (الجِنَانُ سَبْعٌ: دَارُ الجَلالِ، وَدَارُ السَّلامِ، وَجَنَّةُ عَدْنٍ، وَجَنَّةُ الْمَأْوَى، وَجَنَّةُ الْخُلْدِ، وَجَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ، وَجَنَّةُ النَّعِيمِ).

أين الزاهدون في هذه الدار، الراغبون في جوار الجبار، وقد بُنيت للمتقين دار ولا كدار، لو رأيتها وقد أينعت ثمار الأشجار، وتجاوبت على الأفنان فنون الأطيار، وَغَنَّتِ الْعِيدَانُ فَرَنَّتِ القِبَابُ على شواطئ الأنهار، أَتَبِيعُهَا بِلَذَّةِ سَاعَةٍ؟ افْسَخْ عَقْدَ الْهَوَى مَا دَامَ الخِيَارُ.

كان آدمُ عليه السلام يقول لولده: (كُنَّا نَسْلا من نَسْلِ الجنةِ فَسَبَانَا إبليسُ بالخطيئةِ، فليس لنا فرجٌ إلا الهَمُّ وَالنَّصَبُ حتى نُرَدَّ إلى الدَّارِ التي أُخْرِجْنَا مِنْهَا، يا بُنَيَّ طَالَ واللهِ حُزْنِي عَلَى تِلْكَ الدَّارِ، لَوْ رَأَيْتَهَا لَزَهَقَتْ نَفْسُكَ).

[الوافر]

وَأَشْتَاقُ الدِّيَارَ وَسَاكِنِيهَا ... كَمَا يَشْتَاقُ صِحَّتَهُ الْعَلِيلُ
وَكَيْفَ يُبَلُّ ذُو دَاءٍ دَفِينٍ ... عَلِيلٌ مَا يُبَلُّ لَهُ غَلِيلُ
بَكَيْتُ لِهَجْرِهِمْ حِينًا وَحِينًا ... لِبُعْدِهِمُ وَقَدْ أَزِفَ الرَّحِيلُ
وَلَمْ يَذَرِ الْهَوَى وَالْهَجْرُ دَمْعًا ... تُجَاذِبُهُ الْمَعَالِمُ وَالطُّلُولُ
وَمِمَّا شَفَّنِي وَجْدٌ عَزِيزٌ ... يُحَاوِلُ قَهْرَهُ صَبْرٌ كَلِيلُ
جَزَى الرِّيحَ الدَّبُورَ اللهُ خَيْرًا ... فَلِي مِنْهَا إِذَا هَبَّتْ رَسُولُ
أُحَمِّلُهَا إِلَى حِبِّي سَلامًا ... تَرُدُّ جَوَابَهُ الرِّيحُ الْقَبُولُ

إذا تَحَقَّقَتِ المَحَبَّةُ لم يؤثر فيها الهجرُ ولا يقدح فيها الذنبُ، ظَهَرَ أثرُ (يُحِبُّهُم) يومَ (اسْجُدُوا لآدَمَ)، لم يقدح في الوَصْلِ زَلَلُ (وَعَصَى)، فإن كان قد جَرَى أَبْعَادُ (اهْبِطُوا) مرةً، فَكَمْ يُنَادَى كُلَّ يَوْمٍ (وَاللهُ يَدْعُو).

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٢/ ٥٥٣، رقم ٣٨٨٠).

(٢) (التذكرة ١/ ص٥٧٨).

لَمَّا تَمَكَّنَ حُبُّ عائشةَ مِنْ قَلْبِ المُصْطَفَى لم يُؤَثِّرْ فيه قَوْلُ أَهْلِ الإِفْكِ، فَلَمَّا ذهبَ إلى بيت أَبَوَيْهَا كان إذا مَرَّ بَعَثَ الحُبُّ رسالة " كَيْفَ بَيْتُكُمْ؟ ".

[البسيط]

وَرُبَّ دَارٍ أُوَلِّـيهَا مُجَانَبَةً ... وَلِي إِلَى الدَّارِ أَطْرَابٌ وَأَشْجَانُ

إخواني؛ هذه صِفَةُ الجَنَّةِ فأين طُلابُهَا؟ وَسَهُلَ مَهْرُهَا فأينَ خُطَّابُهَا؟ إنْ عَزِمْتُمْ فالعزمُ بَابُهَا، وإبعادُ الدُّنيا هُوَ اجْتِلابُهَا، وَمُجَاهَدَةُ النُّفُوسِ أَسْبَابُهَا.

إخواني؛ مَنْ أَرَادَهَا فَلْيَصُمْ عَنِ الْهَوَى، فإن حياةَ القلبِ إِمَاتَةُ النَّفْسِ.

[الطويل]

ذَرُونِي أَهَبْ لِلْمَجْدِ شَرْخَ شَبِيبَتِي ... فَإِنْ لَمْ أُبَادِرْهَا اسْتَبَدَّ بِهَا الْعُمْرُ

فَلَمْ أَرَ هَذَا الْعُمْرَ إلا مَسَافَةً ... إِذَا مَرَّ يَوْمٌ مَرَّ مِنْ ذَرْعِهَا شِبْرُ

تَنَبَّهُوا يا نِيَامُ، كم ضَيَّعْتُمْ مِنْ عَامٍ، الدنيا كلها مَنَام، وأحلى ما فيها أحلام، غير أن عقل الشيخ بالهوى غُلام، عَلامَ قتل النفوس عَلام؟ هل هو إلا ثوب وطعام؟ ثم يتساوى خز وخام، ولذات طيبات ووخام، إنما يعرف العقلاء هذا لا الطغام، آهٍ للغافلِ كم يُلام، أَمَا توقظه صُرُوفُ اللَّيَالِي والأيام؟ أين سكان القصور والخيام؟ دارت على الكل كأس الحِمَام، التقطتهم التقاطَ الحَبِّ الحَمَام، إلى متى مُزَاحَمَةُ الأنعام؟ ما لمخلوقٍ فيها دوام، سجل ثبت واستقر، (وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذِي الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ)(١) [الرحمن: ٢٧]، ردوا هذه الأنفس بزمام، ازجروا هذه القلوب عن الآثام، تذكروا ما حوت به الأقلام، اقرءوا صحائفَ العِبَرِ بألسنةِ الأفهام، موت الحيران شَكْلٌ وأخذ الأقران إِعْجَام، يا مَنْ أجله خلفه وأمله قدام، رُبَّ يومٍ له مفتاحٌ ما له ختام، يا مقتحمًا على

---

(١) قرأ ابن عامر وحده: (تبارك اسم ربك ذو الجلال) بالواو وكذلك في مصاحف أهل الحجاز والشام.

وكلّهم قرأ: (ذي الجلال والإكرام) بالياء، وكذلك في مصاحف أهل الحجاز والعراق.

من قال: (ذي) فجرَّ جعله صفة لربّك، وزعموا أن في حرف ابن مسعود: (ويبقى وجه ربك ذي الجلال) بالياء في كلتيهما. [انظر: الحجة للقراء السبعة ٦/ ١٦٤].

الحرام أي اقتحام، ستعلم مَنْ يبكي في العُقْبَى عُقْبَى الإجرام، ويشارك النَّدَامَى على النَّدَامَى والمُدَام، يا طويل المرض متى يبرئ السقام، يا من إذا قعد في هم الدنيا وكذا إن قام، أوَّل الدنيا هَمٌّ وآخرها مَوْتٌ زُؤَام، أَحَلَّ لها الفِرَاقَ وَحَرَّمَ عليها الدَّوَام، تُعاهد ولا تَفِي ما لها مِنْ ذِمَام، نورها مستعارٌ والأصلُ فيها ظَلام، سَحَابُهَا لا يُمْطِر وَسَمَاؤُهَا قُتَام، كلها عيبٌ في عيبٍ وَذَامٌ في ذَام، أَنَعِيبُهَا عند نَحْبِهَا، متى يسمعُ العذلَ مُسْتَهَام، خَلِّهَا واخرج عنها بسلام إلى دَارِ السلام، فالجنة رخيصة ثم ما تغلوا على مُسْتَام، فخذها إليك نصيحة من طبيبٍ يداوي الأسقام، يضع مواضع النُّقْبِ ويعرفُ أَصْلَ الآلام، يُركبُ المراهمَ عن خُبْرٍ ويُدير كيفَ ما شَاءَ الكلام، ما بَعْدَ هذا نصيحةٌ، يَكْفِي هذا والسَّلام.

الفصل الرابع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يونس:٦٢]

رَوَى ابن عباس رضي الله عنه أن رجلا قال: يا رسول الله؛ مَنْ أولياء الله؟ قال: "الَّذِينَ إِذَا رُؤُوا ذُكِرَ اللهُ تَعَالَى "[١].

قال وَهْبُ بْنُ مُنَبِّهٍ: (لَمَّا بعث اللهُ عَزَّ وَجَلَّ موسى وهارون إلى فرعونَ، قال: لا يُعْجِبَنَّكُمَا زِينَتَهُ، ولا ما مُتعَ بِهِ، فإنها زَهْرَةُ الحَيَاةِ الدُّنْيَا وزينةُ المُتْرَفِينَ، وإني لو شئتُ أَنْ أُزَيِّنَكُمَا بزينةٍ يعلمُ فرعونُ حين ينظرُ إليها أنَّ مَقْدِرَتَهُ تَعْجَزُ عن مِثْلِ ما أُوتِيتُمَا فعلتُ، وَلَكِنِّي أَرْغَبُ بِكُمَا عن ذلك وَأَزْوِيهِ عَنْكُمَا، وكذلك أفعلُ بأوليائي، وقديمًا ما جَرَتْ لهم في أمور الدنيا، لأني أذودهم عن نعيمها كما يذود الراعي الشفيق غنمه عن مراتع الهلكة، وإني لأجَنِّبَنَّهُم سُكُونَهَا كما يُجَنِّبُ الرَّاعي الشفيقُ إبله عن مَبَارِكِ العُرَّةِ، وما ذلك لهوانهم عَلَيَّ، ولكن ليستكملوا نصيبًا من كرامتي سالمًا موفرًا، لم يكلمهم الطمع، ولم تعظهم الدنيا بغرورها، إنما يتزين لي أوليائي بالذُّل، والخشوع، والخوف، والتقوى، فإذا لقيتهم فاخفض لهم جناحك، وذلل لهم قلبك ولسانك، واعلم أنَّ مَنْ أَهَانَ لي وليًا أو أَخَافَهُ فقد بارزني بالمحاربة، وأنا أسرع شيء إلى نصرة أوليائي).

وقال وهبٌ: (قال الحواريون: يا عيسى؛ مَنْ أَوْلِيَاءُ اللهِ؟ قال: الذين نظروا إلى باطن الدنيا حين نَظَرَ الناسُ إلى ظاهرها، والذين نظروا إلى آجل الدنيا حين نَظَرَ الناسُ إلى عَاجِلِهَا، فأماتوا ما خشوا أن يميتهم، وتركوا ما

---

(١) ذكره الحكيم (٤/ ٨٠). وأخرجه أيضًا: ابن المبارك (١/ ٧٢، رقم ٢١٨).

علموا أن سيتركهم، فصار استكثارهم منها استقلالا، وفرحهم بما أصابوا منها حُزنًا، خَلِقَتِ الدنيا عندهم فليسوا يُجَدِّدُونَهَا، وخربت بلبهم فليسوا يعمرونها، فهدموها فيبنون بها آخرتهم، ويبيعونها ويشترون بها ما يبقى لهم، رفضوها فكانوا برفضها فرحين، وباعوها فكانوا ببيعها رابحين، ونظروا إلى أهلها صَرْعَى، قد خَلَتْ لَهُمُ المَثُلاتُ فَأَحْيَوْا ذكرَ الموتِ وَأَمَاتُوا ذِكْرَ الحَيَاةِ).

أوحى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إلى داودَ عليه السلام في صفة أوليائه: (يا داود؛ بِطِبِّي صَحُّوا، وَبِطِيبِي فَاحُوا، وَبِوَجْدِي بَاحُوا، وَعَلَى قُرْبِي نَاحُوا، وَمِنْ أَجْلِي صَاحُوا، وَإِلَيَّ غَدُوا وَرَاحُوا).

إخواني؛ يقول الله عز وجل: (وَعِزَّتِي وَجَلالِي؛ لا أَجْمَعُ عَلَى عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَلا أَمْنَيْنِ، مَنْ خَافَنِي في الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ في الآخِرَةِ، وَمَنْ أَمِنَنِي في الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ في الآخِرَةِ).

لَمَّا مَرَّتْ أعمارُ الأولياء مُنْتَهَبَةً بِأَكُفِّ الخوفِ والحزنِ تَلَقَّاهُمْ في القِيَامَةِ بَشِيرُ: ﴿لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢]

كان الربيعُ بن خيثم طويلَ البُكَاءِ والسَّهَرِ، فقالت له أمه: يا بُنَيَّ؛ ألا تَنَامُ؟ فقال: يا أُمَّاهُ؛ مَنْ جَنَّ عليه الليلُ وهو يخافُ البَيَاتَ حُقَّ له أن لا يَنَامَ. فقالت: يا بُنَيَّ؛ لَعَلَّكَ قتلتَ قتيلا. فقال: نعم؛ قتلتُ نَفْسِي.

وكان أُمَيَّةُ الشَّامِيُّ يَنْتَحِبُ في المسجدِ، فَيَعْلُو صَوْتُهُ في المَسْجِدِ، فأرسل إليه الأميرُ؛ إِنَّكَ تُفْسِدُ على المُصَلِّينَ صَلاتَهُمْ بكثرةِ بُكَائِكَ، فَبَكَى، وقال: إِنَّ حُزْنَ القيامةِ أَوْرَثَنِي دُمُوعًا غِزَارًا، فَأَنا أَسْتَرِيحُ إلى ذَرْفِهَا أَحْيَانًا.

وقيل ليزيدَ بْنِ مرثد: ما لِعَيْنِكَ لا تَجِفُّ؟ فقال: واللهِ؛ لو تَوَاعَدَنِي أن يَحْبِسَنِي في الحَمَّامِ لكنتُ حَرِيًّا أَنْ لا تَجِفَّ لي عَبْرَةٌ، فكيفَ وقد تَوَاعَدَنِي بِالنَّارِ.

وكان عُمَيْرُ بنُ المُنْكَدِرِ كثيرَ البُكَاءِ، ولا ينامُ الليلَ، فَعُوتِبَ في ذلك، فقال: آيَةٌ في كتابِ اللهِ تَعَالَى أَبْكَتْنِي: ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

[الرمل]

رَجَعَ الْعَاذِلُ عَنِّي آيِسًا ... مِنْ فُؤَادِي فِيكُمُ أَنْ يُفْلِحَا

لَــوْ دَرَى لا حَــمَــلَــتْ نَــاقَــتُــهُ   رَحْـلَـهُ فِـيـمَـنْ لَـحَـانِـي مَـا لَـحَـا
قَـدْ شَـرِبْـنَـا الـصَّـبْـرَ فِـيـكُـمْ مُـكْـرَهًـا   وَشَـرِبْـتُ الـسُّـقْـمَ فِـيـكُـمْ مُـسْـمِـحَـا
فَـأَلِـفْـتُ الْـهَـمَّ مِـنْ بَـعْـدِكُـمْ   فَـكَـأَنِّـي مـا عَـرَفْـتُ الْـفَـرَحَـا

امتطى القومُ مطايا الرَّجَاءِ على مركب السَّهَرِ، فَمَاحَلُوا ولا حَلُّوا عن رَحْلِهِمْ حتى السَّحَر، درسوا القرآن فغرسوا بأيدي الفكر أزكى الشجر، ومالوا على النفوس باللوم فلا تسأل عَمَّا شَجَر، رجعوا إلى سفر القبول من ذلك السَّفَر، ووقعوا على كَنْزِ النجاةِ وما عِنْدَكَ خَبَر، فإذا جاء النهارُ قَدَّمُوا طعامَ الجُوعِ وقالوا: هذا الذي قد حَضَر.

[الطويل]

وَرَكْـبٌ سَـرُوا وَالـلَّـيْـلُ مُـلْـقٍ رُوَاقَـهُ   عَـلَـى كُـلِّ مُـغْـبَّـرِ الْـمَـطَـالِـعِ قَـائِـمِ
حَدُوا عَزَمَاتٍ ضَاعَتِ الأَرْضُ بَيْنَهَا   فَـصَـارَ سُـرَاهُـمْ في ظُـهُـورِ الْـعَـزَائِـمِ
تُـرِيـهُـمْ نُـجُـومُ الـلَّـيْـلِ مَـا يَـبْـتَـغُـونَـهُ   عَـلَـى عَـاتِـقِ الـشِّـعْـرَى وَهَـامِ الـنَّـعَـائِـمِ

الفصل الخامس والعشرون

في قوله تعالى: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]

إخواني؛ الدنيا دار فُرْقةٍ، في جزع لذاتها شرقة، العيش فيها في غدٍ حُرقة، والمسافر عنها مُتَزَوِّدٌ بخِرْقَة، كم ألمت بالفراق، وكم عذبت مشتاق، لا يطيب فيها عيشٌ، ولا يُنصر فيها على الهموم جيشٌ، سكون أفاتها عينُ الطَّيْشِ، عاش فيها آدمُ بَاكيًا، وأقام نوح نائِحًا، وصار داود نادبًا، وَبَاتَ يعقوبُ للحبيبِ مُفَارِقًا.

[الخفيف]

آهِ لَمْ يَدْرِ بِالْعَذَابِ فُؤَادٌ　　لَمْ يَذُقْ طَعْمَ فُرْقَةِ الأحْبَابِ

لَمَّا صَفَا نقيقُ ضَفَادِعِ الحَسَدِ في نقي أسرار إخوة يوسف، أعربتِ الألسنةُ عن مضمراتِ القلوبِ بعبارة: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ﴾ [يوسف: ٨]، فَأُرِيَ المظلومُ مَآلَ الظَّالِمِينَ في مِرْآةِ: ﴿إِنِّى رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا﴾ [يوسف: ٤]، فخلا به يعقوبُ في بيتِ الحَذَرِ، يتلو عليه سورة: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ﴾ [يوسف: ٥]، فَحَامَ إخوتُه حولَ حلَّةِ الحيلة، وَشَجَّعَهُمْ شجاع الحَسَدِ بِضَمَانِ: ﴿وَتَكُونُواْ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [يوسف: ٩]، فانعكس مقصودهم وهوى هواهم؛ لأنهم أبعدوا أخاهم ليقبلوا أباهم فأباهم، فأقبلوا يحتالون على يعقوب بما تَمَنَّى بِكَفٍّ: ﴿مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا﴾ [يوسف: ١١]، وَشَوَّقُوا يوسفَ إلى رياضِ (نرتع)، فنطق منطق حوى جوابَ يعقوبَ (إِنِّي أَخَافُ)، فتلففت عذراء الخطيئة هذا العذر، فلما أضجروا أظهروا المَقْتَ لَهُ، وَرَمَوْا بِسَهْمِ العُدْوَانِ مَقْتَلَهُ، فَعَادَتْ فيهم المَقْتَلَة، فَنَسَخَ نَهَارَ رِفْقِهِمْ به لَيْلُ انْتِهَارِهِمْ له، فَصَاحَ يَهُوذَا من وَرَاءِ شَفَقِ الشَّفَقَةِ وَأَغْبَاشِ غَايَةِ الحُبِّ: ﴿لَا تَقْتُلُواْ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾

[يوسف: ١٠]، فَلَمَّا رَمَوْهُ، وقالوا: هَلَكَ، جاء مِنْ عِنْدِ مَنْ مَلَكَ مَلِكٌ يقولُ: سَتَبْلُغُ أَمَلَكَ، فَعَادُوا عَمَّنْ عَادُوا، يمشون في ظلام الظُّلم كالأعْشَى في خَاطِبِ خَبْطِ عَشْوَاءَ (عِشَاءًا يَبْكُونَ)، وَلَطَّخُوا قَمِيصَهُ الصحيحَ (بِدَمٍ كَذِبٍ)، فَلاحَتْ بسلامة الثوبِ كي يظهر كيدهم، فقال حكيمُ الفِرَاسَةِ: (بَلْ سَوَّلَتْ).

[الكامل]

رَاحُوا فَرَاحَتْ رَاحَتِي مِنْ رَاحَتِي صِفْرًا وَأَمْسَى ذِكْرُهُمْ لِي رَاحَا
فَتَحُوا عَلَى قَلْبِي الْهُمُومَ وَأَغْلَقُوا بَابَ السُّرُورِ وَضَيَّعُوا الْمِفْتَاحَا

فَلَمَّا وَرَدَ واردُ السَّيَّارَةِ فرقا تلك الدُّرَّة، صدف بها الإخوة من يده إلى صدف: ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ﴾ [يوسف: ١٩]، فاشتراه السَّيَّارةُ منهم بأقل ثمن، (وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ)، ولا يعرفون البيع لمن، فَتَفَرَّسَ فيه عزيزُ مِصْرَ فَأَجْلَسَهُ على كرسي ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ﴾ [يوسف: ٢١]، فرأت أزليخا رواة، فشغفها وفرَّ (فَرَاوَدَتْهُ)، فَأَوْقَدَ هواها نيران ﴿وَلَقَدۡ هَمَّتۡ بِهِۦۖ﴾ [يوسف: ٢٤]، فحمي حمى، ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: ٢٤]، فَرَامَ ثُمَّ قَعَدَ بعدَ أَنْ قَامَ، ثم أخذ ما طلب حله؛ لأنه لا يجد له، فَحَلَّ عِصَامَ العِصْمَةِ، فنهضت يدُ العناية الرَّبَّانِيَّة، فَحَكَتْ ما جرى، فعصفت نيرانُ الهوى، وَقَوِيَ وَهجُهَا، فَصُبَّ على صَبَابَتِهَا صُبَابَةُ ﴿مَا جَزَآءُ مَنۡ أَرَادَ﴾ [يوسف: ٢٥]، ﴿لَوۡلَآ أَن رَّءَا بُرۡهَٰنَ رَبِّهِۦۚ﴾ [يوسف: ٢٤]، فَجَدَّ جواده في جواد ﴿وَٱسۡتَبَقَا ٱلۡبَابَ﴾ [يوسف: ٢٥]، فانبسطت يَدُ العُدْوَانِ وَامْتَدَّتْ (فَقَدَّتْ)، فَلَمَّا بانت حجته في إبان ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٞ﴾ [يوسف: ٢٦]، أَخَذَتْ تُرَبِّي مُصْرَاةَ الإصرارِ على حرام ما رامت بيمين يمين ﴿وَلَئِن لَّمۡ يَفۡعَلۡ﴾ [يوسف: ٣٢]، فاختارت درة فهمه صدفَ الحبس لجهلِ الناقدِ، ﴿رَبِّ ٱلسِّجۡنُ أَحَبُّ إِلَيَّ﴾ [يوسف: ٣٣]، وكان يواسي المسجونين فَيُفَسِّرُ أقاويلهم، فيعبر تأويلهم، ويُعَزِّي حَزِينَهُم، فَيَعُودُ المَرْضَى بالمَرْضَاةِ حينَ يَعُودُهُم، فَلَمَّا ضَاقَ قَفَصُ السِّجْنِ على بلبلِ الطبعِ، تَرَنَّمَ بصوتِ ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فَعُوقِبَ بِإِيثَاقِ بَابِهِ عليه، ﴿فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجۡنِ بِضۡعَ سِنِينَ﴾ [يوسف: ٤٢]، فَلَمَّا جَازَ عَقَبَةَ العُقُوبَةِ فَرَأَى الملك في

صحيفة مَنَامِهِ ﴿إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ﴾ [يوسف: ٤٣]، فَنَبَّهَ جوابُ جوابَ فُتْيَاهُ فَتَاهَ فَتَاهُ في تَحَيُّرٍ ﴿أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم﴾ [يوسف: ٤٥] بطلبة الملك، فلم يخرج من سجن التهمة حتى سطرت براءته في منشور: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ﴾ [يوسف: ٥١]، فخرج من ضيق الحبس إلى سعةٍ: ﴿ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

هذا ويعقوب مقيم في بيت الحزن، يتقلب على فراش الأسى ووسادة القلق، لا يستلذ نومًا ولا سِنةً ثمانين سنة، حتى نُحِلَ البدنُ وَذَهَبَ البَصَرُ.

[البسيط]

لَـمْ يَـبْـقَ بَـعْـدَكُـمُ رَسْـمٌ وَلا طَـلَـلُ ... إلا وَلِـلـشَّـوْقِ فـي أَرْجَـائِـهِ عَـمَـلُ
بِـنْـتُـمْ فَـأَوْحَـشْـتُـمُ الـدُّنْـيَـا بِـبُـعْـدِكُـمُ ... فَـالْـيَـوْمَ لا عِـوَضٌ عَـنْـكُـمْ وَلا بَـدَلُ
حَمَّلْتُمُونِي عَلَى ضَعْفِي بِفُرْقَتِكُمْ ... مَـا لَـيْـسَ يَـحْـمِـلُـهُ سَـهْـلٌ وَلا جَـبَـلُ
إِذَا شَـمَـمْـتُ نَـسِـيـمًـا مِـنْ بِـلادِكُـمُ ... فَـقَـدْتُ عَـقْـلِـي كَـأَنِّـي شَـارِبٌ ثَـمِـلُ

فَلَمَّا عَمَرَ غَمُّ القَحْطِ أرضَ كَنْعَانَ خَرَجَ إخوتُه لطلب الميرة، فدخلوا عليه في ظلام ظُلْمِهِمْ، فرآهم المظلومُ ببصرِ بصيرته (لَتُنَبِّئَنَّهُمْ)، وخفي عليهم نعمته، فأقبلوا على يوسف ﴿فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨]، فأقبل عليهم سائلا، وأقبلَ الدمعُ سايلا، وَتَقَلْقَلَ تَقَلْقُلَ الوَاجِدِ ليسمعَ خَبَرَ الوَالِدِ.

[البسيط]

إِيـهِ أَحَـادِيـثَ نَـعْـمَـانٍ وَسَـاكِـنَـه ... إِنَّ الْـحَـدِيـثَ عَـنِ الأَحْـبَـابِ أَسْـمَـارُ
أَسْتَنْشِقُ الرِّيحَ عَنْكُمْ كُلَّمَا نَفَحَتْ ... مِـنْ نَـحْـوِ أَرْضِـكُـمُ نَـكْـبَـاءُ مِـعْـطَـارُ

فقال القومُ: جِئْنَا من أرضِ كنعانَ، ولنا شيخٌ كبيرٌ يقال له: يعقوب عليه السلام، وهو يقرأ عليك السلام التام، فَلَمَّا سَمِعَ رسالةَ أبيه انْقَضَّ طائرُ الوَجْدِ لذكرِ المحبوبِ.

[الطويل]

وَدَاعٍ دَعَى إِذْ نَحْنُ بِالْخَيْفِ مِنْ مِنَى ... فَـهَـيَّـجَ أَحْـزَانَ الْـفُـؤَادِ وَلَـمْ يَـدْرِي

دَعَا بِاسْمِ لَيْلَى غَيْرَهَا فَكَأَنَّمَا ... أَطَارَ بِلَيْلَى طَائِرًا كَانَ في صَدْرِي

فَرَدَّ السلامَ قَلْبُهُ قبلَ لسَانِهِ، وَشَغَلَهُ وَكْفُ شَأنِهِ عن شَأنِهِ، وقال مقولُ إيذائه بعبارة صُغَرَائِهِ.

[الطويل]

خُذِي نَفْسِي يا رِيحُ مِنْ جَانِبِ الْحِمَى ... فَلاقِي بِهِ لَيْلا نَسِيمَ رُبَى نَجْدِ

فَإِنَّ بِذَاكَ الْحَيِّ إِلْفًا عَهِدْتُهُ ... وَبِالرَّغْمِ مِنِّي أَنْ يَطُولَ بِهِ عَهْدِي

وَلَوْلا تَدَاوِ الْقَلْبِ مِنْ أَلَمِ الْجَوَى ... بِذِكْرِ تَلاقِينَا قَضَيْتُ مِنَ الْوَجْدِ

وَيَا صَاحِبَيَّ الْيَوْمَ عَوِّجَا لِتَسْأَلا ... رُكَيْبًا مِنَ الْغَوْرَيْنِ أَنْضَاهُمَا مَجْدِي

عَنِ الْحَيِّ بِالْجَرْعَاءِ جَرْعَاءِ مَالِكٍ ... هَلِ ارْتَبَعُوا وَاخْضَرَّ وَادِيهِمُ بَعْدِي

شَمَمْتُ بِنَجْدٍ شِيحَةً حَاجِرِيَّةً ... فَأَمْطَرْتُهَا دَمْعِي وَأَفْرَشْتُهَا خَدِّي

ذَكَرْتُ بِهَا رِيَّا الْحَبِيبِ عَلَى النَّوَى ... وَهَيْهَاتَ ذَا يَا بُعْدَ بَيْنِهِمَا عِنْدِي

وَإِنِّي لَمَجْلُوبٌ لِيَ الشَّوْقُ كُلَّمَا ... تَنَفَّسَ شَاكٍ أَوْ تَأَلَّمَ ذُو وَجْدِ

تَعَرَّضُ رُسُلُ الشَّوْقِ وَالرَّكْبُ هَاجِدٌ ... فَتُوقِظُنِي مِنْ بَيْنِ نُوَّامِهِمْ وَحْدِي

ثم إن يوسف طلب منهم أخاهم، فامتنع بحجة ﴿مُنِعَ مِنَّا ٱلۡكَيۡلُ﴾ [يوسف: ٦٣]، فأصبحتْ سفينةُ العِتَابِ بِهَمٍّ تَجْرِي بِهِمْ لِتَجْرِيبِهِمْ في بَحْرِ ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [يوسف: ٦٤]، فَلَمَّا حملوه إليه حَالَ بينهم وبينه بحيلةِ ﴿جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ﴾ [يوسف: ٧٠]، فَلَمَّا دَخَلَ وقتُ التُّهْمَةِ ﴿أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ﴾ [يوسف: ٧٠]، فَأَبْرَزَ عَرُوس احتياله يقدمها وصائف ﴿فَبَدَأَ بِأَوۡعِيَتِهِمۡ﴾ [يوسف: ٧٦]، وهي تعقب أعقابهم في كنف ﴿ثُمَّ ٱسۡتَخۡرَجَهَا﴾ [يوسف: ٧٦]، فَلَمَّا عَادُوا إلى أبيهم بِشَجًى على شَجًى، وَجَرْحٍ على جَرْحٍ، وَعَقْرٍ عَلَى عَقْرٍ، كابدت أيدي الأسى إذ عسى بلفظ ﴿عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَنِي بِهِمۡ جَمِيعًاۚ﴾ [يوسف: ٨٣]، ثم بَعَثَهُ لُطْفُ ﴿لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾ [الزمر: ٥٣]، فبعثهم برسالة ﴿فَتَحَسَّسُواْ﴾ [يوسف: ٨٧]، فَلَمَّا رَجَعُوا دخلوا من قَفْرِ الفقرِ، فَاسْتَلْقَوْا في سَاحَةِ الضُرِّ يُنَادُونَ من غَليلِ عليلِ الضَّرَر فتصدق علينا، تاللهِ لقد جوزيت أيد مدها تغشرم

بِعِزٍّ يومَ شَرَوْهُ إن مدت في طريق ذُلٍّ ﴿وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَآ﴾ [يوسف: ٨٨]، فَكَشفَ سِتْرَ السَّتْرِ بِيَدِ ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ [يوسف: ٨٩]، فَانْقَشَعَ غَيْمُ كِبْرِهِمْ بِشِمَالِ ذِلَّتِهِمْ فَلاحَ هِلالُ يُوسِفِهِمْ، فَقَامُوا إلى عَرَفَاتِ عِرْفَانِهِمْ يُنَادُونَ: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠]، فأجابَ عن ضَمِيرِ شَاكِرٍ بعبارةِ مُؤَنِّبٍ: ﴿أَنَاْ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِي﴾ [يوسف: ٩٠]، فاعترفوا بِمَا اقْتَرَفُوا، وَعَرفُوا ما أَسْرَفُوا، وَلَمَّا انْصَفَوْا أَنْصَفُوا، فكانت جملة ما وَصَفُوا ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [يوسف: ٩١]، فَلَمَّا طلعتْ شمسُ العَفْوِ في فَلَكِ ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ﴾ [يوسف: ٩٢]، خفيت كواكب عتاب ﴿هَلْ عَلِمْتُم﴾ [يوسف: ٨٩]، فرفع يوسف من موائدِ تلك الفوائدِ نصيبَ الوالدِ ﴿اذْهَبُواْ بِقَمِيصِي﴾ [يوسف: ٩٣]، فَهَبَّتْ نَسَائِمُ الفَرَجِ، فَتَوَغَّلَتْ في خَيَاشِيم مريضٍ كالفرخ من فَرَجِ الفرجِ، فَخَرَّ رُكَامُ الزُّكَام عن مِنْخَرِ الضُّرِ، فَنَادَى عليلُ الشَّوْقِ عن غَلِيلِ الوَجْدِ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٩٤].

نَشَدْتُكَ اللهَ يَا نَسِيمُ ... مَا فَعَلَتْ بَعْدَنَا الرُّسُومُ
هَلِ اسْتَهَلَّتْ بِهَا الْغَوَادِي ... وَنَمَّقَتْ رَوْضَهَا الْغُيُومُ
عَلَّلَ بِرَوْحِ الْوِصَالِ صِبًّا ... أَنْفَاسُهُ بِالْجَوَى سَمُومُ
وَهَلْ بِهَا مَنْ عَهِدْتُ فِيهَا ... بَعْدُ عَلَى عَهْدِهِ مُقِيمُ
أَحْبَابُنَا نَقْضِي اللَّيَالِي ... وَلَيْسَ يَقْضِى لَنَا غَرِيمُ
ذَاكَ اللَّدِيغُ الَّذِي عَهِدْتُمْ ... بَعْدُ عَلَى حَالِهِ مُقِيمُ
لَمْ يَجْرِ ذِكْرُ الْفِرَاقِ إلا ... حَنَّ كَمَا حَنَّتِ الرَّؤُمُ

فَلَمَّا كشفَ يعقوبُ فَدَامَ الوجدُ بِكَفِّ ﴿إِنِّي لَأَجِدُ﴾ [يوسف: ٩٤]، أحدقتْ به عوازلُ (تَفْتَأُ)، فَحَارَبَهُمْ مُحَارِبُهُمْ فَحَازَ بِهِمْ سِلاحَ ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٨٦]، باللهِ لو وَجَدُوا ما وَجَدَ ما أَنْكَرُوا ما عَرَفُوا.

[مجزوء الرجز]

هَلْ لَكُمَا مِنْ عِلْمِ ... بِالطَّارِقِ الْمُلِمِّ
سَرَى عَلَى الدَّيَاجِي ... سُرَى أَخِيهِ النَّجْمِ

يَــشُـــقُّ نَـــجْـــدًا عَـــرْضًـــا مِـــنْ شَـــخْـــصِـــهِ بِـــسَـــهْـــمِ
فَـــنَـــوَّرَ الـــلَّـــيْـــلَ وَلَـــيْـــ ـــسَـــتْ مِـــنْ لَـــيَـــالِـــي الـــتَّـــمِّ
خُـــذْ يـــا نَـــسِـــيـــمَ عَـــنِّـــي تَـــحِـــيَّـــتِـــي وَضَـــمِّـــي
وَهَـــنِّـــهِـــمْ بِـــوَجْـــدِهِـــمْ مِـــنَ الْـــكَـــرَى وَعُـــدْمِـــي
قَـــالُـــوا هَـــجَـــرْتَ أَرْضَـــنَـــا أَهْـــجُـــرُهَـــا بِـــرُغْـــمِـــي
قَـــدْ وَصَـــلَـــتْ إِلَـــى الْـــحَـــشَـــى رُسُـــلُـــهُـــمْ بِـــسُـــقْـــمِـــي
فَـــلَـــمْ تَـــدَعْ وَاسِـــطَـــةً بَـــيْـــنَ دَمِـــي وَلَـــحْـــمِـــي
سِـــوَى الـــنُّـــحُـــولُ بَـــيْـــنَـــنَـــا تَـــعْـــرِفُـــنَـــا بِـــالْـــوَهْـــمِ
حِـــيـــطَ هِـــلال لَـــيْـــلَـــة دَارِهِـــمْ وَجِـــسْـــمِـــي
عُـــجَّ تَـــرنَـــا رُسُـــومُـــنَـــا ثَـــلاثَـــةً فـــي رَسْـــمِ

فَلَمَّا هَبَّ نسيمُ شمالِ جَمْعِ الشَّمْلِ، فَرَّقَ فِرَقَ سُحُبِ الْفِرَاقِ، فَأَقْشَعَ غَيْمَ الْعَمَى فَارْتَدَّ بَصِيرًا، فَعَاقَبَهُمْ بأَلم ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [يوسف: ٩٦]، فَلَجَأُوا من ضَرِيعِ تَوْبِيخِهِمْ إلى ضَرَعِ ﴿يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ [يوسف: ٩٧]، فَأَخَّرَهُمْ إلى سيفِ سوف ليعملَ سيفُ الأَسَفِ في سؤالهم، فَلَمَّا مَرُّوا إلى يوسفَ خَرُّوا له سُجَّدًا، فَبَان وَعْدُ ﴿وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ﴾ [يوسف: ٦]، في نَقْدِ ﴿هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَٰيَ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ١٠٠]، فَلَمَّا رأى يوسفُ بدرَ التَّمَامِ قد تَمَّ مُشرِقًا مشرقًا على دَارِ الغرور حَذِرٌ على تميمةِ تيمته من كَفِّ المحاق، فَاغْتَنَمَ الإدْلاجَ في ليالي البيضِ، وَسَأَلَ الفوزَ من مَفَازَاتِ الآفاتِ بقولِ مقولِ إِبْدَائِهِ ﴿تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

الفصل السادس والعشرون

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [الرعد: ١٢]

البرق: أَثَرُ ضَرْبِ المَلَكِ للسَّحابِ، وَالرَّعْدُ صوتُ المَلِكِ إذا زَجَرَ السَّحَابَ خوفًا للمسافرِ لأنه يَحْذَرُ آذَاهُ، وَطَمَعًا للزَّارعِ لأنه يَرْجُو منفعتَه، وكان الزبيرُ إذا سَمِعَ الرَّعدَ لَهَى عن حَدِيثِهِ، وقال: وعيدٌ شديدٌ لأهلِ الأرضِ.

سبحانَ مَنْ ذَلَّ كلَّ شيءٍ على عِزَّتِهِ، وَنَصَبَ عَلَمَ الهُدَى على بَابِ حُجَّتِهِ، فالأكوانُ كُلُّهَا تنطقُ بلسانِ الدَّليلِ على وَحْدَانِيَّتِهِ، وكلُّ موافقٍ ومخالفٍ يمشي تحتَ قَهْرِ مَشِيئَتِهِ، إنْ رفعتَ بَصَرَ الفكرِ رأيتَ دائرةَ الفلكِ في قَبْضَتِهِ، وَتُبْصِر شمسَ النَّهَارِ وبدرَ الدُّجَى يَجْرِيَانِ في بَحْرِ قُدْرَتِهِ، والكواكبَ قَدِ اصْطَفَّتْ كالمواكبِ على مَنَاكِبِ تسخيرِ سَطْوَتِهِ فَمِنْهَا رُجُومٌ للشياطينِ تَرْمِيهِمْ وترميهم عن حِمَى حِمَايَتِه، ومنها سُطُورٌ في المَهَامِهِ يَقْرَؤُهَا المسافرُ في سِفْرِ سَفْرَتِهِ، وإن خفضتَ البصرَ رأيتَ الأرضَ مُمْسِكَةً بحِكْمَةِ حِكْمَتِهِ، كُلُّ قُطْرٍ منها محروسٌ بِأَطْوَادِهِ عن حَرَكَتِهِ، فإذا ضَجَّتْ عِطَاشُهَا ثَارَ السَّحَابُ من بِرْكَةِ بَرَكَتِهِ، وَنُفِخَ في صُورِ الرَّعْدِ لإحياءِ صُوَرِ النَّبْتِ من أَجْدَاثِ حُفْرَتِهِ، فَيَبْدُو نُورُ النَّوْرِ يَهْتَزُّ طَرَبًا بِخُزَامَى رَحْمَتِهِ، فإذا استوى على سُوقِهِ، زَادَتْ في سوقِهِ نُعَامَى نِعْمَتِهِ، وَتَفْتَقُ يَدُ الإيجَادِ بِتَأَمُّلِ القدرةِ أَكْمَامَ النَّبَاتِ عن صَبْغَةِ صِبْغَةِ صَنْعَتِهِ، وَتَرْفَلُ في حُلَى حُلَّةِ الحالِ إلى مغبر غبرتِه، وَتَصْدَحُ الوُرْقُ على الوَرَقِ، كلٌّ بِبَلِيغِ لُغَتِهِ، والأشجارُ مُعْتَنِقَةٌ وَمُفْتَرِقَةٌ على مِقْدَارِ إرَادَتِهِ، ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ [الرعد: ٤]، هذا بعضُ صَنْعَتِهِ، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

نظر بعين الاختيار إلى آدمَ فَخَصَّهُ بسجودِ ملائكته، وإلى ابنه شَيْثَ فأقامه في منزلته، وإلى إدريسَ فَاحْتَالَ بِإِلْهَامِهِ على جَنَّتِهِ، وإلى نوح فَنَجَّاهُ مِنَ الغَرَقِ بِسَفِينَتِهِ، وإلى هودٍ فَعَادَ على عَادٍ شُؤْمُ مُخَالَفَتِهِ، وإلى صالحٍ فَتَمَخَّضَتْ صخرةٌ بِنَاقَتِهِ، وإلى إبراهيمَ فَتَبَخْتَرَ في حُلَّةِ خُلَّتِهِ، وإلى إسماعيلَ فَأَعَانَ الخَلِيلَ في بِنَاءِ كَعْبَتِهِ، وإلى إسحاقَ فَأَفْتَكَهُ بالفداءِ مِنْ ضَجْعَتِهِ، وإلى لوط فَنَجَّاهُ وَأَهْلَهُ مِنْ عَشِيرَتِهِ، وإلى شعيب فأعطاه الفَصَاحَةَ في خُطْبَتِهِ، وإلى يعقوبَ فَرَدَّ حَبِيبَهُ مَعَ حَبِيبَتِهِ، وإلى يُوسُفَ فَأَرَاهُ البُرهانَ في هِمَّتِهِ، وإلى موسى فَخَطَرَ في ثَوْبِ مُكَالَمَتِهِ، وإلى إلياسَ فَانْبَلَسَ الناسُ مِنْ حَالَتِهِ، لقد أبلس الخلائق في مَنْزِلَتِهِ، وإلى داودَ فَلانَ لَهُ الحديدُ على حِدَّتِهِ، وإلى سليمانَ فراحتِ الريحُ في مَمْلَكَتِهِ، وإلى أيوبَ فيا طُوبَى لِرَكْضَتِهِ، وإلى يونس فاستجابَ نِدَاهُ في ظُلْمَتِهِ، وإلى زكريًا فَقَرَنَ سُؤَالَهُ بِبِشَارَتِهِ، وإلى يحيى فَتَلَمَّحَ حصيرَ الحُصُورِ على سدة سِيَادَتِهِ، وإلى عيسى فَكَمْ أَقَامَ مَيتًا من حُفْرَتِهِ، وإلى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَصَّهُ بِرُؤْيَتِهِ، وإلى أبي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَجَعَلَهُ ثاني اثنين في إِسْلامِهِ، وإيمَانِهِ، وَعُمْرِهِ، وَغَارِهِ، وَخِلافَتِهِ، وَهُوَ صِدِّيقُهُ، وَصَدِيقُهُ، وَرَفِيقُهُ في حَيَاتِهِ، وَضَجِيعُهُ، وَأَنِيسُهُ في تُرْبَتِهِ، وإلى عُمَرَ الفاروقِ فَنَشَرَ عَدْلَهُ في المَشَارِقِ والمَغَارِبِ، وَعَمَّ جميعَ الخَلائِقِ بِبَذْلِهِ وَعَطِيَّتِهِ، وَفَتَحَ البلادَ، وَأَرْشَدَ العِبَادَ، وَهَذَا فَتَحَ العِرَاقَ مِنْ بعضِ جُنُودِهِ وَسَرِيَّتِهِ، وَهُوَ سِرَاجُ الأنبياءِ في جَنَّتِهِ، وإلى عثمان الذي أسبل على ابنتي النبي صلى الله عليه وسلم سِتْرَ نِكَاحِهِ وولايتِهِ، وحفرَ بئر رومة، وَجَهَّزَ جيشَ عُسْرَتِهِ، وكفَّ عنِ القتالِ لما بَشَّرَهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بفطره وشهادته، فهو السعيد في حياته والشهيد في ميتته، وإلى علي بن أبي طالب الذي فاز بقرابة النبي، وَإِخَائِهِ، وَصِهْرِيَّتِهِ، فَالسُّنِّيُّ أَحَقُّ منَ الرَّافِضِيِّ بولايته ومحبته، وإلى الحسن الذي احتسبَ نَفْسَهُ في الله، وَرَضِيَ بِحُكْمِهِ وَقَضِيَّتِهِ، وإلى الحُسَيْنِ الذي اختار اللهُ له الشهادةَ لَمَّا أَمَرَّ الشمرُ الخنجرَ على حنجرته، وإلى مريمَ التي خَصَّهَا اللهُ بروحه وكلمته، وإلى خديجة التي بَشَّرَهَا اللهُ ببيتٍ من قَصَبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَب، بِمِنَّتِهِ وكرامته، وإلى فاطمةَ الزهراء حبيبة النبيِّ وَبِضْعَتِهِ، وإلى عائشةَ التي نَزَّهَهَا اللهُ مِنْ قولِ المنافقِ وَفِرْيَتِهِ، وأنزل في

تبيانها سبعَ آياتٍ تُتْلَى، فالويل لقاذفها، لقد حظي بسخط الربِّ وَعِصْيَتِهِ، وأعرضَ عن إبليسَ فخزي بِبُعْدِهِ وَلَعْنَتِهِ، وعن قابيلَ فَقَلَبَ قلبَهُ إلى مَعْصِيَتِهِ، وعن نمروذ فقال: أنا أُحْيِي وأميتُ بِبَلاهَتِهِ، وعن فرعونَ فادَّعَى الرُّبُوبيَّةَ على جَرْأَتِهِ، وعن هَامَانَ فأين رَأْيُهُ يومَ اليَمِّ في وِزَارَتِهِ، وعن قارونَ فخرجَ على قومه في زينته، وعن بلعام فَهَلَكَ بل عَامَ في بَحْرِ شِقْوَتِهِ، وعن برصيصا فلم ينفعه سابقُ عبادته، وعن أبي جَهْلٍ فشقي مع سعادةِ ابنه وابنته، هكذا جرى تَقْدِيرُهُ من يوم لا أبالي في قِسْمَتِهِ، ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ [الرعد: ١٣].

الفصل السابع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾ [إبراهيم: ٤٢]

قال ابن عباس: (هَذِهِ الآيَةُ وَعِيدٌ لِلظَّالِمِ وَتَعْزِيَةٌ لِلْمَظْلُوم).

قال الشَّيخُ: الظُّلمُ التَّصرُّفُ فِيمَا لا تَمْلِكُ، وقيل: وضعُ الشَّيْءِ في غَيْرِ مَوْضِعِهِ، وَالظُّلْمُ في القُرْآنِ على سِتَّةِ أَوْجُهٍ:

أحدها: نَفْسُ الظُّلْم: ﴿فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٢].

والثاني: الإضْرَارُ بِالنَّفْسِ: ﴿وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْۖ﴾ [هود: ١٠١].

الثالث: النَّقْصُ: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔاۚ﴾ [الكهف: ٣٣].

الرابع: السَّرِقَةُ، ومنه: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعْدِ ظُلْمِهِۦ﴾ [المائدة: ٣٩].

الخامس: الشِّرْكُ: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: ٨٢].

السادس: الجُحْدُ: ﴿بِمَا كَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ٩].

وفي " الصحيحين " من حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لا يَظْلِمُهُ وَلا يَخْذُلُهُ "[(١)]، ويقول: "وَالَّذِى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ مَا تَوَادَّ اثْنَانِ فَفُرِّقَ بَيْنَهُمَا إِلا بِذَنْبٍ يُحْدِثُهُ أَحَدُهُمَا "، وَكَانَ يَقُولُ: " لِلْمَرْءِ الْمُسْلِمِ عَلَى أَخِيهِ سِتٌّ: يُشَمِّتُهُ إِذَا عَطَسَ، وَيَعُودُهُ إِذَا

---

(١) أخرجه البخارى (٢/٨٦٢، رقم ٢٣١٠)، ومسلم (٤/١٩٩٦، رقم ٢٥٨٠)، وأبو داود (٤/٢٧٣، رقم ٤٨٩٣)، والترمذى (٤/٣٤، رقم ١٤٢٦) وقال: حسن صحيح غريب. والنسائى فى الكبرى (٤/٣٠٩، رقم ٧٢٩١)، وابن حبان (٢/٢٩١، رقم ٥٣٣). وأخرجه أيضًا: القضاعى (١/١٣٢، رقم ١٦٩)، والبيهقى (٦/٢٠١، رقم ١١٩٠٨).

مَرِضَ، وَيَنْصَحُهُ إِذَا غَابَ أَوْ شَهِدَهُ، وَيُسَلِّمُ عَلَيْهِ إِذَا لَقِيَهُ، وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، وَيَتْبَعُهُ إِذَا مَاتَ "(١).

جملة ما روى ابنُ عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم ألفي حديث وست مائة حديث، أُخْرِجَ له منها في " الصحيحين " مائتان وثلاثون حديثًا، المتفق عليه منها مائة وثمانية وستون حديثًا، وانفردَ البُخَارِيُّ بأحدٍ وثمانينَ، وَمُسْلِمٌ بأحدٍ وثلاثينَ، وفي "الصحيحين " عن أبي موسى، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللهَ تَعَالَى يُمْلِي لِلظَّالِمِ فَإِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ. ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌ﴾ [هود: ١٠٢] "(٢).

وَرَوَى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " ثَلاثَةٌ لا تُرَدُّ دَعْوَتُهُمْ: الإِمَامُ الْعَادِلُ، وَالصَّائِمُ حَتَّى يُفْطِرَ، وَدَعْوَةُ الْمَظْلُومِ تُحْمَلُ عَلَى الْغَمَامِ وَتُفْتَحُ لَهَا أَبْوَابُ السَّمَاءِ، وَيَقُولُ الرَّبُّ عَزَّ وَجَلَّ: لأَنْصُرَنَّكَ وَلَوْ بَعْدَ حِينٍ "(٣).

وقال عبد الله بن سلام: (لَمَّا خَلَقَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المَلائِكَةَ رَفَعَتْ رُؤُسَهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَتْ: رَبَّنَا مَعَ مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: مَعَ الْمَظْلُومِ حَتَّى يُؤَدَّى إِلَيْهِ حَقُّهُ).

وكان شُرَيْحٌ يقولُ: (سَيَعْلَمُ الظَّالِمُونَ حَظَّ مَنْ نَقَصُوا؛ إِنَّ الظَّالِمَ يَنْتَظِرُ الْعِقَابَ، وَالْمَظْلُومَ يَنْتَظِرُ النَّصْرَ).

وقالَ بعضُ العلماءِ: (لا يَكْبُرَنَّ عَلَيْكَ ظُلْمُ مَنْ ظَلَمَكَ، فَإِنَّمَا سَعَى فِي مَضَرَّتِهِ وَنَفْعِكَ).

وقال سليمان بن يزيد النميري: (مَكْتُوبٌ في التَّوْرَاةِ: يُنَادِي مُنَادٍ مِنْ وَرَاءِ الْجِسْرِ، يا مَعَاشِرَ الْجَبَابِرَةِ وَالطُّغَاةِ، وَيَا مَعْشَرَ الْمُسْرِفِينَ الأَغْنِيَاءِ، يا مَعْشَرَ

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٦٨، رقم ٥٣٥٧). قال الهيثمي (٨/ ١٨٤): إسناده حسن.

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨٣).

(٣) أخرجه أحمد (٢/ ٤٤٥، رقم ٩٧٤١)، والترمذى (٥/ ٥٧٨، رقم ٣٥٩٨) وقال: هذا حديث حسن. وابن حبان (٣/ ١٥٨، رقم ٨٧٤)، وابن ماجه (١/ ٥٥٧، رقم ١٧٥٢)، والبيهقى (٣/ ٣٤٥، رقم ٦١٨٦). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (٣/ ١٩٩، رقم ١٩٠١)، وإسحاق بن راهويه (١/ ٣١٧، رقم ٣٠٠).

الْمُتْرَفِينَ الأَشْقِيَاءِ، إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَحْلِفُ بِعِزَّتِهِ أَنْ لا يُجَاوِزَ هَذَا الْجِسْرَ الْيَوْمَ ظَالِمٌ).

وقال عمرُ بنُ الخَطَّابِ رضي الله عنه لأبي ذَرٍّ: حَدِّثْنِي بحديثٍ سَمِعْتَهُ من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فقال: سَمِعْتُهُ يقولُ: " يُجَاءُ بِالْوَالِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُنْبَذُ بِهِ عَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ، فَيَرْتَجُّ بِهِ الْجِسْرُ ارْتِجَاجَةً لا يَبْقَى مِنْهُ مِفْصَلٌ إلا زَالَ عَنْ مَكَانِهِ، فَإِنْ كَانَ مُطِيعًا للهِ تَعَالَى في عَمَلِهِ مَضَى بِهِ، وَإِنْ كَانَ عَاصِيًا للهِ عَزَّ وَجَلَّ في عَمَلِهِ انْخَرَقَ بِهِ الْجِسْرُ، فَيَهْوِي بِهِ في جَهَنَّمَ مِقْدَارَ خَمْسِينَ عَامًا "، فقال عُمَرُ رضي الله عنه: مَنْ يَطْلُبُ الْعَمَلَ بِهَذَا يا أَبَا ذَرٍّ؟ قال: مَنْ سَلَتَ اللهُ أَنْفَهُ وَأَلْصَقَ خَدَّهُ بِالتُّرَابِ.

وقال عمرُ بنُ المُهَاجِرِ: قال لي عمر بن عبد العزيز: (إِذَا رَأَيْتَنِي قَدْ مِلْتُ عَنِ الْحَقِّ فَضَعْ يَدَكَ في تِلْبَابِي وَهُزَّنِي إِلَيْكَ، ثُمَّ قُلْ: يَا عُمَرُ؛ مَا تَصْنَعُ؟).

ودخل طاوس على هشام بن عبد الملك، فقال له: اتقِ اللهَ يومَ الأذانِ، فقال: وما الأذانُ؟ قال: قوله: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيْنَهُمْ أَن لَّعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فَصَعِقَ هِشَامٌ، فقال طاوس: هذا ذُلُّ الصِّفَةِ، فَكَيْفَ ذُلُّ الْمُعَايَنَةِ.

يا راضيًا باسم الظالم كم عليك من مظالم، السجن جهنم، والحق حاكم، ولا حجة لك فيم تخاصم، القبر مهول فَتَذَكَّرْ حَبْسَكَ، والحساب طويل فَخَلِّصْ نَفْسَكَ، والكسبُ خبيثٌ وتفرحُ بِمَالِكَ، والطلبُ حثيثٌ وتلهو بِآمَالِكَ، إن الظلمَ لا يُتركُ منه قدرُ أُنْمُلَة، فإذا رأيتَ ظالمًا قد سَطَا فَنَمْ له، فَرُبَّمَا بَاتَ فأخذتَ جَنْبَهُ مِنَ اللَّيلِ نملة.

[أحذ الكامل]

الْخَيْرُ مَصْنُوعٌ لِصَانِعِهِ ... فَإِذَا صَنَعْتَ الْخَيْرَ أَعْقَبَكَا
وَالشَّرُّ مَفْعُولٌ بِفَاعِلِهِ ... فَمَتَى فَعَلْتَ الشَّرَّ أَعْطَبَكَا
لا تَحْسَبَنَّ اللهُ مُطَّرِحًا ... مَنْ أَنْتَ تَضْحَكُ مِنْهُ حِينَ بَكَى
لا يُطْمِعَنَّكَ فِيهِ رَأْفَتُهُ ... إِنَّ الْمَطَامِعَ تَنْصِبُ الشَّرَكَا

أيها الظالمُ كم أُهْلِكَ مثلُك ممَّن فَعَلَ فِعْلَكَ، أين مَنْ أَمَضَّ جَوْرُهُ مَضًّا،

صَارَ حَدِيثًا وَانْقَضَى، الصالحُ يعملُ بالتُّقَى وَالعَاصِي مُعْرِضًا.

[الكامل]

غَلَبَتْ عَلَى أَلْبَابِهِمْ شَهَوَاتُهُمْ ... فَأَرَتْهُمُ مَا لا يَزِينُ يَزِينُ

لا يَصْغُرَنَّ إِلَيْكَ قَدْرُ خَطِيئَةٍ ... إِنَّ الْمُحَاسَبَ حَبْسُهُ سَجِينُ

أَيُّهَا الظَّالمُ إلى كم تلبس والشر لباس إبليس، وتجرُّ جسدك في عقابيل قابيل، وتُزاحم في الكبر قرنَ قارون، وتدخلُ بالجهل بيتَ أبي جهل، تقاتل في الهوى بسيفين، وتحمل الصعبَ في المشتهى على الرأس والعين، كم قَادَكَ الهوى فما قلتَ إلى أين؟ كم مددتَ إلى ظلم الإخوان الرَّاحَتَيْنِ؟ كم تتصدق بالحرام أيقضي دين دينًا بدين؟ كم ظلومٌ لا يرحمه أخٌ من الوالدين، يناديك ظمآن بالكرب وأنت بالرِّيِّ قريرُ عَيْن، يا مُشمرًا في الظلم ذِرَاعَ شِمْرٍ كَمْ قَتَلْتَ مِنْ حُسَيْن؟

[السريع]

يَا ذَا الْغِنَى وَالسَّطْوَةِ الْقَاهِرَه ... وَالدَّوْلَةُ النَّاهِيَةُ الآمِرَه

وَيَا شَيَاطِينَ بَنِي آدَمَ وَيَا ... عَبِيدُ الشَّهْوَةِ الْفَاجِرَه

انْتَظِرُوا الدُّنْيَا فَقَدْ أَقْرَبَتْ ... وَعَنْ قَلِيلٍ تَلِدُ الآخِرَه

مَرَّ عيسى عليه السلام بمقبرةٍ فنادى رَجُلا منهم فأحياه اللهُ تعالى لَهُ، فقال: مَنْ أنتَ؟ قال: كنتُ حَمَّالا، فحملتُ لإنسانٍ حَطَبًا، فَكَسَرْتُ منه خِلالا فَتَخَلَّلْتُ به، فَأَنَا أُطَالَبُ به مُنْذُ مُتُّ.

وبقي حسانُ بنُ أبي سنان ستينَ سنةً لا يأكل سمينًا، ولا يشربُ باردًا، ولا ينامُ مضطجعًا، فَلَمَّا مَاتَ رُئِيَ في المَنَام، فقيل له: ما فَعَلَ اللهُ بك؟ فقال: خيرًا؛ إلا أَنِّي محبوسٌ بِإِبْرَةٍ اسْتَعَرْتُهَا وَلَمْ أَرُدُّهَا.

وَرَوَى مُسْلِمٌ في " صحيحه " من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ؟ قَالُوا: المُفْلِسُ فِينَا مَنْ لا دِرْهَمَ لَهُ وَلا مَتَاعَ، قَالَ: فَإِنَّ المُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلاةٍ، وَصِيَامٍ، وَصَدَقَةٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، فَيُعْطَى

هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِذَا فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ "(١).

وقال: " لَتُؤَدُّنَّ الْحُقُوقَ إِلَى أَهْلِهَا حَتَّى يُقْتَصَّ لِلْجَلْحَاءِ مِنَ الشَّاةِ الْقَرْنَاءِ".

وَرَوَى جابر عن بعض أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، أنه سَمِعَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: " يَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَنَا الدَّيَّانُ لا ظُلْمَ عِنْدِي، وَعِزَّتِي وَجَلالِي لا يُجَاوِزُنِي الْيَوْمَ ظُلْمُ ظَالِمٍ وَلَوْ لَطْمَةً بِكَفِّهِ، وَلَوْ ضَرْبَةَ يَدٍ عَلَى يَدٍ، وَلأَقْتَصَّنَّ لِلْجَمَّاءِ مِنَ الْقَرْنَاءِ، وَلأَسْأَلَنَّ الْحَجَرَ لِمَ نَكَبَ الْحَجَرَ، وَلأَسْأَلَنَّ الْعُودَ لِمَ خَدَشَ صَاحِبَهُ"(٢).

وقال أبو هريرة: (مِنَ النَّاسِ مَنْ يُقْتَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلْفَ قِتْلَةٍ بِضُرُوبِ مَا قَتَلَ).

وقال ابن عباس: (مِنَ النَّاسِ مَنْ يُقْتَلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَيُقْطَعُ، وَيُقْتَصُّ مِنْهُ).

وقال قتادة: (ليس شيءٌ أَشَدُّ على الإنسان يومَ القيامةِ مِنْ أن يَرَى مَنْ يَعْرِفُهُ مَخَافَةَ أَنْ يُطَالِبَهُ بِمَظْلَمَةٍ).

[الرجز]

فَخَفِ الْقِصَاصَ غَدًا إِذَا وَافَيْتَ مَا ... كَسَبَتْ يَدَاكَ الْيَوْمَ بِالْقِسْطَاسِ
فِي مَوْقِفٍ مَا فِيهِ إلا شَاخِصًا ... أَوْ مُهْطِعًا أَوْ مُقْنِعًا لِلرَّاسِ
أَعْضَاؤُهُمْ فِيهِ الشُّهُودُ وَسِجْنُهُم ... نَارٌ وَحَاكِمُهُمْ شَدِيدُ الْبَاسِ
إِنْ تَمْطُلَ الْيَوْمَ الدُّيُونَ مَعَ الْغِنَى ... فَغَدًا تُوَفِّيهَا مَعَ الإِفْلاسِ

يا أسفًا للظَّلَمَةِ الفُجَّار، يُخْطِئُونَ على أنفسهم باللَّيْلِ والنَّهَارِ، الشهواتُ تفنى وتبقى الأوزارُ، ليومٍ تَشْخَصُ فيه الأبصارُ، تاللهِ لو قَنَعُوا بالحلالِ كَفَى،

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٩٧، رقم ٢٥٨١)، والترمذى (٤/ ٦١٣، رقم ٢٤١٨)، وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى الأوسط (٣/ ١٥٦، رقم ٢٧٧٨)، والديلمى (٢/ ٦٠، رقم ٢٣٣٨).

(٢) أخرجه الروياني في مسنده (٤/ ٢١٩، رقم ١٤٨٧).

بَلْ لَوْ رَضُوا بالمُبَاح شَفَى، غيرَ أَنَّ الهَوَى هَوَى بهم وَهَفَا، فَبَنُوا أغراضَهُم (على شَفَا جُرْفٍ هَارٍ)، كم يستغيثُ مظلومٌ على البابِ، وقد أخذ ظَالِمُهُ في الطَّعَامِ والشَّرَابِ، جَأَرَ المَظْلُومُ مِمَّنْ جارَ، كم ضَحَكُوا والمظلومُ قد بَكَى، كم نَامُوا وما نَامَ لقلقٍ ما اشْتَكَى، أَتُرَاهُمْ ما عَلِمُوا إلى مَنْ شَكَى، لا بُدَّ للوالي مِنْ أَخْذِ الثأرِ، كم قَصْرٍ مَعْمُورٍ مَغْمُورٍ بالنعيم، كَأَنَّ صَاحِبَهُ في الخُلْدِ مقيمُ، دَعَا عليه مظلومٌ فَدَرَسَ الحريم، فالزوجةُ أرملة، والولد يتيم، لا تَحْقِرُوا دُعَاءَ الأسْحَارِ، إنَّ الظَّلَمَةَ غَدًا في الظُّلُمَاتِ يَتَعَثَّرُونَ بِحَسَكِ الحَسَرَاتِ، وقد حالت دِمَاء تِلْكَ العَبَرَاتِ، يَقُولُونَ: (هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ)، وَهَيْهَاتَ ضَاعَتِ الأعْمَارُ القِصَارُ.

يُنَادَى أينَ مَنْ بَرَى لَهُمْ قَلَما؟ أين مَنْ شَارَكَهُمْ في العَذَابِ وما؟ أين مَنْ كان رفيقَهُمْ في هَتْكِ الحريمِ والحِمَى؟ فتُضْرَبُ هذه الحبة في هذا الدينار، كم حُذِّثُوا بِالْعِبَرِ فَلَمْ يَسْمَعُوا، وكم وُعِظُوا بِالْغَيْرِ ولم يَقْنَعُوا، وَكَمْ جَمَعُوا مِنَ الْحَرَامِ وَلَمْ يَشْبَعُوا، ﴿قُلْ تَمَتَّعُواْ فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى ٱلنَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠].

الفصل الثامن والعشرون

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ ٱلْأَرْضُ غَيْرَ ٱلْأَرْضِ﴾ [إبراهيم: ٤٨]

تبديلها أن تذهبَ جبالُها وأوديتُها وبحورُها، ، وتُمَدَّ مَدَّ الأدِيمِ، وتبديل السَّموات بتكوير شمسها وقمرها، وتناثر نجومها، واختلاف أحوالها، فتارةً كالمُهْلِ، وتارةً كَالدِّهَانِ.

قالت عائشةُ رضي الله عنها لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ؟ قَالَ: " عَلَى الصِّرَاطِ ".

ومعنى (وَبَرَزُوا): خَرَجُوا إلى البَرَازِ، وهو ما ظَهَرَ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَوَى، وفي "الصحيحين " من حديث ابن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: " ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٦]، يقوم أحدهم في رَشْحِهِ إلى أَنْصَافِ سَاقَيْهِ"[١]، وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " يَعْرِقُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يَذْهَبَ عَرَقُهُمْ في الأَرَضِ سَبْعِينَ ذِرَاعًا، وَيُلْجِمُهُمْ حَتَّى يَبْلُغَ آذَانَهُمْ "[٢].

قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [إبراهيم: ٤٩] وهم الكفار، (مُقَرَّنِينَ) فيه ثلاثة أقوالٍ:

أحدها: يقرنون مع الشياطين، قاله ابن عباس .

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٢٣٩٣، رقم ٦١٦٦)، والترمذى (٥/ ٤٣٤، رقم ٣٣٣٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٤٣٠، رقم ٤٢٧٨)، وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ١٢٥، رقم ٦٠٧٥).

(٢) أخرجه البخارى (٥/ ٢٣٩٣، رقم ٦١٦٧).

الثاني: قُرِنَتْ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ إلى رِقَابِهِمْ، قاله ابن زيدٍ .
الثالث: قُرِنَ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ، قاله ابن قتيبة.

والأصفاد: الأغلال، والسرابيل: القُمُصُ، والقطران: النُّحَاسُ المُذَابُ، وَقَرَأَ يعقوبُ: (مِنْ قِطْرٍ آنٍ) وهو النُّحَاسُ[1]، وهو الذي قَدِ انْتَهَى حَرُّهُ.

يا أَعْجَمِيَّ الفَهْمِ؛ متى تَفْهَمْ، تُعَادِي النَّصِيحَ، وَتُوَالِي الأَرْقَمَ، تُؤْثِرُ على طَاعَةِ اللهِ تَعَالَى كَسْبَ دِرْهَمٍ، وتفرحُ بذنبٍ عُقُوبَتُهُ جَهَنَّمَ، ستعلمُ حَالَكَ في غَدٍ، ستدري من يبكي ومن يندم، إذا جَثَى الخليلُ، وتزلزلَ ابنُ مريمَ، يا عاشق الدنيا كم قَتَلَتْ مُتَيَّم، يا من إذا خطرت معصية صَمَّم، ما تفعل فعل من يريد أن يسلم، ما للفلاحِ وحده والله أعلم، إنْ كان ثَمَّ عُذْرٌ فَقُلْ وَتَكَلَّمْ، اجْلِ بَصَرَ التَّفَكُّرِ في رسوم العِصْيَانِ، وَاسْمَعْ عقات العتاة وأهل الطغيان، بئس المنزل دارهم، وبئس السُّكَّان، (سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ).

يتقلبون من العذاب في الهوان، ويبكون الدماء، وأين الدموع والأجفان، قرحت عيونهم، فلا تسأل عن شأنٍ شان، كل أعمالهم سَيِّئٌ ليس فيها إحسان، طُولبوا بالإسرار، وأخذوا بالإعلان، يا أسفا لمحترق بالنار وهو عطشان، أُفْرِدُوا بالعذابِ فَبُعِدَ فُلانٌ عن فُلانٍ، بِيعُوا بلا ثمنٍ في سوقِ الهَوَانِ والغَسَّاقِ والحَمِيم وَالآنِ، أَلانَ قَلْبَكَ أَيُّهَا العاصي مَالُكَ، الآنَ مَالُكَ لا يَرْحَمُهُمْ ولا جميعُ الأعوان، وكيف والمَالِكُ الكبيرُ عليهم غضبانُ، يَتَمَنَّوْنَ وأين المُنَى؟ ليت ما كَانَ ما كَانَ، يا سَالِكًا طريقَهُم أنائمٌ أنتَ أم يقظانُ؟ سَتَرَى ما تَسْمَعُهُ لَيْسَ الْخَبَرُ كَالعِيَانِ، هَوِّنْ خلافَ الهَوَى، فَكُلُّ ما هُوِّنَ هَانَ.

[مخلع البسيط]

بَادِرْ فَقَدْ أَمْكَنَ الْمَكَانُ ... وَاجْسِرْ عَلَى الْوَصْلِ يَا جَبَانُ
عَجِّلْ فَإِنَّ الزَّمَانَ غر ... مِنْ قَبْلِ أَنْ يَفْطِنَ الزَّمَانُ

---

(١) قرأ مجاهد، رحمه الله، قطران (عليه) نحاس، ومثله عن ابن عباس. وعن ابن عباس، وعكرمة، (رحمة الله عليهما)، إنهما قرآ: (من) قِطْرٍ آنٍ: أي: من نحاس قد انتهى حره في الشدة، وقد قالوا قطران في الواحد، ولو جمع قطران، لقيل: قطارين كضربان وضرابين.

الفصل التاسع والعشرون

في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [الحجر: ٤٣]

رَوَى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أُوقِدَ عَلَى جَهَنَّمَ أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى احْمَرَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى ابْيَضَّتْ، ثُمَّ أُوقِدَ عَلَيْهَا أَلْفَ سَنَةٍ حَتَّى اسْوَدَّتْ، فَهِيَ سَوْدَاءُ مُظْلِمَةٌ مُدْلَهِمَّةٌ "(١).

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "نَارُكُمْ هَذِهِ مَا يُوقِدُ بَنُو آدَمَ جُزْءًا وَاحِدًا مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ، قَالُوا: وَاللهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً، قَالَ: فَإِنَّهَا فُضِّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا "(٢).

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "اشْتَكَتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا عَزَّ وَجَلَّ، فَقَالَتْ: يَا رَبِّ؛ أَكَلَ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَذِنَ لَهَا فِي كُلِّ عَامٍ بِنَفَسَيْنِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْبَرْدِ مِنْ زَمْهَرِيرِ جَهَنَّمَ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ "(٣).

قال كَعْبٌ: لَوْ فُتِحَ مِنْ جَهَنَّمَ قَدْرُ مِنْخَرِ ثَوْرٍ بِالْمَشْرِقِ وَوَاحِدٌ بِالْمَغْرِبِ

---

(١) فوائد تمام (٢/ ٣٩١، رقم ٨٩١).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣١٣، رقم ٨١١١).

(٣) أخرجه مالك (١/ ١٦، رقم ٢٨)، والشافعى (١/ ٢٧)، وابن حبان (١٦/ ٥٠٦، رقم ٧٤٦٦) والبخارى (٣/ ١١٩٠، رقم ٣٠٨٧)، ومسلم (١/ ٤٣١، رقم ٦١٧)، وابن ماجه (٢/ ١٤٤٤، رقم ٤٣١٩). وأخرجه أيضاً: أحمد (٢/ ٥٠٣، رقم ١٠٥٤٥).

لَغَلَى دِمَاغُهُ حَتَّى يَسِيلَ مِنْ حَرِّهَا، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَتَزْفَرُ زَفْرَةً لا يَبْقَى مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُصْطَفَى إلا خَرَّ عَلَى رُكْبَتِهِ، وَيَقُولُ: يَا رَبِّ نَفْسِي نَفْسِي.

قال: والغَسَّاقُ عَيْنٌ في جَهَنَّم يسيلُ إليها حُمَّةُ كُلِّ ذَاتِ حُمَّةٍ فَتَسْتَنْقِعُ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالآدَمِيِّ فَيُغْمَسُ فيها غَمْسَةً، فَيَسْقُطُ جِلْدُهُ وَلَحْمُهُ عَنِ الْعِظَامِ، فَيَجُرُّ شَحْمَهُ في كَعْبَيْهِ كَمَا يَجُرُّ الرَّجُلُ ثَوْبَهُ.

وإنَّ الفلقَ بيتٌ في النَّارِ، إذا فُتِحَ صَاحَ أهلُ النَّارِ مِنْ حَرِّهِ.

وفي إفْرَادِ مُسلمٍ من حديث أبي هريرة، قال: " كُنَّا عِنْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا، فَسَمِعْنَا وَجْبَةً عَظِيمَةً، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَتَدْرُونَ مَا هَذِهِ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُه أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا حَجَرٌ أُرْسِلَ في جَهَنَّمَ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، وَالآنَ انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا "[١].

وفي إفراد مسلم من حديثِ ابنِ مسعودٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ يَجُرُّونَهَا "[٢].

قال وَهْبٌ: إذا سُيِّرَتِ الجِبَالُ سمعت حسيسَ النَّارِ وَتَغَيُّظَهَا وَزَفِيرَهَا وَشَهِيقَهَا صَرَخَتِ الجبالُ كَمَا تَصْرِخُ النِّسَاءُ، ثُمَّ تَرْجِعُ أَوَائِلُهَا عَلَى أَوَاخِرِهَا يَدُقُّ بَعْضُهَا بَعْضًا.

وفي حديث ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُّومِ قَطَرَتْ في الأَرْضِ لأَمَرَّتْ عَلَى أَهْلِ الدُّنْيَا مَعِيشَتَهُمْ، فَكَيْفَ مَنْ هُوَ طَعَامُهُ لَيْسَ لَهُ طَعَامًا غَيْرُهُ "[٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: " إنَّ في جَهَنَّمَ وَادِيًا يُدْعَى لَمْلَمُ، إنَّ أَوْدِيَةَ جَهَنَّمَ تَسْتَعِيذُ بِاللهِ تَعَالَى مِنْ حَرِّهِ "[٤].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٢/ ٣٧١، رقم ٨٨٢٦).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٨٤، رقم ٢٨٤٢)، والترمذى (٤/ ٧٠١، رقم ٢٥٧٣).

(٣) أخرجه ابن ماجه (٢/ ١٤٤٦، رقم ٤٣٢٥).

(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد ١/ ٦٩.

وقال شَقِيُّ بْنُ مَاتِعٍ: إنَّ في جَهَنَّمَ وَادِيًا يُدعى آثَامًا، فيه حَيَّاتٌ وَعَقَارِبُ، في فَقَارِ كُلِّ أَحَدِهِنَّ مِقْدَارُ سَبْعِينَ قُلَّةٍ مِنْ سُمٍّ، وَالْعَقْرَبُ مِنْهُنَّ مِثْلُ البَغْلَةِ الْمُوكَفَةِ.

قال أبو موسى: إن أهل النار يبكون حتى تنقطع الدموع، ثم يبكون الدماء حتى لو أُرْسِلَتِ السُّفُنُ فيها لَجَرَتْ.

وقال أبو المثنى الأملوكي: إنَّ في النَّار أقوامًا يُرْبَطُونَ بِنَوَاعِيرَ من نَارٍ، تَدُورُ بهم تلك النَّوَاعِيرُ، ما لَهُمْ فيها رَاحَةٌ ولا فَتْرَةٌ.

لقد أزعجَ ذكرُ جَهَنَّمَ قلوبَ الخَائِفِينَ، وَأَطَارَ نومَ العينِ عن أجفانِ العابدينَ، كان شداد إذا أوَى إلى فِرَاشِهِ يَتَقَلَّبُ كالحيَّةِ على المِقْلَى، وَيَقُولُ: اللَّهُمَّ إنَّ جَهَنَّمَ لا تَدَعْنِي أَنَامُ.

وكان طاوس إذا اضطجع يَتَقَلَّبُ، ثُمَّ يَثِبُ ويُدْرِجُ الفِرَاشَ، ويقول: طَيَّرَ ذِكْرُ جَهَنَّمَ نَوْمَ الْعَابِدِينَ.

[السريع]

وَكُلَّمَا هَمَّ يَذُوقُ الْكَرَى ... قَالَ لَهُ الْهِجْرَانُ قُمْ لا تَنَمْ

قال عبد الله بن أبي الهذيل: لقد شغلتِ النارُ مَنْ يغفل عن ذكرِ الجنة.

وقال أبو سليمان الدَّارَانِي: ربما تمثلتُ نفسي بين جبلين من نَارٍ، وربما رأيتُنِي أموتُ بينهما، كيف تهنأ الدنيا مَنْ هذه صفته؟!

قوله تعالى: ﴿لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَٰبٍ﴾ [الحجر: ٤٤]، هي طبقاتها بعضها على بعض.

قال وهب: أولُ أبوابها جَهَنَّمَ، الثاني: لَظَى، الثالث: الحُطَمَةُ، الرابع: السَّعِيرُ، الخامس: سَقَرُ، السادس: الجَحِيمُ، السابع: الهَاوِيَةُ.

بين كل باب ما بين مسيرة سبعين سنة، كل بابٍ أشد حرًّا من الذي فوقه بسبعينَ ضِعْفًا.

وقال الضَّحَّاكُ: في الدَّرْكِ الأعْلَى المُوَحِّدُونَ، وفي الثانية: النَّصَارَى، وفي الثالثة: اليَهُودُ، وفي الرابعة: الصَّابِئُونَ، وفي الخامسة: المَجُوسُ، وفي السادسة: مُشْرِكُو العَرَبِ، وفي السابعة: المُنَافِقُونَ.

يا مَنْ أعمالُهُ أعمالُ أهلِ النارِ، أَمَا تعقلُ الوعيدَ، أَمَا تفهمُ الإنذارَ، ذُنُوبُكَ كثيرة جَمَّةٌ بما ترد بها مُهِمَّة، وإنَّكَ في المعاصي إمامٌ وَأُمَّة، يا مَنْ حُبُّ الهَوَى قد أَعْمَاهُ وَأَصَمَّه، يا مَنْ بَاعَ فَرَحَهُ ثم اشترى غَمَّه، يا خَرَابًا يحتاج إلى مَرَمَّة، نَزَلَ المشيبُ في وَجْهِكَ، وطلعَ الفجرُ، وانكشفَ الحجابُ، وَجَمَعَ الضعفُ بين الحياةِ والموتِ في إِهَاب، وَحَلَّتِ الآفاتُ ودخلتْ بالبدنِ في كل باب، وَقَربَتْ نُوقُ التَّحْوِيلِ ورِجْلُ الرَّحيلِ في الرِّكَابِ، وكيف يفي رام يرمي تحت الثياب، أَتَرْحَلُ على ما أنت عليه، هذا ذهنٌ قد غاب، أين البكاءُ على الذنوب والانتحاب، أترضى أن يُنادى عليك: هذا الكَذَّابُ، يا دائمًا على المعاصي لا يرجعُ ولا يَهَابُ، تَذكر النَّارَ وقتَ الالتهاب يكسبُ مَنْ غفلَ عنها وَلَهَى، ولها سبعةُ أبواب، نصيحةٌ صحيحةٌ، أفيكم دَاعٍ يُجَابُ، أفي العين كَمَهٌ، أم على القلبِ حجاب؟! لها سبعةُ أبواب.

الفصل الثلاثون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٤٥﴾﴾ [الحجر: ٤٥]

الجنات: البساتين، والعيون: عيون الماء، والخمر، والسلسبيل، وغير ذلك.

قال ابن عباس: (نخلُ الجَنَّة جُذُوعُهَا زُمُرُّدُ أَخْضَرُ، وَكَرْمُهَا ذَهَبٌ أَحْمَرُ، وَوَرَقُهَا وَسَعَفُهَا كِسْوَةُ أَهْلِ الجَنَّةِ).

وفي " الصحيحين " من حديث سَهْلِ بْنِ سعدٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ فِي الْجَنَّةِ شَجَرَةً يَسِيرُ الرَّاكِبُ فِي ظِلِّهَا مِائَةَ عَامٍ لا يَقْطَعُهَا "(١).

وَرَوَى جريرُ بنُ عبدِ اللهِ عن النبي صلى الله عليه وسلم " أَنَّهُ أَخَذَ عُودًا بِيَدِهِ، ثُمَّ قَالَ: يا جَرِيرُ؛ لَوْ طَلَبْتَ فِي الْجَنَّةِ مِثْلَ هَذَا الْعُودِ لَمْ تَجِدْهُ، قَالَ: قُلْتُ: أَيْنَ النَّخْلُ وَالشَّجَرُ، فَقَالَ: أُصُولُهَا اللُّؤْلُؤُ وَالذَّهَبُ، وَأَعْلاهَا الثَّمَرُ "(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾ [الحجر: ٤٦]؛ المعنى: يُقَالُ لَهُمْ: ادخلوها بسلامٍ؛ أي: بِسَلامَةٍ مِنْ كُلِّ آفَةٍ، آمنينَ من الخُرُوجِ والموتِ، والغِلُّ الحِقْدُ.

قال ابن عباس: (أَوَّلُ مَا يَدْخُلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ الْجَنَّةَ تُعْرَضُ لَهُمْ عَيْنَانِ، يَشْرَبُونَ مِنْ إِحْدَى الْعَيْنَيْنِ، فَيُذْهِبُ اللهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ مِنْ غِلٍّ، ثُمَّ يَدْخُلُونَ

---

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٣١٤، رقم ٣٦٣٥).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١٣/ ٣٣٣، رقم ٣٥٨٠٨).

الْعَيْنَ الأخْرَى فَيَغْتَسِلُونَ فِيهَا فَتُشْرِقُ أَلْوَانُهُمْ، وَتَصْفُو وُجُوهُهُمْ، وَيَجْرِي عَلَيْهِ نَضْرَةُ النَّعِيمِ).

وقال علي رضي الله عنه: (نزلت هذه الآية فِينَا أهلَ بَدْرٍ، وإني لأرْجُو أَنْ أكونَ أَنَا وعثمانُ وطلحةُ والزُّبيرُ من الذين قال فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ﴾ [الحجر: ٤٧]).

وروى البخاري في إفراده من حديث محمد بن الحَنَفِيَّةِ، قال: (قُلْتُ لأبِي: أَيُّ النَّاسِ خَيْرٌ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: أَبُو بَكْرٍ، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: عُمَرُ، فَخَشِيتُ أَنْ أَقُولَ: ثُمَّ مَنْ؟ فَيَقُولُ: عُثْمَانُ، فَقُلْتُ: ثُمَّ أَنْتَ؟ فَقَالَ: مَا أَنَا إِلا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ).

ابنُ الحَنَفِيَّةِ يُعْرَفُ بِأُمِّهِ، وفي الصحابة جماعةٌ يُعْرَفُونَ بِأُمَّهَاتِهِمْ:

بلالُ بنُ حَمَامَةَ، واسمُ أبيه مالكٌ.

خُفَافُ بنُ نُدْبَةَ، واسمُ أبيه عُمَيْرٌ.

بَشِيرُ بْنُ الخَصَاصِيَةِ، واسمُ أبيه مَعْبَدٌ.

مُعَاذٌ وَمُعَوِّذٌ، ابْنَا عَفْرَاءَ، واسمُ أبيهما الحَارِثُ.

مالكُ بنُ نُمَيْلَةَ، واسمُ أبيه شُرَحْبِيلُ.

ابنُ حَسَنَةَ، واسمُ أبيه عبدُ اللهِ.

ابنُ بُحَيْنَةَ، واسم أبيه مالكٌ.

شعيبُ بنُ حَبِيبَةَ، واسمُ أبيه يَحْيَى.

يَعْلَى بنُ سَيَّابَةَ، واسم أبيه مُرَّةَ.

فكلُّ هؤلاء صحابةٌ، وَمِنْ بَعْدِهِمْ إسماعيلُ بنُ عُلَيَّةَ، واسمُ أبيه إبراهيمُ.

منصورُ بنُ صَفِيَّةَ، واسمُ أبيه عبدُ الرَّحْمَنِ.

محمدُ بنُ عَائِشَةَ، واسمُ أبيه حَفْصٌ.

إبراهيمُ بنُ هَرَاسَةَ، واسمُ أبيه سَلَمَةُ.

محمدُ بن عَثْمَةَ، واسمُ أبيه خَالِدٌ.

كانت أُخُوَّةُ الإسلامِ مُنْعَقِدَةً بينَ الصَّحَابَةِ، وهي الأُخُوَّةُ العَامَّةُ، ثم آخَا النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم بينهم الأُخُوَّةَ الخَاصَّةَ، آخَا بينَ أبي طَلْحَةَ وبينَ ابْنِ

البُكَيْرِ، آخَا بينَ الحَارِثِ والحارثِ بْنِ خَرْمَةَ، وبينَ الأرْقَمِ وَأَبِي طَلْحَةَ، آخَا بينَ بِشْرِ بْنِ البَرَاءِ وَوَاقِدِ بْنِ عبدِ اللهِ، وبينُ بِلالٍ وعُبَيْدَةَ بْنِ الْحَارِثِ، آخَا بينَ تَمِيمِ مَوْلَى خِرَاشٍ وَخَبَّابٍ مَوْلَى عُتْبَةَ، آخَا بينَ ثَابِتِ بْنِ قَيْسٍ وَعَامِرِ بنِ البُكَيْرِ، وبينَ ثَعْلَبَةَ بنِ حَاطِبٍ وَمُعَتِّبِ بْنِ الحَمْرَاءِ، آخَا بينَ جَعْفَرٍ وَمُعَاذٍ، وبينَ جَبْرِ بْنِ عتيكٍ، وبينَ خَبَّابِ بنِ الأرْتِ، آخَا بينَ حَاطِبٍ وُعُوَيْمٍ، وبينَ حَارِثَةَ بْنِ سُرَاقَةَ وَالسَّائِبِ بْنِ عُثْمَانَ، وبينَ الحُصَيْنِ بْنِ الحَارِثِ وَرَافِعِ بْنِ عُنْجُدَةَ، آخَا بينَ خَالِدِ بْنِ البُكَيْرِ وَزَيْدِ بْنِ الدَّثِنَةِ، آخَا بَيْنَ خَالِدِ بْنِ حُذَافَةَ وَأَبِي عَبْسٍ، آخَا بينَ ذَكْوَانَ بْنِ عبدِ الْقَيْسِ وَمُصْعَبِ بْنِ عُمَيْرٍ، آخَا بينَ ذِي الشِّمَالَيْنِ ويزيدَ بنِ الحَارِثِ، آخَا بينَ رَافِعِ بنِ مَالِكٍ وسعيدِ بنِ زيدٍ، آخَا بينَ الزُّبَيْرِ وابنِ مَسْعُودٍ، وبينَ زيدِ بنِ حَارِثَةَ وحمزةَ، وبينَ زيدِ بنِ الخَطَّابِ وَمعنِ بنِ عدي، آخَا بينَ سعدِ بْنِ أبي وَقَّاصٍ وَمُصْعَبِ بنِ عُمَيْرٍ، وبين سالمٍ مولى أبي حُذَيْفَةَ وَمُعَاذِ بنِ مَاعِصٍ، وبينَ سعدِ بنِ الرَّبِيعِ وابنِ عَوْفٍ، وبين سعدِ بن خَيْثَمَةَ وأبي سَلَمَةَ، وبين سَلْمَانَ وأبي الدَّرْدَاءِ، وبين سَلَمَةَ بن سلامة وبينَ سَبْرَةَ، وبين سُوَيْبِطٍ وَعَائِذِ بْنِ مَاعِصٍ.

آخا بين شُجَاعِ بنِ وهبٍ، وأوسِ بنِ خولِي، وبين شماسِ بنِ عثمانَ، وحنظلة بنِ الرَّاهِبِ، آخَا بين صُهَيْبٍ والحارثِ، وبين ابنِ الصِّمَّةِ وابنِ صفوانَ ابنِ بيضاءَ ورافعِ بن المُعَلَّى، آخَا بين طلحةَ وسعيدِ بن زَيْدٍ، وبين الطُّفَيْلِ بنِ الحارثِ والمنذرِ بنِ محمدٍ، وبين طُليب بن عمير والمنذرِ بنِ عمرٍو، آخَا بين عُمَرَ وأبي بَكْرٍ، وبين عثمانَ وبين عَوْفٍ، وَعَلِيٍّ وَنَفْسِهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والعباسِ ونوفلِ بنِ الحارثِ، وبين أبي عُبَيْدَةَ وسالمِ مولى أبي حُذَيْفَةَ، وبين ابن مسعودٍ وَمُعَاذِ بنِ عبدِ اللهِ، وبين عبد الله بن مَظْعُونٍ وَسَهْلِ بن عُبَيْدٍ، وبين عبد الله بن جَحْشٍ وعاصم بن ثابتٍ، وبين عميرِ ابن أبي وقاص وعمرو بن معاذ، وبين عمار وحذيفة، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم، وبين عتبة بن غَزْوَانَ وأبي دُجَانَةَ، وبين عُكَّاشَةَ والمُحَذَّرِ، وبين عاقل وبين عامر بن فهيرة، والحارثِ بنِ أوسٍ وبين عثمانَ بنِ سُرَاقَةَ.

وعدد الذين آخا بينهم يَطُولُ إلا أن من مشاهيرِ القومِ، بين أبي بكرٍ وعمر

وعثمان وابن عوف، وبين سعيد بن زيد ومصعب وأبي أيوب، وبين أبي مسعود وأبي عبيدة وسالم مولى أبي حذيفة، وبين بلال وحذيفة بن الحارث، وبين عمار وحذيفة، وبين المقداد وخباب بن الأرت، وبين أبي طلحة، وبين سلمان وأبي الدرداء، وبين أبي ذَرٍّ والمنذر بن عمرو، وبين الأرقم وأبي طلحة، وبين صهيب والحارث بن الصِّمَّةِ، وبين العباس ونوفل بن الحارث، وبين عثمان بن مظعون وأبي الهيثم، وبين عبادة بن الصامت وكنار.

وروى معاذٌ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " الْمُتَحَابُّونَ فِي اللهِ عَلَى مَنَابِرَ مِنْ نُورٍ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ يَوْمَ لا ظِلَّ إلا ظِلُّهُ "(١).

معاذٌ لم يَفُتْهُ مَشْهَدٌ، وجملة ما روى مِائَةٌ وسبعةٌ وخمسينَ حديثًا، أُخْرِجَ له منها في "الصحيحين" سِتَّةٌ، المُتَّفَقُ عليه منها حديثان، وانفرد البخاريُّ بثلاثةٍ، ومسلمٌ بحديثٍ واحدٍ.

كان الأخُ من السَّلَفِ يَخْلُفُ أَخَاهُ بعدَ مَوْتِهِ في عِيَالِهِ أربعينَ سَنَةً.

ادَّانَ مَسْرُوقٌ دَيْنًا ثَقِيلا، فَكَانَ على خَيْثَمَةَ دَيْنٌ، فَذَهَبَ مَسْرُوقٌ فَقَضَى دَيْنَ خَيْثَمَةَ وَهُوَ لا يَعْلَمُ، وَذَهَبَ خَيْثَمَةُ فَقَضَى دَيْنَ مَسْرُوقٍ وَهُوَ لا يَعْلَمُ.

كان إبراهيمُ بنُ أَدْهَمَ في سَفَرٍ، وكان معه ثَلاثُ نَفَرٍ فَدَخَلُوا مَسْجِدًا في مَفَازَةٍ، وَالبردُ شديدٌ، وليس للمسجدِ بَابٌ، فقامَ إبراهيمُ، فوقفَ على الباب إلى الصَّبَاحِ، فقيل له: لِمَ لَمْ تَنَمْ؟ فقال: خَشِيتُ أَنْ يُصِيبَكُمُ الْبَرْدُ، فَقُمْتُ مَقَامَ الْبَابِ.

كان القوم إخوانًا، فصاروا اليوم خُوَّانًا، الناسُ مَعَارِفُ لا خِلان، فَاتَّقِ دُنْيَاهُمْ وإلا هَجَرُوا العِرْفَانَ، لا تَطْلُبْ ذَهَبَ الإخْوَانِ ذَهَبَ الإخْوَانُ.

---

(١) ذكره الحكيم (٢/ ٣٨)، وأخرجه ابن أبى الدنيا فى الإخوان (ص ٥٢، رقم ١٠) وفى المتحابين فى الله (ص ٣٨، رقم ٢٧)، وابن عساكر (٥١/ ١٠٧). وأخرجه أيضًا: ابن عدى (٢/ ٢٧٢، ترجمة ٤٣٦ حميد بن على الأعرج الكوفى).

الفصل الحادي والثلاثون

في قوله عَزَّ وَجلَّ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣]

قال ابن عباس: (سَعَادَتُهُ وَشَقَاوَتُهُ).

وقال مجاهدٌ: ما مِنْ مولودٍ يُولدُ إلا وفي عُنُقِهِ ورقةٌ مكتوبٌ فيها شقيٌّ أو سعيدٌ.

قال الزُّهْرِيُّ: الأصلُ في هذا أنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ كتبَ ما عَلِمَ مِنَ الخَلْقِ أجمعينَ، فَصَارَ لكلٍّ منهم ما هو صَائِرٌ إليه عندَ خَلْقِهِ وَإِنْشَائِهِ.

[الخفيف]

لَيْتَ شِعْرِي وَلَيْتَنِي كُنْتُ أَدْرِي أَشَقِيٌّ خَلَقْتَنِي أَمْ سَعِيدُ

وقال الزَّجَّاجُ: العُنُقُ عبارةٌ عنِ اللُّزُومِ، كَلُزُومِ القِلادَةِ لِلْعُنُقِ.

وقال عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: « إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَسْتَخْلِصُ رَجُلا مِنْ أُمَّتِي عَلَى رُؤوسِ الْخَلائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَنْشُرُ عَلَيْهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ سِجِلا، كُلُّ سِجِلٍّ مَدُّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هَذَا شَيْئًا؟ أَظَلَمَكَ كَتَبَتِي الْحَافِظُونَ؟

فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: أَلَكَ عُذْرٌ أَوْ حَسَنَةٌ؟ فَيُبْهَتُ الرَّجُلُ فَيَقُولُ: لا يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: بَلَى؛ إِنَّ لَكَ عِنْدَنَا حَسَنَةً وَاحِدَةً، لا ظُلْمَ عَلَيْكَ الْيَوْمَ، فَتُخْرَجُ لَهُ بِطَاقَةٌ فِيهَا:

أَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ؛ مَا هَذِهِ الْبِطَاقَةُ مَعَ هَذِهِ السِّجِلاتِ؟!

فَيُقَالُ: إِنَّكَ لا تُظْلَمُ، فَتُوضَعُ السِّجِلاتُ في كَفَّةٍ، وَالْبِطَاقَةُ في

كَفَّةٍ، فَطَاشَتِ السِّجِلاتُ، وَثَقُلَتِ الْبِطَاقَةُ "[1].

قال الحسن: " بَيْنَا عَائِشَةُ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَكَتْ، فَقَالَ: مَا يُبْكِيكِ؟ فَقَالَتْ: هَلْ تَذْكُرُونَ أَهْلِيكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: أَمَّا في ثَلاثِ مَوَاطِنَ، فَلا يَذْكُرُ أَحَدٌ أَحَدًا: عِنْدَ الْمِيزَانِ حِينَ تُوضَعُ، حَتَّى يَعْلَمَ أَتَثْقُلُ مَوَازِينُهُ أَمْ تَخِفُّ، وَعِنْدَ الْحِسَابِ حِينَ يَقُولُ: هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ حَتَّى يَعْلَمَ أَيْنَ يَقَعُ؛ أَفِي يَمِينِهِ، أَوْ في شِمَالِهِ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ ظَهْرِهِ، وَعِنْدَ الصِّرَاطِ حِينَ يُوضَعُ بَيْنَ ظَهْرَيْ جَهَنَّمَ، حَتَّى يَعْلَمَ أَيَنْجُو أَمْ لَمْ يَنْجُ "[2].

قال الحسنُ: ويقرأُ الإنسانُ كِتَابَهُ، إنْ كان أُمِّيًّا أَوْ غَيْرَ أُمِّيٍّ.

يا مَنْ بين يديه الموتُ والحسابُ وَالتَّوبيخُ الشَّديدُ والعِتَابُ، وعليه بأعماله وأقواله كتاب، وكم أَخْطَأَ ولا نَدِمَ ولا تَاب، أَحَاضِرٌ قَلْبُكَ أَمْ قد غَاب.

[الطويل]

أَيَقْظَانٌ أَنْتَ الْيَوْمَ أَمْ أَنْتَ نَائِمٌ ... وَكَيْفَ يُطِيقُ النَّوْمَ حَيْرَانُ هَائِمُ
فَلَوْ كُنْتَ يَقْظَانَ الْفُؤَادِ لَحَرَّقَتْ ... مَدَامِعَ عَيْنَيْكَ الدُّمُوعُ السَّوَاجِمُ
بَلْ أَصْبَحْتَ بِالْيَوْمِ الطَّوِيلِ وَقَدْ ... دَنَتْ إِلَيْكَ أُمُورٌ مُفْظِعاتٌ عَظَائِمُ
يَغُرُّكَ مَا يَفْنَى وَتُشْغَلُ بِالْمُنَى ... كَمَا غُرَّ بِاللَّذَّاتِ في النَّوْمِ حَالِمُ
نَهَارُكَ يَا مَغْرُورُ سَهْوٌ وَغَفْلَةٌ ... وَلَيْلُكَ نَوْمٌ وَالرَّدَى لَكَ لازِمُ
وَتُشْغَلُ فِيمَا سَوْفَ تَكْرَهُ غِبَّهُ ... كَذَلِكَ في الدُّنْيَا تَعِيشُ الْبَهَائِمُ

تَاللهِ لو نَدِمْتَ وأخلصتَ تَخَلَّصْتَ، ولو سمعتَ النُّصْحَ وَقَبِلْتَ وَأَقْبَلْتَ قُبِلْتَ، وَلَوْ عَرَفْتَ رُفِعْتَ.

كان دُرَيْدُ بْنُ الصِّمَّةِ يُحَاسِبُ نَفْسَهُ، فَحَسَبَ عُمْرَهُ، فإذا هو اثنين وستين

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٢١٣، رقم ٦٩٩٤)، والترمذى (٥/ ٢٤، رقم ٢٦٣٩)، والحاكم (١/ ٤٦، رقم ٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٢٦٤، رقم ٢٨٣).

(٢) أخرجه أبو داود (٤/ ٢٤٠، رقم ٤٧٥٥)، والحاكم (٤/ ٦٢٢، رقم ٨٧٢٢). وأخرجه أيضًا: البيهقى فى الاعتقاد (١/ ٢١٠).

سنةً، فَحَسَبَ أَيَّامَهَا، فإذا هي أَحَدٌ وَعِشْرُونَ أَلْفَ يَوْمًا، فَصَرَخَ، وَقَالَ: وَاوَيْلَتَاه، أَلْقَى المَلِك بإحدى وعشرين ألف ذنب، فكيف ولي في كل يوم عشرة ألف ذنبٍ، ثم صَرَخَ فَخَرَّ مَيِّتًا، فَسَمِعَ قَائِلا يقول: يَا لَهَا رَكْضَةً إلى الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى.

يا غافلا عَمَّا بين يديه، يا من زمانه قد مَرَّ كُلُّهُ عليه، تَفَكَّرْ في صحيفةٍ قد اسْوَدَّتْ، وفي نفسٍ كُلَّما نُصِحَتْ صَدَّتْ، وفي أَكُفِّ المَنِيَّةِ فإنها قد امتدت، وفي ذنوبٍ لا تُحْصَى لو أنها عُدَّتْ.

كم فَارَقَتْ حلاوةُ الهوى فَمًا فَمَا تُحِس، وكم نال باكٍ بتمزيقِ القُوَى كَفَّ الهَوَى.

[المنسرح]

كَـمْ شَـهَـوَات سَـلَـبْـنَ صَـاحِـبَـهَـا ... ثَـوْبَ الـدِّيَـانَـاتِ وَالْـمُـرُوءَاتِ

وَكَـمْ جَـهُـولٍ تَـرَاهُ مُـشْـتَـرِيًـا ... سُـرُورَ وَقْـتٍ بِـغَـمٍّ أَوْقَـاتِ

كَـمْ شَـهْـوَةٍ مُـسْـتَـقِـرَّةٍ فَـرَحًـا ... قَـدِ انْـجَـلَـتْ عَـنْ غُـمُـومِ آفَـاتِ

يا مُؤْثِرَ الْفَانِي على البَاقِي، ما الذي أصابك حتى رضيتَ سَبَّكَ واخترتَ مَعَابَكَ، مَنْ لك إذا سُئِلْتَ فَعَدِمْتَ جَوَابَكَ، فقيل لك: اقرأ كِتَابَكَ، كَأَنَّكَ بالمرض وقد نَغَصَ شَبَابَكَ، والألم وقد أَوْجَبَ اكْتِئَابَكَ، فَاتْرُكْ عِتَابَكَ فقد عَابَكَ، وَمَزِّقْ كُلَّما ذَكَرْتَ من ذهابِ إِهَابَكَ، اقرأ كتابك، بَاعَكَ الموتُ قَبْرًا ثم اشترى قِبَابَكَ، وَنَقَضَ قَصْرَكَ وَعَمَّرَ قِرَابَكَ، وَأَعْطَاكَ الوحدةَ وأخذَ أَتْرَابَكَ، ورحلتَ عن القوم فَسَدُّوا بَابَكَ، وَتَفَرَّقُوا بالمالِ وما أَصَابَكَ إلا ما تَرَكْتَ مِنْ نِصَابِكَ، اقْرَأْ كَتَابَكَ.

نازلك مُنْكَرٌ بالمنكرِ، وجاءكَ نَكِيرٌ فَقَرَعْتَ لتقريعه بَابَك، يا دائمَ الخُطَى في الخَطَايَا ارتقب عِقَابَكَ، يا طائر اللهو انتظر عقابك، فَوَاأَسَفَا لَكَ كم ضَيَّعْتَ شَبَابَكَ، اقْرَأْ كِتَابَكَ.

تقومُ في الحَشْرِ ذليلا، وتبكي على الذنوب طويلا، ولا تجد للخَلاصِ سبيلا، ويقول المُناقشُ إذا حضرتَ: أَحْضِرْ حِسَابَكَ، سَتُسَاقُ غَدًا في الفُسَّاقِ، وسَتُسْقَى بعدَ الخمرِ الغَسَّاق، تَنَبَّهْ؛ فَالْحَادِي بالعمرِ قد سَاق، وَشَمِّرْ إِنْ كنتَ تائبًا عن سَاقِ ثيابك، يا مُعْرِضًا عن صَلاحِهِ، يا مُلْتَفِتًا عن نُصَّاحِهِ، يا عاصيًا في مَسَائِهِ وَصَبَاحِهِ، يا غافلا، يا جاهلا، يا عاصيًا، يا مُذْنِبًا، اسْمَعْ أَلْقَابَكَ، اقْرَأْ كِتَابَكَ.

الفصل الثاني والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء:٢٣]

القضاءُ في القرآن على وجوهٍ، وَكُلُّهَا ترجع إلى معنى انقطاعِ الشيءِ وَتَمَامِهِ، وهي في القرآنِ على عشرة أوجهٍ[1]:

أحدها: الفَرَاغُ؛ ومنها في (البقرة): ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَٰسِكَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

الثاني: التَّمَامُ؛ ومنه في (الأنعام): ﴿قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام: ٢].

الثالث: الفَصْلُ؛ ومنه في (يونس): ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [يونس: ٥٤].

الرابع: وُجُوبُ الْعَذَابِ؛ ومنه (هود): ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤].

---

(١) قال ابن قتيبة: أَصْلُ القَضَاءِ: الخَتْمُ. وقال الزَّجَّاجُ: القَضَاءُ في اللُّغَةِ على ضُرُوبٍ كُلُّهَا تَرْجِعُ إلى مَعْنَى انْقِطَاعِ الشَّيءِ وتَمَامِهِ؛ فمنه الخَتْمُ كقوله: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [الأنعام آية:٢]؛ أي: جِئْتُم ذلكَ وأَتَمَّهُ.

ومنه الأمر وهو قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء آية:٢٣]؛ أي: أَمَرَ أَمْرًا قَاطِعًا وحَتْمًا. ومنه الإِعْلامُ ومنه قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الإسراء آية:٤]؛ أَعْلَمْنَاهُم إعْلامًا قَاطِعًا.

ومنه الفَصْلُ في الحُكْمِ؛ وَمِنْهُ قوله تعالى: ﴿لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ﴾[يونس آية:١٩]؛ وَمِنْهُ قولهم: قَضَى القَاضِي بينَ الخُصُومِ؛ أي: قَطَعَ بَيْنَهُم في الحُكْمِ.

الخامس: الحَتْمُ؛ ومنه قوله تعالى في (يوسف): ﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: ٤١].

السادس: الأمْرُ؛ ومنه في (بني إسرائيل): ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣].

السابع: الخَبَرُ؛ ومنه: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الإسراء: ٤].

الثامن: الفِعْلُ؛ ومنه في (طه): ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢].

التاسع: الخَلْقُ؛ ومنه في (حم السجدة): ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ [فصلت: ١٢].

العاشر: المَوْتُ؛ ومنه في (الزخرف): ﴿لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ أي: وَأَمَرَنَا بالوالدين إحسانًا، وهو البرُّ والإكرامُ وخفضُ الجَنَاحِ.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: ٢٣]، قرأ أبو عمرو بالكسر من غير تنوين، وقرأ ابن كثير بالفتح من غير تنوين، وقرأ نافع: (أُفٍ) بالكسر والتنوين، وقرأ ابن يعمر: (أُفٌّ) بالرفع والتنوين وتشديد الفاء، وقرأ أبو عمران الجوني: (أُفُّ) من غير تنوين مع تشديد الفاء.

وقرأ الجحدري: (أُفًّا) مثل (تَعْسًا)، وقرأ عكرمة: (أُفْ) بإسكان الفاء وتخفيفها، وقرأ أبو العالية: (أُفِّي) بتشديد الفاء وبياءٍ.

قال ابنُ الأنباريِّ: وقُرِئَتْ: (إِف) بكسر الهمزة.

ومعنى الكلام: لا تَقُلْ لهما كلام تتبرم فيه منهما إذا كبرا وَأَسَنَّا، وينبغي أن تتولى من خدمتهما مثل ما تَوَلَّيَا من خدمتك، على أَنَّ الفضلَ للمُتَقَدِّمِ، وكيف يقع التساوي وقد كانا يحملان أَذَاكَ راجيين حَيَاتَكَ، وأنتَ إِنْ حملتَ أَذَاهُمَا رجوتَ مَوْتَهُمَا.

روى عبد الله بن عمر، قال: " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَأْذِنُهُ في الْجِهَادِ، فَقَالَ: أَحَيٌّ وَالِدَيْكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَفِيهِمَا

فَجَاهِدْ "[١]، أخرجاه في "الصحيحين" من حديث عبد الله بن عمرو، وكان أكثر الصحابة روايةً، غير أن جملة ما ضُبط عنه سبع مائة حديث، أُخْرِجَ له منها في " الصحيحين " خمسة وأربعون، المتفق عليه منها سبعة عشر حديثًا، انفرد البخاريُّ بثمانية، ومسلمٌ بعشرين.

وفي إفراد مسلم عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لا يَجْزِي وَلَدٌ عَنْ والِدِهِ إلا أَنْ يَجِدَهُ مَمْلُوكًا، فَيَشْتَرِيهِ، فَيَعْتِقُهُ "[٢].

وفي " الصحيحين " من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه ذكر في الكبائر عقوقَ الوالدين، قالت عائشةُ رضي الله عنها: (مَا بَرَّ وَالِدَهُ مَنْ شَدَّدَ النَّظَرَ إِلَيْهِ).

واعلم أن الأمَّ مُقَدَّمَةٌ في البِرِّ؛ لموضع الشفقة، وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة قال: " جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَيُّ النَّاسِ أَحَقُّ مِنِّي بِحُسْنِ الصُّحْبَةِ؟ قَالَ: أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أُمُّكَ، قَالَ: ثُمَّ مَنْ؟ قَالَ: ثُمَّ أَبُوكَ "[٣].

وقال ابنُ عباسٍ: (لَمْ أَعْلَمُ عَمَلا أَقْرَبَ إِلَى اللهِ مِنْ بِرِّ الْوَالِدَيْنِ).

قالت عائشةُ رضي الله عنها: (رَجُلانِ من أصحابِ رسولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَا أَبَرَّ مَنْ كَانَ في هَذِهِ الأُمَّةِ بِأُمِّهِمَا عُثمانُ بنُ عَفَّانَ، وَحَارِثَةُ بنُ النُّعْمَانِ، فَأَمَّا عثمانُ فَإِنَّهُ قَالَ: ما قَدرتُ أَنْ أَتَأَمَّلَ أُمِّي مُنْذُ أسلمتُ، وَأَمَّا حارثةُ فإنه كَانَ يُطْعِمُهَا بيده، ولا يَسْتَفْهِمُهَا كَلامًا قَطُّ حَتَّى يَسْأَلَ مَنْ عِنْدَهَا بعدَ أَنْ يخرجَ مَاذَا قَالَتْ أُمِّي).

قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٥، رقم ٢٥٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (٢/ ١١٤٨، رقم ١٥١٠)، وأبو داود (٤/ ٣٣٥، رقم ٥١٣٧)، والترمذي (٤/ ٣١٥، رقم ١٩٠٦) وقال: حسن. وابن ماجه (٢/ ١٢٠٧، رقم ٣٦٥٩)، وابن حبان (٢/ ١٦٧، رقم ٤٢٤). وأخرجه أيضًا: أحمد (٢/ ٢٣٠، رقم ٧١٤٣)، وابن أبي شيبة (٥/ ٢١٨، رقم ٢٥٣٩٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ١٩٧٤، رقم ٢٥٤٨).

"نِمْتُ فَرَأَيْتُنِي في الْجَنَّةِ، فَسَمِعْتُ صَوْتَ قَارِئٍ يَقْرَأُ، فَقُلْتُ مَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: هَذَا حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَذَلِكَ الْبِرُّ، كَذَلِكَ الْبِرُّ"(١)، وكان أَبَرَّ الناسِ بِأُمِّهِ، أما أمُّ عثمان فاسمُها أَرْوَى بنت كُرَيْزٍ، أسلمت وبايعت، وجملة من في الصحابة اسمها أروى خمسة:

أروى بنت ربيعة، أروى بنت عبد المطلب، أروى بنت كريز، أروى بنت مالك، ويقال: أم أروى.

ثلاث منهن بايعن: بنت عبد المطلب، وبنت كريز، وبنت مالك، وواحدة من الخمس روت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وهي التي تُنْسَبُ.

وأما أم حارثة، فاسمها جعدة بنت عُبَيْدٍ، أسلمت وبايعت، وليس في الصحابيات، ولا في التابعيات من يشاركها في اسمها غير أنها لم ترو شيئًا.

وكان ابن سيرين إذا دخل إلى أمه يكلمها بضعفٍ، فرآه رجلٌ يومًا، فقال: ما له، أيشتكي شيئًا؟ قالوا: لا؛ ولكنه هكذا يكون عند أمه.

ونادت يومًا ابنَ عَوْفٍ أُمُّهُ، فأجابها، فارتفعَ صَوْتُهُ على صَوْتِهَا، فَأَعْتَقَ رقبتين.

وكان ظبيانُ بنُ علي من أَبَرِّ الناسِ بأُمِّهِ، فباتت وفي صدرها عليه شيئًا، فقام على قدميه يكره أن يوقظها، وكره أن يقعد حتى إذا ضعف جاء غلامان من غلمانه، فما زال معتمدًا عليهما حتى استيقظت من قِبَلِ نفسها.

وقال سفيان بن عيينة: قدم رجلٌ من سفرٍ، فصادفَ أُمَّهُ قائمةً تُصَلِّي، فَكَرِهَ أن يَقْعُدَ وهي قائمة، فَعَلِمَتْ ما أَرَادَ، فَطَوَّلَتْ لِيُؤْجَرَ.

وقال بشرٌ: الولد يقرُب من والده حتى يسمع نفسه، أفضلُ من الذي يضرب بسيفه في سبيل الله، والنظر إليهما أفضلُ من كل شيءٍ.

قال عثمان بن سودة - وكانت أمه من العابدات، يقال لها: راهبة -: لَمَّا احتضرت أمي، رفعتْ رأسَهَا إلى السماء، وقالت: يا ذُخْرِي وَذَخِيرَتِي؛ لا

---

(١) أخرجه أحمد (٦/١٦٦، رقم ٢٥٣٧٦)، وابن حبان (١٥/٤٧٩، رقم ٧٠١٥)، والحاكم (٤/١٦٧، رقم ٧٢٤٧) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

تَخْذِلْنِي عندَ الموتِ، ولا تُوحِشْنِي في قَبْرِي، قَالَ: فماتت، وكنتُ آتِي قبرَها كُلَّ جُمعةٍ، وأستغفرُ لها، فَرَأَيْتُهَا ليلةً في منامي، فقلتُ: يا أُمَّاهُ، كيف أنتِ؟ قالت: يا بُنَيَّ؛ إنَّ للموتِ كَرْبٌ شديدٌ، وإنِّي بحمدِ اللهِ تَعَالَى لفي بَرْزَخٍ محمودٍ، يُفرشُ فيه الرَّيْحَانُ، ويُوَسَّدُ فيه السُّنْدُسُ وَالإِسْتَبْرَقُ، فقلتُ: أَلَكِ حاجةٌ؟ قالت: نَعَمْ؛ لا تَدَعْ زِيَارَتَنَا والدُّعاءَ لنا، فإنِّي لأبَشَّرُ بمجيئك يومَ الجمعةِ إذا أقبلتَ مِنْ أهلك، يُقَالُ لي: يا راهبة؛ هذا ابنك، قد أقبلَ، فَأُسَرُّ، وَيُسَرُّ بذلك مَنْ حَوْلِي مِنَ الأَمْوَاتِ.

ومن حديث ابن أرقم، قال: سمعتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يقول: " مَنْ أَصْبَحَ وَالِدَاهُ رَاضِيَيْنِ عَنْهُ، أَصْبَحَ وَلَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ مِنَ الْجَنَّةِ، وَمَنْ أَصْبَحَا سَاخِطَيْنِ عَلَيْهِ، أَصْبَحَ وَلَهُ بَابَانِ مَفْتُوحَانِ مِنَ النَّارِ، وَإِنْ كَانَ وَاحِدٌ فَوَاحِدٌ "، فَقِيلَ: وَإِنْ ظَلَمَاهُ، فَقَالَ: " وَإِنْ ظَلَمَاهُ، وَإِنْ ظَلَمَاهُ "(١).

ومن حديث عبد الله بن عمرو، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ عَاقٌّ، وَلا مُدْمِنُ خَمْرٍ"(٢).

ومن حديث أبي كاهلٍ، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "مَنْ بَرَّ وَالِدَيْهِ حَيَّيْنِ وَمَيِّتَيْنِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، أَنْ يُرْضِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قُلْنَا: فَكَيْفَ يَبَرُّ وَالِدَيْهِ مَيِّتَيْنِ؟ قَالَ: بِرُّهُمَا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لِوَالِدَيْهِ، ولا يَسُبَّ وَالِدَيْ أَحَدٍ، فَيُسَبُّ وَالِدَاهُ"(٣).

وفي إفرادِ مُسلم من حديث أبي هريرة، أَنَّ رَجُلا قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ أَبِي مَاتَ وَلَمْ يُوصِ، أَيَنْفَعُهُ أَنْ أَتَصَدَّقَ عَنْهُ؟ قَالَ: نَعَمْ "(٤).

---

(١) أخرجه الديلمى (٣/ ٦٢١، رقم ٥٩٤٢). وأخرجه أيضًا: البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٢٠٦، رقم ٧٩١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ٤٤١، رقم ٢٧٥٢٤)، والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (٧/ ٢٠٣) قال الهيثمى: فيه سليمان بن عتبة الدمشقى وثقه أبو حاتم وغيره وضعفه ابن معين وغيره. وأخرجه أيضًا: ابن أبى عاصم (١/ ١٤١، رقم ٣٢١).

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٨/ ٣٦١، رقم ٩٢٨).

(٤) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٤٣٤، رقم٢٥٦٠).

ومن حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الْعَبْدَ لَتُرْفَعُ لَهُ الدَّرَجَةُ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ؛ أَنَّى لِي هَذِهِ؟ فَيَقُولُ: بِاسْتِغْفَارِ وَلَدِكَ مِنْ بَعْدِكَ [(١)] ".

وَمَرَّ عيسى ابنُ مريم عليه السلام بقبرٍ يُعَذَّبُ صاحبُه فيه، فجاءه عيسى ابن مريم قابلا، فإذا هو ليس يُعَذَّبُ، فقال عيسى: اللَّهُمَّ مررتُ عامَ أولَ بهذا القبرِ فإذا هو يُعَذَّبُ، ومررتُ الآنَ فإذا هو لَيْسَ يُعَذَّبُ، فأوحى اللهُ تعالى إليه أَنَّهُ أَدْرَكَ له ولدٌ صالحٌ طريقًا، وآوى يتيمًا، فَغَفَرْتُ لَهُ بما عَمِلَ ابْنُهُ مِنْ بَعْدِهِ.

وفي حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه يقولُ: (مَنْ زَارَ قبرَ وَالِدَيْهِ أو أَحَدِهِمَا يَوْمَ جُمُعَةٍ، فَقَرأَ يس غُفِرَ لَهُ).

[الكامل]

زُرْ وَالِدَيْكَ وَقِفْ عَلَى قَبْرَيْهِمَا ... فَكَأَنَّنِي بِكَ قَدْ نُقِلْتَ إِلَيْهِمَا
لَوْ كُنْتَ حَيْثُ هُمَا وَكَانَا بِالْبَقَا ... زَارَاكَ حَبْوًا لا عَلَى قَدَمَيْهِمَا
مَا كَانَ ذَنْبُهُمَا إِلَيْكَ فَطَالَ مَا ... مَنَحَاكَ مَحْضَ الْوُدِّ مِنْ نَفْسَيْهِمَا
كَانَا إِذَا مَا أَبْصَرَا بِكَ عِلَّةً ... جزِعَا لِمَا تَشْكُو وَشَقَّ عَلَيْهِمَا
كَانَا إِذَا سَمِعَا أَنِينَكَ أَسْبَلا ... دَمْعَيْهِمَا أَسَفًا عَلَى خَدَّيْهِمَا
فَلَتَلْحَقَنَّهُمَا غَدًا أَوْ بَعْدَهُ ... حَتْمًا كَمَا لَحِقَا هُمَا أَبَوَيْهِمَا
وَلَتُقْدِمَنَّ عَلَى فِعَالِكَ مِثْلَ مَا ... قَدِمَا هُمَا أَيْضًا عَلَى فِعْلَيْهِمَا
بُشْرَاكَ لَوْ قَدَّمْتَ فِعْلا صَالِحًا ... وَقَضَيْتَ بَعْضَ الْحَقِّ مِنْ حَقَّيْهِمَا
وَقَرَأْتَ مِنْ آيِ الْكِتَابِ بِقَدْرِ مَا ... تَسْطِيعُهُ وَهَدَيْتَ ذَاكَ إِلَيْهِمَا
فَاحْفَظْ حَفِظْتَ وَصِيَّتِي وَاعْمَلْ بِهَا ... فَعَسَى تَنَالُ الْفَوْزَ مِنْ بِرَّيْهِمَا

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٣/ ٥٨، رقم ١٢٠٨١).

الفصل الثالث والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾ [الكهف:١٧]

إخواني؛ مَنْ سبقتْ له سابقةُ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١] لم يُؤْذِهِ ما اكتسب، ومن حَقَّتْ عليه كلمة " هَؤُلاءِ في النَّارِ وَلا أُبَالِي "[(١)] لم يَنْفَعْهُ القُرْبُ، إنه رَضِيَ عن أقوام فلم تضرهم السيئاتُ، وَسَخِطَ على أقوام فلم تنفعهم الحسناتُ، كَانَ رَقْمُ ﴿كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ [المجادلة: ٢٢] في أَعْلَى كهفِ قلوبِ أهلِ الكهفِ، فَلَمَّا نَصَبَ لهم مَلِكُهُمْ شَرَكَ الشِّرْكِ تَجَافَتْهُ بَصَائِرُهُمْ، فَفَرُّوا، فَضَاقَ عليهم فضاءُ ﴿تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [الأنفال: ٢٦]، فناداهم لسان ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦]: ﴿إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ﴾ [العنكبوت: ٥٦]، فخرجوا إلى فضاء الفضاء، فأقبل رئيسهم تمليخا يملي خائفًا عليهم سُورةَ ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ [الكهف: ١٦]، فَمَا رَاعَهُمْ في طريقهم إلا ضَارِعُ صادفهم فوافقهم، فتبعهم كَلْبُهُ، فأخذوا يَضْرِبُونَهُ، فَصَاحَ لسانُ حَالِهِ: إِنْ تَضْرِبُونِي لِمُبَايَنَتِي جِنْسَكُمْ، فَإِنَّ مَطْلُوبَكُمْ لَيْسَ مِنْ جِنْسِكُمْ، إِنْ لَمْ تَأْنَسُوا بِي فَقَدْ أَنِسْتُ بِكُمْ، وَلَيْسَ مِنْ شَرْطِ الْمُحِبِّ أَنْ يُحَبَّ، أَنَا في قَبْضَةِ أَسْرِكُمْ أَسِيرُ، أَسِيرُ إِذَا سِرْتُمْ، وَأَحْرِسُ إِذَا نِمْتُمْ، فَلَمَّا دَخَلُوا دَارَ ضِيَافَةِ الْعُزْلَةِ طَلَبُوا الْقِرَى، ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠]، وكان تمليخا يُمِرُّ حَبْلَ الحِيَلِ إذا مَرَّ يجلبُ لهم المِيرَةَ، إلى أَنْ

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٦/٤، رقم ١٧٦٩٦) قال الهيثمي (١٨٦/٧): رجاله ثقات. وابن سعد (٣٠/١)، والحكيم (٢٠٢/٤)، والحاكم (٨٥/١، رقم ٨٤) وقال: صحيح.

أَمَّهُمْ يَوْمًا، وأخبرهم أن الملكَ قد ذَكَرَهُمْ، فَنَاحَتْ حمائمُ الخوفِ على أفنانِ الحَذَرِ بفنونِ الفتنِ، فوقعوا بالغَمِّ كَالْمُغْمَى عليه، فَضُرِبَ على الآذانِ إِذْنٌ قَطَعَ رَاسِخَ أَوْتَادِ (فضربنا) فراسخ ثلاث مائة سنين، ثم إن الملكَ خَرَجَ يجمعُ جَمْعَهُ في طِلابِهِمْ، فإذا بهم، فَسَدَّ البابَ وما وَعَى على وِعَاءِ مِسْكٍ، فَمَا ضَاعَ حتى ضَاعَ الملكُ في بَيْدَاءِ الْهَلَكِ، وكانتِ الشمسُ تَحُولُ على حلَّتِهِمْ بحراسةِ خلتهم من بلاءِ البلى، وأعينهم مفتوحة في حالِ النومِ لئلا تذوب بأطباق الإطباق، ﴿وَتَحۡسَبُهُمۡ أَيۡقَاظٗا وَهُمۡ رُقُودٞۚ﴾ [الكهف: ١٨]، ويدُ الحراسة تقلب أجسادهم لِتُسَلِّمَهُمْ من آفةِ عفن، وَجَرَتِ الحَالُ في كَلْبِهِمْ عَلَى مَا جَرَتْ بِهِمْ، فَكَأَنَّهُ في شَرَكِ نَوْمِهِمْ قد وَقَعَ يصيد بالوصيد، وكان قد حل خلفهم من الخلف في البعث ما حل عقد العقائد، وكان بَعْثُهُمْ أَجْلَى دليلٍ، وَأَجَلَّ شَاهِدٍ، فانسابَ إلى سبسبهم راعٍ كان سبب إيقاظهم، فاغتنم فتحَ بابِ الكهفِ لاحترازِ الغَنَمِ، فزادَ نسيمُ نسيمِ الهوى، فاستيقظَ المُرَوِّحُ، فَلَمَّا تلاقوا عند القوم القدوم من النوم تصافحت أيدي الألسن بلفظ السلام، فَتَرَنَّمَ أحدهم بلفظ ﴿كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ﴾ [الكهف: ١٩]، فَأَجَابَهُ الآخرُ بلفظِ لِبَانِ الظنِّ: يومًا، ثم رأى بقيَّةَ الشمسِ نقيَّة، فاتقى بتقيه الورع ورطات الكذب، فعاد يُتْبِعُ: ﴿يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ [الكهف: ١٩]، فَلَمَّا انقضى ما انْقَضَّ عليهم من السِّنَةِ، وَكَرَّ جُوعُ البطنِ بِأَسِنَّةِ الشَّكْوَى، فأعرب اللسانُ عن المُضمَرِ (فَابْعَثُوا)، فخرجَ تمليخا في زِيٍّ متنكرٍ، فجعل يرى ما لا يعرف فيكر، فلمَّا ضلت معرفته بالمعاهدِ أقبل يتهم اليقظة في المعاهد، لكنه مَرَّ إلى بائع الطعام فَمَدَّ بَاعَه، فأنكرَ دِرْهَمَهُ وَمَا بَاعَه، فظَنَّه قد وَجَدَ كَنْزًا، ولقد وجد كَنْزَ: ﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ [الكهف: ١٣]، فَحَمَلَهُ القومُ إلى الوالي، فقال: واللهِ إنه لَمَالِي، فَمَا لَكُم وَمَا لِي، كُنَّا واللهِ فِتْيَة، أَكْرَهَنَا الملكُ على الفتنة، فهربنا منه عشية أمس، فَنِمْنَا في باطنِ كهفٍ، فَلَمَّا انتبهنا خرجت أبتاعُ للأتباعِ قوتَ الوقت، فَسَارَ القومُ معه في عسكر التعجبِ، فسمع إخوانه جَلَبَةَ الخيلِ في جلبةِ الطلب، فتجاوبوا بأصواتِ التوديع، وقاموا إلى صلاة مُوَدِّع، فدخل تمليخا يبكي، فأوقفوه يُنَبِّئُهُمْ أنباءهم فَصَدَّقُوه، وَأَعْلَمَهُمْ أنهم كانوا نِيَامًا، وإنما نصبوا للتعبد أعلامًا، ثم عادوا إلى المضاجع، ووافتهم

الوفاة، وفات لقاءهم، وسُدلت عليهم سِتْرُ الرُّعْبِ بِأَكُفٍّ: ﴿لَوِ ٱطَّلَعۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الكهف: ١٨]، فعاد عنهم عند كل سنة تدور فيه سائر الألسنة سائر تلك السنة، فتفكروا فيهم يا أولي العقول والبحث، فإن القوم أخذوا أدلة البعث، تاللهِ ما العجبُ من نائمٍ لم يعرف قدرَ ما مَرَّ من نَوْمِهِ، إنما العَجَبُ من مُتَيَقِّظٍ لم يعرف قَدْرَ ما ذهب مِن عُمُرِهِ، يا متيقظًا في طلبِ الفاني، نائمًا عن تحصيل الباقي، اعكسِ الحالَ فقد أصبت، أيقظكَ الدهرُ فَنِمْتَ، وأرشدكَ الوعظُ فَهِمْتَ، وَحَدَّثَكَ الموتُ فَمَا فَهِمْتَ، أَلُبَّ حُبُّ الدُّنيَا بِلُبِّكَ، وَقَلَّبَ هَوَاهَا نسيمَ قَلْبِكَ، كم ترمي هدفَ سَمْعِكَ بِرَشْقِ كلام، كم تُكْلَمُ جَارِحَةُ قلبك بجراحة القبول كِلام، كم يُلدغ أصلُ قلبك بحمةِ مَلام، النُّطقُ صَاحٍ وقلبُ المرءِ سَكْرَان.

[الوافر]

أَمَا وَاللهِ لَوْ عَلِمَ الأَنَامُ ... لِمَا خُلِقُوا لَمَا غَفَلُوا وَنَامُوا

لَقَدْ خُلِقُوا لِمَا لَوْ أَبْصَرَتْهُ ... عُيُونُ قُلُوبِهِمْ سَاحُوا وَهَامُوا

مَمَاتٌ ثُمَّ قَبْرٌ ثُمَّ حَشْرٌ ... وَتَوْبِيخٌ وَأَهْوَالٌ عِظَامُ

لِيَوْمِ الْحَشْرِ قَدْ عَمِلُوا رِجَالٌ ... فَصَلُّوا مِنْ مَخَافَتِهِ وَصَامُوا

وَنَحْنُ إِذَا أُمِرْنَا أَوْ نُهِينَا ... كَأَهْلِ الْكَهْفِ أَيْقَاظٌ نِيَامُ

الفصل الرابع والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾﴾ [الكهف: ٣٠]

في " الصحيحين " من حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أَنَّ امْرَأَةً بَغِيًّا رَأَتْ كَلْبًا في يَوْمٍ حَارٍّ يَطِيفُ بِبِئْرٍ، قَدْ أَدْلَعَ لِسَانَهُ مِنَ الْعَطَشِ، فَنَزَعَتْ جُرْمُوقَهَا وَأَسْقَتْ بِهِ وَسَقَتْهُ، فَغُفِرَ لَهَا بِهِ "[1].

قوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ ، هذا الحرف في ثلاث مواضع في القرآن، في (الأعراف): ﴿تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ وَقَالُواْ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣]، وفي (يونس): ﴿مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ﴾ [يونس: ٩]، وفي (الكهف): ﴿ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [الكهف: ٣١].

قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ﴾ [الكهف: ٣١]، وقوله: ﴿تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ [التوبة: ١٠٠]، حرفٌ واحدٌ في (براءة)، وباقي القرآن ﴿مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ .

قوله: ﴿يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ﴾ [الكهف: ٣١]، (من) في القرآن على سبعة أوجه:

أحدها: صلة؛ ومنه: ﴿مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ﴾ [البقرة: ٢٣٧]، ﴿ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ﴾ [يوسف: ١٠١]، ﴿وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ﴾ [المؤمنون: ٩١]، ﴿يَغُضُّواْ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ﴾ [النور: ٣٠] .

الثاني: بمعنى الباء؛ ومنه: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١]، ﴿مِنَ ٱلْمُعْصِرَٰتِ﴾ [النبأ: ١٤]، ﴿مِّن كُلِّ أَمْرٍ﴾ [القدر: ٤] .

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ١٧٦١، رقم ٢٢٤٥).

الثالث: بمعنى في: ﴿مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [فاطر: ٤٠].

الرابع: بمعنى على: ﴿وَنَصَرۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ﴾ [الأنبياء: ٧٧].

الخامس: بمعنى التبعيض: ﴿أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبۡتُمۡ﴾ [البقرة: ٢٦٧].

السادس: بمعنى عن: ﴿فَتَحَسَّسُواْ مِن يُوسُفَ﴾ [يوسف: ٨٧].

السابع: لبيان الجنس: ﴿مِنۢ بَقۡلِهَا﴾ [البقرة: ٦١]، ﴿مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٢]، ﴿مِنۡ أَسَاوِرَ﴾ [الكهف: ٣١]، ﴿مِنَ ٱلۡأَوۡثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠].

قال الفراء: وفي واحد الأساور ثلاث لغات: سُوَارُ، وَسِوَارُ، وَأَسْوَارُ.

قال المفسرون: لَمَّا كانت الملوك تلبس في الدنيا الأساور والتيجان، جعل الله ذلك لأهل الجنة، وإنما كانت ثيابهم خضرًا؛ لأن كثرة النظر إلى الأسود يُورِمُ البصر، وإلى الأبيض يُفَرِّقُ الشعاعَ وَيُؤْلِمُ، والأخضر لونٌ بين البياض والسواد يَجْمَعُ الشعاعَ، والسندسُ رقيقُ الديباج، والإستبرق ثخينةٌ، والأرائك السُّرُرُ في الحِجَالِ.

إخواني؛ ما نال القوم ما نالوا إلا بترك ما نطلبه وما نالوا، هل نيلت فضيلةٌ إلا بتعبٍ؟! هل حصلت منقبةٌ إلا بِنَصَبٍ؟!

[الكامل]

وَالْعِزُّ في كُلَفِ الرِّجَالِ وَلَمْ يُنَلْ عِزٌّ بِلا تَعَبٍ وَلا تَكْلِيفِ
وَالْجَدُّ مَغْنَى لِلأعِزَّةِ دَارُهُ وَالذُّلُّ بَيْتٌ في مَكَانِ الرِّيفِ

كم صبر بِشْرٌ عن شهوة حلوة، حتى سمع كلمة حلوة، (كُلْ يَا مَنْ لَمْ يَأْكُلْ)، ما مُدَّ سجافُ ﴿نِّعۡمَ ٱلۡعَبۡدُ﴾ [ص: ٤٤] على قبة ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُۥٓ أَهۡلَهُۥ﴾ [ص: ٤٣] حتى جُرِّبَ في أمانة ﴿إِنَّا وَجَدۡنَٰهُ صَابِرٗا﴾ [ص: ٤٤]، مَنْ لَمْ تَبْكِ الدُّنْيَا عليه، لم تَضْحَكِ الأخْرَى إليه.

كان بعض النجارين يبيع الخشب، وكان عنده قطعة أَبَنُوسٍ مُلقاة تحت الخشب، فَاشْتُرِيَتْ منه، فدخل دارَ الملك بعد مدةٍ، فإذا بها قد جُعلت سريرًا للملك، فقال: سبحان الله تعالى؛ لقد كنتُ لا أعبأُ بهذه، فكيف وصلت إلى

هذا المقام؟ فهتف به لسانُ الحال نائبًا عنها: لا تنظر إلى الثمرة وتنسى صَبْرَ الأصلِ، كم صَبَرَتْ على ضربِ الفُؤْسِ، ونشرِ المناشير حتى وصلتُ إلى هذا.

[الخفيف]

جِئتُ أَشْكُو فَاسْتَوْقَفَتْنِي إِلَى أَنْ ... كَلَّ مَتْنِي مِنْ قَبْلِ أَنْ كَلَّمَتْنِي

وَفَدَتْنِي مِنَ السِّقَامِ وَلَكِنْ ... أَنْفَدَتْنِي هَمًّا إِلَى أَنْ فَدَتْنِي

طال ما نَصَبُوا الأقدام في خدمة الملك، وناقشوا أنفسهم مناقشة مراحك، إن أنعمَ شكروا، وإن ابتُلُوا صَبَرُوا، ولا التبر عند السَّابك، يؤثرون على الفقراء بالزاد، فقد زادوا على البرامك، إذا دخلوا دار الثواب دخلت من كل باب على الملاء الملائك، كُلْ يا مَنْ لم يأكل هذا بذلك، الصدق صديقهم، والرفق رفيقهم، وهذه طريقهم، فأين السالك، صابروا ما آذى، وما قالوا ماذا، فاقتد يا هذا من نَاسِكَ بنَاسِكٍ، رفضوا الدنيا جزمًا، وتركوا الأمل حزمًا، وأنت تتوب لفظًا لا عزمًا، وللحجِّ مناسك، تَعَبَّدْ لا تُرَائي، وَتَزَهَّدْ لا زهدَ مُرَائي، هذه نصيحتي برأيي، فاعمل أنتَ برأيك.

الفصل الخامس والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ [الكهف:٦٠]

فتاه يوشع، وإنما قيل: فتاه؛ لملازمته إياه، ومعنى (لا أبرح): لا أزال أسير، (مجمع البحرين): ملتقاهما، و (الحقب): الدهر، فكان السبب في هذه السَّفْرَةُ أنه لَمَّا علا شرف الكليم بالتكليم والتوراة على كل شرف، قال قومه: أيُّ الناس أعلم؟ قال: أنا، ولم يقل: فيما أعلم، فَعُتِبَ عليه، إِذْ لم يَرُدَّ العلمَ إليه، وجاآه وجاءه وحي وحي: " إنَّ لِي عَبْدًا أَعْلَمُ مِنْكَ "[1]، فقال: وكيف لي به، قال: تزود في سفرك حوتًا مالحًا، فحيث تفقد الحوت تجد العبد، سافرَ موسى سبعة أسفار:

سفر التَّلَفِ: ﴿فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، وسفر الهَرَبِ: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ﴾ [الشعراء: ٢١]، وسفر الطَّلَبِ: ﴿فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ﴾ [طه: ١٠]، وسفر السَّبَبِ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِى لَيْلًا﴾ [الدخان: ٢٣]، وسفر التَّعَبِ: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف:٦٢]، وسفر الطربِ: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وسفر العَجَبِ: ﴿يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

فوجد في كل سفرٍ فائدةً، ففي سفر التلف وجد الأمَّ، وفي سفر الهَرَب وجد العَصَا والصِّهْرَ، وفي سفر الطلب وجد النُّبُوَّةَ والتَّكليمَ، وفي سفر السَّبب وجدَ الرَّاحَةَ من العَدُوِّ بغرقِ فرعونَ، وفي سفر التَّعَبِ وجد الخَضْرَ، وفي سفر

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ١١٩، رقم ٢١١٥٧).

الطَّرَبِ وجدَ التَّوْرَاةَ، وفي سفر العَجَبِ أكرم بالغمام والمَنِّ والسَّلْوى، فَلَمَّا لَقِيَ الخَضْرَ قام لديه في ذل: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: ٦٦]، فتلقاه برد: ﴿لَن﴾ [الكهف: ٦٧]، فيا عجبا لموسى، كم لقي مِنْ لَنْ، أَمَرَ قَوْمَهُ بالإيمان، فقالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ﴾ [البقرة: ٥٥]، وقعوا في التيه فنادوا: ﴿لَن نَّصْبِرَ﴾ [البقرة: ٦١]، ندبوا إلى الجهاد فصاحوا: ﴿لَن نَّدْخُلَهَا﴾ [المائدة: ٢٢].

طرق باب (أَرِنِي)، فرده حاجبُ (لَنْ)، وزاده (تَرَانِي)، أقبلَ إلى الخَضر للتعليم، فقابله بلفظ (لن)، ثم زاده من زاد الرد بكَفِّ كَفٍّ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ [الكهف: ٦٨]، فأعاد السؤال بعبارة (سَتَجِدُنِي)، فَشَرَطَ عليه شرطًا (فَلا تَسْأَلْنِي)، فركبوا سفينةً، فَلَوى منها لَوْحًا فَقَلَعَهُ، فَعَجَّلَ موسى بإنكار (أَخَرَقْتَهَا!) فَذَكَّرَه لفظ (وكيف تصبر) بعبارة (أَلَمْ أَقُلْ)، فمحا ما جنى باعتذار (لا تُؤَاخِذْنِي)، فلما ألقتهما السفينةُ لَقِيَا غلامًا فقتله، فَجَاشَ جَأْشُ موسى بتوبيخ (لَقَدْ جِئْتَ)، فأعاد الخضر عتاب (أَلَمْ أَقُلْ لَكَ)، فَشَرَطَ موسى عندها ﴿إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا﴾ [الكهف: ٧٦]، فَأَتَيَا أهلَ قريةٍ لا يغرسون إلا نخل البُخْلِ (فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا)، فصادف الخضر صدفًا قد صدف فأقامه، وجوى الجوع، فدافعه موسى وأقامه، فنطق لسان الفاقة بلفظ (لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ)، فَأَرَاقَ الخضرُ ماء الصُّحبة بيد (هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ).

إخواني؛ لما خالف موسى الخضر في طريق الصحبة ثلاث مرات، حل عقدة الوصال، فيا مَنْ لم يَفِ لنا قط، ما تخاف أن يقال لك في بعض زلاتك: هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ، ثم إن الخضرَ وعد موسى بحلِّ المُشكل في ضمان (سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ)، ثم وَدَّعَهُ حين وَدَّعَهُ حتى بَيَّنَ له علم ما جرى، وأطلعه، فأخذ يداوي أخذَ عينٍ وهو لديه كالأخيذ المستأخذ، فجعل يشرحها فصلا فصلا بلسان إنسان يقول فصلا، وكلما ذكر له أصلا أصلا، لم يَبْقَ لموسى عين تراه أصلا، وكلما سَلَّ من حَرِّ العتابِ نصلا صَاحَ لسانُ حاله: كم نصلي، فألقى تفسير الحوادث إلى الكليم وأملى، والقدرُ يقول: أهو أعلم أم لا؟ فعلم موسى ويوشع أَيَّ عبدٍ أَمَّا منذُ ابتداءَ في الشرح بـ (أَمَّا)، ثم انتدبَ بلسان

العتب: يا موسى؛ أَتُنْكِرُ إحراقَ السفينةِ، الظاهر إفساد، وَرُبَّ صلاحٍ يُضْمرُ ضمنه ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة:١٧٩]، وتنكر إتلاف شخص دين لإبقاء دين شخصين، أَوَكَرِهْتَ إقامةَ الجدار لشُحِّ أهلِ القريةِ بالقرى، فأردت من الأصفياء ما عامله البخلاء بالبخل؟ أَمَا تلمحت سِرَّ " صِلْ مَنْ قَطَعَكَ "[١].

يا موسى؛ كان الجدار ليتيمين ومن عمل من جرى يتيم فما أجرى إلا إلى أجر (كَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا)، فذهب وقد أودع كنز الذهب حاكم القدر، فبعث لتسليمه الخضر، ولو أودع من لم يضف ضيفًا لبخله ما ودع وديعته تسلم لمستلم التسليم.

يا موسى؛ لقد أنكرت ما جرى بما جرى لك مثله، حَذِرْتَ يومَ السفينة من الغرق فَصِحْتَ بإنكار: (أَخَرَقْتَهَا؟)، ونسيت يومَ (فَأَلْقِيهِ في الْيَمِّ)، أنكرت قتلَ نفسٍ بغيرِ نفسٍ، أنسيتَ يومَ (فَوَكَزَهُ)؟، أنكرت عملا بلا أجر، أَنَسِيتَ يومَ (فَسَقَى لَهُمَا)؟، فَلَمَّا بَانَ له البَيَانُ، خَرَجَ الخَضْرُ عن دار الدعوة، وأخرج يده من ملك التصرف، وَأَحَالَ الحَالَ على الغيرِ بلفظ (وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي)، وهذه اللفظة قد حَرَّضت على حَرَضِ الجهلِ على جمع رحل الرحيل في طلبِ العلمِ، وعَلَّمت كيفية الأدب في كَفِّ كَفِّ الاعتراضِ على العَالِمِ، وَصَاحَ نصيحها بصاحي الذِّهْنِ: يا صَاحِ؛ دَعْ دَعْوَاكَ، فَعَلَى دعوى الكليمِ لِيمَ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.

---

(١) عزاه العجلونى (٢/ ٤١، رقم ١٦٢٧) لابن النجار قال الحافظ فى التلخيص الحبير (٣/ ٥٢) رويناه فى جزء من حديث أبى على بن شاذان عن أبى عمرو بن السماك من حديث على بن الحسين بن على عن جده على بن أبى طالب قال ضممت إلى سلاح النبى - صلى الله عليه وسلم - فوجدت فى قائم سيفه رقعة فيها... الحديث. قال ابن الرفعة فى المطلب: ليس فيه إلا الانقطاع إلا أنه يقوى بالآية وفيما قال نظر، لأن فى إسناده الحسين بن زيد بن على وقد ضعفه ابن المدينى وغيره.

الفصل السادس والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ [الكهف: ٨٣]

مُدَّ لذي القرنين في العمر والأجل، وكان كلما قال له القدرُ أجلُك ملك قطعَ الأرض فقطعها بإمكانٍ: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ﴾ [الكهف: ٨٤]، وقطع فَضَاءَ الليل فَضَاءَ له، وكان كلما ظهر على قوم أقام منهم جيشًا ليُغير بهم على الغير غَيْرةً للهِ أن يعبدوا غيره، فَمَرَّ سَالِكًا سلكًا، فما فتَّ سببه فتًى (فَأَتْبَعَ سَبَبًا)، فَشَمَّرَ مُشَمِّرًا ما يلتفت حتى لَفَتَ شملَهُ بالشمس في حمى (تَغْرُبُ في عَيْنٍ حَمِئَةٍ)، فنُصب له تخت التخير في السالكين بقاع تلك البقاع ﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾ [الكهف: ٨٦]، فلما أفرغ غَرْبَ الغَرْبِ على غارب الغربة، مشى نحو المشارق، فلم يزل يحيز الكنوز، ويحوز إلى قتل من يجوز، إلى أن طلعت طلائعه الطالعة إلى مطلع الشمس، فأبرز نير عدله المُشْرِقَ في المَشْرِقِ، ثم رأى باقي عرضه في ذمة مقدرته كالدين، فسلك ما بين السدين، فوجد أُمة يُصعب التسني إلى ذرى أفهامهم على فلك: ﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾ [الكهف: ٩٣]، فَعَدَلُوا إلى العادل يجأرون من جور الجار الجائر في شكوى: ﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ [الكهف: ٩٤]، وعرضوا له بجزاء: ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ﴾ [الكهف: ٩٤]، فرده بأيد يد عز ﴿مَا مَكَّنِّى﴾ [الكهف: ٩٥]، فلما حشا حشا الجبلين بالزبر، ولج المفسدين قسر قسرهم على مضض، ﴿فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓاْ﴾ [الكهف: ٩٧] عجبًا له، كم اقتنى من أصقع وأقنف، وكم أسعف نافسًا وأسيف، وكم لطى له من لطيم وأخيف، وكم سعى به من أكسع، وفقر به من افتقر، وكم مشى به في محجة المشرق محجل، وطرق به في طريق المغرب

مُغرِّب، وكم صحبه من سايفٍ، ونابل، وسالح، وكم تبعه من مدمج، ورامٍ، ورامح، وكم تقدم في مقدمته من مقنع مقنع، وشاكٍ في السلاح كافر غير شاكٍ في الصلاح ولا كافر، ولا ذرأ عنه الأذى المؤذي به موادع، ولا ذرأ عن داره الدوائر دارع، ولا رد عنه ورد ولا كميت، إذ ورد عليه ما رده كميت، ولا قربه من منيته سابق ولا سكيت، وكأنه إذ مات ما تحرك على حارك فرس، ولا شاك شاكلته بشوك غفر بل مَرَّ كأنه قط لم يكن وذل للموت وقبلها لم يهن، لما اشتد مرضه وأيس من الحياة كتب إلى أمه يعز بها عن نفسه، وقال في آخر كتابه: اصنعي طعامًا، واجمعي من قدرت عليه من نساء أهل المملكة، ولا يأكل من طعامك من أصيب بمصيبة قط، فلم تأكل واحدة منهن، فعلمت ما أراد، فلما حملوا تابوته، تلقته أمه بعظماء أهل المملكة، فلما رأته قالت: يا ذا الذي بلغت السماء حكمته، وجاز أهل الأرض مملكته، ودانت الملوك عنوةً له، ما لَكَ اليوم نائمًا لا تَسْتَيْقِظ، ساكتًا لا تتكلم، من يبلغك عني أنك وعظتني فاتعظت، وعزيتني فتعزيت، فعليك السلام حيًّا وميتًا، تاللهِ لقد عاش ألفا وست مائة سنة، ولقد كانت كالنَّوم أو كالسِّنَة، إذ صاحت به من الموت ألسنة، فتلمح آخر الدنيا إن كنت تدري، وانظر في أي بحرٍ من الهلاك تجري، واصح إلى مسموع الخطب، وافهم ما يجري، وكن على صيحةٍ، فهذه الركاب تسري.

[الكامل]

أَوَ مَا رَأَيْتَ وَقَائِعَ الدَّهْرِ ... أَفَلا تُسِيءُ الظَّنَّ بِالْعُمْرِ
بَيْنَا الْفَتَى كَالطَّوْدِ تَمْنَعُهُ ... هَضَبَاتُهُ وَالْعَضْبِ ذِي الأثَرِ
يَأْبَى الدَّنِيَّةَ فِي عَشِيرَتِهِ ... وَيُجَاذِبُ الأيْدِي عَلَى الْفَخْرِ
وَإِذَا أَشَارَ إِلَى قَبَائِلِهِ ... حَشَدتْ عَلَيْهِ بَأَوْجُهٍ غُرِّ
زَلَّ الزَّمَانُ بِوَطْءِ أَخْمَصِهِ ... وَمَوَاطِئُ الأَقْدَامِ لِلْعَثْرِ
نَزَعَ الإنَاءَ وَكَانَ شَمْلَتَهُ ... وَأَقَرَّ إِقْرَارًا عَلَى صُغْرِ
صَدعُ الرَّدَى أَعْيَا تَلاحُمَهُ ... مَنْ أَلْحَمَ الصَّدَفَيْنِ بِالْقِطْرِ
جَرَّ الْجِيَادَ عَلَى الْوَجَى وَمَضَى ... أَمَمًا يَدُقُّ السَّهْلَ بِالْوَعِرِ

حَتَّى الْتَقَى بِالشَّمسِ مَغْمَدُهُ   فِي قَعْرِ مُنْقَطِعٍ مِنَ الْبَحْرِ
ثُمَّ انْثَنَتْ كَفُّ الْمَنُونِ بِهِ   كَالضِّغْثِ بَيْنَ النَّابِ وَالظُّفُرِ
لَمْ تَسْتَجِرْ عَنْهُ الرِّمَاحُ وَلا   رَدَّ الْقَضَاءَ بِمَالِهِ الكثرِ
جَمَعَ الجُنُودَ وَرَاءَهُ فَكَأَنَّمَا   أَمْسَى بِمَضْيَعَةٍ ولا يَدْرِي
وَبَرَى المَعَابِلَ لِلْعِدَى وَكَأَنَّمَا   لِحِمَامِهِ كَانَ الَّذِي يَبْرِي
أَوْدَى وَمَا أَوْدَتْ مَنَاقِبُهُ   وَمِنَ الرِّجَالِ مُعَمَّرُ الذِّكْرِ
إِنَّ التَّوَقِّي فَضْلُ مُعْجِزَةٍ   فَدَعِ الْقَضَاءَ يَقُدُّ أَوْ يَفْرِي
يَحْمِي الْمَطَامِعَ لِلْبَقَاءِ ذَوِي   الآجَالِ مِلْءُ فُرُوجِهَا تَجْرِي
لَوْ كَانَ حِفْظُ النَّفْسِ يَنْفَعُهَا   كَانَ الطَّبِيبُ أَحَقَّ بِالْعُمْرِ
الدَّاءُ دَاءٌ لا دَوَاءَ لَهُ   سِيَّانَ مَا يُرْبِي وَمَا يُمْرِي

الفصل السابع والثلاثون

في قوله عز وجل: ﴿كٓهيعٓصٓ ۝١﴾ [مريم: ١]

ذهب جماعة من العلماء أن هذه الحروف من المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى، وقال آخرون: هي حروف من أسماء الله تعالى، وقال ابن عباس: (الكاف من الكبير، والهاء من الهادي، الياء من الرحيم، والعين من عليم، والصاد من صادق).

قوله تعالى: ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ [مريم: ٢]؛ أي: هذا الذي نتلوا عليك ذكر رحمة ربك عبده زكريا، وفيه ثلاث لغات: المد، والقصر، وأهل نجد يقولون: زكري، فيقولون الألف، وكان السبب في ندائه، أنه لما قام بإقام الإقامة لمريم، وكان كافلها، كان يحمل من الكافي لها كفل على كفل الكفاية، وكان وكيل الغيب يأتيها بقدر ما يُغنيها، على يد القدرة في كِنِّ (كُنْ فَيَكُونُ)، فيطرق عليها باب التوكل، وكان إذا خرج ثم جاء فاجأ ثم الثمار قد نمت ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [مريم: ٣٧]، وكان إذا دخل ألفى ألفاف الفاكهة الفائقة لا في حينها، فتلمحها بعين زرقاء الفهم، وهي تقطع فيافي الأنجاد على قدم الوجود في حلل السلامة بين ماضي العادات، فلما رأى نفقة الجارية جارية، وكسير الأسباب على ختمه، صاح لسان الدهش: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [مريم: ٣٧]، فأحالت الحال على بر المسبب، ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٧]، فنبهت هذه الآية راقد طمعه بعد أن طال وسنه سبعين سنة، فسن على سنه، وجد ما رجى ما أسن مما لم يتسنه، وقام الدروج بعد أن تقعوس وشعشع، وغسا على باب عسى في محراب (هُنَالِكَ دَعَى)، فسرى بسره سِرًّا لئلا ينسب إلى فَنٍّ من أفن، وكتب قصة (لا تَذَرْنِي فَرْدًا)، وشكى ما شيك به مما حك من حل التركيب وشيكًا في كلماتٍ هن: ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى﴾ [مريم: ٤]، فلما أورد في قصته

مما يريد حملها بريد الرجاء إلى من عود العود العود بكشف الجوى في الجواب لله دَرُّهُ خَدَمَ حتى شَابَ، ثم طلب نائبًا على الباب، ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ﴾ [آل عمران: ٣٩]، فأصبح ميت أمله ينفخ روح الإدراك يحيى: ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [مريم: ٧]، فمشى لمشاهدة وجه القدرة، وقد حال بينهما سفر العادات، إلى أَنْ أَنَّ بلفظِ ﴿إِنِّى﴾ [مريم: ٤]، فهبت نسيم: ﴿هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾ [مريم: ٩]، فسأل علما على ما يعلم به وجود الحمل بحمل نفسه على أداء الشكر، فوعد بسجن اللسان مع سلامة الإنسان إلا عن ذكر الرحمن، ليكون حج نطقه مفردًا، فلما وُلد له يحيي، لم يبلغ مبلغ يافع إلا وهو ولد نافع، كانت صبا الصبي تميد بالصبيان فلا تهزه، فإذا قالوا: هَلُمَّ بِنَا نَلْعَبُ، أزعجه خوف الوعيد وهزه، وقال: إنما خُلقنا للعبأ لا للعب فقط، له القدر قطًا من عصام العصمة، ما قُطَّ قط لأحدٍ، فما خطى إلى خطى ولا هم، ولقد رمى دنيء الدنيا عن يد التمسك، وعلى عن فضولها على قلل التقلل، وكان عيش عيشه العشب، وبنى لخوف النبأ إلى نبات الأرض، واقتنع بمسوك الحيوان عن الشب والشف والمشترف، وشغله عن رقش نقش القشيب والدمقس بما لمق مما لفق، فلقد دوى في دَوٍّ فؤاده غيم الغم، وغدا الغدق يدق إلى أن فاض قليب قلبه، فانقلبت عيناه تقلب كالعيون حتى قرت، فحفرت في أخدود الخدود مجرى، ولم يزل معول دمعته يحفر ركية خَدِّهِ حتى بدت فيه أضراسُ فيه، وكان كالمشاهدة عيون القلب خلال الرتب، يجري ميدان عين كالماء من العين، ولقد أثرت في ابنه نكاية بكائه، وقال: إنما سألت راحة القلب، فأين غاية هذا الابن، فقال: يا أباه؛ إن جبريل أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا بكاء العين، فيا عجبا من بكاء مَنْ ما عَصَى ولا هَمَّ، وضحك من كتابه [بالذنوب] قد اسْوَدَّ وَادْلَهَمَّ، فلما قاربَ الوفاةَ، وفات العدو وسلم من آفات النقل في المواطن المخصوصة بوحش الوحشة، فتخلص فيها من أسد البلاء، وحمى من ذئب الذنب: ﴿يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ١٥].

الفصل الثامن والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ﴾ [مريم: ١٦]

كانت حَنَّة أم مريم قد حَنَّتْ إلى ولدٍ، وَكَبُرَ عليها امتناعه، واستولى الكِبَرُ، فرأت يومًا طائرًا يغذو فَرْخًا فرجا، فرجى أملها الساكن فرحًا فرجًا، فسألت عند هذه القصة ولديها ولد، فلما علمت بالحمل أكسبها السرور ولها، فوهبته بلسان النَّذْرِ لمن وهبه لها، فنادى القدر: يا مَلَكُ التَّصويرِ؛ صَيِّرِ الحَمْلَ أُنْثَى، ليبين أثر الكرم في قبول الناقص، فلما وضعتها بأنامل الانكسار عن سرير السرور، فإن لسان التلهف لما لقي (فَتَقَبَّلَهَا)، فَسَاقَ عنان العناية إلى ساق زرعها، فَرَبَا في رُبَى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: ٣٧]، فانطلقت بها الأم تَؤُمُّ بيتَ المقدس، فلبسَ القومُ لأمَتَهُمْ في حربِ ﴿يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ﴾ [آل عمران: ٤٤]، فثبت قلم زكريا إذ وثبت الأقلام، وكفلها بكفٍّ طال ما وكفت وكفت، فأراه المُسبب غناءها عن السبب بأنه: ﴿وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ [آل عمران: ٣٧]، فرباها من ربها، فنشأت لا تعرف إلا ربها، فانتبذت من أهلها إلى مكان يلي المشرق، ﴿فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧].

الروح(١) في القرآن على ثمانية أوجه:

---

(١) قال ابن قتيبة: الرَّوْحُ: الرَّاحَةُ وطَيبُ النَّسِيم.
وقد تكون الرَّوْحُ في القرآنِ: الرَّحْمَةُ؛ لأنَّ الرَّوْحَ تكونُ بالرَّحْمَةِ.
قال ابن فارس: الرَّوْحُ: نَسِيمُ الرِّيحِ. والرَّوَاحُ: من زوالِ الشَّمْسِ إلى الليلِ.
وأَرَحْنَا إِبِلَنَا رَدَدْنَاهَا في ذلك الوقتِ. والمُرَاحُ: حيث تأوي الماشيةُ إليه بالليلِ.
وقَصْعَةٌ رَوْحَاءُ: قَرِيبَةُ القَعْرِ .
وهو يَرَاحُ للمعروفِ؛ إذا أَخَذَتْه له أَرْيَحِيَّة. =

أحدها: جبريل؛ ومنه هذه الآية.

الثاني: الأمر؛ ومنه: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ﴾ [الإسراء: ٨٥].

الثالث: الوحيُ: ﴿يُلۡقِى ٱلرُّوحَ مِنۡ أَمۡرِهِۦ﴾ [غافر: ١٥].

الرابع: الرحمةُ؛ ومنه: ﴿وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ﴾ [المجادلة: ٢٢]

الخامس: مَلَكٌ عظيمٌ؛ ومنه: ﴿يَوۡمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ﴾ [النبأ: ٣٨].

السادس: الروح التي تكون عَنِ النَّفْخِ؛ ومنه: ﴿فَنَفَخۡنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وهي نفخة جبريل عليه السلام.

السابع: الحياة؛ ومنه: ﴿فَرَوۡحٞ وَرَيۡحَانٞ﴾ [الواقعة: ٨٩]، على قراءة مَنْ قرأ بالضم.

الثامن: القرآنُ؛ ومنه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ﴾ [الشورى: ٥٢].

فَلَمَّا أَقْبَلَ نحو ذلك البري البَريء بريد (فَأَرْسَلْنَا) تحصَّنت الحَصَانُ بحصنِ: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ﴾ [مريم: ١٨]، فَانْزَوى إلى زاوية ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩]، فأخبرها بالتحفة في لفظ ﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ [مريم: ١٩]، فأقيمت في مَهَبِّ ريح الروح، فظهرت الكلمة من كمين الأمرِ، فنفخ جبريلُ في جنب جيب الدرع، فمرَّتِ المرأةُ حاملا في الوقت، فَلَمَّا علمت ألمت بما حملت، فأنكروا عليها الحمل، فأخرجها الحياء الحيي عن الحيِّ، فلما جاءها وقت الوضع، ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلۡمَخَاضُ﴾ [مريم: ٢٣]، تحيرت في وجود ولدٍ، وما فَجَرَتْ به، فَجَرَتْ عينُ الدَّمْعِ، فصاحت لبيانِ الخَفَرِ بلفظ الندبِ: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فأجابها الملك عن أمر مَنْ مَلك: (لا تَحْزَنِي)، فأجرى لها في أواني الأوان سريًّا، وكما وهب لها من الغلمان سريًّا، فسري عن سرها وجود الظهور، وأنس الظاهر فسرى، وأوتيت آية تدل على قدرة المُقدِّر في مقام (وَهُزِّي) جذم جذعٍ مائل ميلَ الحطبِ، فتساقط عليها في الحال رَطْبُ

= والمَرْوَحَةُ: المَوْضِعُ الذي تَخْتَرِقُ فيه الرِّيحُ، ونُقِلَ عن عمرَ رضي الله عنه أنَّه ركبَ نَاقَةً فمَشَتْ به مَشْيًا جيدًا فقال: [البسيط]

كَأنَّ راكِبَهَا غُصْنٌ بِمَرْوَحَةٍ إذا تَدَلَّتْ بِهِ أو شَارِبٌ ثَمِلُ

الرُّطَبِ، فأخذها الجوى في إعداد الجواب، فقيل: كلي كل الكل إلى من له الكل، كنتِ بمعزلٍ مِنَ الولدِ، فكوني بمعزلٍ من إقامة العُذر، فالذي تولى إيجاده، يقيم عذرَ العذراءِ، لا تعجبي من وجود حملٍ مسافر عن أرض القدر، فلم يصلح أن ينزل إلا بمنزل أركانه على عمدان: ﴿ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ﴾ [آل عمران: ٤٢]، فلما وضعت البَتُولُ المسيحَ خَرَّتِ الأَصْنَامُ، فما زَالَ إبليس يَشُمُّ يَرَقَ الخَبَرَ حتى خَبرَ الخَبَرَ، فلما أمعنت ركاب بحثه وقفت، وَقَفَتْ به العِيسَ على عيسى عليه السلام، فهم أن يستضيفه ليضيفه إلى الداخلين في أسر قَسْرِهِ، فثارت إليه حرس: ﴿وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا﴾ [آل عمران: ٣٦]، فلما سكنت مريم، وسكنت بعد أن قعدت وقامت، فأقامت أيامَ النفاس، فَلَمَّا انقضت وفاتت، ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ﴾ [مريم:٢٧]، فَجَثُوا عَلَى أعتابِ العِتَابِ، وَزَادُوا في أندية التوبيخ، وما عرفوا المبدأ والمنتهى، وما شاهدوا قط أختها، ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ [مريم: ٢٨]، فأضجروا مريضًا قد ضَنَى من أَنِينِ ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ﴾ [آل عمران: ٤٧] على فِرَاشِ ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ [مريم: ٢٣]، فَلَمَّا شارت آراءَ الرَّاءِ أن أشارت إليه، فنادت ألسنة التعجب: ﴿كَيْفَ نُكَلِّمُ﴾ [مريم: ٢٩]، فقام عيسى يمخض مخض أوطاب الخطابِ على منبرِ الخَطَابَةِ، فأبرزَ بالمخضِ محضَ إبريز الإقرارِ: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠]، وأومأ إلى وجوده من غير أبٍ في إشارة: ﴿وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى﴾ [مريم: ٣٢]، وكان واسطة عقده: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

فقيل لنبينا ﷺ: أيها الساعي على صراط، إنك على الحق، جازي مَنْ جاز في مجاز الوجود قبلك، فوقف جواده على جواد مدحك، فقد قيل لك: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ۝٦٠﴾ [الرحمن: ٦٠]، فَمَهَّدَ عُذْرَ البَتُولِ بلفظِ: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، كما قام وَلَدُهَا في مقام: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ﴾ [الصف: ٦].

لقد بُعث عيسى بشحذ مُوسَى مَوْسى، فَسَنَّهُ على مسن ما سنه، لكنه حك ما حكى في كلماتٍ أمست تحل بتحكم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم﴾ [آل عمران: ٥٠]، وحبس على باب العافية للعافية، ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ [آل عمران:

٤٩]، فربما ألفى على بابه خمسين ألفًا يأتوه في كل يوم، وإنما كانت مركبات مراهمه لجراحات الأمراض في كيس (بِإِذْنِي)، ولقد ترك الدنيا وَطَلَّقَهَا أيَّ تطليقٍ، وَبَغَضَهَا ولا كَبُغْضِ الرَّافِضِيِّ الصِّدِّيقَ، فَغَزَاهَا بجُندِ الزُّهْدِ بين مُسَرَّجٍ وَمُلَجَّمٍ، وَفَتَكَ بها كما فَتَكَ بالتَّقِيِّ ابْنُ مُلْجِم، ما أَلْفَتَ إليها قَطُّ وَجْهَ عَزْمِهِ، ولا صَافَحَهَا يَوْمًا كَفُّ قَلْبِهِ، ولا غَازَلَهَا سَاعَةً لِبَيَانِ فِكْرِهِ، ولم يزل بيده أعلام: ﴿وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وأكثرَ العِنَادَ في العِنَادِ، لم يعرف حقيقة ما حوى سوى الحَوَارِيُّونَ، فَشَمَّرُوا عن سَاقِ العَزَائِمِ في سَوْقِ بُدْنِ الأَبْدَانِ إلى مِنَى المُنَى تَحِنُّ بِلَفْظِ: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وكتبوا في عَقْدِ العَقَائِدِ: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٥٢]، وَعَدَلُوا بها إلى عَدْلِ: ﴿وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]، ثُمَّ إِنَّ اليهودَ اجتمعوا في بيتِ (وَمَكَرُوا)، فتزلزلَ عليهم بيدِ: ﴿وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، فدخل عيسى خوخةً وراه ودخل، فدخل رجلٌ وراه، فألقى عليه شبهة على شبهةٍ، فحاق بالمرءِ مُرُّ مراده، وقربت إلى عيسى عيس: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ [آل عمران: ٥٥]، وَنَصَبَ له معراج: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٨].

فرفع الرفيعَ القدرِ ليلةَ القدرِ، فإذا دنتِ السَّاعَةُ صَاحَ به مُسْتَحِثٌّ: ﴿وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ﴾ [الزخرف: ٦١]، فيقتل الألد بباب لُدّ، فإذا بان أَيَّانَ الصلاة صلى مأمومًا، إذ لو أمَّ هذه الأمة لقالت وسوسة السِّرِّ: أين أبراه ابتدى أم ناب؟ فيكون ذلك قترًا في وجنة " لا نَبِيَّ بَعْدِي "(١)، ثم يتزوج؛ لأنه ضيف الأوامر في دار (تَنَاكَحُوا)، فإذا قامت القيامة أقيم في مقام: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ﴾ [المائدة: ١١٦]، فينفصل يوم الفصل لخوف الفصيل مفاصله، فيتلجلج مفصله في فصل: ﴿إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ﴾ [المائدة: ١١٦]، ثم يلقي زمام الأمر بيد التفويض إلى مالك الأمر: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨]، ﴿وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [المائدة: ١١٨].

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥، رقم ٢٨٨٩)، وأبو داود (٤/ ٩٧، رقم ٤٢٥٢)، والترمذى (٤/ ٤٧٢، رقم ٢١٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤، رقم ٣٩٥٢)، وأبو عوانة (٤/ ٥٠٨، رقم ٧٥٠٩)، وابن حبان (١٦/ ٢٢٠، رقم ٧٢٣٨). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/ ٣١١، رقم ٣١٦٩٤).

الفصل التاسع والثلاثون

في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [مريم: ٣٩]

الإنذار يوم التخويف، ويوم الحسرة يتحسر المسيء إذ لم يُحسن، والمقصر في الخير إذ لم يزدد، والأمر يجمع أوامر وأمور، وهو في القرآن على تسعة عشر وجهًا:

أحدها: قتل قريظة وجلاء النضير؛ ومنه في (البقرة): ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ [البقرة: ١٠٩].

الثاني: النصر؛ ومنه في (آل عمران): ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

الثالث: استدعاء الفعل؛ ومنه في (النساء): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ [النساء: ٥٨].

الرابع: الخصب؛ ومنه في (المائدة): ﴿أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ﴾ [المائدة: ٥٢].

الخامس: الذنب؛ ومنه في (المائدة): ﴿لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ﴾ [المائدة: ٩٥]، ﴿فَذَاقَتْ وَبَالَ أَمْرِهَا﴾ [الطلاق: ٩].

السادس: المشورة؛ ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

السابع: فتح مكة؛ ومنه في (براءة): ﴿فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ [التوبة: ٢٤].

الثامن: قتل كفار مكة؛ ومنه في (الأنفال): ﴿لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

التاسع: الحذر؛ ومنه في (براءة): ﴿قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ﴾ [التوبة: ٥٠].

العاشر: القضاء؛ ومنه في (يونس): ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣].

الحادي عشر: الغرق؛ ومنه في (هود): ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣].

الثاني عشر: العذاب؛ ومنه في (هود): ﴿وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [هود: ٤٤]، وفي (إبراهيم): ﴿لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ﴾ [إبراهيم: ٢٢].

الثالث عشر: البيان؛ ومنه في (هود): ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٧٦].

الرابع عشر: الفعل؛ ومنه في (هود): ﴿وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود: ٩٧].

الخامس عشر: القيامة؛ ومنه في (النحل): ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ١].

السادس عشر: الدين؛ ومنه في (براءة): ﴿وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٤٨].

السابع عشر: الكثرة؛ ومنه في (بني إسرائيل): ﴿أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا﴾ [الإسراء: ١٦].

الثامن عشر: الوحي؛ ومنه في (تنزيل السجدة): ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ٥].

التاسع عشر: الموت؛ ومنه في (الحديد): ﴿حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٤].

واعلم أن الحسرات يوم القيامة كثيرة، ومن موجوباتها ذبح الموت بين الجنة والنار، ويقال: " يا أهل الجنة؛ خلود فلا موت، ويا أهل النار؛ خلود فلا موت "(١).

وَرَوَى عدي بن حاتم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " يُؤْتَى

---

(١) أخرجه مسلم (٤/٢١٨٨، رقم ٢٨٤٩)، والطبراني (١٢/ ٣٦١، رقم ١٣٣٤٦).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِنَاسٍ إِلَى الْجَنَّةِ، حَتَّى إِذَا دَنُوا مِنْهَا، وَاسْتَنْشَقُوا رِيحَهَا، وَنَظَرُوا إِلَى قَصْرِهَا، نُودُوا أَنِ اصْرِفُوهُمْ عَنْهَا، لا نَصِيبَ لَهُمْ فِيهَا، فَيَرْجِعُونَ بِحَسْرَةٍ مَا يَرْجِعُ الأَوَّلُونَ وَالآخَرُونَ بِمِثْلِهَا، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا لَوْ أَدْخَلْتَنَا النَّارَ قَبْلَ أَنْ تُرِنَا مَا أَرَيْتَنَا كَانَ أَهْوَنَ عَلَيْنَا، قَالَ: ذَاكَ أَرَدْتُ بِكُمْ، كُنْتُمْ إِذَا خَلَيْتُمْ بَارَزْتُمُونِي بِالْعَظَائِمِ، وَإِذَا لَقِيتُمُ النَّاسَ لَقِيتُمُوهُمْ مُخْبِتِينَ، تُرَاءُونَ النَّاسَ بِخِلافِ مَا تُعْطُونِي مِنْ قُلُوبِكُمْ، هِبْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تَهَابُونِي، أَجْلَلْتُمُ النَّاسَ وَلَمْ تُجِلُّونِي، تَرَكْتُمْ لِلنَّاسِ وَلَمْ تَتْرُكُوا لِي، فَالْيَوْمَ أُذِيقُكُمْ عَذَابِي مَعَ مَا حَرَمْتُكُمْ فِي الآخِرَةِ مِنْ ثَوَابِي "[(١)].

قال ابنُ مسعودٍ: (إذا بقي مَنْ يخلد في النار، جُعلوا في توابيت من نارٍ، والتوابيت في توابيت، فلا يظن أحدهم أن قد بقي في النار ممن يُعَذَّبُ سواه، وليس من نَفْسٍ يومَ القيامةِ إلا وهي تنظر إلى بيتٍ في الجنةِ، وإلى بيتٍ في النَّارِ، يقال لها: ولأي لو عملتم، ويقال لأهل الجنة: لولا أنْ مَنَّ اللهُ عليكم)، وقال أبو هريرة: (كأني بكم صادرين عن الحوض، فيلقى الرجلُ الرجلَ، فيقولُ: أشربت؟ فيقول: نعم، ثم يلقى الرجلُ الرجلَ، فيقول: أشربت؟ فيقول: لا وَاعَطَشَاهُ).

وقال أنسُ بنُ مالكٍ: (إن مَلَكًا مُوَكَّلا بالميزانِ، فإذا ثَقُلَ ميزانُ الإنسانِ نَادَى الملكُ بصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: سَعِدَ فُلانٌ سَعَادَةً لا يَشْقَى بَعْدَهَا، فَإِذَا خَفَّ مِيزَانُهُ نَادَى المَلَكُ بصوتٍ يُسْمِعُ الخلائقَ: شَقِيَ فلانٌ شَقَاوَةً لا يَسْعَدُ بَعْدَهَا).

وقال قتادة: لم يخز أحد فيخفي خزيه على أحد.

وقال مجاهد: ما مِنْ عبدٍ إلا وَيُنَادَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيْ فُلانُ؛ هَذَا نُورُكَ، أَيْ فُلانُ: لا نُورَ لَكَ.

وقال الحَسَنُ: يُعْرَضُ عَلَى ابْنِ آدَمَ سَاعَاتُ عُمْرِهِ، فَكُلُّ سَاعَةٍ لَمْ يُحْدِثْ فِيهَا خَيْرًا تَقَطَّعَتْ نَفْسُهُ حَسَرَاتٍ.

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (١٧/ ٨٥، رقم ١٩٩).

وكتب الأوْزَاعِيُّ إلى أَخٍ لَهُ: أَمَّا بَعْدُ؛ فقد أُحيطَ بكَ من كل جانبٍ، واعلم أنه يُسَارُ بكَ في كلِّ يومٍ وليلةٍ، فاحذرِ اللهَ والمَقَامَ بينَ يَدَيْهِ وأنْ يكونَ آخِرَ عَهْدِكَ بِهِ، وَالسَّلامُ.

[الطويل]

لَعَمْرِي لَقَدْ أَيْقَظْتَ مَنْ كَانَ نَائِمًا ... وَأَسْمَعْتَ مَنْ كَانَتْ لَهُ أُذُنَانِ

كَأَنَّكَ بالمرضِ وقد حَضَرَكَ، وبالموتِ وقد أَشْخَصَ بَصَرَكَ، وبالتلفِ يقولُ: كم ننظرك، قُضِيَ الأمْرُ.

إذا أخذت في التراقي، وصعدت الروح إلى التراقي، ولم تعرف المخاطب والراقي، وقال الموت: أيها الطبيب الساقي قضي الأمر.

نفذ السهم المصيب، ولم تأخذ بنصيب، فما يغني عنك القريب ولا النسيب، قُضِيَ الأمْرُ.

تقولُ إن شفيت تصدقت، وإن سلمت أعتقت، وإن قمت معافى أنفقت، والموتُ يقول: إن رفقت، قُضِيَ الأمْرُ.

ثم تنزل اللَّحْدَ وتخلى، والولد الشفيق قد تولى، والأخ والصديق الصادق قد أعرض وَوَلَّى، وتقول: رَبِّ ارْجِعُونِي، فيقال: كلا، ولسان اللوم والتوبيخ قد كَلا مِمَّا أملا النصيح وَمَلا، قُضِيَ الأمْرُ.

ثُمَّ إن مفرقك يجمعك وينادي في الصور ويسمعك، فاتبع من ينصحك، ودع من يخدعك، فواللهِ ما ينفعك زيدٌ ولا عمرو، قُضِيَ الأمْرُ.

هذا العمر قد هوى، وهذا العود قد ذوى، وهذا الجسد قَدِ الْتَوَى، يا سكران بالهوى لا بالخمر، قُضِيَ الأمْرُ.

يا هذا؛ أرى عمرك في التفريط يفوت، وسواء قولنا لك والسكوت، ويقع لي يا هذا أَنَّكَ على هذا تموت، فالميت ما ينفعه طَبْلٌ ولا زَمْر، قُضِيَ الأمْرُ.

الفصل الأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١]

لما سبقت عناية الأزل للخليل من ربه، فأوجده في زمن احتراز أعدائه من وجوده على رغم أنف اجتهادهم، وكانت الكهنة قد آذنت نمروذ بوجود محارب يرفل في حُلَّة غالب، فأخذ يعزل الرجال عن النساء من الحذر، وقام يقاوم باجتهاده القدرَ فما قَدَرَ، فَلَمَّا خَاضَ فم المخاض في خِضَمٍّ أُمِّ إبراهيم خرجت من حيف الخوف إلى حَيِّزِ التَّحَيُّزِ تهيم، فوضعته في نهرٍ قد يبس، وسترته بالحلفاء ليلتبس، وكانت تختلف لرضاعه، ولقد سبقها رضاع، ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ﴾ [الأنبياء: ٥١].

فلما بلغ سبع سنين حَجَّ إلى حجاج قومه على راحلة: ﴿هَٰذَا رَبِّى﴾ [الأنعام: ٧٦]، ثم كرر تكرُّرَ توبيخ: هل يسمعونكم أو ينفعونكم؟ فقاموا على باب طلالهم يفتحونه بإقليد تقليد: ﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا﴾ [الشعراء: ٧٤]، فتطهر من دنس صُحبتهم بطهور: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ﴾ [الشعراء: ٧٧]، وقام إلى صلاة التوحيد في محراب: ﴿إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ﴾ [الأنعام: ٧٩]، فلما أحضره نمروذ أحضره في ميدان الدليل، ورفع شبهته: ﴿أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، بحجة: ﴿رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فقمره بابن أرقم الهدى في نصف شهر شهرة النصف، ونمروذ يريد إسهاء السهوة في ظلام ظلم ﴿أَنَا۠ أُحْىِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، فَلَمَّا رَأَى فسادَ فَهْمِهِ في معارضة اللفظ ونسيان المعنى، سَوَّدَ وجه شبهته بفحمة الإفحام، فألقاه كاللقاء على عجز العجز،

بآفات فات بها، ﴿فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾ [البقرة: ٢٥٨]، ثم إنَّ القومَ قاموا إلى عيدهم، وعاد عن محجتهم بحجة: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٩]، فرجع لسانه لما رجع وعيد الحق، ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ﴾ [الأنبياء: ٥٧]، فاستلبها استلابَ البهيمةِ ألقت قتات، ودخل إبراهيم إلى الأصنام دار الفراغ، ﴿فَرَاغَ عَلَيْهِمْ﴾ [الصافات: ٩٣]، فلما رجع القوم إلى معمعة معركتهم صاحت نوادب الأسى من فعل هذا، فمن خبر الخليل عامهم في زمن: ﴿سَمِعْنَا فَتًى﴾ [الأنبياء: ٦٠]، فَلَمَّا قرروه بلفظ: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ﴾ [الأنبياء: ٦٢]، عاد عليهم بحجة ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فنكسوا رءوسهم على أذقان، ثم نكسوا، فَلَمَّا أسفهم بما أَسفهم سفا في وجوه آرائهم سفا سفاهتهم بكفٍّ ﴿أُفٍّ لَّكُمْ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، فحميت حميتهم فَجَرَّدُوهُ عن بُرْدِ بَرْدِ العذل بِحَرِّ ﴿حَرِّقُوهُ﴾ [الأنبياء: ٦٨]، فَبَنَوْا لِسَفْحِ دَمِهِ بُنْيَانًا إلى سَفْحِ جبلٍ، واحتطبوا الحراقة على عَجَلِ الْعَجَلِ، فلما وضعوه في كَفَّة المنجنيق عارضه جبريلُ في عرض الطريق، فناداه وهو يهوي في ذلك الفلاء: أَلَكَ حَاجَةٌ؟

قال: أَمَّا إِلَيْكَ فَلا، فَسَبَقَ بريدُ الوحي إلى النار بلسان التَّفْهِيمِ: ﴿كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]، ثم نبع ينبوع الماء إلى جنبه، وأينع الورد والنرجس من حوله، وجاء جبريلُ بقميصٍ من الجنة فلبسه، وَطِنْفِسَةٍ من الإستبرق فأجلسه، وقعد معه على سرير مجالسته، ومتكئًا على أريكة مؤانسته، فخرج نمروذ بعد أيام ينظر ما صنع الغلام، فتلقاه النور والنور، فَلَمَّا أَقْبَلَ أحاله الهوى على الصواب، فلم يقبل عقوبة فتن الفتن، فلم يخلص حتى قطع مراحل الدنيا على نحائب السلامة، وقطعَ قطع الكرى طالبًا للفوز والكرامة، وبقي له الذكر الجميل إلى يوم القيامة، وإنما علا له العُلا، وما هوى لخلافه الهوى، وعلى هذا قاعدة الفضل قاعدة، فمن أراد أن يسرح في فضاء فضيلةٍ فليُنفق في طريق قطع صبر الصبر، لعلهذ يقع بقاع أرض الرِّضَا، وهذه مَفَازَةٌ زَادُهَا زيادةُ اليقظة، ومراكبها بجانب المراقبة، وجاذبها هاتف العزم ومنازل نسيان النوازل، ومبدأها

صدق التوكل، ومنتهاها حُسن التفويض، فَمَنْ سلم منها ببضاعة عمله نال بعد قطعها نهاية أمله، ومن مات في ذلك السبيل السابل فدية فِدْيَتِهِ على العَاقِلِ، ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [النساء: ١٠٠].

الفصل الحادي والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا﴾

[الأنبياء: ٨٧]

المُشَارُ إليه يونسُ عليه السلام، والنون السمكة، وإنما أُضِيفَ إليها لابتلائها إياه.

قال ابن قتيبة: والمُغَاضَبَةُ المُفَاعَلَةُ، وأكثر ما تكون بين اثنين، كالمُنَاظَرَةِ والمُخَاصَمَةِ، وربما تكون من واحد؛ كقولك: سافرتُ، وشارفتُ الأمرَ، وهي هاهنا من هذا الباب.

قال المفسرون: كان يونس قد عانى من قومه أمرًا صعبًا من التكذيب والأذى، فخرج مُغَاضِبًا عنهم قبلَ أن يُؤْمَرَ بالخروج، ﴿فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

والظلمات[1] في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

أحدها: الشِّرْكُ؛ ومنه: ﴿يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الثاني: الأهْوَالُ: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ [الأنعام: ٦٣].

الثالث: ضِدُّ الأنْوَارِ: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، وليس في القرآن (لا إله ألا أنت) إلا هذا المكان، فأما (لا إله إلا أنا) فثلاثة أحرفٍ:

---

(١) الظُّلُمَاتُ: جمعُ ظُلْمَةٍ.

قال شيخُنَا علي بن عبيد الله: والأصلُ في الظُّلْمَةِ: اسْوِدَادُ الليلِ. فإنَّه إذا عُدِمَ نُورُ النَّهَارِ وغَيْرُهُ من الأنْوَارِ اسْوَدَّ الأفُقُ بتَكَاثُفِ الهَواءِ الرَّاكِدِ، ولهذا إذا اشْتَدَّتِ الحُجُبِ على الهَواءِ الرَّاكِدِ كان الظَّلامُ أكثرُ وأشَدُّ. والظُّلْمَةُ: ذاتٌ يَخْلُقُهَا اللهُ تعالى.

في (النحل): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]، والثاني: في (طه): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤]، وفي (الأنبياء): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

فأما (لا إله إلا الله) فحرفان:

في (الصافات): ﴿إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات: ٣٥]، وفي (محمد): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد: ١٩].

فأما (لا إله إلا هو) فثلاثون حرفًا:

في (البقرة): ﴿وَٰحِدٌ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [البقرة: ١٦٣]، وفيها: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وفي (آل عمران): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٢]، وفيها: ﴿كَيْفَ يَشَآءُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ٦]، وفيها: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [آل عمران: ١٨]، وفي (النساء): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ﴾ [النساء: ٨٧]، وفي (الأنعام): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ١٠٦]، وفي (الأعراف): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وفي (التوبة): ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [التوبة: ٣١]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ [التوبة: ١٢٩]، وفي (هود): ﴿وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [هود: ١٤]، وفي (الرعد): ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [الرعد: ٣٠]، وفي (طه): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ﴾ [طه: ٩٨]، وفي (المؤمنين): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ [المؤمنون: ١١٦]، وفي (النمل): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ﴾ [النمل: ٢٦]، وفي (القصص): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ﴾ [القصص: ٧٠]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وفي (فاطر): ﴿يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [فاطر: ٣]، وفي (الزمر): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [الزمر: ٦]، وفي (حم المؤمن): ﴿ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [غافر: ٣]، ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ﴾ [غافر: ٦٢]، ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ﴾ [غافر: ٦٥]، وفي (حم الدخان): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

هُوَ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۖ﴾ [الدخان: ٨]، وفي (الحشر): ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ﴾ [الحشر: ٢٢]، ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡقُدُّوسُ﴾ [الحشر: ٢٣]، وفي (التغابن): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ﴾ [التغابن: ١٣]، وفي (المزمل): ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذۡهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩].

قال شُرَيْحٌ الْعَابِدُ: رأيتُ في المنام كأنَّ قائلا يقول لي: ائت فلانًا، فقد أمرناه أن يعلمك اسم الله الأعظم، فلما أصبحت جاءني الرجل، فقال لي: إني رأيت البارحة في المنام، فقيل لي: ائت شريحًا فعلمه اسم الله الأعظم، وهو في كل شيء في القرآن لا إله إلا هو.

لما هوى الهوى بقوم يونس في فنون، قام لتحذيرهم من الهون ذو النون أن يزيدهم في انحرافهم عن الهدى في اسم الهوى حرف نون، فدار معهم في دارة دار المُدَارَاةِ دورانَ المنجنونِ، فلم يؤنس يونس منهم رشدًا، ولا زَالَ الجنونُ، فَضَجَّ ضَجَرًا ولوا وبَعُد بعد أن أخبرهم أن العذاب مُصبحهم فَيُصَبُّ على ثلبهم بعد ثلاث، فلما حان حين الحَين غامتِ السماءُ غيمَ سَوْءٍ لا لون له سوى السواد، فرمى رمادها دهاء دهاده دخان ينسطح على السطوح، ثم مال العذاب، فأسرع الميل، فبقي بينهم وبينه قدر ميل، فانتشر شَرُّهُ، وَاسْتَحَرَّ حَرُّهُ، فترهموا إليه، ثم تَرَسَّمُوا، وَتَنَسَّمُوا، فبدى لهم من إسرافهم منذ بدى لهم، فَتَنَدَّمُوا، وَلَبِسُوا والتمسوا مسوك المسوح، ورموا على رءوسهم الرَّمَادَ، وأتوا بالتوبة الصادقة، فَبَيَّضُوا وجوههم من حبات القلوب، فَمَزَّقَ حجابَ العذابِ تمزقَ الشمالِ مجموعُ الجنوبِ، وَشَاحَ يونسُ في فضاءِ (فَظَنَّ)، وما كان له أن يمُر بلا أمر، لكنه سَبَقَ فَأَبَقَ، فركبَ سفينةً فما جرت، فماج أهلها يقفون سبب وقوفها، فقال يونسُ: إن فيها عبدٌ هرب من ربه، وإنها لا تجري من جري ذنبه، فألقوه إلقاء الأسير وسيروا، فقالوا: أَمَّا أنتَ فلا نلقى الله عَزَّ وَجَلَّ بإلقائك، قال: فتقترعون إن كنتم ترعون، فمروا في القُرعة مرارًا، فسهم وجه سهمه إذ ساهم: ﴿فَكَانَ مِنَ ٱلۡمُدۡحَضِينَ﴾ [الصافات: ١٤١]، فألقى نفسه فلتةً، فالتقمه الحوتُ، فأوحى ربك إلى الحوت أن لا تضر يونسَ ولا يُكلم، وإنما

حُبس ليذكرَ الذنبَ فَيَنْدَم، فاجتمعت عليه ظُلمةُ البحرِ وظُلمةُ الليلِ وظُلمةُ بَطْنِ الحوتِ، فأقمر راقد هذه الظلمات الثلاثة بثلاثة أقمار التوحيد، بلفظ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والتنزيه بقوله: ﴿سُبۡحَٰنَكَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، والاعتراف بندم ﴿إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]، فَمَدَّ يَدَ التَّشَبُّثِ إلى حَبْلِ الإخلاصِ فَنَالَهُ بأنامل: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ﴾ [الأنبياء: ٨٨]، وقلصت عواطف اللطف تراعي لأبق سابق الخدم، وتنادي بلسان ﴿إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجۡرَ مَنۡ أَحۡسَنَ عَمَلًا﴾ [الكهف: ٣٠]، ﴿فَلَوۡلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلۡمُسَبِّحِينَ ١٤٣﴾ [الصافات: ١٤٣].

فاعلموا إخواني أن سابقة الأفعال تؤثر في خاتمة الأعمال، فتعرفوا إلى الله في الرخاء يعرفكم في الشدة والبلاء، وانظروا إلى هذا المحبوس، لما سبقت له سابقة كان فنجا، واعتبروا بذلك المنحوس في: ﴿وَكُنتَ مِنَ ٱلۡمُفۡسِدِينَ﴾ [يونس: ٩١]، كيف قويت كف الحنق على خنقه بقضية: ﴿ءَآلۡـَٰٔنَ وَقَدۡ عَصَيۡتَ قَبۡلُ﴾ [يونس: ٩١]، ثم إن فيج الوحي جاء إلى الحوتِ: أَلْقِ هذا البَرَّ في البَرِّ، فما شعر حتى ألقاه كالفرخ بلا جلدٍ ولا شعر، فوقع عُريانًا بالعراء، فَسُتِرَ بحجابٍ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ﴾ [الصافات: ١٤٦]، فلما صَحَّ صِيحَ به: أُمَّ الأمَّةَ، فأقبلَ وعليه حُلَّة، ﴿فَٱجۡتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [القلم: ٥٠] فتلقوه بزينة (فَآمَنُوا)، فسلم إليهم منشور: ﴿فَمَتَّعۡنَٰهُمۡ إِلَىٰ حِينٖ﴾ [الصافات: ١٤٨].

الفصل الثاني والأربعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]

قال ابن قتيبة: (مَا)، و (مَنْ) أصلهما واحد، فجُعلت (مَنْ) للناس، و(مَا) لغيرِ الناسِ.

و (ما) في القرآن على سبعة أوجهٍ:

أحدها: صلة؛ ومنه: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً﴾ [البقرة: ٢٦]، ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم﴾ [النساء: ١٥٥].

الثاني: بمعنى النفي: ﴿وَمَا ظَلَمُونَا﴾ [الأعراف: ١٦٠].

الثالث: بمعنى الذي؛ ومنه: ﴿يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا﴾ [البقرة: ١٥٩].

الرابع: بمعنى الاستفهام: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى﴾ [البقرة: ١٣٣].

الخامس: بمعنى التعجب على لفظ الاستفهام: ﴿فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٥]، ﴿مَآ أَكْفَرَهُۥ﴾ [عبس: ١٧].

السادس: بمعنى كَيْمَا: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦].

السابع: بمعنى مَنْ: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشمس: ٥ - ٦]، ﴿وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾ [الليل: ٣].

قوله تعالى: ﴿حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، وهو ما يُلقى في النار مما تزكى به، والزفير كزفير الحمار في صدره، وهو أول نهيقه، وإنما حرم على أهل النار السماع لأن فيه أنسًا. وقد رَوَى أبو أُمامة عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "يُوضَعُ في مَسَامِعِهِمْ مَسَامِيرُ مِنْ نَارٍ"(١).

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (٢/ ٩٤٠، رقم ١٥٦٨).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وهي الجنة، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا﴾ [الأنبياء: ١٠١]؛ أي: عن جهنم، والحسيس: الصوت تسمعه من الشيء الذي يمر قريبًا منك، وفي (الفزع الأكبر) أربعة أقوال:

أحدها: أنه النفخة الأخيرة.

الثاني: إطباق النار على أهلها.

الثالث: ذبح الموت.

الرابع: حين يُؤمر بالعبد إلى النار.

قوله تعالى: ﴿وَتَتَلَقَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، إذا قاموا من قبورهم، وقيل: على أبواب الجنة، ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣] فيه إضمار (يقولون).

إخواني؛ هذا الذي تسمونه الساعي يتعب طول السنة؛ ليقال له يومًا: أحسنت، أَمَا فيكم مَنْ يعمل ليوم ﴿هَٰذَا يَوْمُكُمُ ٱلَّذِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

مَنْ لم يُطِلْ على البابِ الوقفةَ لم يكن له في الصدر جلسة، من لم يَغُصْ في بحرِ ذُلِّ أُوَيْسٍ لم يَقْدِرْ على سُدَّةِ سيادةِ عُمَرَ.

[المتقارب]

أَلا فَاجْهِدِ النَّفْسَ في نَيْلِهَا فَلا تَرْقَبَنَّ عَسَى أَوْ لَعَلا

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَحْظَ بَعْدَ الطِّلابِ فَالْجَدُّ لا قَدَمُ الْمَرْءِ زَلا

رُئِيَ سفيانُ في المَنَامِ، قيل له: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ قال: دخلتُ الجنةَ، فإذا هَاتِفٌ يقولُ: سفيان؟ فقلت: سفيان، قال: أتذكر يوم آثرت نفسك على هواك؟ قلت: نعم، فأخذتني صواني النثار.

رُئِيَ حمادُ بنُ سَلَمَةَ في المَنَامِ، فقيل: ما فَعَلَ اللهُ بِكَ؟ فقال لي: طال ما كددتَ نفسك في دار الدنيا، فاليوم أطيل راحتك وراحة المتعوبين بَخٍ بَخٍ ما أعددتُ لهم.

وكُفنت رابعة في جُبَّةِ صوفٍ، فرئيت في المنام وعليها حُلة إستبرق،

فقيل: ما فعلتِ الجُبَّةِ؟ فقالت: رُفعت في عِلِّيِّينَ ليُكمل لي ثوابها، قيل لها: فما فعلَ ضيغم؟ قالت: يزورُ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ متى شاء، قيل: فما فعل ابنُ منصورٍ؟ قالت: أُعْطِيَ واللهِ فوقَ ما كان يَأْمَلُ.

يا هذا؛ إن أردت لقانا في حضرة القدس، واشتاق سمعك إلى نغمات الأنْسِ، فصُم عن لَذَّات النفس، وشهواتِ الحسِّ، واصبر على قطع مفازات الحزن، واستدر بنيتك في بيت الوجد، وقضِّ نهار المُنى بمحادثة الزهد، واقطع ليل الهوى بسهر العزم، واقرع فضول الكلام بسوط الصمت، وأقم على طرف طرفك حاجب الغض، وانبذ إلى كلب الشهوات كِسَرَ الصَّبْرِ، وفرِّغ دار عزلتك من شواغل القلب، فإذا سمعت ضجيج محبوس النفس يستغيث من ضيق سجن الزهد لمر الحبس فَصِحْ به: يا صَاحِ صبرًا على قبص الحضر، تخرج إلى رياض ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

[الطويل]

فَقَدْ صُمْتُ عَنْ لَذَّاتِ دَهْرِي كُلِّهَا وَيَوْمَ لِقَاكُمْ ذَاكَ فِطْرُ صِيَامِي

الفصل الثالث والأربعون

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيۡءٌ عَظِيمٞ ١﴾ [الحج:١]

الخطاب في القرآن على خمسة عشر وجهًا:

خطابٌ عامٌّ: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [البقرة: ٢١]، وخطاب خاص: ﴿أَكَفَرۡتُم﴾ [آل عمران: ١٠٦]، وخطاب الجنس: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، وخطاب النوع: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الأعراف: ٢٦]، وخطاب العين: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ﴾ [البقرة: ٣٣]، وخطاب الذم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ٧]، وخطاب المدح: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]، وخطاب الكرامة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ [الأنفال: ٦٤]، وخطاب الإهانة: ﴿فَإِنَّكَ رَجِيمٞ﴾ [الحجر: ٣٤]، وخطاب الجمع بلفظ الواحد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ [الانفطار: ٦]، وخطاب الواحد بلفظ الجمع: ﴿وَإِنۡ عَاقَبۡتُمۡ فَعَاقِبُواْ﴾ [النحل: ١٢٦]، وخطاب الواحد بلفظ الاثنين: ﴿أَلۡقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ [ق: ٢٤]، وخطاب الاثنين بلفظ الواحد: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ﴾ [طه: ٤٩]، وخطاب العين والمراد به الغير: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكّٖ﴾ [يونس: ٩٤]، وخطاب التلون، وهو على وجوهٍ؛ منها: أن يخاطب الحاضر ثم يخبر عن غائب؛ كقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِي ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٖ طَيِّبَةٖ﴾ [يونس: ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَيۡتُم مِّن زَكَوٰةٖ تُرِيدُونَ وَجۡهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُضۡعِفُونَ﴾ [الروم: ٣٩]، ومنها ما يخبر عن غائب ثم يخاطب الحاضر؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡوَدَّتۡ وُجُوهُهُمۡ أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٠٦]، ﴿وَسَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ شَرَابٗا طَهُورًا ٢١ إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمۡ جَزَآءٗ﴾ [الإنسان: ٢١ - ٢٢].

ومنها أن يخاطب عينًا ثم يصرف الخطاب إلى الغير؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الفتح: ٩]، وهذا على قراءة نافع وابن عامر، فإنهما قرءا بالتاء.

والناس[1] في القرآن على سبعة أوجه:

أحدها: مؤمنو أهل الكتاب؛ ومنه: ﴿كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٣].

الثاني: اليهود؛ ومنه: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].

الثالث: ربيعة ومضر: ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنۡ حَيۡثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ١٩٩].

الرابع: بنو إسرائيل؛ ومنه: ﴿مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ٤].

الخامس: نعيم بن مسعود؛ ومنه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

السادس: أهل مكة؛ ومنه: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

السابع: محمد صلى الله عليه وسلم؛ ومنه: ﴿أَمۡ يَحۡسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦۖ﴾ [النساء: ٥٤].

قوله تعالى: ﴿ٱتَّقُواْ رَبَّكُمۡۚ﴾ [الحج: ١]؛ أي: احذروا عقابه، ﴿إِنَّ زَلۡزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ﴾ [الحج: ١]، وهي الحركة الهائلة، وهي من أشراط الساعة.

قال أبي بن كعب: (بينما الناسُ في أسواقهم إذ ذَهَبَ ضوءُ الشَّمسِ، بينما هم كذلك تَنَاثَرَتِ النُّجُومُ، بينما هم كذلك وقعتِ الجبالُ على وجهِ الأرضِ واضطربت، ففزع الجنُّ إلى الأنسُ، والإنسُ إلى الجِنِّ، واختلطتِ الطَّيرُ بالوحشِ، وصارتِ البحورُ نارًا).

---

(١) النَّاسُ: اسمٌ للحيوانِ الآدَمِيِّ. ووَاحِدُ النَّاسِ إِنْسَانٌ، والجَمْعُ: نَاسٌ وأُنَاسِيُّ.

قال ابن فارس: سُمِّيَ الإِنْسُ إِنْسًا لظُهُورِهِمْ.

ويقال: آنَسْتُ الشَّيءَ: رَأَيْتُهُ. وآنَسْتُ الصَّوْتَ: سَمِعْتُهُ. وآنَسْتُ: عَلِمْتُ. والأنِيسُ: كُلُّ ما يُؤْنَسُ بِهِ. والنَّاسُّ - بتشديدِ السِّينِ -: العَطْشَانُ. قال الراجز: [الرجز]

وبَلَدٍ تُمْسِي قَطَاهُ نُسَّا

ويقال لِمَكَّةَ النَّاسِيَةُ لِقِلَّةِ المَاءِ بِهَا.

وقال مقاتل: ينادي مُنادٍ من السماء: يا أيها الناس؛ أتى أمر الله، فيفزعون، حتى يشيب الصغير وتضع الحوامل.

وقال وهب: إذا قامت الساعة صرخت الحجارة صراخ النساء، وتفطرت العضاة دمًا؛ يعني: الشجر، وإن الطير لتضرب بأذنابها، وترمي ما في حواصلها من هول ما ترى وليس عندها طلبه.

يا هذا؛ بين يديك هولا لا يدارى، كم تجري من العيون عند العيان عيون عذارى، والوجد يميل بالناس يمينًا ويسارا، لا يهتدون سبيلا ولا يجدون قرارًا، ﴿وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَـٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَـٰرَىٰ﴾ [الحج: ٢].

يا مسؤولا عن اللفظة والنظرة، ويا من كتابه يحوي حتى الذرة، قليلُ المواعظ يكفي النفسَ الحُرَّةَ، وإنما يُزجرُ العاقلُ مرةً، وقد قُلْنَا مِرَارًا.

الفصل الرابع والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]

لَمَّا تَكَامَلَ بناء البيت أرسلَ اللهُ تعالى إلى خليله إذنَ رسالةِ (وَأَذِّنْ)، فقال: يا رب؛ كيف يسمع صوتي جميع الخلائق؟ فقال الله عز وجل: يا إبراهيم؛ مِنْكَ الأذانُ وَعَلَيَّ البلاغُ، فَعَلا على أبي قُبَيْس، ونادى في جميع الوجوه: إن ربكم قد بَنَى لكم بيتًا فَحجُّوهُ، فأجابَ مَنْ جرى القدرُ بحَجِّهِ: لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، فكان ذلك اليومُ أخًا ليومِ ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢].

[البسيط]

لَمَّا رَأَيْتُ مُنَادِيهِمْ يَلُمُّ بِهِمْ ... شَدَدْتُ مِئْزَرَ إِحْرَامِي وَلَبَّيْتُ
وَقُلْتُ لِلنَّفْسِ جِدِّي الآنَ وَاجْتَهِدِي ... وَسَاعِدِينِي فَهَذَا مَا تَمَنَّيْتُ
لَوْ جِئْتُكُمْ زَائِرًا أَمْشِي عَلَى بَصَرِي ... لَمْ أَقْضِ حَقًّا وَأَيُّ الحَقِّ أَدَّيْتُ

ثم أعلم الجليلُ الخَلِيلَ أن نداك واقعٌ في محل نُجْح ﴿يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]، وهم الرجالة، وقد حَجَّ إبراهيمُ وإسماعيلُ مَاشِيَيْنِ، وَحَجَّ الحُسينُ بنُ علي رضي الله عنهما خمسًا وعشرين حجةً ماشيًا من المدينة والنجائب تُقَادُ معه، وَحَجَّ الإمامُ أحمدُ بنُ حَنْبَلَ رضي الله عنه ماشيًا مرتين، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ﴾ [الحج: ٢٧] قد ضَمَّرَهَا طُولُ السَّفَرِ، وذكر فعل النُّوقِ في لفظ (يَأْتِينَ).

[البسيط]

وَكَمْ وَقَفْتُ وَأَصْحَابِي بِمَنْزِلَةٍ ... نَقْضِي بِهَا وَطَرًا مِنْهَا وَأَوْطَانَا

نَبْكِي وَتُسْعِدُنَا كُومُ المَطِيِّ فَهَلْ نَحْنُ الْمَشُوقُونَ فِيهَا أَمْ مَطَايَانَا
فَلا وَمَنْ فَطَرَ الأشْيَاءَ مَا وَجَدَتْ كَوَجْدِنَا الْعِيسُ بَلْ رَقَّتْ لِبَلْوَانَا

سَارُوا صابرين على مشاقِّ الطريق بين صعودٍ وهبوطٍ ومضيقٍ، واحتملوا من أجلنا خلفَ الرفيق، وسارت بهم الأيْنُقُ من كلِّ رَبْعٍ أَنِيق، وجلبت بهم المطايا من كل بلدٍ سحيق، وأقبلوا ما بين مَاشٍ على قدمه، وقد استسعاه يقين التصديق، ﴿وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ [الحج: ٢٧].

[الرجز]

دَعِ الْمَطَايَا تَنَسَّمُ الْجَنُوبَا
إنَّ لَهَا لَنَبَأً عَجِيبَا
حَنِينُهَا وَمَا اشْتَكَتْ لُغُوبَا
يَشْهَدُ أَنْ قَدْ فَارَقَتْ حَبِيبَا
تَرْزِمُ لَمَّا اسْتَشْرَفَتْ كَثِيبَا
كَأَنَّ بِالرَّمْلِ لَهَا شُقُوبَا
مَا حَمَلَتْ إلا فَتًى كَئِيبَا
يُسِرُّ مِمَّا أَعْلَنَتْ نَصِيبَا
يَمْشِي إذَا حَنَّتْ لَهَا مُجِيبَا
بِطَرقِهَا إذَا انْثَنَى طَرُوبَا
إنَّ الْحَنِينَ يَبْعَثُ الْجَنِيبَا
لَوْ غَادَرَ الشَّوْقُ لَنَا قُلُوبَا
إذَنْ لأثَرْنَا بِهِنَّ النِّيبَا
إنَّ الْغَرِيبَ يُسْعِدُ الْغَرِيبَا

فارق القوم ديارهم، وأثروا عبادهم، وتركوا أولادهم، وأعروا أجسادهم، واظمأوا أكبادهم، وخلُّوا مُرادهم، وجعلوا ذكره زادهم، وأفنوا زوادهم، وأنضوا جيادهم، باينوا الخلائق، وتجردوا عن العلائق، تَغَرَّبُوا عن الأوطان، وفارقوا الأهل والمال والجيران، نزعوا المَخِيطَ، ونزعوا عن التفريط، وأقبلوا إلى الملك المحيط، وملأوا بالتلبية ذاك البسيط، وإنما أُمروا بالتعري

ليدخلوا بزي الفقراء على الكريم، ليبين أثر: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧].

إخواني؛ الحج حرفان: حَاءٌ وَجِيمٌ، فَالْحَاءُ حِلْمُ الْمَعْبُودِ، وَالْجِيمُ جُرْمُ الْعَبْدِ.

مَنْ أَعْلَمَ السَّائِقَ الْعَنِيفَ بِهِمْ ... بِأَنَّ رُوحِي تُسَاقُ مَعَ إِبِلِه
وَأَنَّ دَمْعِي يَرْوِي رِكَابَهُمُ ... لَوْلا دم في انْسِكَابِ مُنْهَمِلِه

تالله لقد جمعوا الخير الجَمَّ ليلةَ جمع، ونالوا المُنى إذ دخلوا مِنَى.

[البسيط]

لِلَّهِ دَرُّ مِنًى وَمَا جَمَعَتْ ... وَبُكَا الأحِبَّةِ لَيْلَةَ النَّفْرِ
ثُمَّ اغْتَدُوا فِرَقًا هُنَا وَهُنَا ... يَتَلاحَظُونَ بِأَعْيُنِ الذِّكْرِ

حج القوم ونالوا المنى، وتخلفت أنت للذرداب والعناء، فما لنا ما لَنا ما لنا.

[الكامل]

نَالَ المُنَى مَنْ حَلَّ في وَادِي مِنَى ... غَيْرِي فَإِنِّي ما بَلَغْتُ مُرَادِي
لَبِسُوا الْبَيَاضَ بِذَاتِ عرقِ وَأَحْرَمُوا ... وَلَبِسْتُ مِنْ حُزْنِي ثِيَابَ سَوَادِ
رَفَعُوا أَكُفَّهُمُ وَضَجُّوا بِالدُّعَا ... وَضَمَمْتُ مِنْ وَجْدِي يَدِي بِفُؤَادِي

لَمَّا حَجَّ جعفرُ الصَّادِقُ فأرادَ أن يُلَبِّي تَغَيَّرَ وَجْهُهُ، فقيل: مَا لَكَ يا ابنَ رسولِ اللهِ؟ قال: أريدُ أن أُلَبِّي، فأخافُ أن أَسْمَعَ غيرَ الجوابِ.

هذه حالُ الصَّادِقِ في خَوْفِهِ، وكيفَ حَالُكَ يا كَذَّابُ؟

ووقف بكرٌ ومطرفٌ، فقال مطرف: اللهم لا تَرُدَّهُمْ مِنْ أَجْلِي، وقال بكر: ما أَشْرَفَهُ مِنْ مَقَامٍ لَوَلا أَنِّي فِيهِمْ.

وقام الفضيل بعرفةَ فشغله البكاءُ عن الدعاء، فلما كادتِ الشمسُ تَغْرُبَ، قال: وَاسَوْءَتَاهُ مِنْكَ وَإِنْ عَفَوْتَ.

ووقف بعضُ الخائفين بالموقف على قدم الإطراق والحياء، فقيل له: لِمَ لا تَدْعُو؟ فقال: ثَمَّ وَحْشَةٌ، قيل: هذا يَوْمُ العَفْوِ عَنِ الذُّنُوبِ، فَبَسَطَ يَدَيْهِ فَوَقَعَ مَيِّتًا.

انْــزِلِ الْــوَادِي بِــأَيْــمَــنِــهِ إِنَّــهُ بِــالــدَّمْــعِ مَــلآنُ
وَارْمِ بِـالـطَّـرْفِ الْـعَـقِـيـقَ فَـلِـي ثَــمَّ إِطْــرَابٌ وَأَشْــجَــانُ
وَانْـشُـدِ الْـقَـلْـبَ الْـمَـشُـوقَ عَـسَـى يَـرْجِـعُ الْـمَـفْـقُـودُ نَـشْـدَانُ
وَابْـكِ عَـنِّـي مَـا اسْـتَـطَـعْـتَ إِذَا مَـا بَـدَا لِـلـطَّـرْفُ نَـعْـمَـانُ
وَاقْـرِهِ عَـنِّـي الـسَّـلامَ فـسـكَـانُ قَـلْـبِـي فِـيـهِ سُـكَـانُ

قال وهيب بن الورد: بينما امرأة تطوف بالبيت، وتقول: يا رب؛ ذهبتِ اللذاتُ وبقيتِ التَّبِعَاتُ، يا رب ما لَكَ عقوبة إلا النار، فقالت لها صاحبة لها: يا أُخَيَّه؛ هَلا دَخَلْتِ اليَوْمَ بَيْتَ رَبِّكِ، قَالَتْ: ما أَرَى هَاتَيْنِ القَدَمَيْنِ أَهْلا لِلطَّوَافِ، فكيفَ أَدْخُلُ بِهِمَا وَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ مَشَتَا.

حَجَّ الشِّبْلِيُّ، فَلَمَّا رَأَى مَكَّةَ قال: [المتقارب]

أَبَـطْـحَـاءَ مَـكَّـةَ هَـذَا الَّـذِي أَرَاهُ عِـيَـانًـا وَهَـذَا أَنَـا

ثم غشي عليه، فَلَمَّا أَفَاقَ قال: [مجزوء الرمل]

هَـذِهِ دَارُهُـمْ وَأَنْـتَ مُـحِـبٌّ مَـا بَـقَـاءُ الـدُّمُـوعِ فـي الآمَـاقِ

حج قوم من العباد وفيهم عابدة، فجعلت تقول: أين بيت ربي؟ فيقولون: الآن ترينه، فلما لاح البيت، قالوا: هذا بيت ربك، فخرجت تشتد، وتقول: هذا بيت ربي، حتى وضعت جبهتها على البيت، فما رفعت رأسها إلا وهي ميتة.

[الكامل]

هَـاتَـيْـكَ دَارُهُـمُ وَهَـذَا مَـاؤُهُـمْ فَـاحْبِسْ ورد وشرقت إِنْ لَـمْ تَـسْقِنِي
اشْـتَـقْـتُ يَـا سُـفُـنَ الـفَـلاةِ فَـبَـلِّـغِـي وَطَـرِبْـتُ يَـا حَـادِي الْـمَـطِـيِّ فَـغَـنِّـنِي
قَـالُـوا عَـسَـاكَ مُـرَجِّـمٌ مُـتَـبَـيِّـنٌ هَـيْـهَـاتَ لَـيْـسَ بِـنَـاظِـرِي إِنْ غَـرَّنِـي

واأسفا كيف ساروا وقعدتُ، وَاحَرَبَا كيف قربوا وتباعدتُ، أين حسرات البُعد؟ أين لَذَعَاتُ الوَجْدِ؟ أين حركات الشوق؟ أين قطرات التوق؟ أين تلهف الفوت؟ أين أسف الحرمان؟ أين حزن الخسران؟

[الرمل]

أَتَـظُـنَّ الْـوُرْقَ فـي الأيْـكِ تُـغَـنِّـي ... إِنَّـهَـا تُـضْـمِـرُ حُـزْنًـا مِـثْـلَ حُـزْنِـي
لا أَرَاكَ الـلـهُ نَـجْـدًا بَـعْـدَهَـا ... أَيُّـهَـا الْـحَـادِي بِـهَـا إِنْ لَـمْ تُـجِـبْـنِـي
هَـلْ تُـبَـارِيـنِـي إِلَـى بَـثِّ الْـجَـوَى ... فـي دِيَـارِ الْـحَـيِّ نَـشْـوَى ذَاتُ غُـصْـنِ
هَـبْ لَـهَـا الـسَّـبْـقَ وَلَـكِـنْ زَادَهَـا ... أَنَّـنَـا نَـبْـكِـي عَـلَـيْـهَـا وَتُـغَـنِّـي
يَـا زَمَـانَ الْـخَـيْـفِ هَـلْ مِـنْ عَـوْدَةٍ ... يَـسْـمَـحُ الـدَّهْـرُ بِـهَـا مِـنْ بَـعْـدِ ضَـنِّ
أَرَضِـيـنَـا مِـنْ ثَـنِـيَّـاتِ الـلِّـوَى ... بِـزُرُودٍ يَـا لَـهَـا صَـفْـقَـةَ غَـبْـنِ
سَـلْ أَرَاكَ الْـجَـزْعِ هَـلْ جَـادَتْ بِـهِ ... مُـزْنَـةٌ رَوَّتْ ثَـرَاهُ غَـيْـر جَـفْـنِـي
وَأَحَـادِيـثَ الـغَـضَـا هَـلْ عَـلِـمَـتْ ... أَنَّـهَـا تَـمْـلِـكُ قَـلْـبِـي قَـبْـلَ أُذْنِـي

هنيئًا لمن وصل يا منقطعين، طوبى لمن أُعطي يا محرومين، طوبى لمن صالح يا مهجورين، فوزًا لمن قُبِلَ يا مطرودين، تلمحوا المقربين يا مُبْعَدِين.

[الطويل]

أَقُـولُ لِـرَكْـبِ الـرَّايِـحِـيـنَ لَـعَـلَّـكُـمْ ... تَـحُلُّونَ مِنْ بَعْدِي الْعَقِيقَ الْيَمَانِيَا
خُذُوا نَظْرَةً مِنِّي فَلاقُوا بِهَا الْحِمَى ... وَنَـجْـدًا وَكُثْبَانَ اللِّوَى وَالْـمَطَالِـيَا
وَقُولُوا لِجِيرَانِي عَلَى الخَيفِ مِنْ مِنَى ... تَـرَاكُـمْ مَـنِ اسْـتَـبْـدَلْـتُـمْ بِـجِـوَارِيَـا
وَمَـنْ وَرَدَ الْـمَـاءَ الَّـذِي كُـنْـتُ وَارِدًا ... لَهُ وَرَعَى الْعُشْبَ الَّذِي كُنْتُ رَاعِيَا
تَـرَحَّـلْـتُ عَـنْـكُـمْ لِـي أَمَـامِـي نَـظْـرَةٌ ... وَعَـشْـرٌ وَعَـشْـرٌ بَـعْـدَهُـمْ مِـنْ وَرَائِـيَـا
فَيَا أَسَفًا كَمْ لِي عَلَى الخَيْفِ شَهْقَة ... تَـذُوبُ عَـلَـيْـهَـا قِـطْـعَـةٌ مِـنْ فُـؤَادِيَـا

يا مَنْ لم يَصِلْ هذا العام إلى مِنَى، اطلب مِنَى فَمِنَى المُنَى، يا مَنْ لم يقدر على تقبيلِ الحجرِ، خَلِّصْ قلبك فقد حَجَرَ عليه حُبُّ الحَجَر.

اجعل عوض الإحرام ترك الحرام، ومكان رمي الجمرات أن تطفئ من نار الهوى الجمرات، إن لم تصل إلى الحطيم فلا تصل إلى الحُطام، إن لم تكن ثم فلا تركبن الآثام، إن لم تصل إلى عرفة، فأقبل إليه بقلبٍ قد عرفه، يا عجبًا لمن يقطع المفاوز ليرى البيت، ويشاهد أثار الأنبياء، كيف لا يقطع بادية

نفسه عن هواها، ليصل إلى كعبة، (وَيَسَعُنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ)، اجْلِ قَلْبَكَ بإجالة ذِكْرِ أَجَلِك، وارفع جليل همك عن جَلَل الهوى، وتجلجل الجهالة، وَسُقْ بدنة بَدَنِك، الحق مِنَى نَلْ منى، اترك المُنَى وَسِرْ في فيافي الجِدِّ حاملا زاد المجاهدةِ، لَعَلَّكَ تصل إلى كعبة الجلال، فتطوفَ طَوَافَ الإجْلالِ.

[البسيط]

إِلَيْكَ قَصْدِي لا لِلْبَيْتِ وَالأَثَرِ ... وَلا طَوَافِي بِأَرْكَانٍ وَلا حَجَرِ
صَفَاءُ دَمْعِي الصَّفَا لِي حِينَ أَعْبُرُهُ ... وَزَمْزَمِي دَمْعَةٌ تَجْرِي مِنَ الْبَصَرِ
وَفِيكَ سَعْيِي وَتَعْمِيرِي وَمُزْدَلَفِي ... وَالْهَدْيُ جِسْمِي الَّذِي يُغْنِي عَنِ الْجُزُرِ
وَمَسْجِدُ الْخَوْفِ خَوْفِي مِنْ تَبَاعُدِكُمْ ... وَمَشْعَرِي وَمَقَامِي دُونَكُمْ خَطَرِي
زَادِي رَجَائِي لَكُمْ وَالشَّوْقُ رَاحِلَتِي ... وَالْمَاءُ مِنْ عَبَرَاتِي وَالْهَوَى سَفَرِي

فصل

يُقَالُ فِي يَوْمِ عَرَفَةَ

الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْزِلُ يَوْمَ عَرَفَةَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فَيَقُولُ: يَا مَلائِكَتِي؛ انْظُرُوا إِلَى عِبَادِي، أَتُونِي شُعْثًا غُبْرًا مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ، أُشْهِدُكُمْ أَنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ، فَتَقُولُ الْمَلائِكَةُ: يَا رَبُّ؛ إِنَّ فِيهِمْ فُلانًا وَفُلانًا، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: قَدْ غَفَرْتُ لَهُمْ أَجْمَعَ "(١)، وفي لَفْظٍ آخَرَ: " لا يَبْقَى يَوْمَ عَرَفَةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ إلا غُفِرَ لَهُ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ؛ لأَهْلِ مُعَرَّفٍ أَوْ غَيْرِ مُعَرَّفٍ، فَقَالَ: لِمُعَرَّفٍ وَلِغَيْرِ مُعَرَّفٍ "(٢).

بادر بالتوبة قبل الفوت، إن لم تتب في هذا الوقت متى تتوب، عليك ذنوب وما تتوب، وشمس الحياة قد أخذت في الغروب، فما أقسى قلبك من بين القلوب.

اذكروا إخوانكم في هذه الساعة، وفي هذه الليلة، وهم على الأقدام راجين جزيل الأنعام، وقد أخذوا في التَّضَرُّعِ وفي التلبيةِ والدعاءِ، مثلوا

---

(١) أخرجه البزار كما فى كشف الأستار (٢/ ٢٨ رقم ١١٢٨)، وابن خزيمة (٤/ ٢٦٣، بعد رقم ٢٨٣٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٣/ ٤٦٠، رقم ٤٠٦٨)، وابن عساكر (٤٥/ ٣١٦).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٣ رقم ٢٠٤٥٧) والطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١٠/ ٣٥٩) قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح. وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٧/ ٥٩، رقم ٣٤١٩٣)، وابن أبى عاصم (٢/ ٤٠٣، رقم ٨٣٧)، والبزار (٩/ ١٢٢، رقم ٣٦٧١)، والطبرانى فى الصغير (٢/ ١٤٢، رقم ٩٢٩).

لأنفسكم كأنكم بينهم، أو كأنكم معهم، قوموا على الأقدام، وسلوا مولاكم وقد كفاكم وأعطاكم، لبيك اللهم لبيك، ارحم تضرعنا بين يديك، قد أتينا من الذنوب هاربين إليك، فلا تردنا خائبين، وَعِزَّتِهِ ما تُقْبِلُ إليهِ إلا وقد أَقْبَلَ عَلَيْكَ، إلهي اعْتِقْ رقبةً قد رَقَبَتْ جُودَكَ، ارحم غَرِيقًا في بحرِ الذنوبِ ما يسمع اسْتِغَاثَتَهُ سِوَاكَ، خَلِّص أسيرًا في يد رُومِ الهوى ما يقدر على فِكَاكِهِ غيرُك، اللهم إنك أمرتنا أن نعتق أَرِقَّانَا ونحن أَرِقَّاؤُكَ فَاعْتِقْنَا، اللهم إنك أمرتنا أن نعفوا عَمَّنْ ظَلَمَنَا وقد ظلمنا أنفسنا فَاعْفُ عَنَّا، اللهم إنك أمرتنا أن لا نَرُدَّ السُّؤَّالَ، ونحن السُّؤَّالُ ببابك فلا تَرُدَّنَا خائبين، واغفر لنا أجمعين، يا أرحم الراحمين.

الفصل الخامس والأربعون

في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ۝١﴾ [المؤمنون: ١]

روى أبو سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَاطَ حَائِطَ الْجَنَّةِ لَبِنَةً مِنْ ذَهَبٍ، وَلَبِنَةٍ مِنْ فِضَّةٍ، وَغَرَسَ غَرْسَهَا بِيَدِهِ، وَقَالَ لَهَا: تَكَلَّمِي، فَقَالَتْ: قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ، فَقَالَ لَهَا: طُوبَى لَكِ مِنْزَلَ الْمُلُوكِ "[1].

وفي تسميةِ الصَّلاةِ[2] صَلاةً ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: لِمَا فيها من الدعاء.

الثاني: لرفعِ الصَّلا في الركوع والسجود، والصلا: مَغْرَزُ الذَنَبِ مِنَ الْفَرَسِ.

الثالث: لِمَا فيها مِنَ الخُشُوعِ، يُقال: صَلَيْتُ العودَ بالنَّارِ إذَا لَيَّنْتُهُ، والمُصَلِّي يَلِينُ وَيَخْشَعُ.

والصلاة في القرآن على عشرةِ أوجهٍ:

أحدها: الصَّلاةُ الشَّرعيَّةُ؛ ومنه: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [المائدة: ٥٥].

الثاني: صلاةُ العَصْرِ؛ ومنه: ﴿تَحْبِسُونَهُمَا مِنۢ بَعْدِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [المائدة: ١٠٦].

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٤/٩٩، رقم ٣٧٠١).

(٢) وسميت الصلاة لما فيها من الدعاء، والصلاة على الجنازة؛ لأنها دعاء لا سجود فيه ولا ركوع، وقيل: أصلها اللزوم، ومن قيل: ﴿تَصْلَىٰ نَارًا﴾ [سورة الغاشية آية: ٤] أي: يلزمها.

الثالث: صَلاةُ الجِنَازَةِ؛ ومنه: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾ [التوبة: ٨٤].

الرابع: الدُّعَاءُ: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٣].

الخامس: الدِّينُ؛ ومنه: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧].

السادس: القِرَاءَةُ: ﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾ [الإسراء: ١١٠].

السابع: مَوْضِعُ الصَّلاةِ؛ ومنه: ﴿وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ﴾ [الحج: ٤٠].

الثامن: المَغْفِرَةُ؛ ومنه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ﴾ [الأحزاب: ٥٦]، فصلاة الله تعالى المغفرة.

التاسع: الاسْتِغْفَارُ، وهو بمعنى: صلاة الملائكة.

العاشر: صَلاةُ الْجُمُعَةِ ﴿إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾ [الجمعة: ٩].

قال عليٌّ رضي الله عنه: (الخُشُوعُ في الصَّلاةِ تَرْكُ الالْتِفَاتِ).

وقال قتادة: هو النظر إلى موضع السجود.

وقال أهل العلم: الصلاة أفضل العبادات؛ لأن بها يدخل المشرك في الإسلام، وبتركها يخرج المسلم من الإسلام، وقد فُضِّلَ الوضوءُ الذي هو بابها، وقد مُدِحَتِ الخطواتِ إلى موضعها.

وروى مُسْلِمٌ في إفراده من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "إِذَا تَوَضَّأَ الْعَبْدُ الْمُسْلِمُ أَوِ الْمُؤْمِنُ فَغَسَلَ وَجْهَهُ، خَرَجَتْ مِنْ وَجْهِهِ كُلُّ خَطِيئَةٍ نَظَرَ إِلَيْهَا بِعَيْنَيْهِ، فَإِذَا غَسَلَ يَدَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ بَطَشَهَا بِيَدِهِ، وَإِذَا غَسَلَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتْ كُلُّ خَطِيئَةٍ مَشَتْهَا رِجْلاهُ، فَيُنَقَّى مِنَ الذُّنُوبِ"(١).

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢١٥، رقم ٢٤٤)، والترمذى (١/ ٦، رقم ٢) وقال: حسن صحيح. وابن حبان (٣/ ٣١٥، رقم ١٠٤٠). وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة (١/ ٥، رقم ٤)، وأبو عوانة (١/ ٢٠٧، رقم ٦٦٩)، والبيهقى (١/ ٨١، رقم ٣٨٦). وعزاه البيهقى فى المعرفة (١/ ٣٠٧ رقم ٧٣٥) للشافعى.

وروى بُرَيْدَةُ عن النبي صلى الله عليه وسلم، "أَنَّهُ أَصْبَحَ فَدَعَا بِلالا، فَقَالَ: بِمَ سَبَقْتَنِي إِلَى الْجَنَّةِ، ما دَخَلْتُ الْجَنَّةَ إلا سَمِعْتُ خَشْخَشَتَكَ أَمَامِي، قَالَ: ما أَحْدَثْتُ إلا تَوَضَّأْتُ وَصَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِهَذَا "[١].

بُرَيْدَةُ: هو ابنُ الحُصَيْبِ، وليس في الصحابة رجل اسمه بُرَيْدَةُ سواه، وفي الصَّحَابِيَّاتِ امرأة اسمها بُرَيْدَةُ، وما في الصَّحَابيَّاتِ امرأة اسمها بُرَيْدَةُ سواها، فهذه من الأسماء التي تساوى فيها الرجال والنساء، مثل ذلك أسماء بنت أبي بكر، وأسماء بنت عميس، صحابيتان، وَثَمَّ امرأة أخرى يقال لها: أسماء، روت عن أبيها، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

بركة أم أيمن، حاضنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، روت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسَ أحاديثٍ، لم يُخَرَّجْ لها في الصحيحين شيءٌ، وبركة أم عطاء ابن أبي رباح.

ومن الرجال: بركة أبو المنذر، روى عن ابن عباسٍ، بركة بن نشيطٍ، روى عن عثمان بن أبي شيبة.

جويرية بن مُسهمٍ، روى عن علي رضي الله عنه، وجويرية بن بشير، روى عن الحسن، وجويرية ابن أسماء، روى عن نافعٍ.

ومن النساء: جويرية أم المؤمنين رضي الله عنها، وجويرية بنت أبي جهل، أسلمت وبايعت.

الرباب بنت البراء بن معرور، الرباب بنت حارثة بن كعب أم حذيفة، الرباب بنت النعمان عمة سعد بن معاذ، كلهن صحابيات ومُبايعات.

وفي الرجال تابعي يقال له: الرباب، سمع من ابن عباسٍ.

عُلَيَّةُ بنُ يزيدَ صَحَابيٌّ، عُلَيَّةُ بنتُ المَهْدِي، عُصَيْمَةُ حليف الأنصار من بني أَسَدٍ، وعُصيمةُ حليف لهم من أشجعَ، كلاهما شَهِدَا بَدْرًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٥٤، رقم ٢٣٠٤٦)، والترمذى (٥/ ٦٢٠، رقم ٣٦٨٩) وقال: صحيح غريب. وابن خزيمة (٢/ ٢١٣، رقم ١٢٠٩)، وابن حبان (١٥/ ٥٦١، رقم ٧٠٨٦)، والحاكم (١/ ٤٥٧، رقم ١١٧٩) وقال: صحيح على شرط الشيخين.

ومن النساء: عُصيمة بنت خباب، وعُصيمة بنت أبي الأفلح، مُبايعات.

هند بن حارثة، هند بن أبي هالة، صحابيان.

ومن النساء: هند، وهي أم سلمة، زوجة النبي صلى الله عليه وسلم، ومعها خمس عشرة امرأةً من الصحابيات، كلهن اسمها هند.

وأبلغ من هذا أن يتساوى الرجل والمرأة واسم أبيهما، مثل: أمية بن أبي الصلت، وأمية بنت أبي الصلت، روى حديثها ابن إسحاق.

أمية بن عبد الله حَدَّثَ عن ابن عمر، أمية بنت عبد الله تروي عن عائشة رضي الله عنها.

عمارة بن حمزة من ولد عكرمة، عمارة بنت حمزة التي اختصم فيها علي وجعفر وزيد، انفرد بتسميتها عمارة بنت حمزة الواقديُّ، وغيره يقول: بنت أمامة.

فضالة بن الفضل حَدَّثَ عن أبي بكر بن عياش، فضالة ابنة الفضل، روى عنها عبد الرحمن بن جَبَلَةَ.

هند بن المهلب روى عنه أبو الزبرقان، هند بنت المهلب، هند بنت الحجاج حَدَّثَتْ عن أبيها.

هبة الله بن أحمد شيخ متأخر روى عن المخلص، هبة الله بنت أحمد حَدَّثَتْ عن أحمد بن محمود القاضي.

ومن هذا الفن ما يتشابه في الخط، ويتباين في اللفظ مع تساوي النسب:

بُسْرَةُ بنت صفوان صحابيَّة، يَسْرَةُ بن صفوان حَدَّثَ عن إبراهيم بن سعد الزُّهْرِيِّ.

حمزة بن عبد الله جماعة، وحمزة بنت عبد الرحمن أخت أبي بكر بن عبد الرحمن الفقيه.

ومما يقع فيه الإشكال، فيظن أنه قد سقط منه حرف:

إسحاق بن الأزرق، إسحاق الأزرق، فالأول مصري روى عن الليث بن سعد، الثاني: يروي عن الثوري.

عياس بن الأزرق، عياش الأزرق، فالأول بالسين المهملة روى عنه جعفر الفريابي، الثاني بصري روى عنه عبد الصمد بن عبد الوهاب.

عُدْنَا إلى ما كُنَّا فيه، أَيُّهَا المُصَلِّي؛ طَهِّرْ قلبك قبل الطهور، وحل عقدة الأضرار قبل عقد النية، وَفَتِّشْ على قلبك الضائع قبل الشروع في الصلاة.

يا هذا؛ حضور القلب قبل اللفظ أول منزل، فإذا نزلته انتقلت إلى بادئة المعنى، فإذا رحلت عنها أنخت بباب المناجاة أول ضيف، وأول اليقظة كشف الحجاب لعين القلب، فإذا استغرقته حلاوة المناجاة ظفر بمعدن " جُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي في الصَّلاةِ "[١]، فيا من لم يقطع منزلا واحدًا من بادئة البداية، كيف تطمع في النزول إلى نهى النهاية؟ كيف يطمع في دخول مكة منقطع بالكوفة؟ همك في الصلاة متشتت، وسرك في المناجاة متلون، وقلبك بمساكنة الغير مُتَلَوِّث، ومن كان مُتَلَوِّثًا بالأقذار لم يُغلَّف، وكيف يجد طعم العسل مريرُ الفَمِ.

وفي حديث ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْ مُصَلٍّ إلا وَمَلَكٌ عَنْ يَمِينِهِ، وَمَلَكٌ عَنْ شِمَالِهِ، فَإِنْ أَتَمَّ صَلاتَهُ عَرَجَا بِهَا، وَإِنْ لَمْ يُتِمَّهَا ضَرَبَا بِهَا وَجْهَهُ "[٢].

يا هذا؛ ادخل دار الخلوة، وَاخْلُ بمن تناجي، وأحضر قلبك لتفهم ما تتلو، ففي جلوات التلاوة تُزَفُّ أَبْكَارُ المَعَالِي.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/١٢٨، رقم ١٢٣١٥)، والنسائى (٧/٦١، رقم ٣٩٣٩)، وابن سعد (١/٣٩٨)، وأبو يعلى (٦/٢٣٧، رقم ٣٥٣٠)، والحاكم (٢/١٧٤، رقم ٢٦٧٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقى (٧/٧٨، رقم ١٣٢٣٢)، والضياء (٤/٤٢٧، رقم ١٦٠٨). وأخرجه أيضًا: محمد بن نصر فى تعظيم قدر الصلاة (١/٣٣١، رقم ٣٢٢)، والعقيلى (٢/١٦٠، ترجمة ٦٦٦ سلام بن سليمان أبو المنذر).

(٢) أخرجه الديلمى (٤/٢٩، رقم ٦٠٩١)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/٤٤٢، رقم ٧٥٥) وقال قال الدارقطنى: تفرد به عبد الله بن عبد العزيز عن يحيى ولم يروه عنه غير الوليد. قلت (يعنى ابن الجوزى) قال على بن الحسين بن الجنيد: أما عبد العزيز لا يساوى فلسا يحدث بأحاديث كذب.

يا هذا؛ لو قال لك أميرٌ مُقَدَّمٌ: تَقَدَّمْ أُنَاجِيكَ، لَكَانَ ذلك لَكَ فَخْرًا دائمًا، فقد قيل لك: فَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ.

يا هذا؛ التكبير ثمانية أحرف، وأبواب الجنة ثمانية، فكأن المكبر يستفتح الأبواب كلها بحروفه، لما لامس العبد الصلاة عند شروعه في التكبير حُرِّمَتْ عليه غيرة المناجاة محادثة الغير، فإذا خرج منها حَلَّ له ما حُرم، فذلك معنى قوله: " تَحْرِيمُهَا التَّكْبِيرُ، وَتَحْلِيلُهَا التَّسْلِيمُ "(١).

وإنما شرع التسليم في آخر الصلاة؛ لأن المصلي المحق خارج من الأكوان مشتغلا بالمناجي، فإذا انتهت صلاته، فكأنه قدم من غيبة، والسلام مسنون للغائب إذا قدم.

يا هذا؛ لو سافرت سفرًا بلا ربحٍ أَسِفْتَ على تَعَبِكَ، وأنت تَتَعَرَّض بقرة العين كل يوم خمس مرات، فأين أثر ربحك، إنما جعل الدخول في الصلاة بتكبيرة واحدة والخروج بتسليمتين؛ لمكان قدرك عند المُناجي، ولموضع حبه لك؛ لأنَّ المحبوب يُؤذن له بالدخول في أول مرة، فإذا أراد الخروج توقف الإذن له، حُبًّا لمقامه، فلا يؤذن له بالخروج من أول مرة.

يا هذا؛ تعبُّد الملائكة يختلف، فمنهم قيام، ومنهم ركوع، ومنهم سجود، فجمعت لك عبادتهم في ركعتين، المخلوقات الأرضية منها قائم كالأشجار والجبال، وراكع كالبهائم، وساجد كالحَيَّات، وقاعد كالحجارة، وكلها تُسَبِّحُ، فجُعلت صلاتك كهيئة الكل، لتعطى الثواب بعدد الكل.

يا هذا؛ لو اجتنبت المحارم، وأحببت المخدوم لأحببت الخدمة، ولو آنست بالمناجي لغبت عن وجودك، كان الزبير إذا قام إلى الصلاة، فكأنَّه عُودٌ من الخشوع، وكانت العصافير تسقط على ظهره، وتحسبه جذم حائط، ولقد

---

(١) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد وإسحاق وابن شيبة والبزار عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرفوعاً، وأخرجه الحاكم وابن ماجه عن أبي سعيد الخدري مرفوعاً. انظر: بذل المجهود ١/١٥٣، عارضة الأحوذي ١/١٥، سنن ابن ماجه ١/ ١٠١، المستدرك ١/١٣٢، الدراية في تخريج أحاديث الهداية ١/١٢٦، شرح السنة للبغوي ٣/١٧ مسند الإمام أحمد ١/١٢٣، ١٢٩.

جاء حجر قَذَّافَة فذهب بقطعةٍ من ثوبه وهو يصلي فما التفت، ووقع حريق في بيت علي بن الحسين رضي الله عنهما وهو ساجد، فجعلوا يقولون: يا ابن بنت رسول الله، النَّارَ النَّارَ، فما رفع رأسه حتى أطفئت، فقيل له: ما الذي أَلْهَاكَ عنها؟ فقال: ألهتني عنها النار الكبرى.

[الكامل]

أَجِدُ الْهَوَى عِنْدِي وَقَلْبِي عِنْدَهُمْ عَجَبًا لِمَفْقُودٍ حَوَى مَوْجُودًا

انهدمت ناحية من المسجد، فانزعج أهل السوق ومسلم بن يسار يصلي في المسجد، فما التفت، وكان يقول لأهله: تحدثوا إذا دخلت في الصلاة، فإني لا أسمع حديثكم.

مسلم بن يسار ستة أنفس:

أحدهم: هذا، لقي جماعة من الصحابة .

الثاني: مديني، روى عن أبي هريرة .

الثالث: مكي، روى عن ابن عمر .

الرابع: يقال له: الطرذي، روى عن أبي هريرة وابن عمر .

الخامس: جُهني، حدث عن نعيم بن ربيعة .

السادس: كوفي، روى عن الشعبي.

وصلى أبو زرعة الرازي في مسجد عشرين سنة، وفي محرابه كتابة، فسئل عنها، فقال: ما رأيتها، أيدخل الرجل على الله ويدري ما بين يديه.

وقيل لحاتم الأصم: كيف تصلي؟ فقال: أقوم بالأمر، وأمشي بالسكينة، وأكبر بالتعظيم، وأقرأ بالترتيل، وأمثل الجنة عن يميني والنار عن شمالي، وملك الموت خلفي، وأركع بالتواضع، وأسجد بالتضرع، وأعلم أني بين يدي ربي، وأظن أن هذه الصلاة آخر صلاتي.

يا هذا؛ إنما حرس أبدان القوم عن الالتفات يقظة القلوب إذا كانت مشاهدة مخلوق يوم ﴿ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: ٣١] استغرقت إحساس الناظرات، فراحت ريح الحب، بلغت بمراكب القلوب في محج الدهش

(فَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ)، وكيف بالباب عقلت، فعقلت على الباب، لقد شغلها لذيذ الخطاب عن جميع الأسباب.

[البسيط]

لَهَا بِوَجْهِكَ نُورٌ تَسْتَضِيءُ بِهِ   وَمِنْ نَوَالِكَ فِي أَعْقَابِهَا حَادِي
لَهَا أَحَادِيثُ مِنْ ذِكْرَاكَ تَشْغَلُهَا   عَنِ الشَّرَابِ وَتُلْهِيهَا عَنِ الزَّادِ

الفصل السادس والأربعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ۝١٢﴾ [المؤمنون: ١٢]

الإنسان[1] في القرآن على خمسة وعشرين وجهًا:

أحدها: آدم؛ ومنه هذه الآية.

الثاني: أولاد آدم عليه السلام، ومنه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ [الإنسان: ٢].

الثالث: أبو بكر الصديق؛ ومنه في (الأحقاف): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [الأحقاف: ١٥].

الرابع: سعد بن أبي وقاص؛ ومنه في (لقمان): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ﴾ [لقمان: ١٤].

---

(١) الإنْسَانُ: واحدُ النَّاسِ، والجَمْعُ: نَاسٌ وأَنَاسِيُّ، ولا يُصْرَفُ.

وقيل: سُمِّيَ إِنْسَانٌ؛ لأنَّه يَأْنسُ بجِنْسِهِ. وقال ابن قتيبة: سُمِّيَ الإنْسُ إِنْسًا؛ لظُهُورِهِم وإدراك البَصَرِ إيَّاهُم، وهو من قولك: آنَسْتُ كَذَا؛ أي: أَبْصَرْتُهُ. قال اللهُ عَزَّ وجَلَّ: ﴿إِنِّيٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [آية: ١٠]؛ أي: أَبْصَرْتُ.

وقد رُوِيَ عن ابن عباس أنَّه قال: إنَّمَا سُمِّيَ الإنسانُ إنْسَانًا لأنَّه عُهِدَ إليه فَنَسِيَ.

وذَهَبَ إلى هذا قومٌ من المُفَسِّرين من أهلِ اللُّغَةِ واحتَجُّوا في ذلك بتصغيرِ إنسانٍ، وذلك أنَّ العَرَبَ تُصَغِّرُهُ على (أُنَيْسِيان) بزيادةِ ياءٍ، كأن مُكَبَّرَهُ إِنْسِيانٌ إِفْعِلانٌ من النِّسْيانِ، ثم تُحْذَفُ الياءُ من مُكَبَّرِهِ اسْتِخْفَافًا لكثرةِ ما يَجْرِي على اللسَانِ، فإذا صُغِّرَ رَجَعَتِ اليَاءُ ورُدَّ ذَلك إلى أَصْلِهِ؛ لأنَّه لا يُكَثَّرُ مُصَغَّرًا كما يُكَثَّرُ مُكَبَّرًا.

والبَصْرِيُّون يَجْعَلُونَه (فِعْلان) على التَّفْسيرِ الأوَّلِ وقالوا: زِيدَتِ اليَاءُ في تَصْغِيرِهِ كما زيدت في تَصْغِيرِ لَيْلَةٍ فقالوا: لُيَيْلَة. كذا لفظَ به العَرَبُ بزيادةٍ.

الخامس: عياش ابن أبي ربيعة؛ ومنه في (العنكبوت): ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ﴾ [العنكبوت: ٨].

السادس: الوليد بن المغيرة: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: ٤].

السابع: قُرْطُ بنُ عبدِ اللهِ؛ ومنه: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٌ ﴿٦﴾﴾ [العاديات: ٦].

الثامن: أبو جهل: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾﴾ [العلق: ٦].

التاسع: النضر بن الحارث: ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾ [الإسراء: ١١].

العاشر: بَرْصِيصَا: ﴿إِذْ قَالَ لِلْإِنسَٰنِ ٱكْفُرْ﴾ [الحشر: ١٦].

الحادي عشر: بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ؛ ومنه في (الحج): ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ﴾ [الحج: ٦٦].

الثاني عشر: الأخنس بن شريق: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾﴾ [المعارج: ١٩].

الثالث عشر: الأسود بن عبد الأسد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ﴾ [الانشقاق: ٦].

الرابع عشر: كلدة بن أسيد: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ﴾ [الانفطار: ٦].

الخامس عشر: عقبة بن أبي معيط: ﴿وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: ٢٩].

السادس عشر: أبو طالبٍ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾﴾ [الطارق: ٥].

السابع عشر: عتبة ابن أبي لهبٍ: ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾﴾ [عبس: ٢٤].

الثامن عشر: عدي ابن أبي ربيعة: ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ﴾ [القيامة: ٣].

التاسع عشر: عتبة بن ربيعة: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِنَّا رَحْمَةً﴾ [هود: ٩].

العشرون: أمية بن خلف: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [الفجر: ١٥]، ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [الفجر: ٢٣].

الحادي والعشرون: أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ: ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [مريم: ٦٧]، ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ [يس: ٧٧].

الثاني والعشرون: الحارث بن عمرو: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِى كَبَدٍ ﴿٤﴾﴾ [البلد: ٤].

الثالث والعشرون: أبو حذيفة بن عتبة: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [يونس: ١٢].

الرابع والعشرون: أبو لَهَبٍ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: ٢].

الخامس والعشرون: الكافر: ﴿وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ﴿٣﴾﴾ [الزلزلة: ٣].

السلالة: القليلُ مما ينسل، وذلك أن آدم عليه السلام انْسَلَّ من كل الأرض، والعَلَقَةُ: دمٌ عبيطٌ جامدٌ، وسُميت علقةٌ لرطوبتها، وتعلقها بما مرت به، والمضغة: لحمة صغيرة، سُميت بذلك لأنها بقدرِ ما يُمضغ، ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ﴾ [المؤمنون: ١٤] بنفخ الروح فيه، وقيل: نجعله ذكرًا وأنثى.

قوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ﴾ حرفان في القرآن: هاهنا، وفي (حم المؤمن): ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤]، فأما (وتبارك) بالواو فحرف واحد في (الزخرف): ﴿وَتَبَارَكَ ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزخرف: ٨٥]، فأما (تبارك) فستة أحرف:

في (الأعراف): ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وفي (الفرقان): ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ [الفرقان: ١]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِىٓ إِن شَآءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِّن ذَٰلِكَ﴾ [الفرقان: ١٠]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا﴾ [الفرقان: ٦١].

وفي (الرحمن): ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وفي (الملك): ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ [الملك: ١].

قال الحسن: معنى تبارك: تجيئ البركةُ مِنْ قِبَلِهِ.

وفي " الصحيحين " من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه

قال: " إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ وَكَّلَ بِالرَّحِمِ مَلَكًا، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ نُطْفَة، أَيْ رَبِّ عَلَقَةٌ، أَيْ رَبِّ مُضْغَةٌ، فَإِذَا أَرَادَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَقْضِي خَلْقَهَا يَقُولُ: أَيْ رَبِّ ذَكَرٌ أَوْ أُنْثَى؟ شَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ؟ فَمَا الرِّزْقُ؟ فَمَا الأجَلُ؟ فَيَكْتُبُ كُلَّ ذَلِكَ في بَطْنِ أُمِّهِ "(١).

فلما سبق في العلم القديم اختيار آدم، خُلق من طينٍ ضعيفٍ، وجُعلت ذريته من ماء مهين، ليبين آثر النعمة في جبر المنكسر، كما أبان أثر النعمة في جبر: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ [آل عمران: ٣٦].

فسبحان من أنشأ من طينة إذا تفرقت صارت نفس نفيسة أذعنت فوصلت، أول مرحلة قطعها آدم مرحلة الطين، ثم صار صلصالا كالفخار، فلا وجه للكبر بالفخار، واعجبا كيف يتبختر المُعجب بين ضعفِ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥﴾ [الطارق: ٥]، وبين ذُلِّ ﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ۝٢٤﴾ [عبس: ٢٤]، هلا قرأ صفة وجوده في منشور: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ [طه: ٥٥].

أولا يتفكر في نطف نطفتك، وتعليق علقتك، وتركيب بنيتك، كيف نسج بنا العروق على منوال العظام، ثم صير العظام لحمة للحم، ثم ركب جلدة الجلد، وعظّم العظم، وصلّب الصلب، وأعطى الأيدي الأيد، وشق البصر بظفر الظفرة للمبصرات، وفتق السمع بأنامل الدرك للمسموعات، وألقى في فيك ففلق الأقدار على الكلمات، واستخرج من حرارتك غَضَبًا ونُفُورًا وَحِدَّةً، ومن برودتك رِضًا وَسُكُونًا وَطُمَأْنِينَةً، وجعلَ لباطنك آلةَ معرفةِ الإلَهِ مِنْ عَقْلٍ وبصيرةٍ وفَهْمٍ، فإذا اجتمعَ الماءُ المُتَخَلِّقُ منه الولدُ، فَأَوَّلُ الحالاتِ أن يُزبد، فيظهر عن الزبد النفخ، فيندفع النفخ كله إلى وسط الرطوبة إعدادًا لمكان القلب، فالقلب أول عضوٍ متكونٍ، ثم الدماغ، ثم الكبد، ثم يومئ إيماءً إلى الماء، فيستحيل علقةً، ثم مُضغةً، وفي تلك الحال تظهرُ الأعضاء الرئيسية كالقلب والدماغ قدر مَجَسٍّ، ثم يتنحى بعضها عن بعض، وتتخطط الأطراف ثم

(١) أخرجه البخارى (١/ ١٢١، رقم ٣١٢)، ومسلم (٤/ ٢٠٣٨، رقم ٢٦٤٦)، وأبو عوانة كما فى إتحاف المهرة للحافظ (٢/ ١٣٣، رقم ١٣٨٦).

تصير لحمًا، وينقسم دم الطمث إلى ثلاثة أقسام: قسمٌ ينصرف إلى الجنين كاللبن السائغ، وقسم يصعد إلى الثدي، وقسم لا يصلح لذينك فيحتبس إلى النفاس، والجنين يكون في البطن معتمدًا بوجهه إلى رجليه، وبراحتيه على ركبتيه، وأنفه بين الركبتين، والعينان على الركبتين، وظهره إلى وجه الأم، وعظام البدن مائتان وأربعون سوى السمسمانية، فمنها ما هو أساس للبدل مثل فقار الصُّلب يُبنى عليه الجسد كما تُبنى السفينةُ على الخشبة الأولى، ومنها كالمجن، مثل عظم اليافوخ، والقِحف جُنَّةٌ للدماغ، وهو مخلوق من عظام متخلخلة، وله ثلاث أدونة لتنفذ الأبخرة منه لا فيه، فينقي الدماغ بالتحلل، وجُعلت العينُ في الرأس لتكون مشرفةً على جميع الأعضاء في الجهات كلها، فهي كالطليعة للعسكر، وأصلح المواضع للمُطَالِعِ المكان المشرف، وجُعلتا في كهفين حراسةً لها وتوفيرًا لضوءها باجتماع شعاعها، وأُلِّفَتِ العينُ من طبقاتٍ أربع كالقشور المتراكبة، فلو تقشرت واحدة لم تعم الآفة، وخلق لها الهُدْبُ لدفع ما يطير إليها، وليعتدل الضوء بسواده، وخُلق الأنف لينحصر فيه الهواء المُسْتَنْشَقُ لترويح الرئة والدماغ، والفم وعاء لجمع الكلام، واللسان عضو للنطق، وآلة لتقليب الطعام الممضوغ، والمضغ يقع في جانبي الفم حراسةً لأداء النطق، واللسان حاكم إليه تمييز الذوق وتقطيع الصوت في إخراج الحروف، والشفتان غطاء للفم والأسنان، ومحبس اللُّعَابِ، ومُعين على الكلام وجمال في الصورة، واللَّهَاةُ باب مؤصد على مخرج الصوت بقدره، ويُدرِّجُ الهواء لئلا يقرع ببرده الرئة فجأة، والأسنان اثنتان وثلاثون، ثنيتان ورباعيتان من فوق، ومثلها من أسفل، ونابان من فوق، ونابان من تحت، فالأنياب تكسر والأضراس تطحن، وإنما حددت مقدمات الأسنان لتقطع، وعُرِّضَتْ مؤخرات الأضراس لتطحن، وَخُصَّ الفكُّ الأسفلُ بالتحريك؛ لأن تحريكَ الأخفِّ أحسن؛ ولأن الأعلى يشتمل على الأعضاء الشريفة، فلم يخاطر بها في الحركة.

وجعل الأذنَ صدفًا مُعَرَّجًا لتحبس الصوت وتجمعه، وجعل ماء الأذن مُرًّا ليحجب الحشرات، ولو دخل إلى الأذن دابة لم يكن لها هم إلا الخروج،

كما جعل ماء العين مالحًا؛ لأنهما شحمتان، ولولا ذلك لَذَابَتَا، وجعل ماءَ الفَم عَذْبًا ليُطَيِّبَ طَعْمَ المَطْعَم، وخُلقت الأصابعُ آلةً لتعملَ الأشياء اللطيفة كالكتابة، والصياغة، والخياطة، وجُعل الكفُ مُقَعَّرًا ليحفظَ ما يُجعل فيه، والأصابعُ عظامٌ شَتَّى لتحتوي على قعر الكفِّ بالقبض كالقُفْلِ للأخْزَانِ، ولم تُخلق الأصابعُ خاليةً من العِظَام لتكونَ أفعالها قويَّة، ولم تكن من عظم واحدٍ لكيلا تعسر أفعالها، وعظام قواعدها أعرض، والرؤوس أدق لتحس بالمناسبة بين الحامل والمحمول، وأُعدمت المخ والتجويف لتكون أقوى على القبض والحركات، وجعل الإبهام كالصمامة على ما يقبض، والقلبُ قوي الذات ليكون أبعد عن الآفات، وهو في وسط الصدر؛ لأنه أعدل الأماكن، وقد أُميل يسيرًا إلى اليسار ليبعد عن الكبدِ، وله زائدتان كالخزانتين يصل إليهما الدم والنسيم فيؤديانه إليه بقدر، والرئة وِطَاءٌ للقلب بلينها، ووقاية له، وهي بيتُ النَّفَسِ ومنزلُ الفَرَجِ، ومنبت جميع العروق الساكنة من الكبد، وأول ما ينبت منها عرقان: أحدهما: يسمى الباب، يجذب الغذاء إلى الكبد، فيطحنه الكبد، وتوجهه إلى البدن في العرق الآخر المسمى بالأجوف، ثم يرسل الماء به إلى الكليتين والرغوة الصفراوية إلى المرارة، والرسوب السوداوي إلى الطحال، وخُلقت الأمعاء كثيرة التلافيف، ليطول سير الغذاء فيها، فلا يحتاج الإنسان إلى الغذاء كل وقت، وخُلق القدمُ أخمصَ ليُمسكَ ماشية الدرج كما يُمسك الكف المقبوض عليه، ثم قوام هذا البدن كله لمعنى كل الخلائق في عرفانه مُعَنًّا، وما يحصلون على حاصلٍ وهو النفس، فلما تمت الخلقة جاء خاطب: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ﴾ [التوبة: ١١١].

المخلوقاتُ كثيرةٌ ولا أَشْرَفَ مِنْكَ.

قال يحيي بن أبي كثير: خَلَقَ اللهُ ألفَ أُمَةٍ، ست مائة في البحر، وأربع مائة في البر أنت أَشْرَفُهَا.

فيا خُلاصة الوجود فيك شبه من كل موجود، إن مددت يديك فاستدارة وجودك كاستدارة الفلك، ضحكك كالرعد، وتبسمك كالبرق، ودمعك كالمطر، وعقلك في القلب كالشمس، ورجلاك في رسوخهما كالجبال،

وبطنك كالقُرَى والبُلْدَان، والقلبُ مَلِكٌ جالسٌ على عرش سرير الصَّدرِ، وبين يديه الأعوانُ والخَدَمُ وهي جنود الجوارح، فالعينان راصدٌ، والسمع صاحبُ خَبَرٍ، واللسان تُرجُمان، واليدان حارسٌ يَرُدُّ ما يَرِد على البدن من أذى، والقدمان مطيَّةٌ وَمَرْكَبٌ، والفِكْرُ يبعثُ جَاسُوسَ الفِكَرِ إلى ما فوقَ العَرْشِ، ويرسل جنودَ الاستعلام إلى ما تحت الفرش، وظهرك يُضَاهِي جانبَ الدنيا الخرابَ، ووجهك يضاهي جانبها العمران، فاعتبر بك ويكفي، وانظر في أمرك ويشفي، خُلقت الشمسُ لتستضيءَ بها، والنجومُ لتستدلَّ بها، وبُسطت الأرضُ لتستقرَ عليها، وكُفَّت بأَكُفِّ الجبالِ عن أن تميدَ بأهلها، فأنت قِوَامُ قَوَامِ الوُجُودِ؛ لأن الوجودَ لك أُوجِدَ، والكونُ من أجلك كُوِّنَ، وما أُعِدَّ فيه لَكَ، ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

فالحُبُوبُ لِقُوتِكَ، واللُّحُومُ لِقُوَّتِكَ، والفَوَاكِهُ لِفُكَاهَتِكَ، واختلاف صنائع الأصباغ والألوان لنزاهتك، والمياه لِرِيِّكَ، والأشجار لظلك، والبنيان لِكَنِّكَ، والنهار لمعاشك، والليل لفراشك، والثياب لِرِيَاشِكَ، ونسيم الهوى لراحتك، وضياء الجو والفضاء لتصرفاتك، فإذا رحلت عن الكون قلعت أطناب خيم الكائنات لرحيلك: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، إذا ذهب من يعتبر بـ ﴿ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾، وإذا لم يبق من يتفكر بـ ﴿ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ٢]، وإذا سار من تثبت الجبال لأجله سُيِّرَتْ، وإذا رَحَلَ من يستظل بالسماء كُشِطَتْ وَطُوِيَتْ، وإذا مضى من يستقر على الأرض زُلْزِلَتْ.

يا خُلاصَةَ الوُجُودِ، يا زُبْدَةَ الموجودِ، يا صاحبَ خِلَعِ الجُودِ، جهلت أقدار نعمه المُفَاضَةِ عليك، وغفلت عن شكر أياديه المتوالية إليك، أين شكر نعمة الإيجاد، ودوام الإمداد والإرفاد، وفاتحة المبدأ وخاتمة المعاد، لولا جذبة عناية جذبت بأيدي أيدها عنانك عن شَرَكِ الشِّرْكِ إلى دائرة دار التوحيد، وأحكمت حكمتك عن شرودك في هُوَّة الهوى، وربت ألطاف رُتبك في حَجرِ الحِجْرِ بين ربائب الهدى، فلم يفتح الحُلمَ عينَ الأحلام إلا ووادي المعرفة شجير بشجر الفضل عليك، والقنا شاجر في مجلب المناضلة عنك، فلما استويت على كرسي البلوغ متكئًا على آرائك البلاغة، متمنطقًا نطاق النطق،

متمسكًا بعقال العقل، مرسلا بريد النظر إلى كمين العِبَرِ، مُصغيًا بسمع النذير إلى حديث الغِيَرِ، تبعث جنودَ الفِكْرِ إلى ما حولَ العرشِ، وترسل عسكرَ الاستعلام إلى ما تحتَ الفرش، تتغذى بطعام الإنعام بالعلم، وتشرب ماء العرفان في آنية الفَهم، فحينئذٍ نُوِّلْتَ رسالة خالقك مسطورةً في صُحُفِ المَجْدِ، يُخبرك فيها بتصحيح ما يدل عليه العقلُ، وفسادِ ما يدعو إليه الجهل، ويُعلمك أني قد بنيت لك دارًا خيرًا من دَارِك، وأنا لك فيها جار أولى من جَارِك، فأنفذ مراسمي، واعمل في هذه المزرعة الفانية، أكرمك في الدار الباقية، واستشعر جنة التقى تُقَى لعلك إن نلتَ نلتقي، واعبر في معبر عينك إلى ساحل يقظتك، وانظر لماذا خُلِقْتَ؟ وبماذا عَلِقْتَ؟ ولو فَهِمْتَ هِمْتَ.

الفصل السابع والأربعون

في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾﴾ [المؤمنون:٩٩]

معنى (ارجعون): أرجعني، ولكن كذلك يُخَاطَبُ العظيمُ الشأن ويُخبر عن نفسه؛ كقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾ [ق: ٤٣]، وقوله تعالى: ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، قال ابن عباس: (فيما مضى من عمري).

وقال الأخفش: معنى (كلا) الردع والزجر.

وقال السجستاني: تكون بمعنى: أي لا يكون ذلك.

كما قال الحجاج: [الرجز]

قَدْ طَلَبَتْ شَيْبَانُ مِنْ فَضْلِكُمْ   كَلا وَلَمَّا يَصْطَفِقْ مَأتَمُ

وكلا في القرآن على وجهين:

أحدهما: بمعنى لا؛ ومنه في (مريم): ﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّاۚ﴾ [مريم: ٧٨ - ٧٩]، وفيها: ﴿لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّاۚ﴾ [مريم: ٨١ - ٨٢]، وفي (المؤمنون): ﴿لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ﴾ [المؤمنون: ١٠٠]، وفي (الشعراء): ﴿فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿١٤﴾ قَالَ كَلَّاۖ﴾ [الشعراء: ١٤ - ١٥]، ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآۖ﴾ [الشعراء: ٦١ - ٦٢]، وفي (سبأ): ﴿شُرَكَآءَۖ كَلَّاۚ﴾ [سبأ: ٢٧]، وفي (سأل سائل): ﴿ثُمَّ يُنجِيهِ ﴿١٤﴾ كَلَّآۖ﴾ [المعارج: ١٤ - ١٥]، ﴿أَن يُدْخَلَ جَنَّةَ نَعِيمٍ ﴿٣٨﴾ كَلَّآۖ﴾ [المعارج: ٣٨ - ٣٩]، وفي (المدثر): ﴿ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّآۖ﴾ [المدثر: ١٥ - ١٦]، وفيها: ﴿أَن يُؤْتَىٰ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴿٥٢﴾ كَلَّاۖ﴾ [المدثر: ٥٢ - ٥٣]، وفي (القيامة):

﴿أَيْنَ ٱلْمَفَرُّ ۝١٠ كَلَّا﴾ [القيامة: ١٠ - ١١]، وفي (المطففين): ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣ كَلَّا﴾ [المطففين: ١٣ - ١٤]، وفي (الفجر): ﴿فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ۝١٦ كَلَّا﴾ [الفجر: ١٦ - ١٧]، وفي (الهمزة): ﴿أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣ كَلَّا﴾ [الهمزة: ٣ - ٤].

فهذه أربعة عشر موضعًا يَحْسُنُ الوَقْفُ عليها .

الثاني: بمعنى حقًّا؛ ومنه في (المدثر): ﴿كَلَّا وَٱلْقَمَرِ ۝٣٢﴾ [المدثر: ٣٢]، وفيها: ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ۝٥٤﴾ [المدثر: ٥٤]، وفي (القيامة): ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ ۝٢٠﴾ [القيامة: ٢٠]، وفيها: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِىَ ۝٢٦﴾ [القيامة: ٢٦]، وفي (النبأ): ﴿كَلَّا سَيَعْلَمُونَ ۝٤ ثُمَّ كَلَّا سَيَعْلَمُونَ﴾ [النبأ: ٤ - ٥]، وفي (عبس): ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝١١﴾ [عبس: ١١]، وفيها: ﴿كَلَّا لَمَّا يَقْضِ مَآ أَمَرَهُۥ ۝٢٣﴾ [عبس: ٢٣]، وفي (الانفطار): ﴿كَلَّا بَلْ تُكَذِّبُونَ بِٱلدِّينِ ۝٩﴾ [الانفطار: ٩]، وفي (المطففين): ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْفُجَّارِ﴾ [المطففين: ٧]، ﴿كَلَّآ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ﴾ [المطففين: ١٥]، ﴿كَلَّآ إِنَّ كِتَٰبَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ [المطففين: ١٨]، وفي (الفجر): ﴿كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝٢١﴾ [الفجر: ٢١]، وفي (العلق): ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦﴾ [العلق: ٦]، ﴿كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ [العلق: ١٥]، ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ [العلق: ١٩].

في (التكاثر): ﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ﴾ [التكاثر: ٣ - ٥].

فهذه تسعة عشر موضعًا كلها لا يَحْسُنُ الوقوفُ عليها، وجُملة ما في القرآن ثلاثة وثلاثين حرفًا، وليس في النصف الأول منها شيء، وقد حكى ابنُ الأنباري عن ثعلب أن (كلا) لا يُوقف عليها في جميع القرآن.

إخواني؛ مَثِّلوا سَاعَةَ الموتِ السَّاعَةَ، واحضروا على باب التفكر ساعة، فليس كل معتذرٍ عند الموت يقبل منه.

قال مالكُ بنُ دينارٍ: دخلتُ على رجل مريضٍ، فقلت: عاهدِ اللهَ تعالى أن تَتُوبَ عسى أن يَشْفِيكَ، فقال: هيهاتَ ذهبتُ أُعَاهِدُ كما كنتُ أُعَاهِدُ، فسمعتُ قائلا يقول: عَاهَدْنَاكَ مِرَارًا فَوَجَدْنَاكَ كَذَّابًا.

[الطويل]

وَكُنْتُ إِذَا مَا جِئْتُ جِئْتُ بِعِلَّةٍ فَأَفْنَيْتُ عِلاتِي فَكَيْفَ أَقُولُ
فَمَا كُلَّ يَوْمٍ لِي بِأَرْضِكَ حَاجَةٌ وَمَا كُلَّ يَوْمٍ لِي إِلَيْكَ رَسُولُ

أَيُّهَا الرَّاقِدُ تَيَقَّظْ، أيها الغافلُ تَحَفَّظْ، كم عِبرةً أُريت، خذ حذرك فقد أُتيتَ، ضربَ بوقُ الرحيلِ بسيرك، وقُرِّبَتْ نُوقُ التحويلِ لا لغيركَ بل لسيركَ، وطوى الجديدان بساطَ عمرك، وضرباك بضرب الأمثال فانظر في أمرك.

[الوافر]

تَنَامُ وَلَمْ تَنَمْ عَنْكَ الْمَنَايَا تَنَبَّهْ لِلْمَنِيَّةِ يَا نَؤُومُ
سَلِ الأَيَّامَ عَنْ أُمَمٍ تَقَضَّتْ سَتُخْبِرُكَ الْمَعَالِمُ وَالرُّسُومُ
تَرُومُ الْخُلْدَ فِي دَارِ الْمَنَايَا وَكَمْ قَدْ رَامَ غَيْرُكَ مَا تَرُومُ
لأَمْرٍ مَا تَصَرَّمَتِ اللَّيَالِي لأَمْرٍ مَا تَقَلَّبَتِ النُّجُومُ

لقد نَدِمَ المُحْسِنُونَ عندَ الموتِ على التَّقْصِيرِ، فكيفَ المُسِيءُ المُذْنِبُ؟!

لما احتضر معاذٌ بكى، فقيل له: ما يُبكيك؟ قال: لأنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ قَبَضَ قبضتين، فجعل واحدةً في الجنة، وواحدةً في النار، فلا أدري في أيِّ القبضتين أنا.

بكى حذيفةُ عند الموت، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: لا أدري على ما أقدم؛ على رضًا أو على سُخْطٍ؟

وبكى أبو هريرة عندَ الموتِ، فقيل: ما يُبكيك؟ فقال: (لبُعْدِ المسافةِ، وَقِلَّةِ الزَّادِ، وَعَقَبَةٍ كَؤُودٍ، لا أدري الهبوطَ منها إلى جَنَّةٍ أو إلى نَارٍ، ولا أدري إلى أين يُؤْخَذُ بِي؟).

وكان محمدُ بنُ وَاسِعٍ عندَ الموتِ يقول: يا إخوتاه؛ أتدرون أين يُذْهَبُ بي؟ والله الذي لا إله إلا هو ما أدري إلى النار أو يعفو عني.

وقيل للشافعي في مرض موته: كيف أصبحتَ؟ فقال: أصبحتُ من الدنيا رَاحِلا، وللإخوانِ مُفَارِقًا، وبكأسِ المَنِيَّةِ شَارِبًا، ولسوءِ عملي مُلاقِيا، فلا

أَدْرِي، أنفسي تصير إلى الجنة فَأُهَنِّيهَا، أم إلى النَّارِ فَأُعَزِّيهَا، وَجَعَلَ يقولُ: [الطويل]

وَلَمَّا قَسَى قَلْبِي وَضَاقَتْ مَذَاهِبِي ... جَعَلْتُ رَجَائِي نَحْوَ عَفْوِكَ سُلَّمَا

تَعَاظَمَنِي ذَنْبِي فَلَمَّا قَرَنْتُهُ ... بِعَفْوِكَ رَبِّي كَانَ عَفْوُكَ أَعْظَمَا

وقال عبدُ الله بنُ مسروقٍ لِوَصِيِّهِ عندَ الموتِ: لي إليك حاجة، قال: ما هي؟ قال: تحملني، فتتركني على تلك المزبلة، لَعَلِّي أموتُ عليها، فَيَرَى مَكَانِي، فَيَرْحَمُنِي.

وَجَزِعَ بعضُ السَّلَفِ عندَ الموتِ جَزَعًا شديدًا، فقيل له في ذلك، فقال: وكيف لا وإنَّمَا هي سَاعَةٌ، ثم لا أدري أين يُسْلَكُ بي.

قال بكرُ بنُ عبدِ اللهِ المُزَنِيُّ: جَمَعَ رجلٌ مُسِيءٌ من بني إسرائيلَ مالا، فقال يومًا لِبَنِيهِ: أروني أصنافَ مالي، فَأُتِيَ به، فَبَيْنَا هو ينظرُ إليه، طلعَ مَلَكُ الموتِ، فقال له: والذي خَوَّلَكَ ما ترى ما أنا خَارِجٌ من مَنْزِلَكَ حَتَّى أُفَرِّقَ بين رُوحِكَ وَبَدَنِكَ، قال: فَأَمْهِلْنِي حتى أُفَرِّقَهُ، قال: هَيْهَاتَ، انقطعتْ عَنْكَ المُهْلَةُ، فَهَلا كان ذلك قبلَ حُضُورِ أَجَلِكَ، فَقَبَضَ نَفْسَهُ.

وقال بكرُ بنُ خُنيسٍ: رأى رجلٌ مَلَكَ الموتِ، فقال لأهله: ائتُونِي بصحيفةٍ، فقالَ مَلَكُ المَوْتِ: الأمرُ أعجلُ من ذلك، فقبضَ رُوحَهُ من قبلِ أن يُؤْتَى بالصَّحِيفَةِ.

لقد رَصَدَكَ الموتُ على فُوَّهَةِ طريقك، وكأنك به وقد غَصَّكَ بريقُك، وألهي الموت عن الصبي، وأزعج قلب الغافل شاء أم أبى.

[الخفيف]

كُلُّ يَوْمٍ يَأْتِي بِقَاطِعَةِ الآ ... مَالِ غَضْبَانَ قَدْ تَأَبَّطَ شَرَّا

مُذْنِبًا كُلَّمَا شَكَى شَاكٍ كَيْدًا ... وَإِذَا قِيلَ قَدْ أَنَابَ أَصَرَّا

ضَيْغَمٌ يَخْبِطُ السُّرُوبَ طُرُوقًا ... وَإِذَا مَرَّ بِالْعَقِيرَةِ كَرَّا

وإذا هَمَّ يفعلُ الخَيْرَ

قَدْ أُنِيخَتْ لَنَا الرَّكَائِبُ فَالْحَا ... زِمُ عَبَّى زَادًا وَوَطَّأَ ظَهْرَا

يا من عمره قد رحل وولى، كأنك بك تندم وَتَتَقَلّى، والسمعُ والبصرُ للموت قد كلا، وتقول: ربِّ ارْجِعُونِي، فَيُقَالُ: كَلا.

يا مَنْ نام عن صلاته وَمَا صَلَّى، أتظنُ أَنَّكَ تُتركُ سُدَى وَتُخَلَّى، عن قليلٍ يميلُ العودُ ولا تسمع إلا كَلا، إلا كَانَ ذَا قَبْلَ ذَا إلا.

آهٍ لمواعظ لا تجد قابلا، ولصيدها لا تجد إلا حائلا، لقد شاك العود فأجيب بلا، وأبكى وأبلى عين تبكي وَابِلا وَطَلا، رَبِّ ارجعونِي، فيقال: كَلا.

يا من إذا جد الوعظ لعب، كم بدد إناء التذكير وما شرب، كم سمع الغناء وما طرب، ما يائس الرائض من صلاحك وإن تَعِب، ليس عجبًا أن ينقلب الخَمْرُ خَلا.

الفصل الثامن والأربعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْغَٰفِلَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣]

الرمي[1] في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الإلقاء؛ ومنه: ﴿تَرْمِى بِشَرَرٍ كَٱلْقَصْرِ﴾ [المرسلات: ٣٢].

الثاني: الإصابة؛ ومنه: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ [الأنفال: ١٧].

الثالث: القذف؛ ومنه: ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٢٣]، والمحصنات اسم مأخوذ من الإحصان وهو المنع، ومنه سميت الحصون، والحَصَانُ: المرأة المتعففة، والحِصَان: الفرسُ العتيق، سُمِّيَ حِصَانًا؛ لأنه ضَنَّ بمائِهِ فلم يَنْزُ إلا على كريمةٍ، ثم كَثُرَ ذلك حتى سَمُّوا كُلَّ ذَكَرٍ من الخيل حِصَانًا.

قال ثعلب: كل امرأةٍ عفيفةٍ فهي مُحْصِنَةٌ، وكل متزوجةٍ فهي مُحْصَنَةٌ لا غير.

والمحصنات على أربعة أوجهٍ:

أحدها: العفائف؛ ومنه في (النساء): ﴿مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ﴾ [النساء: ٢٥]، وفي (المائدة): ﴿مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ﴾ [المائدة: ٥]، وفي (الأنبياء): ﴿أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا﴾ [الأنبياء: ٩١]، وفي موضعين في (النور): ﴿يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ﴾ [النور: ٤، ٢٣].

---

(١) الأصلُ في الرَّمْيِ إلقاءُ الحَجَرِ عن اليَدِ، والرَّمْيُ بالسِّهَام قَذْفُهَا عن كَبِدِ القَوْسِ.
والرَّمِيَّةُ: الصَّيْدُ يُرْمَى. قال ابن السكيت: خَرَجْتُ أَتَرَمَّى؛ إذا خَرَجْتَ تَرْمِي في الأغْرَاضِ.

الثاني: الحرائر؛ ومنه في (النساء): ﴿أَن يَنكِحَ ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ [النساء: ٢٥]، وفي (المائدة): ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ [المائدة: ٥].

الثالث: ذوات الأزواج؛ ومنه: ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۖ﴾ [النساء: ٢٤]؛ أي: من السبايا في الحروب.

الرابع: المسلمات؛ ومنه[1]: (فَإِذَا أَحْصَنَّ) [النساء: ٢٥] بفتح الألف والصاد على قراءة حمزة والكسائي، والمعنى: فإذا أَسْلَمْنَ، والغافلات؛ أي: عن الفواحش، ﴿لُعِنُواْ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ﴾ [النور: ٢٣] لُعِنُوا في الدنيا؛ أي: عُذبوا بالجَلْدِ، وفي الآخرةِ بالنَّارِ.

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم " أنه ذكر الكبائر، فقال: وَقَذْفُ الْمُحْصَنَاتِ، الْغَافِلاتِ، الْمُؤْمِنَاتِ "[2].

وهذه الآيات نزلت في براءة عائشة رضي الله عنها.

واعلموا أن الله اصطفى للمصطفى مصطفى الأزواج، فَمِلْنَ معه عن المال حيث قال يومَ تَحَبَّبْنَ: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدۡنَ﴾ [الأحزاب: ٢٨]، فَلَمَّا عَرَيْنَ عن لباس الهوى كُسين حُلَلَ ﴿لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، ونصفهن رائض الوحي من نهي: (وَلا تَخْضَعْنَ، وَلا تَبَرَّجْنَ)، وتعليم: (وَقَرْنَ، وَقُلْنَ، وَآتِينَ، وَأَطِعْنَ، وَاذْكُرْنَ).

كان النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج خديجة، ثم سودة، ثم عائشة، ثم حفصة، ثم أم سلمة، ثم أم حبيبة، ثم زينب بنت جحش، ثم زينب بنت خزيمة، ثم جويرية، ثم صفية، ثم ميمونة.

فلما كان في واجب القسمة يحتاج إلى مراعاة الوقت، وخاطره الكريم لا

---

(١) قرأ أبو بكر، وحمزة، والكسائي بفتح الهمزة والصاد. وقرأ الباقون بضم الهمزة وكسر الصاد.

(٢) أخرجه البخارى (٣/ ١٠١٧، رقم ٢٦١٥)، ومسلم (١/ ٩٢، رقم ٨٩)، وأبو داود (٣/ ١١٥، رقم٢٨٧٤)، والنسائى (٦/ ٢٥٧، رقم ٣٦٧١). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١٢/ ٣٧١، رقم ٥٥٦١)، والبيهقى (٦/ ٢٨٤ رقم ٢٤٤٧).

يحتمل أقبل تخفيف: ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١]، ولم يكن فيهن آثر من عائشة رضي الله عنها، فتزوجها وهي بنت ست سنين، وابتنى بها بنت تسعٍ، وانفردت بمناقبٍ ست وتسع، جاء جبريل بصورتها قبل تزويجها، ولم يتزوج بكرًا غيرها، ولم ينكح امرأة أبواها مهاجران سواها، وكانت أحب الناس إليه، وكان أبوها أعز الرجال عليه، ولم ينزل الوحي في لحاف أحدٍ غيرها، ونزل من السماء عذرها، وكانت تغضب ويترضاها، ووهبت لها سودة يومها، وكان لها يومان وليلتان دون غيرها، وقبض بين سَحْرِهَا وَنَحْرِهَا، واتفق ذلك في ليلتها، وخالط في آخر أنفاسه ريقه ريقها، ودفن في منزلها، ولم ترو عنه امرأة أكثر من حديثها، ولا بلغت علوم النساء علمها، فإنها روت ألفي حديث ومائتي حديث، أُخْرِجَ لها في " الصحيحين " مائتا حديث وسبعة وتسعون حديثًا، المتفق عليه منها مائة أربعة وسبعون، وانفرد البخاري بأربعة وخمسين حديثًا، ومسلم بسبعةٍ وستين.

قال أبو موسى: ما أشكل علينا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثٌ قط فسألنا عائشة، إلا وجدنا عندها منه علمًا، ولقد كانت الفصاحة طبعها من غير تكلُّفٍ، أَمَا سمعتم خُطبتها يومَ (أبي وما أبيه)، وكانت عزيزة الكرم قَسَّمَتْ سبعين ألفًا ودرعها مرقوع.

ولقد شَاعَ حُبُّ الرسول لها حتى كان الناس يتحرَّونَ بهداياهم يومها، وما كان الرسول يحب إلا طيِّبًا، أفتظن الرافضة أن فراسة النبوة تُخْطِئ كلا الله المعطي، ولقد قدمها على النساء بفضيلة (كفَضْلِ الثَّرِيدِ)، وكشف عن بصرها فرأت جبريل، فقال للرسول: تُسَلِّمْ عليها عَنِّي، فقال: " يَا عَائِشَةُ؛ هَذَا جِبْرِيلُ يَقْرَأُ عَلَيْكِ السَّلامَ "[(١)].

عجبًا لجبريلَ وَاجَهَ مريمَ بالخطابِ، واحترمَ ذَاكَ الْجَنَاب، ما ذَاكَ إلا أن مريمَ كانت عن الأزواج خالية، وهذه بنسبة الرسول حالية، فمن احترمها لصيانتها جبريل، كيف يصح عليها الزور والأباطيل، لما جرى القدر بكون آسية

---

(١) أخرجه البخاري (٣/ ١١٧٧، رقم ٣٠٤٥).

زوجة نبينا في الجنة، كَفَّتْ كَفَّ الغيرة كَفَّ فرعونَ عنها هذا وأنكحة الكفار صحيحة، وكيف لا تُصَانُ الحَصَانُ عما قيل من الأباطيل والفجور، كلا بل هو بُهتان وزُور.

خَرَجَتْ مع الرسول في غزوةٍ، فانقطع عِقْدُهَا، فعَقدت لها الخَرَزَاتُ النوريَّة، أقامت تلتمس ما ضاع، فساروا، فلما وافت فاتوا، فقامت وأقامت في حيز الحيرة، فإذا صفوان قد جاز فأناخ الجمل ولم ينطق، ولو تكلم جاز، فألحقها الجيشَ فَجَاشَ جَأْشُ الجُهَّال، فقدموا وهم يفيضون لا من عرفات، وَسَلَّ لسانه ابن سلول، ولم يبين لها لا بلا تغير الرسول ما علمت الحال إلا في حال تعس مسطح، فاستأذنت في بيت أبويها، فأمَّت أمها، فقالت: ما يقول الناس؟ فقالت: يا بُنَيَّه لا بأس، حسد الضرائر لا يضر.

[الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

فما زالت ترفع قصص الغُصص مسطورة بمداد الدمع إلى أن دخل الرسول بعد شهر، فجلس في مقام حاكم إِنْ كُنْتِ هَمَمْتِ، فقالت لأبيها: أجب، فلم، وقالت لأمها: قولي، فما، فصاحت فصاحتُها فَصَبْرٌ جَمِيلٌ، فلما بلغ سيل البلاء الزُّبَى، وجاوز حزام الأسى الطبيين قابلت قبلة ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ﴾ [النمل: ٦٢]، فبشرها الرسول عن المرسل بالبراءة، فقالت أمها: قومي فَقَبِّلِي رأسَ رسول الله، فقالت بلسان الإذلال: لا، باعتقادِ الخلاف بحمد الله ولا بحمدك لو صدر هذا من غيرها لكان سوء أدبٍ، ولكن إذلال المحب محمول، فهو نظير " إِنْ تُهْلِكَ هَذِهِ الْعِصَابَةَ "(١)، ثم انقشعَ غَيْمُ الغَمِّ بشمالٍ: ﴿لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم﴾ [النور: ١١]، ووبخ متناكبو الظنون بحرف: ﴿لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ١٢].

ونادى مُنَادِ الوعيدِ: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ﴾ [النساء: ٨٣]،

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٣٨٣، رقم ١٧٦٣)، والبزار (/ ٣٠٦، رقم ١٩٦).

وعظم بإنكار: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا﴾ [النور: ١٥]، فكان الصديق رضي الله عنه قد منع مِسْطحًا نفقته، فتلطف الوحي في الشفاعة إليه بفُتْيَا: ﴿أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْۗ﴾ [النور: ٢٢].

[الوافر]

وَلَوْ كَانَ النِّسَاءُ كَمَنْ ذَكَرْنَا لَفُضِّلَتِ النِّسَاءُ عَلَى الرِّجَالِ
وَمَا التَّأْنِيثُ في اسْمِ الشَّمْسِ عَيْبٌ وَلا التَّذْكِيرُ فَخْرٌ في الْهِلالِ

فَيَا أَيُّهَا السُّنِّيُّ؛ لا تغفل عن حب حبيبة رسول الله، ولا تنساها وَتَعَلَّمْ فضائلها، فما أعظمها، وما أوفاها.

سَعُدَ مَنْ أَمَّ أُمَّ الأمَّةِ بالمحبَّةِ وَوَالاهَا، وَبَعُدَ عن تنقُّصِها جهلا منه وعاداها، فما أوفى مناقبها وأسنى مراتبها وأعلاها، حازت فنونَ العلم فَمَنْ قَارَبَهَا وَمَنْ دَانَاهَا، لو لم يكن من فضائلها غير عِلْمِهَا كَفَاهَا، ما شَانَهَا شَأْنُ الإفكِ إذ جرى ولا وَهَاهَا، أنزل براءتها من الغيوب سَيِّدُهَا ومولاها، آيات تتلى نزلت من الملأ الأعلى من جَرَّاهَا، ما أحلى تغني السُّنِّيِّ بها إذا تلاها، ليتَ شعري كيف يقرأها من يبغضها وَيَشْنَاهَا، لو استطاع الرَّافِضِيُّ مَحْوَهَا من القرآن مَحَاهَا، ما كان نبيِّكُم يُقَدِّمُ عليها سِوَاهَا، قيل له: مَنْ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيْكَ؟ فَسَمَّاهَا، ما نزل الوحيُ في لِحَافِ غَيْرِهَا، سُبْحَانَ مَنْ أعطاها، تزوجها صغيرةً فَعَلَّمَهَا آدابَ النُّبُوَةِ وَرَبَّاهَا، ذكر محمد بن الزبير في أحاديث رواها، أَوَّلُ حُبٍّ في الإسلام حُبُّ أباها، وروى البخاريُّ في " صحيحه " بأسانيد يرضاها أَنَّ جبريلَ جاء بها في سَرَقَةٍ من حريرٍ فَحَلاهَا، يا عَجَبًا لقلوبِ المُبْغِضِينَ لها ما أَعْمَاهَا، إمَّا أن تُشْبِهَ زَوْجَهَا، وَإِمَّا أَنْ تُشْبِهَ أَبَاهَا.

الفصل التاسع والأربعون

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]

النور(١) **في القرآن على ثمانيةِ أوجهٍ:**

أحدها: الإيمانُ: ﴿يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

الثاني: النُّبُوَّةُ؛ ومنه: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ﴾ [المائدة: ١٥].

الثالث: البيانُ: ﴿فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: ٤٤].

الرابع: الضَّوْءُ: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

الخامس: القرآنُ: ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

السادس: الإسلامُ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢].

السابع: العدلُ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

الثامن: الهُدَى: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي: هُدى مَنْ في السموات والأرض، ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي: هداه، ﴿كَمِشْكَوٰةٍ﴾ [النور: ٣٥]، وهو الكوة التي ليست بنافذةٍ، والْمِصْبَاحُ السِّرَاجُ.

قال الكسائي: (الدُّرِّيُّ): يُشبه الدُّرَّ، و (الدَّريُّ): جاري، و (الدّريُّ):

---

(١) قال شيخُنَا علي بن عبيد الله: النُّورُ: هو الضِّياءُ المُتَشَعْشِعُ الذي تَنْفُذُهُ أَنْوارُ الأبْصَارِ فَتَصل بِهِ إلى نَظَرِ المُبْصَراتِ وهو يَتَزَايَدُ بِتَزَايُدِ أَسْبَابِهِ. ويقال: نَارَ الشَّيءُ وأَنَارَ واسْتَنَارَ؛ إذا أَضَاءَ.

والنُّورُ مَأخُوذٌ من النَّارِ؛ يُقَال: تَنَوَّرْتُ النَّارَ؛ إذا قَصَدْتُ نَحْوَهَا. ثم يُسْتَعَارُ في مَوَاضِعَ تَدُلُّ عليها القَرِينَةُ؛ فيقال: أَنَارَ فُلانٌ كَلامَهُ؛ إذا أَوْضَحَهُ.

ومَنَارُ الأَرْضِ: أَعْلامُهَا وحُدُودُهَا. والمَنَارَةُ: مَفْعَلَةٌ من الاسْتِنَارَةِ.

يلتمعُ، (تَوَقَّدُ) [النور: ٣٥]؛ يعني: المصباح من شجرة، واحد الشجر، وهو كل نباتٍ له ساق، وَوَادٍ شَجِيرٍ؛ أي: كثير الشجر، وأرضٌ شجراءُ وَشَجِرَةٌ.

والشَّجَرُ[١] **في القرآن على عشرةِ أوجهٍ:**

أحدها: السُّنْبُلَةُ؛ ومنه: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

الثاني: النَّخْلَةُ: ﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤].

الثالث: الحَنْظَلَةُ: ﴿كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

الرابع: الزَّقُّومُ: ﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِى ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٦٠].

الخامس: الزيتون: ﴿مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [النور: ٣٥].

السادس: شجرةُ العَوْسَجِ: ﴿فِى ٱلْبُقْعَةِ ٱلْمُبَٰرَكَةِ مِنَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠].

السابع: شَجَرُ المَرْخِ وَالْعَفَارِ: ﴿مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا﴾ [يس: ٨٠].

الثامن: شجرةُ الدُّبَاءِ: ﴿وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات: ١٤٦].

التاسع: شجرة الطَّلْحُ: ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ [الفتح: ١٨].

العاشر: الشجر الذي له ساق: ﴿وَٱلنَّجْمُ وَٱلشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾﴾ [الرحمن: ٦].

وإنما خُصَّتْ شجرةُ الزيتون بالبركة؛ لأنها الأدم، والدهن، والوقود، فيوقد حطب الزيتون، ويُغسل برماده الإبريسم، ويسهل استخراج دهنه، ويعم الورق غُصنه، وإنما خُصَّ الزيتونُ بالذِّكرِ؛ لأن دُهْنَهُ أصفى وأضوى، ﴿لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ﴾ [النور: ٣٥]، قال: أي: هي بين الشجر خضراء ناعمة.

وقال مجاهد: هي في الصحراء، لا يظلها شيء، وذلك أجود لزيتها،

---

(١) الشَّجَرُ: جمعُ شَجَرَةٍ؛ وهي كُلُّ نَبَاتٍ له سَاقٌ، يقال: شَجَرَةٌ، وشَجَرَاتٌ، وأَشْجَارٌ.
ووَادٍ شَجِيرٌ: كثيرُ الشَّجَرِ. وهذه الأرضُ أشْجَرُ من هذه؛ أي: أكثرُ شَجَرًا.
وأرضٌ شَجْرَاءُ وشَجِرَةٌ؛ إذا كانت كثيرةُ الشَّجَرِ.
وشَجَرَ بينَ القَوْمِ؛ إذا اختلفَ الأمرُ بَيْنَهُم.

(يَكَادُ) يُقَارِبُ وهي كلمة إذا أُثْبِتَتْ انتفى الفعلُ، وإذا نفت ثَبَتَ الفعلُ، ويشهدُ للإثبات عند النفي: ﴿لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ﴾ [النساء: ٧٨]، ﴿لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ﴾ [النور: ٤٠]، ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢].

ويشهد للنفي عند الإثبات: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ﴾ [البقرة: ٢٠]، ﴿يَكَادُ سَنَا بَرۡقِهِۦ﴾ [النور: ٤٣]، ﴿يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ﴾ [النور: ٣٥]؛ أي: من صفائه.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [النور: ٣٥]، قال مجاهد: النَّارُ على الزَّيتِ.

وللمفسرين في وجه هذا المَثَلِ ثلاثةُ أقوالٍ:

أحدها: أنه شبَّه نُورَ محمدٍ صلى الله عليه وسلم بالمصباحِ، والمشكاةُ جوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، والمصباحُ النُّورُ الذي في قلبه، والزُّجَاجَةُ قلبُه، وهو من شجرةٍ مُبَاركةٍ، وهي إبراهيم الخليل عليه السلام، وإنما سَمَّاه شجرةً؛ لأن أكثر الأنبياء من صُلْبِهِ، ﴿لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ﴾ [النور: ٣٥]: لا يهوديَّ ولا نصرانيَّ، يكادُ محمدٌ صلى الله عليه وسلم يتبين للناس أنه نبي ولو لم يتكلم، فلما نطق بالدلائل والبراهين كان: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [النور: ٣٥].

الثاني: أنه شَبَّهَ نورَ القرآن في قلب المؤمن كالمصباحِ، والمشكاة صدره، والمصباحُ نورُ الإيمان فيه، والزُّجَاجَة قلبُه، فكأنه لما فيه من الإيمان والقرآن كوكبٌ مُضيء تَوَقَّدَ من شجرة وهي الإخلاص، لا يميلُ عن الطاعة، قَلْبُهُ يعمل بالهدى قبل أن يأتيه العلم، فإذا جاءه العلم ازداد هدًى، فكان: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [النور: ٣٥]، فالمؤمنُ كَلامُهُ نُورٌ، وَعَمَلُهُ نُورٌ، وَأَحْوَالُهُ نُورٌ.

الثالث: شَبَّهَ القرآنَ بالمصباحِ، والزُّجَاجَةُ قلبُ المؤمنِ، والمِشْكَاةُ لِسَانُهُ وَفَمُهُ، والشجرةُ الوَحْيُ، تَكَادُ حججُ الله تعالى تفصح ولو لم ينزل القرآنُ، فَلَمَّا نَزَلَ كان: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍۚ﴾ [النور: ٣٥].

للهِ دَرُّ قلبٍ بالصدق معمور، وروائح من قِدْرِ قَدْرِهِ تفور، عليه سيماء الإخلاص وما يخفى الزور، كم أدار خندق حذرٍ من وراء سور، شغله ذكرُ النَّارِ عن الحُورِ، فلو رأيت قلقه وقت السحور، بات يرعى الأنس فأصبحت

نظرة القدس على الناظور، يجول في صلاح قلبه ويدور، فهو يطلب السلامة بنجدٍ ويغورُ، أين تجده في المساجد وبين القبور، يأنس بوحش الفلا، فلا يريد الجنس، ولا يفرح إلا إذا هَجَرَ اللهو والهوى، ولم يقل ما فعلا فعلا موسى الصدق على الطور، صدَّق القولَ بالعملِ، وَضَمَّ التكحُّلَ إلى الكَحْلِ، فخلى القلبُ في خلاله من خُلَلٍ، فقرطسَ سهم فِرَاسه بلا زلل، فجانس (يا سارية الجبل)؛ لأنه ينظر بالنور، لما سار رجعت، ولما وصل انقطعت، فإنك لما ضيعت ما استطعت يا مهجور.

إلى كم مع الذنوب، إلى متى مع العيوب، إن الجماد بهذا يذوب، يا عجبا ما ذي القلوب إلا صخور.

الفصل الخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِىٓ أُمْطِرَتْ مَطَرَ ٱلسَّوْءِ﴾ [الفرقان: ٤٠]

القريةُ[1] في القرآن على تسعةِ أوجهٍ:

الأول: أريحا: ﴿ٱدْخُلُوا۟ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ﴾ [البقرة: ٥٨].

الثاني: دير هرقل: ﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ﴾ [البقرة: ٢٥٩].

الثالث: أيلة: ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

الرابع: مِصْرَ: ﴿وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا﴾ [يوسف: ٨٢].

الخامس: مكة: ﴿قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً﴾ [النحل: ١١٢].

السادس: سَائِرُ القُرَى: ﴿وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا﴾ [الإسراء: ٥٨].

---

(١) القَرْيَةُ: اسمٌ لِمَا يجمعُ جَمَاعَةً كثيرةً من النَّاسِ، وهو اسمٌ مَأْخُوذٌ من الجَمْعِ. تقول: قَرَيْتُ المَاءَ في الحَوْضِ؛ إذا جَمَعْتَهُ فِيهِ.

ويقال للحَوْضِ الذي فيه المَاءُ: مِقْرَاةٌ.

قال الزَّجَّاجُ: والقَرْءُ في اللُّغَةِ الجَمْعُ. وسُمِّي القُرْآنُ قُرْآنًا؛ لأنَّه كَلامٌ مُجْتَمِعٌ.

وقال ابن قتيبة: سُمِّيَ القُرْآنُ قُرْآنًا؛ لأنَّه جَمْعُ السَّوَرِ وضَمُّهَا.

وهو من قولك: ما قَرَأَتِ النَّاقَةُ سَلَى قَطُّ؛ أي: ما ضَمَّتْ في رَحِمِهَا وَلَدًا. وأنشدَ أبو عُبَيْدَةَ: [الوافر]

هِجَانِ اللونِ لَمْ تَقْرَأْ جَنِينَا

وقوله: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ﴾ [القيامة آية: ١٧]؛ أي: تَأْلِيفه.

السابع: قريةُ قَوْمِ لُوطٍ: ﴿وَلَقَدْ أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ [الفرقان: ٤٠].

الثامن: أنطاكية: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ﴾ [يس: ١٣].

التاسع: مَكَّةُ وَالطَّائِفُ: ﴿رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، والإشارة بقوله: ﴿أَتَوْا عَلَى الْقَرْيَةِ﴾ [الفرقان: ٤٠]؛ لأنهم كانوا يسافرون فيمرون عليها، ومعنى (أُمْطِرَتْ): رُميت بالحجارةِ.

لما سُرَّ قومُ لوطٍ بسرورهم، وتهاووا في هُوة أهوائهم، أقبل عليهم نبيهم بتوبيخ: ﴿مَا سَبَقَكُم﴾ [العنكبوت: ٢٨]، فتنادوا في جهر جهار جهلهم: ﴿أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ﴾ [النمل:٥٦]، فبعث الأملاك لانتزاع أملاك الحياة من أيديهم، فنزلوا من منزل لوط بنزيل التنزيل، فهم في أفسح بيتٍ من الكرم، غير أن حارس حذرهم ينادي: ﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ [العنكبوت: ٣٣]، فاستحضرت بما نَمَّتْ نمنمة الأمر امرأته، فأحضروا في براح: ﴿يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ﴾ [هود: ٧٨]، فدخلوا عليه بعد كسر الباب، فقام يخاطب غير ذوي الألباب، فتارةً يدافع بمشورة: ﴿هَٰؤُلَاءِ بَنَاتِي﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بتقاة: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بسُؤَالٍ: ﴿وَلَا تُخْزُونِ﴾ [هود: ٧٨]، وتارةً بتوبيخ: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ﴾ [هود: ٧٨]، فقابلوا تعريض قوله بتصريح: ﴿وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ﴾ [هود: ٧٩]، فلما كَلَّ كُلُّ سِلاحِهِ، وأعيته جهاتُ جِهَادِهِ أن بر من: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٨٠]، فحجبهم جبريل بحجاب: ﴿فَطَمَسْنَا﴾ [القمر: ٣٧]، وانتاشه بأنامل: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ﴾ [هود: ٨١]، فلما علم أن الملائكة تشوق إلى تعجيل التعذيب، فنادت عواطف الحلم: ﴿أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: ٨١]، فسار بأهله على أعجاز نجائب النجاة إلا عجوز العجز عن عرفان إعجاز المعرفة، فإنها أُلْحِقَتْ بالعَجَزَةِ، فَلَمَّا لاح مصباحُ الصَّباحِ احتمل جبريلُ قُرَى مَنْ جَنَى على قرى جَنَاحِهِ، فلم ينكسر وقت رفعهم إناء، ولم يرق في صعود صعودهم ماء، فلما سمع أهلُ السماء نُبَاحَ كِلابِهِم، أسرعت كف القلى بهم في انقلابهم، فتفكروا بالقلب كيف حكم على مَنْ قَلَبَ قانونَ الحكمةِ بالقَلْبِ، ثم بعث إليهم سحاب: ﴿وَأَمْطَرْنَا﴾ [هود: ٨٢]، واستقل سَدُّ سَدِّ جُرمه الأفق على وُفْقِ جُرْمِهِم فشصا بالشصائص واحزأل ثم مال إليهم، فَاكْفَهَرَّت بالغضب

أرجاؤه، وأحمومت بالسخط أرجاؤه، وَابْذَعَرَّتْ فَرَعَتْ فوارقه، وارتنقت في جَوِّ الجَوَى جُوَبُهُ، واستقلت على قُلَلِ قَلاقِلِ الردى أردافه، وارتجز بأرجوزة الزجر قبل أن يهمي فهمهم، ثم دَوَّى بالأدواء دو دُور دورانهم فأظلم، وركد كيده فلم تكد قلوعه تقلع حتى قلعهم حينهم حين اقتحم، فما رَكَّ ولا دَثَّ ولا بَغَشَ، بل قَطْقَطَ فَأَفْرَطَ وَعَمَّ عَمَمُهُ حينَ أَغْمَطَ، فَتَقَاطَرَ على قطرهم من قَطرة قِطْرِ الحجارةِ، وبَغَتَهُمْ في غِرَّةِ غِرَّتِهِمْ بالغُرُورِ فَشَنَّ الغَارَةَ.

تاللهِ لقد ضكضكَ العذابُ فَضَعْضَعَهُمْ فَتَضَعْضَعُوا، وانقضَّ بِقَضَّتِهِ وَقَضِيضِهِ، فَقَضْقَضَ عظامَ عُظَمَائِهِمْ فَقَطَّعَهَا فَتَقَطَّعُوا، وسار في طُرْفسان عقابِ العقابِ إلى عَوْطَبِ العَطَبِ فاهْرَمَّعُوا، وكانوا في كِنِّ صَافِي الصِّفَاتِ، فمرُّوا إلى مُرِّ الريق فَافْرَنْقَعُوا، وَهَمَسَ هُمَيْسِعُهُم، وَهَلَّ بمثلهم إلا الوهلُ وَالْوَهَى، ﴿وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وادرنقعوا وبرقط المخرنشِمُ بعد أن نهس وابلهس وبلطح، وَحَزِنَ المُبْرَنْشِقُ بعدَ أن زَهْرَقَ، فَبَلْسَمَ وَكَلَّحَ فأُحِيلَ على ذَاكَ الجِيلِ سَجْلُ السِّجِّيلِ، فما بَرِحَ حَتَّى بَرَّحَ وَدَارَ هَاتِفُ العِبَرِ عَلَى دَارِسِ دَارِهِمْ تُنَادِي: ﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً﴾ [العنكبوت: ٣٥].

فليحذر العازمون على طُرُوقِ طريقهم من وعيد: ﴿وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ﴾ [هود: ٨٣]، قبلَ غُصَصِ الحَرَضِ، وقبلَ حُلُولِ المَرَضِ حين يعتقل اللسانُ وَيَتَحَيَّرُ الإنسانُ، وَتَسِيلُ الأجْفَانُ، وَيَزُولُ العِرْفَانُ، وَتُنْشَرُ الأكْفَانُ، فَيَا عَجَبًا كيف ألفى العيش الفَانِ الفَانِ، وقد نَطَقَ نَصُّ القُرْآنِ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦]، فَقَدْ مَرَّ فَأَمَرَّ كُلَّ مَا كَانَ.

الفصل الحادي والخمسون

في قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦]

رَكِبَ يومًا سليمانُ على مَنَاكِبِ مراكبِ مَوَاكِبِ: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَٰنَ جُنُودُهُۥ﴾ [النمل: ١٧]، وضابط جيشه قد كُفَّ بِكَفٍّ: ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل: ١٧]، وراحت الريحُ بِوَأْدِهِ وادي النَّمْلِ، فَنَدَّت نملة، فنادت أخواتها بنُدْبَةِ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل:١٨]، ثم قامت فأقامت لعدله عُذرَ: ﴿وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النمل: ١٨]، فحملته أريحيَّة سُكْرِ الشُّكْرِ على طَرَبِ: ﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا﴾ [النمل: ١٩]، وذلك أنها أفصحت عن فصاحةٍ بَلَغَتْ بها مرتبةَ بليغ، بلفظ (يا) نَادَتْ، (أَيُّهَا) نَبَّهَت النَّمْلَ، عَيَّنَتْ (ادْخُلُوا)، أَمَرَتْ (مَسَاكِنَكُم)، نَصَحَتْ: ﴿لَا يَحْطِمَنَّكُمْ﴾ [النمل: ١٨]، حَذَّرَتْ (سُلَيْمَانُ) خَصَّتْ (وَجُنُودُهُ) عَمَّتْ، (وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ) عَذَرَتْ.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ﴾ [النمل: ١٩]؛ (في) في القرآنِ على عشرة أوجه[1]:

أحدها: وقوعها على أصلها ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [البقرة: ٢].

الثاني: بمعنى الباء: ﴿فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ﴾ [البقرة: ٢١٠].

---

(١) (في): حرفٌ مَوْضُوعٌ في الأصْلِ للظَّرْفِيَّةِ؛ تقول: زَيْدٌ في الدَّارِ.
وقد يُسْتَعَارُ في مَوَاضِعَ تَدُلُّ عليها القَرِينَةُ.
قال أبو زكريا: وقولهم: زَيْدٌ في العِلْمِ، وعمرو في الشُّغْلِ. مُسْتَعَارٌ غير حقيقةٍ، وقد يُتَّسَعُ فيها حتى يُقَال: في يدِ فُلانٍ ضَيْعَةٌ نَفِيسةٌ. ومن مُحَالٍ أنْ تكونَ يَدُهُ وِعَاءً لما هو أَكْثَر مِنْهَا، ولكن هذا اتِّساعٌ كأنَّه بشِدَّةِ تَمَكُّنِهِ من الضَّيْعَةِ وقُوَّةِ تَصَرُّفِهِ فيها بمَنْزِلَةِ الشَّيءِ الذي في يَدِهِ، وهذا كُلُّهُ اتِّسَاعٌ في الكَلامِ، وقد كثر فيه وأنس به.

الثالث: بمعنى نحو: ﴿تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٤٤].

الرابع: بمعنى إلى: ﴿فَتُهَاجِرُواْ فِيهَا﴾ [النساء: ٩٧].

الخامس: بمعنى مع: ﴿ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ﴾ [الأعراف: ٣٨].

السادس: بمعنى عن: ﴿أَتُجَٰدِلُونَنِي فِيٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ﴾ [الأعراف: ٧١].

السابع: بمعنى على: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١].

الثامن: بمعنى اللام: ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ﴾ [الحج: ٧٨].

التاسع: بمعنى عند: ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١].

العاشر: بمعنى من: ﴿يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٢٥].

فلما فَصَلَ طالوتُ ملك سليمانَ بالجنود عن وادي النمل، ووقع في مَفَازَةٍ لا يرى فيها علمًا على الماء، فجاش جأشُ الجيش لفقرهم في القفر إلى الماء ألمًا، وكان إذا سافر يصحبه الإنس، ويتبعه الجن، ويظله الطير، ويهدي به الهُدْهُدُ إلى ما تحت الأرض من ماء؛ لأنَّ الهُدْهُدَ يرى الماء تحتَ الأرض كما تراه في الزُّجَاجِ، غيرَ أنَّ القَدَرَ إذا نَصَبَ فَخَّ صَيْدِهِ بَدَّلَ عَذْبَ نَظَرِهِ بِالأجَاجِ، فلما رآه الهُدْهُدُ قد نَزَلَ ظن ارتفاعَ الحاجة إليه فارتفع، ليخرجَ من خوخةِ الاستعبادِ إلى فَرْجَةِ الفُرْجَةِ، فَمَدَّ سليمانُ بَصَرَ المُرَاعَاةِ للرَّعِيَّةِ، فوقع على مَرْئِيَ، فتفقدَ الطيرَ فَدَارَ لسانُ الاقتدار بسطوة: ﴿مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ﴾ [النمل: ٢٠].

(أَمْ) في القرآنِ على ثلاثةِ أوجهٍ:

أحدها: بمعنى ألف الاستفهام: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ﴾ [النساء: ٥٤].

الثاني: بمعنى بل: ﴿أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ﴾ [النمل: ٢٠].

الثالث: بمعنى إذ: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧].

ثم بسط باع الوعيد بتهديد: ﴿لَأُعَذِّبَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٢١]، غابَ الهدهدُ عن خدمة سليمانَ ساعةً، فتواعده بلفظ لأعَذِّبَنَّهُ، فيا غائبًا عن خِدْمَتِنَا طولَ عمره أَمَا تحذرُ من عُقَابِ عِقَابِنَا، وكان قد اتفق للهدهد هدهد من ملك بلقيس، فسار به في سفر، ﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ﴾ [النمل: ٢٢]، فيا عجبا لمؤثر

ضنك العيش والهوى وضيق العيش في الدنيا على رياض المراعي الفسيحة في بَدْوِ: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠]، ألم تسمع باهتداء هداية الهدهد كيف خاطر بشغل خاطر مالكه، ولم يقنع بالنظر في ممالكه حتى سافر على عيس التجسس سافرًا وجهَ التَّحَسُّسِ على عسكر بلقيس، ليرى ما لم يره، فبينا مركب نزهته في بحر راحته يجري بريح ارتياحه هَبَّتْ عليه عواصفُ (لأعَذِّبَنَّهُ أَوْ لأذْبَحَنَّهُ)، ولسانُ حَالِهِ يقولُ: [البسيط]

وَمَـا غَـلَـتْ نَـظْـرَةٌ مِـنْـكُـمْ بِـسَـفْـكِ دَمِـي

فلما رَجَعَ رَجَّعَ لسان الحال خطابا مضمونه: يا سليمان؛ لا تعجب من صغر جرمي، وانظر إلى بُعْدِ هِمَّتِي وثمرةِ عِنَايَتِي في سفري، ﴿أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ﴾ [النمل: ٢٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً﴾ [النمل: ٢٣]، المرأةُ[1] في القرآنِ على اثني عشر وجهًا:

أحدها: حَنَّةُ: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٥].

الثاني: خَوْلَةُ: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا﴾ [النساء: ١٢٨].

الثالث: سَارَةُ: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ قَآئِمَةٌ فَضَحِكَتْ﴾ [هود: ٧١].

الرابع: أزليخَا امرأةُ العزيزِ.

الخامس والسادس: صافورا وعابورا ابنتا شعيب: ﴿وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ ٱمْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ﴾ [القصص: ٢٣].

السابع: بلقيس: ﴿وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ﴾ [النمل: ٢٣].

الثامن: أم شَرِيكٍ: ﴿وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً﴾ [الأحزاب: ٥٠].

التاسع: ﴿لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ﴾ [التحريم: ١٠].

العاشر: والفة امرأة لوط.

الحادي عشر: آسية: ﴿لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١].

---

(١) المَرْأَةُ: اسمٌ للأنْثَى البَالِغَةُ من أَوْلادِ آدمَ، والرَّجُلُ: المَرْءُ.

الثاني عشر: أم جميل أخت أبي سفيان: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ۝٤﴾ [المسد: ٤].

فلما سمع سليمان عُذْرَ الهُدهُدِ رَدَّ عذار بادرة مبادرته بالوعيد إلى رأي: ﴿سَنَنظُرُ﴾ [النمل: ٢٧]، فقال: انتدب رسولا مني، واحمل كتابًا عني، فإذا شارفت عليهم فألقه إليهم، فمضى حتى أرسى على رءوسهم، فَنَبَّهَ الجماعةَ ساعةَ تحريك الجناحين، وحذرهم بسماع المعنى من خلاف أن جرى جَنَى الحَيْنِ، ثم ألقى الكتابَ من قَارَةِ منقاره، فلما رأت اليقظى بنقضان فهمها كتابًا مختومًا، وأمرًا محتومًا، وكلامًا عجيبًا، وحاملا غريبًا، صاداها العقلُ والفَهْمُ فَصَادَاهَا في فَخِّ العسر كظبية كريم، فَصَاحَ فصيحُ فَهْمِهَا: ﴿إِنِّيٓ أُلۡقِيَ إِلَيَّ كِتَٰبٞ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٢٩]، فلما تلمحت شارات الكتاب إشارات (إِنَّهُ)، فاستشارت آناء قومها في سؤال: ﴿أَفۡتُونِي فِيٓ أَمۡرِي﴾ [النمل: ٣٢]، وكان في مُلكها ألفُ مَلِكٍ، قد ألقى كُلُّ ملكٍ في ملكه الفيء، فَأَوْمَئُوا إلى الحرب برمزٍ: ﴿نَحۡنُ أُوْلُواْ قُوَّةٖ﴾ [النمل: ٣٣]، فعلمت أَنَّ مَنْ صَاحَبَ خَبَرُهُ الطيرَ لا يُحَارَب، فبعثت رائد التفهم، لتفرق بالدليل بين صحة دعوى سليمان وفساد دعوى غيره، ﴿وَإِنِّي مُرۡسِلَةٌ إِلَيۡهِم بِهَدِيَّةٖ﴾ [النمل: ٣٥]، وعلمت بيقظة الفَهْمِ وحسبان الدَّهَى أنه إن كان نبيًّا حقًّا رَدَّهَا، وإن كان غير نبي شكر عندها، فيا عجبا للذهب إذا ذَهَبَ سهمه لا يُخطِئ، وللرشا إذا رَشَّتْ مزالقَ أقدام العقول لا تُبطِئ، تختبر العَلامَةَ في الفَهْمِ والهِلْبَاجَةَ بِالبَاجَةِ، فيعقل هذا عِقَالُ عَقْلِهِ، وَيَجُرُّ ذَاكَ وَهُوَ أَحْمَقُ مِنْ رِجْلَةٍ بِرِجْلِهِ.

[مجزوء الرمل]

لا يَغُرَّنَّكَ مِنَ الْمَرْ ءِ رِدَاءٌ رَقَعَهْ
وَقَمِيصٌ فَوْقَ كَعْبِ السْ سَاقِ مِنْهُ رَفَعَهْ
وَجَبِينٌ لاحَ فِيهِ أَثَرٌ قَدْ خَلَعَهْ
أرِهِ الدِّرْهَمَ تَعْرِفْ غَيَّهُ أَوْ وَرَعَهْ

فلما بدت هوادي هديتها لسليمان كَشَفَ صباحُ حُجَّته عن صِبَاح وجوه الزهد، فانقشع ليل الطمع عن فجر: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [الأنعام:

٩٠]، وصاح لسانُ العِزِّ: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ﴾ [النمل: ٣٦]، وَجَرَّدَ صارمَ الصريمة والوعيد ﴿فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ﴾ [النمل: ٣٧]، وكان فيما اختبرت به سليمان جَوَارٍ وغلمان، وَحَلَّتِ الذكورَ منهم حِلْيَةَ النِّسْوَانِ، وألبستِ النساءَ منهم حُلَلَ الفِتْيَانِ، فأذادوا منه بعين الحس اثنان، قال: رأى كل ذي رأي أمرَدان، فقال لسانُ فهم سليمان: الأمْرُ دَان، فمَيَّزَ بالذهن بينهم فبان البيان، فَلَمَّا صَحَّ عندها ما يدعو إليه وَثَبَتْ وَثَبَتْ على أقدامِ الطلبِ، واستسلمت لعزيمة الإسلام وَهَيَّأَتْ مَرَاكِبَ القَصْدِ، فَزَوَّدَتْ سُفَرَ السَّفَرِ، ورحلت في هجير شمس الهدى على نجى نجائب الهجرة لا غرض لها بَيْدَ أن تقطعَ بيداءَ الهجر بِيَدِ الوَصْلِ، فلما سمع برحيلها أراد تقويةَ دليلها، فنادى في نادي عفاريته، مُسْتَعْرِضًا جُنْدَ بَطْشِهَا: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾ [النمل: ٣٨]، وما ذَهَبَ يقصدُ الذَّهَبَ، ولكنْ أرادَ أن يملك ثم يَهَبْ؛ إذ لو أسلمت حُرِّمَ عليه مَالُهَا، فأراد تحصيله لها قبل أن تدري ما لها، فلما جيء به سَتَرَهُ بِقِرَام: ﴿نَكِّرُوا۟ لَهَا﴾ [النمل: ٤١]، ثم ابتلاها ليرى ذكاءها: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ﴾ [النمل: ٤٢]، فَحَارَتْ وَسْطَ حِيرَةِ الْحَيْرَةِ حَتَّى تَوَسَّطَ حَاكِمُ ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ﴾ [النمل: ٤٢]، ثم اختبأ لاختبارها قَصْرًا مُمَرَّدًا، فرأتها المرأة بمردانها، وجعل تحت ما بنى منه، وسمك ماء ألقى فيه السمك، وكان القصرُ على الماء كالسُّفُنِ الجَوَارِي، فأراد اختبارها كاختباره بالسفن الجواري، فَصَرَّحَ بلفظِ: ﴿ٱدْخُلِى ٱلصَّرْحَ﴾ [النمل: ٤٤]، فشبه لضعفها عن إطاقة كأس ساقيها، فَكَشَفَتْ عَنْ سَاقَيْهَا، فَقَدَّ شقَّةَ الغَلَبَةِ الفعل، وكُشفت بيد حجة شَفَتْ ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ﴾ [النمل: ٤٤]، فلما وَصَلَتْ وَسَلَّمَتْ أَسْلَمَتْ فَسَلِمَتْ، وَحَلَّتْ قبلَ أَنْ حَلَّتْ نِطَاقَ النُّطْقِ، فَنَثَرَتْ خَرَزَاتَ نِظَامِهِ على نَظْمِ العُذْرِ: ﴿إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

الفصل الثاني والخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧]

قال الأصمعيُّ: قلتُ لأعرابيَّةٍ: ما أَفْصَحُكِ! قالت: وَبَعْدَ هَذِهِ الآيَةِ فَصَاحَةٌ، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ جَمَعَ فيها بين أَمْرَيْنِ وَنَهْيَيْنِ، وَخَوْفَيْنِ وَبِشَارَتَيْنِ.

قال ابنُ قُتَيْبَةَ: (الوَحْيُ كُلُّ شَيْءٍ دُلِلْتَ بِهِ مِنْ كِتَابٍ أَوْ إِشَارَةٍ أَوْ رِسَالَةٍ).

والوَحْيُ(١) **في القرآنِ على سَبْعَةِ أَوْجُهٍ:**

أحدها: الإِرْسَالُ: ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ [النساء: ١٦٣].

الثاني: الإِلْهَامُ: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ﴾ [المائدة: ١١١]، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٧].

الثالث: إِعْلامٌ بِالْوَسْوَسَةِ: ﴿لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ﴾ [الأنعام: ١٢١].

الرابع: الإِشَارَةُ: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

الخامس: إِعْلامٌ في الْمَنَامِ: ﴿أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

---

(١) قال ابن قتيبة: الوَحْيُ: كُلُّ شيءٍ دللت بهِ من كِتَابٍ أو إِشَارَةٍ أو رِسَالَةٍ.

وقال ابن فارس: كُلُّ ما أَلْقَيْتَهُ إلى غَيْرِكَ حَتَّى يَعْلَمَهُ فَهُوَ وَحْيٌ كيفَ كان. وأَوْحَى اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وأَوْحَى. وأنشدوا: [الرجز]

وَحَى لَهَا القَرَارَ فَاسْتَقَرَّتِ

والوَحِيُّ: السَّرِيعُ. والوَحْيُ: الصَّوْتُ. ويقال: اسْتَوْحَيْنَاهُمْ؛ أي: اسْتَصْرَخْنَاهُم.

وقَدْ حَدَّ بعضُهُم الوَحْيَ فقال: إِيصَالُ المُرَادِ إلى المُوحَى إليهِ على أَسْرَعِ وَجْهٍ وأَلْطَفِهِ.

السادس: القَوْلُ بِلا وَاسِطَةٍ: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ١٠﴾ [النجم: ١٠].

السابع: الأمْرُ: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوۡحَىٰ لَهَا ٥﴾ [الزلزلة: ٥].

وكان السببُ في إلهام أُمِّ موسى أنهم فتحوا سِفْرَ عِلْمِهِمْ فوجدوا رَقْمَ وُجُودِ موسى في عَامِهِمْ، فأخبروا فرعونَ، فَجَدَّ في حَرْبِ: ﴿يُذَبِّحُ أَبۡنَآءَهُمۡ﴾ [القصص: ٤]، فلما اتُّهِمَتْ أُمُّ مُوسَى بالوَضْعِ أَوْضَعَ الحَرَس في طَرِيقِ الطَّلَبِ، فَأَدْرَكَهَا عِنْدَ الْعِلْمِ الدَّهَشُ، فَأَلْقَتْهُ في التَّنُّورِ إلقاءَ الحَطَبِ، فلما عاودت فَرَأَتْهُ قد سَلِمَ شاهدت في ضمن ما صَنَعَتْ أَثَرَ: ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي ٤١﴾ [طه: ٤١]، فكانت سلامته نقدًا لأجله احتملت وعد: ﴿فَأَلۡقِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ [القصص: ٧]، فقال لسان الحال: يا أُمَّ مُوسَى؛ ما يتعلق بالأسباب فإليك، وما يخرج عن المعهود فليس عليك، فقولنا: (أَرْضِعِيهِ)، أخذ أهبة السبب، (فَأَلْقِيهِ) دخول حصن التوكل، فَوَازَنَ أَرْضِعِيهِ وَأَلْقِيهِ اعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ.

العجبُ من إلقائه بين الأضداد نَارٌ تُحرق سُلَّ منها إلى سُلَّمِ النجاةِ، ثم نم بعرق ذاق منه سلسل السلامة، فلما سعت بتابوته إلى اليَمِّ ارتعش أيد أيدي التسليم، فصاح شجاع الشجاعة عن عز العزم: اقْذِفِيهِ في اليَمِّ، فصدرت بعد إلقائها بصدر قد لوى به لواعج الاشتياق، لا يعلم قدر ما به إلا من قد رمى به، فَتَبَيَّنَ فَرَقُ الفِرَاقِ، فَتَلَقَّاهَا بالبشر بشيرُ: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيۡكِ﴾ [القصص: ٧]، فلم تزل أمواجُ اليَمِّ تيمَّم به مسالك القَدَرِ إلى أَنْ جِيبَ جَيْبُ النِّيل، فشرعت في تناوله مشرعة دار فرعون، فألقته في بريَّة (فَالْتَقَطَهُ)، فلما فتحوا التابوتَ سَفَرَ عن مسافرٍ على نجيب النجاة، قد جعل زَادَهُ في مِزْوَدِ: ﴿وَلِتُصۡنَعَ﴾ [طه: ٣٩]، ووشح قلادة الحُبِّ منظومةً بِدُرِّ ﴿وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي﴾ [طه: ٣٩]، فقام فرعون على أقدام الإقدام على قتله، كما قتل من قبله، فخرجت آسيةُ من كمين إيمانها تنطق على لسان ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]، وتنادي في مخدع خَديعةِ الحرب: ﴿قُرَّتُ عَيۡنٖ لِّي وَلَكَۖ لَا﴾ [القصص: ٩]، وتجمع في خطابها ما هو فرد في لغة القدر ﴿عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ﴾

[القصص: ٩]، فلم يزل فرعون في أغباش غروب شمس (يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَهُمْ)، حتى طلع غرير صبح: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [القصص: ٥]، فلما قص شوقُ أمه جناحَ صبرها، قالت لأخته: (قُصِّيهِ)، (فَبَصُرَتْ بِهِ) في حريم: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٢]، فدنت فدندنت حول حلة الحيلة بحول: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ﴾ [القصص: ١٢]، فلما أقامت على باب المكر حارس الإضافة إليهم بمقمعة: ﴿يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ﴾ [القصص: ١٢]، دخل طفيلي الوجد من باب: ﴿وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ﴾ [القصص: ١٢]، فجاءت بأمها يؤمها دليل الطرب، فكادت حين حضرت تُحضر في ميدان: ﴿لَتُبْدِى بِهِۦ﴾ [القصص: ١٠]، فكبحَها لجامُ: ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا﴾ [القصص: ١٠]، فَخَافَتَ لِسَانُ جَهْرِهَا لَمَّا خَافَتْ، فَسُلَّ من أيديهم إلى سُلَّم تَسْلِيمِهَا، فقَرَّ في حجر: ﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [القصص: ١٣]، وترنَّمت بلابلُ الوِصَالِ على أغصان التلاقي، فَأَخْرَسَتْ بلابلَ الفِرَاقِ، وقامَ خطيبُ الأَمَانَةِ على أمورِ السَّلامةِ بخطبة: ﴿فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ﴾ [القصص: ١٣]، فَرَبَى موسى في رُبَى فرعونَ، وَنَمَى بين نَمَارِقِهِ إلى أَنْ آنَ أَوَانُ مُهَاجَرَتِهِ إلى دَائِرَةِ دَارِ الهِجْرَةِ، فجرى القدر بقتل القبطي ليكونَ سببًا في سر سيره، فلما تَوَجَّهَ يسعى على أرجاء رجاء: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى﴾ [القصص: ٢٢]، فَيَرِدُ مَوْرِدَ ﴿وَلَمَّا وَرَدَ﴾ [القصص: ٢٣]، فَتَجَمَّعَ شَمْلُ الصِّهْرِ بواسطةِ ﴿أَبِى يَدْعُوكَ﴾ [القصص:٢٥]، فبقي ضمان الوفاء إلى أمانِه، ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص:٢٩]، فتلمح معنى ﴿قَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓا۟﴾ [القصص: ٢٩]، فيبدو في بادية الطلب أنيس ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ﴾ [القصص: ٢٩]، فيترامى كف الطمع إلى مَرَام ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم﴾ [القصص: ٢٩]، فيطل على طلل الطلب طَلُّ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾ [القصص: ٣٠]، فتلقُط ثمارَ التكليم من غير كُلْفَةٍ وَهُزِّي وَتَسَاقَطُ مِن جَنَى جناب التَّجَلِّي: ﴿إِنِّىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠]، وعلى هذا تجري أحوال المؤمنين، العدوُّ يَرُومُ هَلاكَهُ من يوم ﴿وَقَاسَمَهُمَآ﴾ [الأعراف: ٢١]، وقد بَثَّ في طلب حَتْفِهِ جُنُودَ ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ﴾ [الإسراء: ٦٢]، والقدر قد ألقاه في تَنُّورِ الهوى، ثم سلمه بِكَفِّ كَفِّ التُّقَى من شر شرر الطبع، ثم رَمَى به في يَمِّ الابتلاءِ، يموجُ به مَوْجُ الاختبار كلما غيبه

في غائبة ذنوب ذنبٍ لفظه إلى نَجْوِ النَّجَاةِ لفظُ استغفارٍ، فيظن العدوُّ أنه تحتَ رايةِ رَأْيِهِ وَلُطْفِ ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ [العنكبوت: ٦٩]، يجذبه من ورائه، فإذا حَانَ حينُ الحَيْنِ عرضت عليه مرضعات الشرك أخلافَ الخلاف، فَيَضْرِبُ على فِيهِ فِدَامَ ﴿وَحَرَّمْنَا﴾ [القصص: ١٢]، فيرجع سليمًا يَؤُمُّ أُمَّ التوحيد التي سافر عنها يَـوْمَ ﴿أَلَسْتُ﴾ [الأعـراف: ١٧٢]، فـيـتـلـقـاه بـشـيـرُ ﴿ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾﴾ [الفجر: ٢٨].

الفصل الثالث والخمسون

في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى ٱلْأَجَلَ﴾ [القصص: ٢٩]

سُئِلَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّ الأَجَلَيْنِ قَضَى مُوسَى؟ قَالَ: " أَوْفَاهَا وَأَطْيَبَهَا ".

قال مجاهد: مَكَثَ بعدَ أن قَضَى الأجلَ عندهم عَشْرَ سِنِينَ.

لَمَّا خَرَجَ موسى بأهله من مدينة مَدْيَنَ يَؤُمُّ أُمَّهُ، انطلقَ فَانْطَلَقَ طَلْقُ الطَّلْقِ بِزَوْجَتِهِ، فَمَا زَالَ يكادح المَقَادِحَ فلم تُورَ؛ لأن عَرُوسَ نَارِ الطُّورِ لَمَّا هَمَّتْ بالإشراقِ نُودِيتِ النيرانُ بلسان الغَيْرَةِ من المشاركة غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ، فقام على أقدامِ التَّخَيُّرِ، وقد سُدَّتْ في وجهه أبوابُ المطالبِ، فَهَبَّ به أنيسُ أُنْسٍ فَأَنِسَ.

[السريع]

يَا حَارِ إِنَّ الرَّكْبَ قَدْ حَارُوا ... فَاذْهَبْ تَحَسَّسْ لِمَنِ النَّارُ

تَبْدُو وَتَخْبُو إِنْ خَبَتْ وَقَفُوا ... وَإِنْ أَضَاءَتْ لَهُمْ سَارُوا

فَشَمَّرَ موسى عن ساق القَصْدِ، وساق يسعى على أرجاء رجاء ﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، فَلَمَّا وصلَ النادي نُودِي، فَلَمَّا ذَاقَ لَذَّة التكليمِ جَرَحَ قلبَهُ نَصْلُ الشَّوْقِ، فَلَمْ يُدَاوِهِ إلا طَبِيبُ ﴿وَوَٰعَدْنَا﴾ [الأعراف: ١٤٢].

[الوافر]

لَيَالِينَا بِذِي الأَثْلاثِ عُودِي ... لِيُورِقَ فِي رُبَى الأَثْلاثِ عُودِي

فَإِنَّ نَسِيمَ ذَاكَ الشَّيْخِ أَذْكَى ... لَدَيَّ مِنَ انْتِشَاقِي نَشْرَ عُودِ

وَإِنَّ حَدِيثَكُمْ فِي الْقَلْبِ أَحْلَى ... وَأَطْيَبُ نَغْمَةٍ مِنْ صَوْتِ عُودِ

فبعث في حرب عدو: ﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ [طه: ٢٤]، فما زال مشغولا إلى أن قبر القتيل في لحد اليم، فطلب قومه كتابًا يضبط شاردهم أوامره ويرد نادهم

نواهيه، فأمره الله تعالى أن يصوم ثلاثين ليلة نهاره وليله، فأمسك على مَسْكِ الإمساكِ بكَفِّ الكَفِّ في الوِصَالِ، فَدَامَ فِدَامُ فِيهِ فِيهِ عن مطعم المطعم، فَقَيَّدَ فقيد قوت الوقت في ذكر الوعد، فلما انْقَضَتِ الليالي أَنْقَضَتْ ظَهْرَ تَظَاهُرِ الشَّوْقِ، فقام لترائي هلال الوفاء بالأمر في مطلع فلاحِ القصد، فبادر يسعى على أقدام الحُبِّ إلى زيارة رَبْعِ الحِبِّ، فهو يُقْلِقُهُ قَلْقَلَةُ الوَجْدِ، فَوَجَدَ الهوى متغير الريح في عرضة الفم، فصاح فصيحُ لسان الحزم من وراء رأي العزم: يا موسى؛ غَيِّرْ أَثَرَ الأَزْمِ، فَتَنَاوَلَ مُضْغَةً من النباتِ فَمَضَغَهَا، فقيل: أَيُّهَا الصَّائِمُ عن أمرنا لِمَ أَفْطَرْتَ بِرَأْيِكَ، قال: وجدتُ لِفِيَّ خُلُوفًا، وما أردتُ بفعلي خِلافًا، فقيل: أَمَا عَلِمْتَ أَنْ قَدْرَ فَوْرَةِ الخُلُوفِ مِنْ قِدْرِ الإمْسَاكِ أَطْيَبُ عِنْدَنَا مِنْ فَارَةِ الْمِسْكِ، إنَّا لننظر إلى قصدِ الفاعلِ، لا إلى صُورَةِ الفعلِ، الدَّمُ نَجِسٌ يُجْتَنَبُ لَكِنَّهُ في حَقِّ الشَّهِيدِ شَهِيٌّ " زَمِّلُوهُمْ بِكُلُومِهِمْ "[(١)]، النَّوْمُ مكروهٌ بَيْنَ الجُلاسِ، غير أنه في محل التَّهَجُّدِ يُبَاهِي بِالنَّائِمِ في سُجُودِهِ المَلائِكَةَ، فكذلك خُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ مكروهٌ في طَبْعِ الخَلْقِ، مَحْبُوبٌ في شَرْعِ الحَقِّ.

يا موسى؛ عُدْ إلى صومعة صومك، لينبت ريشُ فرخ التَّعَبُّدِ في عُشِّ عرشي، ليتحقق تمامُ بُدُورِ بَدَنِكَ في ليلة التمام، فتشبه أباك في تكميل تخمين طينته أربعين صباحًا، فرجعَ عاكفًا على مُعْتَكَفِ كَفِّ كَفِّهِ، ﴿فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ﴾ [الأعراف: ١٤٢]، فلما أَتَمَّهَا ألفى هَمَّهُ بمَنْ خلف خلفه على خلف: ﴿ٱخْلُفْنِي﴾ [الأعراف: ١٤٢]، وَأُحْضِرَ حَتَّى حَضَرَ حظيرة القدس، فنسي الآنِسُ لَمَّا أَنِسَ من الإنْسِ.

[البسيط]

فَكُلُّ شَيْءٍ رَآهُ ظَنَّهُ قَدَحًا وَكُلُّ شَخْصٍ رَآهُ ظَنَّهُ السَّاقِي

لما دارت في دائرة دار القرب كؤوس الحُبِّ، وسمع النداء وسط النادي

---

(١) انظر: صحيح البخاري ٣/ ١٩ المطبعة العثمانية، سنن النسائي ٤/ ٦٤، تحفة الأحوذي ٤/ ١٢٦، مسند أحمد ٥/ ٤٣١، المستدرك ١/ ٣٦٦، بدائع المنن ١/ ٢١٠، فيض القدير ٤/ ٦٥، نيل الأوطار ٤/ ٣٢".

بلا واسطةِ وسيطٍ، وسيط له في أقداح المُنى في المُنَاجَاةِ بلا وسيطٍ، فَطَابَ له شرابُ الوِصَالِ من أَوْطَابِ الخطابِ في أواني سماع الكلام، ناداه تَوْقُ شَوْقِهِ: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [القصص: ٣٠].

[الوافر]

أَوَانِ أَنْـــتَ فـــي هَـــذَا الأَوَانِ عَـنِ الـرَّاحِ الـمُـزَوَّقِ فـي الأَوَانِـي

فلما هاجت هِمَّةُ العزم في هَامَةِ الطلب، هَمْهَم سَحَابُ الشوقِ في مَهْمَهِ الرَّجَاءِ فَهَمَى، فَصَاحَ لسانُ الوَجْدِ: ﴿أَرِنِيٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَرَدَّ شارد شحذان التوق على الطُوَى يطوف: ﴿لَن﴾ [الأعراف: ١٤٣]، غير أنه سكن جزع فطامه بِتَعِلَّةِ: ﴿وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فَلَمَّا تَجَلَّى جَلَّ جَلالُهُ للجبلِ سَاخَ بِقَسْرٍ: ﴿جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وأصاب سهم سهم موسى جلجال قلبه، فلم يكن قلبه فقلبه فحين دُكَّ الجبلُ وَمَرَّ خَرَّ في بحر الصَّعقِ فَرَقًا فَرَقَّى دُرَّةَ ﴿سُبْحَٰنَكَ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، يا موسى؛ لا تتعدى طورك، فتطلب مال غيرك، ألم تسمع في كلامي القديم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، فلو شاهدت جريح الشوق بِحَدِّ حديدةِ الحَدِّ، لعاينت قتيلا على سيف الرد بسيفِ (سوف)، ولو أصغيت إلى أنين صريع الحُبِّ من وراءِ سُرَادِقِ الأملِ، لفهمت من لَقْلَقَةِ لقلَقِ قلقه المقلقل يبث إليك، فكان بَعْدُ يطوفُ على بني إسرائيل: مَنْ يحمِّلني رِسَالةً إلى رَبِّي، ما كان مُرَادُهُ إلا أن يَطُولَ الحديثُ مَعَ الحَبِيبِ.

[الطويل]

فَقُلْتُ لَهُ كُرَّ الْحَدِيثَ الَّذِي انْقَضَى فَـذِكْـرَاكَ مِـنْ ذَاكَ الْـحَـدِيـثِ أُرِيـدُ
يُـجَـدِّدُ تِـذْكَـارَ الْـحَـدِيـثِ مَـوَدَّتِـي فَـذِكْـرَاكَ مِـنْ ذَاكَ الْـحَـدِيـثِ جَـدِيـدُ
أُنَـــاشِـــدُهُ إلا أَعَـــادَ حَـــدِيـــثَـــهُ كَـأَنِّـي بَـطِـيءُ الْـفَـهْـمِ حِـيـنَ يُـعِـيـدُ

مات موسى يوم مات قتيل شوق (أَرِنِي) لا يستطيع غُصَّةَ (لَنْ)، فلما كانت ليلة المعراج، جاز عليه نبيُّنا، فأجاز عليه نصل ذكرِ الوصل فألقاه كإلقاء على حَزْنِ الحُزْنِ مُسْبِلا دموعَ الأسَى على خَدِّ الأسَفِ، فقيل: مَا لَكَ يا مُوسَى؟ فأجاب لسان غيرته شَابٌّ بُعِثَ بَعْدِي، فَلَمَّا رَجَعَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ

وَسَلَّمَ مِنْ سَفَرِ: ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ﴾ [النجم: ٩] جَعَلَ يَرُدُّهُ في الصَّلَوَاتِ ليسعدَ برؤية مَنْ قَدْ رَأَى.

[المنسرح]

إنْ تَشْتَقْ عَيْنِي بِكُمْ فَقَدْ سَعِدَتْ عَيْنُ رَسُولِي وَفُزْتُ بِالنَّظَرِ
وَكُلَّمَا جَاءَنِي الرَّسُولُ بِهِمْ رَدَدْتُ شَوْقًا فِي طَرْفِهِ بَصَرِي
تَظْهَرُ فِي طَرْفِهِ مَحَاسِنُهُمْ قَدْ أَثَّرَتْ فِيهِ أَحْسَنَ الأَثَرِ
خُذْ مُقْلَتِي يَا رَسُولُ عَارِيَةً فَانْظُرْ بِهَا وَاحْتَكِمْ عَلَى بَصَرِي

فإذا قامت القيامة قام فتعلق بقائمة العرش مُلازمًا باب الطبيب، يروم دواءَ داءِ (لَنْ)، وكيف لا يسابِقُ إلى الطبيبِ مَنْ أَلَمَّ أَلَمَ المَنْعِ بقلبه، وَأَثَّرَ جرح نَصْلِ (لَنْ) في عَيْنِهِ.

الفصل الرابع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ﴾ [القصص: ٧٧]

هذه الآية موعظة للمؤمنين من قوم قارون، ولقد كان غايةً في فقه فهمه، وكان في النَّسَبِ إلى موسى ابنَ عَمِّهِ، فلما فاضت الدنيا عليه فاضت نفسُ عِلْمِهِ، وكانت مقاليدُ خزائن بقاياه وَقْرَ ستينَ بَغْلا، غير أَنَّ الذي فاته بما ناله أَعْلَى وَأَغْلَى، فَجَرَّ المذلال ذَيلَ البَغْي، فقام نحوه قومه قومةً بزجر: ﴿لَا تَفۡرَحۡۖ﴾ [القصص: ٧٦]، وألقوا نصائح: ﴿وَٱبۡتَغِ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَلَا تَنسَ﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَأَحۡسِن﴾ [القصص: ٧٧]، ﴿وَلَا تَبۡغِ﴾ [القصص: ٧٧]، فوقر الوقر في سم سمعه، فنطق لسان جهله بلفظ: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ﴾ [القصص: ٧٨]، فجادله مَنْ جَادَ لَهُ باحتجاجِ ﴿أَوَلَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [القصص: ٧٨]، فركب يومًا في وقت اقتداره في أربعة ألف مُقاتل، وَسُمُّ الهَوَى يعملُ معه في المَقَاتِلِ، وَرَكِبَ معه في مَعْمَعَتِهِ ثلاثُ مائةِ جارية، وقد أنساه سَفَهُ الأملِ أن سفينةَ الأجلِ جارية، فتهافت الجُهَّالُ مُذْ نَصَبَ فَخَّ: ﴿فَخَرَجَ﴾ [القصص: ٧٩]، وجعلوا يلتقطون بأنامل حُبِّ الدنيا حَبَّ: ﴿يَٰلَيۡتَ لَنَا﴾ [القصص: ٧٩]، والسالمون من شَرَكِ الهوى يَهْتِفُونَ بَدَلا من ثوى: ﴿وَيۡلَكُمۡ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيۡرٞ﴾ [القصص: ٨٠]، فلما ظَنَّ في نَفْسِهِ العُلُوَّ حَطَّهُ حَظُّهُ إلى حضيض: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ﴾ [القصص: ٨١]، فقال الجُهَّالُ: إنما بَادَرَ موسى بَادِرَتَهُ لأخذِ بَدْرَةِ بِدَارِهِ، فقال حاكمُ الغَيْبِ لإزالةِ الرَّيْبِ ﴿وَبِدَارِهِ﴾ [القصص: ٨١].

قال موسى: يا أرضُ خُذِيهِ، فاستجدت لأمره، فَسَرَتْ بسريره، فَنَاشَدَهُ قَارُونُ بالرَّحِمِ فَمَا رَحِمَ، ثم عَادَ يَعُودُ في إِعَادَةِ خُذِيهِ، فَأَخَذَتْهُ لتقدُمِهِ حتى

غَيَّبَتْ قَدَمَيْهِ، فما زال يُردد القولَ على الغَبِيِّ حتى غَابَ، وإنه ليخسف به كلَّ يوم مقدارَ قَامَةٍ، فلا يَظُنَّنَّ دَمَ الجزاءِ قَدْ رَقَى مِنْهُ، فَتَمَزَّقَ فَرِيق فرقه ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ﴾ [القصص: ٨١]، فأفاق طَالِبُو الدُّنْيَا من خُمَارِ الهَوَى إِذْ هَوَى بِالرَّسِّ رئيسهم، فَتَلَهَّفُوا على الاغترار بِزِيِّ الزينةِ، فنادوا في أندية الندم: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [القصص: ٨٢]، فَخَتَمَ خاتمُ الحكمةِ يتلو فَصْلَ الحُكْمِ: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا﴾ [القصص: ٨٣]، فيا مَنْ كُلَّمَا جُذِبَ عن لَهْوِهِ رَسَب، هذا بريدُ الموتِ لك في الطَّلَبِ، بادر قبل الموت، فإن الزمان قد ذَهَب، وهو مُوهب مُعير ويسترجع عَوَارِيهِ وما وَهَب.

أين الجَامِعُ المانِعُ للذَّهَبِ ذَهَب، أي مَقَاوِي الأقدارِ قل لي مَنْ غَلَب، أَمَا اسْتُلِبَ بِكَفِّ السَّلَبِ وَأَخَذَ السَّلَب، أَمَا كَسَرَهُ الموتُ كَالْكِسْرَةِ وَغُيِّبَ في التُّرَابِ، يا مُعْرِضًا عَنَّا عنَاكَ التَّعَبُ، يا هَاجِرًا طاعتنا إلى كم ذا الغَضَب، يا مُضْغَةً، يا عَلَقَةً، خُذْ مِنَّا هذا النَّسَب، يا مُؤْثِرًا غَيْرَنَا بِعْتَ الدُّرَّ بِالْمَخْشَلَبِ، إِنَّما الدنيا حُلمُ نَائِمٍ، وَقَائِلَةُ رَاقِدٍ، وَمَعْبَرُ مُعْتَبِرٍ، وَضَحِكُ مُسْتَعْبِرٍ، تَاللهِ ما أَعْجَبَ بِمَالِهَا مَنْ نَظَرَ في مَآلِهَا، ولا بَنَى قُصُورَهَا مَنْ عَرِفَ غُرُورَهَا، ولا مَدَّ بَاعَ الأَمَلِ وَشَرَى بِهَا مَنْ تَذَكَّرَ مُرَّ شَرَابِهَا، إنها إذا طلعتْ على الطُّغَام تَطْغَى، وإذا بَغَى نِكَاحَهَا عَلَى العَفَافِ تَبْغِي، وإنها لتقصدُ هَلاكَ مُحِبِّهَا وَتَبْغِي، وكم عَدَلَتْ في فَتْكِهَا الفَتَى الفَتِيَّ وَتُلْغِي، فلما دَرَّ دَرُّهَا فَغَرَتْ، وَلَمَّا فَرَغَتْ فَغَرَتْ فَاهَا فَرَغَتْ، أَمَا سَحَبَتْ قُرُونَ قَارُونَ مع أَقْرَانِهِ إلى القَرَارِ في قَرْنٍ، أَمَا كَفْكَفَتْ بِكَفِّهَا كَفَّ مَكْفُوفِ حُبِّهَا، فَأَرَتْكَ فَنَّ ما يكونُ مِنْكَ في كَفَنٍ، تاللهِ لقد لَقِيَ الْغَبِيُّ البَغِيُّ غِبَّ غَبَاوَتِهِ، فلمَّا انْجَلَى غَيْهَبُ غَيْبِهِ رَأَى الْغَبْنَ وَالْغَبَنَ، يا أَيُّهَا الغَنِيُّ الْغَبِيُّ افتح مِنْ رُقَادِ الغَفْلَةِ عَيْنَيْكَ، ولا تنظر مَالكَ وَانْظُر مَآلَكَ، وضع على الأرض خَدَّيْكَ، وانظر بإخراجِ ما في يَدَيْكَ لِمَا بَيْنَ يَدَيْكَ، وَقُمْ إلى عطاءِ الفقيرِ بِقَدَمَيْكَ، قبلَ أن تلحقَ في طريق النَّدَم بِأَبَوَيْكَ، ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [القصص: ٧٧]، كم عَلَلْتَ مَرِيضًا بِكَفَّيْكَ، ورأيتَ مَيِّتًا بِعَيْنَيْكَ، وَيْكَ احْذَرْ مَا لَدَيْكَ، يا مَنْ جاء لِلنَّفْعِ إلينا قد أَدَّيْنَا مِنْ نُصْحِكَ دَيْنا، هذا القولُ الذي عَلَيْنَا، بَقِيَ الْفِعْلُ عَلَيْكَ.

الفصل الخامس والخمسون

في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ﴾ [الروم: ٤٨]

قال ابنُ عَبَّاسٍ: (الرِّيَاحُ ثَمَانِيَةٌ: أَرْبَعٌ رَحْمَةٌ، وَأَرْبَعٌ عَذَابٌ: فَالرَّحْمَةُ: المُبَشِّرَاتُ، وَالْمُنْشِرَاتُ، وَالْمُرْسَلاتُ، وَالرَّخَاءُ، وَالْعَذَابُ: الْعَاصِفُ، وَالْقَاصِفُ وَهُمَا في الْبَحْرِ، وَالْعَقِيمُ وَالصَّرْصَرُ وَهُمَا في الْبَرِّ).

وقال عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: يبعثُ اللهُ تَعَالَى ريحًا فَتَعُمُّ الأرضَ، ثم يبعثُ المُثِيرَةَ فَتُثِيرُ السَّحَابَ، ثم يبعثُ المُؤَلِّفَةَ فَتُؤَلِّفُهُ، ثمَّ يبعثُ اللَّوَاقِحَ فَتُلْقِحُ الشَّجَرَ.

وقال ابنُ مسعودٍ: (يبعثُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ الرِّيَاحَ لِتَلْقِيحِ السَّحَابِ، فَتَحْمِلَ الْمَاءَ، فَتَمُجَّهُ في السَّحَابِ، ثُمَّ تَمُرَّ بِهِ، فَيَدِرَّ كَمَا تَدِرُّ اللِّقْحَةُ).

قوله تعالى: ﴿فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي: تُزْعِجُهُ، (فَيَبْسُطُهُ) اللهُ عز وجل في السماء ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ [الروم: ٤٨]، إن شاء بَسَطَهُ مسيرةَ يوم أو يومين، أو أقلَّ أو أكثرَ، ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾ [الروم: ٤٨]؛ أي: قِطَعًا مُتفرِّقًا، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، وهو المَطَرُ، وَالخِلالُ: جَمْعُ خَلَلٍ، مثل: جِبَالٍ وَجَبَلٍ.

وقال كَعْبٌ: (السَّحَابُ غِرْبَالُ الْمَطَرِ، لَوْلا السَّحَابُ لأفْسَدَ مَا عَلَى الأرْضِ).

وقال عِكْرِمَةُ: يُنزل اللهُ عَزَّ وَجَلَّ المَاءَ من السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَتَقَعُ القَطْرَةُ منه على السَّحَابِ مثلَ الْبَعِيرِ.

وقال ابنُ عَبَّاسٍ: (المَطَرُ مِزَاجُهُ مِنَ الجَنَّةِ، فَإِذَا كَثُرَ المِزَاجُ عَظُمَتِ البَرَكَةُ وَإِنْ قَلَّ المَطَرُ، وَإِنْ قَلَّ المِزَاجُ قَلَّتِ الْبَرَكَةُ وَإِنْ كَثُرَ المَطَرُ)، وَإِذَا جَاءَ المَطَرُ مِنَ السَّمَاءِ تَفَتَّحَتْ لَهُ الأَصْدَافُ فَكَانَ لُؤْلُؤَ، فسبحانَ مَنْ يُرسلُ الرياحَ بالفسادِ والصَّلاحِ، تارةً تَهُبُّ عقيمًا، وتارةً تبعثُ خيرًا عميمًا، أما سَمِعْتَهَا تُغَنِّي

بلسانِ الهَفِيفِ بينَ الثَّقِيلِ والخَفِيفِ، فَتُصَفِّقُ الأفْنَانُ مِنْ أَغْصَانِ الأشْجَارِ، وَتَرْقُصُ السُّفُنُ على إِيقَاعِ الأمْوَاجِ في الْبِحَارِ، فَإِذَا بُعِثَ بها الغَمَائِمُ سَدَلَتْ دَكَنَ الْعَمَائِمِ، فإذا البرقُ قد جَاءَ فَطَبَّقَ الأرجاءَ، فكُلَّمَا تَرَنَّمَ بنغماته نفد نُطْقُ لسانِ البرقِ في لَهَوَاتِهِ، أَمَا رأيتَ كيفَ انتحلَ الماءُ المُنحِل: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١]، ثم عن للبَرْدِ فَلَعِبَ بِالبَرَدِ، فالسماءُ تبكي بُكَاءَ المَشُوقِ والأرضُ تَضْحَكُ ضَحِكَ المَعْشُوقِ، والطيرُ تُجَاوِبُ بغرائبِ شَدْوِهَا، والقلوبُ تذكرُ عجائبَ شَجْوِهَا، والغُدْرَانُ قد صَقَلَتِ الشَّمَالُ مِرْآتَهَا وَطَرَحَتْ عن عَيْنِهَا قَذَاتِهَا، إذا أنارت طريق البرق صاحَ أميرُ الرَّعْدِ بجُنْدِ القَطْرِ، فقامت صفوفُ صُنوفِ النباتِ في ثيابِ النَّبَاتِ، مَنْسُوجَةَ الجِلْدِ بوَشْيِ الألوانِ، تُنادي بلسانِ الاعتبارِ: (سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الأزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الأرْضُ)، وقام خطيبُ الإعجازِ بخطبةِ: ﴿ءَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ﴾ [الواقعة: ٦٤]، ﴿مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ﴾ [النمل: ٦٠].

قال الأصمعيُّ: سُئل أعرابيٌّ عن مطرٍ، فقال: استقلَّ سَدَّ مع انتشار الطفلِ، فَشَصَا وَاجْزَأَلَّ، ثم اكْفَهَرَّتْ أَرْجَاؤُهُ، وَاحْمَوْمَتْ أَرْحَاؤُهُ، وَابْذَعَرَّتْ فَوَارِقُهُ، وَتَضَاحَكَتْ بَوَارِقُهُ، وَاسْتَطَارَ وَادِقُهُ، وَارْتَتَقَتْ جُوَنُهُ، وَارْتَعَتْ هَيْدَبُهُ، وَحَشَكَتْ أَخْلافُهُ، وَاسْتَقَلَّتْ أَرْدَافُهُ، وَانْتَشَرَتْ أَكْنَافُهُ، فَالرَّعْدُ مُرْتَجِسٌ، وَالْمَاءُ مُنْبَجِسٌ، فَأَتْرَعَ الْغدْرُ، وَأَنْبَتَ الْوَجْرُ، وَأَخْلَطَ الأوْعَالَ بِالآجَالِ، وَقَرَنَ الصِّيرَانَ بِالرِّئَالِ، فَالأوْدِيَةُ هَدِيرٌ، وَالشِّرَاجُ خَرِيرٌ، وَالتِّلاعُ زَفِيرٌ، وَحَطَّ النَّبْعَ وَالْعتْمَ منَ القُلَلِ الشُّمُّ إلى القِيعَانِ الصُّمِّ، فلم يبقَ في القُلَلِ إلا مِعْصَمٌ مُجْرَنْثِمٌ، أَوْ حَصْرٌ مُحْرَنْجِمٌ، وَذَلِكَ مِنْ فَضْلِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى عِبَادِهِ الْمُذْنِبِينَ.

قال الأصمعيُّ: سألتُ أعرابيًا عن مطر أصاب بلادهم، فقال: نَشَأَ عارضًا، وَطَلَعَ نَاهِضًا، ثم انْتَسَمَ وَامِضًا، فأعين في الأقطارِ فَأَشْجَاهَا، وامتدَّ في الآفاقِ فَغَطَّاهَا، ثُمَّ ارتجزَ فَهَمْهَمَ، ثم دَوَى فَأَظْلَمَ، فأرك وَدَثَّ وَتَغَشَّ، ثم قَطْقَطَ فَأَفْرَطَ، ثم ديم فَأَغْمَطَ، ثم رَكَدَ فَأَنْجَمَ، ثم وَبَل فَسَجمَ، فَجَادَ فَأَنْعَمَ، فعَمرَ الرُّبَى، وَأَفْرَطَ الزُّبَى سَبْعًا تِبَاعًا، ما يُريدُ انْقِشَاعًا، حتَّى إذا ارتَوَتِ

الحُزُونُ، وَتَضَحْضَحَتِ الْمُتُونُ، ولكنْ سَاقَهُ رَبُّكَ إلى حَيْثُ يَشَاءُ، كَمَا جَلَبَهُ مِنْ حَيْثُ شَاءَ.

سُبْحَانَ مَنْ لا يُخيبُ مؤمله في آمَالِهِ، حتى البلد القفر إذا اشتكى بنطقِ حَالِهِ جَعَلَ الجوابَ سَحَابًا مُخْلَوْلِقًا عن سُؤَالِهِ، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾ [الروم: ٤٨]، بات الثرى يجدبه يشكو من إهماله، وتكلَّمَ بلسان خُشُوعِهِ لا بِمَقَالِهِ، فَبَادَرَ السَّحَابُ يسبحُ فضاء أصاله، فَصَاحَ الحرثُ ليُبْسِهِ خوفًا على أطفاله، فَنَهَضَ السحابُ ينفق عليه من رأس ماله، فبدر الاتفاقُ عن يمينه وشماله بوكالةِ جنوبه وشماله، سَاقَهُ سَاقُهُ بالحادين إلى دار انهماله، فإذا انحل بانعقاده، صَاحَ الرعدُ بانحلاله، واشتدَّ زَئِيرُهُ نصبًا عن حَبْسِ قوتِ عِيَالِهِ، أسرعَ للغَمَامِ فَعَفَّى شَدَّهُ على أَعْقَابِهِ، ثم قام يَتَفَكَّرُ في هَجْرِهِ وَوِصَالِهِ، فَرَمَى قَطَرَاتٍ، ثُمَّ وَقَفَ وُقُوفَ وَالِهٍ، فَغَضِبَ الرعدُ غضبَ الوَالِي، وقالَ للواله واله، فالرعدُ يَتَنَحْنَحُ بهيبته وينطقُ بجلاله، والبرقُ يخطرُ بِدُمْلُوجِهِ، وَيَمْشِي بخلخاله، وكلما رَآهُمَا السَّحَابُ أطلق عن عِقَالِهِ، وَنَثَرَ دُرَّ الفوائدِ مُفَصَّلا عن إجماله، وأرهف البرقُ سيفَهُ في صَفِّ قِتَالِهِ، وَهَزَّهُ باليمن لتخويفِ وَبَالِهِ، وَفَرَّقَ البيضَ بين رِجَّالَةِ رِجَالِهِ، فبكى من خوفه السحابُ بدمعِ سلْسَالِهِ، أحسَّ النبتُ بالقَطْرِ فَنَبَى عن إِسْمَالِهِ، وأخذَ يشربُ كأسَ الرِّيِّ مُعرضًا عن عذاله، ثم نهض متمايلا ميلَ النشوان عن جرياله، وخرج النباتُ في عيد التبات له خطرات ووثبات بزي جماله، فلو رأيته في تطويسه وجلالة جلاله معجبًا بألوانه وارتفاعه في بقاع قاع بقاعه ولباقة حاله، يشكر إلهًا أرسلَ سَحَابًا لم يخطر مثله على باله، فترى ماءَ السَّحَابِ معلوم قدر مثقاله، فإذا أمرته السحاب أمرته الشمال بإعزاله، وإن لفظي من فضل لا غاية لاتصاله، فما لحاسدي ومالي ماذا من مالي ذا . . .

الفصل السادس والخمسون

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْ وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]

روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: " الإِسْلامُ عَلانِيَةٌ، وَالإيمَانُ في القَلْبِ، ثُمَّ يُشِيرُ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ يَقُولُ: التَّقْوَى هَاهُنَا، التَّقْوَى هَاهُنَا "(١)، هذا الحديث رواه أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجُملة ما روى ألفي حديثٍ ومائتي حديثٍ وستة وثمانين حديثًا، أُخرج له منها في " الصحيحين " ثلاث مائة وثمانية عشر حديثًا، المتفق عليه منها ثمانية وستون حديثًا، وانفردَ البُخَارِيُّ بثمانين، ومُسلمٌ بتسعين.

في الصحابة عشرة كلهم اسمه أنس، وجملة مَنْ يجيء في الحديث اسمه أنس بن مالك خمسة هذا أحدهم، الثاني: أنس بن مالك القشيري، الثالث: أنس بن مالك والد مالك الفقيه، الرابع: حمصي، الخامس: كوفي.

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٤، رقم ١٢٤٠٤)، وأبو يعلى (٥/ ٣٠١، رقم ٢٩٢٣). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/ ١٥٩ رقم ٣٠٣١٩)، والديلمى (١/ ١١٥، رقم ٣٩٣)، وابن حبان فى الضعفاء (٢/ ١١١ ترجمة ٦٨٨). قال الهيثمى (١/ ٥٢): رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، ورجاله رجال الصحيح ما خلا على بن مسعدة، وقد وثقه ابن حبان، وأبو داود الطيالسى، وأبو حاتم، وابن معين، وضعفه آخرون. قال المناوى (٣/ ١٧٩): قال عبد الحق: حديث غير محفوظ تفرد به على بن مسعدة، وفى توثيقه خلف قال أبو حاتم: لا بأس به، وقال البخارى: فيه نظر، وقال ابن عدى: أحاديثه غير محفوظة.

وقال صلوات الله عليه: " مَنْ سَرَّهُ أَنْ يَكُونَ أَكْرَمَ النَّاسِ فَلْيَتَّقِ اللهَ "(١).

وقالَ عمر رضي الله عنه لكعب: (حَدِّثْنِي عَنِ التَّقْوَى، فَقَالَ: هَلْ أَخَذْتَ طَرِيقًا ذَا شَوْكٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهِ؟ قَالَ: حَذِرْتُ وَشَمَّرْتُ، قَالَ: كَذَلِكَ التَّقْوَى).

وقال الحسن: ما زالتِ التَّقْوى بالمتقين حتى تركوا كثيرًا من الحَلال مخافةَ الحَرَامِ، وَأَتَاهُ يَوْمًا فَرْقَدُ السَّبخِيُّ فَأَخَذَ الحسن تلبيبه، وقال: يا ابنَ أُمِّ فُرَيْقِدِ؛ ليس التقوى في هذا الكِسَاءِ، وإنَّما التقوى ما وَقَرَ في الصَّدْرِ وَصَدَّقَهُ العَمَلُ.

وقال وَهْبٌ: الإيمانُ عُريَانٌ، وَلِبَاسُهُ التَّقْوَى، وَزِينَتُهُ الحَيَاءُ، وَمَالُهُ الفِقْهُ.

وقال ميمونُ بن مِهْرَانَ: لا يكونُ التقيُّ مُتَّقِيًا حتى يكونَ أَشَدَّ مَخَافَةً منه لِنَفْسِهِ منَ الشَّرِيكِ لِشَرِيكِهِ.

وقال مِسْعَرٌ: سألتُ سَعْدَ بْنَ إبراهيمَ مَنْ أَفْقَهُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ؟ فَقَالَ: أَتْقَاهُمْ.

وقال الحجاجُ بن أرطأة لسوارٍ: أهلكني حُبُّ الشَّرَفِ، فَقَالَ: إِنِ اتَّقَيْتَ اللهَ شَرُفْتَ.

وكان شيخٌ يدورُ في المَجَالسِ وَيَقُولُ: مَنْ سَرَّهُ أَنْ تَدُومَ لَهُ الْعَافِيَةُ فَلْيَتَّقِ اللهَ.

قوله تعالى: ﴿وَٱخْشَوْاْ يَوْمًا لَّا يَجْزِى وَالِدٌ عَن وَلَدِهِۦ﴾ [لقمان: ٣٣]؛ أي: لا يقضي عنه شيئًا من جنايته.

قال ابن قتيبة: (جَزَى يَجْزِي؛ أَيْ: قَضَى يَقْضِي، وَأَجْزَى: كَفَى).

---

(١) أخرجه الطبراني (١٠/ ٣٢٠، رقم ١٠٧٨١) قال الهيثمي (٨/ ٥٩): فيه هشام بن زياد أبو المقدام، وهو متروك. والعقيلي (٤/ ٣٤٠، ترجمة ١٩٤٦ هشام بن زياد بن سعدويه) وقال: ليس لهذا الحديث طريق يثبت. والحاكم (٤/ ٣٠١، رقم ٧٧٠٧) وقال: صحيح. قال الذهبي: هشام متروك ومحمد بن معاوية كذبه الدارقطني فبطل الحديث. والبيهقي (٧/ ٢٧٢، رقم ١٤٣٦٥) وقال: وروى ذلك أيضًا عن هشام بن زياد أبي المقدام عن محمد بن كعب، وروى من وجه آخر منقطع عن محمد بن كعب ولم يثبت في ذلك إسناد. وابن عساكر (٥٥/ ١٣٢).

قال الحسنُ: تتعلق الوالدةُ بولدها، فتقولُ: يا بُنَيَّ؛ أَلَمْ يَكُ حِجْرِي لَكَ وِطاء؟ أَلَمْ يَكُ ثَدْيِي لَكَ سِقَاء؟ احمل عني خطيئةً، فيقول: إِلَيْكِ عَنِّي، فَلِي في نَفْسِي شُغْلٌ.

قوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [لقمان: ٣٣]؛ أي: بالبعث والجزاء، ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ [لقمان: ٣٣].

كان مالكُ بنُ دينار يقول: اتَّقُوا السَّحَّارَةُ، فَإِنَّهَا تَسْحَرُ قُلُوبَ الْعُلَمَاءِ.

وكان يحيي بن معاذ يقول: الدُّنْيَا خَمْرُ الشَّيْطَانِ، مَنْ سَكِرَ مِنْهَا لَمْ يَفِقْ إلا في عَسْكَرِ الْمَوْتَى نَادِمًا بَيْنَ الْخَاسِرِينَ.

دخلوا على رجلٍ عند موته، فقال لهم: سَحَرَتْنِي الدُّنيَا حَتَّى أَذْهَبَتْ أَيَّامِي.

إخواني؛ الدنيا ظِلٌّ زَائِلٌ، وَحُلْمُ مَنَام، وعسلٌ مَشُوبٌ بسُمٍّ، وفرحٌ موصولٌ بِغَمٍّ، تُؤْيِسُ مَنْ تُؤْنِسُ، تشوبُ نعيمَهَا ببؤسٍ، وتُقْرِنُ سُعُودَهَا بنحوسٍ، وتخلط حُلْوَهَا بمُرٍّ، وَتَمْزِجُ نَفْعَهَا بِضُرٍّ، طالبُها يَذِلُّ، وراكبُهَا يَزِلُّ، إنها لشَبَكَة منصوبة في خديعة الهوى، تحوي مَنْ دَخَلَ فيها، وتجوزُ من عَدَلَ عنها، فإن قَتَلَتْ لم يُعْدَ عليها، متى خَالَجَ حُبُّهَا قلبًا تَأَجَّجَ القلبُ كربًا، إنَّ الدنيا قد أخبرتكم بعيوبها وما اعتذرت إلى شخصٍ من ذنوبها، وأرتكم من شمسِ غُرُوبِهَا بين طُلُوعِهَا وَغُرُوبِهَا، وأشهدتكم حالَكُم بحالِ مَن قَبْلَكُمْ فَاعْتَبِرُوا بِهَا.

إنما الدنيا رَقْدَةُ عينٍ أزعجت حينَ أغمضت، ولذةُ نفسٍ حين قضيتها قَضَتْ، وَبُرُوقُ آمَالٍ أَمَضَّتْ إذا وَمَضَتْ، الرابح فيها من الرخاء خاسرٌ، والغُصنُ إذا أزكى في يد الكاسر، وصاحب المال المدثر عن قليل داثر، عثرت وما أقالت ولا قالت لعًا لعاثرٍ.

كم أنزلت من الملوك إلى مقامِ المملوكِ، بينا ترى نُصرة بدرٍ أظهرت عُسرةَ تَبُوك، أنزلت واللهِ ما آدم بآدم، ومدت شثن يد الشث إلى شيث، وقابلت بالتلف قابيل وما هابت هيبة هابيل، وناحت نَوْحَ البيات في بيتِ نُوحٍ، وعادت بالهلاكِ على عَادٍ، وثملت من دَمِ ثمود، واستلبت سلب النمر نمرود، وما فَرَّ إذ

فَرَّت فرعونُ، وما نفع من هام هامان، ولا ردت عن وقار قارون، ولقد كَسَرَتْ كَالْكِسْرَةِ كِسْرَى، وما قَصَّرَتْ في تخريبِ قَصْرِ قَيْصَرَ، وأتبعت بالهلاكِ تُبَّع، وَمَا سَلِمَ منها سُلَيْمَانُ.

[مجزوء الكامل]

أَوْصَـــاكُ رَبُّـــكَ بِـــالـــتُّـــقَـــى وَأُولِـــي الـــنُّـــهَـــى أَوْصُـــوا مَـــعَـــهْ

فَـــاخْـــتَـــرْ لِـــنَـــفْـــسِـــكَ طُـــولَ دَهْـــ ـــرِكَ مَـــسْـــجِـــدًا أَوْ صَـــوْمَـــعَـــهْ

الفصل السابع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾
[السجدة: ١٦]

روى معاذٌ عن النبي صلى الله عليه وسلم: " ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ﴾ [السجدة: ١٦]، قَالَ: قِيَامُ الْعَبْدِ مِنَ اللَّيْلِ "(١).

وروى ابنُ مسعودٍ عن النبي صلى الله عليه وسلم، قَالَ: " عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ رَجُلَيْنِ، رَجُلٍ ثَارَ عَنْ وِطَائِهِ وَلِحَافِهِ مِنْ بَيْنَ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاتِهِ، فَيَقُولُ رَبُّنَا: يَا مَلائِكَتِي؛ انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي، ثَارَ مِنْ فِرَاشِهِ وَوِطَائِهِ مِنْ بَيْنَ حِبِّهِ وَأَهْلِهِ إِلَى صَلاتِهِ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي وَشَفَقَةً مِمَّا عِنْدِي، وَرَجُلٍ غَزَا في سَبِيلِ اللهِ، فَانْهَزَمُوا، فَعَلِمَ ما عَلَيْهِ مِنَ الْفِرَارِ، وَمَا لَهُ في الرُّجُوعِ، فَرَجَعَ حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ، فَيَقُولُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لِمَلائِكَتِهِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي رَجَعَ رَغْبَةً فِيمَا عِنْدِي، وَرَهْبَةً مِمَّا عِنْدِي حَتَّى أُهْرِيقَ دَمُهُ "(٢).

وفي " الصحيحين " من حديث الأغَرِّ، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " يَنْزِلُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، حَتَّى يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الأخِيرُ، فَيَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي أَسْتَجِيبُ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيهِ، مَنْ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (٥/ ٢٣٢، رقم ٢٢٠٧٥).

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٤١٦، رقم ٣٩٤٩)، والطبراني (١٠/ ١٧٩، رقم ١٠٣٨٣)، وابن حبان (٦/ ٢٩٧، رقم ٢٥٥٧)، والحاكم (٢/ ١٢٣، رقم ٢٥٣١) وقال: صحيح الإسناد. والبيهقي (٩/ ١٦٤، رقم ١٨٣٠٥). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٩/ ١٧٩، رقم ٥٢٧٢).

يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرُ لَهُ "(١)، هذا الأغرُّ اسمه سليمان، وليس بالأغر أبي مسلم، وكلاهما يروي عن أبي هريرة، وقد يروي رجلان أو رجال يتساوي أسماؤهم عن رجلٍ واحدٍ، ولا يعرف هذا الراوي مِنْ هذا إلا محكم النقد في العلم، مثاله ما روى عطاء عن أبي هريرة، قال: (في كل صلاة قراءة، فما أسمعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أسمعناكم، وما أخفى علينا أخفينا عليكم).

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلاةُ فَلا صَلاةَ إِلا الْمَكْتُوبَة "(٢).

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إِذَا مَضَى ثُلُثُ اللَّيْلِ هَبَطَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى السَّمَاءِ، فَيَقُولُ: أَلا دَاعٍ يُجَابُ، أَلا سَائِلٌ فَيُعْطَى، أَلا مُذْنِبٌ يَسْتَغْفِرُ فَيُغْفَرُ لَهُ "(٣).

وروى عطاء عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لا يَجْتَمِعُ حُبُّ هَؤُلاءِ الأَرْبَعَةِ إِلا في قَلْبِ مُؤْمِنٍ: أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ، وَعُثْمَانُ، وَعَلِيٌّ رِضْوَانُ اللهِ عَلَيْهِمْ "(٤).

عطاء الأول: هو ابن أبي رباح، الثاني: عطاء بن مِينَا، الثالث: ابن يسار، الرابع: مولى أم صُبَيَّةَ، الخامس: الخُرَاسَانِي.

ومثل هذا ما رَوَتْ عَمْرَةُ عن عائشة رضي الله عنها، قالت: (لو أن

---

(١) أخرجه البخارى (١/ ٣٨٤، رقم ١٠٩٤)، ومسلم (١/ ٥٢١، رقم ٧٥٨) وأبو داود (٢/ ٣٤، رقم ١٣١٥)، والترمذى (٥/ ٥٢٦، رقم ٣٤٩٨) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ٤٣٥، رقم ١٣٦٦). وأخرجه أيضًا: عبد الله بن أحمد فى السنة (٢/ ٤٨٠، رقم ١١٠٢).

(٢) أخرجه مسلم (١/ ٤٩٣، رقم ٧١٠)، وأبو داود (٢/ ٢٢، رقم ١٢٦٦)، والترمذى (٢/ ٢٨٢، رقم ٤٢١)، والنسائى (٢/ ١١٦، رقم ٨٦٥)، وابن ماجه (١/ ٣٦٤، رقم ١١٥١).

(٣) أخرجه أحمد (١/ ١٢٠، رقم ٩٦٧)، والخطيب (٤/ ٢٥٥، ترجمة ١٩٩١). قال الهيثمى (١٠/ ١٥٤): رواه أحمد، وأبو يعلى بنحوه، ورجالهما ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالسماع.

(٤) أخرجه ابن عساكر (٣٩/ ١٢٨).

رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ما أحدث النساء لمنعهن المسجد كما منعه نساء بني إسرائيل).

وروت عمرة أنها دخلت مع أمها على عائشة رضي الله عنها، فسألتها: ما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في الفرار من الطاعون، قالت: سمعته يقول: "كَالْفَرَارِ مِنَ الزَّحْفِ "(١).

وروت عمرة، قالت: خرجت مع عائشة رضي الله عنها سنة قُتِلَ عثمان رضي الله عنه إلى مكة، فمررنا بالمدينة، ورأينا المُصحفَ الذي قُتِلَ وهو في حِجْرِهِ، فكانت أول قَطْرَةٍ قَطَرَتْ منه على هذه الآية: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١٣٧]، قالت عمرة: فما مات منهم رجلٌ سويًّا.

وروت عمرة عن عائشة رضي الله عنها، قالت: " سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْهَى عَنِ الْوِصَالِ، وَيَأْمُرُ بِتَبْكِيرِ الإفْطَارِ وَتَأْخِيرِ السَّحُورِ "(٢).

عمرة الأولى: هي بنت عبد الرحمن الأنصارية، الثانية: بنت قيس العدوية، الثالثة: بنت أرطأة، الرابعة: يقال لها الطَّاحِيَّةُ.

ومثل هذا ما روى حماد، عن ثابت، عن أنس: " أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَمِعَ فِي النَّخْلِ صَوْتًا، فَقَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالَ: يُؤَبِّرُونَ النَّخْلَ. . . ، فَذَكَرَ الْحَدِيثَ "(٣).

وروى حماد، عن ثابت، عن أنس، قال: " رأى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على حَمَّادٍ صُفْرَةً، فقال: ما هذا؟ قال: تَزَوَّجْتُ، فَقَالَ: أَوْلِمْ "(٤).

---

(١) أخرجه ابن سعد (٨/ ٤٩٠). وأخرجه أيضًا: إسحاق بن راهويه (٣/ ٩٨٦، رقم ١٧٠٩)، وأحمد (٦/ ٨٢، رقم ٢٤٥٧١)، وأبو يعلى (٧/ ٣٧٩، رقم ٤٤٠٨).

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٧/ ٣٣١، رقم ٤٣٦٨).

(٣) أخرجه ابن حبان في صحيحه (١/ ٢٠٢، رقم ٢٣).

(٤) أخرجه البخارى (٥/ ١٩٧٩، رقم ٤٨٥٨)، ومسلم (٢/ ١٠٤٢، رقم ١٤٢٧)، وأبو داود (٢/ ٢٣٥، رقم ٢١٠٩)، والترمذى (٣/ ٤٠٢، رقم ١٠٩٤) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦/ ١١٩، رقم ٣٣٥١)، وابن ماجه (١/ ٦١٥، رقم ١٩٠٧)، وابن حبان (٩/ ٣٦٦، رقم ٤٠٦٠).

وروى حماد، عن ثابت، عن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " مَثَلُ أُمَّتِي مَثَلُ الْمَطَرِ لا يُدْرَى أَوَّلُهُ خَيْرٌ أَمْ آخِرُهُ "(١).

أَمَّا حماد الأول: فهو ابن سَلَمَةَ، الثاني: ابن زيد، الثالث: حماد الأَبَحُّ.

عُدْنَا إلى ما كُنَّا فيه، روى أبو ذَرٍّ، قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم: أَيُّ اللَّيْلِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: " ما أَدْرِي إلا أَنَّ الْعَرْشَ لَيَهْتَزُّ مِنَ السَّحَرِ "(٢).

وأتى رجلٌ طَاوُسَ في السَّحَرِ، فقال: أَنَائِمٌ هُوَ؟ قال طَاوُسٌ: ما كُنْتُ أَرَى أَنَّ أَحَدًا يَنَامُ في السَّحَرِ.

وممن اشتهر بقيام الليل كله وصلاة الفجر بوضوء العشاء: سعيد بن المسيب وصفوان بن سليمان ومحمد بن المنكدر المدنيون، وفضيل بن عياض ووهب بن الورد المكيان، وطاوس ووهب اليمنيان، والربيع بن خثيم والحكم الكوفيان، وأبو سليمان الداراني وأبو جابر السلماني الفارسيان، وسلمان التيمي ومالك بن دينار ويزيد الرقاشي وحبيب ابن أبي ثابت ويحيي البكاء، وكهميس ورابعة العدوية البصريون.

يا هذا؛ علامة المَحَبَّةِ طلب الخلوة بالحبيب، ويبدأ الليل فلوات الخلوات.

لما ستروا قيام الليل في ظلام الدُّجَى، ستر جزاؤهم غيرة أن يطلع الفجر عليه بستر: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ [السجدة: ١٧]، لما صفت خلوات الدُّجَى نُودي مؤذن الوصال: أَقِمْ فُلانًا وَأَنِمْ فُلانًا، خرجت بالأسماء الجرائد، فاز الأحباب بالفوائد وأنت غافل راقد، قَيَّدْتَ أقدامَ أَقْدَامِكَ طلب العوائد، وأنت تسعى للزوائد.

قال أحمد بن أبي الحواري: قلت لامرأتي رابعة، وقد قامت من

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٣٠، رقم ١٢٣٤٩)، والترمذى (٥/ ١٥٢، رقم ٢٨٦٩) وقال: غريب من هذا الوجه. وأبو يعلى (٦/ ٣٨٠، رقم ٣٧١٧)، والرامهرمزى (١/ ١٠٥، رقم ٦٩).

(٢) أخرجه أبو الشيخ فى العظمة (٣/ ١٠٠٧، رقم ٥٢٧).

أول الليل: قد رأينا أبا سليمان، وتعبدنا معه، ما رأينا من يقوم من أول الليل، فقالت: سبحان الله تعالى، مثلك مَنْ يقول هذا، إنما أقوم إذا نُودِيتُ.

[الطويل]

يَقُولُونَ مَا في النَّاسِ مِثْلُكِ وَامِقٌ ... جِدِي مِثْلَ مَنْ أَحْبَبْتِهِ تَجِدِي مِثْلِي
ذَرِينِي أَنَلْ مَا لا يُنَالُ مِنَ الْعُلَى ... فَصَعْبُ الْعُلا في الصَّعْبِ وَالسَّهْلُ في السَّهْلِ
تُرِيدِينَ إِدْرَاكَ الْمَعَالِي رَخِيصَةً ... وَلا بُدَّ دُونَ الشَّهْدِ مِنْ إِبَرِ النَّحْلِ

إذا جَنَّ الليلُ وظلامه ثَارَ شَجَنُ المُحبِّ وسقامه، ورمى عن قوس الوجد، فأصابت سهامه، واستطلق مزاد العين، وانجل سجامه، وطال بالحزين قعوده وقيامه.

[مجزوء الرمل]

كَمْ بِذِكْرَاكَ وُلُوعِي ... يَا جَوًى بَيْنَ ضُلُوعِي
هَجَعَ الْعَاذِلُ لَكِنْ ... مَنْ لِعَيْنِي بِالْهُجُوعِ
هِيَ فِي شُغْلٍ عَنِ النَّوْ ... مِ بِمُنْفَضِّ الدُّمُوعِ
أَتَغَنَّى بِكِ فِي الْحَيْـ ... ـيِ كَوَرْقَاءِ سَجُوعِ

قال علي بن بكار: منذ أربعين سنةً ما أحزنني إلا طلوعُ الفجر.

وكان زمعةُ العابدُ يقومُ اللَّيْلَ، فَإِذَا جَاءَ السَّحَرُ نَادَى: أَيُّهَا الرَّكْبُ المُعَرِّسُونَ، أَكُلُّ هذا اللَّيْلِ تَرْقُدُونَ، أَلا تَقُومُونَ فَتَرْحَلُونَ، فَيَقُومُ النَّاسُ بِصَوْتِهِ، فَيَسْمَعُ مِنْ هَاهُنَا بَاكٍ، وَمِنْ هَاهُنَا دَاعٍ، وَمِنْ هَاهُنَا قَارِئًا، فَإِذَا طَلَعَ الفَجْرُ نَادَى بِأَعْلَى صَوْتِهِ: عِنْدَ الصَّبَاحِ يَحْمَدُ الْقَوْمُ السُّرَى.

[السريع]

نَبَّهْتُهُمْ مِثْلَ عَوَالِي الرِّمَاحِ ... إِلَى الْوَغَى قَبْلَ نُمُومِ الصَّبَاحِ
فَوَارِسٌ نَالُوا الْمُنَى بِالْقَنَا ... وَأَصْفَحُوا أَعْرَاضَهُمْ بِالصِّفَاحِ
يَا نَفْسُ مِن هَمّ إِلَى هِمَّةٍ ... وَلَيْسَ مِنْ عَيْب الأذى مُسْتَرَاح

صَبَّرْتُ نَفْسِي عِنْدَ أَهْوَالِهَا   وَقُلْتُ مِنْ صَبْوَتِهَا لا تراح
إِمَّا فَتًى نَالَ الْعُلَى فَاشْتَفَى   أَوْ بَطَلٌ ذَاقَ الرَّدَى فَاسْتَرَاح

قال أبو سليمان الداراني: بينا أنا ساجد ذهب بي النوم، فإذا أنا بالحوراء قد ركضتني برجلها، وقالت: حبيبي؛ أَتَرْقُدُ عَيْنَاكَ والمَلِكُ يقظان، وأنا أُرَبَّى لكَ في الخُدُورِ منذ كذا وكذا، فوثبت فزعًا، وقد عرقت حياءً من توبيخها، وإن حَلاوَةَ مَنْطِقِهَا لَفِي سَمْعِي وَقَلْبِي.

[البسيط]

قَالُوا تَشَاغَلَ عَنَّا وَاصْطَفَى بَدَلا   مِنَّا وَذَلِكَ فَعْلُ الْخَائِنِ السَّالِي
وَكَيْفَ أَشْغَلُ قَلْبِي عَنْ مَحَبَّتِكُمْ   بِغَيْرِ ذِكْرِكُمُ يَا كُلَّ أَشْغَالِي

لَمَّا دَارَتْ كؤوسُ النَّوْمِ على أفواهِ العيون، فسكرت بالشراب الألباب، فطرحت الأجساد على فراش: ﴿يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ﴾ [الزمر: ٤٢]، صاحت فصاحةُ الحُبِّ " كُلُّ مُسْكِرٍ حَرَامٌ "(١)، فلما نفخ في صور الإيقاظ في إبَّان: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [الزمر: ٤٢]، قام أموات النوم على أقدام الانتباه وقد رحل سفر أهل القرب، فلم يروا إلا أثارَ الوصال في مناح الأحباب، وأنوار المناجاة تقرأ في سطور: ﴿سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الفتح: ٢٩]، ألا لو كنتَ معهم، أسفًا لك لو رأيتهم، لو رأيتَ طلائعَ الصديقين في أول السفر، أو سمعت استغاثة المُحبين في وسط القوم، أو شاهدتَ سَاقَةَ المستغفرين في آخر الركب لم يُهْنِكَ النَّوْمُ.

[الرمل]

مَنْ رَأَى الْبَرْقَ بِنَجْدٍ إِذْ تَرَاءَى   سَلَبَ النَّوْمَ وَأَهْدَى الْبُرَحَاءَا
فَاضَ مِنْ فَيْضِ جُفُونِي مَاؤُهُ   وَالْتَظَى وَهَنًا كَأَنْفَاسِي التظاءا

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٦٢٤، رقم ٦٧٥١)، ومسلم (٣/ ١٥٨٦، رقم ١٧٣٣)، وأبو داود (٣/ ٣٢٨، رقم ٣٦٨٤)، والنسائى (٨/ ٢٩٨، رقم ٥٥٩٥)، وابن ماجه (٢/ ١١٢٤، رقم ٣٣٩١).

نَامَ سُمَّارُ الدُّجَى عَنْ سَاهِرٍ   تَخِذَ الْهَمَّ سميرًا وَالْبُكَاءَا
أَسْعَدَتْهُ أدمُعٌ تَفْضَحُهُ   فَإِذَا مَا أَحْسَنَ الدَّمْعُ أَسَاءَا
يَا خَلِيلَيَّ وَلَمْ أُشْعِرْكُمَا   بِالْهَوَى حَتَّى تَبَيَّنْتُ الإِخَاءَا
عَلِّلا قَلْبِي بِذِكْرى قَاتِلِي   رُبَّ دَاءٍ قَادَ لِلنَّفْسِ دَوَاءَا

لو رأيتهم وقد دارت كؤوس المُناجاة بين مزاهر التلاوة، فأسكرت قلب الواجد، ورقمت في مصاحف الوجنات ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٧٣].

[المديد]

فَتَمَشَّتْ فِي مَفَاصِلِهِ   كَتَمَشِّي الْبُرْءِ فِي السَّقَمِ

يا طويلَ النومِ فَاتَكَ مدحُ: ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]، وَحُرِمْتَ مناجاةَ: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٧]، فهلا ألمتك معاتبة " كَذَبَ مَنِ ادَّعَى مَحَبَّتِي، فَإِذَا جَنَّ اللَّيْلُ نَامَ عَنِّي "(١)، وليس في ليل الوجد منام، ولا من صفات المُحِبِّ أن ينام، إن لله عز وجل ريحًا تسمى الصُّبْحِيَّة، مخزونة تحت العرش، تهب عند الأسحار، فتحمل الأنين والحنين والاستغفار إلى الملك الجبار.

---

(١) أخرجه الدينوري في "المجالسة" (١٣٢)، وعبد الحق الأشبيلي في " التهجد " (١٠٤٦) و(١٠٤٧).

قال الفضيلُ بن عياض: إن الله يقول: " كذَب من ادَّعى محبَّتي، ونام عنِّي، أليس كل محبٍّ يُحبّ خلوة حبيبه؟ ها أنا مطَّلعٌ على أحبابي وقد مثَّلوني بين أعينهم، وخاطبوني على المشاهدة، وكلَّموني بحضورٍ، غداً أُقِرُّ أعينهم في جناني".

ولا يزالُ هذا الذي في قلوب المحبين المقرَّبين يقوى حتّى تمتلئ قلوبُهم به، فلا يبقى في قلوبهم غيرُه، ولا تستطيع جوارحُهُم أنْ تنبعثَ إلا بموافقة ما في قلوبهم، ومن كان حالُه هذا، قيل فيه: ما بقي في قلبه إلا الله، والمراد معرفته ومحبته وذكره، وفي هذا المعنى الأثر الإسرائيلي المشهور: " يقول الله: ما وسعني سمائي ولا أرضي، ولكن وسعني قلبُ عبدي المؤمن ". وقال بعضُ العارفين: احذروه، فإنَّه غيورٌ لا يُحبُّ أنْ يرى في قلبِ عبده غيرَه.

تاللهِ لو جلستَ في بيتِ يعقوبَ الحُزْنِ لَوَجَدْتَ رِيحَ يُوسُفَ القَبُولِ.

[الرمل]

يـا نَـسِـيـمَ الـرِّيـحِ مِـنْ كَـاظِـمَـةٍ ... شـدّ مـا هِـجْـتِ الـصَّـبَـا وَالْـبُـرَحَـا
الـصَّـبَـا إنْ كَـانَ لا بُـدَّ الـصَّـبَـا ... إنَّـهَـا كَـانَـتْ لِـقَـلْـبِـي أرْوَحَـا
يـا نَـدَامَـايَ بِـسِـلْـعٍ هَـلْ أرَى ... ذَلِـكَ الـمَـغْـبَـقَ وَالْـمُـصْـطَـبَـحَـا
اذْكُـرُونَـا ذَكَـرْنَـا عَـهْـدَكُـمْ ... رُبَّ ذِكْـرَى قَـرَّبَـتْ مَـنْ نَـزَحَـا
اذْكُـرُوا صَـبًّـا إذَا غَـنَّـى بِـكُـمْ ... شَـرِبَ الـدَّمْـعَ وَعَـافَ الْـقَـدَحَـا

الفصل الثامن والخمسون

في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ [الأحزاب: ٩]

الجنودُ هاهنا الأحزابُ الذين تَحَزَّبُوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أيامَ الخندق، وذلك أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم لَمَّا أخذَ نظراء بني النظير، وأجلى الأجلاء منهم، نَفَرَ نَفَرٌ من أشرافهم إلى أشراف مكة، فَأَلَّبُوا قريشًا على قتالِ مَنْ عَادُوا إلى تحريضِ غطفانَ وَسُلَيْمٍ، فَتَأَلَّفَ جمعُ جَمْعِ الأحزاب عشرة آلاف، فقامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم على منبرٍ: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فأشار سلمانُ بالخندق فَخَنْدَقَ، فنهضَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعليه المُعَوّلُ وَبِيَدِهِ المِعْوَلُ، فوقفَ يحفر؛ لأنه مَنْ سَنَّ ابْتَدَأَ، فما زال ينقل ما يثقل، ويأخذ الرَّاحَةَ بأبياتِ عبدِ اللهِ بْنِ رَوَاحَةَ: [الرجز]

وَاللهِ لَوْلا أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلا تَصَدَّقْنَا وَلا صَلَّيْنَا

فَأَنْزِلَنَّ سَكِينَةً عَلَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إِنْ لاقَيْنَا

فَالْمُشْرِكُونَ قَدْ بَغَوْا عَلَيْنَا ... إِذَا أَرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

ثم إنَّ المشركينَ أَحَاطُوا بحائطِ المدينةِ، وقصر الحصر من فوقهم ومن أسفل منكم، وَتَسَعَّرَتْ نيرانُ الخوفِ، فخلص القلوب كَرُّ الكُرَبِ، فلما أن لأم جمع المنافقين الجبينا، كما أن لأم دلحلح لَوَّح بيد الهرب إلى زُمر الشجعانِ يرمز هَلُمَّ إلينا، وَتَعَلَّلَ بِتَعِلَّةٍ: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ [الأحزاب: ١٣]، فرد عليه بصريح القول ناقد السر: ﴿إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣]، هذا وقلوب الصحابة لا تنقلب عن التسليم، ولا تفيض في غير حديث التفويض، وكلما

عجت نيران الاختيار، قال مختار ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتۡ لَهُم مِّنَّا ٱلۡحُسۡنَىٰٓ﴾ [الأنبياء: ١٠١]: ﴿كُونِي بَرۡدٗا﴾ [الأنبياء: ٦٩]، فلما رُفعت قصصُ الغُصَصِ في أبان: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ﴾ [النمل: ٦٢] وقع عليها بزوال الجوى في الجواب، فوقع الفَرَقُ في الفِرَقِ فَفَرَّقَ وَصْلَ الوَصْلِ، وَهَبَّتْ ريحٌ كَفَّتْ كفات قدورهم، ونزعت في قوس الشدة، فنزعت خيامهم، وأقبلت الأملاك تطفئ نيرانهم، وتكبِّرُ في حجرات عسكرهم، فهُزموا بجندِ الرُّعْبِ وصائح الإزعاج يَقْفُو قَفَاهُمْ، وقام بشيرُ الظفر ينادي في نادي المِنَنِ: ﴿وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِغَيۡظِهِمۡ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، فوضع الرسولُ صلى الله عليه وسلم أداةَ حَرْبِهِ، فجاء جبريلُ حين وضع اللأمَةَ فَلامَهُ، وقال: مَا وَضَعَتِ الْمَلائِكَةُ سِلاحَهَا مُنْذُ أَرْبَعِينَ، سِرْ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَسَارَ، فَحَاصَرَهُمْ، فَحَاصُوا إلى سُؤَالِ الصُّلْحِ، فَأَبَى أَنْ يَنْزِلُوا إلا عَلَى جَبَلِ الاخْتِيَارِ، فَنَزَلُوا على حُكْمِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، فَأَرْسَلُوا رسل أَبِي لُبَابَةَ، فَاسْتَشَارُوهُ، فاستخرجوا لبابة لبابه، فحمله مطلق لفظ "الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ"[1] إلى أن أشار إلى حلقة حلقه، يومئ إلى أن حكم سعد الذبح، ثم ندم على مخض محض النصح، فربط نفسه في المسجد سبعًا لا يذوق طعامًا، حتى أُذِيقَ طَعْمَ: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ﴾ [التوبة: ١٠٢]، فنزل القوم على حكم سعد رجاء أن يأخذ فيهم هوى أو هوادة، فحكم بقتل رجالهم، وسبي ذراريهم ونسائهم، وقسم أموالهم، فبان بما جرى سِرٌّ: ﴿وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمۡ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعۡبَ﴾ [الأحزاب: ٢٦].

---

(١) أخرجه أخرجه مسلم (٢/ ١٠١٥ رقم ١٣٩٨)، والترمذى (٢/ ١٤٤، رقم ٣٢٣) وقال: حسن صحيح. والحاكم (٢/ ٣٦٤، رقم ٣٢٨٦). وأخرجه أيضًا: النسائى (٢/ ٣٦، رقم ٦٩٧)، وأبو يعلى (٢/ ٣٠٣، رقم ١٠٢٩)، وابن حبان (٤/ ٤٨٣، رقم ١٦٠٦).

الفصل التاسع والخمسون

في قوله تعالى: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب:٢٣]

رَوَى أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، قَالَ: " غَابَ عَمِّي أَنَسُ بْنُ النَّضْرِ عَنْ قِتَالِ بَدْرٍ، فَلَمَّا قَدِمَ، قَالَ: غِبْتُ عَنْ أَوَّلِ قِتَالٍ قَاتَلَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمُشْرِكِينَ، لَئِنْ أَشْهَدَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ قِتَالا لَيَرَيَنَّ اللهُ مَا أَصْنَعُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْمُ أُحُدٍ انْكَشَفَ النَّاسُ، فَقَالَ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا جَاءَ بِهِ هَؤُلاءِ - يَعْنِي: الْمُشْرِكِينَ - وَأَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هَؤُلاءِ - يَعْنِي: الْمُسْلِمِينَ - ثُمَّ مَشَى بِسَيْفِهِ، فَلَقِيَهُ سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ، فَقَالَ: أَيْ سَعْدُ؛ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ؛ إِنِّي لأَجِدُ رِيحَ الْجَنَّةِ، وَاهًا لِرِيحِ الْجَنَّةِ، قَالَ سَعْدُ: فَمَا اسْتَطَعْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَصْنَعَ مَا صَنَعَ، قَالَ أَنَسٌ: فَوَجَدْنَاهُ بَيْنَ الْقَتْلَى بِهِ بِضْعٌ وَثَمَانُونَ جِرَاحَةً بَيْنَ ضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ، وَطَعْنَةٍ بِرُمْحٍ، وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ، قَدْ مَثَّلُوا بِهِ، فَمَا عَرَفْنَاهُ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ، قَالَ أَنَسٌ: وَكُنَّا نَقُولُ: أُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟﴾ [الأحزاب: ٢٣] فِيهِ وَفِي أَصْحَابِهِ"، أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ في " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ[(١)].

وهو أنسُ بنُ النَّضْرِ، الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ تَعَالَى مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ ".

روى البخاري في أفراده من حديث أنس بن مالك: أَنَّ الرُّبَيِّعَ بِنْتَ النَّضْرِ لَطَمَتْ جَارِيَةً، فَكَسَرَتْ سِنَّهَا، فَعَرَضُوا عَلَيْهِمُ الأَرْشَ، فَأَبَوْا، فَطَلَبُوا الْعَفْوَ،

---

(١) أخرجه البخاري (٤/ ١٤٨٧، رقم ٣٨٢٢).

فَأَبَوْا، فَأَتُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَمَرَهُمْ بِالْقَصَاصِ، فَجَاءَ أَخُوهَا أَنَسُ ابْنُ النَّضْرِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَتُكْسَرُ سِنُّ الرُّبَيِّعِ، لا وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ نَبِيًّا لا تُكْسَرُ سِنُّهَا، قَالَ: يَا أَنَسُ؛ كِتَابُ اللهِ الْقَصَاصُ، فَعَفَا الْقَوْمُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لأَبَرَّهُ "(١).

وهذه الرُّبَيِّعُ هي المُبْهَمُ ذِكْرُهَا في الحديث الأول الذي فيه (حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُهُ بِبَنَانِهِ)، وَتُكْنَى أُمَّ حَارِثَةَ، وَالرُّبَيِّعُ بنتُ الطُّفَيْلِ، والرُّبَيِّعُ بنتُ مسعودٍ، والرُّبَيِّعُ بنتُ النَّضْرِ، وليس فيهن مَنْ رَوَتْ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بنت مسعودٍ، فإنها روت عن النبي صلى الله عليه وسلم أَحَدًا وعشرين حديثًا، أُخرج لها منها في " الصحيحين " ثلاثةٌ، أحدها متفق عليه، والباقيان للبخاري.

لما انصرف عمر بن عبد العزيز عن قبر سليمان بن عبد الملك صُفَّتْ له مراكبُ سليمانَ، فقال:

وَلَوْلا التُّقَى ثُمَّ النُّهَى خَشْيَةَ الرَّدَى   لَعَاصَيْتُ في حُبِّ الصِّبَا كُلَّ زَاجِرِ
قَضَى مَا قَضَى فِيمَا مَضَى لا يُرَى   لَهُ صَبْوَةٌ أُخْرَى اللَّيَالِي الْغَوَابِرِ

ثم قال: ما شاءَ اللهُ لا قُوَّةَ إلا باللهِ قَدِّمُوا إِلَيَّ نَعْلِي.

أين أهل العزائم؟ ذهبوا وماتوا، أين أرباب الهمم؟ رحلوا وفاتوا، أتدري على أي مهاد همدوا، أو في أيِّ مكان باتوا؟، لاح لهم أقل القِرَى في مَشرعة الهوى فلم يأتوا، علموا أن الدُّنيا متاع يفنى فَعَبَرُوهَا وَمَا عَمَرُوهَا لِلسُّكْنَى، واشتغلوا بدار كلما نُقضت هذه تُبنى، لا كِبر عندهم تراهم بين

---

(١) أخرجه البخارى (٤/ ١٨٧٠ رقم ٤٦٣٤)، ومسلم (٤/ ٢١٩٠، رقم ٢٨٥٣)، والترمذى (٤/ ٧١٧، رقم ٢٦٠٥) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦/ ٤٩٧، رقم ١١٦١٥)، وابن ماجه (٢/ ١٣٧٨، رقم ٤١١٦)، وابن حبان (١٢/ ٤٩٢، رقم ٥٦٧٩)، والطبرانى (٣/ ٢٣٥، رقم ٣٢٥٥). وأخرجه أيضًا: البيهقى فى شعب الإيمان (٦/ ٢٨٥، رقم ٨١٧٤).

المساكين والزَّمْنَى، أقبلوا على قدم الفقر، فلما رآهم أغنى، ذكروا الثواب فاشتاقوا ولا شوقَ قيس إلى لُبْنَى، أين أنت منهم؟ أتعرفُ مَنْ هُمْ؟ كم تتوب وتنقض؟ كم تعاهد وتغدر؟ إلى متى عند الملاهي؟ إلى كم عند الزخارف؟ أين صبر الرجال؟ أين عزائم الأبطال؟ تعجبك طِرَازُ الأكمام، وتفرح بكذب الألقاب، هَلا تعرضت لأوصافِ الصدقِ، واستجلبت بها ألقاب الحق التائبون العابدون.

كيف قنعت بخساسة بِلْعَامَ، وتركت عزيمة أويس، لو صَدَقْتَ في الطَّلَبِ وقعتَ على كَنْزِ الْغِنَى، لو وجدوك مستقيمًا ما تركوك سقيمًا، لو شاهدوكَ على بابهم لَعَدُّوكَ من أحبابهم، يا ضُفدعَ غديرِ الغَدْر، يا رضيعَ ثَدْيِ الجَهْلِ، يا مظلمَ السِّرِّ والقلبِ، يا بعيد العهدِ بوفاءِ العهدِ، ألا يستحي من الغدر الغدار، ألا يخرج العاصي من تلك الدار، شيب وعيب نهاية الأدبار، آهٍ لقلوبٍ أعادتها المعاصي كالفنار، وغلب عليها حُبُّ الدينار، واللهِ ما يُساوي عذابَ لحظةٍ ألف قنطار، كم بينك وبين المتقين الأبرار، ملكتكم الدنيا وملكوها فالقوم أحرار، بانت لهم الأنفة فاحتموا من العار، علموا قدر الجنة، فداروا حول الدار، وبادروا كما يعرف قيمة الثوب السمسار، لانت قلوبهم وبانت قلوبكم كالأحجار.

[الرمل]

إنَّ لِلْمَجْدِ سَبِيلا وَعِرًا ضَيِّقًا مَسْلَكُهُ فِيهِ صُعُودُ
لَيْسَ تُثْنَى بِالأبَاطِيلِ الطُّلَى وَلا تُوطَأُ بِالْهَزْلِ الْخُدُودُ
بَلْ بِأَنْ يُنَصِّبَ حُرَّ نَفْسِهِ وَبِأَنْ يَسْهَرَ وَالنَّاسُ رُقُودُ
هَذِهِ مِنْ بَعْضِ أَثْمَانِ الْعُلا وَلَمَا يُبْتَاعُ مِنْهُنَّ نُقُودُ

الفصل الستون

في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ﴾ [سبأ: ١٥]

أيها الناس؛ استديموا ديمَ النعم باستدامة شكر المنعم، واحذروا الوثوب في ثوب البطر، فكل مَنْ خَطَرَ فيه على خَطَر، إنَّ للنعم أجنحةً تطيرُ بها في جُنَحِ الجَنَاحِ، فتسبق أعناقها وتصبها، فإذا قفت لمن يقف لمن قَفَاهَا وَقَصَّهَا، فمن قَصَّهَا بِمِقْرَاضِ الشكرِ نَجح وَجَنَحَتْ إليه، وَمَنْ أهملَ رِيشَهَا حتى نَبَتَ نَبَتْ من بين يديه، فإن النعم على الخليقة خليقة أن لا يزال حالهم في محالهم ومجال مجالستهم ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ١١]، فأملوا حاله من حال حاله بترك الشكر، وانظر البطرَ كيف سَبَى قومَ سبأ بعين الفكر، كان السيل ينساب إلى واديهم، فيقتتلون على حصصهم، وكانت بلقيس مالكة أمرهم، فلما رأت رعاياها بالخصام، وقد فَسَدَتْ قامت فَسَدَّتْ ما بين الجبلين بِمُسَنَّاةٍ لا يَتَسَنَّاهَا الماءُ، وَسَوَّتْ لها أبوابًا تخرج بالسبق بينهم، وكان لهم على جنبي جنبات واديهم جنتان، تشتمل على جمع شمل من جناهما عن يمين وشمال، فأخصبت أرضهم، وكثرت ثمر الثمار، فزالت مفاقر الفقر وخبر الحنائر حتى إن المرأة كانت تمر والمِكْتَلُ على رأسها بين الجنتين امتلأ ثمرًا إذا مشت وَمَا مَاشَتْ شيئًا باليدين، وَنَزَّهَتْ حاشية بلدهم من الحشرات، فما كانت تَقْرَبُ حَيَّهُمْ حَيَّةٌ، ولا يُقَالُ هذا عَقْرُ عَقْرَبٍ، ولا يُرى في بعض ديارهم بَعُوضَةٌ، ولا لاذَ لهم ببابٍ ذُبَابٌ، وكانت أرضُهُم لطيبِ الهوى تقتلُ الهَوَامَّ، فَلَمَّا تَمَّتِ النعمةُ وَنَمَتْ قَامَ متقاضي الشُّكر على سُوق التِّذْكَارِ بالنِّعَمِ يقولُ: ﴿كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥ﴾ [سبأ: ١٥]، فقابلوا الرسل معًا مقابلة معاند، فرفعت قصة

الشكوى منهم في مسطور ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ [سبأ: ١٦]، فوقع على توقيع وقوعهم في الوقائع، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ﴾ [سبأ: ١٦]، فبعث الله جرذًا جرذًا، فنقب سكرهم وهم على سُكرهم، فأغرق ما جنى به على جناتهم، فجرت على الأشجار بعد أن فجرت، وَعَثَتْ كَفُّ الفسادِ في ديارٍ عَتَتْ، فجيء بفجيع الفجائع فجأة، فجال على ذلك الجيل، وطلعت الشمس بقاع بقاعهم بعد الظل الظليل، وجذبهم معار المعاصي كل ويل وأليل، وقاموا فلو استقاموا لما قاموا في مقام ذليل ينظرون إلى مستور درعهم كليلٍ من طرفٍ كليل لا ينفع نفسًا تسيء حينئذٍ أدمعٌ تسيل، تالله لقد أخنى عليهم الدَّهرُ فدهورهم في خنخنة حنحنة الحنين وعواء العويل.

وَخَلَفَ غرابُ البَيْنِ بينَ جَنَّاتِهِمْ خَلْفَ الوُرْقِ على الوَرَقِ وبئسَ البَديل، ﴿وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ﴾ [سبأ: ١٦].

تاللهِ لقد ساقهم البَطَرُ مَسَاقَ التلفِ بعثوا: ﴿بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ [سبأ: ١٩]، فأدركهم العقاب في عقاب: ﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ [سبأ: ١٩]، ونادى وراءهم منادي العبر: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ [سبأ: ١٩].

الفصل الحادي والستون

في قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُم بِٱلَّتِي تُقَرِّبُكُمۡ عِندَنَا زُلۡفَىٰٓ﴾ [سبأ:٣٧]

لما افتخر المشركون بقولهم: نحن أكثر أموالا وأولادًا، رد عليهم فخرهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ﴾ [سبأ: ٣٧].

روى سهل بن سعد، قال: مَرَّ رجلٌ على رسول الله صلى الله عليه وسلم " فقال لرجلٍ عنده جالسٌ: ما رأيك في هذا؟ فقال رجلٌ من أشرافِ النَّاسِ: هذا واللهِ حَرِيٌّ إن خَطَبَ يُنْكَحَ، وَإِنْ شَفِعَ يُشَفَّعُ، فَسَكَتَ رسولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ مَرَّ رَجُلٌ آخَرُ، قَالَ: مَا رَأْيُكَ؟ فَقَالَ: هَذَا رَجُلٌ فقيرٌ مِنْ فُقَرَاءِ المُسْلِمِينَ، هَذَا حَرِيٌّ إِنْ خَطَبَ لا يُنْكَحُ، وَإِنْ قَالَ أَنْ لا يُسْمَعَ لِقَوْلِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَذَا خَيْرٌ مِنْ مِلْءِ الأَرْضِ مِثْلَ هَذَا "(١).

جملة من في الصحابة اسمه سهل ثلاثة وعشرون، ليس فيهم من يقال له ابن سعدٍ غير هذا، وجملة ما روي عن النبي صلى الله عليه وسلم مائة ثمانية وثمانون حديثًا أُخرج له منها في " الصحيحين " تسعة وثلاثون حديثًا، المتفق عليه ثمانية وعشرون، وباقيها للبخاري.

وجُملة من يجيء في الحديث اسمه سهل بن سعد ثلاثة:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٥٧، رقم ٢١٤٣٣)، وهناد (٢/ ٤١٦، رقم ٨١٥)، وابن حبان (٢/ ٤٥٦، رقم ٦٨١). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٧/ ٧٧، رقم ٣٤٣١٦)، والبزار (٩/ ٤١٤، رقم ٤٠١٨). قال الهيثمى (١٠/ ٢٦٥): رواه أحمد والبزار والطبرانى فى الأوسط بأسانيد ورجال أحمد وأحد إسنادى البزار والطبرانى رجال الصحيح.

أحدهم: هذا الصحابي، الثاني: مصري روى عن القتباني، الثالث: قزويني روى عن جُنَادَةَ.

روى ثوبان، قال: " جاء حَبْرٌ من أحبار اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أين يكون الناسُ يومَ تُبَدَّلُ الأرضُ غير الأرضِ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هُمْ في الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ. قال: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ فَقَالَ: فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ "[1].

ثَوْبَانُ خادمُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ومواليه أربعة وأربعون، أَسْلَمَ، وَيُكْنَى: أبو رَافِعٍ، أحمر، ويكنى: أبو عسيب، أسامة، أفلح، أنسة، أيمن، ثوبان، ذكوان، رافع، رباح، زيد بن حارثة، زيد بن بولا، سابق، سالم، سلمان، سليم، سعيد، شقران ويقال له: أفلح، ضُميرة، عُبيد الله بن أسلم، عبيد بن عبد الغفار، كيسان، مهران وهو سفينة، مدعم، مأبور، نافع، نفيع وهو أبو بكرة، نبيه، واقد، وردان، هشام، يسار، أبو أثيلة، أبو الحمراء، أبو رافع آخر، أبو التيمي، أبو ضميرة، أبو عبيد، أبو لبابة، أبو لقيط، أبو مويهبة، أبو واقد، أبو هند.

ومولياته صلى الله عليه وسلم إحدى عشرة:

أم أيمن، رضوى، ريحانة، آمنة، خصيرة، سلمى، مارية، ميمونة بنت سعد، ميمونة بنت أُبي، عسيب، أم ضميرة، أم عباس.

وجملة ما روى ثوبان مائة ثمانية وعشرون حديثًا انفرد بالإخراج عنه مُسلم فأخرج له عشرة أحاديث.

قدمت لعبد الرحمن بن عوف سبع مائة راحلة، فسمعت عائشة رضي الله عنها صوتها، فقالت: أما إني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " رأيتُ عبدَ الرحمن يدخلُ الجَنَّةَ حَبْوًا "[2]، فبلغه ذلك، فأتاها، فحدثته،

---

(١) أخرجه مسلم (١/ ٢٥٢، رقم ٣١٥).

(٢) أخرجه أحمد (٦/ ١١٥، رقم ٢٤٨٨٦)، والطبراني (١/ ١٢٩، رقم ٢٦٤)، والديلمي (٢/ ٢٥٧، رقم ٣١٩٦).

فقال: إني أشهدك أنها بأحمالها وأقتابها وأحلاسها في سبيل الله عز وجل.

وقال مالك بن دينار: إذا أَحَبَّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ عبدًا انتقصه من الدنيا، وكف عليه ضيعته، ويقول: لا تبرح من بين يدي فهو مفرغ لخدمة ربه عز وجل، وإذا بغض عبدًا دفع في نحره شيئا من الدنيا، ويقول: اغرب من بين يدي، فلا أراك بين يدي، فتراه متعلق القلب بأرض كذا وبتجارة كذا.

يا هؤلاء؛ إنما يعجبنا من درأهم لا بياض الدراهم، وإنما نحب من دنى كثرة الدنانير، رد صور الأموال لما رفلت في ذرائها وما ردت بلفظ: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ﴾ [سبأ: ٣٧]، ولم يقبل منها إلا نقد سكة الإيمان على حجر الإخلاص بانتقاد ﴿إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ [سبأ: ٣٧]، فيا ذا المفتخرين بجمعهم وسط ناديهم في جمعهم من أهل الكنوز وهم مفاليس، من لكم لحرب الغرور وقد جهز الكراديس وأخذت عينيه كره الكرى ديس، لا تنظروا إلى صوركم وأموالكم.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (ما من أهلٍ، ولا مالٍ، ولا ولدٍ، إلا وأنا أُحِبُّ أَنْ أقولَ عليه: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٦]، إلا عبد الله بن عمر، فإني أُحِبُّ أَنْ يَبْقَى في النَّاسِ).

وقال أبو مسلم الخولاني: لأنْ يُولَدَ لي وَلَدٌ يُحْسِنُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ نَبَاتَهُ حتى إذا استوى على شبابه، وكان أعجب ما يكون إلي قبضه مني أحبُّ إليَّ من أن تكون لي الدنيا وما فيها.

واعلم أن النية في طلب الولد وفقده، وفي قصد بقائه، إذا صَحَّتْ أُثيبَ الإنسانُ على الكل؛ لأن الأعمالَ بالنِّيَّةِ.

وفي إفراد مُسلم من حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إِذَا مَاتَ الإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلا مِنْ ثَلاثٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، أَوْ وَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ "(١).

وفي حديث أنس، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: " سبع يُجرى

---

(١) أخرجه البخارى فى الأدب المفرد (١/ ٢٨، رقم ٣٨)، ومسلم (٣/ ١٢٥٥، رقم ١٦٣١)، وأبو داود (٣/ ١١٧، رقم ٢٨٨٠)، والترمذى (٣/ ٦٦٠، رقم ١٣٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ٨٨، رقم ٢٤٢). وأخرجه أيضًا: النسائى (٦/ ٢٥١، رقم ٣٦٥١).

أجرها للعبد بعد موته في قبره: من علم علمًا، أو نهر نهرًا، أو حفر بئرًا، أو غرس نخلا، أو بنى مسجدًا، أو كتب مصحفًا، أو ترك ولدًا يستغفر له بعد موته "[١].

وقد عاش أبو قحافة فرأى رسول الله صلى الله عليه وسلم وولده أبا بكر، وابنه عبد الرحمن، وابنه محمدًا، ويكنى: أبا عتيق، ولا يُعرف أربعة أنفسٍ أدركوا رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى هؤلاء، وقد صحب عمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وابنه عبد الله، وعلي رضي الله عنه وابناه الحسن والحسين، والزبير وابنه عبد الله، والعباس وبنوه الفضل وعبد الله وعُبيد الله، وجعفر بن أبي طالب وابنه عبد الله، وزيد بن حارثة وابنه أسامة، وأبو سلمة ووالده عُمر وزينب، وعبد الله بن عمر وابنه جابر، وعمرو بن العاص وابنه عبد الله، وسعد بن عبادة وابنه قيس، وأبو سفيان وأولاده يزيد ومعاوية وأم حبيبة، وسهيل بن عمرو وابنه أبو جندل، ومخرمة وابنه المسور، وعبد الله بن سلام وابنه يوسف، وإيماء بن رحضة وابنه خُفاف.

ولقد شهد بدرًا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبع بنين من امرأةٍ واحدةٍ، وهي عفراء بنت عُبيدٍ، وكانت من المبايعات، ومعاذ ومعوذ وعوف أولادها من الحارث بن رفاعة، وعاقل وعامر وخالد وإياس أولادها من بكير ابن عبد يا ليل، واستشهد معاذ ومعوذ وعاقل ببدرٍ، وخالد يومَ الرجيع، وعامر ببئر معونة، وإياس يوم اليمامة، والبقية منهم لعوف.

يا مشغولا بصحيح ماله عن تصحيح أعماله، يا عدو نفسه، يا عبيد فلسه، تعانق الدينار بيد الحرص عناق اللام الألف، وتُنزل الدرهم من القلب منزل البراء من الدنف، ويحك إذا رأيتَ قطرَ الرزقِ يسح ترش مَاءَ الغِشِّ حولَ الحانوت، وتنظر إلى الدراهم لا فيه، وتنصب بميزان البخس، ومكيال التطفيف والغدر ثالثة الأثافي، ويحك تبحث عن حتفك بظلفك، وتنحت بسيفك مازن أنفك.

---

(١) أخرجه ابن ماجه (١/ ٨٨، رقم ٢٤٠) قال البوصيري (١/ ٣٤): هذا إسناد فيه مقال. والطبراني (٢٠/ ١٩٨، رقم ٤٤٦).

الفصل الثاني والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ﴾ [سبأ: ٥١]

هذا فزع أهل القبور وقت البعث، وهو المكان القريب، والهاء في (به) تعود إلى البعث، وقيل: إلى الله عز وجل، (وَأَنَّى) لفظ سؤال، فإذا وقع سؤالا عن زمان كان بمعنى: متى؛ كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ شِئْتُمْ﴾ [البقرة: ٢٢٣]، وإذا أصاب سؤالا عن مكان كان بمعنى: من أين؛ كقوله تعالى: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧]، والتناوش: التناول، والمعنى: أنى لهم التناول لما أرادوا بلوغه، وكيف يقدرون على إدراك ما يطلبون من التوبة من مكان بعيد، وهو المكان الذي تقبل فيه التوبة وهي الدنيا قد ذهبت، ﴿وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ [سبأ: ٥٣]؛ أي: يؤمنون بالظن من مكان بعيدٍ وهو بُعدهم عن العلم بما يقولون، قال ابن عباس: (هو الرجوع إلى الدنيا)، وقال السدي: هو التوبة.

إخواني؛ الوحى الوحى فالطلب حثيث، إنما هو دبيب من سقم، ثم تؤخذون بالكظم، فتزل حينئذٍ القدم، وتندم حيث لا ينفع الندم، كأنك بك في صرعة الموت، وقد استنشقتَ ريحَ الغربة قبل الرحيل، ورأيتَ أثر اليتم في الولد قبل الفراق، وتخايلتَ انتهابَ الأموالِ قبلَ التوديع، فتيقظ إذن من رُقَادِ الغفلةِ، فقد فات اختلاج المذبوح.

الناسُ نِيَامٌ فإذا مَاتُوا انْتَبَهُوا فلا توبةَ حينئذٍ تُنالُ، ولا عثرةَ تُقالُ، ولا فِدَاءَ بمالٍ.

لما احتضر عبد الملك بن مروان قال: والله؛ لوددتُ أني عبد رجلٍ من تهامة، أرعى غنيماتٍ في جبالها، وأني لم أَلِ من هذا الأمرِ شيئًا.

عبد الملك بن مروان ستة، أحدهم: هذا وهو الخليفة، الثاني: مدني، حَدَّثَ عن سَبْلانَ، الثالث: أهوازي، روى عن سليم بن أخضر، الرابع: كوفي، روى عنه بشر بن معاذ، الخامس: بصري، روى عنه إسماعيل بن الفضل البلخي، السادس: روى عنه الأزعياني.

أين من بنى وتحصن وشاد، واقتنى من دنياه ما اشتهى واستفاد، ومكر وختل واختال فكاد، ونال أغراضه كلها أو كاد، واستبعد في مراداته العباد، تالله لقد تولى عما تولى، وتمنى الإقالة، فقيل له: كلا.

يا مريضًا ما يعرف أوجاعه، يا مضيع العمر بالساعة والساعة، يا شديد الغفلة وقد دنت الساعة، كأنك به وملك الموت قد راعه، وصاح بالنفس، فقالت: سمعًا وطاعة، ونهضت تعرض كأسد التوبة وقد أغلقت الباعة.

[السريع]

وَرُبَّمَا غُوفِضَ ذُو غَفْلَةٍ أَصَحُّ مَا كَانَ وَلَمْ يَسْقَمِ
يَا وَاضِعَ الْمَيْتَ فِي قَبْرِهِ خَاطَبَكَ الْقَبْرُ فَلَمْ تَفْهَمِ

إخواني؛ تفكروا في أناس باتوا يلعبون، وتركوا يقين العلوم كمظنون، وخاضوا من أمور الهوى في فنون، فزاد في اسم هواهم حرف نون، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، لو رأيتهم حين الموت يبكون أسفًا على الفوت، وينادون على ضُعف الصوت: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٩]، ندموا على ما خلا من زمن لم ينفع ولا حصل بأيديهم سوى الصفق على بيعة مغبون، لو شاهدتم في اليوم الموعود يقول قائلهم: لا أعود، والمسؤول يمنع والدمع يجود، لم يبق لمن جفى جفون، يُعذبون في النار بالجوع من حسرات الرجوع، ويشربون كؤوس الدموع والعيون كالعيون، لا نومَ ولا قَرَارَ، ولا هَرَبَ ولا فَرَارَ، ولا ملجأ إلا النار، دَارَ العَذَابُ بالدَّارِ ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾﴾ [التكوير: ٢٦]، يا مشغولا بالآمال عن العمل، يا كثير الخلل بالزلل، تيقظ قبل الأجل، فقد شرحنا حالَ من غفل، أفترضى أن تكون: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤]، يا ملومًا قط ما ارعوى، يا مائلا إذا أقيم التوى، يا من حُبُّ الدنيا على قلبه قد حَوَى، ماذا هوى، هذا جنون، ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [سبأ: ٥٤].

الفصل الثالث والستون

في قوله عز وجل: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ﴾ [فاطر: ٣٧]

لما استغاث أهل النار بلفظ: ﴿أَخْرِجْنَا مِنْهَا﴾ [المؤمنون: ١٠٧] جاءهم توبيخ: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم﴾ [فاطر: ٣٧]، وفي مقدار هذا التعمير أقوال:

أحدها: سبعين سنةً، قال ابن عمر: هذه الآية تعبير لأبناء السبعين.

الثاني: ستون سنة، قاله ابن عباس.

وفي إفراد البخاري من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: "أَعْذَرَ اللهُ إلى امرئٍ أَخَّرَ أَجَلَهُ سِتِّينَ سَنَةً".

الثالث: أربعون، قاله الحسن.

وقال مسروق: إذا بلغ أحدكم أربعين سنةً، فليأخذ حذره من الله.

وقال عبادة بن الصامت: جاء جبريلُ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له: "إن الله عز وجل أمر الحافظين، فقال لهما: أرفقا بعبدي في حداثته، حتى إذا بلغ الأربعين فاحفظا وَحَقِّقَا".

وقال عمر بن عبد العزيز: لقد تمت الحجة لله عز وجل على ابن الأربعين فمات لها.

الرابع: ثمانية عشر سنة، قاله عطاء.

قال ابن وهب: قرأت في بعض الكتب أن مناديًا يُنادي في السماء الرابعة كل صباح أبناء الأربعين زرع قد دنى حصاده، أبناء الخمسين ماذا قدمتم وماذا أخرتم، أبناء الستين لا عذرَ لكم.

قال ابن عمر: (النذير): الشيب.

[الخفيف]

كَمْ إِلَى كَمْ لا تَرْعَوِي عَنْ قَبِيحٍ ... كُسِّرَتْ بِالْمَشِيبِ تِلْكَ الصِّحَاحُ

أَنْتَ في الأَرْبَعِينَ مِثْلُكَ في الْعِشْـ ... ـرِينَ قُلْ لِي مَتَى يَكُونُ الْفَلاحُ

يا من شاب وما تاب ولا أصلح، يا مُعرضًا إلى الأردى عن الأصلح، ليت شعري بعد الشباب بماذا تفرح، ما أقبح الخطايا في الصبا وهي في المشيب أقبح، إذا نزل الشيب ولم يزل العيب فبعيد أن يبرح، يا مركبًا يخطف في المعاصي لا يقف ولا يجنح.

[الكامل]

وَإِذَا تَكَامَلَ لِلْفَتى مِنْ عُمْرِهِ ... خَمْسُونَ وَهْوَ إِلَى التُّقَى لا يَجْنَحُ

عَلِقَتْ عَلَيْهِ الْمُخْزِيَاتُ فَمَا لَهُ ... مُتَأَخَّرٌ عَنْهَا ولا مُتَزَحْزَحُ

وَإِذَا رَأَى الشَّيْطَانُ غُرَّةَ وَجْهِهِ ... حَيًّا وَقَالَ فَدَيْتُ مَنْ لا يَفْلَحُ

ابك لما بك لمآبك، واندب في شيبك على شبابك، وتأهب لسفر المنون، فقد علق الشبا بك، وملك الموت قد جَدَّ في طِلابِكَ.

[السريع]

سَوَّفْتَ بِالتَّوْبَةِ إِذْ لَمْ تَشِبْ ... فَالآنَ قَدْ شِبْتَ فَمَا تَنْتَظِرْ

أَبَعْدَ شَيْبِ الرَّأْسِ مَا تَرْعَوِي ... وَبَعْدَ فَوْتِ الْعُمْرِ مَا تَنْزَجِرْ

أبقى بعد الشيب نذير، أيحسن بعد العقل تدبير، أما يكفي ضعف القوى في التحذير، لقد نسخ الموت بالتصريح التحذير.

[الطويل]

وَغَيْرُ التَّصَابِي لِلْكَبِيرِ تَعِلَّةٌ ... وَغَيْرُ الْغَوَانِي لِلْمَشِيبِ صِحَابُ

أُؤَمِّلُ مَا لا يَبْلُغُ الْعُمْرُ بَعْضَهُ ... كَأَنَّ الَّذِي بَعْدَ الْمَشِيبِ شَبَابُ

وَطَعْمٌ لِبَازِي الْمَوْتِ لا شَكَّ مُهْجَتِي ... أَسَفٌ عَلَى رَأْسِي وَطَارَ غُرَابُ

أين الشباب كأنه ما كان، فرغ المنزل ورحل السكان، لما رأى السواد البياض قد بان، أعطاك قوسًا وأخذ غصنَ بَانِ

[الكامل]

إنِّـي لأعْـلَـمُ قَـبْـلَ فَـضِّـي خَـتْـمَـهُ   مـا فـي كِـتَـابِـي بِـالْـمَـشِـيـبِ مُـعَـنْـوَنُ

يا من شاب وانتهى وما انتهى، والعُمر ينتهب انتهابا، أين قدماء الآباء، سافر الأب والأم فما آبا، لقد دعا الموتُ الأبَ فما أبى، والجدَّ فجدًّا كلاهما وأجابا، أرأيته لما أخلا دارًا دارًا دَارَا أو رحابا جابا، لقد أصبح بسيفه ناسيًا في العمر لما وهى، وها قد قطع الشبا الشبابا، فيا باغي الهوى بزعمه، وكم يُدعى فيأبى.

[المجتث]

مَنْ عَاشَ سَبْعِينَ عَامًا فَقَدْ أَتَمَّ النِّصَابَا   وَصَارَ بِاللَّهْوِ وَالزَّهْوِ وَالسُّرُورِ مُصَابَا

وَعَادَ مَا كَانَ حُلْوًا لَهُ مِنَ الْعَيْشِ صَابَا   وَمِنْ أَتَمِّ الـرَّزَايَا عَـلَـيْــهِ أَنْ يَـتَـصَـابَـا

نظر بعض السلف إلى طاقةٍ بيضاءَ في لحيته، فقال لأهله: قد وهبت لكم شبابي، فهبوا إلي مشيبي، فدخل مُتعبِّدًا له، فما زال يتعبَّد حتى مات.

وكان آخر يقوم بشأن قوم، فنظر يومًا في المرآة، فرأى شعرةً بيضاء في وجهه، فقال: إنَّا للهِ، أَتى بريدُ الموت، طال ما أُطْلِقَتْ فيما يسرها، يا قوم ارتادوا لأنفسكم غيري، أنا تائب إلى الله تعالى، فاعتزل القوم وتعبد حتى مات.

[الطويل]

أَرَى أَلِـفَـاتٍ قَـدْ كُـتِـبْـنَ عَـلَـى رَأْسِـي   بِـأَقْـلامِ شَـيْـبٍ فـي مَـفَـارِقِ قِـرْطَـاسِ

فَـإِنْ تَـسْـأَلُـوا مَـنْ ذَا يَـخُـطُّ حُـرُوفَـهَـا   فَـكَـفُّ الـلَّـيَـالِـي تَـسْـتَـمِـدُّ مِـنْ أَنْـفَـاسِـي

يا هذا؛ اندب على عُمرٍ قد بقيت أطلاله، وعلى فُضالة عيشٍ قد دنى زواله، وعلى قليل زادٍ قد دنى ارتحاله، وعلى مقبورٍ في القبر ما يدري ما حاله، وعلى حثٍّ سريعٍ جعل المطايا كالمزاد استعجاله.

[مجزوء الرجز]

يَـــا سَـــائِـــقَ الأَظْـــعَـــانِ أَوْ   رِدْ بَـــعْـــضَ مَـــا تَـــعْـــتَـــسِـــفْ

فَــــإِنَّ بَــــيْــــنَ سُــــوقِــــهَــــا   أَفْــــئِــــدَةً تُــــخْــــتَــــطَــــفْ

يَا زَمَنِي عَلَى الْغَضَا مَا أَنْتَ إلا الأسَفْ
لَهْفِي عَلَيْكَ مَاضِيًا لَوْ رَدَّكَ التَّلَهُّفْ

إن كان الشباب لقاء فالمشيب وداع، وإن كان السواد سترًا كان المشيب كشفَ القناع، هذا الفرق قد دنا فيا بُعْدَ الاجتماع، فاندب على ساعاتٍ تُشترى ولا تُباع.

[الكامل]

دَعْ شَأْنَ عَيْنِكَ يَا حَزِينُ وَشَأْنِهَا وَضَعِ الْيَدَيْنِ عَلَى الْحَشَا وَتَمَلْمَلِ
هَذَا زَمَانُ فِرَاقِهِمْ وَلَقَلَّ مَا يُغْنِي وُقُوفُكَ سَاعَةً في الْمَنْزِلِ

يا هذا؛ ما من شَعْرَةٍ بيضاءَ إلا وهي تنادي كلَّ يومٍ أختها: أَتَاكِ الْمَوْتُ فَاسْتَعِدِّي.

يا هذا؛ وَدِّعْ بقيةَ ما لا يبقى، وانتهب فُضالة ما قد ولى، وقف في عَرَصَاتِ الشيبِ على أطلالِ العمر، ونادي في نادي الرحيل بلسانِ التوديعِ قبلَ انفصالِ المَفَاصِلِ إذا التوى التوى.

[السريع]

يَا مَنْزِلا لَمْ تَبْلِ أَطْلالُهُ حَاشَا لأَطْلالِكَ أَنْ تَبْلَى
فَالْعَيْشُ أَوْلَى مَا بَكَاهُ الْفَتَى لا بُدَّ لِلْمَحْزُونِ أَنْ يُسْلَى
لَمْ أَبْكِ أَطْلالَكَ لَكِنَّنِي بَكَيْتُ عَيْشِي فِيكَ إِذْ وَلَّى

إخواني؛ قَرُبَ الرحيلُ وبقي القليل، أين جهاد التحويل؟ أين البكاءُ والعويلُ؟

وَلَمَّا أزف البَيْنَا وَقَرَّبْنَا جِوَادِينَا
وَفَارَقْنَا حَبِيبَنَا عَلَى حُرْقَةِ قَلْبِينَا
تَبَاكَيْنَا فَرَوَّيْنَا بِدَمْعِينَا رَدَايِينَا
وَكُنَّا نَكْتُمُ الْوَجْدَ فَنَمَّ الدَّمْعُ سِرِّينَا

الفصل الرابع والستون

في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ ٱلْأَجْدَاثِ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ ﴿٥١﴾﴾ [يس:٥١]

(الصُّورُ): قَرْنٌ يُنْفَخُ فِيهِ، وقرأ الحسن: (فِي الصُّوَرِ) بفتح الواو.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (صَاحِبُ الصُّورِ لَمْ يَطْرِفْ مُنْذُ وُكِّلَ بِهِ، يَنْظُرُ تِجَاهَ الْعَرْشِ، مَخَافَةَ أَنْ يُؤْمَرَ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَ إِلَيْهِ طَرْفُهُ).

وفي حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " إِنَّ الأَجْسَادَ تَنْبُتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَنَبَاتِ الْبَقْلِ، وَتَخْرُجُ الأَرْوَاحُ كَأَمْثَالِ النَّحْلِ، فَتَدْخُلُ فِي الْخَيَاشِيمِ، فَتَدُبُّ كَدَبِيبِ السُّمِّ فِي اللَّدِيغِ ".

و (الأَجْدَاثِ): القبور، و (يَنْسِلُونَ): يخرجون بسرعة، وقد وصف الله تعالى خروجهم في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ﴾ [القمر: ٧]، وذلك أن الجراد لا جهة له يقصدها، فهو أبدًا مختلف، بَعْضُهُ فِي بَعْضٍ، فَهُمْ يَخْرُجُونَ فَزِعِينَ، ليس لأحد منهم جهةٌ يقصدها، وقال بكر العابد: (إِنَّ النَّاسَ يَخْرُجُونَ مِنْ قُبُورِهِمْ يَقُولُونَ: الْمَاءَ الْمَاءَ، الْعَطَشَ الْعَطَشَ).

وَقَالَ ابْنُ عُمَرَ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾﴾ [المطففين: ٦]: (يَقُومُونَ مِائَةَ سَنَةٍ).

وَقَالَ كَعْبٌ: (يَقُومُونَ ثَلاثَ مِائَةِ سَنَةٍ).

وَرَوَى عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "يَقُومُونَ النَّاسُ أَلْفَ سَنَةٍ فِي الظُّلْمَةِ ".

وَقَالَ الْحَسَنُ: (لِلنَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَمْسُونَ مَوْقِفًا، كُلُّ مَوْقِفٍ أَلْفُ سَنَةٍ).

وَقَالَ يَزِيدُ: (يَقُومُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَرْبَعِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، وَيُقْضَى بَيْنَهُمْ فِي عَشْرَةِ أَلْفِ سَنَةٍ).

وَقَالَ مُغِيثُ بْنُ سُمَرٍ: (تَرْكُدُ الشَّمْسُ فَوْقَ رُؤوسِهِمْ عَلَى ثَلاثَةِ أَذْرُعٍ، وَتُفْتَحُ أَبْوَابُ جَهَنَّمَ، فَتَهُبُّ عَلَيْهِمْ رِيَاحُهَا وَسَمُومُهَا، حَتَّى تَجْرِيَ الأنْهَارُ مِنْ عَرَقِهِمْ أَنْتَنُ مِنَ الْجِيَفِ، وَالصَّائِمُونَ فِي ظِلِّ الْعَرْشِ).

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ الْعَيْزَارِ(١): (إِنَّ الأَقْدَامَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِثْلُ النَّبْلِ [فِي](٢) الْقَرْنِ، وَالسَّعِيدُ الَّذِي يَجِدُ لِقَدَمِهِ مَوْضِعًا).

قوله تعالى: ﴿يَٰوَيْلَنَا مَنۢ بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا ۜ﴾ [يس: ٥٢]، قال المفسرون: سموا مضجعهم مرقدًا؛ لأن العذاب يُرفع عنهم بين النفختين.

قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ: (يَنَامُونَ نَوْمَةً قَبْلَ الْبَعْثِ، فَلأَجْلِ تِلْكَ النَّوْمَةِ قَالَ هَذَا الْكَلامَ).

واعلم أن وقف التمام من مرقدنا؛ لأن قوله: ﴿هَٰذَا مَا وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [يس: ٥٢]، قَالَ مُجَاهِدٌ: (هُوَ قَوْلُ الْمُؤْمِنِينَ)، وَالْحَسَنُ يَقُولُ: (هُوَ قَوْلُ الْمَلائِكَةِ لَهُمْ)؛ فيقف على مرقدنا.

وقد اختار القراء الوقف على مواضعٍ منها في (البقرة) لرفع الإشكال: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٤]، ثم يقف، ثم يبتدئ: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي (آل عمران): ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ﴾ [آل عمران: ٧]، يقف، ثم يبتدئ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧].

وفي (براءة): ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [التوبة: ١٩]، يقف، ثم يبتدئ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟﴾ [التوبة: ٢٠].

وفي (حم المؤمن): ﴿أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦]، يقف، ثم يبتدئ: ﴿ٱلَّذِينَ يَحْمِلُونَ ٱلْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُۥ﴾ [غافر: ٧].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ٢٠٩، رقم ٣٥٤٠٨).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

وفي (الحشر): ﴿إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٧]، يقف، ثم يبتدئ: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ﴾ [الحشر: ٨].

قوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَٰحِدَةً﴾ [يس: ٢٩]، إن في القرآن على أربعة أوجهٍ:

أحدها: بمعنى الشرط: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ٣١].

الثاني: بمعنى (ما): ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ [الأحقاف: ٢٦]، ﴿إِن كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ١٧]، ﴿إِن كُلُّ نَفْسٍ﴾ [الطارق: ٤].

الثالث: بمعنى (لقد): ﴿إِن نَّفَعَتِ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الأعلى: ٩].

الرابع: بمعنى (إذ): ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩].

وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [يس: ٥٤].

يَا هَذَا؛ زَرْعُ يَوْمِكَ حَصَادُ غَدِكَ، كَانَ سُمَيْطُ بْنُ عَجْلانَ يَقُولُ: (يَا ابْنَ آدَمَ؛ إِنَّمَا الدُّنْيَا غَدَاءٌ وَعَشَاءٌ، فَإِذَا أَخَّرْتَ غَدَاكَ لِعَشَاكَ، أَمْسَى دِيوَانُكَ فِي دِيوَانِ الصَّائِمِينَ).

وَكَانَ مَرْوَانُ يَقُولُ: (لَبِسْتُمْ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ، أَلَمْ تَرَوْا إِلَى الْفَاعِلِ إِذَا عَمِلَ يَلْبَسُ أَدْنَى ثِيَابِهِ، فَإِذَا فَرَغَ اغْتَسَلَ، وَلَبِسَ ثِيَابًا نَقِيَّةً، وَأَنْتُمْ لَبِسْتُمْ ثِيَابَ الْفَرَاغِ قَبْلَ الْعَمَلِ).

إخواني؛ أين حسرة فوت أمس؟ أين اغتنام وجود اليوم؟ أين خوف مخاطرة غدًا؟ أمس قد مات، واليوم في النزع، وغدًا لم يُولد!

إخواني؛ كأن القلوب ليست منا، وكأن الحديث نعني به غيرنا.

[الطويل]

تَزَوَّدْ قَرِينًا مِنْ فِعَالِكَ إِنَّمَا ... قَرِينُ الْفَتَى فِي الْقَبْرِ مَا كَانَ يَفْعَلُ

أَلا إِنَّمَا الإِنْسَانُ ضَيْفٌ لأَهْلِهِ ... يُقِيمُ قَلِيلا عَنْدَهُمْ ثُمَّ يَرْحَلُ

تالله لقد سال بك السَّيل، وأنت في الهوى مُشَمِّر الذيل، تجري في أَغْرَاضِكَ جري الخيل، لا يُوقِظُكَ الصبح ولا يَعِظُكَ الليل، تتقلب على فراش لحمٍ حَشْوُهُ وَيْل، وَتُدْعَى بالعاقل والفعل فعل الطُّفَيْل، إلى كم تُقَوِّم يا شديد

الميل، يا عطشان الهوى وهو في دجلة دجيل، إنما تُجزي بعملك قدر كيل بكيل، أما تنتبه بهذا الزجر، أما يُؤلمك طول الهجر، أما ثم نية في طلاب الأجر، إلى متى أنت في ثياب الغدر، أما تحث العقل على الصبر، ألا أراك تلعب بالجمر، أي سكران الهوى لا بالخمر، نسخ ليل الشباب بنور الفجر، وفنى الموسم وما بال ربح التجر، يا عجيب الحال يا طريف الأمر؛ كيف تحصد أي مُضَيِّعًا لِلْبَذْرِ؟ يا قليل البضاعة؛ بل يا مُفلس يرجو النجاة بالمعاصي لقد وسوس، أتلبس ثوب النسك ثم تُلَبَّس، جاء الصباح فنسخ حكم الْحِنْدِس، وأطرق اللِّينُوفَر لما حرق النرجس، يا من يقوم من المجلس كما يجلس ! كن كيف شئت فإنما تجني ما تغرس، ألك عذر؟! قُلِّي ! كَلا الْبَاطِلُ يَخْرِس.

الفصل الخامس والستون

في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾﴾ [الصافات: ٤١]

هذا هو الرزق في الجنة، وفي معنى (معلوم) قولان:

أحدهما: حين يشتهونه، قاله مقاتل.

الثاني: أنه بمقدار الغداة والعشي، قاله ابن السائب.

قال العلماء: ليس في الجنة ليل ولا نهار، وإنما هي في نور أبدًا، وإنما يعرفون مقدار الليل بِإِرْخَاءِ الْحُجُبِ وإغلاق الأبواب.

والفواكه: جمع فاكهة، وهي الثمار رطبها ويابسها.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (عَلَى سُرُرٍ مُكَلَّلَةٍ بِالزَّبَرْجَدِ، وَالدُّرِ وَالْيَاقُوتِ، السَّرِيرُ مِثْلُ مَا بَيْنَ عَدَنَ إِلَى أَيْلَةَ، مُتَقَابِلِينَ لا يَرَى بَعْضُهُمْ قَفَا بَعْضٍ، حَيْثُ مَا الْتَفَتَ يَرَى وَجْهًا يُحِبُّهُ يُقَابِلَهُ).

قوله تعالى: ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِكَأْسٍ﴾ [الصافات: ٤٥]

قَالَ الضَّحَّاكُ: (كُلُّ كَأْسٍ ذُكِرَتْ فِي الْقُرْآنِ إِنَّمَا يَعْنِي بِهَا الْخَمْرَ).

قَالَ اللُّغَوِيُّونَ: الْكَأْسُ فِي الْقُرْآنِ: الإِنَاءُ بِمَا فِيهِ، فَإِنْ كَانَ فَارِغًا فَلَيْسَ بِكَأْسٍ. وَالْمَائِدَةُ: كُلُّ مَا كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الأَخْوِنَةِ طَعَامٌ، فَإِذَا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ طَعَامٌ فَلَيْسَ بِمَائِدَةٍ. وَالْمُهْدَى: الطَّبَقُ الَّذِي تَهْدِي عَلَيْهِ الْهَدِيَّةَ، فَإِذَا كَانَ فَارِغًا رَجَعَ إِلَى اسْمِهِ إِنْ كَانَ طَبَقًا أَوْ خِوَانًا أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ.

وأما المعين: الطاهر وهو مفعول من العين، وهو الخمر هاهنا.

قَالَ الْحَسَنُ: (خَمْرُ الْجَنَّةِ أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ).

قوله تعالى: ﴿لَذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾ [الصافات: ٤٦] أي: ذات لذة لا تُغْتَالُ

عُقُولُهُمْ بِشُرْبِهَا، يقال للسكران: نَزِيفٌ وَمُنَزَّفٌ، وقرأ الكسائي وحمزة بكسر الراء؛ أي: لا ينفذ شرابهم؛ لأنه دائم.

﴿وَعِندَهُمْ قَٰصِرَٰتُ ٱلطَّرْفِ عِينٞ ۝٤٨﴾ [الصافات: ٤٨]؛ أي: نساء قد قصرن أطرافهن على أزواجهن، لا ينظرن إلى غيرهم.

وَقَالَ ابْنُ زَيْدٍ: (الْمَرْأَةُ تَقُولُ لِزَوْجِهَا: وَعِزَّةِ رَبِّي مَا أَرَى فِي الْجَنَّةِ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْكَ).

و(العِين): حسان الأعين كبارها، وفي المُراد بالبَيض ثلاثة أقوال:

أحدها: اللؤلؤ، قاله ابن عباس .

الثاني: بيض النعام، قاله الحسن، والعرب تسمي المرأة البيضاء الحسناء بيضةً مُشَرَبَة بصفرة.

الثالث: البيض حين يُقشر قبل أن تمسه الأيدي، قاله سعيد بن جبير.

فعلى الأول مكنون بِصَدَفِهِ، وعلى الثاني بريش النعام، وعلى الثالث بقشرة.

﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٖ يَتَسَآءَلُونَ ۝٥٠﴾ [الصافات: ٥٠] عن أحوال كانت لهم في الدنيا.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٞ ۝٥١ يَقُولُ أَءِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُصَدِّقِينَ﴾ [الصافات: ٥١ - ٥٢]؛ أي: بالغيب، وهاذان هما الأخوان المذكوران في الكهف، كان هذا المؤمن من سادات الأتقياء، وأخوه الكافر من رءوس الأشقياء، فَلَمَّا اجْتَاحَ الْفَقِيرَ فَقْرُهُ احْتَاجَ فَتَعَرَّضَ لأخِيهِ، فقال له: بعني دينك ببعض مالي، وإلا فمالك ومالي، ثم أدخله مخدع حديقته، ونصب له شرك شركه، فراغ به وقت الفراغ إلى جنا جنانه، وقد فغر النَّوْرُ فَاه، فغر فأراه اعتناق أعناق أعنابه، تميد بها الميد في ميدان منسى الميسره، وقد تبدي الحفف، (فحففناهما) وَزَرَّتْ زِرَّ زُرْمانقة الزُّور على زور الغرور لزور الهوى، وملأت الثمار أكمامها بيد أنما نملي لهم، قد آتت أكلها والماء بين الزرع وَقُدَّامِهَا قَدْ أَمَّهَا مِنْ فَجٍّ: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرٗا﴾ [الكهف: ٣٣]، فمال به المال إلى الفخر بأمرٍ ظنه كمالا قال: ﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالٗا﴾ [الكهف: ٣٤]، ولفظ الإيمان فِي لَثَطِ: ﴿وَمَآ أَظُنُّ

ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةٗ﴾ [الكهف: ٣٦]، فبز المؤمن في جدد جداله بإنكار: ﴿أَكَفَرۡتَ﴾ [الكهف: ٣٧].

فأخبره بتقليب الدول في عبارة: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ﴾ [الكهف: ٤٠]، فرست أطناب فريسة المؤمن في تراب المبارزة إلى أن فرست فرسه، فبان صدق ظنه يوم أُحيط بثمره، فأصبح بعد أن راح يصفي الراح، ويُصفق الأمراح بقلبٍ كثير الأتراح، فجاءه العذاب فجأةً، والفجائع فيه ولم تكن له فيه، فإذا قامت القيامة، واستوفى المؤمن وعد: ﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [المؤمنون: ١١١]، سمعت دَوِّي بدوي الشكر في دو دولته، يترنم بأدلة: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [المطففين: ٣٤]، فإذا أخبر المؤمن أقرانه خبره، أحب كل أن يراه رؤية من خبره، ﴿قَالَ هَلۡ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ ﴿٥٤﴾ فَٱطَّلَعَ فَرَءَاهُ فِي سَوَآءِ ٱلۡجَحِيمِ ﴿٥٥﴾﴾ [الصافات: ٥٤ - ٥٥]، فلما رآه قد دين أخذ يشكر الدين: ﴿قَالَ تَٱللَّهِ إِن كِدتَّ لَتُرۡدِينِ ﴿٥٦﴾﴾ [الصافات: ٥٦]، فلو رأيت طربه في سُكر شكر: ﴿وَلَوۡلَا نِعۡمَةُ رَبِّي﴾ [الصافات: ٥٧]، فلو أن ناظرًا ناظرًا يتلمح جولان مضمر الضمير في لزيد العافية، وفرحة الفطر بعد أوصاب الصوم، ويتناول العذب بعد عذاب الضمأ، وسلامة الغريق بعد الإغراق في أذى الأذى، وخلاص التَّجْرِ مِنْ تِجَارَة مُتَاجِر المكس، وتلاقي الأحباب على باب الطول بعد طول الفراق، لرأى من قرة العيون ما لا يدخل تحت قياس بعد أن حدق ناس، فما يُدرى بأي وقر يفرحون، ولا لأي أمر من الأمن يمرحون، أبالنجاة من النيران أم بغفران العصيان، أم بانهزام أحزاب الأحزان، أم بريض أرض الرضوان، أم بعز ما يهوى به بعدد هادةٍ هوان، لا بل أجل وأعلى من هذا الشأن، كشف الحجاب لهم من عين العيان، ورؤية بصر ما تمنى من رؤية المنان، وسمع الكلام بغير واسطة ملك أو إنسان: ﴿هَلۡ جَزَآءُ ٱلۡإِحۡسَٰنِ إِلَّا ٱلۡإِحۡسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ [الرحمن: ٦٠].

الفصل السادس والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]

الإشارة إلى الخليل عليه السلام، لما علا علاه بحجاة في حجاج قومه من حر حرقوه، وهاجر إلى الشام في رفقة: ﴿إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي﴾ [الصافات: ٩٩]، والمعنى: إلى حيث أمرني ربي، فلما قدم الأرض المقدسة، سأل عونًا على دينه في صريح: ﴿هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [الصافات: ١٠٠]، فبشر إليه: ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: ١٠١]، فلما صلح أن يسعى معه في طروق طريقه غض الهوى فيه بِرَنْقِ إِبْرِيقِه، فصب على إناء: ﴿إِنِّي أَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فبشرناه، صار إني أرى، فأحب أن ينظر وهو في أشد شدة قبل أن يوثق الغلام للذبح رشده، هل بلغ الصبي قبل البلوغ أشده، كما أوتي أبوه من قبل رشده، فعرض عليه مرآة الرأى في يد: ﴿فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فقابلها بوجه التوجه، يسعى على أقدام: ﴿يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، فسكن ما جاش من جأش أبيه بتسكين: ﴿سَتَجِدُنِي﴾ [الصافات: ١٠٢]، فصاح به لسان اليقظة دع دعواك، فقيد لفظه بقيد: ﴿إِن شَاءَ اللَّهُ﴾ [الصافات: ١٠٢]، ثم قال: يا أبتي اشدد رباطي ليمتنع ظاهري من التزلزل كما سكن قلبي بسكون السكون، واكفف ثيابك عن دمي، لئلا يصبغها عندمي، فتحزن لرؤيتها أمي، واقرأ عليها السلام مني، فأمر السكين على مريئي المرء فما مرت، غير أن أحزان الفراق للعيش أمرت، فصاح الصبي يا أبي اطعن بها طعنًا، فطعن بها في الحلق فنبت، لكن حب الرضا في أرض حبة القلب قد نبت، يا إبراهيم من عادة حدة الحديد أن تقطع، ومن عادة ضعف

الصبي أن يفزع ويجزع، فلما نسخ الذبح نسخة الصبر ومحى سطور الجزع، قلبنا عادة حدة الحديد فما مر ولا قطع، وليس المُراد أن يُعذب، لكن يبتلي ليُهَذِّب.

يا إبراهيم الذي عليك تحريك اليد للذبح بالحديد، والذي على الذبيح أن لا يُبدي ولا يُعيد، ثم نحن نفعل في ملكنا ما نُريد.

أين المعتبرون في قصصهما؟! تالله لقد حصحص الحق في حصتهما، لما جعلا الطاعة إلى الرضا سُلَّمَا، سل ما يؤذي فَسَلَّمَا، وَكُلَّمَا كَلَّمَا حاجب كَلَّمَ، كُلَّمَا يذبح به قصد ما به صُدما، بيننا هما على تل وتله جاء بشير: ﴿قَدْ صَدَّقْتَ﴾ [الصافات: ١٠٥]، فارتد أعمى الحزن بصيرًا بقميص: ﴿وَفَدَيْنَٰهُ﴾ [الصافات: ١٠٧]، تالله ليس العجب من ذبح الخليل لولده، وإنما العجب من مباشرة الذبح بيده، وأعجب من ذا موافقة الصبي لوالده، وأعجب من ذا أنه لما أمر حد حديدة الخنجرة على حنجرته، فَمَرَّتْ وَمَا أَمَرَّتْ كيف صاح الصبي: يا أبه؛ اطعن بها طعنًا، ولولا أن عقال العقل كل من محله الطبع، فحل محل تعظيم الشرع الحسن نفوذه هينه، أمر إلى تذكر عظيم الأجر، وصار كغائب عن حضور الذبح، ما قدر على إجراء المدية في مداها، غير أنه أذهله تعظيم خليله، فعمل في الأمر على دليله، كَفَتَ كَفَّ الاعْتِرَاضِ بِالصَّبْرِ، فَمُدَّتْ يَدُ الْجَزَاءِ، وَكَشَفَتْ سُرَادِقَاتِ الْحُجُبِ، فَلاحَ الْفَلاحُ مِنْ خِلالِ فَجْرِ الأَجْرِ بِرُؤْيَةِ عَظَمَةِ جَلالِ وَجْهِ الْحَبِيبِ، فَسَكَنَ الْقَلْبُ بِرُؤْيَةِ عَيْنِ شَوْقِ يُوسُفَ الْوَجْدِ، فَغَمَرَتْ مَرَارَةُ الْبَلاءِ بِجُلُوِّ الْمُشَاهَدَةِ: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٣١].

كَلَّمَ بَعْضُ الْمُحِبِّينَ حَبِيبَهُ وَيَدَهُ فِي الْقِدْرِ وَفِيهَا الْمَاءُ وَالنَّارُ تَحْتَهَا، فَغَلِيَ الْمَاءُ وَهُوَ يُكَلِّمُ حَبِيبَهُ، فَمَا أَحَسَّ، فَسَقَطَتْ أَصَابِعُ يَدِهِ.

إخواني؛ من أراد عليين العلا، فليرتقي بسلاليم التسليم للملأ، ملة أبيكم إبراهيم، أين من قطع أوداج التمادي بيد الحد، وأراق دم الهوى الرائق بدم المجد، وأعاد عود عاداته منشورًا بقدر المستعد، وعلى وعيد عوده عن العدو بأيسر العبد.

متى تَعْقِل فَتُعْقَل بعِقَال عَقْلِكَ، وتمر على حلق حرصك سكين بتسكين صبرك، متى ترمي طمعك عن قوس بأسك، متى تفري أوداج أهلك، بحد حديدة جِدِّكَ، كلا إن أردت الوصل إلى منى المُنى، فسق هدي الهُدى، وانحر نحرة بحربة حربك، وقطعه بسيف أسفك، على سوء مساوئ مسلفك.

الفصل السابع والستون

في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ نَبَؤُا۟ ٱلْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا۟ ٱلْمِحْرَابَ ۝٢١﴾ [ص: ٢١]

لَمَّا زفت عروس النبوة إلى داود عليه السلام من خطبه، لُقن فصل الخطاب فلما اضطرب شجو شكره، سمع القبول من إقطاع: ﴿يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ﴾ [سبأ: ١٠]، فلما أعجبه تصحيح الصحو من خمر تجهز للجهاز على جرحى الزلل، فرماهم بسهم لا تغفر، والقدر قد ملئ له مما سيعض عليه الأنامل ملئ الإناء، فَابْتُلِيَ بِالذَّنْبِ، حَتَى نَكَسَ رَأْسَهُ عَلَى عَتَبَةِ النَّدَبِ، فدب إلى داود داء المعاصي دبيب الدباء من حيث ما دَبَّر، فرماه سهم القدر في ذرع الفتن، فما قدر الدراع على رده بدرع: ﴿وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ﴾ [سبأ: ١١].

[الرمل]

فَـإِذا سَـهْـمُ الْـمَـقَـادِيـرِ رَمَـى ... فَـدُرُوعُ الْـمَـرْءِ أَعْـوَانُ الـنِّـضَـالِ

ادعى لقوة عصمته لقاء قرن الهوى، فَلاحَتْ لَهُ فِي حِمَى دَعْوَاهُ حَمَاحِمَةٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَذَهَبَ ليصدها، فوقع في عين شرك عينه، فازدرى حرب النظر لقوة الاعتداد، فصارت نظرته سما لها عداد:

[الرجز]

ظَـنَّ غَـدَاةَ الْـبَـيْـنِ أَنْ قَـدْ سَـلَّـمَـا ... لَـمَّـا رَمَـى سَـهْـمًـا وَمَـا أَجْـرَى دَمَـا

فَـعَـادَ يَـسْـتَـقْـرِي حَـشَـاهُ فَـإِذَا ... فُـؤَادُهُ مِـنْ بَـيْـنِـهَـا قَـدْ عُـدِمَـا

لَـمْ يَـدْرِ مِـنْ أَيْـنَ أُصِـيـبَ قَـلْـبُـهُ ... وَإِنَّـمَـا الـرَّامِـي دَرَى كَـيْـفَ رَمَـى

تَغَلْغَل سَهْم تحت غِلالَةِ التعليل، فما أحس به مر المرء المرمي، فطاف على باب المريض طبيب الألطاف، فأراد استخراج النصل من باطن الشريان، فجثى على عتبة عتابه بأعتابه، ﴿لَا تَخَفْ ۖ خَصْمَانِ﴾ [ص: ٢٢]، فقضى داود على

نفسه في صريح: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ﴾ [ص: ٢٤]، فبينما هو يلاحظ لفظ القضية، المعا معاني المعاصي، فلما فطن داود: ﴿أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ﴾ [ص: ٢٤] وأحس حس السهم بعد السهو، فنزل المرء عن مركب العز إلى مس مسجد الذل، وافترش فراش من أساء في بيت الأسا، وخَلَعَ خِلَعَ الفرح لجلباب الحُزن، وزر زر زرمانقة الخوف على شعار القلق، فأسكت الحمائم بنوحه، وشغلها عن صدحها بصوته، فبالغ حريق الندم في سوائد قلبه، وأقلق القلوب بشجى شجنه، ومات خلق من الخلق بترنم شجوه، وشرب عرق العشب من عين عينه، فإذا هاج النحيب عن زفرة نفس أذنبت، هاج النبات بعد نضارته إذ نبت، وحشى سبعة فرش رمادًا، ثم فرشَها فرشها بماء رمى داء الحشا، كان يقول: (إِلَهِي خَرَجْتُ أَسْأَلُ أَطِبَّاءَ عِبَادِكَ يُدَاوُوا لِي جُرْحَ خَطِيئَتِي، فَكُلُّهُمْ يَدُلُّنِي عَلَيْكَ)، وَكَانُوا يُعَاتِبُونَهُ عَلَى كَثْرَةِ بِكَائِهِ، فَيَقُولُ: (دَعُونِي أَبْكِي قَبْلَ يَوْمِ الْبُكَاءِ).

[البسيط]

مَا يَرْحَمُ الْمُبْتَلَى مِمَّا أَلَمَّ بِهِ ... إلا فَتًى مُبْتَلا فِي مِثْلِ حَالَتِهِ

كان يقول في بكائه: (رَبِّ أَمِدْ عَيْنِي بِالدُّمُوعِ وَضَعْفِي بِالْقُوَّةِ، حَتَّى أَبْلُغَ رِضَاكَ عَنِّي)، ما قنع بدمعه لتراكم أدران الذنب، فسأل سيل مد المدد، ليتيقن طهارة النجس، ومذهب الْوَرِعِينَ الاحتياط، هب لي عينين هطالتين.

[البسيط]

يَا نَازِحًا نَزَحَتْ دَمْعِي قَطِيعَتُهُ ... هَبْ لِي مِنَ الدَّمْعِ مَا أَبْكِي عَلَيْكَ بِهِ
حَتَّى مَتَى زَفَرَاتِي فِي تَصَاعُدِهَا ... إِلَى الْمَمَاتِ وَدَمْعِي فِي تَصَوُّبِهِ
وَلِي فُؤَادٌ إِذَا طَالَ الْعَذَابُ بِهِ ... هَامَ اشْتِيَاقًا إِلَى لُقْيَا مُعَذِّبِهِ

ما زال يغسل العين من عين العين، ولسان العتاب يقول: يا بعد اللقا، وكلما رفع قصة غُصة جاء الجواب بزيادة الجوى، وهو ينوح، وينادي حتى أقلق الحاضر والبادي.

[مجزوء البسيط]

إِنَّ شَفِيعِي إِلَيْكَ مِنِّي ... دُمُوعَ عَيْنِي وَحُسْنَ ظَنِّي
فَبِالَّذِي قَادَنِي ذَلِيلا ... إِلَيْكَ إلا عَفَوْتَ عَنِّي

الفصل الثامن والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٠]

ومن أنعام الله تعالى على داود، أن أراه ولدًا يصلح أن يكون وراءه، فأفاض على الوالد حلة: ﴿وَوَهَبْنَا﴾ [ص: ٣٠]، وعلى الولد بحلية: ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٣٠]، وأقر عين أبيه في إصابة هدف أخطأه الأب يوم نضال: ﴿إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ﴾ [الأنبياء: ٧٨]، فراغ سهم داود، وقرطس سهم سليمان في غرض: ﴿فَفَهَّمْنَٰهَا﴾ [الأنبياء: ٧٩].

كان لداود سبعة عشر ذكرًا، ما ذكر في الذكر للذكرى سوى سليمان، وكذلك كان ليعقوب اثنا عشر ولدًا، فما عَلا عَلَى شُرَف الشَّرَف سوى يوسف عليه السلام، فَقَرَنَ لسليمان بعد أبيه بين الملك والنبوة، وضمت إليه فضيلة العلم مع منصب الأبوة، فما شغله ما مَلَكَ عن من مَلَكَ، بل قابل قبلة الشكر حتى أعجز الملك.

وَالأَوَّابُ: الرَّجَّاعُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ بِالتَّوْبَةِ

وَالْعَشِيُّ: مَا بَعْدَ الزَّوَالِ.

وَالصَّافِنَاتُ: الْخَيْلُ الْقَائِمَةُ عَلَى ثَلاثِ قَوَائِمَ، وَقَدْ أَقَامَتْ الأُخْرَى عَلَى طَرْفِ الْحَافِرِ مِنْ يَدٍ أَوْ رِجْلٍ، تُرَاوِحُ بَيْنَ قَوَائِمِهَا.

والخير[1] في القرآن على اثنى وعشرين وجهًا:

---

(١) الخَيْرُ: اسمٌ لكلِّ مَمْدوحٍ ومَرْغُوبٍ فيه. والخَيْرُ: الكَرَمُ. والاسْتِخَارَةُ أنْ تسألَ اللهَ تعالى خَيْرَ الأمْرين.

الأول: القـــرآن: ﴿يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [البـقـرة: ١٠٥].

الثاني: الأنفع: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

الثالث: المال: ﴿إِن تَرَكَ خَيْرًا﴾ [البقرة: ١٨٠].

الرابع: ضد الشر: ﴿بِيَدِكَ الْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الخامس: الصلاح: ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

السادس: الولد الصالح: ﴿وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ١٩].

السابع: العافية: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ﴾ [الأنعام: ١٧].

الثامن: المنافع: ﴿لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

التاسع: الإيمان: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [الأنفال: ٢٣].

العاشر: رُخص الأسعار: ﴿إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤].

الحادي عشر: النوافل: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ﴾ [الأنبياء: ٧٣].

الثاني عشر: الأجر: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ [الحج: ٣٦].

الثالث عشر: الأفضل: ﴿وَأَنتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١١٨].

الرابع عشر: العفة: ﴿ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ١٢].

الخامس عشر: الصلاح: ﴿إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

السادس عشر: الطعام: ﴿إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: ٢٤].

السابع عشر: الظفر: ﴿لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].

الثامن عشر: الخيل: ﴿إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢].

التاسع عشر: القوة: ﴿أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ﴾ [الدخان: ٣٧].

العشرون: حسن الأدب: ﴿لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾ [محمد: ٢١].

الحادي والعشرون: الإسلام: ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ [ق: ٢٥]، نزلت في الوليد ابن المغيرة، منع بني أخيه من الإسلام.

الثاني والعشرون: الدنيا: ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ٨].

قال المفسرون: والمراد بذكر ربه صلاة العصر: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾ [ص: ٣٢]؛ يعني: الشمس.

يا عجبًا لهذا المتيقظ طرأ عليه نسيان البشرية، فلهى عن صلاته لا أنه لهى، فثارت حمية النية الدينية لها، فصاح لسان العزم بفصيح عتاب النفس: ﴿إِنِّىٓ أَحْبَبْتُ حُبَّ ٱلْخَيْرِ﴾ [ص: ٣٢]، فأجابه الندم بعبارة الاستدراك: ﴿رُدُّوهَا عَلَىَّ﴾ [ص: ٣٣]، فجالت يد البطش بصارم: ﴿فَطَفِقَ مَسْحًۢا﴾ [ص: ٣٣]؛ أي: أقبل يمسح مسحًا، والسوق جمع ساق.

قَالَ الْحَسَنُ: (يَضْرِبُهَا بِالسَّيْفِ).

قَالَ وَهْبٌ: (فَشَكَرَ اللَّهُ تَعَالَى لَهُ ذَلِكَ، فَسَخَّرَ لَهُ الرِّيحَ مَكَانَهَا).

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤]، الفتنة(١) في القرآن على خمسة عشر وجهًا:

أحدها: الشرك: ﴿حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

الثاني: الكفر: ﴿ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ﴾ [آل عمران: ٧].

الثالث: القتل: ﴿أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟﴾ [النساء: ١٠١].

الرابع: الصد: ﴿وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ﴾ [المائدة: ٤٩].

الخامس: الضلالة: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ﴾ [المائدة: ٤١].

---

(١) قال ابن قتيبة: الفِتْنَةُ: الاخْتِبَارُ. يقال: فَتَنْتُ الذَّهَبَ في النَّارِ؛ إذا أَدْخَلْتَهُ إليها لتَعْلَمَ جَوْدَتَهُ من رَدَاءَتِه.

وقال ابن فارس: يقال: فَتَنَهُ وأَفْتَنَهُ. وأنكرَ الأصمعيُّ أَفْتَنَ.

والفَتَّانُ: الشَّيْطَانُ. وقَلْبٌ فَاتِنٌ؛ أي: مَفْتُونٌ.

قال الشاعر: [المتقارب]

رَخِيمُ الكَلامِ قَطِيعُ القِيَامِ... قَد امْسى فُؤَادِي بِهِ فَاتِنَا

السادس: المعذرة: ﴿ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ﴾ [الأنعام: ٢٣].

السابع: القضاء: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

الثامن: الإثم: ﴿أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ۗ﴾ [التوبة: ٤٩].

التاسع: المرض: ﴿يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ﴾ [التوبة: ١٢٦].

العاشر: العبرة: ﴿لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً﴾ [يونس: ٨٥].

الحادي عشر: العقوبة: ﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ [النور: ٦٣].

الثاني عشر: الاختبار: ﴿فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۖ﴾ [العنكبوت: ٣].

الثالث عشر: العذاب: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ١٠].

الرابع عشر: العرض: ﴿يَوْمَ هُمْ عَلَى ٱلنَّارِ يُفْتَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ [الذاريات: ١٣].

الخامس عشر: الجنون: ﴿بِأَييِّكُمُ ٱلْمَفْتُونُ ﴿٦﴾﴾ [القلم: ٦].

فلما زاد ملك سليمان على ملك الأب، آب إليه الأب، فدب عليل الآفات تحت غلائل الاختبار دبيب المُغَلْغِلَة، فتروى فتن الفتن، فَصَدَحَت ورق البلاء على ورق اللأوَاء، فنعق غراب البين بينها، فقام وسط مأتم ما تم: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ﴾ [ص: ٣٤]، فعل بعض ما لا يُسامح بمثله مثله، قعد العدو عند خاتمه، فلما حالت بالذنب حلية حُلته، خرج لما عرا عن العراء عن حلته، قد عرى بما عَرَّ عن شمل مملكته، فكان إذا استطعم لا يُطعم، وإن استرحم لا يُرحم، وخلفه خلفه خلف، فقام في مقام: ﴿وَأَلْقَيْنَا﴾ [ص: ٣٤]، فعسعس ليل البلاء أربعين ليلة، إلى أن تنفس صبح السلامة، وبث حيله فساح يومًا في فساح الساحل، فجاع فجاء يستطعم على شدة الفجائع، وقد كان يُشبع ألف جائع وألف جائع، فمشى على شق المشقة إلى السؤال، فنول حوتًا بكف النوال، فلما شقه فرج الفرج، فراج ما رجا، فلاج الخاتم من مطلع الفلاج، فولى راجعًا مراجعًا مطلقة الملك، فسخرت له الريح نقل بساطه، عن البسيطة جزاء انبساطه في غيره، وطفق وذللت له الشياطين وهم خدم يعملون له، وولى عليهم مُستعمل: ﴿وَمَن يَزِغْ﴾ [سبأ: ١٢]، فلما انتهى زمن ملكه

حل حُلل العزل إزار حُلة الولاية بأنامل: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ ٱلْمَوْتَ﴾ [سبأ: ١٤].

تالله لقد بلغت أمنيته حبها، إذ ملك شرق الأرض وغربها، غير أن تصريف ريح القدر ما قدر على دفعها، وشياطين الهوى ما قوى على منعها، وما بين مشرق الذنب ومغربه، ما دخل ملكة مُلكه، فسبحان من نقص المخلوقات لكماله، وخضعت رقاب الأقدار لعز جلاله.

الفصل التاسع والستون

في قوله عز وجل: ﴿وَٱذۡكُرۡ عَبۡدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]

كان لأيوب عليه السلام من المال ما لا يُعد، وردفه من الإحسان ما لا يُجد، فامتلأت له الأرض بالمدح والثناء، وسما اسمه إلى أهل السماء، لما شكره رفيق السراء، بعث إليه قرين الصراء، في أوائل البلاء، ليرى حاله في عصف عاصف اللأواء، كما شوهد أمره في رُخاء الرخاء، وكان سبب ابتلائه أن إبليس سمع مدحته من ملأ الملائكة، فأثار ذلك حسدًا قد تقادم منذ آدم، فقال: إن سلطتني عليه يا رب العالمين ألقيته في الفتنة، فألفيته في الفئة العاصية، فقال: قد سلطناك على مال من ماله، فمال إلى عفاريته، فجمعهم لكي يُسَيِّرَ كي الكيد معهم، فقال: أروني بسط الأيدي في بسط الأيد، فجالوا في الحال كالنار تشب، ثم ما لبثوا أن عادوا ماء يصيب، وبين إذ هم في الشرق إذا هم في الغرب، فأرسل زرافات آفات إلى من زرع زرعه، وبعث مزائلهم، فأبل بالبلاء إلى إبله، وسل طائفة فسلطهم فاغتنموا قتل غنمه، وأوصى الجماعة أن ينثروا عليه شرر الشر الجم جُملةً، فأقبلوا يخبرونه ليقرع الباب بالشكوى لما ناب، فكان جوابه ما لي أحزن على مالي، وما لي في مالي، وكيف لا أفرح وقد ثوى في دار الثواب، وتولى إبليس قِبَلَ بنيه، ثم أتى في صورة مُعلمهم يعلمه، فرأى ذلك لا يؤلمه، نصت العدو ليسمع عربدة السكر، فإذا أيوب يتلوا آيات الشكر، فصاح بلسان جسده سلطني على جسده، فلم يُسلط حتى أرسل الاصطبار، فنفخ تحت قدميه نفخةً كنفخة نار، فحك الجسد إلى أن سقطت الأظفار، ثم حكه بالمسوح ثم بالأحجار، فتقطع الجسم وداد، وما تقطع رسم الوداد، فأخرجه أهل قريته لقرحة قرحه إلى قرواح كناسة، فرموه كسيرًا كالكسرة، وكساء كساده عندهم، أعلى عندنا من أغلى

كسوة كِسرى، وتباعدوا عنه جاهلين بجاه " تَجِدُنِي عِنْدَ الْمُنْكَسِرَةِ "، وعموا عن مرتبة " أَنَا جَلِيسُ "، فلم يزل ما نزل به حتى بدى حجاب بطنه، فكان يُبصر عظامه، ويُرى معاة معًا، وإن كانت الدودة لتسقط من جسده، فيردها بيده، ويقول: كلي من رزق الإله إياك، وإن أبلغت في آذاك، فالقلب صابر على ذاك، فدام هذا البلاء عليه سنين، وفِدَام الصمت عن الشكوى في فِيهِ يَبِين، ولم يبق منه غير اللسان للذكر، والقلب للعرفان، والفكر والشكر، فلو أصغى إلى نطق حاله سمع فهم، أوسأله عن وجدانه، دق قلب لسمع من الذماء الذما، يُناجي به الحق لرأي ذو الرأي، أرى ما جنا من جنا الصبر.

[الطويل]

مَحَا بَعْدَكُمْ تِلْكَ الْعُيُونَ بُكَاؤُهَا وَغَالَ بِكُمْ تِلْكَ الأَضَالِعَ غَوْلُهَا

فَمِنْ نَاظِرٍ لَمْ تَبْقَ إلا دُمُوعُهُ وَمِنْ مُهْجَةٍ لَمْ يَبْقَ إلا غَلِيلُهَا

دَعُوا لِيَ قَلْبًا بِالْغَرَامِ أُذِيبُهُ عَلَيْكُمْ وَعَيْنًا فِي الطُّلُولِ أُجِيلُهَا

كان إبليس كلما أوقد نار اجتهاده في ضره، فاحت ريح الثناء، فراحت بالشقاء عن عود صبره.

[الكامل]

وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ نَشْرَ فَضِيلَةٍ طُوِيَتْ أَتَاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُودِ

لَوْلا اشْتِعَالُ النَّارِ فِيمَا جَاوَرَتْ مَا كَانَ يُعْرَفُ طِيبُ عَرْفِ الْعُودِ

فلما كاع إبليس لقى زوجته في صورة مُتطببٍ، فقال: عندي دواءه إن اشتراه مني باشتراط أن يقول بشفته أنت شفيتني، فجاءت تدب وقد أنساها البلاء تدبر المعنى، فأخبرت بهذا الخبر من قد خبر عدو العدو، فغضب المؤدب على تلميذ ما تَقَوَّمَ بطول الصحبة، فحلف إن شفي ليجلدنها مائة، فبينما المرء في مكايدة المرأة، إذ مر به إخوان له، فقالوا: لو علم الله فيه خيرًا ما بلغ به هذا الأمر، فما شد على سمعه أشد من ذلك، فخر ساجدًا على عتبة: ﴿فَلَا تُشْمِتْ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، فاستغاث بلفظ: ﴿مَسَّنِيَ﴾ [الأنبياء: ٨٣]، وصاح بإدلال " لَوْ أَقْسَمَ "، فجاء جبريل عليه السلام برسالة: ﴿ٱرْكُضْ﴾

[ص: ٤٢]، تالله ليس العجب أن يركض جبريل، إنما العجب أن يركض العليل، فركضت خيل النعم عند ركضته، فعدت وما غار الماء ما أُغير عليه من نعمته، وانقشع غيم البلاء بشمال: ﴿فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ﴾ [الأنبياء: ٨٤].

وأحيا الإله إحياء أهله، وجمعهم ومثلهم معهم، فنسى بنسيم العافية، مَا أَلَمَّ مِنْ أَلَم، وردت يد المنه كلما مَرَّ منه، وذهب وكان نثار الرضا على رضراض أرضه، بعد أن جرى داء جرادًا من ذهب، فجاءت رحمة وقد سبقتها الرحمة إلى كناسته، فَرَأَتْ شَخْصًا عجيبًا من حلية حلته، فقالت: يا عبد الله، أين ذاك المُبتلى، فقال: ويحك إنما هو أنا، فقالت: لا تسخر مني يا فتى، قال: لا تعجبين من فرج قد أتى، وبقيت عليه اليمين في ضربها، وما كان يحسن في مقابلة صبرها أن يضربها، فأقبل لسان الوحي يتلوا فتوى الرحمة، ويُراعي ما سبق من مراعاة رحمه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ﴾ [ص: ٤٤].

تالله ما ضره ما أكل من جسده الدود، لما اختال في ثوب مودود، لقد أصبح مُصطبحًا شراب السرور من جود الجود، ورنت قباب الفرح إذ غنت ألسنة المدح لا يعود، وفاح عنبر الثناء، فزاد نشره على كل عود: ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًاۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ﴾ [ص: ٤٤].

الفصل السبعون

في قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝١﴾ [الزمر: ١]

قال الخطابي: العز في كلام العرب على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى الغلبة، تقول: (من عَزَّ بَزَّ؛ أي: من غلب سلب)، يقال منه عَزَّ يعُز بضم العين من يعز .

الثاني: بمعنى: الشدة والقوة، يقال منه: عَز يعَزُ بفتح العين من يَعَز .

الثالث: أن يكون بمعنى: منافسة القدر، يقال: عز يعز، وقيل: معنى العزيز على أنه لا يُعاد له شيء.

وفي الحكيم قولان:

أحدهما: أنه بمعنى الحاكم .

الثاني: بمعنى الحَكم.

قوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [النساء: ١٠٥] كل ما في القرآن أنزلنا إليك إلا أربعة أحرف:

في النحل: ﴿وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ [النحل: ٦٤]، وفيها: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ [النحل: ٨٩].

وفي العنكبوت: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [العنكبوت: ٥١].

وفي الزمر: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ لِلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾ [الزمر: ٤١].

قوله تعالى: ﴿فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ﴾ [الزمر: ٢]؛ أي: توحده لا تشرك به شيئا.

واعلم أن الإخلاص فعل القلب، يريد وجه الحق عز وجل وحده، لا يريد بالفعل محمدة مخلوق.

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّمَا الأعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "(١).

قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (يَدْخُلُ هَذَا الْحَدِيثُ فِي سَبْعِينَ بَابًا مِنَ الْفِقْهِ).

وَقَالَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أُصُولُ الإسْلام عَلَى ثَلاثَةِ أَحَادِيثَ: " الأعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "، وَ " الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ "(٢)، وَ " مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ(٣) ").

قَالَ أَبُو دَاوُدَ السِّجِسْتَانِيُّ: (الْفِقْهُ يَدُورُ عَلَى ثَلاثَةِ أَحَادِيثَ:

" الأعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "، وَ "الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ "، وَ " مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ فَاجْتَنِبُوهُ، وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ "(٤)، وَ " لا ضَرَرَ

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٥٥١، رقم ٦٥٥٣)، ومسلم (٣/ ١٥١٥، رقم ١٩٠٧)، وأبو داود (٢/ ٢٦٢، رقم ٢٢٠١)، والترمذى (٤/ ١٧٩، رقم ١٦٤٧) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٧/ ١٣، رقم ٣٧٩٤)، وابن ماجه (٢/ ١٤١٣، رقم ٤٢٢٧)، وابن الجارود (ص ٢٧، رقم ٦٤).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ٢٧٠، رقم ١٨٣٩٨)، والبخارى (١/ ٢٨، رقم ٥٢)، ومسلم (٣/ ١٢١٩، رقم ١٥٩٩)، وأبو داود (٣/ ٢٤٣، رقم ٣٣٢٩، رقم ٣٣٣٠)، والترمذى (٣/ ٥١١، رقم ١٢٠٥) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٧/ ٢٤١، رقم ٤٤٥٣)، وابن ماجه (٢/ ١٣١٨، رقم ٣٩٨٤)، وأخرجه أيضًا: الدارمى (٢/ ٣١٩، رقم ٢٥٣١)، والبيهقى (٥/ ٢٦٤، رقم ١٠١٨٠).

(٣) أخرجه أحمد (٦/ ١٤٦، رقم ٢٥١٧١)، ومسلم (٣/ ١٣٤٣، رقم ١٧١٨). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٤/ ١٧١، رقم ٦٤٠٩)، والدارقطنى (٤/ ٢٢٧).

(٤) أخرجه مسلم (١/ ٩٩، رقم ١٠٢). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (١١/ ٣٩٩، رقم ٦٥٢٠)، وابن حبان (١١/ ٢٧٠، رقم ٤٩٠٥)، وابن منده (٢/ ٦١٦، رقم ٥٥١)، والبيهقى (٥/ ٣٢٠، رقم ١٠٥١٤).

وَلا إِضْرَارَ "[١]، وَ" الدِّينُ النَّصِيحَةُ[٢] ").

وَقَالَ أَبُو دَاوُدَ: (كَتَبْتُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَمْسَ مَائَةِ أَلْفِ حَدِيثٍ، انْتَخَبْتُ مِنْهَا مَا ضَمَّنْتُهُ كِتَابَ السُّنَنِ، وَيَكْفِي الإِنْسَانَ أَرْبَعَةُ أَحَادِيثَ: " الأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ "، وَ " مِنْ حُسْنِ إِسْلامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لا يَعْنِيهِ "[٣]، وَ " لا يَكُونُ الْمُؤْمِنُ مُؤْمِنًا حَتَّى يَرْضَى لأَخِيهِ مَا يَرْضَى لِنَفْسِهِ "، وَ " الْحَلالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ ").

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أَبِي مُوسَى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ قَاتَلَ لِتَكُونَ كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، فَهُوَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ "[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (١/ ٣١٣، رقم ٢٨٦٧)، وابن ماجه (٢/ ٧٨٤، رقم ٢٣٤١) قال البوصيرى (٣/ ٤٨): هذا إسناد فيه جابر (يعنى الجعفى) وقد اتهم. والطبرانى (١١/ ٢٢٨، رقم ١١٥٧٦).

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٠٢، رقم ١٦٩٨٢)، ومسلم (١/ ٧٤، رقم ٥٥)، وأبو داود (٤/ ٢٨٦، رقم ٤٩٤٤)، والنسائى (٧/ ١٥٦، رقم ٤١٩٧)، وأبو عوانة (١/ ٤٤، رقم ١٠١)، وابن خزيمة فى السياسة كما فى إتحاف المهرة للحافظ (٣/ ٨، رقم ٢٤٥٦)، وابن حبان (١٠/ ٤٣٥، رقم ٤٥٧٤)، والبغوى فى الجعديات (١/ ٣٩٢، رقم ٢٦٨١) وابن قانع (١/ ١٠٩)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٣٢٣، رقم ٥٢٦٥)، وأبو نعيم فى المعرفة (١/ ٤٤٩، رقم ١٢٩١). وأخرجه أيضًا: الطبرانى (٢/ ٥٤، رقم ١٢٦٧)، وابن عساكر (١١/ ٥٤).

(٣) أخرجه الترمذى (٤/ ٥٥٨ رقم ٢٣١٧) وقال: غريب. وابن ماجه (٢/ ١٣١٥، رقم ٣٩٧٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٤/ ٢٥٥، رقم ٤٩٨٧). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١/ ٤٦٦، رقم ٢٢٩)، وابن عساكر (٤١/ ٤٢٦).

(٤) أخرجه البخارى (٦/ ٢٧١٤، رقم ٧٠٢٠)، ومسلم (٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٤)، وأبو داود (٣/ ١٤، رقم ٢٥١٧) والترمذى (٤/ ١٧٩، رقم ١٦٤٦) وقال: حسن صحيح. والنسائى (٦/ ٢٣، رقم ٣١٣٦)، وابن ماجه (٢/ ٩٣١، رقم ٢٧٨٣). وأخرجه أيضًا: الطيالسى (ص ٦٦، رقم ٤٨٦)، وعبد بن حميد (ص ١٩٥، رقم ٥٥٣)، والبزار (٨/ ٣٠، رقم ٣٠١٠)، وأبو يعلى (١٣/ ٢٣٤، رقم ٧٢٥٣)، وأبو عوانة (٤/ ٤٨٧، رقم ٧٤٣٥)، وابن حبان (١٠/ ٤٩٣ رقم ٤٦٣٦) والبيهقى فى السنن الكبرى (٩/ ١٦٧ رقم ١٨٣٢٥)، وفى شعب الإيمان (٤/ ٣٠، رقم ٤٢٦٣).

وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى فِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثَلاثَةٌ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: وَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى قُتِلْتُ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِيُقَالَ هُوَ جَرِيءٌ وَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا. قَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ فِيكَ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ. فَقَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ لِيُقَالَ هُوَ عَالِمٌ، وَقَدْ قِيلَ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ هُوَ قَارِئٌ وَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ. وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهَا فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، فَقَالَ: مَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ. قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ ذَلِكَ لِيُقَالَ هُوَ جَوَادٌ، وَقَدْ قِيلَ ثُمَّ أَمَرَ بِهِ فَيُسْحَبُ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ "(١).

وَفِي أَفْرَادِ مُسْلِمٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: " أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ فَمَنْ عَمِلَ لِيْ عَمَلا وَأَشْرَكَ فِيهِ غَيْرِيْ، فَأَنَا مِنْهُ بَرِيْءٌ وَهُوَ لِلَّذِيْ أَشْرَكَ "(٢).

وَرَوَى مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: " الرِّيَاءُ يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمُ، اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانْظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً؟! "(٣).

قَالَ عَبْدُ الْعَزِيزِ بْنُ أَبِي رَوَّادٍ: أَدْرَكْتُهُمْ وَهُمْ مُجْتَهِدُونَ فِي الأَعْمَالِ، فَإِذَا

---

(١) أخرجه مسلم (٣/ ١٥١٣، رقم ١٩٠٥)، والنسائي (٦/ ٢٣، رقم ٣١٣٧).

(٢) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢٨٩، رقم ٢٩٨٥)، وابن ماجه (٢/ ١٤٠٥، رقم ٤٢٠٢).

(٣) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، رقم ٢٣٦٨٠). قال المنذرى (١/ ٣٤): إسناده جيد. وقال الهيثمى (١/ ١٠٢): رجاله رجال الصحيح.

بَلَغُوا أُلْقِيَ عَلَيْهِمُ الْحُزْنَ، فَإِنَّهُمْ لا يَدْرُونَ قُبِلَتْ مِنْهُمْ أَوْ رُدَّتْ عَلَيْهِمْ.

يا هذا متى يتخلص رأيك من الرياء، فتستخرج خلاصة الإخلاص، فتقابل بها قبلة المقبول، فإنه لا ينظر إلى صوركم، رب صائم كَضَّهُ العطش حَضَّهُ التعب، ورب قائم نصيبه السهر والنصب، رفعا أَقِصَّةِ الطلب في أكف العمل، فوقع عليها: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا﴾ [الحج: ٣٧]، كم من أعمال يُصاب ظاهرها عند ظهورها، حتى يُخيل إلى عاملها أنها تسعى به إلى الخلاص، فإذا ألقى موسى السؤال حية المناقشة إذا هي تلقف ما يأفكون، فانهزم فرعون الرياء، ﴿وَبَدَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا۟ يَحْتَسِبُونَ﴾ [الزمر: ٤٧].

كَانَ الْفُضَيْلُ بْنُ عِيَاضٍ يَقُولُ: (يَا لَيْتَنِي أَمُوتُ وَأَنَا مُخْلِصٌ، أَخَافُ أَنْ أَمُوتَ وَأَنَا مُرَائِي، فَيُقَالُ لِي: خُذْ ثَوَابَ عَمَلِكَ مِمَّنْ عَمِلْتَ لَهُ).

وَقَالَ ابْنُ أَبِي الْحَوَارِيِّ: قُلْتُ لأَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارِيِّ: (قَدْ نَصِبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، فَقَالَ: بِأَيِّ شَيْءٍ، فَقُلْتُ: بِثَلاثِ مِائَةٍ وَأَرْبَعِ مِائَةِ سَنَةٍ، يَحْيَى أَحَدُهُمْ، فَيَصِيرُ كَالشَّنِّ الْبَالِي وَكَالأَوْتَادِ، فَقَالَ: ظَنَنْتُ أَنَّكَ جِئْتَنَا بِشَيْءٍ، وَاللَّهِ مَا يُرِيدُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْ تَيْبَسَ جُلُودُنَا، وَلا يُرِيدُ مِنَّا إِلا الصِّدْقَ وَالاسْتِقَامَةَ، وَمَنْ صَدَقَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ فِي عَشْرَةِ أَيَّامٍ، نَالَ مَا نَالَ أُولَئِكَ فِي عُمْرِهِمْ).

لما خافت نفوس الصالحين من الرياء، خافت بشأن جهرها بالطاعة، حذروا على إحمال الأعمال من ماضر الرياء، فأدلجوا في ليل الكتم بالامتثال تحت خيم الصوم والسهر، فرافقوا رفقة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]، والإيثار تحت طي: " فَلا تَعْلَمُ شِمَالُهُ مَا أَنْفَقَتْ يَمِينُهُ! "[(١)]، فوقع الجزاء بمثله، ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم﴾ [السجدة: ١٧].

ولقد قرئ على الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه أن طاوسًا كان يكره الأنين للمريض، فما أَنَّ حتى مات.

[المتقارب]

تَـمُـوتُ الـنُّـفُـوسُ بِـأَوْصَـابِـهَـا وَتَـكْـتُـمُ عُـوَّادُهَـا مَـا بِـهَـا

(١) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (٣/ ٢٤٣، رقم ٣٤٣٩).

وَمَا أُنْصِفَتْ مُهْجَةٌ تَشْتَكِي هَوَاهَا إِلَى غَيْرِ أَحْبَابِهَا

كان أحد السلف يتزهد عشرين سنةً لا يعلم به جاره، ويُصلي بالليل عشرين سنةً لا تعلم به امرأته، ويقف في الصف ودموعه تجري فلا يشعر به من إلى جنبه.

[الرجز]

أَحْبِسُ دَمْعِي فَيَظَلُّ شَارِدًا كَأَنَّنِي أَضْبِطُ عَبْدًا آبِقًا

وَمِنْ مُحَاشَاةِ الرَّقِيبِ خِلْتَنِي يَوْمَ الرَّحِيلِ فِي الْهَوَى مُنَافِقًا

وَلَقَدْ صَامَ دَاوُدُ الطَّائِيُّ أَرْبَعِينَ سَنَةً لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَهْلُهُ، كَانَ خَزَّازًا، وَكَانَ يَحْمِلُ غَدَاؤُهُ مَعَهُ، فَيَتَصَدَّقَ بِهِ فِي الطَّرِيقِ، يَرْجِعُ إِلَى أَهْلِهِ، فَيَفْطِرُ عِنْدَهُمْ، فَلا يَعْلَمُونَ صَوْمَهُ.

وَكَذَلِكَ صَامَ دَاوُدُ بْنُ أَبِي هِنْدَ أَرْبَعِينَ سَنَةً، لَمْ يَعْلَمْ بِهِ أَهْلُهُ.

وَكَانَ أَيُّوبُ السِّخْتِيَانِيُّ إِذَا حَدَّثَ بِالرَّقَائِقِ فَجَاءَهُ الْبُكَاءُ مَسَحَ أَنْفَهُ وَقَالَ: مَا أَشَدَّ الزُّكَامَ، وَكَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ كُلَّهُ، فَإِذَا كَانَ عِنْدَ الصَّبَاحِ رَفَعَ صَوْتَهُ كَأَنَّهُ قَدْ قَامَ تِلْكَ السَّاعَةَ.

[البسيط]

أُكَلِّفُ الْقَلْبَ أَنْ يَهْوَى وَأُلْزِمُهُ صَبْرًا وَذَلِكَ جَمْعٌ بَيْنَ أَضْدَادِ

وَأَكْتُمُ الرَّكْبَ أَوْطَارِي وَأَسْأَلُهُمْ حَاجَاتَ نَفْسِي لَقَدْ أَتْعَبْتُ رُوَّادِي

هَلْ مُدْلِجٌ عِنْدَهُ مِنْ مُبَكِّرٍ خَبَرٌ وَكَيْفَ يَعْلَمُ حَالَ الرَّايِحِ الْغَادِي

فَإِنْ رُوِيَتْ أَحَادِيثُ الْغَرَامِ وَمَا تَجْنِي النُّفُوسُ فَعَنْ عَيْنَيْكَ إِسْنَادِي

كَانَ حَسَّانُ بْنُ أَبِي سِنَانٍ يَشْتَرِي أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُعْتِقُهُمْ وَلا يُعْلِمُهُمْ مَنْ هُوَ!

وَلَقَدِ اشْتَهَرَ أَمْرُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ أَدْهَمَ بِبَلَدٍ، فَقِيلَ هُوَ فِي بُسْتَانِ فُلانٍ، فَدَخَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ عَلَيْهِ، وَيَقُولُونَ: أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ؟ فَجَعَلَ يَطُوفُ مَعَهُمْ، وَيَقُولُ: أَيْنَ إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَدْهَمَ؟!

وَمَرَضَ، فجعل عنده الحلوى وغيرها، وَيُوهِمُ النَّاسَ أَنَّهُ مُعَافًا، هَذِهِ وَاللَّهِ بَهْرَجَة، أصح من نقدك، تَاللَّهِ مَا قَلْبُكَ إِبْرَاهِيم، بل أدهم.

[البسيط]

ضَنًّا بِأَنْ يَعْلَمُ النَّاسُ الْهَوَى لِمَنْ وَهَبْتُ لِلسِّرِّ فِيهِ لَذَّةَ الْعَلَنِ
عَرِّضْ بِغَيْرِي وَدَعْنِي فِي ظُنُونِهِمُ إِنْ قِيلَ مَنْ يَكُ يُخْفِي الْحَقَّ فِي الظِّنَنِ

أين المخلصون؟ ! أين الزهاد؟ ! أين المحزونون مع الاجتهاد؟ ! رحل القوم وذهب السلف، ونزل الخلق منزل التلف.

[الوافر]

وَفِي الأَحْبَابِ مَخْصُوصٌ بِوَجْدٍ وَآخَرُ يَدَّعِي مَعَهُ اشْتِرَاكَا
إِذَا اشْتَبَكَتْ دُمُوعٌ فِي خُدُودٍ تَبَيَّنَ مَنْ بَكَى مِمَّنْ تَبَاكَى

أسمع أصواتًا بلا أنيس، وأرى خشوعًا أصله من إبليس.

[الكامل]

أَمَّا الْخِيَامُ فَإِنَّهَا كَخِيَامِهِمْ وَأَرَى نَسَاءَ الْحَيِّ غَيْرَ نِسَائِهَا

تشبهوا بالعباد في أثوابهم، وتخاشعوا لا والله ما بهم، وسهروا لِيَذُمْ لهم الناموس، وسعوا في عمارة أبدانهم ولا جاسوس، فهم الزهاد ما لم ينزلهم الدينار، ودعواهم لا يقولها ابن دينار، وإنهم في التهافت على جمع الأحجار، ذباب طمع وفراش نار، يتشبهون بالماضين وليسوا منهم، وقد سمعوا منهم فلم يحفظوا عنهم.

[الرجز]

تَشَبَّهَتْ حُورُ الظِّبَا بِهِمْ مُذْ سَكَنْتَ قَلْبِي وَلا مَثْل سَكَنْ
أَصَامِتٌ بِنَاطِقٍ وَنَافِرٌ بِآنِسٍ وَذُو خِلا بِذِي شَجَنْ
مُشْتَبِهًا أَعْرِفُهُ وَإِنَّمَا مُغَالِطًا قُلْتُ لِصَحْبِي دَارُ مَنْ
قِفْ بَاكِيًا فِيهَا وَإِنْ كُنْتَ أَخًا مُوَاسِيًا فَبَكِّهَا عَنْكَ وَعَنْ
لَمْ يَبْقَ لِي يَوْمَ الْفِرَاقِ فَضْلَةٌ مِنْ أَدْمُعٍ أَبْكِي بِهَا عَلَى الزَّمَنْ

الفصل الحادي والسبعون

في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْأَخِرَةَ﴾ [الزمر:٩]

اختلفوا فيمن نزلت هذه الآية على خمسةٍ أقوال:

أحدها: أنه أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه، قاله ابن عباس.

الثاني: عثمان رضي الله عنه، قاله ابن عمر.

الثالث: عمار، قاله مقاتل.

الرابع: ابن مسعود، وعمار، وصُهيب، وأبو ذر، قاله ابن السائب.

الخامس: رسول الله صلى الله عليه وسلم، قاله ابن سلام.

وقرأ ابن كثير، ونافع، وحمزة (أَمَنْ) بالتخفيف، والباقون بالتشديد، فمن شدد، فالمعنى: أهذا المذكور في قوله: ﴿وَجَعَلَ لِلَّهِ أَندَادًا﴾ [الزمر: ٨] خير، ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ [الزمر: ٩].

وفي المخففة ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها بمعنى النداء(١): (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ) أَبْشِر.

---

(١) قال أبو جعفر النحاس: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ﴾ قراءة الحسن، وأبي عمرو، وأبي جعفر، وعاصم، والكسائي؛ وقرأ نافع، وابن كثير، ويحيى بن وثاب، والأعمش، وحمزة: "أَمَنْ هو" وحكى أبو حاتم، عن الأخفش قال: من قرأ في الزمر: " أَمَنْ هو " بالتخفيف، فقراءته ضعيفة؛ لأنه استفهام ليس معه خبر، قال أبو جعفر: هذا لا يلزم، وقد أجمعوا جميعا على أن قرءوا: " أفمن شرح الله صدره للإسلام " وهو مثله؛ وفي القراءة بالتخفيف وجهان حسنان في العربية، وليس في القراءة الأخرى إلا وجه واحد.

فأحد الوجهين: أن يكون نداء؛ كما يقال: يا زيد أقبل؛ ويقال: أزيد أقبل؛ حكى ذلك =

الثاني: (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ) كمن ليس بقانت.

الثالث: (أَمَنْ هُوَ قَانِتٌ) كم جعل لله أندادًا.

والقنوت: الطاعة.

﴿يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [الزمر: ٩]؛ أي: عذابها والرحمة والمغفرة، وقيل الجنة.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]، إنما وعد الله حق.

إخواني طلب العلم أكبر الفضائل وأزكى المناقب.

قَالَ زِرٌّ: أَتَيْتُ صَفْوَانَ بْنِ عَسَّالٍ، فَقَالَ: مَا جَاءَ بِكَ؟ فَقُلْتُ: ابْتِغَاءَ الْعِلْمِ. فَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " إِنَّ الْمَلائِكَةَ

= سيبويه وجميع النحويين، كما قال: أبني لبينى لستم بيد... إلا يدا ليست لها عضد
وكما يقال: فلان لا يصلي ولا يصوم، أمن يصلي ويصوم أبشر؟

والوجه الآخر: أن يكون في موضع رفع بالابتداء، والمعنى معروف؛ أي: أمن هو قانت آناء الليل أفضل، أم من جعل لله أندادا؟. والتقدير: الذي هو قانت.

ومن قرأ: " أمَن هو " فتقديره: أم الذي هو قانت أفضل ممن ذُكِروا؟

بمعنى: (أبلْ)؛ فأما معنى (قانت) فيما رواه عمرو بن الحارث، عن دراج، عن أبي الهيثم، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: " كل قنوت في القرآن؛ فهو طاعة لله جل وعز "، وروى الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر أنه قال: " سئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الصلاة أفضل؟ قال: " طول القنوت "، فتأوله جماعة من أهل العلم على أنه طول القيام، وروى عبد الله، عن نافع، عن ابن عمر: سئل عن القنوت قال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام وقراءة القرآن، وقال مجاهد: من القنوت طول الركوع وغض البصر، وكان العلماء إذا وقفوا في الصلاة غضوا أبصارهم وخضعوا، ولم يلتفتوا في صلاتهم، ولم يعبثوا، ولم يذكروا شيئا من أمر الدنيا إلا ناسين، قال أبو جعفر: أصل هذا أن القنوت الطاعة، وكل ما قيل فيه فهو طاعة الله جل وعز، وهذه الأشياء كلها داخلة في الطاعة، وما هو أكثر منها، كما قال نافع، وقال لي ابن عمر: قم فصل، فقمت أصلي، وكان علي ثوب حلقٌ، فدعاني، فقال لي: أرأيت لو وجهتك في حاجة وراء الجدار أكنت تمضي هكذا؟ فقلت: لا؛ كنت أتزين، قال: فالله أحق أن يُتزين له.

لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًى لِطَالِبِ الِعِلْمِ بِمَا يَصْنَعُ "[١].

وَفِي حَدِيثِ أَبِي الدَّرْدَاءِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجنَّةِ وَإِنَّ الْمَلائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ الْعِلْم. وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ، الْحِيتَانُ فِي الْمَاءِ. وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى الْكَوَاكِبِ "[٢].

جملة ما روى أبو الدرداء تسعة وسبعون حديثًا، أُخرج له منها في "الصحيحين" ثلاث عشر حديثًا، المتفق عليه منها حديثان، وانفرد البخاري بثلاثة، ومسلم بثمانية.

وأبو الدرداء من كبار علماء أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومن حفاظ القرآن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذين جمعوه حفظًا في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: عثمان، وأُبي، ومُعاذ، وأبو الدرداء، وزيد بن ثابت، وأبو زيد الأنصاري، واختلف في أبي زيد الأنصاري، وعبادة بن الصامت، وتميم الداري.

ولم يحفظ القرآن من الخلفاء إلا عثمان بن عفان والمأمون.

وكان كُتاب الوحي أحد عشر رجلا:

أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وأُبي، وزيد، ومعاوية، وحنظلة بن الربيع، وخالد بن سعيد بن العاص، وأبان، وابن مسعود، والعلاء بن الحضرمي، رضوان الله عليهم، غير أن المداوم على الكتابة زيد ومعاوية.

وكان يُفتي في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة عشر رجلا:

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ١٩٦، رقم ٢١٧٦٣)، وأبو داود (٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤١)، والترمذى (٥/ ٤٨، رقم ٢٦٨٢) وقال: لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث عاصم بن رجاء بن حيوة وليس هو عندى بمتصل. ثم أورد له إسنادًا وقال هذا أصح. وابن ماجه (١/ ٨١، رقم ٢٢٣)، وابن حبان (١/ ٢٨٩، رقم ٨٨)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ٢٦٢، رقم ١٦٩٦).

(٢) أخرجه أبو داود (٣/ ٣١٧، رقم ٣٦٤٣)، والحاكم (١/ ١٦٥، رقم ٢٩٩).

أبو بكرٍ، وعمر، وعثمان، وعلي، وعبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود، وعمار، وأُبي، ومعاذ، وسلمان، وأبو موسى، وحذيفة، وأبو الدرداء، وزيد، رضوان الله عليهم.

وما أفتى أحد منهم بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم إلا أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ: (انْتَهَى عِلْمُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الأَحْكَامِ إِلَى ثَلاثَةٍ: ابْنِ مَسْعُودٍ، وَزَيْدٍ، وَابْنِ عَبَّاسٍ).

وأخذ عن ابن مسعود ستة: علقمة، والأسود، وعبيدة، ومسروق، والحارث بن قيس، وعمر بن شرحبيل، وانتهى علم هؤلاء إلى النخعي والشعبي، ثم انتهى إلى إسحاق والأعمش، ثم انتهى إلى الثوري.

وأخذ عن زيد أحد عشر رجلا:

قبيصة، وخارجة، وعبيد الله بن عبد الله، وعروة، وأبو سلمة، وأبو بكر ابن عبد الرحمن، والقاسم، وسالم، وابن المسيب، وأبان بن عثمان، وسليمان بن يسار، ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى الزُهري، وأبي الزناد، وبكير الأشج، ثم صار علم هؤلاء كلهم إلى ابن مالك.

وصار علم ابن عباسٍ إلى ستة: سعيد بن جبير، وعطاء بن رباح، وعكرمة، ومجاهد، وطاوس، وجابر بن زيد، وصار علم هؤلاء إلى عمرو بن دينار.

قال العلماء: انتهت الدعوى في المدينة إلى سبعة: سعيد بن المسيب، والقاسم، وأبي بكر بن عبد الرحمن، وخارجة، وعبيد الله، وعروة، وسليمان ابن يسار.

وَقَالَ عَبَّاسٌ الدَّوْرِيُّ: (انْتَهَى عِلْمُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى سِتَّةٍ: عُمَرَ، وَعَلِيٍّ، وَابْنِ مَسْعُودٍ، وَأُبَيٍّ، وَمُعَاذٍ، وَزَيْدٍ، وَهَؤُلاءِ طَبَقَاتِ الْفُقَهَاءِ).

وأما الرواة فستة: أبو هريرة، وأنس، وجابر، وابن عمر، وأبو سعيد، وعائشة رضي الله عنها.

وأما طبقات أصحاب الأخبار والقصص فستة:

عبد الله بن سلام، وكعب، ووهب، وطاوس، وابن إسحاق، والواقدي.

وأما طبقات أهل التفسير فستة: ابن عباس، وسعيد بن جبيرٍ، ومُجاهد، وقتادة، والضحاك، والسُدي.

وأما خزان العلم فستة: الأعمش، ومالك، والأوزاعي، والثوري، ومسعر، وشعبة.

وأما طبقات الحفاظ فستة: أحمد بن حنبل رضي الله عنه، ويحيي بن معين، وعلي بن المديني، وأبو زرعة، والبخاري، ومُسلم.

وَقَالَ ابْنُ عُيَيْنَةَ: (مُحَدِّثُو النَّاسِ ثَلاثَةٌ: ابْنُ عَبَّاسٍ فِي زَمَانِهِ، وَالشَّعْبِيُّ فِي زَمَانِهِ، وَالثَّوْرِيُّ فِي زَمَانِهِ).

وَقَالَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ: (أَمْلَى عَلَيَّ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ حِفْظًا).

عبد الرحمن بن مهدي اثنان، أحدهما: الذي حكينا عنه، وهو يروي عن شعبة ومالك، الثاني: روى عن الفضيل بن عياض.

ولقد كتب المحدثون عن أبي داود الطيالسي أربعين ألف حديث وليس معه كتاب، وَسَأَلَ رَجُلٌ أَبَا زُرْعَةَ، فَقَالَ: مَا تَقُولُ فِي رَجُلٍ حَلَفَ بِطَلاقِ امْرَأَتِهِ أَنَّكَ تَحْفَظُ مِائَةَ أَلْفَ حَدِيثٍ، فَأَطْرَقَ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ: (اذْهَبْ، فَإِنَّكَ بَارٌّ فِي يَمِينِكَ، وَقَالَ: أَحْفَظُ مِائَتَي أَلْفِ حَدِيْثٍ، كَمَا يَحْفَظُ الإنسَانُ: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]).

وَقَالَ يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ: (أَحْفَظُ لِلشَّامِيِّينَ عِشْرِينَ أَلْفَ حَدِيثٍ).

وَنُقِلَ عَنِ الإمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ، أَنَّهُ كَانَ يَحْفَظُ أَلْفَ حَدِيثٍ.

واعلم أنما برز هؤلاء في العلم بعلمهم بفضله.

وَقَدْ رُوَى النُّعْمَانُ بْنُ بَشِيرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "يُوزَنُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ وَدَمُ الشُّهَدَاءِ، فَيَرْجَحُ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ "[1].

---

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٨١، رقم ٨٥) وقال: هذا لا يصح. قال المناوى (٦/ ٤٦٦): قال الزين العراقى: سنده ضعيف.

وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ: لَيْسَ بَعْدَ الْفَرَائِضِ أَفْضَلَ مِنْ طَلَبِ الْعِلْمِ.

وَقَالَ يُوسُفُ بْنُ أَسْبَاطٍ: بَابٌ مِنَ الْعِلْمِ أَفْضَلَ مِنْ سَبْعِينَ غَزْوَةٍ.

وَقَالَ الْمُعَافَى بْنُ عِمْرَانَ: كِتَابَةُ حَدِيثٍ وَاحِدٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنْ صَلاةِ لَيْلَةٍ.

والمعافى بن عمران رجلان: أحدهما هذا وهو صاحب الثوري، والثاني: روى عن مالك.

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ، فَقَالَ: أَنْسَخُ بِاللَّيْلِ، أَوْ أُصَلِّي؟ فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ مُتَعَلِّمًا فَانْسَخْ.

وَقَالَ كُمَيْلُ بْنُ زِيَادٍ أَخَذَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَأَخْرَجَنِي إِلَى نَاحِيَةِ الْجَبَّانِ؛ فَلَمَّا أَصْحَرْنَا جَلَسَ، ثُمَّ تَنَفَّسَ، ثُمَّ قَالَ: (يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ، إِنَّ هَذِهِ الْقُلُوبَ أَوْعِيَةٌ فَخَيْرُهَا أَوْعَاهَا، احْفَظْ مَا أَقُولُ لَكَ: النَّاسُ ثَلاثَةٌ: عَالِمٌ رَبَّانِيٌّ، وَمُتَعَلِّمٌ عَلَى سَبِيلِ نَجَاةٍ، وَهَمَجٌ رِعَاعٌ أَتْبَاعُ كُلِّ نَاعِقٍ يَمِيلُونَ مَعَ كُلِّ رِيحٍ، لَمْ يَسْتَضِيئُوا بِنُورِ الْعِلْمِ، وَلَمْ يَلْجَئُوا إِلَى رُكْنٍ وَثِيقٍ، يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ؛ الْعِلْمُ خَيْرٌ مِنَ الْمَالِ. الْعِلْمُ يَحْرُسُكَ، وَأَنْتَ تَحْرُسُ الْمَالَ. الْمَالُ تُنْقِصُهُ النَّفَقَةُ، وَالْعِلْمُ يَزْكُو عَلَى الإِنْفَاقِ. الْعِلْمُ حَاكِمٌ وَالْمَالُ مَحْكُومٌ عَلَيْهِ. يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ؛ مَحَبَّةُ الْعُلَمَاءِ دِينٌ يُدَانُ بِهِ، الْعِلْمُ يُكْسِبُ الْعَالِمَ الطَّاعَةَ فِي حَيَاتِهِ، وَجَمِيلَ الأُحْدُوثَةِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، وَنَفَقَةُ الْمَالِ تَزُولُ بِزَوَالِهِ، يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ؛ مَاتَ خُزَّانُ الْمَالِ وَهُمْ أَحْيَاءٌ، وَالْعُلَمَاءُ بَاقُونَ مَا بَقِيَ الدَّهْرُ، أَعْيَانُهُمْ مَفْقُودَةٌ، وَأَمْثَالُهُمْ فِي الْقُلُوبِ مَوْجُودَةٌ. هَاهْ إِنَّ هَا هُنَا - وَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ - لَعِلْمًا جَمًّا لَوْ أَصَبْتُ لَهُ حَمَلَةً. ثُمَّ قَالَ: اللَّهُمَّ بَلَى [لَقَدْ أَصَبْتَ لَقِنًا](١) غَيْرَ مَأْمُونٍ يَسْتَعْمِلُ آلَةَ الدِّينِ لِلدُّنْيَا، وَيَسْتَظْهِرُ بِنِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ، وَبِحُجَجِهِ عَلَى كِتَابِهِ، وَمُنْقَادًا لأَهْلِ الْحَقِّ لا بَصِيرَةَ لَهُ فِي إِحْيَائِهِ، يَقْتَدِحُ الشَّكُّ فِي قَلْبِهِ بِأَوَّلِ عَارِضٍ مِن شُبْهَةٍ، اللَّهُمَّ لا ذَا وَلا ذَاكَ، أَوْ مَنْهُومًا بِاللَّذَّاتِ، سَلِسَ الْقِيَادِ لِلشَّهَوَاتِ، أَوْ مُغْرًا بِجَمْعِ الْمَالِ وَالادِّخَارِ، وَلَيْسَا مِنْ دُعَاةِ الدِّينِ، أَقْرَبُ شَبَهًا بِهِمُ الأَنْعَامُ السَّائِمَةُ، كَذَلِكَ يَمُوتُ الْعِلْمُ وَحَمَلَتُهُ، اللَّهُمَّ بَلْ، لا تَخْلُو الأَرْضُ مِنْ قَائِمٍ لِلَّهِ بِحُجَّةٍ، إِمَّا ظَاهِرٍ

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

مَشْهُورٍ عِنْدَ اللَّهِ تَعَالَى، أَوْ غَائِبٍ مَسْتُورٍ، لَئِلا تَبْطُلَ حُجَّةُ اللَّهِ تَعَالَى وَبَيِّنَاتُهُ، أَيْنَ أُولَئِكَ الأَقَلُّونَ عَدَدًا، الأَعْظَمُونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْرًا، بِهِمْ يَحْفَظُ اللَّهُ تَعَالَى حُجَجَهُ حَتَّى يُؤَدُّوهَا إِلَى نُظَرَائِهِمْ، فَيَزْرَعُونَهَا فِي قُلُوبِ أَشْبَاهِهِمْ، هَجَمَ بِهِمُ الْعِلْمُ عَلَى حَقِيقَةِ الأَمْرِ، فَبَاشَرُوا رَوْحَ الْيَقِينِ، وَاسْتَلانُوا مَا اسْتَوْعَرَ مِنْهُ الْمُتْرَفُونَ، وَأَنِسُوا بِمَا اسْتَوْحَشَ مِنْهُ الْجَاهِلُونَ، وَصَحِبُوا الدُّنْيَا بِأَبْدَانٍ أَرْوَاحُهَا مُعَلَّقَةٌ بِالْمَحِلِّ الأَعْلَى، يَا كُمَيْلُ بْنَ زِيَادٍ: أُولَئِكَ خُلَفَاءُ اللَّهِ فِي أَرْضِهِ، وَدُعَاتُهُ إِلَى دِينِهِ، هَاهْ هَاهْ شَوْقًا إِلَى رُؤْيَتِهِمْ، وَأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ لِي وَلَكَ، إِذَا شِئْتَ فَقُمْ).

واعلم يا طالب العلم أنه؛ إنما فضل العلم؛ لأنه نور في الطريق يُبصر به السالك مواقع الذلل، ويهتدي به إلى نقل الخطأ في مراتب الفضائل.

قَالَ ابْنُ سِيرِينَ: (إِنَّ قَوْمًا تَرَكُوا الْعِلْمَ، وَاتَّخَذُوا مِحَارِيبًا، فَصَلُّوا فِيهَا حَتَّى يَبِسَ جِلْدُ أَحَدِهِمْ عَلَى عَظْمِهِ، ثُمَّ خَالَفُوا السُّنَّةَ فَهَلَكُوا، وَاللَّهِ مَا عَمِلَ عَابِدٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ إِلا كَانَ مَا يُفْسِدُ أَكْثَرَ مِمَّا يُصْلِحُ).

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ النَّاجِيُّ: دَخَلْنَا عَلَى الْحَسَنِ نَعُودُهُ فِي مَرَضِهِ، فَقَالَ: (مَرْحَبًا بِكُمْ وَحَيَّاكُمُ اللَّهُ، لا يَكُونُ حَظُّكُمْ مِنْ هَذَا الْخَيْرِ أَنْ تَسْمَعُوهُ بِهَذِهِ الأُذُنِ فَيَخْرُجَ مِنْ هَذِهِ الأُذُنِ، فَإِنَّهُ مَنْ رَأَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ رَأَى غَادِيًا وَرَائِحًا، لَمْ يَضَعْ لَبِنَةً عَلَى لَبِنَةٍ، وَلا قَصَبَةً عَلَى قَصَبَةٍ، وَلَكِنْ رُفِعَ لَهُ عِلْمٌ، فَشَمَّرَ إِلَيْهِ، الْوَحَا الْوَحَا، النَّجَا النَّجَا عَلامَا تَعْرُجُونَ، أَتَيْتُمْ وَرَبَّ الْكَعْبَةِ، كَأَنَّكُمْ وَالأَمْرَ مَعًا).

قَالَ جَرِيرُ بْنُ عَبْدِ الْحَمِيدِ: (مَرَّ بِنَا حَمْزَةُ الزَّيَّاتُ، فَاسْتَسْقَى مَاءً، فَلَمَّا أَرَدْتُ أَنْ أُنَاوِلَهُ، قَالَ: أَلَيْسَ تَحْضُرُنَا فِي الْقِرَاءَةِ؟، قَلْتُ: بَلَى، قَالَ: رُدَّهُ، وَأَبَى أَنْ يَشْرَبَهُ).

وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ الرَّبِيعِ: كُنْتُ عِنْدَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ إِدْرِيسَ، فَلَمَّا قُمْتُ، قَالَ: (سَلْ عَنْ سِعْرِ الأَشْنَانِ، فَلَمَّا مَشِيتُ رَدَّنِي، فَقَالَ: لا تَسَلْ عَنْهُ، فَإِنَّكَ تَكْتُبُ مِنِّي الْحَدِيثَ، وَأَنَا أَكْرَهُ أَنْ أَسْأَلَ مَنْ يَسْمَعُ مِنِّي الْحَدِيثَ حَاجَةً).

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى الإِمَامِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ بِدَوَاءٍ لِمَرَضٍ كَانَ بِهِ، فَرَدَّهُ، فَقِيلَ: لِمَ؟!، فَقَالَ: (أَنْتُمْ تَسْمَعُونَ مِنِّي).

وَمَرَّ الْحَسَنُ بِبَعْضِ الْقُرَّاءِ عَلَى أَبْوَابِ السَّلاطِينِ، فَقَالَ: (أَفْرَحْتُمْ حَمَائِمَكُمْ، وَفَرْطَحْتُمْ نِعَالَكُمْ، وَجِئْتُمْ بِالْعِلْمِ تَحْمِلُونَهُ عَلَى رِقَابِكُمْ إِلَى أَبْوَابِهِمْ، فَزَهَدُوا فِيكُمْ).

قَالَ الْحَسَنُ: (وَفِي بَعْضِ الْكُتُبِ: يَا ابْنَ آدَمَ تَدْعُو إِلَيَّ وَتَفِرُّ مِنِّي، وَتُذَكِّرُ بِي وَتَنْسَانِي).

وَقَالَ مَالِكُ بْنُ دِينَارٍ: (إِنَّمَا الْعَالِمُ الَّذِي إِذَا أَتَيْتَهُ لَمْ تَجِدْهُ فِي بَيْتِهِ، قُصَّ عَلَيْكَ بَيْتُهُ، رَأَيْتَ حَصِيرَةً لِلصَّلاةِ، وَمِضْجَعَهُ، وَمِطْهَرَتَهُ، تَرَى فِي بَيْتِهِ آثَارَ الآخِرَةِ).

وَكَانَ أَبُو الدَّرْدَاءِ يَقُولُ: (أَخْوَفُ مَا أَخَافُ أَنْ يُقَالُ لِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا عُوَيْمِرُ، أَعَلِمْتَ أَمْ جَهِلْتَ، فَإِنْ قُلْتُ عَلِمْتُ، لَمْ يَبْقَ آيَةٌ آمِرَةٌ أَوْ زَاجِرَةٌ إِلا أُخِذَتْ مِنِّي بِفَرِيضَتِهَا).

وَكَتَبَ حَكِيمٌ إِلَى حَكِيمٍ: يَا أَخِي قَدْ أُوتِيتَ عِلْمًا، فَلا تُدَنِّسْ عِلْمَكَ بِظُلْمَةِ الذُّنُوبِ، فَتَبْقَى فِي الظُّلْمَةِ يَوْمَ يَسْعَى أَهْلُ الْعِلْمِ بِنُورِ عِلْمِهِمْ.

إِخْوَانِي؛ إذا جُليت جوهرة العلم حلية العمل، كانت زينةً لتاج الإنسانية، العلم دليل السالك، فمن سلك طريقًا على قلة علم طالت عليه، عليك بالعلم فكفى به عملا.

قدم طرف طالب العلم يجري على جلبات أجنحة الملائكة، فإن بلغ الغاية وطدت له مرتبة: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٧]، وإن كبا جواد الطلب في جواد العمر أغرم القدر ديته بنيته: ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا﴾ [النساء: ١٠٠].

العلم وسيلة إلى كل فضيلة، لو صور العلم لأظلمت معه الشمس، ولو صُور الجهل لأضاء معه الليل، عبادة الجاهل في الحضيض، ونوم العالم في العيوق، إعرافهن لا يدينا مناديل.

رُؤِيَ الأَوْزَاعِيَّ فِي الْمَنَامِ وَهُوَ يَقُولُ: مَا رَأَيْتُ أَعْلا مِنْ دَرَجَةِ الْعُلَمَاءِ، ثُمَّ دَرَجَةِ الْمَحْزُونِينَ.

ما زال معقل العلم معاذ مُعاد، فاقتضاه دين دين العلم دين العمل،

فشرب من فضله كأس " وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِيَ فِي الصَّلاةِ "(١)، فأسكره شراب المناجاة، فكان يذهل بما وراءه، مما رآه عمن وراه يتسنى أن قلوب أتباعه سليمة من حرض وجده، حتى شكا سليم القلب من سليم الحب إلى طلب الشرع، فأنكر عليه بلفظ " أَفَتَّانٌ أَنْتَ "(٢)، كيف ترد بالمبتدين مورد المنتهين، فلما تمكن الوجد من قلبه، قام في بوادي أشواقه، وتنادى لبوادي حبه، حتى حل بوادي " تَعَالَوْا نُؤْمِنُ سَاعَةً "(٣)، وغادر الشرع يُعذره في إرسال عذاره بإقامة عُذره، دعوا مُعاذًا وشأنه.

كَانَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ بِقُوَّةِ عِلْمِهِ يَشْتَدُّ خَوْفُهُ، فَإِذَا سَمِعَ صَيْحَةً فِي اللَّيْلِ يَقُولُ: جَاءَ الْعَذَابُ، وَكَانَ لِخَوْفِهِ يَبُولُ الدَّمَ، فَحُمِلَ مَاؤُهُ إِلَى الطَّبِيبِ، فَقَالَ: هَذَا لا يُشْبِهُ مَاءَ الْمُسْلِمِينَ، هَذَا مِنَ الرُّهْبَانِ، هَذَا رَجُلٌ قَدْ فَتَّتَ الْحُزْنُ كَبِدَهُ.

وحُمِلَ ماء سري السقطي إلى الطبيب، فلما رآه، قال: هذا ماء عاشق، قال حامله: فصعقت وغشي علي، ثم عُدت إلى سري، فأخبرته، فقال: قاتله الله، ما أبصره.

إخواني؛ كلما قوى نسيم العلم أضرم شعل نار الخوف.

[الطويل]

إِذَا أَنَا وَاصَلْتُ الصِّبَا عَادَ بَرْدُهَا ... وَمِنْ حَرِّ أَنْفَاسِي عَلَيَّ لَهِيبُ
وَقَدْ أَكْثَرَتْ فِيَّ الأَطَبَّاءُ قَوْلَهُمْ ... وَمَالِي إلا أَنْ أَرَاكَ طَبِيبُ
يُسَالِمُ قَلْبِي الْهَمَّ فَهُوَ حَلِيفُهُ ... وَبَيْنَ جُفُونِي وَالرُّقَادُ حُرُوبُ

(١) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٨، رقم ١٢٣١٥)، والنسائى (٧/ ٦١، رقم ٣٩٣٩)، وابن سعد (١/ ٣٩٨)، وأبو يعلى (٦/ ٢٣٧، رقم ٣٥٣٠)، والحاكم (٢/ ١٧٤، رقم ٢٦٧٦) وقال: صحيح على شرط مسلم. والبيهقى (٧/ ٧٨، رقم ١٣٢٣٢)، والضياء (٤/ ٤٢٧، رقم ١٦٠٨). وأخرجه أيضًا: محمد بن نصر فى تعظيم قدر الصلاة (١/ ٣٣١، رقم ٣٢٢)، والعقيلى (٢/ ١٦٠، ترجمة ٦٦٦ سلام بن سليمان أبو المنذر).

(٢) أخرجه أحمد (٣/ ١٢٤، رقم ١٢٢٦٩) قال الهيثمى (٢/ ٧١): رجال أحمد رجال الصحيح. وأخرجه البزار كما فى كشف الأستار (١/ ٢٣٥- ٢٣٦، رقم ٤٨١).

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٦/ ١٧٠، رقم ٣٠٤٢٦).

الفصل الثاني والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ [الروم: ٥٨]

الضرب[1] في القرآن على ثلاثة أوجه:

أحدها: الوصف: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا﴾ [البقرة: ٢٦].

الثاني: الضرب باليد: ﴿وَٱضْرِبُوهُنَّ﴾ [النساء: ٣٤].

الثالث: السير: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ١٠١]، و ﴿إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ٩٤].

وأشار عز وجل إلى القرآن بقوله: (هذا القرآن) في ثمانية مواضع:

في (يونس): ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [يونس: ٣٧].

وفي (بني إسرائيل): ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى﴾ [الإسراء: ٩]، وفيها: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ [الإسراء: ٤١].

وفي (الكهف): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ [الكهف: ٥٤].

وفي (النمل): ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَقُصُّ﴾ [النمل: ٧٦].

وفي (الروم): ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الروم: ٥٨].

---

(١) الأصلُ في الضَّرْبِ: الجَلْدُ بالسَّوْطِ وما أَشْبَهَهُ. ثم نُقِلَ بالاسْتِعَارَةِ إلى مَوَاضِعَ؛ فَيُقَالُ: ضَرَبَ في الأَرْضِ؛ إذا سَارَ. وفُلانٌ ضَارِبٌ؛ أي: مُحْتَرِفٌ. وَالضَّرْبُ: الرَّجُلُ الْخَفِيفُ الْجِسْمِ، وَأَنْشَدُوا: [الطويل]

أَنَا الرَّجُلُ الضَّرْبُ الَّذِي تَعْرِفُونَهُ خَشَاشٌ كَرَأْسِ الحَيَّةِ المُتَوَقِّدِ

وَالضَّرْبُ: الصِّنْفُ مِنَ الأَشْيَاءِ. وَالضَّرَبُ - بِتَحْرِيكِ الرَّاءِ -: العَسَلُ الْغَلِيظُ. وَالضَّرِيبَةُ: ما يُضْرَبُ عَلَى الإِنْسَانِ مِنْ جِزْيَةٍ وَغَيْرِهَا. وَأَضْرَبَ فُلانٌ عَنِ الأَمْرِ: كَفَّ. وَالضَّرْبُ: المِثْلُ.

فأما المثل فهو الشبه، قَالَ ثَعْلَبٌ: (الأَمْثَالُ حِكْمَةُ الْعَرَبِ، يُوحِي بَعْضُهُمْ بِهَا إِلَى بَعْضٍ بَلا تَصْرِيحٍ، فَيَفْهَمُ الرَّجُلُ عَنْ صَاحِبِهِ مَا حَاوَلَ بِإِيجَازٍ وَاخْتِصَارٍ).

وجملة ما في القرآن من الأمثال سبعة وثلاثون مثلا:

في (البقرة): ﴿مَثَلُهُمْ﴾ [البقرة: ١٧]، وفيها: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ﴾ [البقرة: ١٩]، وفيها: ﴿أَن يَضْرِبَ مَثَلًا﴾ [البقرة: ٢٦]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ﴾ [البقرة: ٢٦٥]، وفيها: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٦٦]، وفيها: ﴿كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾ [البقرة: ٢٧٥].

وفي (آل عمران): ﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وفيها: ﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٧].

(الأعراف): ﴿كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وفي (يونس): ﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [يونس: ٢٤].

وفي (هود): ﴿مَثَلُ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ [هود: ٢٤].

وفي (الرعد): ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد: ١٧]، وفيها: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [الرعد: ٣٥].

وفي (إبراهيم): ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ [إبراهيم: ١٨]، وفيها: ﴿كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وفيها: ﴿وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٦].

وفي (النحل): ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبْدًا مَّمْلُوكًا﴾ [النحل: ٧٥]، وفيها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [النحل: ٧٦]، وفيها: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ [النحل: ١١٢].

وفي (الكهف): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢]، وفيها: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ٤٥].

وفي (الحج): ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [الحج: ٣١]، وفيها: ﴿ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [الحج: ٧٣].

وفي (النور): ﴿مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ [النور: ٣٥]، وفيها: ﴿أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ﴾ [النور: ٣٩].

وفي (العنكبوت): ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ﴾ [العنكبوت: ٤١].

وفي (الروم): ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [الروم: ٢٨].

وفي (يس): ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا﴾ [يس: ١٣]، و﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا﴾ [يس: ٧٨].

وفي (الزمر): ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا﴾ [الزمر: ٢٩].

وفي سورة (محمد): ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ [محمد: ١٥].

وفي (الحشر): ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر: ١٥]، ﴿كَمَثَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ﴾ [الحشر: ١٦].

وفي (الجمعة): ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوْرَىٰةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وفي (المتحرم): ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التحريم: ١٠]، و﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [التحريم: ١١].

وكم من كلمة تدور على الألسن مثلا، جاء القرآن بالخص منها وأحسن، فمن ذلك قولهم: خير الأمور أوساطها، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقولهم: القتل أنفى للقتل، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وقولهم: " لَيْسَ الْمُخْبَرُ كَالْمُعَايِنِ "(١)، مذكور في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

---

(١) هذا الحديث رواه أحمد وابن منيع والطبراني والعسكري وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله عنهما بلفظ: "ليس الخبر كالمعاينة"، وله تتمة. ورواه أحمد وابن حبان بلفظ: "ليس المعاين كالمُخْبَر". ورواه البغوي والدارقطني في "الأفراد" والضياء في "المختارة" وابن عدي وأبو يعلى الخليلي في "الإرشاد".

"انظر: فيض القدير ٥/ ٣٥٧، كشف الخفا ٢/ ١٦٨، مسند أحمد ١/ ٢٧١، موارد الظمآن ص ٥١٠".

وقولهم: كما تدين تُدان، مذكور في قوله تعالى: ﴿مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٢٣].

وقولهم: للحيطان أذان، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ﴾ [التوبة: ٤٧].

وقولهم: الحمية رأس الدواء، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١].

وقولهم: الحلال يأتي قوتًا، والحرام جزفًا، مذكور في قوله تعالى: ﴿إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ﴾ [الأعراف: ١٦٣].

وقولهم: احذر شر من أحسنت إليه، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ﴾ [التوبة: ٧٤].

وقولهم: من جهل شيئًا عاداه، مذكور في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِمَا لَمْ يُحِيطُوا۟ بِعِلْمِهِۦ﴾ [يونس: ٣٩]، ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١].

وقولهم: أمه تخرج من كهف، مذكور في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ [النحل: ٥٣].

وقولهم: خير الأمور أوساطها، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾ [الإسراء: ٢٩].

وقولهم: من أعان ظالمًا سلطه الله عليه، مذكور في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [الحج: ٤].

وقولهم: لما أنضج رمد، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَأَعْطَىٰ قَلِيلًا وَأَكْدَىٰٓ ﴿٣٤﴾﴾ [النجم: ٣٤].

وقولهم: لا تلد الحية إلا حية، مذكور في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا﴾ [نوح: ٢٧]

وقوله تعالى: ﴿قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢].

قال الزجاج: ﴿عَرَبِيًّا﴾ [يوسف: ٢] منصوب على الحال، والمعنى:

ضربنا للناس في هذا القرآن في حالٍ عربيًا، وذكر قرآنًا توكيدًا.

قال أبو عبيدة: ليس في القرآن سوى العربية هذه الغاية.

وقال ابن عباسٍ، ومجاهد، فيه من غير لسان العرب في الأصل، ثم لفظت بها العرب فعربتها، فصارت عربية بتعريبها إياها، فهي عربية في الحال عجمية الأصل.

قرأنا على شيخنا أبي منصور أن أسماء الأنبياء أعجمية كلها، إبراهيم، وإسماعيل، وإسحاق، وإسرائيل، وأيوب، وإلياس، إلا أربعة: آدم، وصالح، وشعيب، ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

وأزر أعجمي، والاستبرق، وإبليس، والإنجيل، والزبور، وجالوت، وجهنم، والدينار، وداود، والربانيون، وزكريا، والزنجبيل، والسُّندس، والسجيل، وسُليمان، والسلسبيل، والسجل، وسقر، والسُرادق، وصلوات، وهي صلوات اليهود، وهي بالعبرانية صلوتا، والطور، وطالوت، وعيسى، وعزير، والغساق: البارد المُنتن بلسان الترك، والفردوس، والقسطاس، وروميان، والقنطار أعجمي، ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾ [التكوير: ١]، قال سعيد ابن جبير: غورت، وهو بالفارسية كور يهود. واليسع، ولوط، وموسى، ومريم، وهاروت، وماروت، ومأجوج، ومدين، وميكائيل، والمرجان، ونوح، وهارون، وهود أعجمي، ويعقوب، ويونس، ويوسف، ويُوشع، واليم، ويهوذا، جملة ما ذكره شيخنا من المُعرب في القرآن.

قوله تعالى: ﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]، قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: ((الْعِوَجُ) بِكَسْرِ الْعَيْنِ فِي الدِّينِ وَالْكَلامِ وَالْعَمَلِ، وَ (الْعَوَجُ) بِفَتْحِهَا فِي الْحَائِطِ وَالْجِذْعِ).

قال الزجاج: كسر العين فيما لا يُرى له شخصًا، وفتحها فيما له شخص.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (﴿غَيْرَ ذِى عِوَجٍ﴾ [الزمر: ٢٨]: غَيْرُ مَخْلُوقٍ).

سبحان من قدم كتابنا على سائر الكُتب وفضله، ويسر عمله لذي الفهم وفضله، وجمع لحامله الخير الجم له وجَمَّله، كل الكتب تساوت في كونها صفةً للمتكلم، واجتمعت في دائرة القدم، وميز كتابنا بالتفضيل، كما أن الرسل تساووا في الرسالة، وميزت يد الاختيار وفضلنا بعضهم على بعض.

ألم ترى أن الأبعاض تتساوى في كون جملتها ذاتًا، وتفضل بعضها على بعضٍ، ألا ترى أن الوجه بغض الذات وهو أشرفها، ثم أشرفه العين، ثم أعزها السواد.

كلام ليس فيه أثر التصنع، ولا علامة التكلف يزيد لفظه على الطبع، بقدر ما يزيد الطبع على التصنع، جزله وجيز اللفظ، وسهله بسيط النظر، وبليغه بعيد الغور عند السير، قليله كثير، وكثيره غزير، ومعناه أحسن من لفظه، ولفظه أملح من وزنه، ووزنه أعجب من نظمه، ونظمه أحلى من نثره، يتساوى فيه تعجب الجاهل وتحير العالم، نطقت ألسنة مدحه، ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾ [الكهف: ١] وقالت عبارة فضله، ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ [الرعد: ٣١]، وركب مراهم العافية من حركات الألسن به، ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فهو المسموع بدليل: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، والمحفوظ بإشارة: ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]، والمكتوب بعبارة: ﴿فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍۭ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: ٢٢].

الفصل الثالث والسبعون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾
[الزمر: ٣٠]

أيها الناس؛ كيف يُطمع في البقاء ومُحمد قد مات، وكيف تؤمن الرَّزايا ولم يسلم الحبيب وهيهات، وكيف نغتر بدارٍ في بيتها البيات، قد بات أن من رأى ذات عرق الشيب فقد شارف الميقات.

لما قضى نبينا صلى الله عليه وسلم نهمته من الإنذار، قيل له: ما خُلقت لهذه الدار، فعزى عن نفسه برسالة: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ﴾ [الأنبياء: ٣٤]، وجُعلت لأجله أمارة: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ ﴿١﴾﴾ [النصر: ١]، واشتملت على داعٍ من الآخرة ووداعٍ من الدنيا، فلما ثقل مرضه هَمَّ بالخروج إلى المسجد، فامتنع المتمكن، وأرسل لينوب فيما ينوب، ولقد خرج يومًا من ثياب المرض، فقام في ساحة ببرية الساحة، ينادي في النادي: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [الكهف: ١١٠]، " فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَصَبْتُ مِنْ عِرْضِهِ فَهَذَا عِرْضِي، أَوْ مِنْ بَشْرَتِهِ فَهَذَا بَشَرِي، أَوْ مِنْ مَالِهِ فَهَذَا مَالِي، وَاعْلَمُوا أَنَّ أَوْلاكُمْ بِي رَجُلٌ كَانَ لَهُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ فَأَخَذَهُ وَحَلَّلَنِي، فَلَقِيتُ رَبِّي وَأَنَا مُحَلَّلٌ، وَلا يَقُولَنَّ أَحَدُكُمْ: إِنِّي أَخَافُ الْعَدَاوَةَ وَالشَّحْنَاءَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُمَا لَيْسَتَا مِنْ طَبِيعَتِي "[1]، ولقد علم قرب الأجل، فاشتغل عن خطبه

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٢٥٥). والطبراني فى الكبير (١٨/ ٢٨٠، رقم ٧١٨). وأخرجه أيضًا: فى الأوسط (٣/ ١٠٤، رقم ٢٦٢٩). قال الهيثمى (٩/ ٢٦): فيه من لم أعرفهم.

بالخطاب في خطبة الرفيق الأعلى، وكان الذي أوصى به في إيصائه " الصَّلاةَ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ "(١).

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: اجْتَمَعْنَا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِ عَائِشَةَ فَنَظَرَ إِلَيْنَا فَدَمَعَتْ عَيْنَاهُ، فَنَعَى إِلَيْنَا نَفْسَهُ، فَقَالَ: " مَرْحَبًا حَيَّاكُمُ اللَّهُ بِالسَّلامِ، حَفِظَكُمُ اللَّهُ، رَعَاكُمُ اللَّهُ، جَمَعُكُمُ اللَّهُ، نَصَرَكُمُ اللَّهُ، وَفَّقَكُمُ اللَّهُ، نَفَعَكُمُ اللَّهُ، رَفَعَكُمُ اللَّهُ، سَلَّمَكُمُ اللَّهُ، أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَأُوصِي اللَّهَ بِكُمْ وَأَسْتَخْلِفُهُ عَلَيْكُمْ، قُلْنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ: مَتَى أَجَلُكَ؟، قَالَ: قَدْ دَنَا الأَجَلُ وَالْمُنْقَلَبُ إِلَى اللَّهِ، وَإِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى، وَجَنَّةِ الْمَأْوَى، وَالْفِرْدَسِ الأَعْلَى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُغَسِّلُكَ؟ قَالَ: رِجَالُ أَهْلِ بَيْتِي الأَدْنَى فَالأَدْنَى، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ فِيمَا نُكَفِّنُكَ؟ قَالَ: فِي ثِيَابِي هَذِهِ إِنْ شِئْتُمْ، أَوْ [فِي حُلَّةٍ](٢) يَمَنِيَّةٍ، أَوْ فِي بَيَاضِ مِصْرَ قَالَ: قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ يُصَلِّي عَلَيْكَ؟ وَبَكَيْنَا، قَالَ: مَهْلا رَحِمَكُمُ اللَّهُ وَجَزَاكُمْ عَنْ نَبِيِّكُمْ خَيْرًا، إِذَا غَسَّلْتُمُونِي وَكَفَّنْتُمُونِي فَضَعُونِي عَلَى سَرِيرِي هَذَا عَلَى شَفِيرِ قَبْرِي ثُمَّ اخْرُجُوا عَنِّي سَاعَةً، فَإِنَّ أَوَّلَ مَنْ يُصَلِّي عَلَيَّ خَلِيلِي وَحَبِيبِي جِبْرِيلُ، ثُمَّ مِيكَائِيلُ، ثُمَّ إِسْرَافِيلُ، ثُمَّ مَلَكُ الْمَوْتِ فِي مَلائِكَةٍ كَثِيرَةٍ، ثُمَّ ادْخُلُوا عَلَيَّ فَوْجًا فَوْجًا فَصَلُّوا عَلَيَّ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا وَلا تُؤْذُونِي بِبَاكِيَةٍ، وَلا بِرَنَّةٍ، وَلا بِصَيْحَةٍ، وَلْيَبْدَأْ بِالصَّلاةِ عَلَيَّ رِجَالُ مِنْ أَهْلِ بَيْتِي، ثُمَّ نِسَاؤُهُمْ، ثُمَّ أَنْتُمْ، وَاقْرَءُوا السَّلامَ عَلَى مَنْ غَابَ عَنِّي مِنْ أَصْحَابِي، وَعَلَى كُلِّ مَنْ تَبِعَنِي عَلَى دِينِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، أَلا وَإِنِّي أُشْهِدُكُمْ قَدْ سَلَّمْتُ عَلَى كُلِّ مَنْ دَخَلَ فِي الإِسْلام "(٣)، فَلَمَّا اسْتَعَرَّ بِهِ فِي ظُلُمَاتِ الْمَمَاتِ، صَاحَ لَسَانُ الطَّبْعِ لِمَا أَلَمَّ مِنْ أَلَمٍ وَاكَرْبَاهُ، كَانَ يُدْخِلُ يَدَهُ فِي الْمَاءِ فَيَمْسَحُ بِهَا وَجْهَهُ

(١) أخرجه أحمد (٣/١١٧، رقم١٢١٩٠)، وعبد بن حميد (ص ٣٦٥، رقم ١٢١٤)، والنسائى فى الكبرى (٤/٢٥٨ رقم ٧٠٩٤)، وابن ماجه (٢/ ٩٠٠ رقم ٢٦٩٧) قال البوصيرى (٣/١٣٩): هذا إسناد حسن. وابن سعد (٢/ ٢٥٣)، وأبو يعلى (٥/٣٠٩، رقم ٢٩٣٣)، والضياء (٦/١٥٨، رقم ٢١٥٦) وقال: إسناده صحيح.

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٣) أخرجه البوصيري في إتحاف المهرة (٢/ ٥٩٢، رقم ٢٠٤٤).

وَيَقُولُ: " اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى سَكَرَاتِ الْمَوْتِ "(١)، وإنما أخبر بما لقى الرئيس الأكبر، ليوطن نفسه على الصبر الدون، فدخلت عليه فاطمة، فدنَّت، فدنَت، وقد دنت وفاته، فنعى إليها نفسه صلى الله عليه وسلم سرًّا، فجرت دموع أسفها جهرًا، فأضحكها ببشارة: " أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هذِهِ الأُمَّةِ "(٢).

[البسيط]

أَصْغَى إِلَى الْبَيْنِ مُغْتَرًّا فَلا جَرَمَا أَنَّ النَّوَى شَارِبًا فِي قَلْبِهِ لَمَمَا
أَصَمَّنِي سِرُّهُم أَيَّامَ فُرقَتِهِمْ هَلْ كُنْتَ تَعْرِفُ سِرًّا يُورِثُ الصَّمَمَا

فَلَمَّا كَرَّ عَلَيْهِ كَرْبُ الْمَوْتِ، صَاحَتْ: وَاكَرْبَ أَبَتَاهُ، فَسَكَّنَ جَزْعَهَا: " لا كَرْبُ عَلَى أَبِيكِ بَعْدَ الْيَوْمِ "(٣).

وَلَقَدْ نَزَلَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلاثَةِ أَيَّام، فَقَالَ: " يَا أَحْمَدُ؛ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ يَسْأَلُكَ عَمَّا هُوَ أَعْلَمُ بِهِ مِنْكَ، يَقُولُ: كَيْفَ تَجِدُكَ؟ فَقَالَ: أَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مَغْمُومًا، وَأَجِدُنِي يَا جِبْرِيلُ مَكْرُوبًا، وَأَتَى إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ الثَّانِي فَثَنَّى السُّؤَالَ فَأَعَادَ ذَلِكَ الْجَوَابَ، ثُمَّ فِي الْيَوْمِ الثَّالِثِ كَذَلِكَ وَهُوَ يُجِيبُ كَذَلِكَ، فَإِذَا مَلَكُ الْمَوْتِ يَسْتَأْذِنُ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا أَحْمَدُ؛ هَذَا مَلَكُ الْمَوْتِ يَسْتَأْذِنُ عَلَيْكَ وَلَمْ يَسْتَأْذِنْ عَلَى آدَمِيٍّ قَبْلَكَ، وَلا يَسْتَأْذِنُ عَلَى آدَمِيٍّ بَعْدَكَ فَقَالَ: ائْذَنْ لَهُ فَأَذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَوَقَفَ بَيْنَ يَدَيْهِ، فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى، أَرْسَلَنِي إِلَيْكَ وَأَمَرَنِي أَنْ أُطِيعَكَ فَإِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَقْبِضَ نَفْسَكَ فَقَبَضْتُهَا، وَإِنْ أَمَرْتَنِي أَنْ أَتْرُكَهَا تَرَكْتُهَا، قَالَ: وَتَفْعَلُ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ؟ قَالَ: كَذَلِكَ أُمِرْتُ أَنْ أُطِيعَكَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ: يَا أَحْمَدُ؛ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، قَدِ اشْتَاقَ إِلَيْكَ، قَالَ: امْضِ لِمَا أُمِرْتَ يَا مَلَكَ الْمَوْتِ "(٤).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٦/ ٤٢، رقم ٢٩٣٣٣).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (٢٥٨٧٣).
(٣) أخرجه أبو يعلى (٦/ ١٦١، رقم ٣٤٤١).
(٤) أخرجه الطبراني (٣/ ١٢٨، رقم ٢٨٩٠).

[مجزوء الرجز]

إنْ كَانَ جِيرَانُ الْغَضَا رَضَوْا بِقَتْلِي فَرِضَا
وَاللَّهِ مَا كُنْتُ لِمَا يَهْوَى الْحَبِيبُ مُبْغِضَا

فَقَالَ جِبْرِيلُ: السَّلامُ عَلَيْكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا آخِرُ مَوْطِئِي الأَرْضَ، إِنَّمَا كُنْتَ حَاجَتِي فِي الدُّنْيَا، فَتُوفِّيَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُسْتَنِدٌ إِلَى صَدْرِ عَائِشَةَ، فِي كِسَاءٍ مُلَبَّدٌ وَإِزَارٌ غَلِيظٌ، قَامَتْ فَاطِمَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تَنْدُبُ آثَارَ الرِّحَالِ، فَجَعَلَتْ تَقُولُ فِي نَدْبِهَا: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبٌّ دُعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ جَنَّةُ الْفِرْدَوْسِ مَأْوَاهُ، يَا أَبَتَاهُ إِلَى جِبْرِيلَ أَنْعَاهُ، يَا أَبَتَاهُ مِنْ رَبِّهِ مَا أَدْنَاهُ.

[الطويل]

عَلى مِثْلِ لَيْلَى يَقْتُلُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ وَإِنْ كُنْتُ مِنْ لَيْلَى عَلَى الْحُبِّ طَاوِيَا

وكيف لا يندب من فقد مثل ذاك، وكيف يسكن قلبًا شاك شاكه ما شاك، وهل لأيام الوصال ثمن فنبتغي بذاك.

[البسيط]

قَدْ كَانَ قَلْبِي بِكُمْ مَأْوَى السُّرُورِ فَمُذْ نَأَيْتُمْ صَارَ مَأْوَى كُلَّ بَلْبَالِ
فَلَوْ شَرِيتُ بِنَفْسِي سَاعَةً سَلَفَتْ مِنْ عَيْشَتِي مَعَكُمْ مَا كَانَ بِالْغَالِ
مَالِي أُعَلِّلُ قَلْبِي بِالْوُقُوفِ عَلَى مَنَازِلٍ أَقْفَرَتْ مِنْكُمْ وَأَطْلالِ
مَنْ لِي بِكِتْمَانِ مَا أَلْقَاهُ مِنْ أَلَمٍ وَظَاهِرِي مُعْرَبٌ عَنْ بَاطِنِ الْحَالِ

فَضَجَّ النَّاسُ بِالْبُكَاءِ، وَارْتَجَّتِ الْمَدِينَةُ بِالْعَزَاءِ، وَقَالَ عُمَرُ: مَا مَاتَ، وَعَرَفَ الْعَبَّاسُ الْبَلاءَ، فَقَالَ: بَلَى، فَجَاءَ ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ [التوبة: ٤٠] لِيَحْكُمَ بَيْنَ الاِثْنَيْنِ، فَرَأَى غُرَابَ الْبَيْنِ بَيْنَ الْبَيْنِ، وَكَشَفَ الثَّوْبَ عَنْ وَجْهِهِ، وَأَكَبَّ عَلَى تَقْبِيلِهِ، وَقَالَ: (بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي، أَمَّا الْمَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا، وَمَا كَانَ اللَّهُ تَعَالَى أَنْ يَجْمَعَ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ)، وَكَانَ فِيمَا رَثَاهُ الصِّدِّيقُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: [الكامل]

لَمَّا رَأَيْتُ نَبِيَّنَا مُتَجَدِلا ضَاقَتْ عَلَيَّ بِعَرْضِهِنَّ الدُّورُ
وَارْتَعْتُ رَوْعَةَ مُسْتَهَامٍ وَالِهٍ وَالْعَظْمُ مِنِّي وَاهِنٌ مَكْسُورُ

أَعَتِيقُ وَيْحَكَ إِنَّ حِبَّكَ قَدْ ثَوَى وَبَقِيتَ مُنْفَرِدًا وَأَنْتَ حَسِيرُ
يَا لَيْتَنِي مِنْ قَبْلِ مَهْلَكِ صَاحِبِي غُيِّبْتُ فِي جَدَثٍ عَلَيَّ صُخُورُ

فَلَمَّا دُفِنَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَتْ فَاطِمَةُ: (يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التُّرَابَ؟!)؛ فما رؤيت ضاحكةً بَعْدَ بُعْدِهِ، حتى انقبضت بالموت جملة هي بضعة منها، ولم يكن في فاطمة سعة للقسم، لقد كانت دموعها على الدوام تجري، وربما كلت وهي لا تدري، لا تقبل عزاء، ولا تسمع لائم، والحزن شديد والبكاء دائم.

[المتقارب]

يُرَادُ مِنَ الْقَلْبِ نِسْيَانُكُمْ وَتَأْبَى الطِّبَاعُ عَلَى النَّاقِلِ
وَلَوْ زُلْتُمُ ثُمَّ لَمْ أَبْكِكُمْ بَكَيْتُ عَلَى عَيْشِيَ الزَّائِلِ
وَهَبْتُ السُّلُوَّ لِمَنْ لامَنِي وَبِتُّ مِنَ الْحُزْنِ فِي شَاغِلِ
كَأَنَّ الْجُفُونَ عَلَى مُقْلَتِي ثِيَابٌ شُقِقْنَ عَلَى ثَاكِلِ

ولئن كان صلى الله عليه وسلم قد ذاق الموت، فما مات من أتباعه ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، وإنه بعد موته على سدة السيادة، يعرض على كل موجود رسالته، ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩].

تُعرض عليه أعمال أمته، فيستبشر، ويستغفر، فإذا صلى عليه، أو سلم حملها إليه الملك على حالها، وأثاب عليها بعشر أمثالها.

وحرم أزواجه بَعْدَ بُعْدِهِ غَيْرَةً لَهَ عَلَى غَيْرِهِ، فهن في حرم: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

فإذا نفخ في الصور، فهو أول من تنشق الأرض عنه، وأول شافعٍ، وأول مشفع، صاحب اللوى، وأول فاتح أبواب جنة المأوى.

الفصل الرابع والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ﴾ [الزمر: ٥٤]

(أَنِيبُوا) بِمَعْنَى: ارْجِعُوا مِنَ الشِّرْكِ وَالذُّنُوبِ، وَ (أَسْلِمُوا): أَخْلِصُوا.

قوله: ﴿ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٤]، (ثم) [١] في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

الأول: بقاؤه على أصله: ﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرۡجِعُكُمۡ﴾ [الأنعام: ١٦٤] .

الثاني: بمعنى: الواو: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [يونس: ٤٦].

الثالث: وقوعه زائدًا: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ١١٧].

و (ينصرون): يُمنعون.

﴿وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم﴾ [الزمر: ٥٥]، العفو أحسن من القصاص، والقصاص في القرآن، والعفو في القرآن، والعفو أحسن، والصبر أحسن من الانتصار.

قوله تعالى: ﴿أَن تَقُولَ نَفۡسٌ﴾ [الزمر: ٥٦]، المعنى: بادروا قبل أن تقول نفس والحسرة والتلهف على الفائت.

يا هذا أحسر عن ساعد المجاهدة للنفس، قبل أن تقول: واحسرتا، نادها بلسان التوبيخ، كأنك برجاء الرخاء قد عادت عاصفًا، فتنبهي من هذا الرقاد، فقد جاء سيل التلف.

عَنِ ابْنِ الْبُجَيْرِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " أَلا رُبَّ نَفْسٍ جَائِعَةٍ عَارِيَةٍ فِي الدُّنْيَا طَاعِمَةٍ نَاعِمَةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، أَلا يَا رُبَّ مُكْرِمٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ

---

(١) (ثُمَّ): حرفٌ مبنيٌّ على الفتح وهو من حروفِ العَطْفِ ويفيد الترتيب والمُهْلَة؛ تقول: جاءني زيدٌ ثم عمرو، فعمرو جاء بعد زيد بمُهْلةٍ وتَرَاخٍ.

لَهَا مُهِينٌ، أَلا يَا رُبَّ مُهِينٍ لِنَفْسِهِ وَهُوَ لَهَا مُكْرِمٌ، أَلا رُبَّ شَهْوَةِ سَاعَةٍ أَوْرَثَتْ حُزْنًا طَوِيلا "[1].

ابن البجير لا نعرف له اسم، ولا روى غير هذا الحديث، وفي الصحابة خمس مائة وستون نفسًا ما بين رجلٍ وامرأة، لا يروى أحدهم سوى حديث واحد منهم، أبو اللخم الأدرع، الأقرع، بروع، بريرة، ثابت بن قيس، حسان، حمية، خديجة، أم ذو الزوائد، والعرم، أم الطفيل.

إخواني؛ من أرضى جوارحه في الشهوات، فقد غرس لنفسه شجر الندامات، حاربوا أنفسكم، فمن قوي على نفسه، فقد تناهى في القوة، ومن صبر عن شهوته، فقد بالغ في المُروَّة بالصبر على ما يكره ينال ما يحب، وبالصبر عما يحب ينجو مما يكره.

[البسيط]

يَا نَفْسُ صَبْرًا وَإِلا فَاهْلَكِي جَزَعًا ... إِنَّ الزَّمَانَ عَلَى مَا تَكْرَهِينَ فَنِي

لا تَحْسَبِي نِعَمًا سَرَّتْكِ صُحْبَتَهَا ... إِلا مَفَاتِيحَ أَبْوَابٍ إِلَى الْحَزَنِ

يا مساكنًا للنفس الجهولة الغدارة، كيف تقبل منها؟ وهي بالسوء أمارة، ويحها ما يُفرحها ربح ولا يغمها خسارة، ولقد بادرت بالذنوب وأَنَّى هذه الجسارة، قد آمنت وسط الهلاك ونامت وسط الغارة، أما تسلب القرين يكفي من يفهم الإشارة، لقد شان شأنها القبيح وأضلها إغراها، عدوها بالهوى واستزلها، فحلت رحلها محله ما حل من حلها، فلُمها وابك يا هذا؛ وقل لها تترك الهوى، فالهوى قد أعلها، وتذكر التوى فالتوى قد أظلها، وتحارب عدوًا إنما يقصد قتلها، فكم أهلك قبلها مثلها.

[الخفيف]

هِيَ نَفْسِي لِمَا لَهَا تَهْذِيبِي ... أَعَذَابِي تُرِيدُ أَمْ تَهْذِيبِي

قَدْ تَأَمَّلْتُهَا وَأَخْطَأْتُ فِيهَا ... إِذْ حَبَّبَنِي لِطِبِّهَا وَهِيَ ذِيبِي

---

(١) أخرجه ابن سعد (٧/ ٤٢٣)، والبيهقي في شعب الإيمان (٢/ ١٧٠، رقم ١٤٦١).

تَـحْـتَـذِي بِـي إِلَـى هَـوَاهَـا تُـرِيـنِـي أَنَّـهَـا بِـي إِلَـى الْـهُـدَى تَـحْـتَـذِي بِـي
صَـدَّقَـتْـنِـي إِذْ صَـدَّقَـتْـنِـي نَـصِـيـحًـا ثُـمَّ عَـادَتْ تَـجُـورُ فِـي تَـكْـذِيـبِـي
أَنْـحَـلَـتْ جِـسْـمِـي الـنُّـحُـولُ فَـنَـادَيْـتُ أَبِـي فِـي فِـنَـائِـهِ وَأَذِيـبِـي
إِنْ يَـكُـنْ شَـرُّهَـا نَـعِـيـمٌ خَـلا فِـي فَـلَـقَـدْ شَـاءَ بِـهَـا تَـعْـذِيـبِـي

الفصل الخامس والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: ٦٨]

هذه النفخة هي الأولى، ومعنى (صعق): ماتوا من الفزع وشدة الصوت.

والصاعقة: أشد صوت الرعد، يسقط معه قطعة من نارٍ، تحرق ما أصابت، ويقال: صاعقة، وصاقعة.

قال أبو النجم: [الرجز]

يَجْلُونَ بِالْمَصْقُولَةِ القَوَاطِعِ تَشَقُّقَ الْبَرْقِ عَلَى الصَّوَاقِعِ

ومثله جذب وجبذ، وما أطيبه وأيطبه، وربض ورضب، وانبض في القوس وانضب، ولعمري ورعملي، واضمحل وامضحل، وعميق ومعيق، وسبسب وبسبس، وملكت الشيء ولمكته إذا خلطه، وأسير مكبل وملكب، وسحاب مكفهر وفكرهف، وناقة ضمرز وضمرز إذا كانت مُسنة، وطريق طامس وطاسم، وقفا الأثر وقاف الأثر، وقاع البعير الناقة وقعاها، وقوس عطل وعلط لا وتر عليها، وجارية فتين وفتيت وهي القليلة الدر، وشرخ الشباب وشجرة أوله، ولحم خنز وخزن، وغاث يغيث، وعثا يعثي: إذا أفسد وتنح عن لقم الطريق ولمق الطريق، ولفحته بيدي، ولحفته إذا ضربته، وهجهجت السبع وجهجهت، وبطيخ وطبيخ، وماء سلسال ولسلاس وملسلس إذا كان صافيًا، ودقم فاه بالحجر، ودمقته إذا ضربته، وفثأت القدر وثفأتها إذا سكنت غليانها، وكبكبت الشيء وبكبكته، إذا طرحت بعضه على بعض، وكثم وكمثه وجهه، وجارية قبعة وبقعة:

وهي التي يظهر وجهها ثم تخفيه، وكبعرثه بالسيف وبعكرثه إذا ضربته.

والصاعقة والصعق في القرآن على أربعة أوجهٍ:

أحدها: الموت، ومنه: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ﴾ [البقرة: ٥٥]، ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الزمر: ٦٨].

الثاني: العذاب، ومنه: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً﴾ [فصلت: ١٣].

الثالث: صواعق السحاب، ومنه: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ [الرعد: ١٣].

الرابع: الغشي، ومنه: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قوله تعالى: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨] أربعة أحرفٍ:

في يونس: ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا يَتَّبِعُ﴾ [يونس: ٦٦].

وفي الحج: ﴿يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الحج: ١٨].

وفي النمل: ﴿فَفَزِعَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النمل: ٨٧].

وفي الزمر: ﴿فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٨].

قوله: ﴿إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الزمر: ٦٨]، فيهم ثلاثة أقوال:

أحدها: الشهداء، قاله ابن عباس.

الثاني: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، وملك الموت، ثم إن الله تعالى يميتهم، قاله مقاتل.

الثالث: من في الجنة من الحور والولدان، ذكره ابن شاقلا من أصحابنا، ثم نفخ فيه أخرى وهي نفخة البعث، ﴿فَإِذَا هُمْ﴾ [الزمر: ٦٨]؛ يعني: الخلق، و﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [الزمر: ٦٩]؛ يعني عرضات القيامة، ﴿بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩]؛ يعني: بعدل ربها، والمراد بالكتاب: كتاب الأعمال.

يا مفرطًا في الشيب والشباب، يا مخالفًا ما ارعوى ولا أناب، من لك إذا قرعت لَمَّا ناب الناب، ووضع الكتاب.

تنبهوا إخواني من النوم، وعودوا على النفوس باللوم، وقدروا أن العرض اليوم أين الجواب.

قد حدثناكم وكلمنا وما ألزمنا، ألزمنا الجسد حاضر سلمنا، لكن القلب قد غاب.

الفصل السادس والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]

الرجل في القرآن على أربعة عشر وجهًا:

الأول والثاني: يوشع، وقال يوشع بن نون، وكالب بن يوفنا، وقال رجلان.

الثالث: نوح، وهو في الأعراف: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الرابع: هود، وهو فيها: ﴿عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٩].

الخامس: محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ﴾ [يونس: ٢]، ﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ [سبأ: ٧].

السادس: الوثني: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾ [النحل: ٧٦].

السابع والثامن: تمليخا وفرطس: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ [الكهف: ٣٢].

التاسع: حزبيل: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ﴾ [غافر: ٢٨].

العاشر: جميل بن معمر: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ﴾ [الأحزاب: ٤].

الحادي عشر: حبيب النجار: ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠].

الثاني عشر: المؤمن: ﴿وَرَجُلًا سَلَمًا﴾ [الزمر: ٢٩].

الثالث عشر: موسى عليه السلام: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ﴾ [غافر: ٢٨].

الرابع عشر: الوليد بن المغيرة، وأبو مسعود الثقفي: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ [الزخرف: ٣١].

والآل[1] في القرآن على أربعة أوجهٍ:

أحدها: أهل دين الرجل: ﴿وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾ [البقرة: ٥٠].

الثاني: صلة: ﴿مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ﴾ [البقرة: ٢٤٨].

الثالث: ذرية الرجل وإن ترك نسبهم: ﴿وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ﴾ [آل عمران: ٣٣].

الرابع: أهل بيت الرجل المكتفون بنسبه: ﴿فَلَمَّا جَآءَ ءَالَ لُوطٍ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الحجر: ٦١]، وهاهنا: ﴿مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ [غافر: ٢٨]، وفرعون لقب، والفراعنة ثلاثة:

أولهم: سنان الأشل، وهو فرعون الخليل.

الثاني: الريان بن الوليد، وهو فرعون يوسف.

الثالث: الوليد بن مصعب، وهو فرعون موسى.

والنمادرة ستة:

الأول: نمرود بن كنعان بن حام، وهو صاحب الخليل.

الثاني: نمرود بن كوش، وهو صاحب النسور.

الثالث: نمرود بن ماش.

الرابع: نمرود بن سنجاريب.

---

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: الآلُ: اسمٌ لكُلِّ مَنْ رَجَعَ إلى معتمد عليه فيما رجع فيه إليه، فتارةً يَكُونُ بالنَّسَبِ، وتارةً يَكُونُ بالسَّبَبِ.

والأصلُ في ذلك قولنا: آلَ، وهو بمعنى: رَجَعَ. وبمعنى: صَارَ.

تقول: آلَ الشَّيءُ، يَؤُولُ، أَوْلا. ومن ذلك قيل فيه لما يؤول فيه ظاهر اللفظ في حقيقته: أنه تأويلٌ؛ لأن الأمرَ رَجَعَ فيه إلى غير ما هو ظاهره، فأما ما أُبقيَ على لَفْظِهِ وكشف للفَهْمِ بلَفْظٍ آخر يساويه في معناه فذلك بيانٌ وتفسيرٌ وليسَ بتأويلٍ.

الخامس: نمرود بن ساروع .

السادس: نمرود بن المضاض.

لما أهم فرعون هم الكليم هم بقتله، فهمهم بوعيد ذروني، فلجأ موسى لخوف وعيده إلى حيف: ﴿وَإِنِّي عُذْتُ﴾ [الدخان: ٢٠]، فأبرز له القدر العون من آل فرعون، وقد كان مكتتمًا في كتم: ﴿يَكْتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ﴾ [غافر: ٢٨]، فوقف في وجه ذلك البطال بَطِلَ بَطَل غَرْب حدته بسلاح: ﴿يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدْ جَآءَكُم﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿وَإِن يَكُ صَادِقًا﴾ [غافر: ٢٨]، ﴿فَمَن يَنصُرُنَا﴾ [غافر: ٢٩]، فما رآه القلى من قل ما رآه، ورأى رأي الغي: ﴿مَآ أُرِيكُمْ إِلَّا مَآ أَرَىٰ﴾ [غافر: ٢٩]، فكر يكرر مواعظ: ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيْكُم﴾ [غافر: ٣٠]، وذكرهم المصير: ﴿يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ﴾ [غافر: ٣٣].

وعاج على عيب المُعاجلة، ﴿إِنَّمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا مَتَٰعٌ﴾ [غافر: ٣٩]، فلما فلم ينجع في دآئهم دواء رماهم بسهم الوعيد عن قوس: ﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمْ﴾ [غافر: ٤٤]، فأوعدوه بوقائة ﴿فَوَقَىٰهُ﴾ [غافر: ٤٥]، فكم بينه وبين أهل العمى هو كرع ماء الفهم وشرقوا، وَعَبَرَ مع موسى بحر البحر وغرقوا، وهذا المؤمن مُرشد الكليم يوم: ﴿فَٱخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [القصص: ٢٠].

وذلك أن موسى خرج يومًا من قصر مصر، فحان دخوله ﴿عَلَىٰ حِينِ غَفْلَةٍ﴾ [القصص: ١٥]، فرأى قبطيًا يسجر إسرائيليًا، فصاح الإسرائيلي بعون فاستعانه، فثارت نيران العدل، فهاجم من ظلام الظلم عن زناد ﴿فَوَكَزَهُۥ﴾ [القصص: ١٥]، فظن أن تخويفه بالوكزة انقضى، ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥] فأمسى يمشي حِذاء الحذار، حَذا خوف الخوف، فلما علم القوم بفعله، أمر فرعون بقتله، فسبق هذا المؤمن النجيب على نجيب ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ﴾ [القصص: ٢٠]، فألقى عليه نصيحته ﴿فَٱخْرُجْ﴾ [القصص: ٢٠]، وعاد إلى صوم صومعة تعبده، مشتغلا عن غرورهم بغرير تزهده، يسرب في خمائل خموله تحت سَّير سِير مأمولة، إلى أن رد موسى بريد القدر، فتلقاه بشير: ﴿جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ [طه: ٤٠]، فنهض المؤمن مناضلا بقداح: ﴿أَتَقْتُلُونَ﴾

[غافر: ٢٨]، ولقد تبع أثره حبيب النجار، أسلم فسلم إذ كفر المحار، فغضب النجار، وكان تاريخ إيمانه يوم: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ﴾ [يس: ١٤]، فلما أبعد الأبعدين عن الدين وأقصى، جاء به ﴿مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، فقام صائحًا بالفصائح، ينادي بفصائح: ﴿ٱتَّبِعُواْ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [يس: ٢٠].

وأخبر عن لسان وجده عما وجد: ﴿إِنِّيٓ ءَامَنتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [يس: ٢٥]، فتناولوه، فقتلوه فلم يجد عليهم فيما فعلوه، إذ نقلوه إلى حبيب وأوصلوه، فتلقاه بشير: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ﴾ [يس: ٢٦]، فأبالهم لا أبالهم إلا نصحًا، فترنم بلفظ: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

ولقد صادا هاذين فيما دانا بشراك الهدى صدق الصِّدِّيق في تصديقه، وزاد بصدقته فهو أفضل عند السلم المؤمن لو علموا من مؤمن آل فرعون؛ لأن ذلك أخفى إيمانه إذ خافهم، وخافت نفس الصِّدِّيق ما حذرت ولا خافت، وهو أقرب من العزيز الغفار من حبيب النجار؛ لأن حبيب جاهد لدى المرسلين قبل وفاته، والصِّدِّيق جاهد في حياة النبي وبعد مماته، فمن كان في شكٍّ من هذ المقول فليطلع سِفر المنقول، حتى يزيل الشك بقول الرسول: " مَا طَلَعَتْ الشَّمْسُ وَلا غَرَبَتْ بَعْدَ النَّبِيِّينَ وَالْمُرْسَلِينَ عَلَى رَجُلٍ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ".

الفصل السابع والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿فَسَتَذۡكُرُونَ مَآ أَقُولُ لَكُمۡۚ﴾ [غافر: ٤٤]

إخواني؛ ما يُعرف قدر العافية إلا ساعة المرض، ولا قيمة الحياة إلا وقت الموت، أن يذكر المُحتضر ما فاته من زمن الاستدراك، فهو أعظم عليه من شدة الموت، لو قيل لأهل القبور ماذا تتمنون، لتمنوا ساعتكم هذه وأنتم تنفقونها في غير شيء.

رَوَى الْبُخَارِيُّ فِي أَفْرَادِهِ مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "إِنَّ الصِّحَّةَ وَالْفَرَاغَ نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ"(١).

وَقَالَ الْحَسَنُ: (لَيْسَ يَوْمٌ مِنْ أَيَّامِ الدُّنْيَا إلا يَتَكَلَّمُ وَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، إِنِّي يَوْمٌ جَدِيدٌ، وَأَنَا عَلَى مَا يُعْمَلُ فِيَّ شَهِيدٌ، وَإِنِّي لَوْ قَدْ آبَتْ شَمْسِي لَمْ أَرْجِعْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ).

وَكَانَ أَبُو حَازِمٍ يَقُولُ: (إِنَّ بِضَاعَةَ الآخِرَةِ كَاسِدَةٍ، فَاسْتَكْثِرُوا مِنْهَا فِي آوَانِ كَسَادِهَا، فَإِنَّهُ لَوْ قَدْ جَاءَ يَوْمَ نِفَاقِهَا لَمْ تَصِلُوا مِنْهَا إِلَى قَلِيلٍ وَلا إِلَى كَثِيرٍ).

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٢٣٥٧، رقم ٦٠٤٩)، وأحمد (١/ ٣٤٤، رقم ٣٢٠٧)، والترمذى (٤/ ٥٥٠، رقم ٢٣٠٤) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٣٩٦، رقم ٤١٧٠). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٧/ ٨٢، رقم ٣٤٣٥٧)، وعبد بن حميد (ص ٢٢٩، رقم ٦٨٤)، والطبرانى (١٠/ ٣٢٢، رقم ١٠٧٨٦)، والحاكم (٤/ ٣٤١، رقم ٧٨٤٥) وقال: صحيح على شرط الشيخين. والبيهقى فى السنن الكبرى (٣/ ٣٧٠، رقم ٦٣١٥)، وفى شعب الإيمان (٤/ ١٢٩، رقم ٤٥٤٣)، والقضاعى (١/ ١٩٦، رقم ٢٩٥).

إخواني؛ الْبِدَارَ الْبِدَارَ قبل يوم الندم، والْحِذَارَ الْحِذَارَ من زلة القدم، لا يغرنكم الإمهال، كم مُمْهَل عُوجل، كم ساكنٍ أُزعج، كم مُطمئن تعب، كم راقد سُلب، واأسفا لغافل لا يفيق بالتعريض حتى يرى التصريح، ولا تتبين له جَلِيَّةُ الحال إلا في الضريح، كأنه وقد وكزه الموت وقد أفاق، وانتبه لنفسه والروح في السياق، واشتد كربه والتفت الساق بالساق، وتحير في أمره وضاق الخناق، وصار أكثر شهواته توبةً من شقاق، هيهات مضى بأوزاره الثقيلة، واستوعر مهاده، واستحسن مقيله، وغُيب في الثرى، وقيل: لا حيلة، وبات الندم يلومه وبئس اللاحي له.

ففكروا إخواني في ذلك الغريب، وتصوروا آسف الندم وقلق المغيب، فلمثل حاله فليحذر اللبيب، وهذا آمر يبعده الأمل وهو والله قريب.

[الطويل]

تَغَنَّمَ سُكُونَ الْحَادِثَاتِ فَإِنَّهَا ... وَإِنْ سَكَنَتْ عَمَّا قَلِيلٍ تُحَرَّكُ

وَبَادِرْ بِأَيَّامِ السَّلامَةِ إِنَّهَا ... رُهُونٌ وَهَلْ لِلرَّهْنِ عِنْدَ مَتْرِكُ

أَفِقْ من سكرتك أيها الغافل فإنك عن قليل لا شك راحل، وإنما أيام قلائل، فخذ نصيبك من ظل زائل، واقض ما أنت قاضٍ، وافعل ما أنت فاعل.

[الكامل]

أَنَسِيتَ يَا مَغْرُورَ أَنَّكَ مَيِّتٌ ... أَيْقِنْ بِأَنَّكَ فِي الْمَقَابِرِ نَازِلُ

تَبْلَى وَتَفْنَى وَالْخَلائِقُ لِلْبَلَى ... أَبِمِثْلِ هَذَا الْعَيْشِ يَفْرَحُ عَاقِلُ؟!

ويحك دَبِّرْ أمرك قبل أن تنزل قبرك، ما أكثر ذنوبك، وما أقبح عيوبك، تغلبك نفسك على ما تظن، ولا تغلبها على ما تستيقن، تحزن لنقص مالك، فمالك لا تحزن لنقص عمرك.

إخواني؛ كأنكم بالعوارض الغوامض، وبأسد الموت المُستشيط الرابط، متى وحتى متى أتعبتم الرائض.

إخواني؛ عقاب الأجل قابض، وباسط الأمل قابض، حائل المُنى حائل، وحامل الردى ماحض، ليحلن بكم من الموت يوم ذو ظلمٍ، يُنسيكم معاشرة اللذات والنعم، ولا يبقى في الأفواه إلا طعم الندم.

يا أُسراء الخطايا فكوا أنفسكم بالتقوى، الأيام صحائف أعماركم، فاجعلوا فيها أحسن أعمالكم.

إخواني؛ الفرص تمر مر السحاب، والقعود من إخلاف الخوالف، أيام القدرة وإن طالت قصيرة، ومن استوطأ مركب العجز عثر به.

إخواني؛ الدنيا دار ليست لكم، متى تسمعون عزلكم، البدار البدار، خلوا كسلكم، ما أكثر العُمر انقضى، أما خضاب الشباب نضى، ليت الزمان الذي مضى لا عليكم ولا لكم، كم قطعتم بادية اللهو، وجبتم وإلى الآن من سفر الهجر ما أبتم، وبعد هذا إن تبتم قُبلتم.

الفصل الثامن والسبعون

في قوله عز وجل: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الشورى: ١١]

(الفاطر): الخالق، والجعل في القرآن على وجهين:

أحدهما: مضاف إلى الله تعالى، ثم هو على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى الخلق: ﴿وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ﴾ [الأنعام: ١].

الثاني: التصير: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

الثالث: القول: ﴿إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣].

الثاني: يُضاف إلى العباد، ثم هو على وجهين:

أحدهما: بمعنى الوصف: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ﴾ [النحل: ٥٧].

الثاني: بمعنى الفعل: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]، قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [النحل: ٧٢]؛ أي: من مثل خلقكم أزواجًا، وهو جمع زوجٍ، والزوج ما كان له قرينًا من جنسه، فهو اسم يقع على كل واحدٍ المُقترنين.

قَالَ الْفَرَّاءُ: (أَهْلُ الْحِجَازِ يَقُولُونَ لامْرَأَةِ الرَّجُلِ: زَوْجٌ، وَيَجْمَعُونَهَا: أَزْوَاجٌ). وتميم وأهل نجدٍ تقول زوجة، ويجمعونها زوجات.

والزوج[1] في القرآن على ثلاثة أوجهٍ:

---

(١) الزَّوْجُ: ما كان له قَرِينٌ من جِنْسِهِ فهو اسمٌ يَقَعُ على كُلِّ واحدٍ من المُقْترنين، يقال للرجل: زَوْجٌ، وللمَرْأةِ زَوْجٌ، ويقال: لفلان زوجان من حمام؛ أي: ذكر وأنثى.

قال ابن فارس: والزَّوْجُ من النَّبَاتِ اللَّونُ؛ وَمِنْهُ قوله تعالى في (ق): ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [آية: ٧].

أحدها: الزوجات: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ﴾ [النساء: ١٢].

الثاني: القرين: ﴿ٱحْشُرُوا۟ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَأَزْوَٰجَهُمْ﴾ [الصافات: ٢٢]؛ أي: قرناءهم من الشياطين.

الثالث: الصنف: ثمانية أزواج: الأنعام، والإبل، والبقر، والمعنى: جعل لكم أصنافًا من الأنعام، ذكورًا وإناثًا، ﴿يَذْرَؤُكُمْ فِيهِۚ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: يخلقكم فيه؛ أي: في بطون النساء.

قال: يخلقكم فيما جعل لكم من أزواجكم، وبعيشتكم فيما جعل لكم من الأنعام.

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]؛ أي: ليس كهو، والمثل صلة.

كان بعض العلماء يقول: كل موصوف بأنه واحد فذلك يجوز، والواحد على الحقيقة هو الله تعالى؛ لأن الخالق لا يقبل التجزيء، بخلاف المخلوق، أو لا ترى أن الواحد منا على الحقيقة اثنان؛ لأنه جسم وروح، ومن اثنين ذكر وأنثى، وباثنين الطعام والشراب، وفي اثنين الليل والنهار، ومع اثنين الحركة والسكون، والحق سبحانه وتعالى بخلاف ذلك.

وقال آخر: المُعطل لم يدخل دار التوحيد؛ لأنه نفى الخالق، والمشبه دخلها بالإثبات، وخرج منها بالتشبيه، والموحد دخلها بالإقرار، وتمكن منها بنفي المثل، وما آمن بالخالق من شبهه بالخلائق.

سبحان من حارت العقول في حَيِّزِ عظمته، وَكَلَّتْ كل الألسن عن كنه صفته، سارت ركائب الألباب تتابع على باب عرفانه، فشائع بها قهر ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ﴾ [الشورى: ١١]، فولت على وجه توجهها، فصاح فصيح اللفظ: ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

آنست جنود الفكر باب الأسباب، فنادت في معسكر العقل: ﴿لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ﴾ [القصص: ٢٩]، ثم قطعت هامة مهامه الطلب بشبا سيف الجد، فلما كَلَّتْ كل ركابها، وانقطع سير السير، لاحت لها طوبى في طوى طور الطلب، فصاح موسى الشوق عن لسان التوق: ﴿أَرِنِىٓ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، فضربت صدر الطالب كفُّ كفٍّ: ﴿لَن﴾ [الأعراف:

١٤٣]، وقام خطيب اللوم على عتبة العتاب، يُنادي بلسان التعظيم وله المثل الأعلى.

كيف تنال مبادئ العقول من لا مبدأ لوجوده، أم كيف يتناهى متناهي الفهوم إلى من لا مُنتهى لدوامه من بيان عظمته رفيع الدرجات من أثر قسره: ﴿يُسَبِّحُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النور: ٤١]، توقيع أمره يأمر بالعدل، واقع زجره وينهى عن الفحشاء، ينادي على باب عزته: ﴿لَا يُسْـَٔلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣]، يُصاح على محجة حجته: ﴿لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ﴾ [المؤمنون: ٨٤]، ينذر جاسوس علمه: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المجادلة: ٧] يقول جهبذ طوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، يترنم منشد فضله: ﴿لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٥٣]، سبحان الملك ولا وزير، القادر ولا ظهير، والمدبر ولا مُشير، الموصوف ولا نظير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

مُزين السماء بكل نجم مُنير، فهي على صفة المسارع إذا مشى التفكير، كأنها حبات ماء في ملتطم غدير، أو كدرٍ منضدٍ في ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ [النمل: ٤٤].

شمر السماء بالمسامير، ورفع الأفلاك في جو التدوير، وصرف الجديدين بزمام التكوير، ووسم الحادثات بوسم التسخير.

نقش السماء بالشهب فأحسن النقش، وفرش الأرض فمهدت بالفرش في ستة أيام، ثم استوى على العرش لا كاستواء المخلوق فوق السرير، بقدرته الفلك والملك، وبمشيئته النجاة والهلك، ليس في صفاته الكيف والعُمق والسُمك ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ [فاطر: ١٣]، ذاته لا كالذوات، صفاته لا كالصفات، كلامه لا بأدوات، فيلحق الأول الأخير.

نقبل صفاته بانشراح الصدر، ونتقي التشبيه لعظم القدر، ونقر أنه يُرى كما يُرى القمر ليلة البدر في " الصحيحين " من حديث جرير.

إذا قام الحسن مصورًا، أو نهض الذهن مُدبرًا، أو جاء العقل مُفكرًا،

صاح النقل بصوتٍ كصوت الأمير، ليس بجسمٍ فيقال كيف، ولا نصفه بالرأى فيقع حيف، نقدنا صحيح ونقدهم زيف، ليس بيننا وبينهم سوى السيف، من عهد إمامنا الكبير.

دليلنا القرآن والأخبار، ومذهبنا مذهب السلف الأخيار، في قلوب الأعداء منا نار، تضرمها كثير، لا مرحبًا بالمشبه ولا أهلا، ولقد نكب المُعطل وإن كان شابًا أو شيخًا أو كهلا، أتحسب الكلام في الصفات سهلا مهلا في طريقك بير.

لقد قضيت بإظهار الحق حقًا، ومحقت القوم اليوم محقًا، وسحقت قلوبهم بالدليل سحقًا، فسُحقًا لأصحاب السعير، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

الفصل التاسع والسبعون

في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [الزخرف: ٣١]

لولا في الأصل حرف وُضع لامتناع الشيء، لوجود غيره، تقول: لولا خلافك لأكرمتك.

قال الفراء: إذا رأيت بعدها اسمًا فهي استفهام بمعنى: هَلا، وإذا رأيت بعدها اسمًا مرفوعًا فهي التي جوابها اللام، وهي في القرآن على هذين الوجهين:

أحدهما: امتناع الشيء لوجود غيره، وهو ثلاثون موضعًا في القرآن:

في (البقرة): ﴿فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [البقرة: ٦٤]، و ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ [البقرة: ٢٥١].

وفي (النساء): ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ٨٣]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ [النساء: ١١٣].

وفي (هود): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ﴾ [هود: ١١٠].

وفي (يوسف): ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٢٤].

وفي (بني إسرائيل): ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ [الإسراء: ٧٤].

وفي (طه): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا﴾ [طه: ١٢٩].

وفي (الحج): ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ﴾ [الحج: ٤٠].

وفي (النور): ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ حَكِيمٌ﴾ [النور:

١٠]، و ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ [النور: ١٤]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾﴾ [النور: ٢٠]، ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

وفي (الفرقان): ﴿لَوْلَآ أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا﴾ [الفرقان: ٤٢]، وفيها: ﴿لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾ [الفرقان: ٧٧].

وفي (القصص): ﴿لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا﴾ [القصص: ١٠]، وفيها: ﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌ﴾ [القصص: ٤٧]، وفيها ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا﴾ [القصص: ٨٢].

وفي (العنكبوت): ﴿وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [العنكبوت: ٥٣].

وفي (سبأ): ﴿لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٣١].

وفي (الصافات): ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾﴾ [الصافات: ١٤٣].

وفي سورة (المؤمن): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [فصلت: ٤٥].

وفي (عسق): ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ﴾ [الشورى: ١٤]، وفيها ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةُ ٱلْفَصْلِ﴾ [الشورى: ٢١].

وفي (الزخرف): ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الزخرف: ٣٣].

وفي (الفتح): ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ [الفتح: ٢٥].

وفي (الحشر): ﴿وَلَوْلَآ أَن كَتَبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمُ ٱلْجَلَآءَ﴾ [الحشر: ٣].

وفي (نون): ﴿لَّوْلَآ أَن تَدَٰرَكَهُۥ نِعْمَةٌ﴾ [القلم: ٤٩].

الوجه الثاني: لولا بمعنى هَلا، وهو أربعون موضعًا:

في (البقرة): ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ١١٨].

وفي (النساء): ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ﴾ [النساء: ٧٧].

وفي (المائدة): ﴿لَوْلَا يَنْهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ﴾ [المائدة: ٦٣].

وفي (الأنعام): ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٨]، ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الأنعام: ٣٧].

وفي (يونس): ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ﴾ [يونس: ٩٨].

وفي (هود): ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ﴾ [هود: ١٢]، ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ [هود: ١١٦].

وفي (الرعد): ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ [الرعد: ٧]، ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ [الرعد: ٢٧].

وفي (الكهف): ﴿لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ﴾ [الكهف: ١٥]، ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ﴾ [الكهف: ٣٩]، وفي (طه): ﴿لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ [طه: ١٣٣]، ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [طه: ١٣٤].

وفي (النور): ﴿وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم﴾ [النور: ١٦].

وفي (الفرقان): ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [الفرقان: ٣٢].

وفي (النمل): ﴿لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ﴾ [النمل: ٤٦].

وفي (القصص): ﴿لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا﴾ [القصص: ٤٧]، ﴿لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ﴾ [القصص: ٤٨].

وفي (العنكبوت): ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [العنكبوت: ٥٠].

وفي (سجدة المؤمن): ﴿لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ﴾ [فصلت: ٤٤].

وفي (الزخرف): ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ [الزخرف: ٣١]، وفيها: ﴿فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ﴾ [الزخرف: ٥٣].

وفي (الأحقاف): ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٨].

وفي (محمد): ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ [محمد: ٢٠].

وفي (الواقعة): ﴿فَلَوْلَا تُصَدِّقُونَ﴾ [الواقعة: ٥٧]، ﴿فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٦٢]، ﴿فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٠]، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ [الواقعة: ٨٣]، ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الواقعة: ٨٦].

وفي (المجادلة): ﴿لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

وفي (المنافقين): ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ﴾ [المنافقون: ١٠].

وفي (نون): ﴿لَوْلَا تُسَبِّحُونَ﴾ [القلم: ٢٨].

وفي معنى لولا التي معناها هَلا لو ما وهي حرف واحد في (الحجر):

﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ﴾ [الحجر: ٧]، والقريتان: مكة، وعظيمها: الوليد بن المغيرة، والطائف وعظيمها أبو مسعود الثقفي.

والرحمة[(١)] في القرآن على ستة عشر وجهًا:

أحدها: الإسلام: ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ١٠٥].

الثاني: الجنة: ﴿فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٠٧].

الثالث: السعر: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [البقرة: ١٧٨].

الرابع: المغفرة: ﴿كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ١٢].

الخامس: المطر: ﴿بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الأعراف: ٥٧].

السادس: القرآن: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ﴾ [يونس: ٥٨].

السابع: الإيمان: ﴿وَءَاتَانِي رَحْمَةً مِّنْ عِندِهِ﴾ [هود: ٢٨].

الثامن: العصمة: ﴿إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف: ٥٣].

التاسع: الرزق: ﴿ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾ [الكهف: ١٠].

العاشر: النعمة: ﴿ءَاتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ [الكهف: ٦٥].

الحادي عشر: المنة: ﴿وَلَكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾ [القصص: ٤٦].

الثاني عشر: النصر: ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ [الأحزاب: ١٧].

الثالث عشر: العافية: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ﴾ [الزمر: ٣٨].

الرابع عشر: النبوة: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

الخامس عشر: المودة: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩].

السادس عشر: الرقة: ﴿رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧].

قوله: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ﴾ [الزخرف: ٣٢]، المعنى: إذا كانت الأرزاق بقدر الله لا بحول محتالٍ، وهي دون النبوة فكيف النبوة.

لقد خُلق نبينا من أرض الأرض أرضًا، وأصفي من أكمل الأوصاف وصفًا، فأبى إباؤه لِمَزِيَّة منزلته زلة الزنا، وصين لأجله الإباء إلى أن آن أوانه،

---

(١) الرَّحْمَةُ: النِّعْمَةُ على المُحْتَاجِ.

قال ابن فارس: يُقَال: رَحِمَ يَرْحَمُ؛ إذا رَقَّ. والرَّحْمُ والمَرْحَمَةُ والرَّحْمَةُ بمعنى واحد.

وأنى لم تزل نطفته الزكية تُستخرج من زكية الأصلاب الزكية، إلى نقاوة الأرحام النقية، بواسطة عقد النكاح المحروس العقد عن الحل بالسفاح إلى أن عُرض على أبيه الزنا فأباه، فلما فصل وصل إلى آمنة، وكان المراد حراسة المحمول لا حماية الحامل، وذاك أن عبد الله مر بفاطمة بنت مُرٍ، فرأت بعين علمها الآثار أثار النبوة، فأثرت علومها التي أثرت منها أن أثرَّت مثل هذه المآثر، غير أنها أظلت سبيل الطلب فخفى عليها باب الوصل، فحاورته بما حوت من حُمر الجمال، فأبل عنها فعل الأبيل، وترنم مقوله بفصيح قوله: (أَمَّا الْحَرَامُ فَالْمَمَاتُ دُونَهْ)، ثم أَمَّ آمنة فخلا معها فجامعها، ثم عرض له جمال العارضة فنجا نجوها، فصاحت فصاحتها حين غاب عنها بَدْر ما بَدَرَ لها حين مرَّ ببصرها، وتَلَمَّحته ببصيرتها، يا صاح؛ لست صاحبة ربية، ولكن سدلت سرقة ظلم الكفر حجاب الظلمة، فَلاحَ لِيَ الْفَلاحُ في مشكاة وجه نور النبوة، فثرت إلى ما آثرت فعثرت بتلك النبوة، وأبى الله إلا أن ينزل ذلك منزلة، وأخبر زوجتك أن معها أعلى الخلق منزلة، ثم لم تلبث أن شَدَتْ وَأَنْشَدَتْ: [أحذ الكامل]

إِنِّي رَأَيْتُ مَخِيلَةً لَمَعَتْ ... فَتَلألأتْ بِحَنَاتِمِ الْقِطْرِ
وَرَأَيْتُهُ شَرَفًا أَبُوءُ بِهِ ... مَا كُلُّ قَادِحِ زَنْدِهِ يُورِي
لِلَّهِ مَا زُهْرِيَّةٌ سَلَبَتْ ... ثَوْبَيْكَ مَا اسْتَلَبَتْ وَلَمْ تَدْرِ

فلما صدفت بذرة المصطفى صدفة آمنة، وكانت من الأذى والوحم آمنة، فأوضع الموت بأبيه وهو حمل لم يوضع، ليبين سر: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا﴾ [الضحى: ٦]، فلما انقضى المدى انقض معتمدًا على يده، ليُوري أنه يدفع الدنيا بيد تزهده، ثم سما بصره إلى السماء يشير إلى مقصده، ولم يولد كغيره منكوسًا، بل أُخرج مختونًا، فانشق الإيوان الكسروي بولادته، وظهر معه نور أضاءت قصور الشام لكثرته، وبذلك النور عَرَّضَ العباس في مدحته: [المنسرح]

مِنْ قَبْلِهَا طِبْتَ فِي الظِّلالِ وَفِي ... مُسْتَوْدَعٍ حَيْثُ يُخْصَفُ الْوَرَقُ

ثُـمَّ هَـبَـطْـتَ الْـبِـلادَ لا بَـشَـرٌ ... أَنْـتَ وَلا مُـضْـغَـةٌ وَلا عَـلَـقُ
بَـلْ نُـطْـفَـةٌ تَـرْكَـبُ الـسَّـفِـيـنَ وَقَـدْ ... أَلْـجَـمَ نَـسْـرًا وَأَهْـلَـهُ الْـغَـرَقُ
تُـنْـقَـلُ مِـنْ صَـالِـبٍ إِلَـى رَحِـمٍ ... إِذَا مَـضَـى عَـالَـمٌ بَـدَا طَـبَـقُ
وَرَدْتَ نَـارَ الْـخَـلِـيـلِ مُـكْـتَـتِـمًـا ... فِـيـهَـا زَمَـانًـا وَلَـسْـتَ تَـحْـتَـرِقُ
حَـتَّـى حَـوَى بَـيْـتُـكَ الْـمُـهَـيْـمِـنُ مِـنْ ... خِـنْـدِفَ عَـلْـيَـا تَـحْـتَـهـا الـنُّـطُـقُ
وَأَنْـتَ لَـمَّـا وُلِـدْتَ أَشْـرَقَـتِ الْ ... أَرْضُ وَضَـاءَتْ بِـنُـورِكَ الأُفُـقُ
فَـنَـحْـنُ فِـي ذَلِـكَ الـضِّـيَـاءِ وَفِـي الـنُّـو ... رِ وَسُـبْـلِ الـرَّشَـادِ نَـخْـتَـرِقُ

فوثبت حليمة لرضاعه، ثم قضت باقي الدين، فاستقام قيام نباته على سوقه لتعجيل قيام سُوقه، فنشأ في حجر الكمال كما نشأ، فشأى منشأ من شاء، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيهِ وَسَلَّمَ فَخْمًا مُفَخَّمًا، مُتَمَاسِكًا، أَبْيَضَ مُشْرَبٌ بِحُمْرَةٍ، ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، مُتَبَلِّجَ الْوَجْنَةِ، يَتَلألأ تَلأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، رَجْلَ الشَّعْرِ، أَدْعَجَ الْعَيْنَيْنِ، وَاسِعَ الْجَبِينِ، أَزَجَّ الْحَوَاجِبِ، سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرْنٍ، بَيْنَهُمَا عِرْقٌ يُدِرُّهُ الْغَضَبُ، أَقْنَى الْعِرْنِينِ، كَثَّ اللِّحْيَةِ، سَهْلَ الْخَدَّيْنِ، ضَلِيعَ الْفَمِ عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْجُمَانِ، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ في صَفَاءِ الْفِضَّةِ، رَحْبَ الرَّاحَةِ، ضَخْمَ الْكَرَادِيسِ، جَلِيلَ الْمُشَاشِ وَالْكَتَدِ، بَعِيدَ مَا بَيْنَ الْمَنْكِبَيْنِ، سَوَاءَ الصَّدْرِ وَالْبَطْنِ، شَثْنَ الْكَفَّيْنِ وَالْقَدَمَيْنِ، طَوِيلَ الزِّنْدَيْنِ، مَسِيحَ الْقَدَمَيْنِ، حُلْوَ الْمَنْطِقِ كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ.

فلما تمت له ست سنين، ألوى الموت بالوالدة، فجد في كفالته الجد، ثم طلب الموت عبد المطلب، فما أبى الطالب ولا اشتغل بأوصابه، حتى أوصى به أبا طالب، فخرج به وقد زانه كالتاج تاجرًا، فيمم باليتيم منزل تيماء، فرآه بُحَيْرَاءُ بحرته، فقرأ سمات النبوة من شمائل: ﴿يَعْرِفُونَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾ [الأعراف: ٤٨]، فشام برق فضله من شيمه بشامته، فقال لعمه: احفظ هذه الشامة من شامتٍ.

وَلَقَدْ قَالَ لَهُ الْعَبَّاسُ يَوْمًا: يَا رَسُولَ اللَّهِ عَمُّكَ أَبُو طَالِبٍ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَنْفَعُكَ، قَالَ: « إِنَّهُ فِي ضَحْضَاحٍ مِنَ النَّارِ وَلَوْلا أَنَا كَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ

مِنْ النَّارِ "(١)، أخرجاه في " الصحيحين " من حديث العباس، وجُملة ما روى العباس خمسة وثلاثون حديثًا، أخرج له منها في " الصحيحين " خمسة، المتفق عليه منها حديث، وهو ما ذكرناه، وانفرد البخاري بحديث، ومسلم بثلاثةٍ.

قال ابن السائب: (عمومة النبي صلى الله عليه وسلم أحد عشر: الحارث، والزبير، وأبو طالب، وحمزة، وأبو لهب، والغيداق، ومقوم، وضرار، والعباس، وقثم، وحجل واسمه المغيرة).

وقال غيره: هم عشرة، ولم يذكر فيهم قثمًا، وقال اسم الغيداق حجل، ولم يسلم منهم إلا حمزة والعباس، فأما حمزة، فجميع ما روى عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثان: ولم يخرج له شيء في الصحاح، وقد ذكرنا ما روى العباس.

وعمات رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة: أم حكيم وهي البيضاء، وبَرَّة، وعاتكة، وصفية، وأروى، فأما صفية فأسلمت بلا خلاف، وروت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يحصر ذلك، وَاخْتُلِفَ في إسلام عاتكة وأروى.

وما زال نشر رسول الله صلى الله عليه وسلم يضوع ولا يضيع، إلى أن تمخضت حامل النبوة في إبَّانِ التمام، فَآثَرَ طَلْقَ الطَّلْقِ طَلاقَ الْخَلْقِ الْخُلْوَة، فَتَخَلا في صومعة الوحدة وحده، وكان أحب الْخِلالِ إليه خلال الخلوة، فتحرى غار حراء للفراغ، فراغ إليه الملك، فأغار حبل الوصال في ذلك الغار، فأفاض عليه حُلة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، فأفاض إلى حلة " زَمِّلُونِي "، فتلقته خديجة ببشارة " لا يُخْزِيكَ اللَّهُ "، وسكنت علته بتعلة " إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ "(٢)، ثم انطلق به إلى ورقة، فقرأ ورقة من ورق سيماه نقش

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١٤٠٩، رقم ٣٦٧٢)، ومسلم (٠١/١٩٥، رقم ٢١٠)، وابن حبان (١٤/١٦٨، رقم ٦٢٧١).

(٢) أخرجه البخاري (٦/٢٥٦١، رقم ٦٥٨١).

فضله، فتيقظ لتصديقه إذ ناموا، فقال: (هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى)، ولقد عرفه الأحبار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وأنذر به المتبوع، وأخبر به التابع، وكانت تُسَلِّم عليه قبل النبوة الأحجار، وتُبشره بما أَوْلاه مَوْلاه الأشجار، وكان خاتم النبوة بين كتفيه، وسرايا الهيبة تترك كِسْرَى كَالْكِسْرَة بين يديه، فسبحان من حاطه بحائط حرم حرمته، والحمد لله الذي جعلنا من أمته.

الفصل الثمانون

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣]

الهُدى[1] **على أربعة عشر وجهًا:**

أحدها: الثبات، ومنه: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]؛ أي: ثبتنا عليه.

الثاني: البيان: ﴿عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٥].

الثالث: الرسول، ومنه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾ [البقرة: ٣٨].

الرابع: أمر محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٥٩].

الخامس: السُّنَّةُ: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

السادس: الإصلاح: ﴿لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٢].

السابع: الدعاء: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [الرعد: ٧].

---

(١) قال ابن قتيبة: الهُدَى: الإرْشَادُ. والإرْشَادُ: البَيَانُ.
وقال أبو بكر بن الأنباري: أَصْلُ الهُدَى في كَلامِ العَرَبِ: التَّوْفِيقُ.
وذَكَرَ بَعْضُ أَهْلِ العِلْمِ: أنَّ الهَدِيَّةَ سُمِّيَت هَدِيَّةً لأنَّها تَدُلُّ على تَقْوِيمِ الوِدَادِ.
وتقول: أَقْبَلَتْ هَوَادِي الخَيْلِ؛ إذا بَدَتْ أَعْنَاقُهَا.
ويُقَالُ: هُوَ أَوَّلُ رَعِيلِهَا لأنَّه المُتَقَدِّمُ. وتقول: هَدَيْتُ العَرُوسَ إلى بَعْلِهَا هَدَاءً.
والهَدْيُ والهَدِيُّ: ما أُهْدِيَ من النَّعَمِ إلى الحَرَمِ.
وجَاءَ فُلانٌ يُهَادِي بينَ اثْنَيْنِ؛ إذا مَشَى بَيْنَهُمَا مُعْتَمِدًا عَلَيْهِمَا.

الثامن: القرآن: ﴿أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [الإسراء: ٩٤].

التاسع: الإيمان: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣].

العاشر: الإلهام: ﴿أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٥٠]؛ أي: ألهمهم كيف المعاش.

الحادي عشر: الموت على الإسلام: ﴿وَعَمِلَ صَٰلِحًا ثُمَّ ٱهْتَدَىٰ﴾ [طه: ٨٢].

الثاني عشر: التوحيد: ﴿إِن نَّتَّبِعِ ٱلْهُدَىٰ مَعَكَ﴾ [القصص: ٥٧].

الثالث عشر: دين الإسلام، ومنه: في (البقرة): ﴿إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وفي (آل عمران): ﴿إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]، وفي (الحج): ﴿إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الحج: ٦٧].

الرابع عشر: التوراة: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْهُدَىٰ﴾ [غافر: ٥٣].

ودين الحق الإسلام ليظهره وفي هاء الكناية قولان:

أحدهما: أنها ترجع إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إلى الدين، وظهور الدين على وجهين:

أحدهما: بالحجة الواضحة، وذلك أمر قد حصل.

الثاني: بالقهر، وذلك عند نزول عيسى عليه السلام.

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: (لا يَبْقَى أَهْلُ دِينٍ إلا دَخَلُوا فِي الإسْلامِ أَوْ أَدُّوا الْجِزْيَةَ).

لَمَّا بَعَثَ الْمَلِكُ الْمَلَكَ إلى نبينا صلى الله عليه وسلم برسالة: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: ١]، فتر الوحي بعدها مُدة مدت قوس الشوق، فَرَمَتِ الْكَبْدَاءُ الْكَبِدَ بكيدٍ أعجز الْمُكَابَدَة، فكان يهم لما يلقى إلقاء نفسه من ذروة الجبل، فإذا بدا له بدله جبريل فبدا له، ثم رميت الشياطين عند مبعثه بسهام الشهب عن قوس ويقذفون، فمروا إلى المغارب، ومشوا إلى المشارق، ليقطعوا سبسب السبب، فجرت ريح التوفيق بمركب السائرين في بحر الطلب نحو تهامة، حتى أرسى على ساحل: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فصادفه في الصلاة، فصادفته قلوب القوم، فأقامت، فقامت الألباب على باب ﴿أَنصِتُواْ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فلما ملأوا أوعية وعيهم من ثمرة فوائده، أسرعوا في سفر ﴿وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم

مُنذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩]، فنادوا في أندية البشارة بألسنة الطلب: ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا﴾ [الجن: ١]، ونودي من وادي فخر فضله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾ [المدثر: ٢]، فقامت فقامت حجة صدقه تنادي: ﴿فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وتمده عن التهمة بظاهرة: ﴿لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًاۖ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وعلم مكارم الأخلاق: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، انشق القمر لتبين معجزةً لتابعه، ونبع الماء كالعيون من بين أصابعه، وزال الشجر لهيبته عن مواضعه، وَحَنَّ إليه الجذع بأنين الشوق، وَكَلَّمَهُ الذراع بأفصح نطقٍ، فما زال يجاهد أهل الهجر بالهجر، ويبصر دينه حتى أمر بالهجرة، فهاجر إلى المدينة، فلما دخل طَيْبَةَ طَابَتْ بِطِيبِ الطَّيْبِ، وانحفل الناس ينظرون إلى وجهه، وانزعجت القلوب لهيبة إعظامه، وكان فيما حُفظ من كلامه: " يَا أَيُّهَا اَلنَّاسُ؛ أَفْشُوا السَّلامَ، وَصِلُوا اَلأَرْحَامَ، وَأَطْعِمُوا الطَّعَامَ، وَصَلُّوا بِاللَّيْلِ وَالنَّاسُ نِيَامٌ، تَدْخُلُوا اَلْجَنَّةَ بِسَلامٍ "(١)، ثم إنه شرع في بناء مسجده، ونقل مع الناس اللبن بيده، ثم أظهره الله تعالى على مُعانده، ولقد غزا سبعًا وعشرين غزوة، وبعث ستًا وخمسين سَرِيَّةً كلها تفيء بفيء الغنم، وفي هذه السنة من الهجرة أمر ببناء مسجده ومساكنه، وأقام في منزل أبي أيوب حتى بنيت حجرته، ثم انتقل إليها، وفي هذه السنة هلك أسعد بن زراة، وآخى بين المهاجرين والأنصار، ورأى عبد الله بن زيد الأذان، فَعَلَّمَهُ بِلالا، وأسلم عبد الله بن سلام.

وفي السنة الثانية: حُوِّلَتِ الْقِبْلَة إلى الكعبة في رجب، وكانت غزاة بدر في رمضان، وماتت رقية وعثمان بن مظعون، وبنى بعائشة، وتزوج عَلِيٌّ بِفَاطِمَةَ، وولد ابن الزبير والنعمان بن بشير، ونزلت فريضة رمضان في شعبان، وأُمر بزكاة الفطر.

---

(١) أخرجه ابن أبى شيبة (٧/ ٢٥٧، رقم ٣٥٨٤٧)، وأحمد (٥/ ٤٥١، رقم ٢٣٨٣٥)، وعبد بن حميد (ص ١٧٩، رقم ٤٩٦)، والدارمى (١/ ٤٠٥، رقم ١٤٦٠)، والترمذى (٤/ ٦٥٢، رقم ٢٤٨٥)، وقال: صحيح. وابن ماجه (١/ ٤٢٣، رقم ١٣٣٤) وابن سعد (١/ ٢٣٥)، والحاكم (٣/ ١٤، رقم ٤٢٨٣)، وقال: صحيح على شرط الشيخين. والضياء (٩/ ٤٣٣ رقم ٤٠٤).

وفي السنة الثالثة: تزوج حفصة وزينب بنت خزيمة، وتزوج عثمان أم كلثوم، وولد الحسن بن علي رضي الله عنهما، وكانت وقعة أُحد وغزوة بني النضير، وحُرِّمَتِ الْخمر.

وفي السنة الرابعة: كانت غزوة الرقاع، وقُصرت الصلاة، وولد الحسين، وتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أم سلمة.

وفي السنة الخامسة: كانت غزوة دومة الجندل، وغزوة الخندق، وغزوة بني قريظة، وتزوج زينب بنت جحش، ونزل الحجاب، وفيها صَلَّى صَلاةَ الْخَوْفِ.

وفي السنة السادسة: كانت غزوة الحديبية، وغزوة بني المصطلق، وفيها تكلم أهل الإفك.

وفي السنة السابعة: غزاة خيبر، وسُم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذراع الشاة، وتزوج أم حبيبة وميمونة بنت الحارث وصفية بنت حُيي، ووفد جعفر من الحبشة، وحاطب بن ربيعة بن أبي بلتعة من عند المقوقس بمارية وبغلته وحماره يعفور، وأسلم أبو هريرة.

وفي السنة الثامنة: بَعَثَ بَعْثَ مُؤْتَةَ، وأصيب زيد وجعفر وابن رواحة، وأسلم خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وبعث عمر إلى ذات السلاسل، وافتتح مكة في رمضان، وولد إبراهيم، وتوفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت غزاة حنين، وغرزاة الطائف، وأسلم عكرمة.

وفي السنة التاسعة: غزا تبوكًا، وجرت قصة الثلاثة الذين خلفوا، وهم: كعب بن مالك، وهلال بن أمية، وزرارة بن الربيع، كانوا تخلَّفوا من غير عذر، ثمَّ لم يبالغوا في الاعتذار، كما فعل أولئك الذين تصدَّقوا بأموالهم، فوقف رسولُ الله صلى الله عليه وسلم أمرهم، وهم مهجورون حتَّى نزل قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨] الآيات. ﴿إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بعقابه جزاءً لهم ﴿وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ١٠٦] بفضله [﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦] بما يؤول إليه حالهم ﴿حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ١٠٦] فيما يفعله بهم].

وبُعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه، فحج بالناس، وأمر عَلِيًّا بقراءة (براءة)، وماتت أم كلثوم بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ونعى النبي النجاشي، وتتابعت الوفود وآلَى ألا يدخل على نسائه شهرا.

وفي السنة العاشرة: حج حجة الوداع، ونزل عليه: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: ٣]، ومات إبراهيم، وأسلم جرير، فلما توغلت سرايا نصره من أقطار الأرض فجاجًا، ﴿وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢﴾ [النصر: ٢]، انتهت قائلته في خيمة الدنيا، فلعبت ريح التلف بعمود الصحة في صحيح الآفات، فصاح لسان عزمه الصاحي: "مَالِي وَلِلدُّنْيَا وَمَا لِلدُّنْيَا وَمَالِي إِنَّمَا [أَنَا وَالدُّنْيَا][1] كَرَاكِبٍ قَعَدَ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا "[2]، فنزل به الموت، وما نزل به على سُدَّة السيادة في حياته ومنقلبه، فلما رحل أبقى بين مناخ الركائب سرًّا يبين رقش نقشه في مرقوم " خَلَّفْتُ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ ".

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٢) أخرجه ابن عساكر (٤٤/ ٢٩٢)

الفصل الحادي والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩] صلى الله عليه وسلم

اعلم أن الله تعالى اشتق اسم نبينا صلى الله عليه وسلم من صفاته، فهو: أحمد، ومحمد، والماحي، والحاشر، والشاهد، والبشير، والنذير، والعاقب، والمقَفَّى، والمتوكل، والفاتح، والخاتم، والأمين، والرسول، والنبي، والأمي، والمصطفى، والضحوك، والقتال، ونبي الرحمة، ونبي الملاحم، والقاسم.

وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أد بن أدد بن زيد بن يقدر بن بقدم بن الهميسع بن نبت بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم بن تارخ بن ناحور بن ساروع بن أرغو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح بن لمك بن مُتوشلخ بن أخنوخ هو إدريس بن سدد بن لوذ بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم صلى الله عليه وسلم.

وأبو بكر الصديق في النسب عند مرة، وكذلك طلحة، وعمر عند كعب، وكذلك سعد، وعثمان عند عبد مناف، وعلي عند عبد المطلب، والزبير عند قُصي، وعبد الرحمن عند كلاب بن مرة، وكذلك سعيد وأبو عبيدة عند فهر، وآخر بطون قريش عند بنو فهر.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، لما جعل تعالى نبيه محمدًا خير الخلق، جعل أصحابه خير الأصحاب، فبادرت نفوسهم إلى الجد فيما

فعلت، فَعَلَتْ لهم المنازل، كانوا بالليل رهبانًا وبالنهار فرسانًا، قطع الرسول صلى الله عليه وسلم طمع من طمع في لحاقهم بجسام " مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ وَلا نَصِيفَهُ "(١)، وكيف تنال مرتبة السابق بشيء وقر في صدره، أو منقبة المهيب والعدو يفرق من ظله، أو مقام الوقور والملائكة يستحيون منه، أو فضيلة مزاحم النفس في منزلة كهارون من موسى، يأس والله الكهول من مقاربة هذان سيدا كهول أهل الجنة، كما لم يطمع الشباب في مزاحمة سَيِّدَي شباب أهل الجنة.

متى التهبت في صحابة الأنبياء عزيمة جمرة جمزة حمزة، أو علا على العُلا عَلاء علي، لقد فاز بلقب الصدق طلحة الجود، كما سعد بالفضل وحواري الزبير، وسما بصلاة النبي خلفه عبد الرحمن بن عوف، كما قرت بلفظ فداك أبي وأمي غير سعد، ونجا بالشهادة له الجنة سعيد، وكما عز ابن الجراح بلقب الأمين، ولم يُذكر في القرآن غير زيدٍ، وأين في الموالي مثل سالم وسلمان، ومن في الزهاد مثل مصعب وابن مظعون، وإنه لمسعود عبد الله بن مسعود، وطوبى ثم طوبى لخباب وصُهيب، ويا شرف المؤذنين بصوت بلال، ويكفي فخرًا كوني بردًا لعمار، أي بيت كبيت أبي أيوب، ومن زين القُرى إلا أُبي بن كعبٍ، ومن في النقباء كأسعد بن زرارة وسعد بن الربيع، وأنى للفقهاء مثل معاذ، ومن له صبر كصبر أبي ذر، والفخر لبني هاشم بالعباس، وكفى للبُصراء قائدًا ابن أم مكتوم، وإنه لقدوة للمؤثرين أبو الدحداح، ومن قوام الليل مثل تميم، ومن صبر على القتل صبر خبيب، إن كل الصحابة لسادة، وقد شهد الله وتكفي الشهادة وصفهم بالغلظ على المعاندين: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وباللين مع أهل الدين، ﴿رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وبالتعبد في كل حين، ﴿تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وبالوقوف على الطالبين: ﴿يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ [الفتح: ٢٩]، وعبادة

---

(١) أخرجه البخارى (٣/١٣٤٣، رقم ٣٤٧٠)، ومسلم (٤/١٩٦٧، رقم ٢٥٤١)، وأبو داود (٤/٢١٤، رقم ٤٦٥٨)، والترمذى (٥/٦٩٥، رقم ٣٨٦١) وقال: حسن. وابن حبان (١٦/٢٣٨، رقم ٧٢٥٣).

العابد على الوجه تبين: ﴿سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم﴾ [الفتح: ٢٩]، لقد سبقوا سبقًا عظيمًا وفاتوا، وَمَنْ هذه صفاتهم فما ماتوا، كلهم أخيار وسائرهم أبرار ولا مثل صاحب الغار، وأين نظير فاتح الأمصار، ومن يشبه قتيل الدار، ولقد افتقروا إلى المجاهد وذي الفقار بحب هؤلاء، تُرجى الجنة وتتقي النار.

إن الله عز وجل لما حَلَّى محمدًا حُلَّةَ النبوة، وخلع عليه خلعة هي الإسلام، وأعطاه منشورًا هو القرآن، ولواء المنشور هو النصر، فأبو بكر صدق النبوة، وعمر أظهر الرسالة، وعثمان جمع المنشور، وعلي رضي الله عنه حمل السيف.

الفصل الثاني والثمانون

في قوله تعالى: ﴿كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ١٧﴾ [الذاريات: ١٧]

الهجوع: النوم بالليل دون النهار، وفي (ما) قولان:

أحدهما: أنها بمعنى النفي، فالمعنى: كانوا يسهرون قليلا من الليل.

قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: (هُوَ مَا بَيْنَ الْمَغْرِبِ وَالْعِشَاءِ).

الثاني: (ما) بمعنى الذي، فالمعنى: كانوا قليلا من الليل هجوعهم، وهو مذهب الحسن والزهري، وعلى هذا يحتمل أن يكون (ما) زائدة، وقد اختار قوم الوقف على قليلا، على معنى: كانوا من الناس قليلا، ثم يبتدئ، فقال: ﴿مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ﴾ [الذاريات: ١٧] على معنى نفي النوم عنهم البتة، وهذا مذهب الضحاك ومُقاتل.

قوله تعالى: ﴿وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ﴾ [الذاريات: ١٨]؛ أي: عند الأسحار.

والباء[1] تجيء في عدة معاني منها:

---

(١) قال أبو زكريا: (البَاءُ) حرفُ جَرٍ يدخلُ على الاسم فَيَجُرَّهُ، وهي تجيءُ في عِدَّةِ مَعَانٍ منها: أن تكونَ للإلْصَاقِ؛ كقولك: مَسَحْتُ يَدِيَ بالمَنديلِ.

ومنها: أن تكونَ للاسْتِعَانَةِ؛ كقولك: كَتَبْتُ بالقَلَمِ، وضَرَبْتُ بالسَّيْفِ.

وتَصْحَبُ الأثْمَانَ؛ كقولك: اشتريتُ بدرهمٍ، وبِعْتُ بدينارٍ.

وتكون للقَسَمِ؛ كقولك: باللهِ.

وتكون بمعنى: في؛ كقولك: زيدٌ بالبصرةِ.

وتكون زائدة؛ كقولك: ليس زيدٌ بمُنْطَلِقٍ. وقال ابن قتيبة: تكون الباءُ بمعنى مِنْ؛ تقول العربُ: شربتُ بماءِ كذا؛ أي: مِنْ مَاءِ كَذَا.

أن تكون للإضافة: كقولك: مسحت يدي بالمنديل.

ومنها أن تكون للاستعانة: كقولك: كتبت بالقلم، وضربت بالسيف.

وتُصحب للأثمان: كقولك: اشتريت بدرهم، وبعت بدينار.

وتكون للقسم: كقولك: بالله.

وتكون بمعنى (في): كقولك: زيد بالبصرة.

وتكون زائدة: كقولك: ليس زيد بمنطلقٍ.

وتكون بمعنى (مِنْ): قال عنترة: [الكامل]

شَرِبَتْ بِمَاءِ الدُّحْرُضَيْنِ فَأَصْبَحَتْ زَوْرَاءَ تَنْفِرُ عَنْ حِيَاضِ الدَّيْلَمِ

وتكون بمعنى (عَنْ): قال علقمة بن عبدة: [الطويل]

فَإِنْ تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنَّنِي عَلِيمٌ بِأَدْوَاءِ النِّسَاءِ طَبِيبُ

إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ فَلَيْسَ لَهُ مِنْ وُدِّهِنَّ نَصِيبُ

وقال آخر وهو ابن أحمر: [الوافر]

تُسَائِلُ بِابْنِ أَحْمَرَ مَنْ رَآهُ أَغَارَتْ عَيْنُهُ أَمْ لَمْ تَغَارَا

والباء في القرآن على عشرة أوجه:

أحدها: بمعنى (اللام): ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ﴾ [البقرة: ٥٠].

الثاني: بمعنى (عند): ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].

الثالث: بمعنى (في): ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ [آل عمران: ٢٦].

الرابع: بمعنى (بعد): ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣].

الخامس: بمعنى (على): ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

السادس: صلة: ﴿فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ﴾ [النساء: ٤٣].

السابع: بمعنى (مع): ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات: ٣٩]؛ أي: مع جنده.

الثامن: بمعنى (من): ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

التاسع: بمعنى (إليها): ﴿مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٨٠].

العاشر: بمعنى المصاحبة: ﴿وَقَد دَّخَلُوا۟ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٦١].

رَوَى جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ فِي اللَّيْلِ سَاعَةً لا يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ يَسْأَلُ اللَّهَ تَعَالَى فِيهَا خَيْرًا إِلا آتَاهُ إِيَّاهُ وَذَلِكَ كُلَّ لَيْلَةٍ "(١)، انفرد بإخراجه مسلم، وجملة ما روى جابر بن عبد الله ألف وخمس مائة وأربعون حديثًا، أُخرج له منها في " الصحيحين " مائتان وعشرة، المتفق عليها منها ثمانية وخمسون، وانفرد البخاري بستة وعشرين، ومسلم بمائة وستة وعشرين .

وجملة من يأتي في الحديث اسمه جابر بن عبد الله سبعة:

[**الأول:**](٢) جابر بن عبد الله بن عمرو، وهو الذي ذكرنا حديثه.

الثاني: جابر بن عبد الله بن رباب، شهد بدرًا.

الثالث: جابر بن عبد الله بن عُمر السلمي، روى عن أبيه، عن كعبٍ.

الرابع: جابر بن عبد الله بن عصمة، روى عن الأوزاعي.

الخامس: جابر بن عبد الله الغطفاني، روى عن عبد الله بن الحسن العلوي.

السادس: جابر بن عبد الله بن جابر وكان كذابًا.

السابع: مصري، روى عنه يونس بن عبد الأعلى.

وَقَالَتْ عَائِشَةُ: " قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِآيَةٍ يُرَدِّدُهَا إِلَى الصَّلاةِ ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ﴾ [المائدة: ١١٨] ".

وكان عثمان يحيي الليل بركعةٍ واحدةٍ يقرأ فيها القرآن، وقام تميم ليلة بهذه الآية ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الجاثية: ٢١]، وصلى بها الربيع ابن خيثم حتى أصبح، وقام الحسن ليلة بقوله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

إذا سكنت ضوضاء الظلام، ورأيت اقتحام جيش حام، سارت حميا

---

(١) أخرجه مسلم (٢/ ٥٨٤، رقم ٨٥٢)، ومالك (١/ ١٠٨، رقم ٢٤٠)، وأحمد (٢/ ٢٨٠، رقم ٧٧٥٦)، والنسائى (٣/ ١١٥، رقم ١٤٣٢)، وابن ماجة (١/ ٣٦٠، رقم ١١٣٧).

(٢) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

السرور في أجساد المحبين، فلم يلحق لهم بغبار، فحصَّلوا ما لم يراه الراءون، ووصلوا إلى ما لم يصل إليه المقصرون، وشغلك عن لحاق القوم النوم، ولم ينل سعود قط بقعودٍ، كم بين الخلي والشجي (لَيْس بِعُشِّكَ فَادْرُجِي).

قَالَ عَلِيُّ بْنُ الْمُوَفَّقِ: (قَامَ رَجُلٌ مِنْ إِخْوَانِكُمْ فِي لَيْلَةٍ بَارِدَةٍ، فَلَمَّا تَهَيَّأَ لِلصَّلاةِ رَأَى شِقَاقًا فِي يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ، فَبَكَى، فَهَتَفَ بِهِ هَاتِفٌ مِنَ الْبَيْتِ: أَيْقَظْنَاكَ وَأَنَمْنَاهُمْ وَتَبْكِي عَلَيْنَا؟!).

قام الأحباب في الدجى يناجون الحبيب العليم، ويبكون بين يديه مثل ما بكى اليتيم القلق شديد والفرق عظيم، أما أنت فنمت وهم في مقعد مقيم.

قَالَتْ أُمُّ عُمَرَ بْنِ الْمُنْكَدِرِ: يَا بُنَيَّ أَشْتَهِي أَنْ أَرَاكَ نَائِمًا، فَقَالَ: (يَا أُمَّاهُ وَاللَّهِ إِنَّ اللَّيْلَ يَرِدُ عَلَيَّ فَيُهَوِّلُنِي، فَيَنْقَضِي وَمَا قَضَيْتُ مِنْهُ إِرْبِي).

وَصَحِبَ رَجُلٌ رَجُلا شَهْرَيْنِ، فَلَمْ يَرَهُ نَائِمًا بِلَيْلٍ وَلا نَهَارٍ، فَقَالَ لَهُ: لا تَنَامُ، فَقَالَ: إِنَّ عَجَائِبَ الْقُرْآنِ أَطَرْنَ نَوْمِي، مَا أَخْرُجُ مِنْ أُعْجُوبَةٍ إِلا وَقَعْتُ فِي أُخْرَى. [الكامل]

لا تَلُحْهُ إِنْ كُنْتَ مِنْ سُجَرَائِهِ عَذْلُ الْمُحِبِّ يَزِيدُ فِي إِغْرَائِهِ
وَدَعِ الْهَوَى يَقْضِي عَلَيْهِ بِحُكْمِهِ مَا شَاءَ فَهُوَ مُسَلِّمٌ لِقَضَائِهِ
فَشَقَاؤُهُ فِيمَا يَرَاهُ نَعِيمُهُ وَنَعِيمُهُ فِي ذَاكَ عَيْنُ شَقَائِهِ
كُحِّلَتْ مَآقِيهِ بِطُولِ سُهَادِهِ وَحَنَتْ أَضَالِعُهُ عَلَى بُرَحَائِهِ
دَنَفٌ يُقَابِلُ جِسْمَهُ وَفُؤَادَهُ بِالْحَتْفِ وَاعَجَبًا لِطُولِ بَقَائِهِ

تالله ما نال الكرامة إلا من قال للكرى: مه، إذا انقطعت رسائل المحبين وقع النسيان، ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ [البقرة: ١٥٢]، كم أبعث كل ليلة من رسائلي رسول هل من سائل، نسيم الأسحار تحدث عني، وتحف الأسرار تصل مني.

[الكامل]

فَدَعِ النَّسِيمَ بُعَيْدُ مِنْ أَخْبَارِهِ فَلَهُ حَوَاشٍ لِلْحَدِيثِ دِقَاقُ

نصبت مطايا الأجساد في قطع بيداء الليل، فلما بدا علم الفجر نزل أمير

الكل، فنادى مُنادي القوم: يا مطايا الأبدان؛ ريحي واستريحي، ثورت في الأسحار الحداة، وحملت إجمال الأعمال، وسارت رفقة ﴿تَتَجَافَىٰ﴾ [السجدة: ١٦]، وترنم كل ذي صوت بشجوٍ وأنت في الرقدة الأولى بعد، فكيف بك إذا انقشع ليل البلاء عن صبح الجزاء، ومالك بضاعة في قافلة: ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧]؟!

[البسيط]

لَمْ يَخْلُ مَرْجَانُ دَمْعٍ مِنْ عَقِيقِ دَمٍ ... شَوْقٌ بِلا عِبْرَةٍ سَاقٌ بِلا قَدَمِ
وَلا تَمُرُّ دُنُوَّ الدَّارِ نَازِحَةٌ ... مِنَ الشَّبِيبَةِ بَعْدَ الشَّيْبِ وَالْهَرَمِ
فَكَمْ سَأَلْتَ كُرَى عَيْنَيْكَ زَخْرَفَةً ... وَمَا أَرَاكَ أَرَاكَ الْجَزْعِ فِي الْحُلَمِ

كم بينك وبين القوم، كما بين اليقظة والنوم، لقد بعت نفسك التي لا قيمة لها، بأشياء لا قدر لها، أيباع ذو رُوَاءٍ وَرَاءٍ مَجَّانًا، إنْ تَقْعُد فقد سبقك إخوة يوسف، كيف تطيق السهر مع الشبع؟! وتزاحم أهل العزائم بمناكب الكسل !

[البسيط]

دَعِ الْهَوَى لأنَاسٍ يُعْرَفُونَ بِهِ ... قَدْ مَارَسُوا الْحُبَّ حَتَّى لانَ أَصْعَبُهُ
بَلَوْتُ نَفْسَكَ فِيمَا لَيْسَ تُخْبِرُهُ ... وَالشَّيْءُ صَعْبٌ عَلَى مَنْ لا يُجَرِّبُهُ
أَفْنَى اصْطِبَارًا وَإِنْ لَمْ تَسْتَطِعْ جَلْدًا ... فَرُبَّ مُدْرَكِ أَمْرٍ عَزَّ مَطْلَبُهُ
أَحْنُوا الضُّلُوعَ عَلَى قَلْبٍ يُحَيِّرُنِي ... فِي كُلِّ يَوْمٍ وَيُعْيِينِي تَقَلُّبُهُ
تَنَاوَحُ الرِّيحُ مِنْ نَجْدٍ يُهَيِّجُهُ ... وَلا مَعَ الْبَرْقِ مِنْ نُعْمَانَ يُطْرِبُهُ

الفصل الثالث والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢﴾ [النجم: ١ - ٢]

النَّجْمُ: الْكَوْكَبُ، وَسُمِّيَ نَجْمًا لِظُهُورِهِ، يُقَالُ: نَجَمَ النَّبْتُ إِذَا ظَهَرَ، وَنَجَمَ الْقَرْنُ وَالسِّنُّ إِذَا طَلَعَا.

والنجم(١) **في القرآن على ثلاثة أوجه:**

أحدها: الكواكب: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

الثاني: النبت الذي لا ساق له: ﴿وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦﴾ [الرحمن: ٦].

الثالث: ما كان ينزل من القرآن متفرقًا: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝٧٥﴾ [الواقعة: ٧٥].

قوله تعالى: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ﴾ [النجم: ٢]، والضلال(٢) في القرآن على عشرة أوجهٍ:

---

(١) النَّجْمُ في مُطْلَقِ التَّعارُفِ: الكَوْكَبُ، وجَمْعُهُ نُجُومٌ. وقيل: سُمِّيَ نَجْمًا لظُهُورِهِ. ويقال: النَّجْمُ: النَّبْتُ؛ إذا ظَهَرَ. ونَجَمَ القَرْنُ والسِّنِّ؛ إذا طَلَعَا.

والنَّجْمُ من النَّباتِ: ما ليس له سَاقٌ. ويقولون: طَلَعَ النَّجْمُ، ويريدون الثُّرَيَّا.

(٢) الضَّلالُ: الحَيْرَةُ وَالعُدُولُ عَنِ الصَّوَابِ؛ يُقَالُ: ضَلَّ يَضِلُّ وَيَضَلُّ ـ لُغَتَانِ ـ وَكُلُّ جَائِرٍ عَنِ الْقَصْدِ ضَالٌّ. وَالضَّلالُ وَالضَّلالَةُ بِمَعْنًى، وَرَجُلٌ ضِلِّيلٌ وَمُضَلَّلٌ: صَاحِبُ ضَلالَةٍ. وَيُقَالُ: أُضِلَّ الْمَيِّتُ؛ إِذَا دُفِنَ. وَأَضَلَّ الْقَوْمُ مَيِّتَهُمْ؛ إِذَا قَبَرُوهُ. وَيُقَالُ: أَرْضٌ مَضَلَّةٌ وَمَضِلَّةٌ.

قَالَ ابْنُ السِّكِّيتِ: تَقُولُ: أَضْلَلْتُ بَعِيرِي؛ إِذَا ذَهَبَ مِنْكَ. وَضَلِلْتُ الْمَسْجِدَ وَالدَّارَ؛ إِذَا لَمْ تَهْتَدِ لَهُمَا. وَكَذَلِكَ كُلُّ شَيْءٍ مُقِيمٍ لا يُهْتَدَى لَهُ.

أحدها: ضد الهدى، ومنه: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦].

الثاني: النسيان: ﴿أَن تَضِلَّ إِحْدَىٰهُمَا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الثالث: الخطأ: ﴿يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟﴾ [النساء: ١٧٦].

الرابع: الاستزلال في الحكم: ﴿لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ﴾ [النساء: ١١٣].

الخامس: الخُسران: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨].

السادس: البُطلان: ﴿ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٠٤].

السابع: الجهل: ﴿وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [الشعراء: ٢٠].

الثامن: الهلاك: ﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [السجدة: ١٠].

التاسع: الشقاء: ﴿فِى ٱلْعَذَابِ وَٱلضَّلَٰلِ ٱلْبَعِيدِ﴾ [سبأ: ٨].

العاشر: الغواية: ﴿وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ [يس: ٦٢].

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣]، قَالَ أَبُو زَكَرِيَّا: مَعْنَى (عَنْ) الْمُجَاوَزَةُ، تَقُولُ: بَلَغَنِي عَنْكَ كَلامٌ؛ أَيْ: مَا جَاوَزَكَ إِلَى كَلام، وَهِيَ حَرْفٌ مَا لَمْ يَدْخلْ عَلَيْهَا (مِنْ)، فَإِذَا دَخَلَتْ عَلَيْهَا كَانَتْ اسْمًا، تَقُولُ: أَخَذْتُهُ مِنْ عَنْ يَمِينِكَ، وَقَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى: بَعْدُ، تَقُولُ: سَادَكَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ).

و (عن) [1] **في القرآن على خمسة أوجهٍ:**

أحدها: صلة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ﴾ [الأنفال: ١].

الثاني: بمعنى (الباء): ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾ [هود: ٥٣].

---

(١) قال أبو زكريا: معنى (عن) المجاوزةُ؛ تقول: بَلَغَني عَنْكَ كَلامٌ؛ أي: جَاوَزَكَ إِلَيَّ كَلامٌ.

وانْصَرَفْتُ عن زيدٍ؛ أي: جَاوَزْتُهُ إلى غَيْرِه.

وهي حَرْفٌ ما لم يَدْخُلْ عليها (من) فإذا دَخَلَتْ عليها (من) كانت اسْمًا؛ لأن حرفَ الجَرِّ لا يدخلُ على مِثْلِهِ؛ تقول: أَخَذْتُهُ مِنْ عَنْ يَمِينِكَ.

وقَدْ تكونُ بمعنى (بعد) كقوله: ﴿لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق آية: ١٩].

وسَادُوكَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

الثالث: بمعنى (من): ﴿يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

الرابع: بمعنى (على): ﴿فَإِنَّمَا يَبۡخَلُ عَن نَّفۡسِهِۦۚ﴾ [محمد: ٣٨].

الخامس: بمعنى (بعد): ﴿لَتَرۡكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٖ ۝١٩﴾ [الانشقاق: ١٩].

﴿إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤﴾ [النجم: ٤] القرآن، و ﴿شَدِيدُ ٱلۡقُوَىٰ﴾ [النجم: ٥] جبريل، (المِرة): القوة، ﴿فَٱسۡتَوَىٰ﴾ [النجم: ٦] جبريل، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨]، قَالَ الزَّجَّاجُ: قَرُبَ، ﴿فَتَدَلَّىٰ﴾ [النجم: ٨] زَادَ فِي الْقُرْبِ، فمعنى اللفظتين واحد، وفي "الصحيحين" مِنْ حَدِيثِ أَنَسٍ، قَالَ: " دَنَا الْجَبَّارُ رَبُّ الْعِزَّةِ"[١].

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (دَنَا مُحَمَّدٌ مِنْ رَبِّهِ).

قَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ: (الْقَابُ، وَالْقَادُ: الْقَدْرُ).

قَالَ الْكِسَائِيُّ: (أَرَادَ بِالْقَوْسَيْنِ قَوْسًا وَاحِدًا أَوْ أَدْنَى)، أو حرف يرد للشك، رأيت زيدًا أو عمرًا، وترد للتخيير، خذ منه دينارًا أو قيمته ورقًا، وترد للإبهام: اشتريته بدينار أو أكثر، وترد للإباحة جالس الحسن أو ابن سيرين، وترد بمعنى بل، وأنشد الفراء: [الطويل]

بَدَتْ مِثْلَ قَرْنِ الشَّمْسِ فِي رَوْنَقِ الضُّحَى ... وَصُورَتِهَا أَوْ أَنْتِ فِي الْعَيْنِ أَمْلَحُ

وترد بمعنى الواو، قال جرير: [البسيط]

نَالَ الْخِلافَةَ إِذْ كَانَتْ لَهُ قَدَرًا ... كَمَا أَتَى رَبَّهُ مُوسَى عَلَى قَدَرِ

و (أو) [٢] **في القرآن على أربعة أوجهٍ:**

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٢٧٣٠، رقم ٧٠٧٩).

(٢) (أو): حرفٌ يَرِدُ للشَكِّ؛ تقول: رأيتُ زيدًا أو عمرًا.

ويَرِدُ للتَخْيير؛ تقول: خُذْ منه دينارًا أو قيمته ورقًا.

ويرد بمعنى (بل).وقال أبو زكريا: وتَرِدُ للإِبْهَام؛ تقول: اشتريتُ هذا الثوبَ بدينارٍ أو أكْثَرَ. تُرِيدُ بذلكَ الإبهامَ على السَّائِلِ. وكقوله: ﴿أَوۡ يَزِيدُونَ﴾ [آية: ١٠].

وتَرِدُ للإِبَاحَةِ؛ تقول: جَالِسِ الحَسَنَ أو ابن سِيرين؛ أي جَالِسِ الأَخْيَارَ فإن جَالَسَهُمَا أو أَحَدَهُمَا فَقَدْ أَطَاعَكَ.

أحدها: بمعنى التخيير: ﴿فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة: ١٩٦]، ﴿أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة: ٨٩].

الثاني: بمعنى الإبهام: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [البقرة: ١٩].

الثالث: بمعنى بل: ﴿إِلَىٰ مِائَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ﴾ [الصافات: ١٤٧].

الرابع: بمعنى الواو: ﴿أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ الْغَائِطِ﴾ [النساء: ٤٣]، ﴿أَوِ الْحَوَايَا﴾ [الأنعام: ١٤٦].

و(أدنى) (١) **في القرآن على أربعة أوجهٍ:**

أحدها: بمعنى أدون: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٦١].

الثاني: بمعنى أجدر: ﴿وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا﴾ [البقرة: ٢٨٢].

الثالث: بمعنى أقرب: ﴿مِّنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَىٰ﴾ [السجدة: ٢١]، ﴿قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ﴾ [النجم: ٩].

الرابع: بمعنى أقل: ﴿وَلَا أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْثَرَ﴾ [المجادلة: ٧].

لما تكامل شرف نبينا صلى الله عليه وسلم في الأرض، أعطي طروق طريق السماء فسمى، جيء بطرف إذا خطى وضع قدمه في موضع الطرف، فأتى بيت الْمَقْدِسِ الْمُقَدَّس، فصلى بالأنبياء وكلهم لسبقه قد صلى، فلما خرج عن المسجد الأقصى قطع بالمعراج سفرًا لا يُحصى، فلما طرق السماء طرق المُطرق الباب ولا يعلم أن جبريل إذا صعد يستأذن، فكأنه بالاستئذان أعلم بشرف القادم، فهو من جنس " غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ لِتَجُوزَ فَاطِمَةُ "(٢)، فتلقته

---

(١) قال شيخنا علي بن عبيد الله: أَدْنَى أفعل من الدُّنُوّ وهو القُرْب.

يقال: دَنَا يَدْنُو دُنُوًّا فهو دَانٍ. والسَّماءُ الدُّنْيَا: هي القُرْبَى منا.

قال ابن فارس: الدَّنِيءُ من الرِّجالِ مهموز: الدُّونُ. والدَّنِي غير مهموز: القريبُ، من دَنَا يَدْنُو، وسُمِّيَتْ الدُّنْيَا لِدُنُوِّهَا، والنِّسْبَةُ إليها دُنْيَاوِيٌّ. ودانيَتُ بينَ الأمْرَيْنِ: قاربتُ بينهما. وفي الحديث: " إذا أَكَلْتُم فَدَنُّوا "؛ أي: كُلُوا مِمَّا يَلِيكُم.

(٢) أخرجه الطبرانى فى الأوسط (٣/ ٣٥، رقم ٢٣٨٦)، والحاكم (٣/ ١٧٥، رقم ٤٧٥٧) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: أحمد فى فضائل الصحابة (٢/ ٧٦٣، رقم ١٣٤٤)، والطبرانى (١/ ١٠٨، رقم ١٨٠)، وأبو نعيم فى المعرفة (١/ ٩٣، رقم ٣٥٦)، وابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٢٦٣، رقم ٤٢٢).

الملائكة بالبشر والترحيب، وحازت من فضله العجيب، فتلقى في السماء الأولى بأبيه آدم، فسلم عليه والعهد قد تقادم، ثم سمى إلى السماء الثانية، فإذا عيسى بن مريم، فسلم عليه ومعه الذي ما عصي ولا هَمَّ، ورأى في الثالثة يوسف الصديق، ودخل في الرابعة وإذا إدريس في الطريق، وسلم في الخامسة على هارون، وفي السادسة على الكليم، ولقى في السابعة أباه إبراهيم، هذا وملائكة كل سماء تستبشر بقدومه، وتقر بعد أن كانت قالت: ﴿أَتَجۡعَلُ﴾ [البقرة: ٣٠] بالعجز عن علومه، والأنبياء كلهم يتلقونه بالمديح، وما بلغوا كنه قدره وقد قالوا الصحيح، ثم أنه لما مر على موسى، فسلم ثم جاوزه بكاء وتألم، فقيل يا موسى ما يبكيك؟ فقال: (شَابٌّ بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرَ مِنْ أُمَّتِي).

إخواني؛ هل علمتم ضجيج لسان موسى من كر كرب قفص ﴿لَن﴾ [الأعراف:١٤٣]، فنطق لسان حاله بقول: ما أنا الشهيد بسيف ﴿لَن﴾ [الأعراف: ١٤٣] السائل دمه على حسام ﴿تُبۡتُ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وعبارة التفضيل تجيب بالتفصيل أنت الشهيد المخلص، وهذا العالم الراسخ و " لَوْ وُزِنَ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ، وَدَمُ الشُّهَدَاءِ؛ لَرَجَحَ مِدَادُ الْعُلَمَاءِ عَلَى دَمِ الشُّهَدَاءِ "[1].

أنسيت صحبة الخضر في طريق ذل ﴿هَلۡ أَتَّبِعُكَ﴾ [الكهف: ٦٦]، وهذا على سرير عز فأورثني علم الأولين والآخرين، ثم انتهى نبينا إلى سدرة المنتهى، ونال نوال ﴿ثُمَّ دَنَا﴾ [النجم: ٨] وجنى ثمار: ﴿فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ﴾ [النجم: ١٠]، وثبت جأشه بتأييد: ﴿مَا زَاغَ ٱلۡبَصَرُ﴾ [النجم: ١٧]، فارتفق رفيقًا ما، ﴿مَا كَذَبَ ٱلۡفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم: ١١]، ونوضل أعداؤه بسهام: ﴿أَفَتُمَٰرُونَهُۥ﴾ [النجم: ١٢]، وَرُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: (رَأَى رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِعَيْنَيْ رَأْسِهِ مَرَّتَيْنِ)، ولا تثبت المدحة برؤية جبريل؛ لأنه كان يراه دائمًا، ثم فرضت الصلوات، فلما أخبر موسى بمقدار التكليف، قال: (عُدْ فَسَلِ التَّخْفِيفَ)، فما زال يُردده موسى حتى أبقى خمسًا، فقال: (عُدْ فَسَلْ فِيهَا

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ٨٠، رقم ٨٤).

وَكَلِّمْ)، فَقَالَ: " بَلْ أَرْضَى وَأُسَلِّمُ "، وَإِذَا نِدَاءُ مُنَادٍ: " قَدْ أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي، فَهُنَّ خَمْسٌ فِي بَابِ التَّكْلِيفِ، وَهِيَ خَمْسُونَ فِي حِسَابِ التَّضْعِيفِ، وَهَذِهِ مَنْزِلَةٌ لِهَذِهِ الأمَّةِ فِي كُلِّ أَعْمَالِهَا ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠] "[1]، ثم عاد نبينا صلى الله عليه وسلم إلى الأرض على أكمل حال، وثبت وبثت جنود نصره، حتى رعرعت الجبال، وعدل معه شاهد عدل يشهد ما رأى، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣﴾ [النجم: ٣]، فَأَصْبَحَ يُحَدِّثُ عَنْ إِسْرَائِهِ وَكُلُّهُمْ كَذَّبَ، وَسَعَى بَعْضُهُمْ إِلَى الصِّدِّيقِ، فَقَالَ بِلِسَانِ اسْتِهْزَائِهِ: صَاحِبُكُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ مَرَّ اللَّيْلَةَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَانْطَلَقَ فَقَالَ: إِنْ كَانَ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ، فَقَالُوا: كَيْفَ تُصَدِّقُهُ فِي مِثْلِ هَذِهِ الأنْبَاءِ، قَالَ: وَقَدْ صَدَّقْتُهُ قَبْلُ بِخَبَرِ السَّمَاءِ، فَقَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحُجَّةِ حِينَ كَذَّبُوهُ، فَحَلَّى لَهُمْ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَوَصَفَ قُوَّةَ مَا عَرَفُوهُ، فَأَخْبَرَهُمْ بجلية إبل ليله أيد، فَبَانَ بِقُدُومِهَا التَّحْقِيق، غَيْرَ أَنَّ الْحَسَدَ صَدَّهُمْ عَنْ سُلُوكِ الْمَهْيَعِ إِلَى مَسْلَكِ الْمَضِيق، لِهَذَا أُدِيرَتْ عَلَيْهِمْ أَبَارِيقُ الْهُدَى، وَكلهمْ أَبَارِيقُ الأبَارِيق، وَسَائِرُ الصَّحَابَةِ سَكَتُوا حِينَ سَمِعُوا، وَسَابَقَ إِلَى التَّصْدِيقِ الصِّدِّيق، فَيَا مُنْكِرَ الْمِعْرَاجِ إِنَّ قَضَاءَ الْقُدْرَةِ لا يَضِيق، وَيَا مَنْ زَعَمَهُ مَنَامًا لِمَ أَنْكَرَتْ قُرَيْشٌ طُولَ الطَّرِيق، لَقَدْ رَدَدْتَ الْقُرْآنَ الْقَدِيمَ، وَالنَّقْلَ الْقَوِيمَ الْوَثِيق، ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ هَلْ أَمَّكَ فِي هَذَا الاعْتِقَادِ إلا زِنْدِيق، لَقَدْ كَانَتْ لَكَ أُسْوَةٌ لَوْ وُفِّقْتَ فِي عَتِيق، سُبْحَانَ مَنْ أَنْعَمَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيق، بِحُلَّةِ الْهُدَى وَحِلْيَةِ التَّوْفِيق، لَقَدْ سَافَرَ مُوسَى إِلَى الطُّورِ، فَوَقَعَ فِي فَرِيقِهِ التَّفْرِيق، فَلَمَّا قَدِمَ رَآهُمْ حَوْلَ الْعِجْلِ فِي زَفِيرٍ وَشَهِيق، فَقَالَ: يَا هَارُونُ هَلا زَجَرْتَهُمْ يَا هَارُونُ، قَالَ: مَا كُنْتُ أَطِيق.

وَلَمَّا سَارَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ، قِيلَ: لا تَنْزَعِجْ فَلِيَ فِي الأرْضِ صِدِّيقٌ.

(١) أخرجه النسائي (١/ ٢١٧، رقم ٤٤٨).

الفصل الرابع والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِٱلنُّذُرِ ﴿٢٣﴾﴾ [القمر: ٢٣]

قَالَ أَبُو عَمْرِو بْنُ الْعَلاءِ: (إِنَّمَا سُمِّيَتْ ثَمُودُ لِقِلَّةِ مَاءِهَا)، وَقَالَ ابْنُ فَارِسٍ: (الثَّمْدُ: الْمَاءُ الْقَلِيلُ الَّذِي لا مَادَّةَ لَهُ).

والنُّذر جمع نذير، ومن كذب نبيًا واحدًا، فقد كذب بالكل.

﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرًا مِّنَّا وَٰحِدًا﴾ [القمر: ٢٤]، نُصِبَ بفعلٍ مضمرٍ قد ظهر تفسيره: أنتبع بشرًا منا إنا إذن إن فعلنا ذلك لفي ضلال؛ أي: خطأ وسُعُر، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: (جُنُون).

وَقَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: (هُوَ مِنْ تُسَعَّرُ النَّارُ إِذَا الْتَهَبَتْ).

قوله تعالى: ﴿أَءُلْقِىَ ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنۢ بَيْنِنَا﴾ [القمر: ٢٥]، وفي (ص): ﴿أَءُنزِلَ﴾ [ص:٨] وهاهنا أُلقي، وهذه الحروف من المُبدلات من المتشابه، ومثله في (البقرة): ﴿فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة: ٢٩]، وفي (حم فصلت): ﴿فَقَضَىٰهُنَّ﴾ [فصلت:١٢]. وفي (البقرة): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ﴾ [البقرة: ٥٧]، وفي (الأعراف): ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ﴾ [الأعراف: ١٦٠]. وفي (البقرة): ﴿فَٱنفَجَرَتْ﴾ [البقرة: ٦٠]، وفي (الأعراف): ﴿فَٱنۢبَجَسَتْ﴾ [الأعراف: ١٦٠]. وفي (البقرة): ﴿بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [البقرة: ١٢٠]، وفي (الرعد): ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ [الرعد: ٣٧]. في (البقرة): ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ﴾ [البقرة: ١٢٥]، وفي (الحج): ﴿لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ﴾ [الحج: ٢٦]. في (البقرة): ﴿وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ [البقرة: ١٣٦]، وفي (آل عمران): ﴿وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا﴾ [آل عمران: ٨٤]. وفي (البقرة): ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:١٧٠]، وفي (المائدة): ﴿لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المائدة: ١٠٤]. وفي (آل عمران): ﴿لِّكَيْلَا تَحْزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ﴾ [آل عمران:

١٥٣]، وفي (الحديد): ﴿لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟﴾ [الحديد: ٢٣]. في سورة (النساء): ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وفي (الأعراف): ﴿وَجَعَلَ﴾ [الأعراف: ١٨٩]، وفي (الزمر): ﴿جَعَلَ مِنْهَا﴾ [الزمر: ٦]. وفي (الأنعام): ﴿مِّنْ إِمْلَٰقٍ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي (بني إسرائيل): ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١]. في (الأعراف): ﴿وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَٰشِرِينَ﴾ [الأعراف: ١١١]، وفي (الشعراء): ﴿وَٱبْعَثْ﴾ [الشعراء: ٣٦]. وفي (الأعراف): ﴿ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، وفي (الشعراء): ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ﴾ [الشعراء: ٤٩]. في (التوبة): ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟﴾ [التوبة: ٣٢]، وفي (الصف): ﴿لِيُطْفِـُٔوا۟﴾ [الصف: ٨]. وفي (هود): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً﴾ [هود: ٨٢]، وفي (الحجر): ﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحجر: ٧٤]. في (الحجر): ﴿وَمَا يَأْتِيهِم مِّن رَّسُولٍ﴾ [الحجر: ١١]، وفي (الزخرف): ﴿مِّن نَّبِىٍّ﴾ [الزخرف: ٧]. في (الكهف): ﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ﴾ [الكهف: ٣٦]، وفي (حم السجدة): ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ﴾ [فصلت: ٥٠]. في (الكهف): ﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾ [الكهف: ٥٧]، وفي (سجدة لقمان): ﴿ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ [السجدة: ٢٢]. في (النمل): ﴿فَفَزِعَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [النمل: ٨٧]، وفي (الزمر): ﴿فَصَعِقَ﴾ [الزمر: ٦٨]. في (المدثر): ﴿كَلَّآ إِنَّهُۥ تَذْكِرَةٌ ﴿٥٤﴾﴾ [المدثر: ٥٤]، وفي الآية التي نحن في تفسيرها: ﴿ٱلذِّكْرُ عَلَيْهِ﴾ [القمر: ٢٥]، وفي (ص): ﴿عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ﴾ [ص: ٨] فهذه اللقطة من المتقدم والمتوخر في المتشابه، ومثله في (البقرة): ﴿وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي (الأعراف): ﴿وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا﴾ [الأعراف: ١٦١]. وفي (البقرة): ﴿وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ﴾ [البقرة: ٦٢]، وفي (الحج): ﴿وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ﴾ [الحج: ١٧]. وفي (البقرة) و (الأنعام): ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ﴾ [البقرة: ١٢٠]، [الأنعام: ٧١]، وفي (آل عمران): ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٧٣]. في (البقرة): ﴿وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٣]، وباقي القرآن: ﴿لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ﴾ [المائدة: ٣]، [الأنعام: ١٤٥]، [النحل: ١١٥]. وفي (البقرة): ﴿لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وفي

(إبراهيم): ﴿مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ﴾ [إبراهيم: ١٨]. وفي (آل عمران): ﴿وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وفي (الأنفال): ﴿بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠]. في (النساء): ﴿كُونُوا قَوَّٰمِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ﴾ [النساء: ١٣٥]، وفي (المائدة): ﴿كُونُوا قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِالْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٨]. وفي (الأنعام: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٠٢]، وفي (حم المؤمن): ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ [غافر: ٦٢]. وفي (الأنعام): ﴿نَّرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١]، وفي (بني إسرائيل): ﴿نَّرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾ [الإسراء: ٣١]. في (النحل): ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾ [النحل: ١٤]، وفي (فاطر): ﴿فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ [فاطر: ١٢]. في (بني إسرائيل): ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وفي (الكهف): ﴿فِي هَٰذَا الْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ﴾ [الكهف: ٥٤]. في (بني إسرائيل): ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الإسراء: ٩٦]، وفي (العنكبوت): ﴿بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ [العنكبوت: ٥٢]. في (المؤمنين): ﴿لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا هَٰذَا مِن قَبْلُ﴾ [المؤمنون: ٨٣]، وفي (النمل): ﴿هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا﴾ [النمل: ٦٨]. في (القصص): ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ﴾ [القصص: ٢٠]، وفي (يس): ﴿وَجَآءَ مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ﴾ [يس: ٢٠].

وأما (الذكر) (١) فهو في القرآن على عشرين وجهًا:

---

(١) الذِّكْرُ يقال على وجهين:

أحدهما: الذِّكْرُ بالقَلْبِ.

والثاني: الذِّكْرُ باللسَانِ.

وهو في الموضعينِ حَقِيقيٌّ ويُسْتَعَارُ في مواضع تَدُلُّ عليها القَرِينَةُ.

حَدَّثَنَا محمد بن ناصر، عن أبي زكريا، عن ابن جِنِّي، قال: الذِّكْرُ بكَسْرِ الذَّالِ باللسَانِ، وبضَمِّ الذَّالِ بالقَلْبِ تقول: ذَكَرْتُ الشَّيءَ بلسَانِي ذِكْرًا وبقَلْبِي ذُكْرًا.

ويقال: اجْعَلْ هذا على ذُكْرٍ مِنْكَ - بضَمِّ الذَّالِ -؛ أي: لا تَنْسَه.

والذِّكْرُ: العُلا والشَّرَفُ. والمُذْكِرُ: التي وَلَدَتْ ذَكَرًا.

قال الفَرَّاءُ: كم الذَّكَرَةُ من وَلَدِكَ؟ أي: الذُّكُورُ.

[**الأول**[1]:] الذكر باللسان: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٠٠].

الثاني: الحفظ: ﴿وَٱذْكُرُواْ مَا فِيهِ﴾ [الأعراف: ١٧١].

الثالث: الطاعة: ﴿فَٱذْكُرُونِيٓ﴾ [البقرة: ١٥٢].

الرابع: الصلوات الخمس: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ﴾ [البقرة: ١٩٨].

الخامس: الذكر بالقلب: ﴿ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

السادس: العظة: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾ [الأنعام: ٤٤].

السابع: البيان: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٦٣].

الثامن: الحديث: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]؛ أي: حدثه بحالي.

التاسع: التورية: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾ [النحل: ٤٣].

العاشر: الخير: ﴿سَأَتْلُواْ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾ [الكهف: ٨٣].

الحادي عشر: التوحيد: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾ [طه: ١٢٤].

الثاني عشر: القرآن: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم﴾ [الأنبياء: ٢].

الثالث عشر: الشرف: ﴿كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ [الأنبياء: ١٠].

الرابع عشر: العيب: ﴿أَهَٰذَا ٱلَّذِي يَذْكُرُ ءَالِهَتَكُمْ﴾ [الأنبياء: ٣٦].

الخامس عشر: اللوح المحفوظ: ﴿فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

السادس عشر: الثناء على الله تعالى وعلى رسوله: ﴿وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢٧].

السابع عشر: الوحي: ﴿فَٱلتَّٰلِيَٰتِ ذِكْرًا ۝٣﴾ [الصافات: ٣].

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

الثامن عشر: صلاة العصر: ﴿حُبَّ ٱلْخَيْرِ عَن ذِكْرِ رَبِّى﴾ [ص: ٣٢].

التاسع عشر: صلاة الجمعة: ﴿فَٱسْعَوْاْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩].

العشرون: الرسول: ﴿ ذِكْرًا ۝ رَّسُولًا﴾ [الطلاق: ١٠-١١].

قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ﴾ [القمر: ٢٥]؛ أي: بطر.

﴿سَيَعْلَمُونَ غَدًا﴾ [القمر: ٢٦]؛ أي: في القيامة أن مرسلوا الناقة.

لما أعرضت ثمود عن كل فعل صالح، بُعث إليهم للصلاح صالح، فأنشأ يذكرهم المنشأ بعبارة: ﴿أَنشَأَكُم﴾ [هود: ٦١]، وَعَادَ فَأَعَادَ ذَكْرَ عَادٍ فِي لَفْظِ: ﴿جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فأقبلوا عليه بالعودة ﴿قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا﴾ [هود: ٦٢]، فجثوا على عتبة عتابه، فعتبوه ﴿أَتَنْهَىٰنَآ﴾ [هود: ٦٢]، فخوفهم الهلاك في رمز: ﴿أَتُتْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ١٤٦]، فتعلل عليه ناقة هواهم بطلب ناقة، فقام يستمطر نواء النوال، فأتاه بما يريد بريد: ﴿إِنَّا مُرْسِلُواْ ٱلنَّاقَةِ﴾ [القمر: ٢٧]، فخرجت من صخرة صماء تُقَبْقِب، ثم فصل عنها فصيل يرغو، فارتعت حول نهى نهيم عنها في حمى حماية: ﴿وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ﴾ [الأعراف: ٧٣]، فاحتاجت إلى الماء، وهو قليل عندهم، فقال حاكم العذل: ﴿لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ﴾ [الشعراء: ١٥٥]، وكانت يوم ورودها تقضي دين الماء بمادتها، فاجتمعوا في حلة الحيلة على شاطيء غدير الغدر، فكمن بعضهم للنبي في مكيدة: ﴿لَنُبَيِّتَنَّهُۥ﴾ [النمل: ٤٩]، وضرب بعضهم بعضًا ﴿فَتَعَاطَىٰ﴾ [القمر: ٢٩]، ثم برزوا في براز العناد ينادون بلسان: ﴿وَعَتَوْاْ﴾ [الأعراف: ٧٧]، ﴿ٱئْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ [الأعراف:٧٧]، فأجاب لسان الإمهال: ﴿تَمَتَّعُواْ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ﴾ [هود: ٦٥]، فَصُفَّتْ عَلَى صَفْصَفِ وُجُوهِهِمْ فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ صُفُوفُ الصُّفْرَةِ، وحمت بأسباب العذاب في اليوم الثاني بقاني الحمرة، ولم يكتسوا سوى سوءة السواد في اليوم الثالث، فلما أصبحوا في اليوم الرابع شدت عليهم شدة رجف الرجف ﴿ٱلرَّجْفَةُ﴾ [الأعراف: ٧٨]، فصاب عليهم صيب صار صاع ﴿صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ﴾ [فصلت: ١٧]، فحين دنا ودندن دمعهم دماث، ﴿فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ﴾ [الشمس: ١٤]، فسار نبيهم من بينهم بين المؤمنين على نجا نجائب ركائب السلامة، يحدوها، ﴿نَجَّيْنَا صَٰلِحًا وَٱلَّذِينَ

ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ﴾ [هود: ٦٦]، فأدلجوا في براح؛ ﴿بِرَحْمَةٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٦٦]، فانتدب نادب العبرة، فأطل على إطلال الهالكين يندب طلال طللكم، ﴿كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤]، فلما صاح زاجر التنبيه على باب التحذير من حالهم، ﴿أَلَآ إِنَّ ثَمُودَا۟ كَفَرُوا۟ رَبَّهُمْ﴾ [هود: ٦٨]، إجابة صريح الطرد بصريح: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّثَمُودَ﴾ [هود: ٦٨].

الفصل الخامس والثمانون

في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد:١٦]

رَوَى مُسلم في إفراده من حديث ابن مسعود، أنه قال: (ما كان بين إسْلامِنَا وبين أن عاتبنا الله عز وجل بهذه الآية: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ [الحديد: ١٦] إلا أربع سنين).

وفي بعض الألفاظ عنه: (فجعل المؤمنون يُعاتِبُ بعضهم بعضًا).

ومعنى ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] القرب، وخشوع القلب، رقته ولينته، والمعنى: يجب أن يورثهم الذكر خشوعًا، ﴿وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]: الصواب الصحيح، والحقيقة ما يصير إليه من الأمر، وحق للشيء: وجب، وحاق فلان فلانًا إذا خاصمه وادعى كل واحدٍ منهما الحق، فإذا غلبه قيل: حقه وأحقه، و ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ [الحاقة: ١]: القيامة؛ لأنها تحق بكل شخص ما عمله، والحِقَّة من أولاد الإبل: التي استحق أن يُعمل عليها، والجمع حِقاق، والحُقَّة معروفة والجمع حُقق، والحقحقة: أرفع السير وأتعبه للظهر، قال مطرف: إن خير الأمور أوسطها، وإن شر السير الحقحقة.

والحق[1] في القرآن على ثمانية عشر وجهًا:

---

(١) الحَقُّ: الصَّوابُ والصَّحِيحُ، وضِدُّهُ البَاطِلُ.

والحَقِيقَةُ: ما يَصِيرُ إليه حَقُّ الأمْرِ، وحَقَّ الشَّيءُ؛ إذا وَجَبَ.

وحَاقَّ فُلانٌ فُلانًا؛ إذا خَاصَمَهُ وادَّعَى كُلُّ واحدٍ منهُمَا الحَقَّ، فإذا غَلَبَهُ قيل: حَقَّهُ وأَحَقَّهُ.

ويقال: احْتَقُّوا في الدِّينِ؛ إذا ادَّعَى كُلُّ واحدٍ الحَقَّ. =

أحدها: الجُرم: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: ٢١].
الثاني: البيان: ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ٧١].
الثالث: أمر الكعبة: ﴿لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ﴾ [البقرة: ١٤٦].
الرابع: إيضاح الحلال والحرام: ﴿نَزَّلَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [البقرة: ١٧٦].
الخامس: المال: ﴿وَلْيُمْلِلِ ٱلَّذِى عَلَيْهِ ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة: ٢٨٢].
السادس: القرآن: ﴿كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٥].
السابع: الصِّدق: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ﴾ [الأنعام: ٧٣].
الثامن: العدل: ﴿ٱفْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِٱلْحَقِّ﴾ [الأعراف: ٨٩].
التاسع: الإسلام: ﴿لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ﴾ [الأنفال: ٨].
العاشر: البعث: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا﴾ [النحل: ٣٨].
الحادي عشر: ضد الباطل: ﴿مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢].
الثاني عشر: الحاجة: ﴿مَا لَنَا فِى بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ﴾ [هود: ٧٩].
الثالث عشر: لا إله إلا الله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ [الرعد: ١٤].
الرابع عشر: الله عز وجل: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلْحَقُّ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [المؤمنون: ٧١].
الخامس عشر: التوحيد: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَـٰرِهُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٠].
السادس عشر: الوجوب: ﴿وَلَـٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى﴾ [السجدة: ١٣].
السابع عشر: الحظ: ﴿فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾ [المعارج: ٢٤].
الثامن عشر: إيفاء الأجل: ﴿وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ﴾ [ق: ١٩].
شكى رجل إلى الحسن قسوة قلبه، فقال: أدنه من الذكر.
وروى إبراهيم بن بشار، عن إبراهيم بن أدهم، أنه قيل له: لم

= والحَاقَّةُ: القِيامَةُ؛ لأنَّها تَحُقُّ بكُلٍّ. والحِقَّةُ: من أولادِ الإبلِ التي استَحَقَّتْ أنْ يُحْمَلَ عليها، والجمعُ: حِقَاقٌ. والحُقَّةُ: معروفةٌ، والجمعُ: حُقَقٌ.
والحَقْحَقَةُ: أرفعُ السَّيرِ وأتعبه للظهرِ. قال مطرف بن عبد الله: إنَّ خيرَ الأمورِ أوْسَاطُهَا، وإنَّ شَرَّ السَّيْرِ الحَقْحَقَةُ.

حُجِبَتِ القلوب عن الله عز وجل؟ فقال: لأنها أَحَبَّتْ ما أبغضَ الله عز وجل.

إبراهيم بن بشار ثلاثة:

الرمادي أحدهم، روى عن ابن عُيينة.

الثاني: واسطي، روى عن الحريري.

الثالث: مولى، وهو الذي حكينا عنه.

كان الفُضيل بن عياض يقطع الطريق، فخرج ليلة، فإذا هو بقافلةٍ قد انتهت إليه، فقال بعضهم لبعض: أعدلوا إلى هذه القرية؛ فإن أمامنا رجل يقطع الطريق يُقال له: الفضيل بن عياض، فأُرْعِدَ، وقال: يا قوم انزلوا بي وأنتم آمنون من الفضيل، فأضافهم تلك الليلة، وخرج يرتاد لهم علفًا، فلما رجع سمع قارئًا يقرأ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الحديد: ١٦]، فصاح، ومزق ثيابه، وقال: بلى والله قد آن والله لاجتهدن أن لا أعصي الله تعالى أبدًا؛ فكان ذلك سبب توبته.

الفضيل بن عياض اثنان:

أحدهما: ابن عياض المُهلهل الصرفي، حدث عن سلمة بن عبد الرحمن .

الثاني: ابن عياض بن مسعود الزاهد، حدث عن الأعمش، وهو الذي. . . . . الشتاء إلى المصيف، لا في الربيع تثمر ولا في الخريف، لقد استقلع هذا البستان.

﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦]: أنت في دار من سكنها لم يقم، ومن صح فيها لم يستقم على بابها لإعلام أربابها قد رقم.

﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الرحمن: ٢٦]: انقرض وانقضى، وأكثره في غير الرضا، إن كان فسد ما مضى، فمن الآن، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦]، لا في الشباب أفلحت، ولا في الكهولة أصلحت، وهذا المشيب وما صلحت، لو كان للخير وجه بان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] كم عليكم من خطايا وذنوب، كم عليك من زلات وعيوب، ما جوابك إذا نُشر المكتوب، فيا ليت ما كان ما

كان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] تُماحك على الدينار وتناقش؛ هلا طلبت الأخرى طلب المعايش، تتوب وتنقض، تحب الفواحش يأبى براقش الألوان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦]تطمع في الجنة بعمل أهل النار، وترجوا الفوز بأفعال الأشرار، وتروم قبول التوبة مع الإصرار والجنون ألوان، ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦] سار الصالحون وتوقفت، وجد التائبون وسوفت، ما يُقعدك وقد عرفت، هذا الفرس وهذا الميدان ﴿أَلَمْ يَأْنِ﴾ [الحديد: ١٦].

الفصل السادس والثمانون

في قوله عز وجل: ﴿أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ﴾ [الحديد: ٢٠]

اللعب: قيل اللهو في أربعة أحرف:

في الأنعام: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ﴾ [الأنعام: ٣٢]، وفيها: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا﴾ [الأنعام: ٧٠].

وفي سورة محمد صلى الله عليه وسلم: ﴿إِنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۚ﴾ [محمد: ٣٦].

وفي الحديد: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ﴾ [الحديد: ٢٠].

واللهو قبل اللعب حرفان:

في الأعراف: ﴿ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَهۡوٗا وَلَعِبٗا﴾ [الأعراف: ٥١]، وفي العنكبوت: ﴿وَمَا هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَهۡوٞ وَلَعِبٞۚ﴾ [العنكبوت: ٦٤].

روى سفينة أَنَّ رَجُلا ضَافَ عَلِيًّا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَوَضَعَ لَهُ طَعَامًا، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: لَوْ دَعَوْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَكَلَ مَعَنَا. قَالَ: فَجَاءَ فَأَخَذَ بِعِضَادَتَيْ الْبَابِ، وَقَدْ ضَرَبُوا قِرَامًا فِي نَاحِيَةِ الْبَيْتِ فَلَمَّا رَآهُ رَجَعَ؛ فَقَالَتْ فَاطِمَةُ لِعَلِيٍّ: الْحَقْهُ فَانْظُرْ مَا رَجَعَهُ. فَمَضَى فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا رَدَّكَ؟ قَالَ: "لَيْسَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَدْخُلَ بَيْتًا مُزَوَّقًا"(١).

سفينة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما سُمي سفينة؛ لأَنَّهُ

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٢٢٠، رقم ٢١٩٧٢)، والطبرانى (٧/ ٨٤، رقم ٦٤٤٦)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٣٩٦، رقم ١٠٧٣٣). وأخرجه أيضًا: أبو داود (٣/ ٣٤٤، رقم ٣٧٥٥)، ابن ماجه (٢/ ١١١٥، رقم ٣٣٦٠) كلاهما بنحوه.

خَرَجَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَثَقُلَ عَلَى أَصْحَابِهِ مَتَاعُهُمْ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " ابْسُطْ كِسَاءَكَ "، فَبَسَطَهُ، فَجَعَلُوا فِيهِ مَتَاعَهُمْ، ثُمَّ حَمَلُوهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "احْمِلْ، مَا أَنْتَ إلا سَفِينَةٌ "(١)، فَرَكِبْتُ الْبَحْرَ، فَانْكَسَرَ بِهِمْ فَعَلِقْتُ بِشَيْءٍ حَتَّى خَرَجْتُ إِلَى جَزِيرَةٍ فَإِذَا فِيهَا الأَسَدُ، فَقُلْتُ: أَبَا الْحَارِثِ، أَنَا مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَطَأْطَأَ رَأْسَهُ، وَجَعَلَ يَدْفَعُنِي بِجَنْبِهِ، وَيَدُلُّنِي عَلَى الطَّرِيقِ، فَلَمَّا خَرَجْتُ إِلَى الطَّرِيقِ هَمْهَمَ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ يُوَدِّعُنِي.

جملة ما روى سفينة أربعة عشر حديثًا، انفرد بالإفراد عنه مُسلم، فأخرج له حديثًا واحدًا، وسفينة لقب، وإنما اسمه مهران.

وممن عُرف بلقبه: الجارود اسمه فراس. أبي اللحم واسمه عبد الله. شقران واسمه صالح، [ذو الغرة] واسمه يعيش، ذو اليدين واسمه الخرباق، وكلهم صحابة. إلا غر واسمه سليمان، غندر واسمه محمد بن جعفر، لوين واسمه محمد، كان يبيع العبيد، فيقول: عندي جارية لها لوين، جزرة واسمه صالح، صَحف في بعض قراءته الحديث خرزة فقال: جزرة، فبقيت عليه، مشكدانة واسمه عبد الله، غامر، توبة، صاعقة، مطير، مربع، أبو العيناء، أسماء هؤلاء كلهم محمد، دحيم واسمه عبد الرحمن، جبير واسمه عصام، نفطويه واسمه إبراهيم.

روى مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ مِنْ الدُّنْيَا كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمْ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُوهُ عَلَيْهِ "(٢).

قَالَ الْفُضَيْلُ: قِيلَ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلامُ: أَيَحْزَنُ الْمُؤْمِنُ أَنْ أَزْوِيَ عَنْهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَقْرَبُ لَهُ مِنِّي؟ وَيَفْرَحُ أَنْ أَبْسُطَ لَهُ الدُّنْيَا وَهُوَ أَبْعَدُ لَهُ مِنِّي؟!

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك (٣/ ٧٠٢، رقم ٦٥٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٨، رقم ٢٣٦٧٧). وأخرجه أيضًا: البيهقى فى شعب الإيمان (٧/ ٣٢١، رقم ١٠٤٥٠).

قَالَ أَبُو سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ: جَلَسَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلامُ فِي ظِلِّ خَيْمَةِ عَجُوزٍ، فَقَالَتْ لَهُ الْعَجُوزُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ، قُمْ مِنْ ظِلِّنَا، فَقَامَ، فَجَلَسَ فِي الشَّمْسِ، وَقَالَ: (لَسْتِ أَنْتِ أَقَمْتِينِي، أَقَامَنِي الَّذِي لَمْ يُرِدْ أَنْ أُصِيبَ مِنَ الدُّنْيَا شَيْئًا).

رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " الْتَقَى مُؤْمِنَانِ عَلَى بَابِ الْجَنَّةِ، مُؤْمِنٌ غَنِيٌّ، وَمُؤْمِنٌ فَقِيرٌ، كَانَا فِي الدُّنْيَا، فَأُدْخِلَ الْفَقِيرُ الْجَنَّةَ، وَحُبِسَ الْغَنِيُّ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُحْبَسَ، ثُمَّ أُدْخِلَ الْجَنَّةَ، فَقَالَ: أَيْ أَخِي مَاذَا حَبَسَكَ؟ وَاللَّهِ لَقَدِ حُبِسْتَ عَنِّي حَتَّى خِفْتُ عَلَيْكَ ! فَقَالَ: أَيْ أَخِي إِنِّي حُبِسْتُ بَعْدَكَ مَحْبِسًا فَظِيعًا كَرِيهًا، مَا وَصَلْتُ إِلَيْكَ حَتَّى سَالَ مِنِّي الْعَرَقُ مَا لَوْ وَرَدَتْ عَلَيْهِ أَلْفُ بَعِيرٍ كُلُّهَا أَكَلَتْ حَمْضًا، لَصَدَرَتْ [عَنْهُ](١) رِوَاءً "(٢).

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ أُسَامَةَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: "قُمْتُ بِبَابِ الْجَنَّةِ فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ يَدْخُلُهَا الْفُقَرَاءُ، إلا أَهْلُ الْجِدِّ مَحْبُوسُونَ، إلا أَهْلُ النَّارِ فَقَدْ أُمِرَ بِهِمْ إِلَى النَّارِ، وَوَقَفْتُ عَلَى بَابِ النَّارِ، فَإِذَا عَامَّةُ مَنْ يَدْخُلُهَا النِّسَاءُ "(٣).

يا ساكنًا بحلة حليتها العزيزة غرور، وحلاوتها مريرة المرور، أما ترى معاول النقض قد أحاطت بحائط بحائط ما عول عليه الأمل، أما تحس بزلزال الزوال على قواعد اللذات قد اشتمل، يا طالب الأخرى دع الدنيا لِطُلابِهَا، ويا محب الأولى خلها لأحبابها هل هي إلا قاطع يقطع عنا، ويعوق إن سميت بالدنيا، فهي في المعنى نسر ويعوق، فانظر بها لا إليها، واحذر منها لا تعول

---

(١) ما بين المعكوفتين ساقط من الأصل.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٠٤، رقم ٢٧٧١)، قال المنذرى (٤/ ٦٥): إسناد جيد قوى. وقال الهيثمى (١٠/ ٢٦٣): فيه دويد غير منسوب فإن كان هو الذى روى عن سفيان فقد ذكره العجلى فى كتاب الثقات، وإن كان غيره لم أعرفه، وبقية رجاله رجال الصحيح، غير مسلم بن بشير، وهو ثقة. وأخرجه أيضاً: أحمد فى الزهد (١/ ٣٩٦).

(٣) أخرجه البخارى (٥/ ١٩٩٤، رقم ٤٩٠٠)، ومسلم (٤/ ٢٠٩٦، رقم ٢٧٣٦)، وابن حبان (٢/ ٤٦٧، رقم ٦٩٢). وأخرجه أيضًا: الخطيب (٥/ ١٤٩).

عليها، إنما هي كعش لا يطلبه الطائر الكبير، وإنما يختاره الفرخ الصغير، فإذا ثبت ريشه طار، وإذا قدر على اتباع آثار الطائر ثار.

متى يُنبت ريش نفسك على جناح دينك، فتطير من عُش جهلك إلى منازل أهلك، الدنيا لا تزن عند الله جناح بعوضة، وهي في قلبك أعظم من الآخرة، ما نظر إليها منذ خلقها، ولا غاب عن قلبك لحظةً حبها.

يا هذا؛ أليس من المروءة أن تبغض ما يحب حبك إن كنت رجلا، فوافق في البعض وإن ضعفت فتاجر بالصبر، كيف يلحق بالسائقين وازرك بوزرها، يا هذا؛ الدنيا دار قلعه لا حصن قلعة، فرحها يجول، وترحها يطول، إنما هي كأس ما يناوله من كأس، إن الدين لا يزال متمزِّقًا ما دام القلب بها متعلقًا، لو صحت فكرة عشاقها في مقابح أخلاقها لرفضوها لعيوبها، ولبغضوها لذنوبها، كلهم لم يبصروا عيب عيبها، ولم يعلموا أخضاب شيبها.

[البسيط]

لا تَلْقَ دَهْرَكَ إلا غَيْرَ مُكْتَرِثٍ ... مَادَامَ تَصْحَبُ فِيهِ رَوْحَكَ الْبَدَنُ
فَمَا تَدِيمُ سُرُورُ مَا سُرِرْتَ بِهِ ... وَلا يَرُدُّ عَلَيْكَ الْفَائِتَ الْحَزَنُ
مِمَّا أَضَرَّ بِأَهْلِ الْعِشْقِ أَنَّهُمُ ... هَوُوا وَمَا عَرَفُوا الدُّنْيَا وَمَا فَطِنُوا
تَفْنَى عُيُونُهُمُ دَمْعًا وَأَنفُسُهُمْ ... فِي كُلِّ إِثْرِ قَبِيحٍ وَجْهُهُ حَسَنُ
تَحَمَّلُوا حَمَلَتْكُمْ كُلُّ نَاجِيَةٍ ... فَكُلُّ بَيْنٍ عَلَيَّ الْيَوْمَ مُؤْتَمَنُ
مَا فِي هَوَادِجِكُمْ مِنْ مُهْجَتِي عِوَضٌ ... إِنْ مُتُّ شَوْقًا وَلا فِيهَا لَهَا ثَمَنُ
سَهِرْتُ بَعْدَ رَحِيلِي وَحْشَةً لَهُمُ ... ثُمَّ اسْتَمَرَّ مَرِيرِي وَارْعَوَى الْوَسَنُ

كم نقضت الدنيا من حصون حصينه، كم خانت وقد ظنت أمينة، إنها وإن جادت بحلة ضينه، كم خاصمت مُحبها وعادت فعادت تلك النفوس حزينة لعب ولهو وزينه، كم منحت وورثت، كم حالفت ونكثت، كم حلفت لمحبٍ وحنثت، فقطعت بيمينها يمينه لعب ولهو وزينه.

إن مالت مالت، وإن حلت حالت، كم نصبت للورى وغالت، على أنها قد زجرت وقالت، فأين الفهوم الرزينه؟ !

أين من سعى فيها ولها؟ أين من لهى بها ولها؟ اكسبته حين فقدها ولها، ولها السماء مكينة، ظنها قارون قد صالحته، وظنها كِسرى قد نصحته، واعتقدها قيصر قد أصلحته، وكلهم والله قد ذبحته وكسرت سكينه.

طالبها يشقى، ودرتها لا تبقى، أتؤثرها على ما يبقى، هذه والله الغبينة، هرب منها الصديق ذو السكينة، ووافق الفاروق في الهجر قرينه، وفرقها عثمان فلم يبخل بالمهينه، وحذرها عَلِيٌّ وقد كن له دروع يقين يقينه، إذا خاف هؤلاء شرها فمن نفسك المسكينه؟!

ضيعت عمرك وتريد حفظها، ووعظتك بغيرها فلم تسمع وعظها، يا مُدبر؛ خفف لفظها، وانقط من تحتها السينه.

أين من أذهب العمر في المنى وولى، ولا ليت ما مر عليك لم يحمل عليك كلا كلا، بل ليت حمر الهوى الذي قد حال خلا خلا، تالله ما صحبه التي لا نراقب إلا إلا صحبة السفينة، لعب ولهو وزينه.

الفصل السابع والثمانون

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]

رَوَى الأغَرُّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى رَبِّكُمْ فَإِنِّي أَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ "(١).

جملة ما روى الأغر ثلاث أحاديث، انفرد بالإخراج عنه مسلم، ولم يخرج له إلا هذا الحديث الذي ذكرناه، وليس في الصحابة من اسمه الأغر سواه، وفي الصحابة جماعةٍ ليس لأسماءهم مَثَل، مِثْل: أبو اللخم، أحمد بن عجبان، أسمر، أنفع، حندرة، حوكان، فحمة، خطب، صخار، صدى، صنابح، عكاف، فيروز، كناز، محيصة، المقداد، نبشة، نعيمان، النواس، واثلة، وابصة، هداج، الهلب، يزداد.

وفي المحدثين خلق كثير ليس لأسماءهم مثل، يطول ذكرهم إلا من أعجبهم (مسدد البصرى) لاسمه، أمثال: غير أنه ليس لأسماء أبائه مثال؛ لأنه مُسدد بن مسرهد بن مغربل بن مرغبل بن أرندل بن عرندل بن ماشك الأسدي، ذكره ابن ماكولا.

وَرَوَى صَفْوَانُ بْنُ عَسَّالٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ بَابًا مَسِيرَةُ أَرْبَعِينَ أَوْ سَبْعِينَ سَنَةً فَتَحَهُ اللَّهُ لِلتَّوْبَةِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَلا يُغْلِقُهُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْهُ "(٢).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (٧/ ١٧٢، رقم ٣٥٠٧٢).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٨/ ٥٦، رقم ٧٣٥٣).

وَرَوَى عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " مَا مِنْ عَبْدٍ يُذْنِبُ ذَنْبًا فَيَتَوَضَّأُ ثُمَّ يُصَلِّي رَكْعَتَيْنِ وَيَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلا غُفِرَ لَهُ "(١).

وجملة ما روى أبو بكر الصديق رضي الله عنه مائة حديث واثنان وأربعون حديثًا، أُخرج له منها في " الصحيحين " ثمانية عشر، المتفق عليه منها ستة، وانفرد البخاري بأحد عشر ومُسلم بواحدٍ، وجملة ما روى عمر رضي الله عنه خمس مائة وسبعة وثلاثون حديثًا، أُخرج له منها في " الصحيحين " أحد وثمانون حديثًا، المتفق عليه منها ثمانية وستون، وانفرد البخاري بثمانية ومُسلم بخمسةٍ، وجملة ما روى علي بن أبي طالب رضي الله عنه خمس مائة سبعة وثلاثون حديثًا مثل عمر، أُخرج له في " الصحيحين " أربعة وأربعون، المتفق عليها منها عشرون، وانفرد البخاري بتسعةٍ، ومسلم بخمسة عشر.

فأما أبو بكر فاسمه عبد الله بن عثمان، وجملة من في الصحابة اسمه عبد الله مائتان وعشرون رجلا، ليس فيهم من اسمه عبد الله بن عثمان سوى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وآخر من بني أسدٍ، غير أن الأسدي لم يرو شيئًا.

وأما عمر فجملة من في الصحابة من اسمه عمر ثمانية، كلهم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، وليس فيهم عمر بن الخطاب سواه، وجُملة من يجيء في الحديث اسمه عمر بن الخطاب سبعة هو أحدهم، الثاني: كوفي، روى عنه جابر الواسطي، الثالث: راسبي، روى عن سويد، الرابع: إسكندراني حدث عن عصام، الخامس: عنزي، روى عن أبيه، السادس: بصري، روى عن معمرٍ، السابع: سجستاني روى عن محمد بن يوسف.

وأما عثمان، فجملة من في الصحابة اسمه عثمان ثلاثة، ليس فيهم عثمان

---

(١) أخرجه أبو داود (٢/٨٦، رقم ١٥٢١)، والترمذى (٢/٢٥٧، رقم ٤٠٦) وقال: حسن، والنسائى فى الكبرى (٦/١٠٩، رقم ١٠٢٤٧)، وابن ماجه (١/٤٤٦، رقم ١٣٩٥)، وابن حبان (٢/٣٨٩، رقم ٦٢٣)، وأبو يعلى (١/٢٥، رقم ١٥)، والبيهقى فى شعب الإيمان (٥/٤٠١، رقم ٧٠٧٧)، والضياء (١/٨٢، رقم ٧) وقال: إسناده صحيح.

ابن عفان غيره، وليس في الحديث عثمان بن عفان سوى اثنين هو أحدهم، الثاني: سجزي، روى عن معمر.

وأما عَلِيّ، فجملة من في الصحابة اسمه عَلِيّ ثمانية، ليس فيهم ابن أبي طالبٍ سواه، وجُملة من يجيء في الحديث اسمه علي بن أبي طالبٍ ثمانية، هو أحدهم، الثاني: بصري، روى عن حماد بن سلمة، الثالث: يُقال له الدهقان، روى عن الهيثم، الرابع: حراني روى عنه أبو سهل القطان، الخامس: استرباذي، روى عنه الإسماعيلي، السادس: تنوخي، روى عن أبي بكرٍ بن مجاهد، السابع: يقال له: البكر أباذي، روى عن أحمد بن عدي، الثامن: يُقال له: ابن يمان، حدثنا عنه شيوخنا.

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (إِنِّي لأَعْلَمُ آيَتَيْنِ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى، لا يَقْرَأُهُمَا عَبْدٌ عِنْدَ ذَنْبٍ يُصِيبُهُ، ثُمَّ يَسْتَغْفِرُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ إِلا غُفِرَ لَهُ، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ سُوٓءًا أَوۡ يَظۡلِمۡ نَفۡسَهُۥ ثُمَّ يَسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١١٠]، وَالثَّانِيَةُ: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآيتان).

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنَّهُ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ بِأَرْضٍ دَوِيَّةٍ مُهْلِكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَزَادُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَخَرَجَ فِي طَلَبِهَا حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْمَوْتُ وَلَمْ يَجِدْهَا، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِي الَّذِي أَضْلَلْتُهَا فِيهِ فَأَمُوتُ فِيهِ فَأَتَى مَكَانَهُ فَغَلَبَتْهُ عَيْنُهُ فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَ رَأْسِهِ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ وَزَادُهُ وَمَا يُصْلِحُهُ "[١].

وأكثر القراء[٢] فتحوا نون (نَصوح)، وعن عاصم (نُصوحًا) بضم النون.

قال الزجاج: من فتح فعلى صفة التوبة، والمعنى: توبةً بالغةً في النُصح، وفعول من أسماء الفاعلين التي يستعمل للمبالغة في الوصف، تقول: صبور، شكور، ومن ضم فمعناه: ينصحون فيها نصوحًا.

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٠٢، رقم ٢٦٧٥).

(٢) انظر: إبراز المعاني ٢/ ٤٩٠.

قَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (التَّوْبَةُ النَّصُوحُ أَنْ يَتُوبَ الْعَبْدُ مِنَ الذَّنْبِ وَهُوَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ أَلا يَعُودُ).

وَسُئِلَ الْحَسَنُ عَنِ التَّوْبَةِ النَّصُوحِ، قَالَ: (نَدَمٌ بِالْقَلْبِ، وَاسْتِغْفَارٌ بِالأَرْكَانِ، وَتَرْكٌ بِالْجَوَارِحِ، وإِضْمَارٌ أَنْ لا يَعُودَ).

كَانَ ضِرْغَامُ بْنُ وَائِلٍ زَاهِدَ قَوْمِهِ، فَقَالَ لِغُلامِهِ يَوْمًا: اشْدُدْ كِتَافِي، وَعَفِّرْ خَدِّي بِالتُّرَابِ، فَفَعَلَ الْغُلامُ، فَقَالَ: مَلِيكِي دَنَا الرَّحِيلُ إِلَيْكَ، وَلا تَرَاهُ لِي، فَاعْتَدِدْ أَنْتَ لِي، فَتَغَمَّدْنِي، ثُمَّ مَاتَ، فَسَمِعُوا قَائِلا يَقُولُ: اسْتَكَانَ الْعَبْدُ لِمَوْلاهُ فَقَتَلَهُ.

أترى يصلح هذا القلب بعد الفساد، أترى يُبدل بالبياض هذا السواد، كم أقول عسى أصلح ولعل، وكلما استوى قدمي زل، كم تتغير الأحوال وما أتغير، كم يتضح لي الطريق وأتحير.

[البسيط]

لِـلَّـهِ أَمْـرٌ مِـنَ الأَيَّـامِ أَطْـلُـبُـهُ ... هَيْهَاتَ أَطْلُبُ أَمْرًا غَيْرَ مَطْلُوبِ
وَحَاجَةٍ أَتَقَاضَاهَا وَتَمْطُلُنِي ... كَأَنَّهَا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبِ

إلى كم أقول سأتوب؟! متى يخجل اللسان الكذوب؟! أترى يصلح هذا الأمر؟! أترى يراق هذا الخمر؟! حبذا يوم تفي حبذا، وآسفا إن جاء الموت هكذا.

[الرمل]

كُلَّمَا أَمَّلْتُ يَوْمًا صَالِحًا ... عَرَضَ الْمَكْرُوهُ لِي فِي أَمَلِي
أَقْطَعُ الدَّهْرَ بِظَنٍّ حَسَنٍ ... وَأُجَلِّي غَمْرَةً مَا تَنْجَلِي
وَأَرَى الأَيَّامَ لا تُدْنِي الَّذِي ... أَرْتَجِي مِنْكِ وَتُدْنِي أَجَلِي

يا مشغولا عنا بمن تشاغلت، يا حرضًا عن طاعتنا لو عرفتنا أقبلت، لو رآك أبوك على الذنب أباك، أو شاهدك على الزلل أخوك قلاك، أما أنا الذي سترك الخطأ وغطاك، ما أقطع بري ولو قطعت شكري، ومن كذاك.

[مجزوء الرجز]

مُــنْــفَــصِــلٌ عَــنِّــي وَمَــا لُـطْـفِـي عَـنْـكَ مُـنْـفَـصِـلُ
يَـا قَـاطِـعِـي الْـيَـوْمَ لِـمَـنْ نَـوَيْـتَ بَـعْـدِي أَنْ تَـصِـلَ

بيننا عهد من يوم: ﴿أَلَسۡتُ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ما أعجل ما حلت، ما أسرع ما زلت.

[الخفيف]

يَـا بَـنِـي الْـعُـذْرِ وَالْـجَـهَـالَـةِ مَـا أَسْ رَعَ مَـا زِلْـتُـمْ عَـنِ الْـمِـيـثَـاقِ
لَـوْ وَفَـيْـتُـمْ وَاصَـلْـتُـمُـونَـا عَـلَـى عَـمْ دٍ وَكَـانَ اتِّـفَـاقُـنَـا بِـاتِّـفَـاقِ
وَزَمَـانُ الـصِّـبَـا يَـمُـرُّ وَقَـدْ أَنْ فَـقَ أَيَّـامَـهُ زَمَـانُ الْـفِـرَاقِ
وَالـلَّـيَـالِـي تَـمْـضِـي سِـرَاعًـا وَمَـا يُـقْ بَـلُ مِـنْـهَـا حَـوَالَـةٌ فِـي الْـبَـاقِـي

إخواني؛ أفيكم عازم على الصلح، أفيكم محب يصيح من الهجر، أفيكم ذو وجدٍ يقلق للبين، إذا وقعت عزيمة العاصي على فراق دار المعاصي هيأ مركب القصد، وتزود لسفر العزم، وقام على أقدام الجد، وسعى على أرجاء الرجاء، خائف من مآصر قلقه، قلاقل عيشه وظنه، هوادي إبله، فيتلقاه بشير ﴿وَلَا تَاْيۡـَٔسُواْ﴾ [يوسف: ٨٧] في جنب ﴿لَا تَقۡنَطُواْ﴾ [الزمر: ٥٣] بخلع: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ﴾ [الشورى: ٢٥].

[الطويل]

لَئِنْ قَدِمَتْ مِنْ سَفْرَةِ الْهَجْرِ عِيسُكُمْ تَـلَـقَّـيْـتُـهَـا بِـالْـوَصْـلِ مِـنْ كُـلِّ جَـانِـبِ

الفصل الثامن والثمانون

في قوله تعالى: ﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾ [القلم: ١٧]

الإشارة إلى أصحاب مكة، والمعنى: ابتليناهم بالجوع والقحط.

قال ابن قتيبة: (الابْتِلاءُ: الاخْتِبَارُ، وَيُقَالُ لِلْخَيْرِ: بَلاءٌ، وَلِلشَّرِّ: بِلاءٌ، وَيُقَالُ: مِنَ الاخْتِبَارِ: بَلَوْتُهُ، أَبْلُوهُ، بَلْوَى، وَمِنَ الْخَيْرِ: ابْتَلَيْتُهُ، أَبْتَلِيَهُ بَلاءَ، وَمِنَ الشَّرِّ: بَلاهُ اللَّهُ، يَبْلُوهُ بَلاءً).

والبلاء[1] في القرآن على وجهين:

أحدهما: الاختبار: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ﴾ [البقرة: ١٢٤].

والثاني: النعمة: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾﴾ [الصافات: ١٠٦].

ومعنى (لنصرمنها): لنقطعن تحلمهم مصبحين في أول الصباح، ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾﴾ [القلم: ١٨]؛ أي لا يقولون إن شاء الله، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ﴾ [القلم: ١٩]، والطائف لا يكون إلا بالليل، ﴿مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩]؛ أي: من أمر ربك، ﴿فَأَصْبَحَتْ﴾ [القلم: ٢٠] أصبح في القرآن على وجهين:

أحدهما: إدراك الصباح لمُصبح ﴿فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾﴾ [القلم: ٢٠].

الثاني: بمعنى صار، ومنه: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

و (الصريم): الليل، والمعنى: أصبحت سوداء كالليل مُحترقة.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ: (وَالصَّرِيمُ: اللَّيْلُ وَالصُّبْحُ، وَكَذَلِكَ الْفَوْقُ بِمَعْنَى: الأَعْلَى

---

(١) قال ابن قتيبة: أصلُ البَلاءِ: الاختبارُ. ويقال للخير: بلاءٌ، وللشر: بلاءٌ. يقال من الاختبار: بَلَوْتُهُ أَبْلُوهُ بَلْوًا، والاسم بَلاءٌ.

ومن الخَيْرِ: أَبْلَيْتُهُ إِبْلاءً. ومن الشر: بَلاهُ اللهُ يَبْلُوه بَلاءً.

وَالدُّونُ، وَالْجَوْنُ: الأَبْيَضُ وَالأَسْوَدُ، وَالسُّدْفَةُ: الظُّلْمَةُ وَالضَّوْءُ، وَالْجَلَلُ: الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَالنَّاهِلُ: الْعَطْشَانُ وَالرَّيَّانُ، وَالصَّارِخُ: الْمُسْتَغِيثُ وَالْمُغِيثُ، وَالْهَاجِدُ: الْمُصَلِّي بِاللَّيْلِ وَالنَّائِمُ، وَالزَّهْوُ: الارْتِفَاعُ وَالانْحِدَارُ، وَالظَّنُّ: الْيَقِينُ وَالشَّكُّ، وَالإِقْرَاءُ: الْحَيْضُ وَالإِطْهَارُ، وَالوَرَاءُ: الْخَلْفُ وَالْقُدَامُ، وَأَسْرَرْتُ الشَّيْءَ: أَخْفَيْتُهُ، وَأَسْرَرْتُهُ: أَعْلَنْتُهُ، وَأَخْفَيْتُ الشَّيْءَ: كَتَمْتُهُ وَأَظْهَرْتُهُ).

واعلم أنما أسرع الهلاك إلى تلك الجنة لما أجنت النفوس من البخل بالحق المُستحق، وهذا وما بدى الإضمار إلى الفعل، فكيف بمن يضمر ويفعل.

كانت هذه الجنة في دولة عيسى ابن مريم عليه السلام لبعض المؤمنين، فمات وترك التركة لثلاثة بنين، فاجتمع إيماء إيمانهم لضعف إيمانهم لضعف إيمانهم على حرمان المساكين، وعزموا على ما التزموا، فجزموا قبل الحصاد بحين، وتقاسموا وما تقاسموا، وأقسموا لنصرمنها مصبحين، فلما آن أوان الجداد جدوا قاصدين بالموق انفجار فوق الفجر، ليلا يفجأ فجهم فقير، فحلت لنشوطه عهدهم كف: ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ [القلم: ١٨]، فاجتمع عليهم قبح القصد بحرمان الفقراء وسوء الأدب في ترك الاستثناء، ألم يسمعوا قصة سليمان حين قال: (لأطوفن)، ونسى إن شاء الله كيف جُوزي على إهمال قيد المطلق، فلم يحمل منهن إلا امرأة واحدة، جاءت على شق بشق الولد، ولو جاهد في الاستثناء لجاهدوا، فلما أن عدم النبي الاستثناء ضر أظفار الظفر، فإن وجوده كفيل بالمنى لمن كفله، ألم يعلم أن يأجوج ومأجوج يؤمون كل يوم حفر السد، فإذا كادوا لما كادوا يرون من الشعاع شعاع الشمس عري عن تفهم من التقوى، فغدى بقوى ستحفرونه غدًا، فإذا عادوا عاد، فإذا بلغ الكتاب أجله أنشأ مستعملهم يقول إن شاء الله، فيصيحون وما حال الحال، فيتهيأ لهم حفر الحفر، فلما تاب أرباب ﴿وَلَا يَسْتَثْنُونَ ۝١٨﴾ [القلم: ١٨] في زعمهم على غرار عزمهم، حل بعقوة عقيلتهم لعقوقهم عقام عقوبة فطام، ﴿فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [القلم: ١٩]، وذلك أن القدر رمى داءه إليها، فصارت رمادًا، فقاموا حين قرون الصبح ذيل الدجى، فاستعجلوا بتحريض: ﴿أَنِ ٱغْدُواْ﴾ [القلم:

٢٢]، واحتالوا الأنفس الشح إذ خافت الأنفس بحيلة يتخافتون، فبينما هم قد أحضروا ليحضروا بخان البخل، ضربت صدور صدورهم يد الحيرة، فحاروا في حير: ﴿إِنَّا لَضَآلُّونَ﴾ [القلم: ٢٦].

فلما بانت لهم خيبة الخيبة وقعوا في حيض بيض: ﴿وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، فقاموا ينوحون: ﴿إِنَّا لَمُغْرَمُونَ ۝٦٦ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ﴾ [الواقعة: ٦٦ - ٦٧]، وأبى مُذكرهم يذكرهم بعد الفوت هفوات، ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ﴾ [القلم: ٢٨]، والحذار الحذار احذروا، وامنع حق هذا المال وإنما على النصيح إن قد قال.

الفصل التاسع والثمانون

في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢]

﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١﴾ [الحاقة: ١]: القيامة، سُميت بذلك لأن فيها حواق الأمور بحق كل إنسان يعمله من خيرٍ وشر.

وقوله: ﴿مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ٢] استفهام معناه التفخيم لشأنها، كما تقول: زيد وما زيد على التعظيم لشأنه، ثم زاد في التهويل لأمرها، فقال: ﴿وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْحَآقَّةُ ۝٣﴾ [الحاقة:٣]؛ أي: لأنك لم تعاينها ولد تدر ما فيها، رَوَى عُتْبَةُ بْنُ عَبْدٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " لَوْ أَنَّ رَجُلا سَجَدَ عَلَى وَجْهِهِ مِنْ يَوْمِ وُلِدَ إِلَى يَوْمِ يَمُوتُ فِي مَرْضَاةِ اللَّهِ تَعَالَى لَحَقَّرَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ "(١).

وإنما سُميت القيامة بالقارعة؛ لأنها تقرع االقلوب بالأهوال.

وفي الطاغية ثلاثة أقوال:

أحدها: طغيانهم وكفرهم، قاله ابن عباس .

الثاني: بالصحية الطاغية، قاله قتادة، وذلك لأنها جاوزت مقدار الصياح فأهلكتهم .

الثالث: أن الطاغية عاقر ناقة صالح، قاله ابن زيد.

---

(١) أخرجه أحمد (٤/ ١٨٥، رقم ١٧٦٨٦)، قال الهيثمى (١٠/ ٢٢٥): إسناده جيد. والبخارى فى التاريخ الكبير (١/ ١٥، ترجمة ٥ محمد بن أبى عميرة)، والطبرانى (١٧/ ١٢٢، رقم ٣٠٣)، قال المنذرى (٤/ ٢١٤): رواته ثقات إلا بقية. وقال الهيثمى (١٠/ ٣٥٨): فيه بقية، وهو مدلس، وبقية رجاله ثقات. وأخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (١/ ٤٧٩، رقم ٧٦٧).

و(الصرصر): الباردة، وإنما قيل لها عاتية؛ لأنها جاوزت المقدار، ولقد عتت على خزانها فلم يكن لهم عليها سبيل، والتسخير: استعمال الشيء بالاقتدار.

و(الحُسوم): المتتابعة، و(أعجاز النخل): أصولها، و(الخاوية): البالية، و(الباقية): البقية.

لما تحيز قوم عاد عادٍ في ظل ظلل ظلالتهم حين أمل الأمل حديث البقاء، وروى ذكر زوالهم، وطار بريش رياشهم عن وكر الفكر، ولم يُبصروا بالبصائر كيف فجا فج المكر، ومروا في مشارع عذاب المهاوي، ناسين مُر عذابها، رافلين في حلل الغفلة بالأمنية عن المنية فأذابها، فأقبل هود يهديهم ويُناديهم ﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾ [المؤمنون: ٣٢]، واذكرهم بعد: ﴿وَزَادَكُمْ فِى ٱلْخَلْقِ بَصْۜطَةً﴾ [الأعراف: ٦٩]، وضمن لهم وعد: ﴿وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً﴾ [هود: ٥٢]، فأشرفوا عليه من شرفات الشرف من دروع: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥]، فبرز في براز حرب: ﴿فَكِيدُونِى﴾ [هود: ٥٥]، وجال في صف: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ﴾ [هود: ٥٦]، فنازلوه بعناد: ﴿فَأْتِنَا﴾ [الأحقاف: ٢٢]، فسحب سحاب العذاب ذيل الأدبار بإقباله إلى قبائلهم، فظنوه لما اعترض عارض ممطر، فتهادوا بتباشير البشارة يتهادى بشارة: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فصاح بلبل البلابل فبلبل: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾ [الأحقاف: ٢٤]، فكان كلما دنا وترامى ما كان كأن لم يكن، فحنظلت عذاب مشاجرتهم هودًا بجنى مَنْ جَنَى مِنْ جَنَى مَا جَنَى في معنى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ﴾ [الأحقاف: ٢٦].

فراحت ريح الذنوب لكي تسم الأدبار بكي الإدبار، فعجوا منها عجيج الأدبر، فلم تزل تكوي تكوينهم بميسم العدم، وتلوي تلوينهم إلى حياض دم الندم، وتكفى عليهم الرمال فتكفي تكفينهم، وبرزهم إلى البراز عن مصون حصون كُن يقينًا يقينهم، فإذا أصبحت أخذت تنزع في قوس: ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ﴾ [القمر: ٢٠]، فإذا أمست أوقفت غريضهم في غرض: ﴿كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ﴾ [القمر: ٢٠]، فما برحت بارحتهم عن براحهم حتى برحت بهم، ولا أقلعت

قلوع قلاعهم فدامت عليهم آفة وداء لا يقبل الفداء: ﴿سَبۡعَ لَيَالٖ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومٗا﴾ [الحاقة: ٧]، فحسوا ما أذاقتهم من سؤها ما سووا، وسقوا من قفر: ﴿أَلَا بُعۡدٗا﴾ [هود: ٦٠] إلى يم: ﴿وَأُتۡبِعُواْ﴾ [هود: ٦٠]، فلو عبرت في معبر الاعتبار لترى ما آل إليه مآلهم، لتلمحت ما لاح لاحيهم عن فك فك الفكر، ورأيت التَّوَى كيف الْتَوَى عليهم، وكيف النوى كيف نوى الدنو إليهم، وتواردت الحسرات بحسر عن قناعها فم الآسى وأنامل الندم قد جذبت بتلاطم أمواج اللطم على فوات اللطائم خدود الأسف، وقد أحاط بهم حائط الحط على حزن الحُزن في حير الحيرة.

فالنجا النجا من شر الخِلاف، والوحا الوحا قبل لحاق الإسلاف، والحذر الحذر من خطوات الخطايا، والهرب الهرب قبل بت الأماني بالمنايا قبل أن تنزلوا الكفات، فتحلقوا بالرفات، فما بينكم وبين ما إذ أحل من أفات آفات، إلا أن تعاينوا الوفاة وفات.

الفصل التسعون

في قوله تعالى: ﴿مِّمَّا خَطِيٓـَٔـٰتِهِمْ أُغْرِقُوا۟ فَأُدْخِلُوا۟ نَارًا﴾ [نوح: ٢٥]

(مما) أصله من ما، والمعنى: من خطاياهم؛ أي: من أجلها، ومعنى (أُدْخِلُوا): سيدخلون في الآخرة.

قال الضحاك: (أدخلوا في الدنيا؛ لأنهم كانوا يعرقون ويحرقون في النار من جانب).

لما عَمَّ أهل الأرض العمى عما خُلقوا له، بعث الله نوحًا لجلاء أبصار البصائر، فمكث يُداويهم ألف سنة إلا خمسين عامًا، وكلهم أبصر ولكن تعامى، فلاح اللاحي عدم فلاحهم، فولاهم الصلا يأسًا يأسًا من صلاحهم، وبعث شكاية الأذى في مسطور: ﴿إِنَّهُمْ عَصَوْنِى﴾ [نوح: ٢١]، فأذن مؤذن الهلاك عند دخول وقت الطرد على باب دار إهدار دمائهم، وكُشف لنبيهم ما انطوى من الخُبث في طوياتهم برمز: ﴿أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ﴾ [هود: ٣٦]، فقام نوح في محراب: ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦]، فأتته رسالة: ﴿أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، وتقدم إليه بريد الإعلام بالغضب بإنهاء نهي: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فانتدب لعمل السفينة والسفهاء يرفلون في حلل الغفلة عما قد أعد لهم، ويتكئون على أرائك الاستهزاء ضاحكين من فعله، ولسان الوعيد يُناديهم وسط ناديهم: ﴿إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ﴾ [هود: ٣٨]، فلما انهال كثيب الإمهال، وانقطع سلك التأخير غربت شمس الانتظار، فادلهمت ليالي عقاب العقاب، فلما انسدلت الظُلمة، وفات النور فار التنور، فقيل يا نوح قد حان حين الحين، ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ

ٱثۡنَيۡنِ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، فتخلف خلف نوحٍ خلف من ولده، فمد يد الحُنو ليأخذه بيده، ﴿يَٰبُنَيَّ ٱرۡكَب مَّعَنَا﴾ [هود: ٤٢]، فأجاب عن ضمير خائض في مساء المساوئ: ﴿سَـَٔاوِيٓ﴾ [هود: ٤٣]، فرد عليه بلسان ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٤٣]، فلما انسلخ عن نوح نهار الانتهار للولد، بقيت صبابة شفق الشفقة، فنادى مستلبًا بقية الوقت: ﴿إِنَّ ٱبۡنِي مِنۡ أَهۡلِي﴾ [هود: ٤٥]، فقيل له: أشغلك حب الولد عن تفهم الخطاب، أما قيل لك: ﴿وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ﴾ [هود: ٤٠].

أما تلمحت حاجب اللفظ كيف رد طفيلي النسب بقمعه إلا فكأنك ما كنت معنا إذ ألمعنا المعنى، أما علمت أن المخالفة تقطع نسب ذي النسب ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ﴾ [هود: ٤٦]، والموافقة تنسب من لا نسب له " سَلْمَانُ مِنَّا "[1]، فلما انتقم من العُصاة بما يكفي، وكفت كف النجاة كف الأرض بقسر: ﴿ٱبۡلَعِي﴾ [هود: ٤٤]، وقطع جرع جرع السماء في وكف دمعها بظفر: ﴿أَقۡلِعِي﴾ [هود: ٤٤]، وزود الهالكون في سفر ضلالتهم زاد الطرد في مزاود وقيل: ﴿بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [هود: ٤٤]، ونوديت نجوة الجودى: جُودي بإنجاء غرقى المسير، فأسفرت بكشف نقاب الطوفان بعد أن ظهر على ظهرها، ومزقت ثوب الغرق، فصدر رفاتًا عن رفاتها عن صدرها، ولقيت سفر السلامة بمصافحة تميد صفحها، فجعل مكان غناء الغواني للفرح بالقادمين بشارة النجاة ببشر وجه البركات في وجوه السالمين، ﴿يَٰنُوحُ ٱهۡبِطۡ بِسَلَٰمٖ مِّنَّا وَبَرَكَٰتٍ﴾ [هود: ٤٨].

يا غافلا؛ قد طاف الموت حول دارك، فتدارك قبل تدارك العجز وقت اقتدارك، تالله لقد فار تنور الهلاك وطوفان التلف، فإن لم تركب في سفينة نوح النَوح على قبح الذنب لتهلكن في صرصر الإصرار في مرج الموج، يا هذا؛

---

(١) أخرجه ابن سعد (٤/٨٢)، والطبراني (٦/٢١٢، رقم ٦٠٤٠)، قال الهيثمى (٦/ ١٣٠): فيه كثير بن عبد الله المزنى، وقد ضعفه الجمهور، وحسن الترمذى حديثه، وبقية رجاله ثقات. والحاكم (٣/ ٦٩١، رقم ٦٥٤١)، وابن عساكر (٢١/ ٤٠٨).

أرسل بضائع الإيمان في سفينة الإنفاذ ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ [النحل: ٧]، وأرسلها إلى ساحل الصدق مُستعدة بريح الفلاح أن تهُب، فتحت بحر الهوى، فإذا حان حين الحين، فقل عند ركوبها ومسيرها: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْر۪ىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ﴾ [هود: ٤١]، لعلها بجودة متاعها تستوي على جودي القبول، فتنادي من مجب الغيوب: ﴿ٱهْبِطْ بِسَلَـٰمٍ مِّنَّا وَبَرَكَـٰتٍ عَلَيْكَ﴾ [هود: ٤٨].

الفصل الحادي والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذۡرِ﴾ [الإنسان: ٧]

قال الفراء: (فيها إضمار، كانوا يُوفون بالنذر، ووفيت وأوفيت، والنذر في اللغة الإيجاب، والمعنى: يوفون بالواجب عليهم ما التزموه من أنفسهم، واعلم أنما مُدحوا على الوفاء لا على النذر).

وَفِي " الصَّحِيحَيْنِ " مِنْ حَدِيثِ ابْنِ عُمَرَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَهَى عَنِ النَّذْرِ وَقَالَ: " لا يُرَدُّ مِنْ قَدْرٍ وإِنَّمَا يَسْتَخْرِجُ مِنْ الْبَخِيلِ ".

وقال عبد الله بن المبارك: النذر مكروه في الطاعة والمعصية.

عبد الله بن المبارك ستة أنفس:

أحدهم: الذي حكينا عنه، وهو المروزي، أحد أئمة المسلمين.

الثاني: بغدادي، روى عن همام بن يحيي.

الثالث: يروي عن أبي عوانة.

الرابع: بخاري، روى عنه سهل بن شاذويه.

الخامس: جوهري، روى عن أبي الوليد الطيالسي.

السادس: شيخ روى عنه أبو بكر الأثرم.

ومعنى ﴿مُسۡتَطِيرٗا﴾ [الإنسان: ٧]: فاشيًا مُنتشرًا.

قال مُقاتل: (كان فاشيًا في السموات فانشقت، وتناثرت الكواكب، وفزعت الملائكة، وكورت الشمس والقمر، وفي الأرض: فنسفت الجبال، وغارت المياه، ونكس كل شيء على وجه الأرض من جبل وبناءٍ).

وقوله تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، والطعام(١) في القرآن على أربعة أوجه:

أحدها: الشراب: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الثاني: الذبائح: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾ [المائدة: ٥].

الثالث: السمك: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ﴾ [المائدة: ٩٦].

الرابع: كلما يُطعم: ﴿فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟﴾ [الأحزاب: ٥٣].

والهاء في ﴿حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨] بعضهم يردها إلى الطعام وهو قول الجمهور.

وقال الداراي: (ترجع إلى الله تعالى، وهذه الآيات نزلت في علي رضي الله عنه وأهل بيته).

كان للنبي صلى الله عليه وسلم بنات فضلتهن فاطمة، وزوجات سبقتهن عائشة؛ لأن اختيار القدر لا يُجابي في التساوي، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ [الرعد: ٤].

---

(١) الطَّعَامُ: اسْمٌ لِلْمَأْكُولِ. يُقَالُ: طَعِمْتُ الشَّيْءَ طَعْمًا. وَاسْتَطْعَمَ فُلانٌ الْحَدِيثَ؛ إِذَا أَرَادَ أَنْ يُحَدِّثَهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: " إِذَا اسْتَطْعَمَكُمُ الإمَامُ فَأَطْعِمُوهُ "؛ يَقُولُ: إِذَا اسْتَفْتَحَ فَافْتَحُوا عَلَيْهِ.

وَالإطْعَامُ: يَقَعُ في كُلِّ ما يُطْعَمُ، حَتَّى الْمَاءُ؛ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ﴾ [البقرة: ٢٤٩]، وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في زَمْزَمَ: " فَإِنَّهَا طَعَامُ طُعْمٍ، وَشِفَاءُ سُقْمٍ ".

وَيُقَالُ: رَجُلٌ طَاعِمٌ؛ أي: حَسَنُ الْحَالِ في الْمَطْعَمِ. وَرَجُلٌ مِطْعَامٌ: كَثِيرُ الْقِرَى. وَمِطْعَمٌ: كَثِيرُ الأكْلِ. وَمُطْعَمٌ: مَرْزُوقٌ. وَالطَّعْمَةُ: المَأْكَلَةُ.

وَيُقَالُ لِلْقَوْسِ: المُطْعِمَةُ؛ لأنَّهَا تُطْعِمُ صَاحِبَهَا الصَّيْدَ؛ قَالَ ذُو الرُّمَّةِ: [البسيط]

وَفِي الشِّمَالِ مِنَ الشِّرْيَانِ مُطْعِمَةٌ ... كَبْدَاءُ وَفِي عُجْسِهَا عَطْفٌ وَتَقْوِيمُ

وَيُقَالُ: أَطْعَمَتِ النَّخْلَةُ؛ أَدْرَكَ ثَمَرُهَا. وَالتَّطَعُّمُ: التَّذَوُّقُ. يُقَالُ: تَطَعَّمْ تُطْعَمْ؛ أي: ذُقْ تَشْتَهِ. فَالطَّعْمُ: عَرَضٌ يُدْرَكُ بِالذَّوْقِ.

وَيُقَالُ: فُلانٌ خَبِيثُ الطُّعْمَةِ؛ إِذَا كَانَ رَدِيءَ الْكَسْبِ. وَيُقَالُ: ادْنُ فَاطْعَمْ، فَيَقُولُ: ما لِي طُعْمٌ.

كان له من الذكور: القاسم، وعبد الله وهو الطيب والطاهر، لقبان له، وإبراهيم من مارية، ومن الإناث: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، وكانت فاطمة في السن الصغرى، وفي القدر الكبرى، وما روي عنه سواها، فإنها روت ثمانية عشر حديثًا، أُخرج لها في "الصحيحين " حديث واحد متفق عليه.

لما نهض علي رضي الله عنه لخطبتها، طرق بأنامل رجائه أرجاء باب الخطبة، فمشى إليه الإذن بالإذن على عجل العجل، فنقد صدقه في الرغبة قبل نقد الصداق، فجهزت إليه بالإجهاز على عدو الزهد قبل الجهاز، ولم يرض لها جهاز الدنيا لموافقة البضعة ما هي منه في مأمور: ﴿لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾ [الحجر: ٨٨]، وكان فكان الجهاز على معنى النقد، وإنما وقع النقد على درع والدرع بقى، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي، يقطع بيداء القدس وأَمَّ بالجهاز صاحب الشرع، فحلاها الرسول بحلية "فَاطِمَةُ بِضْعَةٌ مِنِّي "(١)، وعقد لها عقدًا خرزات نظامه " إِنَّ اللَّهَ يَغْضَبُ لِغَضَبِكِ وَيَرْضَى لِرِضَاكِ "(٢)، وبعث بين يديها وصائف " غُضُّوا أَبْصَارَكُمْ "، ونصب لها سُدة " أَلا تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ هذِهِ الأُمَّةِ "(٣)، وأدخلها في حلة الحال الحالية، عليها قناع القناعة ورداء رداء الهوى، يسعى على فضاء الفضائل إلى حلوة الحلوة،

---

(١) أخرجه البخارى (٣/ ١٣٦٤، رقم ٣٥٢٣)، ومسلم (٤/ ١٩٠٣، رقم ٢٤٤٩)، وأبو داود (٢/ ٢٢٥، رقم ٢٠٦٩)، وابن ماجه (١/ ٦٤٤، رقم ١٩٩٩). وأخرجه أيضًا: ابن حبان (١٥/ ٤٠٧، رقم ٦٩٥٦).

(٢) أخرجه أبو يعلى فى المعجم (١/ ١٩٠، رقم ٢٢٠)، والطبرانى (١/ ١٠٨، رقم ١٨٢) قال الهيثمى (٩/ ٢٠٣): إسناده حسن. والحاكم (٣/ ١٦٧، رقم ٤٧٣٠) وقال: صحيح الإسناد. وابن عساكر (٣/ ١٥٦). وأخرجه أيضًا: ابن أبى عاصم فى الآحاد والمثانى (٥/ ٣٦٣، رقم ٢٩٥٩)، وابن عدى (٢/ ٣٥١، ترجمة ٤٨١ الحسين بن زيد بن على)، وقال: أرجو أنه لا بأس به إلا أنى وجدت فى بعض حديثه النكرة.

(٣) أخرجه البخارى (٣/ ١٣٢٦، رقم ٣٤٢٦)، وأخرجه أيضًا: مسلم (٤/ ١٩٠٤، رقم ٢٤٥٠).

حتى أُجلست على منصة النص، فأمر الله عز وجل ليلة عُرسها شجر الجنان، فحملت حُللا وحليًّا، فنثرته على الملائكة، فليس المُراد بالحُلل والحلى الملك، ولكن ليُعلم رضى الملِك، يا عجبًا نُثرت الحُلل لأجل من فراشه جلد كبش، هلا حلت له منها حلة كلا مركب الملك أجل من أن يُحلى، فلما تلقاه عَلِيٌّ على باب السرور، دخل عليهما الرسول، فاستدعى بإناءٍ فيه الماء، فدعا فيه بالبركة، ثم رش على جبين بلا غش، فلما طاب لعلي ذلك الوقت، سأل الرسول سؤال سكران من شراب الوصل: " يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَنَا أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَمْ هِيَ؟ فَفَصَلَ الْحَاكِمُ بَيْنَ خُصُومِ الْحُبِّ فَقَالَ: هِيَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْكَ، وَأَنْتَ أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْهَا "(١)، فلما جازت بما حازت قناطر الفصل صين وجه الكمال بخال الخلل في العيش، فأقوى على إذ قوى في قفر الفقر فصيح بفصيح خطاب الشرع، يا علي؛ قم لكسب قوت الوقت، فخرج يسعى على أرض الرضا بين أعلام الصبر، فبات يسقي نخلا إلى الفجر بشيء من الشعير على وجه الأجر، فلما جاء به وأصلح للأكل، قام سائل على باب البذل، فنادى: يا أهل الندى والفضل؛ أطعمونا مما أطعمكم الله من الفضل. فثارت رياح الأرباح للإيثار، فأثارت سحابًا يقطر من قطريه قطر جود الجود، فسال سيله بقدر قدر وادي الود، فلما تروت بالماء غرائب صدح المدح، ﴿وَيُطۡعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ [الإنسان: ٨]، فخلص الإخلاص، ثم بذر بدر نذرٍ: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٩]، وما قالوا ذلك بالفظ، ولكن علمه الحق من المحق، فأخبر عن مضمون القصد ليزيد لفظ بقى ﴿لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءً﴾ [الإنسان: ٩]، فخرق السيل جرف الخوف، ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا﴾ [الإنسان: ١٠]، فضرب اللفظ جبهة الأمن في صحراء عدن عدن على أطناب ﴿فَوَقَىٰهُمُ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ١١]، واكتست أجساد وكست بكساء الضنك غضارة العيش على خلل الخفض: ﴿جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، واستراحت أيد تفرق أيدها بين طحن الرجاء، ونزع الدلو براحة: ﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ﴾ [الإنسان: ١٣]، ولقد عجب العلماء من شرح

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (٥/ ١٥١، رقم ٨٥٣١).

هذا الأجر، واستطرقوا عدم ذكر الحور في هذا الذكر، فبقوا متحيرين في حيرة الفكر، حتى نودي في بطنان وادي الفهم أن ذلك لفضل فضل زهراء الإنس غيرةً عليها من الغير، أما رأيتم كيف ناب عن لسان غيرتها صاحب الشرع، إذ نهى عليًّا عن التزويج بقسر قهر: " يَرِيبُنِى مَا رَابَهَا وَيُؤْذِينِى مَا آذَاهَا "[١].

يا علماء الشرع؛ أعلمتم لم آثرا وتركا الطفلين عليهما أثر الجوع، أتراهما خفي عليهما رمز " ابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ "[٢]، كلا لأنهما علما قدر صبر الصبيين؛ لأنهما غصنان من شجر " أَبِيتُ عَنْدَ رَبِّي "[٣]، وبعض من جملة "بِضْعَةٌ مِنِّي "، وفرخ البط سابح وذكاه الجنين بذكاة أمه.

---

(١) أخرجه البخارى (٥/ ٢٠٠٤، رقم ٤٩٣٢)، ومسلم (٤/ ١٩٠٢، رقم ٢٤٤٩)، وأبو داود (٢/ ٢٢٦، رقم ٢٠٧١)، والترمذى (٥/ ٦٩٨، رقم ٣٨٦٧) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (١/ ٦٤٣، رقم ١٩٩٨) وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٣/ ٦٩، رقم ٤٢٣١)، وابن حبان (١٥/ ٤٠٥، رقم ٦٩٥٥)، والبيهقى (٧/ ٣٠٧، رقم ١٤٥٧٥).

(٢) أخرجه الطبرانى (٣/ ٢٠٣، رقم ٣١٢٩)، قال الهيثمى (٣/ ١١٦): فيه أبو صالح مولى حكيم لم أجد من ترجمه.

والحديث أصله فى الصحيحين بأطراف: "اليد العليا"، "خير الصدقة".

ومن غريب الحديث: "تعول": تلزمك مؤنته، ونفقته.

(٣) أخرجه ابن راهويه في مسنده (٢/ ٤٦٤، رقم ١٠٣٥).

الفصل الثاني والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ۝١٥﴾ [النازعات: ١٥]

هاهنا ﴿هَلْ أَتَىٰكَ﴾ [النازعات: ١٥]، وفي (طه): ﴿وَهَلْ أَتَىٰكَ﴾ [طه: ٩] بزيادة واو، وهذا من الحروف الزوائد والنواقص من المتشابه، ومثله في (البقرة): ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي (يونس): ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِۦ﴾ [يونس: ٣٨].

في (البقرة): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ﴾ [البقرة: ٣٤]، وفي (ص): ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ﴾ [ص: ٧٤].

في (البقرة): ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: ٣٨]، وفي (طه): ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ﴾ [البقرة: ١٢٣].

في (البقرة): ﴿وَإِذْ نَجَّيْنَٰكُم﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (الأعراف): ﴿وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم﴾ [الأعراف: ١٤١].

في (البقرة): ﴿يُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [البقرة: ٤٩]، وفي (إبراهيم): ﴿وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَآءَكُمْ﴾ [إبراهيم: ٦].

في (البقرة): ﴿وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨]، وفي (الأعراف): ﴿سَنَزِيدُ﴾ [الأعراف: ١٦١].

في (البقرة): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا﴾ [البقرة: ٥٩]، وفي (الأعراف): ﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ﴾ [الأعراف: ١٦٢].

في (البقرة): ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣]، وفي (الأنفال): ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال: ٣٩].

في (آل عمران): ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٢٦].

وفي (الأنفال): ﴿إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠].

في (النساء): ﴿فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ٢٢]، وفي (بني إسرائيل): ﴿فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

وفي (الأنعام): ﴿وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وفي (هود): ﴿وَلَآ أَقُولُ إِنِّى مَلَكٌ﴾ [هود: ٣١].

في (الأعراف): ﴿وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الأعراف: ١١٤]، وفي (الشعراء): ﴿وَإِنَّكُمْ إِذًا لَّمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾ [الشعراء: ٤٢].

وفي (الأعراف): ﴿قَالَ ٱبْنَ أُمَّ﴾ [الأعراف: ١٥٠]، وفي (طه): ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ [طه: ٩٤]. في (التوبة): ﴿وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا﴾ [التوبة: ٣٩]، وفي (هود): ﴿وَلَا تَضُرُّونَهُۥ شَيْـًٔا﴾ [هود: ٥٧].

في (هود): ﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ [هود: ٧٧]، وفي (العنكبوت): ﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

في (النحل): ﴿لِكَىْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٠]، وفي (الحج): ﴿مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ [الحج: ٥].

في (الحج): ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢]، وفي (لقمان): ﴿وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [لقمان: ٣٠].

في (الشعراء): ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الشعراء: ٧٠]، وفي (الصافات): ﴿مَاذَا تَعْبُدُونَ﴾ [الصافات: ٨٥].

و(هل) (١) في القرآن على سبعةِ أوجهٍ:

أحدها: بمعنى (ما): ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢١٠].

---

(١) (هَلْ): حَرْفُ اسْتِفْهَام.

قال ابن قتيبة: ويَدْخُلُهَا من معنى التَّقْرِيرِ والتَّوْبيخِ ما يَدْخُلُ الألِفَ التي يُسْتَفْهَمُ بها؛ كقوله تعالى: ﴿هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾ [يونس آية: ٣٤].

الثاني: بمعنى الاستفهام: ﴿فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَآءَ﴾ [الأعراف: ٥٣].

الثالث: بمعنى (قد): ﴿هَلْ أَتَنكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾﴾ [النازعات: ١٥].

الرابع: بمعنى (ألا): ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الكهف: ١٠٣].

الخامس: بمعنى الأمر: ﴿هَلْ أَنتُم مُّطَّلِعُونَ﴾ [الصافات: ٥٤].

السادس: بمعنى السؤال: ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ﴾ [ق: ٣٠].

السابع: بمعنى أليس: ﴿هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴿٥﴾﴾ [الفجر: ٥].

قوله تعالى: ﴿إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ﴾ [النازعات: ١٦] أي: المطهر، وطوى: اسم الوادي.

لما خرج موسى عليه السلام من شعب شعيب عن مدينة مدين وضعت زوجته، فطلب النار، فوجد النور، فنودي في النادي، فخلعت عن روعه خلع الروع بلفظ: ﴿فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ﴾ [طه: ١٢]، وبسط له بساط المؤانسة في مناجاة: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ﴾ [طه: ١٧]، فحذر أن يؤمر برفضها، فعرض بحاجته إليها في ضمن: ﴿أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٨]، فتلقاه أمر: ﴿أَلْقِهَا﴾ [طه: ١٩]، فصارت حيَّةً حيّة تمر بالصخرة، فتقطعها وتطعن في الشجرة فتقطعها، فهرب حتى دخل حيف وجله الخوف ممسكًا بعقب ولم يُعقب، فأخرجه أمن الأمر بإيجاب: ﴿خُذْهَا وَلَا تَخَفْ﴾ [طه: ٢١]، وسكن انزعاجه بضمان سنعيدها، فأدخل يده في فيها وما عصى، فإذا بها عصا، وإنما فعل به ذلك لينزل غرفات عرفانها، فيتوطد عند لقاء العدو ولمعجز: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ﴾ [طه: ٦٩]، ثم سُلِم إليه منشورًا: ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ﴿٢٤﴾﴾ [طه: ٢٤]، فطلب زادًا لبلاغ سفر التبليغ بسؤال: ﴿ٱشْرَحْ﴾ [طه: ٢٥]، ﴿وَيَسِّرْ﴾ [طه: ٢٦]، ﴿وَٱحْلُلْ﴾ [طه: ٢٧]، فاغتنم فرصة النثار، فسال سهمًا لأخيه بحجة: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، فوقع على سؤاله جواب: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ﴾ [طه: ٣٦]، فلما حجى إلى باب حجاجه من منى منة ليست منه ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ﴾ [الشعراء: ١٨]، وَعَيَّرَهُ بذنب ﴿وَفَعَلْتَ﴾ [الشعراء: ١٩]، فلما ألقى العصا ألقوا عليه بُهتان: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾

[طه: ٦٣]، ورموه بتهمة طلب الدنيا عن قوس: ﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ [طه: ٦٣]، فحار فرعون في حير التحير في معجزته، إلى أن وقع على عجز المعجز، واستراح إلى الغير في مشاورة ﴿فَمَاذَا تَأْمُرُونَ﴾ [الشعراء: ٣٥]، فوقفت أراؤهم على أرجاء ﴿أَرْجِهْ﴾ [الشعراء: ٣٦]، وضرب القوم خيام زينتهم يوم الزينة على شاطئ شط الشطط، فلما حضر السحرة طلبوا الجزاء في صريح: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا﴾ [الأعراف: ١١٣]، وحال ما ألقوا في دياجي المداجاة، وتصرف فأزعج قلوب الحاضرين بهوله وخوفه، ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ﴾ [الشعراء: ٤٥] في صباح ﴿تَلْقَفُ﴾ [الشعراء: ٤٥]، ففر السحرة من عسكر فرعون إلى قصر مصر موسى، ينادون بلسان عز العزم: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢١]، فضرب فرعون أطناب الوعيد على أوتاد: ﴿لَأُقَطِّعَنَّ﴾ [الأعراف: ١٢٤]، فأجاب شجاع شجاعتهم: ﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾ [طه: ٧٢]، ونادى في عسكرهم مُنادي الشوق: ﴿إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء: ٥٠]، ثم أُرسلت إلى القبط الآيات لعل عليلهم يعل من نهر الانتهار، فأبوا إلا غدر أن الغدر، فطاف عليهم الطوفان، وتجرد لهم الجراد وأقماهم القمل، وضفى عليهم أمر الضفادع، وانفتح زدم الدم، هذا وعود عودهم صم المكاسر، إلا أنهم كانوا يضجون من آلم الموسى إلى موسى، فإذا كشف عنهم ما أرادوا عادوا، فلما استغاث مُبهم الأقط، جاء بريد: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾ [الشعراء: ٥٢]، فلما مروا تلقاهم البحر، وأتبعهم فرعون، فأظهر الجزع شكوى: ﴿أُوذِينَا﴾ [الأعراف: ١٢٩] وزاد: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: ٦١]، فحمل كُلهم كَلهم بلفظ: ﴿إِنَّ مَعِىَ رَبِّى﴾ [الشعراء: ٦٢]، فجاء فتح الوحي: ﴿أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ﴾ [الشعراء: ٦٣]، فضرب، فانفلق سككًا، وقامت جنود الأمن على معابرهم، تُدافع بسلاح: ﴿لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا﴾ [طه: ٧٧]، وصاح مهل الإملاء: ﴿وَٱتْرُكِ ٱلْبَحْرَ رَهْوًا﴾ [الدخان: ٢٤]، فلما حصل الأعداء في اليم، التطم عليهم بالغضب سريعًا، فتمسك فرعون بحبل: ﴿ءَامَنتُ﴾ [يونس: ٩٠]، فانقضت بمقراض: ﴿ءَآلْـَٰٔنَ﴾ [يونس: ٩١].

طالما لان له موسى بعلة ﴿لَعَلَّهُۥ﴾ [طه: ٤٤]، وأعرض عليه الهدى وكم دله، فاختار على من هدى ذله، فلما ضج منه الإمهال ومله، وعج وسط البحر ومن له.

لقد سُقي وأصحابه دم الندم من يد ﴿دَمَّرْنَا﴾ [الشعراء: ١٧٢]، وتجاوبت أصداء بقاعهم ﴿كَمْ تَرَكُوا۟﴾ [الدخان: ٢٥]، وانتقلت أملاكهم إلى وراث ﴿مُّسْتَضْعَفُونَ﴾ [الأنفال: ٢٦]، وبان سر رجاء: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٢٩]، بكشف نقاب الإنعام بأنامل: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ﴾ [القصص: ٥]، وأمر موسى وقومه بمقابلة قبلة الشكر: ﴿وَٱجْعَلُوا۟ بُيُوتَكُمْ قِبْلَةً﴾ [يونس: ٨٧].

الفصل الثالث والتسعون

في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾﴾ [النازعات: ٣٤]

(الطامة): الحادثة التي تطم على ما سِوَاهَا؛ أي: تعلوا فوقه، وهي هاهنا: نفخة البعثِ.

﴿يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾﴾ [النازعات: ٣٥]؛ أي: ما عمل من خيرٍ وشرٍّ.

﴿وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾﴾ [النازعات: ٣٦]: لأبصار الناظرين.

﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾﴾ [النازعات: ٣٧] في كفره، ﴿وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾﴾ [النازعات: ٣٨] على الآخرة؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات: ٣٩] له.

﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ﴾ [النازعات: ٤٠]؛ أي: قيامه بين يديه يوم الحشر، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠]؛ أي: عما تهوى من المحارم؛ ﴿فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٤١].

قال مقاتل: هو الرجل يهم بالمعصية، فيذكر مقامه للحساب؛ فيتركها.

وفي " الصحيحين " من حديث أبي هريرة: " حُفَّتِ الجنةُ بالمكاره، وحُفَّتِ النار بالشهوات "(١).

وفي لفظ حديث البخاري: " حُجِبَتِ " مكان: " حُفَّتْ ".

---

(١) أخرجه مسلم (٤/ ٢١٧٤، رقم ٢٨٢٣)، وابن حبان (٢/ ٤٩٤، رقم ٧١٩) والقضاعي (١/ ٣٣٢، رقم ٥٦٧).

وَرَوَى أبو برزة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " أَخْوَفُ ما أَخَافُ عليكم: شَهواتُ الغيِّ في بطونكم وفروجكم، ومُضلاتُ الهَوَى "(١).

أبو برزة اسمه نضلة بن عبيد، وجُملة من في الصحابة اسمه نضلة ثلاثة: ابن عبيد، وابن عمرو، وابن نهضل؛ فكلهم روى عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأما أبو برزة فَرَوَى ستةً وأربعين حديثًا، أُخرِجَ له في " الصحيحين " سبعة، المتفق عليه منها حديث واحد، وانفرد البخاري بحديثين، ومُسلم بأربعةٍ، ومات أبو برزة بِمَرْو، ثم مات بعده بُريدة بن الحصيب، وجملة من مات من الصحابة بخراسان ستة:

بريدة، والحكم بن عمر الغفاري، وعبد الرحمن بن سمرة، وعبد الرحمن بن يعمر، وقثم بن العباس، وأبو برزة.

وآخر من مات من الصحابة بخراسان: بُريدة، وبمكة: ابن عمر، وبالمدينة: سهل بن سعد، وبالكوفة: عبد الله بن أبي أوفى، وبالبصرة: أنس، وبمصر: عبد الله بن الحارث، وبالشام: عبد الله بن عمرو من أهل بدرٍ، وأبو اليسر، ومن المهاجرين: سعد بن أبي وقاص، وهو آخر العشرة موتًا، وآخر من مات مِمَّنْ رَأَى النبي صلى الله عليه وسلم: أبو الطفيل عامر بن واثلة الكناني، مات بمكة.

وَرَوَى عقبة بن عامر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " عجبَ ربنا من شابٍ ليست له صَبوة "(٢).

وقال يحيى بن معاذ: حُفَّتِ الجنة بالمكاره وأنت تكرهها، وحُفَّتِ النار بالشهوات وأنت تطلبها؛ فما أنت إلا كالمريض الشديد الداء؛ إن صبر نفسه

(١) أخرجه الطبرانى كما فى مجمع الزوائد (١/ ١٨٨) قال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح لأن أبا الحكم البنانى الراوى عن أبى برزة بينه الطبرانى فقال عن أبى الحكم هو الحارث بن الحكم وقد روى له البخارى وأصحاب السنن.

(٢) أخرجه أحمد (٤/ ١٥١، رقم ١٧٤٠٩)، والطبرانى (١٧/ ٣٠٩، رقم ٨٥٣). وأخرجه أيضًا: أبو يعلى (٣/ ٢٨٨، رقم ١٧٤٩) قال الهيثمى (١٠/ ٢٧٠): إسناده حسن. وابن أبى عاصم فى السنة (١/ ٢٥٠، رقم ٥٧١).

على مضض الدواء اكتسب بالصبر عافية، وإن جزعت نفسه مما يلقى طالت عِلَّةَ الضناء.

وقيل له: من أصحُ الناس عزمًا؟

قال: الغالب لِهَوَاهُ.

يحيي بن معاذ ثلاثة:

هذا أحدهم، وكان حكيم زمانه، يَرْوِي عن مكي بن إبراهيم .

الثاني: نيسابوري، حَدَّث عن عبد الصمد بن علي .

الثالث: تستري، حَدَّث عن يحيي بن المغيرة.

قال مالك بن دينار: جنات النعيم بين جنات الفردوس وبين جنات عدن؛ فيها جوارٍ خُلقن من ورد الجنة، فقيل: ومن يسكنها؟ قال: الذين هَمُّوا بالمعاصي، فلما ذكروا عظمتي راقبوني، والذين انثنت أصلابهم من خشيتي.

وقال يزيد بن ميسرة: يقول الله عز وجل: أيها الشاب التارك شهوته من أجلي؛ أنت عندي كبعض ملائكتي.

إخواني كم بين قادرٍ على الهوى صبر، وبين عاجزٍ قَيَّدهُ الكِبَر، أين تنسك الشاب من شيخ ضعيف، يا عجبًا هجر الشباب المقايس فرماها.

[البسيط]

فقلتُ للرَّكْبِ إذْ جَدَّ الرَّحِيل بِنا ... يَا بُعْدَ يَبْرِينَ مِن بابِ الفَرادِيسِ

هَلْ دَعْوةٌ مِنْ جِبَالِ الثلجِ مُسمعةٌ ... أَهْلَ الإيادِ وحيًّا بالنَّباريسِ

يخزَى الوشيظُ إذا قالَ الصَّميمُ لهمْ ... عدُّوا الحَصَى ثمَّ قيسُوا بالمقاييس

وابنُ اللّبونِ إذا ما لُزَّ في قرنٍ ... لم يستطِعْ صولةَ البزلِ القناعيسِ

قال الأصمعي: سمعتُ أعرابيًا يقول: إذا أشكل عليك أمران لا تدري أيهما أرشد، فخالف أقربهما إلى هواك؛ فإن أكثر ما يكون الخطأ مع متابعة الهوى.

وقال ابن الحواري: مررتُ براهبٍ، فوجدته نحيفًا، فقلت: أنت عليل؟ قال: نعم. قلت: منذ متى؟ قال: منذ عرفتُ نفسي. قلت: فتداوى؟! قال: قد أَعْيَانِي الدواء، وقد عزمت على الكي. قلتُ: وما الكي؟! قال: مُخَالفةُ الهَوَى.

وسُئِلَ ابن المقفع عن الهوى، فقال: هوانٌ سُرقت نونه.

[البسيط]

وَالْـمَـرْءُ مَـا دَامَ ذَا عَـيْـنٍ يُـقَـلِّـبُـهَـا فِي أَعْيُنِ الْعَيْنِ مَوْقُوفٌ عَلَى الْخَطَرِ

تـسـر مُـقْـلـتـه مَـا ضَـرَّ مـهـجـتـه لا مَـرْحَـبًـا بِـسُـرُورٍ عَـادَ بِـالـضَّـرَرِ

إخواني من غلبه هواه توارى عنه عقله، الملك عقلا بلا هوى، والكلب هوىً بلا عقل، فلما ترك هاروت وماروت قبول قول العقل، حَرُم قبول قولهما: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

ولما وافق الكلب مقتضى العقل في التعليم أُبيح كسبه: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ الْجَوَارِحِ﴾ [المائدة: ٤].

يا هذا؛ عَلَّمت كلبك، فهو يترك شهواته في تناول ما صاد لاجترام نعمتك وخوف عقوبتك، وأنت ما تقبل من مُعلم الشرع، فيا عجبًا لمُعلم عِقَال العقل وإلا هوى بك الهوى.

من غلب هواه زاد على مرتبة ملكٍ، ومن غلبه هواه نقص عن مرتبة كلب؛ اثبُتْ في صفِّ الجهاد ثبوت عازمٍ ولازمٍ، فما نال الغنائم نائم.

لما احتضر خالد بن الوليد بكى، وقال: لقيت كذا وكذا زحفًا، وما بقي في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيفٍ، أو رميةٍ بسهم، أو طعنةٍ برمح؛ وها أنا أموت على فراشي، فلا نامت أعين الجبناء.

قال الله عز وجل: " النظرة سهمٌ مسموم مِنْ سهام إبليس، فمن تركها أَتَيْتُهُ إيمانًا "[1].

يا هذا؛ جهاد النفس في غضِّ البصر سمر ما بينه إيمانًا يجد حلاوته في قلبه فكيف بما زاد.

تزوج رجل ممن كان قبلكم امرأة، ثم بعث غلامًا، فحملها إليه، فراودت الغلام نفسه وطالبته؛ يعني: بالمرأة، فجاهد الغلام، وغلب هواه، فجعله الله عز وجل نبيًا في بني إسرائيل.

---

(١) أخرجه الحاكم (٤/٣٤٩، رقم ٧٨٧٥) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: القضاعى (١/ ١٩٥، رقم ٢٩٢).

يا هذا؛ متى تركت معصية قدرت عليها، وإنما تركتها ولا سبيل إليها، فلا من الخالق خِفتَ، ولا من الذَّمِّ أنفتَ.

كان جميل يقول عند موته: لا نالتني شفاعة محمد إن كنت وضعت يدي على بثينة بريبة قط.

وكان عمر بن أبي ربيعة مع تشبيبه بالنساء يقول: ورب هذه البنية؛ ما حَلَلتُ إِزَارِي عَلَى حَرَام قطُّ.

وقال ذو الرمة: مَكثت هائمًا بِمِنَى عشرين سنة في غير ريبة ولا فساد.

أزوركم والنفس مأمونة ... وما فؤادي عاشق
ومهجتي محفوظة من ... هوىً لا تحسبوني فاسق
والقلب من عقل لما ... يبتغي مما يراه خافق
ولم أخن حرًّا ولا حرة ... عصيت فيه خالق
فلا تظني بي إلا الذي ... أقول أني صادق
وكل ذي ودٍ على ... وده فذاك مني طالق

الفصل الرابع والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ﴿٣٤﴾﴾ [عبس: ٣٤]

الأخ[1] في القرآن على خمسة أوجهٍ:

أحدها: من الأب والأم، أو من أحدهما؛ ﴿فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ﴾ [النساء: ١١].

الثاني: الإخاء في الدين؛ ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣].

الثالث: الإخاء من القبيلة؛ ﴿أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف: ٦٥]، ﴿أَخُوهُمْ صَٰلِحٌ﴾ [الشعراء: ١٤٢].

الرابع: الإخاء في المودة؛ ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾ [الحجر: ٤٧].

الخامس: الصاحب؛ ﴿إِنَّ هَٰذَآ أَخِى﴾ [ص: ٢٣].

والأم[2] في القرآن على خمسة أوجهٍ:

---

(١) الأخ: اسمٌ يُرَادُ به المساوي والمعادل، والظَّاهِرُ في التَّعارُفِ أنه يُقَالُ في النَّسَبِ، ثم يستعار في مواضع تَدُلُّ عليها القرينةُ.
ويقال: تَأَخَّيْتُ الشَّيءَ؛ أي: تَحَرَّيْتُهُ. وحَكَى ابنُ فارس عن بعضِ العُلَماءِ أنه قال: سُمِّي الأخوان لتأخِّي كُلٍّ واحدٍ منهما ما يَتَأَخَّاهُ الآخر. والإخَاءُ: ما يكونُ بينَ الأخوينِ، قال:ى وذَكَرَ أنَّ الإخوةَ: للولادةِ. والإخْوان: للأصدقاءِ.

(٢) الأمُّ: الوالدةُ. وأصلُ كُلِّ شيءٍ أُمّه. ومَكَّة: أُمُّ القُرَى؛ لأن الأرضَ دُحِيَتْ من تَحْتِهَا.
ويقال: إنَّ الأمَّ في الأصلِ أُمَّهَة.
وكذلك تُجْمَعُ: أُمَّهَات. ويقال: أُمَّاتٌ. وأنشدوا: [المتقارب]
فَـرَجْـتَ الـظَّـلامَ بـأُمَّـاتِـكـا
قال ابن فارس: وجدتُ بخطِّ سلمة أنَّ أُمَّهَات في النَّاسِ، وأُمَّات في البَهَائِمِ.

أحدها: الوالدة؛ ﴿فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ﴾ [النساء: ١١] .

الثاني: المرضعة؛ ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ [النساء: ٢٣] .

الثالث: مشابهة الأم في الحرمة: ﴿وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦] .

الرابع: الأصل؛ ﴿وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الزخرف: ٤] .

الخامس: المصير؛ ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ ۝٩﴾ [القارعة: ٩].

والأب في القرآن أربعة أوجه:

أحدها: الأب الأدنى؛ ﴿وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ﴾ [النساء: ١١] .

الثاني: الأب الأعلى، وهو الجد؛ ﴿وَٱتَّبَعْتُ مِلَّةَ ءَابَآءِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ﴾ [يوسف:٣٨]، وإنما إسماعيل عم يعقوب .

الثالث: العم، ومنه في البقرة: ﴿وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وإنما إسماعيل عم يعقوب .

الرابع: الخالة؛ ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ [يوسف: ١٠٠].

قال المفسرون: يفر قابيل من هابيل، وإبراهيم من آزر، ونوح من كنعان، ولوط من زوجته، ونبينا صلى الله عليه وسلم من والديه.

ومعنى الآية: إن الإنسان لا يلتفت إلى أحدٍ من أقاربه لعظم ما هو فيه.

وفي " الصحيحين " من حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " إن الناس يأتون يوم القيامة إلى آدم، فيقولون: يا أبانا اشفع لنا إلى ربك، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبًا لم يغضب قبله مثله، ولن يغضب بعده مثله، وأنه نهاني عن الشجرة فعصيته؛ نفسي نفسي، وكذلك يقول إبراهيم: نفسي نفسي، وكذلك يقول موسى: نفسي نفسي، وكذلك الأنبياء؛ إلا محمدًا صلى الله عليه وسلم "[1].

وروى أنس، قال: " سَأَلَتْ عائشة رضي الله عنها رسول الله صلى الله

---

(١) أخرجه البخارى (٤/ ١٧٤٥، رقم ٤٤٣٥)، ومسلم (١/ ١٨٤، رقم ١٩٤)، والترمذى (٤/ ٦٢٢، رقم ٢٤٣٤). وأخرجه أيضًا: النسائى فى الكبرى (٦/ ٣٧٨، رقم ١١٢٨٦)، وابن أبى شيبة (٦/ ٣٠٧ رقم ٣١٦٧٤).

عليه وسلم، فقالت: أيُحشرُ الناس عراة يا رسول الله؟ قال: نعم. قالت: واسوْتاه؛ فأنزل الله عز وجل: ﴿لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ﴿٣٧﴾﴾ [عبس: ٣٧]»[1].

يا له من يوم يعجز واصفيه، ويذهل العاقل ويتحير فيه، وتنطق جوارحه ويختم على فِيهِ، لا الولد يذكر الوالد، ولا الصديق الصدوق يُساعد، والشقيق الشفيق كالأباعد مشغولا عن غيره بما هو فيه.

وظهرت النار بآفاتها، فبكت النفوس لمخالفاتها، فمكاوي ندم العاصي قبل نفحاتها تكويه، لا ينفع فيه الشكوى، ولا تكشف فيه البلوى لا مَنّ فيه ولا سلوى، بلى بلاء التيه، أتنسى ويحك ما تلقى، أترضى لنفسك أن تشقى، أتؤثر ما يفنى على ما يبقى، هذا الرأي السفيه، ألا يتزود قبل الرحيل الراحل، ألا يتخلص الغريق إلى الساحل، ألا تتأهب للموت الناقل، هذا قدر زجر الفهم للعاقل ويكفيه.

---

(١) أخرجه الترمذى (٥/ ٤٣٢، رقم ٣٣٣٢)، وقال: حسن صحيح. والحاكم (٢/ ٢٧٦، رقم ٢٩٩٥). وأخرجه أيضًا: النسائى فى الكبرى (٦/ ٥٠٦، رقم ١١٦٤٧).

الفصل الخامس والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ١]

اعلم أن الله عز وجل تواعد بالويل لليهود: ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩]، والمشركين: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ﴾ [فصلت: ٦]، والمكذبين: ﴿فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ ۝١١﴾ [الطور: ١١]، والمطففين: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ۝١﴾ [المطففين: ١]، والهمازون: ﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ ۝١﴾ [الهمزة: ١]، والمتوانون عن الصلاة: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥﴾ [الماعون: ٤ - ٥].

قال الزجاج: الويلُ كلمة تقولها العرب لكل من وقع في هلكة، ويستعملها هو أيضًا، وأصلها في اللغة العذاب والهلاك.

قال ابن الأنباري: ويقال: الويل: المشقة من العذاب، يقال لأهله: وي لفلان؛ أي: حزن لفلان، وكثر الاستعمال للحرفين، فوصلت اللام بوي، وجُعلت حرفًا واحدًا، ثم خبّر عن ويل بلام أخرى، فهي اختيار الفراء.

وقد روى أبو سعيدٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ويلٌ واد في جهنم، يهوى الكافر فيه أربعين خريفًا قبل أن يبلغ قعره "(١).

قال ابن قتيبة: المطفف الذي لا يوفي الكيل، يقال: إناء طفان إذا لم يكن مملوءًا.

---

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٧٥، رقم ١١٧٣٠)، وعبد بن حميد (ص ٢٨٩، رقم ٩٢٤)، والترمذى (٥/ ٣٢٠، رقم ٣١٦٤) وقال: غريب. وأبو يعلى (٢/ ٥٢٣، رقم ١٣٨٣)، وابن حبان (١٦/ ٥٠٨، رقم ٧٤٦٧)، والحاكم (٤/ ٦٣٩، رقم ٨٧٦٤) وقال: صحيح الإسناد. وأخرجه أيضًا: ابن المبارك (١/ ٩٦، رقم ٣٣٤)، والديلمى (٤/ ٤٠١، رقم ٧١٦٤).

وقال الزجاج: إنما قيل مطفف؛ لأنه لا يكاد يسرق إلا الشيء الطفيف، وإنما أخذ من طف الشيء، وهو جانبه.

ودخل أعرابي على هشام بن عبد الملك، فقال له: عِظْنِي، فقال: ويل للمطففين، فقال: هذا جزاء من طفف المكيال، فكيف من أخذ الكل؟!

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ﴾ [المطففين: ٢].

(على) [١] **في القرآن على خمسة أوجه:**

أحدها: بمعنى في؛ ﴿عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثاني: بمعنى الالتزام؛ ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ﴾ [النحل: ٩].

الثالث: بمعنى فوق؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ [طه: ٥].

الرابع: بمعنى الشرط؛ ﴿عَلَىٰٓ أَن تَأْجُرَنِى ثَمَٰنِىَ حِجَجٍ﴾ [القصص: ٢٧].

الخامس: بمعنى مِنْ: ﴿إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝٢ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ﴾ [المطففين: ٢ - ٣]؛ أي: وزنوا لهم.

قال الفراء: سمعت أعرابية تقول: إذا صدر الناس أتينا التاجر، فيكبب لنا المد والمدين إلى الموسم المقبل؛ فعلى هذا لا يجوز الوقف على:

---

(١) قال أبو زكريا: (على) تُسْتَعْمَلُ اسمًا وفِعْلا وحَرْفًا.

فإذا كانت عبارة عن شخصٍ فهي اسْمٌ وتدخلُ عليها عَلامَاتُ الأسْمَاءِ؛ تقول: جَاءَنِي عَلا، ورَأَيْتُ عَلا، ومَرَرْتُ بعَلا.

وإذا كانت بمعنى فَوْقَ فهي اسْمٌ أيْضًا؛ تقول: جِئْتُ مِنْ عَلَيْهِ، كما يقال: جِئْتُ مِنْ فَوْقِهِ. قال الشاعر:

غَدَتْ مِنْ عَلَيْهِ بَعْدَ مَا تَمَّ ظَمْؤُهَا

وقال الآخر: [الرجز]

فهي تَنُوشُ الحَوْضَ نَوْشًا مِنْ عَلا

وإذا كانت مُشْتَقَّةٌ من مَصْدَرٍ ودَلَّتْ على زَمَانٍ مَخْصُوصٍ فهي فِعْلٌ؛ تقول: عَلا يَعْلُو عُلُوًّا فهو عَالٍ.

وعَلا الحَائِطُ، كما تقول: ارْتَفَعَ الحَائِطُ.

وما عدا هذين المَوْضِعَيْنِ فهي حَرْفٌ يُجَرُّ ما بَعْدَهَا.

﴿أَكَالُوا﴾ ؛ لأنها معهم كلمة واحدة، ومن الناس من يقول: (هم) توكيد، فيجوز الوقف إذن على (كالو)، حكى الوجهين الزجاج، والاختيار الأول.

واعلم أن كسب الحلال فضيلة عظيمة، وإنما صار فضله كذلك لاجتهاد المجاهد في طلبه، ودفع الحرام بكفِّ الورعِ.

قال الحسن: طلبُ الحلالِ أشدُّ من لقاء الزَّحفِ.

وقال يونس بن عبيد: ما أعلمُ شيئًا أقل من درهمٍ طيبٍ يُنفقه صاحبه في حقٍّ أخ يسكن إليه في الإسلام وما يزداد إلا قِلَّة.

وجُملة ما يأتي في الحديث اسمه يونس بن عبيد ثلاثة:

أحدهم: هذا كان سيد الزهاد، وسمع من الحسن .

الثاني: مولى، حَدَّثَ عن البراء بن عازب .

الثالث: روى عن المُبارك بن فضالة.

وما زال الأنبياء والصالحون يطلبون الحلال، وكان آدم عليه السلام كان حراثًا، ونوح نجارًا، وإدريس خياطًا، وداود حدادًا، وإبراهيم زراعًا، وصالح تاجرًا، ولقمان خياطًا، وموسى، وشعيب، ونبينا صلى الله عليهم وسلم رُعاةً.

وأبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وطلحة، ومحمد بن سيرين، وميمون بن مهران بزازين، والزبير، وعمرو بن العاص، وعامر بن كريز خزازين، وسعد بن أبي وقاص يبري النبل، وعثمان بن محمد الحجبي خياطًا، وأيوب السختياني يبيع جلود السختيان، ومالك بن دينار وراقًا.

وفي " الصحيحين " من حديث المقدام بن معدي كرب، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " ما أكل أحد منكم طعامًا خير له من عمل يديه؛ فإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يديه ".

وفي حديث ابن مسعود، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يكسب عبد من حرام فيُبارك له فيه، ولا يتصدق به فيُقبل منه، ولا يتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار؛ إن الله عز وجل لا يمحو السيىء بالسيىء،

ولكنه يمحو السيء بالحسن؛ إن الخبيث لا يمحو الخبيث "[(١)].

وفي أفراد مسلم من حديث أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم: " أنه ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، ثم يمد يده إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وغُذي بالحرام؛ فأَنَّى يُستجاب له "[(٢)].

وقال مالك بن دينار: أصاب بني إسرائيل بلاء، فخرجوا مخرجًا، فأوحى الله عز وجل إلى نبيهم أن أخبرهم تخرجون إلى الصعيد بأبدان نجسة، وترفعون إليَّ أكفًّا قد سفكتم بها الدماء، وملأتم بها بيوتكم من الحرام، الآن حين اشتد غضبي عليكم ولن تزدادون مني إلا بُعدًا.

وروى ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " من غَشَّنَا فليس مِنَّا "[(٣)].

وفي حديث أبي برزة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " لا تزول قدما عبدٍ حتى يُسأل عن عمره فيما أفناه، وعن عمله فيما فعل، وعن ماله من أين اكتسب وفيما أنفقه، وعن جسمه فيما أبلاه "[(٤)].

وكان زادان إذا عرض الثوب ناول شر الطرفين.

وقال يوسف بن أسباط: ليس الذاكر الله تعالى من قال: سبحان الله

---

(١) أحمد (١/٣٨٧، رقم ٣٦٧٢) قال الهيثمى (١/٥٣): رجال إسناده بعضهم مستور، وأكثرهم ثقات. وقال فى (١٠/٢٢٨): رجاله وثقوا وفى بعضهم خلاف. والعدنى فى الإيمان (ص ١٢٧، رقم ٦٤).

(٢) أخرجه مسلم (٢/٧٠٣، رقم ١٠١٥)، والترمذى (٥/٢٢٠، رقم ٢٩٨٩) وقال: حسن غريب. وأخرجه أيضًا: الدارمى (٢/٣٨٩، رقم ٢٧١٧).

(٣) أخرجه مسلم (١/٩٩، رقم ١٠١)، وابن ماجه (٢/٨٦٠، رقم ٢٥٧٥).

(٤) أخرجه الترمذى (٤/٦١٢، رقم ٢٤١٦) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث الحسين ابن قيس وحسين بن قيس يضعف فى الحديث من قبل حفظه. وأبو يعلى (٩/١٧٨، رقم ٥٢٧١)، والطبرانى (١٠/٨، رقم ٩٧٧٢)، وابن عدى (٢/٣٥٣، ترجمة ٤٨٢ الحسين ابن قيس أبو على الرحبى)، وقال: هو إلى الضعف أقرب منه إلى الصدق. والبيهقى فى شعب الإيمان (٢/٢٨٦، رقم ١٧٨٤). وأخرجه أيضًا: الخطيب (١٢/٤٤٠).

والحمد لله؛ ولكن الذي إذا رفع ذؤابة الميزان علم أن الله تعالى يراه، فأخذ الحق وأعطى الحق.

جُملة من يجيء في الحديث اسمه يوسف بن أسباط ثلاثة:

هذا الزاهد أحدهم.

الثاني: يروي عن يحيي بن عبد الملك.

الثالث: يروي عنه أبو الفتح الأزدي.

يا مطففين ما بلغكم عيب قوم شعيب؛ إنما هلكوا بالتطفيف، وإنما عُذِّبُوا بأخذ الطفيف، فإن تأخر تعذيبكم إلى الموت فإن طالبكم لا يخشى الفوت.

لما رأى شعيب شَعب شُعب شعارهم قد امتلأت بالنجس وبالجور صعد على منبر التذكير بالأنعام ولكن بين الأنعام، فأخذ في خُطبة: ﴿وَلَا تَنقُصُوا﴾ [هود: ٨٤]، وخوفهم من قحم قحل القحط في إشارة: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰكُم بِخَيْرٍ﴾ [هود: ٨٤]، فبرز إليه من هوة الغلبة نهنهة: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ﴾ [هود: ٨٧]، ومد الكبر نحوه باع النخوة بوعيد: ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ﴾ [إبراهيم: ١٣]؛ فذكرهم أمثال المثلات في ذكر أن يصيبكم، فقابلوا بلاغة هذا التبليغ للبلاغ في عتو: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا﴾ [الشعراء: ١٨٧]، وعابوه لعمى بصائرهم بعمي بصره، ﴿وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا﴾ [هود: ٩١]، وتعللوا بحجة: ﴿مَا نَفْقَهُ﴾ [هود: ٩١]، فلما اسمهرَّ ظلام ظلمهم اسلنطح نهار هلاكهم، واسحنكك ليل أدبارهم، فحقق إليهم ما حق عليهم من محققهم، فأظل على ظلل ظلالهم ظلة الظلة، فارتجت أرجاء بيوتهم بِرَجِّ الرجفة، وشدد عليهم شدة شديد الحر، فهربوا إلى البر لا إلى البر؛ لطلب راحة الروح، فلما تم اجتماعهم في قصر الحصر، فظنوها من حر وقتهم، نزلت نار فأحرقتهم، فساروا إلى جهنم في أسر أدبارهم، وسار بعد يعدهم في أدبارهم نذير التحذير من تبذيرهم، وعابهم بنادي في أعقابهم في عقاب عقابهم: ﴿أَلَا بُعْدًا لِّمَدْيَنَ﴾ [هود: ٩٥].

فليحذر العُصاة من مثل أفعى أفعالهم، وليتقي أعمى البصيرة شبه أعمالهم، وليخف المطففون من أخذ الطفيف في أخذ الطفيف في مكيالهم، وليسمعوا نذير العبرة، فقد أوحى لهم بشرح حالهم.

الفصل السادس والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾

[الفجر: ١ - ٢]

(الفجر): انفجار الظلمة عن الصبح، وهذا عشر ذي الحجة.

وفي الشفع والوتر عشرون قولا:

أحدها: إن الشفع يوم عرفة، ويوم الأضحى، والوتر: ليلة النحر، رواه أبو أيوب عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: إن الشفع يوم النحر، والوتر عرفة، رواه جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الثالث: إن الشفع والوتر الصلاة، فمنها شفع، ومنها وتر، رواه عمران ابن حُصين عن النبي صلى الله عليه وسلم.

الرابع: إن الشفع صلاة الغداة، والوتر صلاة المغرب.

الخامس: إن الشفع الخَلْقُ، والوتر اللهُ تعالى.

السادس: إن الشفع... والوتر آدم شفع بزوجته. والأقوال الثلاثة عن ابن عباس.

السابع: إن الشفع يومان بعد يوم النحر، وهو النفر الأول، والوتر اليوم الثالث، وهو النفر الأخير، قاله ابن الزبير.

الثامن: إن الشفع ركعتان في المغرب، والوتر الثالثة، قاله أبو العالية.

التاسع: إن العدد منه شفع ومنه وتر، قاله الحسن.

العاشر: إن الخلق كله منه شفع ومنه وتر، قاله ابن زيد.

الحادي عشر: إن الشفع عشر ذي الحجة، والوتر أيام منى الثلاثة، قاله الضحاك.

الثاني عشر: إن الشفع هو الله تعالى؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾ [المجادلة: ٧]، والوتر هو الله عز وجل؛ لقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: ١]، قاله سفيان بن عيينة.

الثالث عشر: إن الشفع آدم وحواء، والوتر الله عز وجل، قاله مقاتل بن سليمان.

الرابع عشر: إن الشفع الأيام والليالي، والوتر اليوم الذي لا ليلة بعده، قاله مقاتل بن حيان.

الخامس عشر: إن الشفع درجات الجنة؛ لأنها ثمانية، والوتر دركات النيران؛ لأنها سبع، قاله الحسن بن الفضل.

السادس عشر: إن الشفع الصفا، والوتر المروة.

السابع عشر: إن الشفع مسجد مكة والمدينة، والوتر بيت المقدس.

الثامن عشر: إن الشفعَ القِرَانُ في الحَجِّ، والوتر الإِفْرَادُ.

التاسع عشر: إن الشفع العبادات المكتوبة، كالصلاة والزكاة والصيام، والوتر الحج. حكى هذه الأقاويل الأربعة الثعلبي.

العشرون: إن الشفع تضاد أوصاف المخلوقين من عز وذل، وقدرة وعجز، وعلم وجهل، وحياة وموت، والوتر إنفراد صفة الله عز وجل بعزٍّ بلا ذُلٍّ، وقدرةٍ بلا عجزٍ، وعلمٍ بلا جهلٍ، وحياةٍ بلا موتٍ، قاله أبو بكر الورَّاقُ.

﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَسْرِ﴾ [الفجر: ٤]، إذا سرى ذاهبًا، و (الحجر): العقل، سُمي حجرًا؛ لأنه يحجر صاحبه عن القبيح، وسمي عقلا؛ لأنه يعقل عما لا يحسن، وسُمي النُّهَى؛ لأنه ينهى عما لا يجمل، وجواب القسم: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧﴾ [الفجر: ٦ - ٧].

قال أبو عبيدة: هما عادان؛ فالأولى: هو إرم، وهو قوم عاد الأولى، أما الثانية: فيه قولان، وإرم اسم قبيلةٍ من قوم عاد، وكانوا أهل خيام وعمدٍ، فلذلك قيل: ذات العماد.

روى وهب بن منبه: أن عبد الله بن قلابة خرج في طلب إبل شردت له، فبينما هو في صحارى عدنٍ، وقع على مدينة عليها حصن، وحول الحصن

قصور، فدخل الحصن، فإذا هو ببابين عظيمين مرصعين بالياقوت الأحمر، فدخل، فإذا مدينة فيها قصور، في كل قصر غرف وفوقها غرف، مبنية بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت، مفروشة باللؤلؤ وبنادق المسك والزعفران، وفي كل زقاق شجر قد أثمر، وتحت الأشجار أنهار مطر يجري ماؤها في قنوات من فضة، فقال الرجل: هذه الجنة، فحمل معه من لؤلؤها ومسكها، ورجع إلى اليمن، فأظهر ما معه، فبلغ الحديث إلى معاوية، فأرسل إليه، فقص عليه ما رأى، فأرسل معاوية إلى كعبٍ، فقال: هل في الدنيا مدينة من ذهبٍ وفضةٍ؟ قال: نعم، مدينة إرم ذات العماد، قال: حدثني حديثها، قال: كان شداد بن عاد قوامًا بقراءة الكتب، وكان إذا مر بحديث الجنة دعته نفسه إلى بناء مثلها عُتوًّا على الله تعالى، فأمر بصنعة إرم، فأمر على عملها مائة قهرمان، مع كل قهرمان ألف من الأعوان، وكتب إلى ملوك الأرض أن تمده بما في بلاده من الجواهر، وخرج القهارمة، فتبددوا في الأرض، فوقعوا على صحراء نقية من البلاد، وفيها عيون مُطَّرِدَةٌ، فقالوا: هذه صفة الأرض التي أمر الملك أن يُبنى بها، فوضعوا أساسها من الجزع اليماني، وأقاموا في بناءها ثلاث مائة سنة، فلما أخبروه بتمامها، فقال: اجعلوا حولها حصنًا، وحول الحصن ألف قصر، عند كل قصرٍ ألف علم، ويكون في كل قصر وزير من وزرائي، ففعلوا، فأمروا الوزراء أن يتهيؤا للنقلة إلى إرم ذات العماد، فكان الملك وأهله في جهازهم عشر سنين، ثم ساروا إليها، فلما كان منها على مسيرة يوم وليلة بعث الله عز وجل عليه وعلى أصحابه صيحةً من السماء فأهلكتهم جميعًا.

وروى دغفل الشيباني عن علماء حمير، قالوا: لَمَّا هَلَكَ شداد بن عاد ومن معه من الصيحة، ملك بعده ابنه مرثد بن شداد، وكان أبوه خلفه من بعده على مُلكه وسلطانه، فأمر بحمل أبيه من تلك المفازة، وأمر فحفرت له حظيرة في مفازةٍ، واستودعه فيها على سرير من ذهب، وألقى عليه سبعين حُلة منسوجة بقضبان الذهب، ووضع عند رأسه لوحًا من الذهب، وكتب عليه: [مجزوء الرمل]

اعْـتَـبِـرْ بِـي أَيُّـهَـا الْـمَـغْـرُورُ بِـالْـعُـمْـرِ الْـمَـدِيـدِ
أَنَـا شَـدَّادُ بْـنُ عَـادٍ صَـاحِـبُ الْـقَـصْـرِ الْـمَـشِـيـدِ

دَانَ أَهْـــــلُ الأَرْضِ لِـــــي مِــنْ خَــوْفِ وَعْــدِي وَوَعِــيــدِي
وَمَــلَــكْــتُ الــشَّــرْقَ وَالْــغَــرْ بَ بِــسُــلْــطَــانٍ شَــدِيــدِ
وَبِــفَــضْــلِ الْــمُــلْــكِ وَالْــعِــزْ زَةِ فِــيــهِ وَالْــعَــدِيــدِ
فَــأَتَــى هُــودٌ وَكُــنَّــا فِــي ضَــلالٍ قَــبْــلَ هُــودِ
فَــدَعَــانَــا لَــوْ قَــبِــلْــنَــاهُ إِلَــى الأَمْــرِ الــرَّشِــيــدِ
فَــعَــصَــيْــنَــاهُ وَنَــادَيْــتُ أَلا هَــلْ مِــنْ مَــزِيــدِ
فَــأَتَــتْــنَــا صَــيْــحَــةٌ تَــهْـوِي مِــنَ الأُفْــقِ الْــبَــعِــيــدِ
فَــتَــوَافَــيْــنَــا كَــزَرْعٍ وَسْــطَ بَــيْــدَاءِ حَــصِــيــدِ

الفصل السابع والتسعون

في قوله عز وجل: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ [الشرح: ١]

معنى الاستفهام: التقرير؛ أي: قد فعلنا ذلك، (والشرح): الفتح، بإذهاب ما يصد عن الإدراك، والله عز وجل شرح صدر نبيه، وأخرج منه ما وضع من الطبع البشري مما يصد عن الكمال، أو يُرد إلى نقصٍ، (ووضعنا)؛ أي: حططنا عنك إثمك بأن غفرنا لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر.

﴿ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣﴾ [الشرح: ٣]، هذا مثل، والمعنى: لو كان هذا حمل يحمل لَسُمِعَ نقيض الظهر منه.

﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾ [الشرح: ٤]، روى أبو سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم "أنه سَأَلَ جبريلَ عَنْ هذه، فَقَالَ: قَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: إِذَا ذُكِرْتُ ذُكِرْتَ مَعِي "[1].

لما سبق القدرُ باصطفائه على الكل، نَوَّهَ بذكره قبل إيجاده، فأخذَ اللهُ ميثاقَ النبيين على تصديقه في وثيقة: ﴿لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٨١]، فتقلبت به النقل من الأصلاب الشريفة إلى الأرحام العفيفة، إلى أن ظهرت بركاته في خفة حمله على آمنة، وأصبحت به حليمة من جدب عامها آمنة.

وكانت حليمة قدمت والجدب عام في العام، فعرض عليه المرضعات، فأعرض لليتيم، فراحت به حليمة إلى حلتها، فبان لبنها ولبن راحلتها، فباتوا لبركة رواية رواء وهب على مباركهم نسيم نسمة مباركة، فلما ظعنت الظعائن أتت إتانها تام أمام الركب، فلما حلوا حللهم كان الرعاء تسرح فيعقرها

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه (٨/ ١٧٥، رقم ٣٣٨٢).

سرحان الجدب، وراعى حليمة يعيدُ الغَنَمَ بالغُنْمِ، وكانت وزوجها يعلمان أن البركة بركت مبارك بركهما ببركة فلما قضى موسى رضاعها الأجل رجعا به إلى أمه، فرجَّعَا سؤالهما في أن يرجعا به لما حَلَّ في محلتهما من أثر الأثر بأثره، فلما أذنت لسؤالهما أذنت لهما، فعادا به مرغمين من عادا، فبينا الصبي مع الصبيان هَبَّتْ صَبَا الخبر بجبريل، فجاءه فجأة، فشق عن القلب وما شق عليه، فعلق بيده من باطنه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان وقد قطعنا علقه، ثم أعاد قلبه بعد أن قلبه وما به قلبه، فبقى أثر المخيط في صدره باقي عمره، لإظهار صورة ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ﴾ [الشرح: ١]، وزال وقت الشرح الألم بإنعام (ألم).

فآب أخوه وهرول إلى الأبوين، منفجع لما يظنه قد فجع، فجعل يخبرهما، فبادرا يسألانه عما جرى، فأبصرا في صدره أثرًا، فخافا أن يكون الشيطان له قد اعترى، فَأَمَّا به على عجل العجل أمة، وما عَلِما أنه نبي الأمَّة، فلما جيبت خلع النبوة حببت إلى الإنس الخلوة، وألبس إهاب الهيبة، وَتُوِّجَ تاج السيادة " أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ "(١)، وَضَمَّخَ بِأَذْكَى خلوق أزكى الأخلاق، وأحل دار المداراة، وأُجلس على صفحة الصفح، وَلُقِّمَ لُقَمَ لقمان الحكيم، فتلقفها في فِيِّ فأورثني علم الأولين والآخرين، وانتقلت إلى خنصر واحتصر لي العلم، ووضعت له أكواب التواضع، وأديرت عليه كؤوس الكيس متضمنة حلاوة الحلم ختامها مسك النُسك، وأعطي لقطع مفازة الدنيا جود الجود، فكان تارة يعرق عرق الجد، وتارة يقطعها بمدى المراغبة، وقد جرس فيه حماه شجاع الشجاعة، وركز على بابه علم العلم، وحامت عليه، فحامت عنه جنود الرُعب، ونؤول قلم العز، فوقع على صحائف الكد " كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ "(٢).

كان يركب الحمار، ويعود المريض، ويشهد الجنائز، ويجيب دعوة

---

(١) أخرجه أحمد (٣/٢، رقم ١١٠٠٠)، والترمذى (٥/٥٨٧، رقم ٣٦١٥)، وابن ماجه (٢/١٤٤٠، رقم ٤٣٠٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦/١٤٦، رقم ٢٥١٧١)، ومسلم (٣/١٣٤٣، رقم ١٧١٨). وأخرجه أيضًا: أبو عوانة (٤/١٧١، رقم ٦٤٠٩)، والدارقطنى (٤/٢٢٧).

المملوك، ويجلس على الأرض، ويلبس الخشن، ويأكل البشع، ويبيت الليالي طاويًا، يتقلب في قفر الفقر، ولسان الحال يُناديه: يا محمد؛ نحن نضن بك عن الدنيا لا بها عنك.

ولقد أقامه الحقُّ مقامَ نفسه ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، وجعله نائبًا في الحرمة: ﴿لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [الحجرات: ١]، وفي الرضا: ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ﴾ [التوبة: ٦٢]، وفي الطاعة: ﴿أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ﴾ [النور: ٥٤]، وأمر بتقديمه على النفوس: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [الأحزاب:٦]، وفي المحبة: ﴿إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى﴾ [آل عمران: ٣١].

ولقد عرفه الأحبار في الكنائس، والرهبان في الصوامع، وأنذر به الذين تقدموا، وأخبر به التابع.

وكانت تُسلم عليه قبل النبوة الأحجار، وتبشره بما أولاه مولاه الأشجار، وكان خاتم النبوة بين كتفيه، وكشف له ملكوت الدنيا بيد " زُوِيَتْ لِيَ الأَرْضُ فَأُورِيتُ"[1]، ثم سمى ليلة المعراج إلى السماء، كل نبي خوطب باسمه، ﴿يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ﴾ [البقرة: ٣٥]، ﴿يَٰنُوحُ ٱهْبِطْ﴾ [هود: ٤٨]، ﴿يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ﴾ [هود: ٧٦]، ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ﴾ [هود: ٨١]، ﴿يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ﴾ [القصص: ٣١]، ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ﴾ [ص: ٢٦]، ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ [مريم: ٧]، ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ﴾ [المائدة: ١١٠]، ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [مريم: ١٢].

وقيل لنبينا صلى الله عليه وسلم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ﴾ [الأنفال: ٦٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ قُل لِّمَن فِىٓ أَيْدِيكُم﴾ [الأنفال: ٧٠]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا﴾ [الأحزاب: ٤٥]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ﴾ [التحريم: ٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٣٠٤، رقم ٣٩٥٢).

١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ﴾ [الممتحنة: ١٢]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ﴾ [التحريم: ١].

وإنما ذكر اسمه في قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ﴾ [الفتح: ٢٩]؛ لأنه أراد تعريفه بالاسم، ولم يواجهه فيها بالخطاب، وقد خاطبه فيها بخطاب اللطف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ [المزمل: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾ [المدثر: ١]، ﴿يسٓ ①﴾ [يس: ١]، ﴿طه ①﴾ [طه: ١]، وأقسم بحياته: ﴿لَعَمْرُكَ﴾ [الحجر: ٧٢]، ودرج في درج عتابه لطف اللطائف ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ [التوبة: ٤٣].

ولقد تولى الجدال عنه، وكل نبي إنما دل على نفسه، ألم تسمع قول قوم نوح: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ⑥⓪ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَٰلَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٠ - ٦١].

وقوم هودٍ: ﴿إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِي سَفَاهَةٍ﴾ [الأعراف: ٦٦]، ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ﴾ [الأعراف: ٦٧]، وقول فرعون: ﴿إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، فأجاب: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء: ١٠٢]، والله عز وجل جادل عن نبينا، فحين قالوا: مجنون، قال: ﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ②②﴾ [التكوير: ٢٢]، وقالوا: كذاب، فقال: ﴿وَمَا كَانَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ أَن يُفْتَرَىٰ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [يونس: ٣٧]، وقالوا: شاعر، فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ﴾ [يس: ٦٩]، وقالوا: كاهن، فقال: ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ﴾ [الحاقة: ٤٢]، وقالوا: ضَالٌّ، فقال: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ②﴾ [النجم: ٢]، وقالوا: قلاه ربه، فقال: ﴿مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ③﴾ [الضحى: ٣].

قالوا: إنما يعلمه بشر، فقال: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ﴾ [النحل: ١٠٣]، وقالوا: يلقنه شيطان، فقال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَٰطِينُ ②①⓪﴾ [الشعراء: ٢١٠]، وقال الوليد بن المغيرة: هو ساحر، فتهدده بوعيد: ﴿ذَرْنِي﴾ [المدثر: ١١]، وقالوا بلسان الحسد: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ﴾ [الزخرف:

٣١]، فأجابهم: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢]، وعاب عدوه بعشرة خصال: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ﴾ [القلم: ١٠ - ١٣]، كما جزى المصلي عليه مرة بعشرة، ولقد شارك الأنبياء في فضائلهم وزاد، أين سطوة ﴿لَا تَذَرْ﴾ [نوح: ٢٦] من حلم " اهْدِ قَوْمِي "[١]، أين انشقاق البحر من انشقاق القمر، أين انفجار الحجر من نبع الماء من بين الأصابع، أين التكليم عند الطور من قاب قوسين، أين تسبيح الجبال في أماكنها من تقديس الحصى في كفيه، أين علو سليمان من ليلة المعراج، أين إحياء عيسى الأموات من تكليم الذراع، كل الأنبياء ذهبت معجزاتهم بموتهم، ومعجز النبي الأكبر قائم على منار: ﴿لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] ينادي: ﴿فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣]، ولقد أعرب عن تَقَدُّمِهِ على مَنْ تَقَدَّمَهُ بإفصاح: " آدَمُ وَمَنْ دُونَهُ تَحْتَ لِوَائِي "[٢]، " لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّانِ مَا وَسِعَهُمَا إلا اتِّبَاعِي "، وقطع توهم مَنْ تَوَلَّهُ في لحاقه بحسام " لا نَبِيَّ بَعْدِي "[٣]؛ لأنه أول الناس خروجًا إذا بُعثوا، وخطيب الكل إذا وفدوا، ومبشر القوم إذا أيسوا، وله الوسيلة وبه التوسل إذا الأنبياء قد سكتوا لنطقه، والملاك قد اعترفوا بحقه، والجنة والنار تحت أمره، والخُزَّانُ داخلون في دائرة حكمه، وكلام غيره قبل قوله لا ينفع، وجواب الحبيب له قل يسمع، فسبحان من فضَّ له الفضائل بما فضله، وكساه من حُلل الفخر الجَمّ ما جَمَّلَهُ، جمعَ اللهُ بيننا وبينه في جَنَّتِهِ، وأحيانا على كتابه وَسُنَّتِهِ، والحمدُ للهِ الذي جعلنا من أُمَّتِهِ.

---

(١) أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٢/ ١٦٤، رقم ١٤٤٧) وقال: مرسل.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده (٤/ ٢١٧، رقم ٢٣٢٨).

(٣) أخرجه مسلم (٤/ ٢٢١٥، رقم ٢٨٨٩)، وأبو داود (٤/ ٩٧، رقم ٤٢٥٢)، والترمذى (٤/ ٤٧٢، رقم ٢١٧٦) وقال: حسن صحيح. وابن ماجه (٢/ ١٣٠٤، رقم ٣٩٥٢)، وأبو عوانة (٤/ ٥٠٨، رقم ٧٥٠٩)، وابن حبان (١٦/ ٢٢٠، رقم ٧٢٣٨). وأخرجه أيضًا: ابن أبى شيبة (٦/ ٣١١، رقم ٣١٦٩٤).

الفصل الثامن والتسعون

في قوله عز وجل:
﴿إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ①﴾ [القدر: ١]

(إِنَّا): للتعظيم، و (أَنْزَلْنَاهُ) يعني: القرآنَ، والهاءُ كناية عن غير مذكورٍ في السورة.

قال ابنُ عَبَّاسٍ: (أُنْزِلَ القرآنُ جُملةً وَاحِدَةً مِنَ اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ في لَيْلَةِ الْقَدْرِ إِلَى بَيْتِ الْعِزَّةِ).

قال المفسرون: هذا البيت في السماء الدنيا.

وفي تسميتها ليلة القدر خمسة أقوال:

أحدها: أن القدرَ العظمة، قاله الزهري.

الثاني: أنه من الضيق، فهي ليلة تضيق فيها الأرض عن الملائكة الذين ينزلون، قاله الخليل بن أحمد.

الخليل بن أحمد خمسة، ثلاثة بصريون، أحدهم صاحب العروض، وهو الذي حكينا عنه. الثاني: روى عن عكرمة. الثالث: روى عن إبراهيم بن عرعرة. الرابع: أصفهاني، روى عن روح بن عبادة. الخامس: سجزي، روى عن البَاغَنْدِيِّ.

الثالث: أن القدر الحُكم، كأنَّ الأشياءَ تُقَدَّرُ فيها، قاله ابن قتيبة.

الرابع: من لم يكن له قَدْرٌ صَارَ بمراعاتها ذا قَدْرٍ، قاله أبو بكرٍ الوَرَّاقُ.

الخامس: لأنه أُنزل فيها كتابٌ ذو قَدْرٍ، وتنزل فيها رحمة ذات قدر، وملائكة ذو قدر، حكاه شيخنا أبو الحسن الزاغوني، واختلفوا هل ليلة القدر باقية أم كانت في زمان النبي صلى الله عليه وسلم خاصةً؟ على قولين،

أصحهما بقاؤها، وهل هي في جميع السَّنَةِ أم في رمضان؟ على قولين، أصحهما أنها في رمضان، واختلفوا أيُّ الليالي أَخَصُّ بها؟ على ستة أقوال:

أحدها: أَنَّ الأخَصَّ بها أَوَّلُ ليلةٍ، قاله رزين العقيلي.

الثاني: ليلة ثمان عشرة، قاله الحسن ومالك بن أنس الفقيه؛ لأن مالك ابن أنس اثنان أحدهما هذا، والثاني كوفي يروي عن هاني بن حزام عن عمر.

والثالث: ليلة إحدى وعشرين، وهو اختيار الشافعي.

والرابع: ليلة ثلاث وعشرين، وهو مذهب عبد الله بن أنيس من الصحابة.

والخامس: ليلة خمس وعشرين، وهو مذهب أبي بكرة.

والسادس: ليلة سبع وعشرين، وهو مذهب علي، وابن عباس، وعائشة، وأُبي، وأحمد بن حنبل، رضي الله عنهم.

ورُوي عن ابن عباس أنه استدرك على ذلك بشيئين:

أحدهما: أنه قال: (إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَى سَبْعَةِ أَصْنَافٍ، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ١٢﴾ [المؤمنون: ١٢] الآية، ثُمَّ جَعَلَ رِزْقَهُ في سَبْعَةِ أَصْنَافٍ، يُشِيرُ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَنَّا صَبَبۡنَا ٱلۡمَآءَ صَبّٗا ٢٥﴾ [عبس: ٢٥] الآية، ثُمَّ يُصَلِّي الْجُمُعَةَ عَلَى رَأْسِ سَبْعَةِ أَيَّام، وَجَعَلَ السَّمَوَاتِ سَبْعًا، وَالأَرْضِينَ سَبْعًا، وَالْمَثَانِي سَبْعًا، وَلا أَرَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ إِلا السَّابِعَةَ).

والثاني: أَنَّهُ سَلامٌ، وهي الكلمة السابعة والعشرون، قاله أبو قلابة، قال: إنها كذلك.

وقال بعضهم: ليلة القدر سبعة أحرف، وقد كررت في هذه السورة ثلاث مرات، فهي بتكريرها سبعة وعشرين حرفًا، فهذا تنبيه على أنها ليلة سبع وعشرين.

وقال أبو قلابة: ليلة القدر تنقل في العشر الأواخر.

والحكمة في إخفائها أن يتحققَ اجتهادُ الطَّالِبِ، كما أُخفت ساعةُ الجمعةِ، وساعةُ اللَّيلِ، والصلاةُ الوُسْطَى، والاسمُ الأعظمِ.

قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ ۝٢﴾ [القدر: ٢]، هذا على سبيل التعظيم لها، والترغيب في خيرها.

﴿لَيۡلَةُ ٱلۡقَدۡرِ خَيۡرٞ مِّنۡ أَلۡفِ شَهۡرٖ ۝٣﴾ [القدر: ٣]، قال مجاهد: قيامها والعمل فيها خيرٌ من قيام ألف شهر، وصيامها ليس فيها ليلة القدر.

وقال ابن عباس: " ذُكِرَ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجُلٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ حَمَلَ السِّلاحَ عَلَى عَاتِقِهِ أَلْفَ شَهْرٍ، فَعَجِبَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ ذَلِكَ، وَتَمَنَّى أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ فِي أُمَّتِهِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ تَعَالَى لَيْلَةَ الْقَدْرِ، وَقَالَ: هِيَ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ الَّتِي حَمَلَ فِيهَا الإِسْرَائِيلِيُّ السِّلاحَ "[1].

و (الرُّوحُ): جبريلُ عليه السلام، و (الإِذْنُ) [2] **في القرآن على ثلاثة أوجه:**

أحدها: النَّصْرُ؛ ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٥١].

الثاني: نَفْسُ الإِذْنِ: ﴿أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٥].

الثالث: الأَمْرُ: ﴿إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ﴾ [النساء: ٦٤]، وهاهنا: ﴿بِإِذۡنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمۡرٖ﴾ [القدر: ٤]، قال المفسرون: ينزلون بكل أمر قضاه الله تعالى في تلك السنة إلى قَابِلٍ.

(سَلامٌ هِيَ)؛ أي: ليلة القدر، سَلامٌ؛ أي: سلامةٌ لا يَحْدُثُ فيها دَاءٌ، ولا يُرْسَلُ فيها شيطانٌ.

وكان بعض العلماء يقول: الوقف على (سَلام) على معنى: تنزل الملائكةُ بالسلام.

﴿حَتَّىٰ مَطۡلَعِ ٱلۡفَجۡرِ﴾ فَتَحَ لامَ المَطْلَعِ قومٌ وَكَسَرَهَا آخَرُونَ.

وقال ابن الأنباري: أهل العربية يقولون: ما كان على فَعِلَ يَفْعَلُ فالمصدرُ وَاسْمُ المَوْضِعِ نائبان عن الفِعْلِ؛ كقولهم لِلْمَدْخَلِ الدُّخُولُ، والموضع

---

(١) أخرجه الإمام البغوي في تفسيره (٤/ ٥١٢).

(٢) الأصلُ في الإِذْنِ: الإِطْلاقُ من غيرِ حَجْرٍ. وأَذِنْتُ للحديثِ اسْتَمَعْتُ، وفي الحديث: "مَا أَذِنَ اللَّهُ لِشَيْءٍ مَا أَذِنَ لِنَبِيٍّ يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ"؛ أي: ما استمع.

الذي يُدْخَلُ منه، إلا أَحَدَ عَشَرَ حرفًا، فإنها جاءت مكسورةً إذا أُريدَ بها الموضعُ؛ وهي: المَطْلِعُ، وَالْمَسْكِنُ، وَالْمَنْسِكُ، وَالْمَشْرِقُ، وَالْمَغْرِبُ، وَالْمَسْجِدُ، وَالْمَنْبِتُ، وَالْمَفْرِقُ، وَالْمَسْقِطُ، وَالْمَتْبِلُ: المَوْضِعُ الَّذِي تَضَعُ فِيهِ النَّاقَةُ، وخمسة من هؤلاء الأحد عشر حرفًا سُمِعَ فيهن الكسرُ والفتحُ: المَطْلَعُ، وَالْمَنْسَكُ، وَالْمَسْكَنُ، وَالْمَجْزَرُ، وَالْمَنْبَتُ، والأصْلُ المَطْلِعُ؛ بِالْكَسْرِ المَوْضِعُ، وبالفتح الطُّلُوعُ إلا أن العَرَبَ تتسع فتجعل الاسمَ نائبًا عن المصدر، فيقولون: حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ، وهم يعنون: الطُّلُوعَ، ويقرأون: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ مَطْلَعَ الشَّمْسِ) [الكهف: ٩٠] بالفتح على أنه موضع[١].

أضاءت ليلة القدر بنور القرآن، فاستُبدلت أنوار الفاضل على دَيْجُورِ الكلام، وقامت على بُروج الزمان، فقاومت سائرَ الأيام، فزادت بقدرها لا بمقدارها، وجالت في فضاء فضائلها مُفَاخِرَةً للدهر، فكانت الحكومة عند فيصل الحق، . . . أتت ببينة بينةٍ، فنطقت حجة ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤﴾ [الدخان: ٤]، فشهدتها ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [القدر: ١]، فكان فصل الحاكم: ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣﴾ [القدر: ٣].

---

(١) انظر: إبراز المعاني ٢/ ٣٠٩.

الفصل التاسع والتسعون

في قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ [الزلزلة: ١]

(الزلزلة): الحركة الشديدة، وذلك عند قيام الساعة، تزلزل حتى ينكسر كل ما عليها، فتقع الجبال ثم تضطرب فتخرج ما في جوفها.

و **(الأرض)**: سُميت أرضًا لسعتها، يقال: أرضيت القرحة أرضًا؛ إذا اتسعت، وكلما سفل أرض، ورجل أريض للخير؛ أي: خليق به، وخشبة مأروضة؛ إذا أكلتها الأرضة، وجاء فلان يَتَأَرَّضُ بي؛ أي: يتعرض، والأرضُ الرَّعْدَةُ، قال ابن عباس: (أَزُلْزِلَتِ الأرْضُ أَمْ بِي أَرْضٌ).

والأرض[1] في القرآن على سبعة عشر وجهًا:

أحدها: أَرْضُ الأرْدُنِ: ﴿وَلَا تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة: ٦٠].

الثاني: القَبْرُ: ﴿لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ﴾ [النساء: ٤٢].

---

(١) الأرْضُ: مَعْرُوفَةٌ، وسُمِّيَت أَرْضًا لسعَتِهَا.
قال ابن السكيت: أرضتِ القُرْحَةُ أَرَضًا - بفتح الراءِ -؛ إذا اتَّسَعَتْ.
وقال ابن فارس: كُلُّ ما اتَّسَعَ أَرْضٌ، ورَجُلٌ أَرِيضٌ للخَيْرِ؛ أي: خَلِيقٌ له.
والأَرَضَةُ دُوَيْبَةٌ. وخَشَبَةٌ مَأْرُوضَةٌ: أَكَلَتها الأَرَضَةُ.
والإِرْضُ: بِسَاطٌ ضَخْمٌ من وَبَرٍ أو صُوفٍ.
وجَاءَ فُلانٌ يَتَأَرَّضُ لي مثل يَتَعَرَّضُ لي.
ويقال: فُلانٌ ابنُ أرضٍ؛ إذا كان غَرِيبًا.
وأَرْضٌ أريضَةٌ: حَسَنَةُ النَّبَاتِ. والأَرْضُ: الرّعدة.
قال ابن عباس: أَزُلْزِلَتِ الأَرْضُ أَمْ بِي أَرْضٌ.

الثالث: أَرْضُ مَكَّةَ: ﴿كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧].

الرابع: أَرْضُ الْمَدِينَةِ: ﴿أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً﴾ [النساء: ٩٧].

الخامس: أَرْضُ الإسْلامِ: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة: ٣٣].

والسادس: أَرْضُ التِّيهِ: ﴿يَتِيهُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [المائدة: ٢٦].

السابع: أَرْضُ الشَّامِ: ﴿مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا﴾ [الأعراف: ١٣٧].

الثامن: الأرْضِينُ السَّبْعُ: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦].

التاسع: أَرْضُ مِصْرَ: ﴿ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ﴾ [يوسف: ٥٥].

العاشر: أَرْضُ الحِجْرِ: ﴿فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِيٓ أَرْضِ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ٧٣].

الحادي عشر: القَلْبُ: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الرعد: ١٧].

الثاني عشر: أَرْضُ الْعَرَبِ: ﴿لِيُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٢٧].

الثالث عشر: أَرْضُ الْجَنَّةِ: ﴿أَنَّ ٱلْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

الرابع عشر: أَرْضُ الرُّومِ: ﴿فِيٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٣].

الخامس عشر: أَرْضُ بَنِي قُرَيْظَةَ: ﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٧].

السادس عشر: أَرْضُ فَارِس: ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا﴾ [الأحزاب: ٢٧].

السابع عشر: أَرْضُ الْقِيَامَةِ: ﴿وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا﴾ [الزمر: ٦٩].

و (الزِّلْزَالُ): بالكسرِ المصدرُ، وبالفتحِ الاسْمُ، و (أَثْقَالَهَا): ما فيها من الكنوز والموتى، و (الإنسان): اسم جنس يعم المؤمن والكافر، ولكنها إذا بدأت تزلزل لم يعلم الناس أن ذلك من أشراط الساعة، فيتسألون (ما لها؟)، حتى يوقنوا معنى (تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا)؛ أي: بِأَخْبَارِهَا، والمعنى: تُخْبِرُ بِمَا عُمِلَ عَلَيْهَا.

روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: " أَخْبَارُهَا أَنْ تَشْهَدَ عَلَى كُلِّ عَبْدٍ وَأَمَةٍ بِمَا عَمِلَ عَلَى ظَهْرِهَا، أَنْ تَقُولَ: عَمِلَ كَذَا وَكَذَا فِي يَوْمِ كَذَا وَكَذَا، فَهُوَ أَخْبَارُهَا "(١).

قوله تعالى: ﴿بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾ [الزلزلة: ٥].

قال الفَرَّاءُ: تحدث أخبارها بوحي الله تعالى وبإذنه لها، ومعنى (لها): إليها، واللام في القرآن على ضربين: مفتوحة ومكسورة؛ فالمفتوحة على ثلاثة أوجه:

أحدها: بمعنى التوكيد: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ﴾ [هود: ٧٥].

الثاني: بمعنى القَسَم: ﴿لَيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُۥٓ﴾ [هود: ٨].

الثالث: زائدة: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ رَدِفَ لَكُم﴾ [النمل: ٧٢]؛ أي: ردفكم.

والمكسورة على تسعة أوجه:

أحدها: بمعنى الملك؛ كقوله تعالى: ﴿لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

الثاني: بمعنى أن: ﴿لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩].

الثالث: بمعنى إلى: ﴿هَدَىٰنَا لِهَٰذَا﴾ [الأعراف: ٤٣].

الرابع: بمعنى كي: ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ﴾ [النجم: ٣١].

الخامس: بمعنى على: ﴿دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ﴾ [يونس: ١٢].

السادس: بمعنى لئلا: ﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ﴾ [النحل: ٥٥].

السابع: بمعنى عند: ﴿وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ [طه: ١٠٨].

الثامن: بمعنى الأمر: ﴿لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ﴾ [النور: ٥٨].

التاسع: لامُ العَاقِبَةِ: ﴿لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨].

قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا﴾ [الزلزلة: ٦]؛ أي: يرجعون

---

(١) أخرجه أحمد (٢/ ٣٧٤، رقم ٨٨٥٤)، والترمذي (٤/ ٦١٩، رقم ٢٤٢٩) وقال: حسن غريب. والحاكم (٢/ ٢٨١، رقم ٣٠١٢) وقال: صحيح على شرط الشيخين. وأخرجه أيضًا: النسائي في الكبرى (٦/ ٥٢٠، رقم ١١٦٩٣).

عن موقف الحساب أشتاتًا؛ أي: فِرَقًا، فأهل الإيمان على حدة، وأهل الكفر على حدة.

﴿لِّيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]؛ أي: جزاء أعمالهم، ومثقال الشيء زنة الشيء، يقال: هذا مثقالُ هذا؛ أي: وزنه.

وفي الذَّرَّةِ خمسة أقوال:

أحدها: رَأْسُ نَمْلَةٍ حمراء .

الثاني: ذَرَّةٌ مِنَ التُّرَابِ، رويا عن ابن عباس .

الثالث: أَصْغَرُ النَّمْلِ، قاله ابن قتيبة .

الرابع: الخَرْدَلَةُ .

الخامس: الواحدة من الهَبَاءِ الظاهرِ في ضوءِ الشمسِ إذا طلعت من نَقْبٍ، ذكرها الثعلبي.

واعلم أن ذكر الذرة ضرب مثل ما يعقل، والمقصود: من عمل قليلا أو كثيرًا رآه.

وفي " الصحيحين " من حديث عدي بن حاتم، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه قال: " مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إلا سَيُكَلِّمُهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ فَلا يَرَى إِلا شَيْئًا قَدَّمَهُ، وَيَنْظُرُ أَمَامَهُ فَتَسْتَقْبِلُهُ النَّارُ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَّقِي النَّارَ بِشِقِّ تَمْرَةٍ فَلْيَفْعَلْ "[1].

وروت أم مجيدٍ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت: " يا رَسُولَ اللهِ؛ إِنَّ الْمُسْلِمَ يَقُومُ عَلَى بَابِي فَلا أَجِدُ شَيْئًا أُعْطِيهِ إِيَّاهُ، فَقَالَ لَهَا: إِنْ لَمْ تَجِدِي شَيْئًا إِلا ظَلفًا مَحْرُوقًا فَادْفَعِيهِ إِلَيْهِ في يَدِهِ "[2].

---

(١) أخرجه البخارى (٦/ ٢٧٠٩، رقم ٧٠٠٥)، ومسلم (٢/ ٧٠٣، رقم ١٠١٦)، والترمذى (٤/ ٦١١، رقم ٢٤١٥) وقال: حسن صحيح. وأخرجه أيضًا: ابن ماجه (١/ ٦٦، رقم ١٨٥)، والطبرانى (١٧/ ٩٥، رقم ٢٢٥)، والبيهقى فى السنن الكبرى (٤/ ١٧٦، رقم ٧٥٣٣)، وفى شعب الإيمان (١/ ٢٤٥، رقم ٢٥٩)، وابن منده (٢/ ٧٧٥، رقم ٧٨٧) وقال: إسناده صحيح. والرافعى (٤/ ١٠٤).

(٢) أخرجه الترمذي (٣/ ٥٢، رقم ٦٦٥).

وجاء سائل إلى عائشة رضي الله عنها وعندها نسوة، فأمرت له بحبةِ عنبٍ، فتعجَّبنَ النسوةُ، فقالت[1]: (إن فيها ذرًّا كثيرًا).

[البسيط]

لا تَـحْـتَـقِـرْ سَـاعَـةً مُـسَـاعِـدَةً   تَـمُـدُّ فِـيـهَـا يَـدًا إِلَـى طَـاعَـهْ
فَـالْـحَـيُّ لِـلْـمَـوْتِ وَالْـمُـنَـى خُـدَعُ   وَالأَمْـرُ مِـنْ سَـاعَـةٍ إِلَـى سَـاعَـهْ

يا مُخالفًا من نهاه وأمره، يا مُضيعًا في التفريط عمره، الزمان صولجان والعمر كرة، الدنيا بحر والساحل مقبرة، ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧﴾ [الزلزلة: ٧].

دع الدنيا فمشاربها كدرة، وهي خربة عند العقول، وعند النفوس خضرة، على أنها مزرعة تحصد ما بذره، فلا تحتقر يسير الطاعات، ولا تردن قليل السيئات، فالنجاة والهلاك بالمحتقرات، كم نَجَّتْ من الظلام وَعَجَّتْ من الآثام شررة.

زَلَّةٌ بَعَّدَتْ إبليس لَمَّا أَبى، وَلُقْمَةٌ أخرجت آدمَ المُجْتَبَى، وإنه ليكفي زجرًا سِرُّ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ [البقرة: ٣٥].

بينا رجل في الطريق قد جاز، إذا غُصْنُ شَوْكٍ يؤذي المُجتازَ فرفعه حَتَّى جَازَ، فَعَرَفَهُ اللهُ له فَشَكَرَهُ.

بينا فاجرة تمشي في الصحراء إذا كلب يقلق لحرِّ الرمضاء، فسقته حتى روته من الماء، فوجبت لها بذلك المغفرة.

كانت امرأة قبل هذه الأمة خرج عنها الولد وفارق أُمَّهُ، فأخذه السبعُ، فتصدقت بلقمة تلك الحُرمة، فَفُكَّ فَكُّ الأسَدِ، وقيل: لقمةٌ بِلُقْمَةٍ، فإذا الحرمةُ مستبشِرة.

تصدقت امرأةٌ قبلكم برغيفين، فقضي عليها بغرق ولدها وقطع اليدين، فبعث الله رغيفيها في صورة ملكين، ورد ولدها فضلا منه ومقدرة.

---

(١) أخرجه أحمد في الزهد ١/ ٢١٢.

لو وَافَقْتَ الأكْيَاسَ ما أَوْثَقْتَ الأكْيَاسَ وَشَدَدْتَهَا، ولو قَدَّمْتَ لُقْمَةً وجدتها ولكن يؤذيك الشَّرَهُ، كم جاءك الثواب إلى البيت، فرده بواب عسى وليت، وشبعت والجائع ما واسيت، تالله لقد نسيت وتناسيت من أغناك وأفقره، عُمرٌ ناقصٌ، وحرصٌ زائدٌ، ومريضٌ من الهوى ما له عائد، وعظاتٌ بالغاتٌ والقلبُ حائد، يا ليته يعمل بواحدة من عشرة.

الفصل المائة

في قوله عز وجل: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١﴾ [النصر: ١]

(نصر الله): معونته على الأعداء، وسمي النصر فتحًا؛ لأنه يفتح بابًا مغلقًا، و (الدين): ما التزمه الإنسان لله عز وجل وحده.

وقال بعضهم: يقال الدين: هو النهي، رادع للنفس، يقومها ويمنعها من استرسالها فيما طبعت عليه.

والدين(١) في القرآن على عشرة أوجه:

أحدها: الجزاء: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤﴾ [الفاتحة: ٤].

الثاني: الإسلام: ﴿بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٣٣].

الثالث: العدد: ﴿ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلۡقَيِّمُۚ﴾ [التوبة: ٣٦].

الرابع: الطاعة: ﴿وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩].

---

(١) قال شيخُنَا عليُّ بن عبيد الله: الدِّينُ: ما التَزَمَهُ الإنْسانُ؛ يقال: دَانَ الرَّجُلُ للهِ عَزَّ وجَلَّ؛ أي: التزمَ ما يَجِبُ للهِ عَزَّ وجَلَّ عليه.
وحَدَّهُ غيرُه فقال: الدِّينُ قولٌ إِلَهِيٌّ رَادِعٌ للنفسِ يُقَوِّمُهَا ويَمْنَعُهَا من الاسْتِرسَالِ فيما طُبِعَتْ عليهِ.
والدِّينُ يُقَالُ ويُرَادُ به: المَلَكَةُ والسَّلْطَانُ.
يقال: دِنْتُ القَوْمَ أدِينُهُم؛ أي: قَهَرْتُهُم وأَذْلَلْتُهُم فَدَانُوا؛ أي: ذَلُّوا وخَضَعُوا.
وقال ابن قتيبة: والدِّينُ للهِ إنَّمَا هو من هذا. قال القطامي:
كَانَتْ نَوارُ تَدِينُكَ الأَدْيَانَا
أي: تَذِلُّكَ.

الخامس: التوحيد: ﴿مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [يونس: ٢٢].
السادس: الحكم: ﴿مَا كَانَ لِيَأۡخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ ٱلۡمَلِكِ﴾ [يوسف: ٧٦].
السابع: الحَدُّ: ﴿وَلَا تَأۡخُذۡكُم بِهِمَا رَأۡفَةٞ فِي دِينِ ٱللَّهِ﴾ [النور: ٢].
الثامن: الحساب: ﴿يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾ [النور: ٢٥].
التاسع: العبادة: ﴿أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمۡ﴾ [الحجرات: ١٦].
العاشر: المِلة: ﴿وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥].

والأفواج جماعة في تفرقة، والاستغفار(١) في القرآن على ثلاثة أوجه:
أحدها: الصلاة؛ ومنه: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ﴾ [آل عمران: ١٧].
الثاني: التوحيد: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّكُمۡ﴾ [هود: ٩٠].
الثالث: نفس الاستغفار: ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ﴾ [النصر: ٣].

لما خرج نبينا صلى الله عليه وسلم من مِصْرِ الحصرِ فدخلَ قصرَ النَّصْرِ، عبثت أيدي سراياه بالتصرف في الأطراف، فطار ذكره في الأقطار، فكتب إلى الملوك، فآمن من آمن، وجاهد من جاهد، فبعث حُذيفة إلى كسرى، ودحية إلى قيصر، وحاطبًا إلى المقوقس، وعمرو بن أمية إلى النجاشي، فعادت أظفار ظفره ناشبة فيمن عادت؛ لأنه جَدَّ وهزلوا، فصعد ونزلوا، ألقى بذر النصر على ألم: ﴿إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [التوبة: ٤٠]، في مزرعة: ﴿فَٱصۡبِرۡ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلۡعَزۡمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، فإذا أغصان النبات تهتز بخزامي: ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾ [المائدة: ٤٥].

قدم مكة مالكًا، وعلا كعبُ بلالٍ على الكعبة بعد أن كان تجرر في

---

(١) الاسْتِغْفَارُ: اسْتِفْعَالٌ من طَلَبِ الغُفْرَانِ.
والغُفْرَانُ: تَغْطِيَةُ الذَّنْبِ بالعَفْوِ عنه. والغَفْرُ: السَّتْرُ. ويقال: اصْبغْ ثَوْبَكَ فهو أَغْفَرُ للوَسَخِ، وغَفَرُ الخَزِّ والصُّوفِ: ما علا فوقَ الثَّوْبِ منهما؛ كالزِّئْبَرِ: سُمِّي غَفْرًا لأَنَّه يَسْتُرُ الثَّوْبَ.
ويقال: لِجُنَّةِ الرَّأْسِ مِغْفَرٌ؛ لأنها تَسْتُرُ الرأسَ.
وقال أبو سليمان الخطابي: وحَكَى بعضُ أهلِ اللغةِ أنَّ المَغْفِرَةَ مأخوذةٌ من الغِفْرِ، وهو نَبْتٌ يُدَاوَى به الجِراحُ، يقال: إنه إذا ذرَّ عليها دملها وأَبْرَأَهَا.

الرمضاء على أمراض الفتنة، فنشر بَزًّا طوى عن القوم من يوم قوله: أحد أحد، وَأَصَمَّ الآذان بالأذان عن إذن الآذان، فكان ذلك نقدًا عجل عن وعد: ﴿فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌۢ بَيۡنَهُمۡ﴾ [الأعراف: ٤٤]، فلما جلس الرسول صلى الله عليه وسلم على سرير العز، وما نزل عنه قَطُّ قَطَّ بسيف الرعب رءوس الرءوس، فوافوا وافدين كالقَطْرِ من كل قُطْرٍ، وكان يأتون قبل الفتح أحاد، فلما كان الفتح حاد إليه من عنه حاد، فَنَهَدَ وَفْدُ نَهْدٍ، وقد نهكته، فقام منهم طخفة، فقال: "يَا رَسُولَ اللهِ؛ أَتَيْنَاكَ مِنْ غَوْرَى تِهَامَةَ، عَلَى أَكْوَارِ الميسِ، تَرْمِي بِنَا الْعِيسُ، فَنَسْتَحْلِبُ الصَّبِيرَ، وَنَسْتَخْلِبُ الخَبِيرَ، وَنَسْتَعْضِدُ الْبَرِيرَ، وَنَسْتَخْيِلُ الرِّهَامَ، وَنَسْتَجِيلُ الْجِهَامَ مِنْ أَرْضٍ عَالِيَةِ الشَّطَاءِ، غَلِيظَةِ الْوِطَاءِ، قَدْ نشف المدهن، ويبس الجعثن، وسقط الأمْلُوج، ومات العُسْلُوجُ، وَهَلَكَ الهزال، وفاد الودي، برئنا إليك يا رسول الله من الوَثَنِ والعَنَنِ، وما يحدث الزمن لنا دعوة المسلم وشريعة الإسلام ما طمى البحر وقام يعار، ولنا نعم همل أغفال، ما تبض ببلال ووفير كثير الرسل، أصابتنا سنة حمراء مؤزلة أكدى فيها الزرع، وامتنع فيها الضرع، ليس بها علل ولا نهل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ بَارِكْ لَهُمْ، وَابْعَثْ لَهُمْ في مَحْضِهَا وَمَخْضِهَا وَمَذْقِهَا، وَابْعَثْ رَاعِيهَا في الدَّثْرِ بِيَانِعِ الثَّمَرِ، وَافْجُرْ لَهُمُ الثَّمَدَ، وَبَارِكْ لَهُمْ في الْمَالِ وَالْوَلَدِ "(١).

ثم كتب معه كتابًا نسخته: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلى بني نَهْدٍ، السلام على من آمن بالله ورسوله، من أقام الصلاة كان مؤمنًا، ومن آتى الزكاة كان مسلمًا، ومن شهد أن لا إله إلا الله لم يكتب غافلا، لكم بني نَهْدٍ في الوظيفة الفريضة، ولكم العارض الفرس، وذو العتاب الركوب، والفلو الضبيس، لا تمنع سرحكم، ولا تُعضد طلحكم، ولا يُحبس دركم، ما لم تضمروا الآماق، ولا تأكلوا الرباق، لا يُلطط في الزكاة، ولا يُلحا في الحُباة، ولا يُتثاقل عن الصلاة، من أقر بما في هذا الكتاب فله من رسول الله الوفاء بالعهد والذمة، ومن أبى فعليه الرِّبْوَةُ.

(١) أخرجه ابن الجوزى فى العلل المتناهية (١/ ١٨٤، رقم ٢٨٤).

فقال له علي رضي الله عنه: يا رسول الله؛ إنك لتُكلم وفودَ العرب بلسانٍ ما يُفْهَمُ أكثره، قال: إنَّ اللهَ أَدَّبَنِي فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي، وَنَشَأْتُ في بَنِي سَعْدٍ ".

ولقد لقيه وفد همدان مُقبلا من تبوك، وكان قد خرج إليها في حَرٍّ يُشبه قلب الصِّبِّ، ويُذيب دِمَاغَ الضَّبِّ، ومُقدمهم ذو المعشار مالك بن نمطٍ، فقال: يا رسول الله؛ قصبة من همدان من كل حاضر وبادٍ، أتوك على قُلُصٍ نواج مُتصلة بحبائل الإسلام، لا يأخذهم في الله لومة لائم من مخلافِ خارفٍ، وأقام عهدهم لا ينقص عن سنة ماحلٍ ولا سوداء عنقفير ما قام لعلع، وما جرى اليعفور بصلع، فكتب إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الكتاب: "من محمد رسول الله لمخلاف خارفٍ وأهل جناب الهضب وخفاف الرمل مع وافدها ذي المسعار مالك بن نمط، من أسلم من قومه على أن لهم فراعها ووهاطها وعزازها ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، يأكلون علافها، ويرعون عناقها، لنا من دفئهم وصرامهم ما سلموا بالميثاق والأمانة، ولهم من الصدقة الثلث والناب والفصيل والفارض الداجي والكيس الحوري، وعليهم فيه الضالع والقادح "[١]، وما زالت الوفود تقبل بعد إتيانها أفرادًا وأفواجًا، ولو رأيت من أهل العناد لجاجًا ثار كالجاجا، والرسول يُنعم ويحيز حتى ملأ عطاؤه مخلاة الآمِل الفقر بكفٍّ مَنْ لا يخاف الفقر.

ولقد كتب لأكيدر بن عبد الملك هذا كتاب: " من محمد رسول الله لأكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد بن الوليد سيف الله في دومة الجندل وأكنافها، إن له الضاحية من الضحل والبور والنعامي والأغفال والحلقة والسلاح، فلكم الصامت من النخل والمعين من المعمور بعد الخمس، لا يُعدل سارحتكم ولا يعد فاردتكم، ولا يحظر عليكم النبات، ولا يُؤخذ منكم إلا عُشر النبات، تقيمون الصلاة لوقتها، وتؤتون الزكاة بحقها، عليكم بذلك عهد الله وميثاقه "[٢].

---

(١) انظر: الفائق ٣/ ٤٣٣.

(٢) أخرجه ابن زنجويه في الأموال ٢/ ١٠٦.

وكتب لوائل بن حجر ولقومه: " من محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الأقبال العباهلة من أهل حضرموت، بإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، على البعير شاة، والتيمة لصاحبها، وفي الستون الخمس، لا خلاط ولا وراط، ولا سياق ولا شعار، ومن أجبى فقد أربى، وكلٌّ حرامٌ "(١).

فلما تكامل نصر المصطفى صلى الله عليه وسلم، جاءه الأجل وما نزل به لما فتح له النصر من مستغلق القهر بابًا بابا بداره دائر ما دارى دارا ولا حابى حابا، وقيل: قم يا مَنْ ثوى في الدنيا، فاستوف في الآخرة ثوابًا، وعنون خطاب الإشارة إلى رحيله كتابًا، ﴿فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣﴾ [النصر: ٣].

آخر الكتاب والحمد لله رب العالمين، وصلواته على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين، ووافق الفراغ منه على يد الفقير إلى الله تعالى محمد بن منصور... بن أحمد، الواعظ الموصلي، في يوم الأربعاء سادس عشري رجب، ليلة المعراج من سنة أربع وثلاثين وست مائة بالمدرسة البدرية، حامدًا لله، ومصليا على رسوله محمد وآله وصحبه أجمعين.

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه الكبير (٢٠/ ٣٣٦، رقم ٧٩٥).

فهرس المصادر والمراجع

إتحاف فضلاء البشر بالقراءات الأربعة عشر: للشيخ أحمد بن محمد البنا. تحقيق: الدكتور شعبان محمد إسماعيل. ط: عالم الكتب- بيروت ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م.

الإتقان في علوم القرآن: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني. القاهرة ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.

أحكام القرآن: للإمام الشافعي. (جمع البيهقي) بعناية الشيخ عبد الغني عبد الخالق. ط: دار الكتب العلمية- بيروت ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

أحكام القرآن: للجصاص. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت. مصورة عن طبعة الخلافة العثمانية.

أحكام القرآن: للكيا الهراس. تحقيق: موسى محمد علي، والدكتور عزت علي عطية. ط: دار الكتب الحديثة- القاهرة.

أحكام القرآن: لأبي: بكر العربي. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: عيسى البابي الحلبي- القاهرة، ١٣٩٤ هـ-.

أخبار مكة: للفاكهي. تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش. نشر: مكتبة النهضة- مكة المكرمة.

أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار: للأزرقي. تحقيق: رشدي الصالح. ط: دار الثقافة- مكة المكرمة ١٤٠٣ هـ-.

الأخبار الموفقيات: للزبير بن بكار. تحقيق: الدكتور سامي مكي العاني. نشر رئاسة ديوان الأوقاف- بغداد ١٩٧٣ م.

الأدب المفرد: للإمام البخاري. باعتناء محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت ١٤٠٩ هـ- ١٩٨٩ م.

الأزمنة وتلبية الجاهلية: لقطرب. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت ١٤٠٥ هـ-.

أساس البلاغة: للزمخشري. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٥ م.

أسباب النزول: للواحدي. تحقيق: سيد أحمد صقر. دار القبلة- جدة ١٤٠٧ هـ-.

الاستيعاب في معرفة الأصحاب: لابن عبد البر النمري. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: نهضة مصر القاهرة ١٩٦٠ م.

الاستغناء في أحكام الاستثناء: لشهاب الدين القرافي. تحقيق: الدكتور طه محسن. نشر: وزارة الأوقاف العراقية- بغداد- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

أسد الغابة في معرفة الصحابة: لابن الأثير. تحقيق: محمد إبراهيم البنا، ومحمد أحمد عاشور. دار الشعب- القاهرة- ١٩٧٠ م.

أسماء خيل العرب وأنسابها: للأسود الغندجاني. تحقيق: الدكتور محمد علي سلطاني. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٢ هـ-.

الأسماء والصفات: للبيهقي. تحقيق: عماد الدين أحمد حيدر. ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

إشارة التعيين في تراجم النحاة واللغويين: لعبد الباقي بن عبد المجيد اليماني. تحقيق: الدكتور عبد المجيد ذياب. نشر: مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية- الرياض- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الاشتقاق: لابن دريد. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون. ط: الخانجي- القاهرة- ١٩٥٨ م.

اشتقاق أسماء الله: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق: د. عبد الحسين المبارك. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ-.

الإصابة في معرفة الصحابة: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: نهضة مصر- القاهرة- ١٩٦٠ م.

إصلاح الوجوه والنظائر: للدامغاني. تحقيق: عبد العزيز سيد الأهل. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٩٨٥ م.

الأضداد: لأبي بكر ابن الأنباري. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: حكومة الكويت- ١٩٦٠ م.

أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن: للشيخ محمد الأمين الشنقيطي. طبعة الرياض- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

إعجاز القرآن: لأبي بكر الباقلاني. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: دار المعارف- مصر.

إعراب القرآن: لأبي جعفر النحاس. تحقيق: د. زهير غازي زاهد. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ-.

الأعلام: للأستاذ خير الدين الزركلي. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٩٨٤ م.

الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكنى والأنساب: للحافظ ابن ماكولا. باعتناء: عبد الرحمن بن يحيى المعلمي. نشر: محمد أمين دمج- بيروت- ١٩٦٢ م.

الأم: للإمام الشافعي. ط: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٣ هـ-.

الأمثال: لأبي عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: الدكتور عبد المجيد قطامش. نشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

الأموال: لأبي عبيد القاسم بن سلام. باعتناء الشيخ محمد خليل الهراس. ط: دار الفكر- بيروت- ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥ م.

إنباه الرواة على أنباء النحاة: للقفطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- القاهرة- ١٤٠١ هـ-.

الإنباه على قبائل الرواة: لابن عبد البر. تحقيق: إبراهيم الأبياري. ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الأنساب: لأبي نصر السمعاني. تحقيق: عبد الرحمن يحيى المعلمي وآخرين. نشر: محمد أمين دمج- بيروت- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.

الإنصاف في مسائل الخلاف: لأبي البركات بن الأنباري. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت- بدون تاريخ.

الأنواء: لابن قتيبة الدينوري. اعتنى بنشره: شارل بلا، ومحمد حميد الله. ط: دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد- الهند- ١٣٧٩ هـ- ١٩٥٦ م.

أنوار التنزيل تفسير البيضاوي.

الأيام والليالي والشهور: للفراء. تحقيق: إبراهيم الأبياري. ط: دار الكتاب المصري- القاهرة- ١٤٠٠ هـ-.

إيضاح الوقف والابتداء في كتاب الله عز وجل: لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري.

تحقيق: محيي الدين عبد الرحمن رمضان. من مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧١ م.

الإيضاح لناسخ القرآن ومنسوخه: لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: د. أحمد حسن فرحات. نشر: دار المنارة- جدة- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

البحر المحيط: لأبي حيان الأندلسي. ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣هـ-.

بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع: للإمام علاء الدين أبي بكر بن مسعود الكاساني. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

البداية والنهاية: للحافظ ابن كثير. تحقيق: أحمد أبو ملحم وعلي نجيب عطوى وفؤاد السيد ومهدي ناصر الدين وعلي عبد الستار. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ-.

البرهان في علوم القرآن: لبدر الدين الزركشي. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى البابي الحلبي- القاهرة.

البعث: لابن أبي داود السجستاني. تحقيق: أبي إسحاق الحويني الأثري. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

بغية الرائد لما تضمنه حديث أم زرع من الفوائد: للقاضي عياض. تحقيق: صلاح الدين بن أحمد الإدلبي، ومحمد الحسن أجانف، ومحمد عبد السلام الشرقاوي. من مطبوعات وزارة الأوقاف المغربية- ١٣٩٥ هـ- ١٩٧٥م.

بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى الحلبي، القاهرة- ١٣٨٤ هـ-.

بلدان الخلافة الشرقية: للمستشرق كي لسترنج. ترجمة: بشير فرنسيس وكوركيس عواد. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

البيان في غريب إعراب القرآن: لأبي البركات بن الأنباري. تحقيق: الدكتور طه عبد الحميد طه. ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

تاج العروس في شرح جواهر القاموس: للزبيدي. مطبعة حكومة الكويت- ١٣٨٥ هـ- ١٩٦٥ م.

تاج اللغة الصحاح.

التاريخ: ليحيى بن معين. تحقيق: د. أحمد محمد نور سيف. نشر: مركز البحث العلمي بجامعة الملك عبد العزيز- ١٣٩٩ هـ-.

تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي: للدكتور حسن إبراهيم حسن. نشر: مكتبة النهضة المصرية- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

تاريخ الأمم والملوك: للطبري. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٦١ م.

تاريخ بغداد: للخطيب البغدادي. ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

تاريخ جرجان: للسهمي. باعتناء: الدكتور محمد عبد المعيد خان. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

تاريخ دولة آل سلجوق: لعماد الدين الأصفهاني. اختصار: الفتح بن علي البنداري. نشر: شركة طبع الكتب العربية- القاهرة- ١٣١٨ هـ- ١٩٠٠ م.

التاريخ الكبير: للإمام البخاري. ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٧ هـ- مصورة عن الطبعة الأولى بحيدرآباد- الهند- ١٣٦١ هـ-.

تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. ط: دار التراث- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

التبصرة في القراءات: لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: الدكتور محي الدين رمضان. من منشورات معهد المخطوطات العربية- الكويت- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م.

التبيان في إعراب القرآن: لأبي البقاء العكبري. تحقيق: علي محمد البجاوي. ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٦ هـ-.

تحفة الأريب: لأبي حيان الأندلسي. تحقيق: د. سمير المجذوب. ط: المكتب الإسلامي.

تحفة الفقهاء: لعلاء الدين السمرقندي. تحقيق: الدكتور محمد زكي عبد البر. نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

تخريج الدلالات السمعية على ما كان في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية: لعلي بن محمد الخزاعي. تحقيق: الدكتور إحسان عباس. ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م.

تذكرة الأريب في تفسير الغريب: لابن الجوزي. تحقيق: الدكتور علي حسين البواب. نشر: مكتبة المعارف- الرياض- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م.

تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب: لداود بن عمر الأنطاكي. ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٩٥٢ هـ-.

تذكرة الحفاظ: للحافظ الذهبي. باعتناء: الشيخ عبد الرحمن بن يحيى المعلمي. ط: دار الفكر العربي.

التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة: لأبي عبد الله محمد بن أحمد القرطبي.

تحقيق: الدكتور أحمد حجازي السقا. نشر: مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ١٤٠٠ هـ- ١٩٨٠ م.

تعريف أهل التقديس بمراتب الموصوفين بالتدليس: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: الدكتور عبد الغفار سليمان البنداري، ومحمد أحمد عبد العزيز. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٤ م.

التعريفات: للشريف الجرجاني. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣ م.

التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء والأعلام: لأبي القاسم السهيلي. تحقيق: عبد مهنا. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٧هـ- ١٩٨٧ م.

تفسير آيات الأحكام: للشيخ محمد علي السائس. ط: محمد علي صبيح- القاهرة- ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٣ م.

تفسير ابن كثير: للحافظ ابن كثير. تحقيق: الأساتذة محمد إبراهيم البنا وعبد العظيم غنيم ومحمد أحمد عاشور. ط: الشعب- القاهرة- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠ م.

تفسير البغوي: تحقيق: خالد عبد الرحمن العك ومروان سوار. ط: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٦ هـ-.

تفسير البيضاوي: ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.

تفسير ابن أبي حاتم الرازي (سورة البقرة): تحقيق: أحمد عبد الله العماري الزهراني. نشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة، ودار طيبة بالرياض، ودار ابن القيم بالدمام- ١٤٠٨ هـ-. - وتفسير سورتي آل عمران والنساء: (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى. بتحقيق: حكمت بشير ياسين- ١٤٠٤-

١٤٠٥ هـ-. - وتفسير سورة الأنعام: بتحقيق: عبد الرحمن محمد الحامد. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٤- ١٤٠٥ هـ-. - وتفسير سورة الأعراف: بتحقيق: حمد أحمد أبي بكر. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٦ هـ-. - وتفسير سورتي الأنفال والتوبة: بتحقيق: عيادة أيوب الكبيسي. (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى- ١٤٠٦- ١٤٠٧ هـ-. - وتفسير سورة يوسف: بتحقيق: محمد عبد الكريم بنجابي. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٥ هـ-. - وتفسير سورتي النور والفرقان: بتحقيق: عمر يوسف حمزة. (رسالة دكتوراه) بجامعة أم القرى- ١٤٠٥- ١٤٠٦ هـ-. - وتفسير سورة الشعراء: بتحقيق: عبد الله حامد سمبو. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٦- ١٤٠٧ هـ-. - وتفسير سورة النمل: بتحقيق: نشأت محمود الكوجك. (رسالة ماجستير) بجامعة أم القرى- ١٤٠٤- ١٤٠٥ هـ-.

تفسير الطبري: لأبي جعفر محمد بن جرير الطبري. تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر. ط: دار المعارف بمصر- ١٣٧٤ هـ- وط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٨ م.

تفسير عبد الرزاق الصنعاني: تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد. طبعة على الآلة الكاتبة- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢ م.

تفسير غريب القرآن: لابن قتيبة. تحقيق: السيد أحمد صقر. تصوير: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٩٧٨ م.

تفسير غريب القرآن: لابن الملقن. تحقيق: سمير طه المجذوب. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٧ م.

تفسير الفخر الرازي: ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣ هـ-.

تفسير القرآن العظيم تفسير ابن كثير تفسير القرطبي: لأبي عبد الله محمد ابن أحمد الأنصاري القرطبي. تصوير: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

تفسير الماوردي: لأبي الحسن الماوردي. تحقيق: خضر محمد خضر. نشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية- الكويت- ١٤٠٢ هـ-.

تفسير المشكل من غريب القرآن العظيم على الإيجاز والاختصار: لمكي

ابن أبي طالب القيسي. تحقيق: هدى الطويل المرعشلي. ط: دار النور الإسلامي- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

تفسير النسائي (من السنن الكبرى): تحقيق: صبري عبد الخالق الشافعي، وسيد عباس الجليمي. نشر: مكتبة السنّة- القاهرة- ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.

تفسير النسفي: ط: دار إحياء الكتب العربية.

تقريب التهذيب: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: محمد عوامة. ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

التكميل والإتمام لكتاب التعريف والإعلام: لابن عسكر الغسّاني. تحقيق: حسين عبد الهادي محمد. رسالة دكتوراه بجامعة الإمام محمد بن سعود بالرياض- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

تنبيه البصائر في أسماء أم الكبائر: لابن دحية الأندلسي. نسخة مصورة بمكتبة الدكتور عبد الرحمن العثيمين. بمكة المكرمة.

تهذيب الألفاظ: لابن السكيت، والمهذّب أبو زكريا التبريزي. نشره: لويس شيخو. المطبعة الكاثوليكية- بيروت- ١٨٩٥ م.

تهذيب التهذيب: للحافظ ابن حجر. نشر: دار صادر- بيروت. مصورة عن الطبعة الأولى بالهند.

تهذيب اللغة: للأزهري. ط: الدار العربية- القاهرة- ١٣٨٤ هـ-.

التوكل على الله: للحافظ أبي بكر بن أبي الدنيا. تحقيق: جاسم فهيد الدوسري. ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

التيسير في القراءات السبع: لأبي عمرو الداني. عني بتصحيحه: أوتزل- مطبعة الدولة إستانبول- ١٩٣٠ م.

الثقات: لابن حبان البستي. نشر: دار الفكر- بيروت. مصورة عن الطبعة الأولى بحيدرآباد، الهند- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

ثلاثة كتب في الأضداد: (للأصمعي، والسجستاني، وابن السكيت). نشرها: الدكتور أوغست هفنر. ط: دار الكتب العلمية- بيروت.

جامع البيان تفسير الطبري.

الجامع الصغير في أحاديث البشير النذير: للسيوطي. ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٧٣ هـ-.

الجامع لأحكام القرآن تفسير القرطبي.

الجرح والتعديل: لأبي حاتم الرازي. نشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، مصورة عن الطبعة الأولى بدائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد.

جمل الغرائب (مخطوط): لبيان الحق النيسابوري. نسخة مصورة بمكتبة مركز البحث العلمي عن مكتبة الأسكوريال رقم (١٦٠٤).

الجمل في النحو: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق: علي توفيق الحمد. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الجمهرة: لابن دريد الأزدي. تحقيق: رمزي منير بعلبكي. ط: دار العلم للملايين- ١٩٨٧ م.

جمهرة الأمثال: لأبي هلال العسكري. تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش. ط: المؤسسة العربية الحديثة- القاهرة- ١٣٨٤هـ- ١٩٦٤ م.

جمهرة أنساب العرب: لابن حزم الأندلسي. تحقيق: الأستاذ عبد السلام هارون. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٢ م.

الجنى الداني في حروف المعاني: لابن قاسم المرادي. تحقيق: طه محسن. ط: مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر- العراق- ١٣٩٦ هـ- ١٩٧٦ م.

جوامع السيرة: لابن حزم الأندلسي. تحقيق: الدكتور إحسان عباس، والدكتور ناصر الدين الأسد. ط: دار المعارف بمصر.

الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية: لعبد القادر بن محمد القرشي. تحقيق: الدكتور عبد الفتاح محمد الحلو. ط: عيسى البابي الحلبي- ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨ م.

حاشية الخرشي على مختصر خليل ط: دار صادر- بيروت.

حاشية الهيثمي على الإيضاح: نشر: المكتبة السلفية بالمدينة المنورة.

الحجة للقراءات السبعة: لأبي علي الفارسي. تحقيق: بدر الدين قهوجي، وبشير جويجاتي. ط: دار المأمون للتراث- دمشق- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

حجة القراءات: لأبي زرعة عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة. تحقيق: سعيد الأفغاني. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

حروف المعاني: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق: الدكتور علي توفيق الحمد. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الحلبة في أسماء الخيل في الجاهلية والإسلام: للصاحبي التاجي. تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م.

حلية الأولياء وطبقات الأصفياء: للحافظ أبي نعيم الأصفهاني. نشر: دار الفكر- بيروت.

خزانة الأدب: للبغدادي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: الخانجي- القاهرة.

الخصائص: لأبي الفتح ابن جني. تحقيق: محمد علي النجار. ط: عالم الكتب- بيروت.

الخيل (مطلع اليمن والإقبال في انتفاء كتاب الاحتفال): لعبد الله بن محمد بن جزي الكلبي الغرناطي. تحقيق: محمد العربي الخطابي. ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الدارس في تاريخ المدارس: لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي. تحقيق: جعفر الحسني. ط: مكتبة الثقافة الدينية- القاهرة- ١٩٨٨ م.

الدر المصون في علوم الكتاب المكنون: للسمين الحلبي. تحقيق: الدكتور أحمد الخراط. ط: دار القلم- دمشق- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الدر المنثور في التفسير المأثور: للحافظ جلال الدين السيوطي. ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٣ هـ-.

الدعاء: للطبراني. تحقيق: الدكتور محمد سعيد البخاري. ط: دار البشائر الإسلامية- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

دلائل النبوة: للحافظ أبي نعيم الأصبهاني. تحقيق: محمد رواس قلعجي. ط: المكتبة العربية بحلب- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧٠ م.

دلائل النبوة: للبيهقي. تحقيق: د. عبد المعطي قلعجي. نشر: دار العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ-.

ديوان جرير: تحقيق: د. نعمان طه. ط: دار المعارف- القاهرة.

ديوان العجاج: شرح الأصمعي. تحقيق: الدكتور عزة حسن. مكتبة دار الشروق- بيروت- ١٩٧١ م.

ديوان القطامي: تحقيق: إبراهيم السامرائي وأحمد مطلوب. بيروت- ١٣٧٩ هـ- ١٩٦٠ م.

ديوان النابغة الذبياني: تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعارف- بمصر- ١٩٧٧ م.

رصف المباني في حروف المعاني: للمالقي. تحقيق: الدكتور أحمد الخراط. ط: دار القلم- دمشق- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: للشيخ شهاب الدين الآلوسي. نشر: مكتبة التراث- القاهرة- بدون تاريخ.

الروض الأنف: للسهيلي. باعتناء: طه عبد الرؤوف سعد. نشر: دار المعرفة- بيروت- ١٣٩٨ هـ-.

الروض المعطار في خبر الأقطار. تحقيق: د. إحسان عباس. ط: مكتبة لبنان- بيروت- ١٩٨٤ م.

روضة الطالبين وعمدة المفتين: للإمام النووي. باعتناء: زهير الشاويش. ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الريح: لابن خالويه. تحقيق: الدكتور حسين محمد شرف. نشر: مكتبة إبراهيم الحلبي العلمية- المدينة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

زاد المسير في علم التفسير: لأبي الفرج ابن الجوزي. ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٤ هـ-.

-زاد المعاد في هدى خير العباد: لابن قيم الجوزية. تحقيق: شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الزاهر في معاني كلمات الناس: لأبي بكر بن الأنباري. تحقيق: الدكتور حاتم صالح الضامن. نشر: وزارة الثقافة بالعراق- ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

الزهد: للإمام وكيع بن الجراح. تحقيق: عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي. نشر: مكتبة الدار- المدينة المنورة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

الزهد: لعبد الله بن المبارك. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

الزهد: لهناد بن السري. تحقيق: محمد أبو الليث الخيرآبادي. نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي- قطر- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

السبعة في القراءات: لابن مجاهد. تحقيق: د. شوقي ضيف. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٤٠٠ هـ-.

سنن الترمذي: تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر- محمد فؤاد عبد الباقي- وإبراهيم عطوة عوض. ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٥ هـ-.

سنن الدارقطني: ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

سنن الدارمي: تحقيق: فواز أحمد زمرلي، وخالد السبع العلمي. نشر: دار الكتاب العربي- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

سنن أبي داود السجستاني: تعليق: عزت عبيد الدعاس. نشر: دار الحديث- حمص- سوريا- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩ م.

السنن الصغرى: للنسائي. باعتناء: الشيخ عبد الفتاح أبو غدة. ط: دار البشائر- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

السنن الكبرى: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. نشر: دار المعرفة- بيروت- مصورة عن الطبعة الأولى بالهند ١٣٤٤ هـ-.

سنن ابن ماجة: تحقيق: الأستاذ فؤاد عبد الباقي. نشر: دار الفكر- بيروت.

سير أعلام النبلاء: للحافظ شمس الدين الذهبي. تحقيق: جماعة من الأساتذة. ط: مؤسسة الرسالة- ١٩٨٢ م.

السيرة: لابن هشام. تحقيق: الأساتذة مصطفى السقا، وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي. ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٧٥ هـ-.

شذرات الذهب في أخبار من ذهب: لابن العماد الحنبلي. تحقيق: محمود الأرناؤوط. نشر: دار ابن كثير- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

شرح العقيدة الطحاوية: للقاضي علي بن علي بن محمد بن أبي العز الدمشقي. تحقيق: بشير محمد عيون. نشر: مكتبة دار البيان- دمشق- ١٤٠٥هـ- ١٩٨٥ م.

شرح فتح القدير للعاجز الفقير: لابن الهمام الحنفي. تصوير: دار إحياء التراث العربي- بيروت عن طبعة بولاق.

شرح كلا وبلى ونعم: لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات. ط: دار المأمون- دمشق- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٣ م.

شرح ما يقع فيه التصحيف: لأبي أحمد العسكري. تحقيق: عبد العزيز أحمد. مطبعة: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣ م.

شعب الإيمان: للإمام أبي بكر أحمد بن الحسين البيهقي. تحقيق: أبي هاجر محمد السعيد بن بسيوني زغلول. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ١٤١٠ هـ- ١٩٩٠ م.

الشعر والشعراء: لابن قتيبة. تحقيق وشرح: الشيخ أحمد محمد شاكر. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٨٢ م.

الشفا بتعريف حقوق المصطفى: للقاضي عياض. تحقيق: علي محمد البجاوي. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٤٠٤ هـ-.

شفاء الغرام في أخبار البلد الحرام: لتقي الدين محمد بن أحمد الفاسي لمكي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت.

الصحاح: للجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار. ط: دار العلم للملايين- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

صحيح البخاري: للإمام محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي. ط: المكتبة الإسلامية- إستانبول- ١٩٨١ م.

صحيح مسلم: للإمام مسلم بن الحجاج القشيري. تحقيق وترقيم: الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي. ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

صفة الجنة: للحافظ أبي نعيم الأصفهاني. تحقيق: علي رضا عبد الله. ط: دار المأمون للتراث- دمشق- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

صيد الخاطر: لأبي الفرج ابن الجوزي. تحقيق: عبد القادر أحمد عطا. نشر: مكتبة الكليات الأزهرية- القاهرة- ١٩٧٩ م.

الضعفاء الكبير: للعقيلي. تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

طبقات الأولياء: لابن الملقن. تحقيق: نور الدين شريبة. نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

طبقات الحفاظ: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: محمد علي محمد عمر. نشر: مكتبة وهبة- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

طبقات الشافعية الكبرى: للسبكي. تحقيق: د. محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح محمد الحلو. ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ-.

طبقات الصوفية: لأبي عبد الرحمن السلمي. تحقيق: نور الدين شريبة. نشر: دار الكتاب النفيس- حلب- سوريا- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

طبقات فحول الشعراء: لمحمد بن سلام الجمحي. تحقيق: الأستاذ محمود محمد شاكر. ط: المدني- القاهرة.

طبقات الفقهاء: لأبي إسحاق الشيرازي الشافعي. تحقيق: د. إحسان عباس. ط: دار الرائد العربي- بيروت- لبنان- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.

الطبقات الكبرى: لابن سعد. ط: دار صادر- بيروت.

طبقات المفسرين: للداودي. تحقيق: علي محمد عمر. نشر: مكتبة وهبة- القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

طبقات النحويين واللغويين: لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٣٩٢ هـ-.

ظهر الإسلام: تأليف: أحمد أمين. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان- ١٣٨٨ هـ- ١٩٦٩ م.

العباب الزاخر واللباب الفاخر: الصاغاني.

العبر في خبر من غبر: للحافظ الذهبي. تحقيق: د. صالح الدين المنجد وفؤاد سيد ومحمد رشاد عبد المطلب. نشر: وزارة الإعلام بالكويت ١٩٨٤ م.

عجالة المبتدي وفضالة المنتهي في النسب: للحافظ أبي بكر محمد بن أبي عثمان الحازمي الهمداني. تحقيق: عبد الله كنون. ط: الهيئة العامة لشئوون المطابع الأميرية- القاهرة- ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

عصمة الأنبياء: لفخر الدين الرازي. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠١ هـ.

العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين: للإمام أبي الطيب التقي الفاسي. ط: السنة المحمدية- القاهرة- ١٣٧٩ هـ-.

عمل اليوم والليلة: للإمام أحمد بن شعيب النسائي. تحقيق: الدكتور فاروق حمادة. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٥ م.

عمل اليوم والليلة: لابن السّني. تحقيق: بشير محمد عيون. نشر: مكتبة دار البيان- دمشق- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي. تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي. نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير: لابن سيد الناس. نشر: دار المعرفة- بيروت.

الغاية في القراءات العشر: للحافظ أبي بكر أحمد بن الحسين بن مهران. تحقيق: محمد غياث الجنباز. ط: شركة العبيكان- الرياض- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غاية النهاية في طبقات القراء: لابن الجزري. عني بنشره: ج. برجستراسر. تصوير: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٢ هـ-.

غرائب التفسير وعجائب التأويل: للشيخ محمود بن حمزة الكرماني. نشر: د. شمران سركال يونس العجلي. ط: مؤسسة علوم القرآن- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

غريب الحديث: لأبي عبيد القاسم بن سلام. ط: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٩٦ هـ- مصورة عن طبعة دائرة المعارف العثمانية بحيدرآباد- الدكن- الهند- ١٣٨٤ هـ-.

غريب الحديث: لابن قتيبة. تحقيق: د. عبد الله الجبوري. نشر: وزارة الأوقاف بالعراق- ١٣٩٧ هـ- ١٩٧٧ م.

غريب الحديث: للخطابي. تحقيق: عبد الكريم العزباوي. نشر: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة ١٤٠٢ هـ-.

غريب الحديث: لابن الجوزي. تحقيق: الدكتور عبد المعطي أمين قلعجي. ط: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غريب القرآن وتفسيره: لعبد الله بن يحيى اليزيدي. تحقيق: محمد سليم الحاج. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

غوامض الأسماء المبهمة الواقعة في متون الأحاديث المسندة: لابن بشكوال. تحقيق: د. عز الدين علي السيد ود. محمد كمال الدين عز الدين. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

الفائق في غريب الحديث: للزمخشري. تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى الحلبي- القاهرة.

فتح الباري بشرح صحيح البخاري: للحافظ ابن حجر العسقلاني. باعتناء: محب الدين الخطيب. ط: السلفية- ١٤٠١ هـ-.

الفتح السماوي بتخريج أحاديث تفسير القاضي البيضاوي: لزين الدين عبد الرؤوف المناوي. تحقيق: أحمد مجتبى بن نذير عالم السلفي. نشر: دار العاصمة- الرياض- ١٤٠٩ هـ-.

فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: لمحمد بن علي الشوكاني. ط: مصطفى الحلبي- القاهرة- ١٣٨٣ هـ-.

الفصيح: لأبي العباس ثعلب. تحقيق: الدكتور عاطف مدكور. ط: دار المعارف بمصر- ١٩٨٤ م.

فضائل القرآن: لأبي عبيد القاسم بن سلام. تحقيق: محمد تجاني جوهري. (رسالة ماجستير) بجامعة الملك عبد العزيز، ١٣٩٣ هـ- ١٩٧٣ م.

الفهرست: للنديم. تحقيق: رضا تجدد. ط: طهران- ١٣٩١ هـ- ١٩٧١ م.

فيض القدير شرح الجامع الصغير: للشيخ عبد الرؤوف المناوي. نشر: دار إحياء السنة النبوية- القاهرة.

القاموس المحيط: لمجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

القطع والائتناف: لأبي جعفر النحاس. تحقيق: الدكتور أحمد خطاب العمر. نشر: وزارة الأوقاف بالعراق- ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة: للحافظ الذهبي. تحقيق: عزت علي عيد عطية، وموسى محمد علي. ط: دار الكتب الحديثة- القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

الكافي الشاف في تخريج أحاديث الكشاف: للحافظ ابن حجر العسقلاني. مطبوع بذيل الكشاف. ط: دار المعرفة- بيروت.

الكافي في فقه الإمام المبجل أحمد بن حنبل: لابن قدامة المقدسي.

تحقيق: زهير الشاويش. ط: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

الكامل في الأدب: للمبرد. تحقيق: محمد أحمد الدالي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الكامل في التاريخ: لابن الأثير. ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٢ هـ-.

الكامل في ضعفاء الرجال: للحافظ أحمد عبد الله بن عدي. ط: دار الفكر- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

الكتاب: لسيبويه. تحقيق: عبد السلام هارون. مكتبة الخانجي بمصر- ١٩٧٧ م.

الكتاب المصنف: لابن أبي شيبة. تحقيق: عبد الخالق الأفغاني وآخرين. ط: الدار السلفية- الهند- ١٣٩٩ هـ- ١٩٧٩ م.

الكتاب المقدس: ط: دار الكتاب المقدس بمصر- ١٨٨٣ م.

الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: للزمخشري. مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر- ١٣٩٢ هـ-.

كشف الخفاء ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس: للشيخ إسماعيل ابن محمد العجلوني. تحقيق: أحمد القلاش. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون: لحاجي خليفة. ط: دار العلوم الحديثة- بيروت- ١٩٤١ م.

الكشف عن وجوه القراءات السبع وعللها وحججها: لمكي بن أبي طالب القيسي.

تحقيق: د. محيي الدين رمضان. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤هـ-.

الكواكب النيرات في معرفة من اختلط من الرواة الثقات: لابن الكيال. تحقيق: الدكتور عبد القيوم عبد رب النبي. نشر: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى- بمكة المكرمة- ١٤٠١ هـ- ١٩٨١ م.

اللباب في تهذيب الأنساب: لابن الأثير. ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٠ هـ-.

اللباب في الجمع بين السنة والكتاب: لابن المنبجي. تحقيق: د. محمد فضل عبد العزيز المراد. ط: دار الشروق- جدة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

لباب المناسك: للسندي. ط: دار الفكر- بيروت- بدون تاريخ.

لسان العرب: لابن منظور. ط: دار صادر- بيروت.

لسان الميزان: للحافظ ابن حجر العسقلاني. نشر: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات- بيروت- ١٣٩٠ هـ- ١٩٧١ م.

لغات القبائل الواردة في القرآن: لأبي عبيدة القاسم بن سلام. تحقيق: الدكتور عبد الحميد السيد طلب. نشر: جامعة الكويت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

المبين في شرح ألفاظ المتكلمين: لسيف الدين الآمدي. تحقيق: الدكتور حسن محمود الشافعي- القاهرة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

متشابه القرآن: للقاضي عبد الجبار الهمذاني. تحقيق: د. عدنان زرزور. نشر: دار التراث- القاهرة.

مجاز القرآن: لأبي عبيدة معمر بن المثنى. تحقيق: د. فؤاد سزكين. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠١ هـ-.

مجالس ثعلب: شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: دار المعارف- القاهرة.

مجالس العلماء: لأبي القاسم الزجاجي. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

مجمع الأمثال: للميداني. تحقيق: الأستاذ محمد أبو الفضل إبراهيم. ط: عيسى الحلبي- القاهرة- ١٣٩٨ هـ-.

مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر: لعبد الله بن محمد بن سليمان (داماد أفندي). نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: للحافظ الهيثمي. نشر: مؤسسة المعارف- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦.

مجمل اللغة: لابن فارس. تحقيق: عبد المحسن سلطان. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ-.

مجموع فتاوى شيخ الإسلام: ابن تيمية. جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم النجدي.

المجموع المغيث في غريبي القرآن والحديث: للحافظ أبي موسى المديني. تحقيق: عبد الكريم العزباوي. نشر: مركز البحث العلمي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المحبر: لابن حبيب البغدادي. باعتناء: د. إيلزه ليختن شتير. نشر: دار الآفاق- بيروت.

المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات: لابن جني. تحقيق: عبد الحليم النجار، وعلي النجدي ناصف، وعبد الفتاح إسماعيل شلبي. نشر: دار سزكين للطباعة والنشر- تركيا- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية الأندلسي. ط: الشؤون الدينية بقطر وط: المغرب.

المحكم والمحيط الأعظم في اللغة: لعلي بن إسماعيل بن سيدة. ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٧٧ هـ-.

مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع: لصفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق البغدادي. تحقيق: علي محمد البجاوي. نشر: دار المعرفة- بيروت. مصورة عن الطبعة الأولى ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م.

مروج الذهب ومعادن الجوهر: لأبي الحسن المسعودي. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٣ هـ-.

لمزهر في علوم اللغة: للسيوطي. تحقيق: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم. نشر: دار التراث- القاهرة.

لمستدرك على الصحيحين: للحاكم النيسابوري. تصوير: دار الكتب العلمية- بيروت عن الطبعة الأولى بحيدرآباد بالهند.

لمستقصى في أمثال العرب: للزمخشري. نشر: دار الكتب العلمية- بيروت- ١٤٠٨ هـ- مصورة عن طبعة حيدرآباد بالهند.

المسلك المتقسط في المنسك المتوسط: للشيخ ملا علي قاري. ط: دار لفكر- بيروت.

المسند: للإمام أحمد بن حنبل. شرح: الشيخ أحمد محمد شاكر. ط: المعارف بمصر- ١٣٧٣ هـ- ١٩٥٤ م. وط: دار صادر- بيروت.

مسند الشهاب: للقاضي أبي عبد الله محمد بن سلامة القضاعي. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. نشر: مؤسسة الرسالة- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

مشارق الأنوار على صحاح الآثار: للقاضي عياض. ط: دار التراث- القاهرة وطبعة المغرب.

مشكل إعراب القرآن: لمكي بن أبي طالب القيسي. تحقيق: د. حاتم صالح الضامن. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

مصباح الزجاجة في زوائد ابن ماجة: للحافظ شهاب الدين أحمد بن أبي بكر البوصيري. تحقيق: كمال يوسف الحوت. نشر: مؤسسة الكتب الثقافية- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المصنف: للإمام عبد الرزاق الصنعاني. تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي. نشر: المكتب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية: للحافظ ابن حجر العسقلاني. تحقيق: الشيخ حبيب الرحمن الأعظمي. نشر: دار المعرفة- بيروت.

المعارف: لابن قتيبة. تحقيق: د. ثروت عكاشة. ط: دار المعارف- القاهرة- ١٩٨١ م.

معالم التنزيل تفسير البغوي.

معاني القرآن: للفراء. الجزء الأول بتحقيق: أحمد يوسف نجاتي ومحمد علي النجار.

والثاني بتحقيق: محمد علي النجار. والثالث بتحقيق: الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي. ط: دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٣٧٤ هـ- ١٩٥٥ م.

معاني القرآن: للأخفش. تحقيق: الدكتور عبد الأمير محمد أمين الورد. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

معاني القرآن: لأبي جعفر النحاس. تحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني. نشر: معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي بجامعة أم القرى بمكة المكرمة- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

معاني القرآن وإعرابه: لأبي إسحاق الزجاج. تحقيق: الدكتور عبد الجليل شلبي. ط: عالم الكتب- بيروت- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

معجم الأدباء: لياقوت الحموي. نشر: دار إحياء التراث العربي، مصورة عن طبعة دار المأمون- القاهرة- ١٣٥٥ هـ- ١٩٣٦ م.

معجم البلدان: لياقوت الحموي. ط: دار صادر- بيروت- ١٤٠٤ هـ-.

معجم شواهد العربية: للأستاذ عبد السلام هارون. نشر: مكتبة الخانجي- القاهرة- ١٣٩٢ هـ- ١٩٧٢ م.

معجم القراءات القرآنية: إعداد: الدكتور عبد العال سالم مكرم، والدكتور أحمد مختار عمر. من مطبوعات جامعة الكويت- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٢م.

المعجم الكبير: للحافظ أبي القاسم الطبراني. تحقيق: حمدي عبد المجيد السلفي. ط: إحياء التراث الإسلامي، وزارة الأوقاف، الجمهورية العراقية.

معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع: لأبي عبيد البكري الأندلسي. تحقيق: مصطفى السقا. نشر: عالم الكتب- بيروت. مصورة عن الطبعة الأولى- القاهرة- ١٣٦٤ هـ-.

معجم المصطلحات النحوية والصرفية: للدكتور محمد سمير نجيب اللبدي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

معجم مصنفات القرآن الكريم: للدكتور علي شواخ إسحاق. نشر: دار الرفاعي- الرياض- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

معجم المفسرين: لعادل نويهض. نشر: مؤسسة نويهض الثقافية- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

معجم المؤلفين: لعمر رضا كحالة. ط: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

المعرب: لأبي منصور الجواليقي. تحقيق: الشيخ أحمد محمد شاكر. ط: دار الكتب المصرية- القاهرة- ١٣٨٩ هـ- ١٩٦٩ م.

المعرفة والتاريخ: لأبي يوسف يعقوب بن سفيان الفسوي. تحقيق: الدكتور أكرم ضياء العمري. نشر: مكتبة الدار بالمدينة المنورة- ١٤١٠ هـ-.

معرفة القراء الكبار على طبقات الأعصار: للحافظ الذهبي. تحقيق: بشار عواد معروف، وشعيب الأرناؤوط، وصالح مهدي عباس. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

المغازي: للواقدي. تحقيق: د. مارسدن جونس. عالم الكتب، بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار (الجزء السادس عشر). تحقيق: أمين الخولي. ط: دار الكتب- القاهرة- ١٣٨٠ هـ- ١٩٦٠ م.

المغني في الضعفاء: للحافظ الذهبي. تحقيق: الدكتور نور الدين عتر. نشر: إدارة إحياء التراث الإسلامي بدولة قطر- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٧ م.

مغني اللبيب عن كتب الأعاريب: لابن هشام الأنصاري. تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. نشر: دار الباز- مكة المكرمة، بدون تاريخ.

مغني المحتاج إلى معرفة معاني ألفاظ المنهاج: للخطيب الشربيني. ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٧٧ هـ- ١٩٥٨ م.

مفاتيح الغيب تفسير الفخر الرازي.

مفحمات الأقران في مبهمات القرآن: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: إياد خالد الطباع. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

المفردات في غريب القرآن: للراغب الأصفهاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨١ هـ- ١٩٦١ م.

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين: لأبي الحسن علي بن إسماعيل الأشعري. تحقيق: هلموت ريتر. نشر: دار إحياء التراث العربي- بيروت.

مقاييس اللغة: لابن فارس. تحقيق: عبد السلام محمد هارون. ط: الخانجي- القاهرة- ١٤٠٢ هـ- ١٩٨٣ م.

المقتضب: لمحمد بن يزيد (المبرد). تحقيق: الشيخ محمد عبد الخالق عضيمة. نشر: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية- القاهرة- ١٣٩٩ هـ-.

المقصور والممدود: للفراء. تحقيق: ماجد الذهبي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

المكتفي في الوقت والابتداء: لأبي عمرو الداني. تحقيق: الدكتور يوسف عبد الرحمن المرعشلي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

ملاك التأويل القاطع بذوي الإلحاد والتعطيل في توجيه المتشابه اللفظ من آي التنزيل: لابن الزبير الغرناطي. تحقيق: سعيد الفلاح. ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٣ هـ- ١٩٨٣ م.

الملل والنحل: للشهرستاني. تحقيق: محمد سيد كيلاني. ط: دار المعرفة- بيروت- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

المنتظم في تاريخ الملوك والأمم: لأبي الفرج ابن الجوزي. تصوير: دار صادر- بيروت عن طبعة دائرة المعارف العثمانية. حيدرآباد- الهند.

المهذب فيما وقع في القرآن من المعرب: للحافظ جلال الدين السيوطي. تحقيق: الدكتور التهامي الراجي الهاشمي. من مطبوعات اللجنة المشتركة لنشر التراث الإسلامي بين المغرب والإمارات.

المؤتلف والمختلف: للدارقطني. تحقيق: الدكتور موفق عبد الله عبد القادر. ط: دار الغرب الإسلامي- بيروت- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

ميزان الاعتدال في أسماء الرجال: للحافظ الذهبي. تحقيق: علي محمد البجاوي. تصوير: دار المعرفة- بيروت.

الناسخ والمنسوخ: لأبي جعفر النحاس. تحقيق: الدكتور شعبان محمد إسماعيل. نشر: مكتبة عالم الفكر- القاهرة- ١٤٠٧ هـ- ١٩٨٦ م.

الناسخ والمنسوخ: للقاضي أبي بكر بن العربي. تحقيق: د. عبد الكبير العلوي المدغري. نشر: وزارة الأوقاف المغربية- ١٤٠٨ هـ- ١٩٨٨ م.

النخل: لأبي حاتم السجستاني. تحقيق: الدكتور إبراهيم السّامرائي. ط: مؤسسة الرسالة- بيروت- ١٤٠٥ هـ- ١٩٨٥ م.

النشر في القراءات العشر: لمحمد بن محمد الجزري. تحقيق: د. محمد سالم محيسن. نشر: مكتبة القاهرة- بدون تاريخ.

النكتب والعيون تفسير الماوردي.

نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين: للأستاذ محمد عبد الله عنان. ط: لجنة التأليف والترجمة والنشر- القاهرة- ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٦ م.

النهاية في غريب الحديث والأثر: لابن الأثير. تحقيق: طاهر أحمد الزاوي، ومحمود محمد الطناحي. ط: دار إحياء الكتب العربية- القاهرة- ١٣٨٣ هـ- ١٩٦٣ م.

نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج: لشهاب الدين الرّملي. ط: مصطفى البابي الحلبي- القاهرة- ١٣٨٦ هـ- ١٩٦٧ م.

النوادر: لأبي زيد الأنصاري. تعليق: سعيد الخوري الشرتوني. نشر: دار الكتاب العربي- بيروت- ١٣٨٧ هـ- ١٩٦٧ م.

نواسخ القرآن: لابن الجوزي. تحقيق: محمد أشرف علي الملباري. من مطبوعات الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة- ١٤٠٤ هـ- ١٩٨٤ م.

نور المسرى في تفسير آية الإسراء: لأبي شامة المقدسي. تحقيق: الدكتور علي حسين البواب. نشر: مكتبة المعارف- الرياض- ١٤٠٦ هـ- ١٩٨٦ م.

الهداية شرح بداية المبتدي: للمرغيناني. نشر: المكتبة الإسلامية- بيروت.

هدية العارفين: لإسماعيل باشا البغدادي. نشر: دار العلوم الحديثة- بيروت. مصورة عن مطبعة إستانبول- ١٩٥٥ م.

وضح البرهان في مشكلات القرآن (مخطوط) : لبيان الحق النيسابوري. نسخة مصورة بمكتبة مركز البحث العلمي عن مكتبة شستربتي.

وفيات الأعيان وإنباء أبناء الزمان: لابن خلكان. تحقيق: د. إحسان عباس. ط: دار صادر- بيروت- ١٣٩٨ هـ- ١٩٧٨ م.

فهرس المحتويات

الفقير إلى عفو ربه
أحمد أبو زيد كامل

AL-MUNTAHAB FĪ AL-NUWAB

THE EXEGESIS OF SOME SELECTED VERSES OF THE HOLY QUOR'AN

by

Jamaluddine Abou Al-Faraj Ibn Al-Jawzi

(D. 597H.)

edited by

Oussama Abdul 'Azim

